

للنبي محمد صلى الله عليه وسلم

(هذا البحث رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الماجستير)

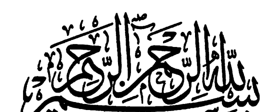
إشراف
أ.د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي
مشرفاً رئيساً

إشراف
د. صالح صواب
مشرفاً مشاركاً

إعداد
رشيد منصور محمد الصباحي
عفا الله عنه





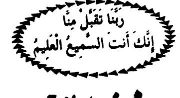

بسم الله الرحمن الرحيم

عرض منهج القرآن في

التربية الربانية

للنبي محمد صلى الله عليه وسلم





الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٥٢٠٤

الترقيم الدولي
977-331-457-X





١٧، ١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - اسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠١٠٥٤١١٩١ - ٠٢٠٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

شكـــر ودعـــاء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشكره سبحانه القائل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، والصلاة والسلام على خير رسله - ﷺ - القائل : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [١]

وبعد :

فلئن عجزت عن شكر الشيخ الدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي - حفظه الله - فلن أعجز - بعون الله - عن دعوات له في ظهر الغيب على تفضله بالإشراف على هذا البحث - رغم كثرة مشاغله - وقيامه بتوجيه الباحث بروح الأب مع ولده ، وحرص المربي على تلميذه ، فلقد استفدت منه - حفظه الله - أضعاف ما يتعلق بالرسالة،مما يرتبط بتعظيم القرآن العظيم،والتادب مع النبي الكريم - ﷺ - ، وذلك أثناء دراستي لمنهج القرآن في تربية النبي ﷺ .

وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتور صالح صواب - رئيس قسم الدراسات الإسلامية - على قبوله الإشراف على هذا البحث كمشرف مشارك .

وأشكر القسم ممثلاً في أساتذتي، رئيسه وأعضاء هيئة التدريس ، وكذلك عمادة كلية الآداب ممثله بعميدها الدكتور حسين الباكري ونائبه للدارسات العليا والبحث العلمي الدكتور محمد الشجاع على ما يبذلونه من جهود في سبيل التعليم .

وأتوجه بالشكر العميم إلى جامعة صنعاءممثلة برئيسها أ/د/ ناصر عبد الله العولقي، ونيابة شئون الدراسات العليا ممثلة بـأ/د/ توفيق سفيان ، وجميع

---

(١) رواه أبو داود ٤٨١١ وابن حنبل ٢/٣٨٩ برقم ٧٩٢١ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤١٧ .

العاملين فيها على ما يبذلونه من جهود في سبيل تذليل الصعاب أمام الباحثين من الطلاب .

ولا يفوتني شكر القائمين على مركز الدعوة العلمي في صنعاء - الصرح الشامخ - وأمناء مكتبته - النموذجية المثالية - على جهودهم معي في سبيل إنجاز هذا البحث ، وأشكر كل من هيأ لي أسباب ذلك منهم ومن غيرهم.

والشكر لله - أولاً وآخراً - صاحب الفضل العظيم ... هذا ما اجتهدتُ ووصلتُ إليه ، فإن أصبتُ فمن الله وحده،وإن لم فمن نفسي والشيطان ، وأستغفر الله وأتوب إليه .

الباحـــث

رشيد منصور محمد الصباحي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

مقدمة

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن القرآن الكريم كتاب الله عز وجل الذي ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت:٤٢] ، هو كتاب إعجاز للعالمين ، وهو أيضاً كتاب هداية وإرشاد للخلق أجمعين ، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة : ٢] .

وهذا الكتاب العظيم قد تناوله المفسرون والباحثون بأنواع عديدة من الدراسات القرآنية ؛ فمنهم من أخذ جانب التفسير التحليلي لآياته، ومنهم من درس أحكامه الشرعية، ومنهم من تناول جانب اللغة والإعجاز البياني ...،

وهكذا حتى تعددت وتنوعت الدراسات التي تناولت القرآن الكريم بالشرح والتحليل والاستقراء والاستنباط، وأثْرَت المكتبة الإسلامية بانواع عديدة من الدراسات القرآنية ، سواءً ما يتعلق بالتفسير أو الفقه أو الأصول أو غير ذلك كالسيرة النبوية التي سجلها القرآن الكريم وسطَّر أحداثها في صفحاته.. على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وهذا القرآن ، كما أنه كتاب توثيق صحيح لأحداث التاريخ سندا ومتناً ، هو كذلك كتاب تزكية وتربية للإنسان جسداً وروحًا،وذلك على يد رسول الله ﷺ التي كانت حياته أصدق ترجمة له، وصدق الله القائل: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة:٢] .

ولا شك أن رسول الله ﷺ ، قبل أن يقوم بمهمة التربية والتقويم لمن حوله من الصحابة الكرام ﷺ ، وقبل قيامه أيضًا بمهمة الدعوة لمن حوله من المشركين وأهل الكتاب بل للعالمين أجمعين ، لا شك أنه ﷺ كان في نفس اللحظة،وأثناء تنزل آيات القرآن الكريم كان يأخذ حظه الشامل الكامل من التربية الربانية القرآنية ، وصدق الله القائل :﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء :١١٣] .

لذلك (**كان خُلقه القران**) (١)، كما قالت السيدة عائشة ﷺ، فآتت هذه التربية من الله للرسول محمد ﷺ أُكُلها في إعداد شخصيته، وبناء حياته الفردية والأُسرية والجماعية والاجتماعية، بل وفي ضمان الفوز في الدنيا والآخرة حتى صدق فيه قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ومثل هذه التربية الربانية من الله لرسوله ﷺ جديرة بأن يتناولها الباحثون بالدراسة والتحليل ، لاستخراج ما فيها من مناهج ووسائل تربوية ربانية كاملة

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ٣٠٨ ، والبيهقي في السُّنن الكبرى ٢ / ٤٩٩ .

شاملة تحقق ما يطمح إليه الربانيون في السّير إلى الله ـ عز وجل ـ وتنتهي بالعبد الى نيل رضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وبناءً على ذلك ، فإنه وفي طور البحث عن رسالة أتقدم بها لنيل درجة الماجستير من جامعة صنعاء ـ كلية الآداب ـ قسم الدراسات الإسلامية ـ فقد وقع اختياري على موضوع لاقى في النفس انشراحاً، ومن الغير تشجيعا وتاييداً ، وهو موضوع : « **التربية الربانية القرآنية للنبي محمد ﷺ** » .

أسباب اختيـــار الموضـــوع:

[١] حاجة المجتمع الإسلامي بشكل عام ، وجماعاته الإسلامية بشكل خاص الى دراسة متعمقة تبحث في منهج القرآن الكريم القويم في تربية النبيﷺ التربية الخاصة التي تلقاها من ربه خلال ثلاثة وعشرين عاماً هي فترة النبوة والرسالة ، والتي نقلت النبي ﷺ، من البشر السّوي إلى البشر الرسول القائد، وأهْدَت للبشرية خيرَ من وطئ الثرىﷺ ،فمثل هذه التربية تجعل أفراد وقيادات الجماعات الإسلامية والمجتمع المسلم بحاجة ماسة الى دراستها والاقتباس منها، للاستفادة من كل ذلك في تربية الذات وتربية الأتباع ، وتربية الغير من الصفوة والعامة .

[٢] كثرة الآيات القرآنية التي خاطبت النبي ﷺ بصورة فردية أو جماعية، وبصيغة الحاضر أو الغائب، وذلك لتربيته بأسلوب مباشر أو غير مباشر والتي تقارب الألف آيه ـ أعني سدس القرآن الكريم تقريباً ـ .

[٣] هذه الآيات ـ على حد علمي ـ لم تلق دراسة تربوية خاصة بجمع وتبويب وتفصيل وتحليل علمي تربوي وبصورة شرعية أكاديمية تربوية تفيد العاملين في مجال التربية الإسلامية .

أهمية وأهـــداف الدراسة :

تتضح أهمية دراسة هذا الموضوع في أن التربية التي تلقاها النبي ﷺ من ربه

عبر آيات القرآن الكريم ليست ـ أبداً ـ كغيرها من مناهج ووسائل التربية البشرية الأخرى ، وليست ثمار هذه التربية الربانية القرآنية للنبي محمد ﷺ كثمار التربية البشرية القاصرة لأفراد الجنس البشري إطلاقاً ؛ فهي فريدة في منهجها وأسلوبها وثمارها.

فتربية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ تختلف عن مناهج التربية الأخرى البشرية من حيث الابتداء والسير والانتهاء ، كما أن القائم بهذه العملية التربوية هو الذي خلق فسوَّى، من وصف نفسه بانه سبحانه حكيم عليم خبير، المتَّصف بجميع صفات العظمة والكمال،والذي تنزَّه عن كل نقص وعجز وعيب ـ سبحانه وتعالى ـ فتربية الله لنبيه ﷺ قد أخرجت للبشرية وأتحفت العالمين جميعاً بقدوة مطلقة في مجال الحياة الشخصية أو الرسالة الدعوية أو القيادة للبشرية ، وفيما يتعلق بالجسد والروح وذلك للوصول إلى الإنسان الصالح للدنيا والأخرى .

أما أهداف الدراسة فهي تهدف للإجابة عن التساؤلات التالية:

[١] ما هي أهمية القرآن الكريم التربوية للنبي ﷺ ؟ ، وما هي صورها ومجالاتها؟.

[٢] كيف مارس القرآن هذه التربية في إعداد وتأهيل النبي ﷺ لينقله من البشر السوى الى القدوة المطلقة؟ وما هي الأساليب التي استخدمها لذلك؟.

[٣] كيف يمكن الاستفادة من هذه الدراسة في واقع الأفراد والجماعات والمجتمعات الإسلامية المعاصرة ؟

حــدود البحث :

البحث يدور حول الفترة الزمنية التي كان القرآن الكريم يتنزل فيها على قلب النبي ﷺ في المرحلة المكية والمدنية، والتي استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً يسبقها فترة أو مرحلة إعداد النبي ﷺ قبل النبوة .

كما أن الدراسة تبحث في مجالات التربية التي تلقها النبي ﷺ من ربه بصورة عامة ، سواءً ما يتعلق بحايته الشخصية، أو رسالته الدعوية أو قيادته للبشرية .

منهج البحـــث :

[١] المنهج الاستقرائي.. وذلك باستقراء آيات القران الكريم التربوية الخاصة بالنبي ﷺ ، والتي أسهمت في تربيته بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

[٢] المنهج التحليلي.. وذلك بعمل دراسة خاصة لهذه الآيات من جانب تربوي وتحليلها لاستنباط ما فيها من معان ومفاهيم تربوية تتعلق بدراسة الموضوع.

طريقة العمل في البحث :

[١] الرجوع إلى القرآن الكريم ، وذلك لجمع الآيات المتعلقة بالنبي ﷺ ، ثم فرز وتصنيف هذه الآيات حسب مضمونها التربوي وبما يتوافق مع خطة البحث وفقراته .

[٢] العودة الى كتب التفسير بالمأثور والرأي المقبول ، لمعرفة أقوال أهل العلم في مدلول الآيات التي توضح مدى عناية المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بالنبي ﷺ إعداداً وتربية .

[٣] الاستفادة مما صح في كتب السُّنَّة، والسيرة النبوية مما يتصل بموضوع البحث .

[٤] الاستفادة من كتب التربية بشكل عام،ومؤلفات التربية الإسلامية بشكل خاص وذلك في تقسيم الموضوع وتبويبه بصورة علمية تربوية وغير ذلك.

[٥] القيام بعزو الآيات الى سورها .

[٦] غالبا ما أعتمد في روايات أسباب النزول على كتب الحديث الصحيحة ،

وكتب أسباب النزول المتخصصة في ذلك ، كأسباب النزول للواحدي ، والصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي ، ونادراً ما أعتمد على كتب التفسير التي تُعْنَي بالرواية كجامع البيان للطبري والدُّر المنثور للسيوطي .

[٧] قمتُ بعزو الأحاديث والآثار الى مصادرها ،ولم أذكر مرتبةً للحديث أو الآثار التي جاءت في الصحيحين أو في أحدهما ، لبلوغ رواياتهما أعلى درجات الصحة كما هو معلوم ، وما كان في غير الصحيحين غالباً ما أذكر حُكْم من حَكَم عليه ـ من المتأخرين خاصة كأحمد ـ شاكر والأرناؤوط والألباني والوادعي رحمهم الله جميعا .

[٨] كثيرا ما أقدم رواية مسلم على البخاري عندما تكون اشمل وأقرب لتوضيح المعنى المراد شرحه أو الاستدلال عليه .

[٩] إذا أطلقتُ عبارة مسلم أو البخاري فأعني بذلك روايتها في صحيحيهما، وما كان في غير ذلك كالأدب المفرد للبخاري أشرتُ إليه في الحاشية .

[١٠] عند تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الأصل، غالباً ما أذكر لها أكثر من راوٍ في الحاشية ، لكني أخص الراوي الأول بذكر الكتاب والباب ورقم الجزء والصفحة والحديث ـ خاصة ما ورد في الصحيحين ـ واكتفي برقم الجزء والصفحة أو الصفحة فقط لبقية الرواة .

[١١] عند الاستشهاد ببعض الأحاديث والآثار في الحاشية أكتفي براوٍ واحد مع ذكر رقم الجزء والصفحة، وأحياناً رقم الحديث .

[١٢] حاولتُ تخريج ما أمكن من روايات أهل التفسير والسيرة من كتب الحديث مع نقل الحكم عليها ما وجدت لذلك سبيلا ، وإن تعذَّر عليَّ ذلك اكتفيت بعزوها الى مراجعها .

[١٣] بالنسبة لما رواه الحاكم لم استشهد إلا بما وافقه عليه الذهبي.

[١٤] قد أستشهد بذكر الحديث الضعيف ـ وهذا نادر جداً ـ وذلك إذا كان غير متفق على ضعفه لدى كل أهل الحديث ، ولم أجد مثله في غيره .

[١٥] قد أذكر بعض الأحاديث والآثار الضعيفة إذا كانت ضمن عبارة اقتبستُها لأهل التفسير أو السيرة كحديث : (**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي** ...) مبيناً في الحاشية ضعف ذلك وحكم أهل الحديث فيه .

[١٦] إذا توافقت أقوال المفسرين في آية ما ، غالبا ما اعتمد قول المتقدمين منهم لاحتمال أن يكون المتأخر قد نقل عن المتقدم ـ كما هو فعل بعض أهل التفسير كالسيوطي ـ رحمه الله ـ .

[١٧] عند تعدد الأقوال في تفسير الآية أذكر الأقوال المرجوحة أحيانا أو غير المتعلقة بالموضوع في الحاشية ، أو أشير إلى ذلك .

[١٨] بيَّنتُ معنى كل كلمة أو عبارة غريبة وردت في صلب الموضوع، وذلك بالرجوع الى كتب اللغة العربية وغريب القرآن والآثار وشروحات الحديث للمتقدمين كفتح الباري لابن حجر وشرح النووي ، وقد أرجع إلى مختصرات بعض المتأخرين لما سبق كصحيح مسلم بمختصر شرح النووى لمحمد فؤاد عبد الباقي ، وصحيح البخاري باختصار د / مصطفى ديب البغا حيث اعتمد الأخير في اختصاره على الرجوع الى فتح الباري لابن حجر ، وعمدة القاري للبدر العيني ، وإرشاد الساري للعسقلاني.. كما اعتمدتُ على غير ذلك من شروحات الحديث وكتب اللغة والتفسير.

[١٩] ما اقتبسته نصًّا جعلتُه بين قوسين ،وأشرتُ الى مصدره في الحاشية وبيَّنْتُ ما كان فيه من تصرف باختصار، أو زيادة إن وُجدَ ذلك، وما اقتبسته بالمعنى ، أو يتبعه زيادات ثانوية لا تتصل بصلب الموضوع رقَّمْتُه وأشرتُ إليه في الحاشية بكلمة انظر ... وذكرت المصدر الأصلي له .

[٢٠] وضعتُ أقواساً خاصة بالآيات، وأخرى بالأحاديث، وثالثة بالآثار والأقوال المقتبسة .

[٢١] قد أستخدم طبعتين أحيانا للضرورة كمسند الإمام أحمد بن حنبل؛ حيث كانت الأولى غير محققة والثانية بتحقيق أحمد شاكر ، وقد أشرتُ في الحاشية لذلك عند تخريج الحديث .

[٢٢]عرَّفتُ المصادر والمراجع التي استفدت منها عند ذكرها لأول مرة فقط ، وبصورة رئيسة ، فإذا ذكرتها بصورة ثانوية في الحاشية لمزيد توثيق أو كررتُ الاقتباس منها في الأصل ذكرتها في الهامش بصورة مختصرة مكتفياً ببيان تفاصيلها فيما سبق، وفيما يلي من فهرس المراجع .

[٢٣] حاولتُ جاهداً البحث عن مكان وتاريخ ميلاد الأعلام الذين ترجمت لهم ، فلم أجد ذلك لبعضهم ، فاكتفيت بذكر مكان وتاريخ الوفاة لأكثرهم.

[٢٤] إنما ترجمت للأعلام الواردة في صلب الرسالة ، ولم أترجم لأعلام الكفر، وما ورد في مقدمة البحث أو الحاشية، على أني جعلت الترجمة عند ذكر المترجم له في أول مرة .

[٢٥] اعتمدتُ في الفهرسة على الترتيب الأبجدي لكل الفهارس ما عدا آيات القرآن الكريم اعتمدت في فهرستها على ترتيب السور والآيات في المصحف .

[٢٦] عندما قمتُ بالفهرسة الأبجدية لم أعتبر « ال » ولا « أبو» ولا « ابن » إذا لم تكن من أصل الكلمة .

[٢٧] عندما فهرستُ للأعلام اكتفيت بذكر الاسم ثلاثيًا ، وإلحاقه بما اشتهر به من لقب أو اسم أو كنيته.

[٢٨] استخدمت أثناء كتابة البحث بعض الرموز للاختصار ، وهي كالتالي :

- (أ.هـ) تعني : انتهى .
- (ت) تعني : سنة الوفاة .
- (د.ت) تعني : بدون تاريخ .
- (ج) تعني : الجزء .
- (ص) تعني : الصفحة .
- (ط) تعني : الطبعة .
- (ق. هـ) تعني : قبل الهجرة .
- (هـ) تعني : السنة الهجرية .
- (م) تعني : السنة الميلادية .

الصعـــوبـــات :

من أشد الصعوبات والمعوقات التي واجهتني في إنجاز الرسالة :-

- ندرة المؤلفات التي تناولَتْ جانب تربية القرآن للنبي ﷺ من منظار تربوي لجميع جوانب شخصيته ، فأكثر المؤلفات القديمة تحدثت عن سيرته سرداً ورواية دون تحليل واستنباط ، وأكثر المؤلفات الحديثة اتجهت نحو موضوع التربية الإسلامية بشكل عام دون تخصيص دراسات خاصة بالتربية القرآنية للنبي ﷺ بتحليل واستنباط ونحو ذلك ...

خطـــة البحـــث : اشتمل البحث على ما يلي:

« ثلاثة أبواب يسبقها فصل تمهيدي وتعقبها خاتمة » .

أما الفصل التمهيـــدي: فقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تحدثتُ فيه عن أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ دعويًا وتربويًا.

المبحث الثاني : تحدثتُ فيه عن الدراسات السابقة حول الموضوع .

المبحث الثالث : تحدثتُ فيه عن التعاريف والمصطلحات الواردة في عنوان الرسالة « التربية الربانية القرآنية للنبي ﷺ » .

وأما الباب الأول: فكان بعنوان « إعداد وتربية النبي ﷺ قبل النبوة » .

وقد اشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول: وهو بعنوان « الإعداد الجِبِلّي للنبي ﷺ قبل النبوة » :

وقد انضوى تحته مبحثان:

المبحث الأول : الإعداد الجِبِلّي للرسول ﷺ خَلْقًا ، تحدثتُ فيه عن سلامة حواسه ، ووفور أعضائه ، ورجاحة عقله ، وجاذبية منطقة ، ووضاءَة وجهه ، وأُمِّيَّته في القراءة والكتابة .

المبحث الثاني : الإعداد الجِبِلّي للرسول ﷺ خُلُقًا ، تحدثتُ فيه عن أصالة نسبه وطهارة عرقه ﷺ ، واتصافه بصفتي الصدق والأمانة ، وتحلّيه بخلق الحياء، وغير ذلك من الخلال الحميدة التي كان لها الأثر العظيم في تميزه بين قومه والعالمين أجمعين ـ ﷺ ـ .

الفصل الثاني : وهو بعنوان « الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ قبل النبوة » :

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ حال الطفولة وحتى المراهقة ، ذكرتُ فيه رضاعته، ونشاته في البادية، ورعيه للأغنام، وتعرضه لليتم والفقر في حياته، وسفره مع عمه أبى طالب، وأثر ذلك كله في إكسابه ما يلزم له وينفعه في نبوته ورسالته .

المبحث الثاني: الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ حال شبابه،وحتى بلوغه الأربعين من عمره، شرحتُ فيه مشاركة النبي ﷺ لقومه في بعض الأحداث الاجتماعية المُهمَّة ،كحلف الفضول، وحرب الفجار، وبناء الكعبة، وتجارته بمال

خديجة وزواجه بها ، وأثر هذا كله في إكسابه روح المسئولية الفردية والعامة .

الفصل الثالث: وهو بعنوان « الإعداد التأييدي للنبي ﷺ قبل النبوة »:

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: شق صدره لتطهير قلبه ﷺ .

المبحث الثاني: حفظه من التأثر بموروثات الجاهلية السيئة في فكره وسلوكه.

أما الباب الثاني: فهو صلب الرسالة وأصل عنوانها وأهم أبوابها، ولذلك كان أطولها، وهو بعنوان « تربية النبي ﷺ بعد النبوة » .

وقد اشتمل على أربعة فصول :

الفصل الأول : وهو بعنوان « تربية النبي ﷺ نفسيًا » :

وقد احتوى على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: الضمانات والبشارات المستقبلة..، وقد فصلتُ الكلام عن هذا في أربعة مطالب وهي :

- المطلب الأول: ضمان الحفظ والعصمة للنبي ﷺ في المرحلتين: المكية والمدنية.
- المطلب الثاني :ضمان النصر والغلبة على الكافرين في مكة والمدينة وما سواهما.
- المطلب الثالث: ضمان المعية الخاصة لرسول الله ﷺ من ربه ، وما في معناها.
- المطلب الرابع: ضمان المغفرة وعظيم المثوبة لرسول الله ﷺ من ربه.

المبحث الثاني: المؤيدات والمعززات الربانية..، وقد شرحت ذلك في خمسة مطالب هي :

- المطلب الأول: إجابة دعائه ﷺ .
- المطلب الثاني: تنزيل الملائكة عليه ﷺ .
- المطلب الثالث: وقوع المعجزات على يديه ﷺ .

● المطلب الرابع: تولى الرد على استفسارات المؤمنين وشبهات الكافرين .

● المطلب الخامس: تزكية النبي ﷺ والدفاع عنه .

المبحث الثالث: التثبيت الإلهي .

وقد بينّتُ ذلك من خلال أربعة مطالب هي:

● المطلب الأول: شرح قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

● المطلب الثاني: إنزال القرآن منجما على النبي ﷺ .

● المطلب الثالث: بيان بعض الحقائق المتعلقة بموقف الكفار من النبي ﷺ وموقفه ﷺ منهم دعوياً .

● المطلب الرابع: توجيه بعض الوصايا والمواعظ القرآنية لرسول الله ﷺ .

الفصل الثاني: وهو بعنوان (تربية النبي ﷺ عقلياً) .

وقد اشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: تربية الله للنبي ﷺ عقليا بصورة مباشرة .

وقد أوضحتُ ذلك في أربعة مطالب هي :

● المطلب الأول: دعوته للقراءة والتعلم وتعليمه عن طريق الوحي .

● المطلب الثاني: تكليف الله لرسوله ﷺ بمعاهدة القرآن الكريم .

● المطلب الثالث: تحذير الله لرسوله ﷺ من اقتفاء ما لا علم له به .

● المطلب الرابع: إمداد الله لرسوله ﷺ بالعلوم والمعارف اللازمة له .

المبحث الثاني: تربية الله للنبي ﷺ عقلياً بصورة غير مباشرة .

وقد شرحتُ ذلك في المطالب الخمسة التالية :

● المطلب الأول: تحصين عقل النبي ﷺ من الأوهام والخرافات والعقائد الباطلة .

● المطلب الثاني: ذم التقليد وإنكار التعطيل للعقول .

- المطلب الثالث: دعوة الإنسان لاستغلال عقله في النظر لآيات الله في الكون.
- المطلب الرابع : توجيه الإنسان لاستغلال عقله في النافع المفيد له
- المطلب الخامس: وضع المنهج العلمي الصحيح لتوظيف العقل.

الفصل الثالث: وهو بعنوان (تربية النبي ﷺ إيمانياً).

وقد احتوى على مبحثين :

المبحث الأول: مفاهيم حول الإيمان والتربية الإيمانية.

بيَّنتُ ذلك من خلال المطالب الأربعة التالية :

- المطلب الأول: تعريف الإيمان لغةً واصطلاحاً.
- المطلب الثاني: أركان الإيمان وشُعبه.
- المطلب الثالث: أهمية التربية الإيمانية للنبي ﷺ .
- المطلب الرابع: المقصود بالتربية الإيمانية القرآنية للنبي ﷺ .

المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ .

وشرحتُ ذلك من خلال المطالب الثلاثة التالية :

- المطلب الأول: منهج القرآن في تربية قلب النبي ﷺ وتزكيته .
- المطلب الثاني: منهج القرآن في تزكية لسانه ﷺ وقوله .
- المطلب الثالث: منهج القرآن في تزكية النبي ﷺ بشكل عام .

الفصل الرابع: وهو بعنوان (تربية النبي ﷺ أخلاقياً) .

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفاهيم عامة حول الأخلاق .

وقد تناولتُ ذلك في مطالب ثلاثة هي:

- المطلب الأول: تعريف الأخلاق وأنواعها .

- المطلب الثاني : أهمية التربية الأخلاقية في بناء الفرد والمجتمع .
- المطلب الثالث : مكانة الأخلاق الحسنة في الإسلام ومنهجه في طبع أهله عليها.

المبحث الثاني: التوجيهات القرآنية للنبي ﷺ في مجال التربية الأخلاقية .

شرحت ذلك من خلال خمسة مطالب هي :

- المطلب الأول : ما يتعلق بأخلاقه ﷺ مع ربه عز وجل .
- المطلب الثاني : ما يتعلق بتعامله ﷺ مع الطائفة المؤمنة وقيادته لها.
- المطلب الثالث : ما يتعلق بدعوته ﷺ ومواجهته للطائفة الكافرة ومواجهته لها.
- المطلب الرابع : ما يتعلق بتعامله ﷺ مع عامة الناس.
- المطلب الخامس : ما يتعلق بأخلاقه الشخصية في نفسه ﷺ .

المبحث الثالث: الأوصاف القرآنية لأخلاق النبي ﷺ .

تناولتُه من خلال المطلبين التاليين :

- المطلب الأول : وَصْفُ القرآن لرسول الله ﷺ بخلال حميدة بشكل خاص .
- المطلب الثاني : تأكيد القرآن على عظمة أخلاق النبي ﷺ بشكل عام .

أما الباب الثالث والأخير : فكان بعنوان «أساليب القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ »

وقد اشتمل على فصلين :

الفصل الأول : وهو بعنوان «أساليب القرآن المباشرة في تربية النبي ﷺ ».

وقد اشتمل على خمسه مباحث :

المبحث الأول : أسلوب الوعظ والإرشاد للنبي ﷺ بالأمر والنهي.

وقد أوضحتُ ذلك في المطلبين التاليين :

- المطلب الأول : وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ بالأمر والنهي في مجال التربية الإيمانية.
- المطلب الثاني :وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ بالأمر والنهي في مجال التربية الأخلاقية.

المبحث الثاني: أسلوب الترغيب والترهيب للنبي ﷺ .

وقد قسمتُ ذلك إلى المطلبين التاليين :

- المطلب الأول: استخدام القرآن لأسلوب الترغيب في تربية النبي ﷺ .
- المطلب الثاني: استخدام القرآن لأسلوب الترهيب في تربية النبي ﷺ .

المبحث الثالث: أسلوب الدعوة لطلب الاعتبار والاتعاظ مما فيه عظة وعبرة .

حيث شرحت ذلك من خلال مطلبين هما :

- المطلب الأول: دعوة القرآن للنبي ﷺ إلى الاعتبار والاتعاظ بآيات الله وسننه الكونية ، ومظاهر قدرته وعظمته وألوهيته .
- المطلب الثاني: دعوة القرآن للنبي ﷺ الى الاعتبار والاتعاظ بعقوبات الله القدرية والشرعية على الكفار في الدنيا والآخرة .

المبحث الرابع: أسلوب التذكير بنعم الله على رسوله ﷺ في نفسه وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وقد قسمتُ ذلك إلى مطلبين هما :

- المطلب الأول: تذكير القرآن للنبي ﷺ بنعم الله عليه في نفسه .
- المطلب الثاني: تذكير القرآن للنبي ﷺ بنعم الله عليه في صحابته ـ رضي الله عنهم ـ .

المبحث الخامس: أسلوب العتاب اللطيف .

وقد فصلتُ ذلك من خلال مطلبين هما:

- المطلب الأول: عتاب القرآن للنبي فيما يتعلق بشئونه الشخصية والدعوية .
- المطلب الثاني: عتاب القرآن للنبي ﷺ فيما يتعلق بشئونه الحربية .

الفصل الثاني: وهو بعنوان « أساليب القرآن غير المباشرة في تربية النبي ﷺ » .

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: استخدام القرآن لأسلوب ضرب الأمثال في تربية النبي ﷺ عقلياً .

وقد شرحتُ ذلك في مطلبين هما :

❁ المطلب الأول: تربية القرآن للنبي ﷺ بضرب الأمثال لما يُراد تحقيره والتنفير عنه.

❁ المطلب الثاني: تربية القرآن للنبي ﷺ بضرب الأمثال لما يُراد توضيحه وتعظيمه وتحبيبه والدفع إليه .

المبحث الثاني : استخدام القرآن لأسلوب ذكر القصص لتربية النبي ﷺ نفسياً.

المبحث الثالث: تربية القرآن للنبي ﷺ بالتشريع المتدرج .

وقد شرحتُ ذلك في المطلبين التاليين :

❁ المطلب الأول: التدرج في التربية الإيمانية للنبي ﷺ في الصلوات الخمس .

❁ المطلب الثاني: التدرج في التربية الإيمانية الجهادية للنبي ﷺ .

ثم ختمتُ الرسالة بخاتمة. .اشتَمَلتْ على خلاصة البحث ونتائجه والتوصيات والمقترحات على هيئة نقاط. . حاولت من خلالها إظهار كيفية الإفادة من التربية الربانية القرآنية للنبي ﷺ في تربية الذات والغير من الصفوة والعامة .

وأخيراً : ذيّلتُ البحث بفهارس فنية كاشفة لتيسير الوصول الى ما يبتغيه القارئ والباحث مما ورد في البحث، ثم فهرس المصادر والمراجع ، وأخيرا فهرس الموضوعات .

وفي الختام .. فإني أحمد الله تعالى وأشكره أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً، على أن وَفَّقني لإتمام هذا البحث، وأسال الله الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه سبحانه، نافعاً لكل المسلمين، ولا أزعم أني استطعتُ الوفاء بكل ما التزمتُ به، كما لا أدَّعي أني استكملتُ جميع جوانب هذا البحث ، فإن الكمال لله ـ عز وجل ـ وحده والنقص والقصور من طبيعة البشر ، لكن حسبي أني بذلتُ طاقتي واستفرغتُ وسعي، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن كانت الأخرى فمن

نفسي والشيطان ، وأستغفر الله وأتوب إليه من كل زلة قلم أو فكر، تُشعر بسوء الأدب مع الله وقرآنه، أو مع رسول الله ﷺ ، أو مع غيره.

وصلى الله وسلم على المُعلم الأمين، وعلى آله وصحبة أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

رشيد منصور الصباحي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

صنعاء - جامعة صنعاء

الفصل التمهيدي

المبحث الأول
أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ
دعويـاً وتربويـاً

المطلـب الأول

أهميـة القرآن الكريم للنبي ﷺ دعوياً

اقتضت حكمة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يؤيد كل نبي ورسول بما يدل على صدق دعواه ورسالته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] .

ومن هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أيدهم الله ـ عز وجل ـ بالحجج القاطعة محمد بن عبد الله حيث أنزل عليه القرآن الكريم، حجة الله البالغة على عباده إلى يوم القيامة،كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١] .

وهذا القرآن الكريم الذي دلَّل بآياته ومعجزاته على صدق رسالة المصطفى ﷺ قد مثل بتوجيهاته وإرشاداته المنطلق والمرجعية ، بل والوسيلة والمنهج للنبي ﷺ في دعوته لقومه والعالمين أجمعين.

واستمر الأمر كذلك خلال ثلاث وعشرين سنة هي فترة الرسالة التي كان يتنزل القرآن فيها على قلب النبي محمد ﷺ ليضع القواعد الأساسية في منهج الدعوة الإسلامية للرسول العظيم ﷺ نظرياً وعملياً ، وليحقق عدة أهداف منها:

"أنه يُعرّف الناس بالله،وباليوم الآخر، وبقصص الأنبياء والمكذبين من قبل، وبقصة آدم وبقصة الشيطان مع آدم، وبأخلاقيات لا إله إلا الله التي يريد الله أن تحل محل أخلاق الجاهلية " (١) .

■ ومنها : دحض شبهات الكفار والمنافقين والرد على افتراءاتهم وكشف خططهم ومكرهم.

■ ومنها : إرشاد النبي ﷺ لاتخاذ الطريق القويم في دعوة هؤلاء الكفار أو مواجهتهم وإبطال مكرهم.

■ ومنها: تثبيت فؤادالنبي ﷺ في طريق الدعوة،كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، وغير ذلك.

وتتضح أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ في قيادة وتربية الطائفة المؤمنة من خلال تنزيله على النبي ﷺ كلما حدث حادث ، أو وقع سبب، أو نشأ سؤال استدعى نزول بعض آيات من القرآن لتوجيه النبي ﷺ وإرشاده إلى الطريق الأقوم في قيادة وتربية الطائفة المؤمنة، بالتشريع لها، أو التوجيه والإرشاد، أو اللوم والعتاب والتقويم، أو التكليف والطلب أوحل المعضلات المستجدة ، وغير ذلك.

كما نزلت منه سور وآيات كثيرة، ابتداءً دون سبب ولا سؤال لبيان حكم الله عز وجل في كل مجال من مجالات التكليف أو لتربية النبي ﷺ وحاجته إليها في طريق الدعوة ومواجهة الكفار، كدعوته إلى أخذ العبرة والعظة من أحوال الأمم الماضية، والتأمل في آيات الله المنظورة وكتاب الله المقروء وأقدار الله وأحداث الساعة والساحة.

وللقرآن أهمية عظمى للنبي ﷺ دعوياً من خلال سرده للقصص وضربه للأمثال ومخاطبته للفطرة واعتماده على مبدأ الترغيب والترهيب، وغير ذلك مما

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٢ / ٥١ ، دار الشروق ، ط٩ ، ١٤٠٩هـ .

يُفضي بذوي الفطرة السليمة إلى الإيمان، ويدفع ذوي القلوب المؤمنة إلى الثبات واليقين ، بل والزيادة في إيمان المؤمنين.

والقرآن بشرحه للمبهم، وتفصيله للمجمل، وتقييده للمطلق، وتخصيصه للعام، وتوضيحه للغامض، وتمثيله للمجرد، وتدليله على حقيقة الغائب أو الغيب، وإبرازه للمعقول في صورة المحسوس،وردّه على استفسارات أو تساؤلات الطائفة المؤمنة أو استفتائهم للنبي ﷺ في بعض القضايا التي تستجد في حياتهم، إنما يهدف بهذا كله إلى تزويد النبي ﷺ بما يمكنه من الوصول إلى هدفه ومقصده الدعوي من كثرة أنصاره وأتباعه وثباتهم على الحق المبين ليُحقَّ الله الحق ويُزهق الباطل ؛ إن الباطل كان زهوقاً.

هكذا استمر تنزُّل القرآن الكريم حتى اكتمل صرح الدعوة الإسلامية منهجاً في جانبها النظري عبر آيات القرآن، وعملاً في جانبها العملي عبر شخص النبي ﷺ وسيرته العظيمة كرسول جعل الله فيه القدوة الحسنة لغيره.

وخلاصة القول:

إن أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ دعوياً تتجلى في كونه المنطلق الذي منه ابتدأ دعوته : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾ [المدثر : ١-٢] . ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ، والمنهج الذي عليه يسير: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام :١٠٦]، والمصدر الذي به يحكم: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة :٤٨]. وإلى إقامة أحكامه وشرعه يهدف ويقصد: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥] .

والقرآن هو الوسيلة التي بها يدعو: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام : ٥١] . من كل ما سبق اتضحت لنا أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ دعوياً في قيادته وتربيته للطائفة المؤمنة ، أو دعوته ومواجهته للطائفة الكافرة.

المطلـــب الثانـــي

أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ تربوياً

من المعلوم ـ كما تشهد السيرة النبوية ـ أن النبي ﷺ ولد ونشأ يتيماً في مجتمع جاهلي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِب من هواه، قد تطبع كل أفراده بعاداته وتقاليده التي شرُّها يغلب خيرَها ، وباطلُها يعلو حقَّها، ولم يُؤثَرْ عنه ﷺ أنه تعلم أو درس أو تربّى على يد من يُعلمه الخير ويصرفه عن الشَّر ويُكسبه الفضائل ويحفظه من الرذائل، بل كان مجتمع النبي ﷺ حينها مجتمعاً تحيط به عوامل الشر والإفساد والكفر والإلحاد بصورة تمحق فطرة الإنسان وتمسخ سلوكه وخلُقه، وكانت بيئته حينها بيئة تخلو من عوامل وأسباب غرس الحق وتحصيل الخير وتفتقر إلى أسباب العصمة من الشر والوقاية من الباطل.

ورغم كل ما سبق فإننا نجد أن النبي ﷺ قد جمع كل صفات الخير وابتعد عن كل خصال الشر،وفي كل ذلك دليل على أن الله تعالى قد تولّى ـ وحده ـ العناية برسوله ﷺ وتكفل برعايته وحفظه له منذ أن كان نطفة في صلب آبائه، وصدق الله القائل:﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] ، وتولى تربيته عبر آيات القرآن الكريم ـ أداة التربية الإسلامية الأولى ـ خلال فترة الوحي.

وباستمرار تنزل القرآن الكريم على النبي العظيم ﷺ بعد النبوة وحتى نهاية فترة الرسالة تحققت تربية النبي ﷺ على أكمل وجه واكتملت شخصيته في جميع جوانبها العقدية والتعبدية والسلوكية.

إننا نجد أن آيات القرآن الكريم قد حبَّبت وزرعت في قلب النبي ﷺ كل خصال الخير وعملت على تثبيتها وإظهار ثمارها وحسن استغلالها، وطبعت في

سلوكه كل معاني الفضائل ودعته إلى نشرها وإتمام بنيانها (١)

ونجد أيضاً أن آيات القرآن قد قَبَّحَتْ إليه كل صور الرذائل والأخلاق السيئة وحذَّرته منها.

كما نجد أيضاً أن آيات القرآن الكريم قد بصَّرت رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأفكاره وهمومه وعواطف نفسيته، وبيَّنت له الصائب من غيره في كل ذلك، وأرشدته إلى الأقوم من ذلك كله.

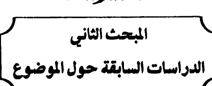
وبهذا تربى النبي ﷺ روحاً وجسداً وفكراً وسلوكاً وعاطفةً، وترقَّى عليه الصلاة والسلام في سُلَّم التربية ليصير بعدها إماماً للبشرية جمعاء في مجال الدعوة والبناء والتربية، فكان خير أب لأبناء، وأعظم زوج لزوجات، وأسمى معلم، وأنجح قائد وأعظم رسول، وأكمل قدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] (٢).

وخلاصة القول: إن القرآن الكريم هو المدرسة الأولى -إن لم نقل الوحيدة- التي تربى فيها النبي ﷺ، وهو المعين الصافي الذي منه نهل، وبه انطلق ولأجله جاهد، وبأساليبه تقوَّم، حتى أخذ حظَّه الشامل الكامل في كل مجالات التربية وميادينها.

---

(١) وقد صح عن النبي ﷺ انه قال: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق). رواه البخاري في الأدب المفرد ١ / ٣٧١، باب: حسن الخلق برقم ٢٧٣ عن ابي هريرة رضي الله عنه، وذكره الالباني في صحيح الأدب المفرد ص١١٨ برقم ٢٠٧، وقال: صحيح، وذكره في السلسلة الصحيحة في ١ / ٧٥ برقم ٤٥ ولفظ (مكارم الاخلاق)، وفي رواية (صالح الأخلاق)، والحديث قد رواه الحاكم ٢ / ٦١٣، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن حنبل في٢ / ٥٠١ برقم ٨٩٢٧، انظر: فضل الله الصمد في توضيح الادب المفرد لابي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، تاليف: فضل الله الجيلاني الهندي، دار المطبعة السلفية، ط ٣، ١٤٠٧هـ، القاهرة، مصر. والكتاب يقع في مجلدين. وانظر: صحيح الادب المفرد، لمحمد ناصر الدين لالباني(١٤٢١هـ)، دار الصديق، ط١ ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، الجبيل، السعودية.

(٢) وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف د. سمير المجذوب، إعداد محمد سليم إبراهيم وآخرون، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات منها مجلدان للفهارس.



المبحث الثاني
الدراسات السابقة حول الموضوع

موضوع التربية الإسلامية بشكل عام، وتربية النبي ﷺ بشكل خاص، من الموضوعات الهامة التي كتب فيها الكتاب، وبحث فيها الباحثون بصورة يظهر منها تنوع مقاصد دراستهم وتعدد مظاهر بحثهم في مثل هذه المواضيع، وكذا تميزها بطابع معين من حيث أهداف البحث والدراسة ومميزاتها وخصائصها، والجوانب التي تم البحث فيها، والنتائج المتوصل إليها.

وحسب ما وصل إليه علمي من خلال الاطلاع والبحث في الدراسات السابقة لهذا الموضوع يمكن الخروج بالتصور التالي حول أصناف وأنواع هذه الدراسات وذلك من خلال المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول: دراسات تربوية شاملة.

المطلب الثاني: دراسات تربويه جُزئية.

المطلب الثالث: دراسات وأبحاث خاصة بالنبي ﷺ .

المطلب الأول

دراسات تربوية شاملة

وهي دراسات وأبحاث تناولت موضوع التربية في الإسلام بشكل عام، وخصائصها ومميزاتها وميادينها، وانحصرت هذه الدراسات حول منهج القرآن الكريم أو السُّنَّة النبوية في التربية الإسلامية ـ سواء للفرد أو الجماعة ـ مع استعراض نماذج مشرقة من واقع السلف تُثبت نجاح منهج التربية الإسلامية في صياغة الأجيال الإسلامية في خير القرون.

ومن هذه المؤلفات ما يلي:

« منهج التربية الإسلامية » للأستاذ/ محمد قطب، و« منهج القرآن في التربية » للأستاذ/ محمد شديد، وبعض مؤلفات الأستاذ/ سيد قطب مثل : « نحو مجتمع إسلامي » ، و« معالم في الطريق » ، و« مقومات التصور الإسلامي »، و« هذا الدين » وغيرها.

لكن هذه الدراسات لم تتناول شخص النبي ﷺ بصورة مستقلة أو مراحل تربيته ووسائل ذلك وكيفيتها ، بل غلب عليها طابع دراسة منهج القرآن والسُّنَّة في تربية أفراد المجتمع المسلم بشكل عام.

المطلب الثاني

دراسات تربوية جُزئية

وهي دراسات وأبحاث تربوية إسلامية تناولت موضوع التربية في الإسلام من حيث الأصول والمصادر والأسس والغايات والأهداف والوسائط أو الوسائل وصفات المربي المسلم والتطبيقات العملية لذلك.

ومن هذه المؤلفات ما يلي:

« أصول الفكر التربوي في الإسلام » للدكتور / عباس محجوب، و « أصول التربية الإسلامية » للدكتور / عبد الرحمن النحلاوي، و « تربية الأولاد في الإسلام » للشيخ / عبد الله علوان، و « تاريخ التربية الإسلامية » للدكتور / أحمد شلبي، و « التربية في الإسلام » لأحمد فؤاد الأهواني، و « حتى يغيروا ما بأنفسهم » لجودت سعيد، و « فلسفة التربية الإسلامية » للدكتور / ماجد عرسان الكيلاني، و « التربية الوقائية في الإسلام » للأستاذ / فتحي يكن، وغيرها، وهذه الدراسات والأبحاث هي أيضاً لم تبحث في شخص النبي ﷺ، ولم تعتمد منهج الوصف أو الاستقراء أو التحليل والاستنباط لآيات القرآن ومنهجه في تربية النبي ﷺ .

المطلـــب الثالـــث

دراسات وأبحاث خاصة بالنبي ﷺ

وهي أبحاث ورسائل بحثت في شخص النبي ﷺ وأخلاقه وسيرته وآدابه ومعجزاته وغير ذلك مما يتعلق بحياته ﷺ الشخصية والأُسريّة والجماعية.

وتنقسم هذه الدراسات من حيث طابعها ونوعها إلى قسمين كما يلي:

أولاً: الكتب التي اتسمت بطابع الرواية و السرد:

ويتجلى هذا في المؤلفات القديمة ـ بشكل عام ـ التي تحدثت عن السيرة النبوية، وغلب عليها طابع النقل والتدوين لمراحل حياة النبي ﷺ وتفاصيلها في كل صغيرة وكبيرة، كما في كتاب « السيرة النبوية » لابن هشام، و « زاد المعاد في هدي خير العباد » للعلامة ابن قيم الجوزية، و « السيرة النبوية » لابن كثير، وسائر كتب السُّنَّة النبوية، وكذلك « دلائل النبوة » لكل من أبي نعيم الأصفهاني وأبي بكر البيهقي.

ومن المؤلفات الحديثة التي شابهت المؤلفات القديمة وغلب عليها طابع السرد والرواية كتاب « الرحيق المختوم » لمؤلفه صفي الرحمن المباركفوري.

ثانياً: الكتب التي اتسمت بطابع التحليل والاستنباط:

ويتجلى هذا في المؤلفات الحديثة التي اعتمدت منهج التحليل والاستنباط أو التخصص والتدقيق في جانب واحد من جوانب السيرة النبوية أو مرحلة من مراحلها أو حدث من أحداثها أو صفة من صفات صاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأشبعتها بحثاً ودراسة لاستخراج ما فيها من دروس وعبر أو دلائل ومميزات اختص بها النبي ﷺ، ونبغ فيها بصورة تستحق البحث والتأمل للاستفادة من ذلك في الواقع المعاش، لما فيها من حكمة ومنهج قويم في التعامل

مع الإنسان أو الكون أو الحياة.

ومن هذه الدراسات والأبحاث أو الرسائل ما يلي:

« أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسُّنَّة » ، رسالة دكتوراه للدكتور/ أحمد الحداد، « شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم » للدكتور/ محمد علي الهاشمي،« فقه السيرة » للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، « الرسول ﷺ » للشيخ/سعيد حوى، « السياسة الإسلامية في عهد النبوة » لعبد المتعال الصعيدي،« عبقرية محمد ﷺ »لعباس العقاد، « فقه السيرة » للشيخ/ محمد الغزالي، « دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ » لمحمد رواس قلعجي، « السيرة النبوية في القرآن » لعبد الصبور مرزوق، « حياة محمد ورسالته » لمحمد علي، « السيرة النبوية : دروس وعبر » لمصطفى السباعي ، وغيرها من الدراسات والأبحاث(١) ، إلا أنها جميعاً لم تُعط جانب التربية الربانية للنبي ﷺ حقها من البحث والاستقراء والتفصيل والتحليل والاستنباط والاستنتاج بصورة توضح منهج القرآن الكريم ، أو حكمة العلي الحكيم في تربية النبي ﷺ تربية إيمانية شاملة كاملة ، نقلته إلى منتهى الكمالات البشرية التي لم يَرْقَ إليها أحد.

وفي دراستي هذه سوف أتناول جانب التربية الربانية القرآنية للنبي ﷺ فيما يتعلق بالجانب النفسي والعقلي والإيماني والأخلاقي من خلال جمع واستقراء آيات القرآن المتعلقة بذلك وتفسيرها وتحليلها واستنباط ما فيها من معانٍ تربوية عظيمة تربى عليها خير البرية ﷺ .

ومن خلال ما سبق تتضح لنا أهمية هذه الدراسة لما فيها من جديد حيث أنها تغطي جانب تربية الله لنبيه ﷺ دراسة خاصة يتضح من خلالها منهج القرآن في

---

(١) وهناك بعض الدراسات الغربية عن رسول الله ﷺ مثل: « محمد : الرسالة والرسول » للدكتور/ نظمي لوقا، و« حياة محمد » لواشنطن آرفنج، و« محمد نابليون السماء » لمؤلفه جان براء، و« محمد الإنسان وعقيدته » لمؤلفه توراندِه.

تربية النبي ﷺ ، ومراحل الإعداد والتربية في جميع جوانبها الخاصة بالنبي ﷺ وصُورها وأساليبها المباشرة وغير المباشرة إلى أن وصلت بالنبي ﷺ بعد ثلاثة وعشرين عاماً لمستوى الكمال البشري ، حتى استحق الثناء من الله ـ عز وجل ـ بما لم يُثْنِ به على غيره، والتكرم والرفعة والفضل على من سواه ، وكان أهلاً لقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** (٥٦) ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

المبحث الثالث
التعـــاريف والمصطلحات

من أجل دراسـة واضـحـة، وبحث بيِّنٍ، لزم أن أوضح بالتـعـاريف بعض المصطلحات المتعلقة بالبحث الواردة في عنوانه، وهذه المصطلحات هي:

أولاً: التربيـة.

ثانياً: الربانية.

ثالثاً: القرآنية.

رابعاً: النبي محمد ﷺ.

المطلـــب الأول

مفهـــوم الـــــتربيـــة

أو لاً: المعنى اللغوي للتربية:

لفظ التـربيـة مـصـدرٌ له مشـتـقـات عـديدة ، ويعـتـمـد على أصـول لغـوية متعددة كما يأتي:

■ **ورد في لسان العرب:** « ربا الشيء يربو رُبُواً ورَبَاءً: أي زاد ونما، وأَرْبَيْتُهُ أي نمَّيتُه، وفي التزيل العزيز: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وربَا المالُ :أي زاد ونما.. . وربَوتُ في حِجره رُبُواً وربَيتُ رَبَاءً ورُبياً ـ كلاهما ـ أي: نشأتُ فيهم.

وقال الأصمعي [١] : "رَبَوْتُ في بني فلان أربو: نشأتُ فيهم، وَرَبَّيتُ فلاناً أُرَبِّيه تربيةً وَتَرَبَّيْتُهُ أي غذَّوتُهُ، قال: هذا لكل ما يَنْمِي كالولد والزرع ونحوه...، وربَأتِ الأرضُ رَبَاءً : أي زكتْ وارتفعت" » [٢]

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي نسبته إلى جده أصمع، صاحب اللغة والنحو والغريب، والأخبار والملح، ولد في البصرة عام ١٢٢هـ كان من أهل البصرة، وقدم بغداد أيام هارون الرشيد، وكان يسميه (شيطان الشعر) ، قال الأخفش : ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، وقال الأصمعي عن نفسه: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة، توفي عام ٢١٦هـ في البصرة ، له عدة تصانيف منها: «الأصمعيات» ،جمع فيه القصائد التي تفرد برواياتها، وقد أعيد طبعها باسم «اختيار الأصمعي»،ومن مؤلفاته «الأضداد) في اللغة،و«شرح ديوان ذي الرمة» وغير ذلك كثير.
انظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام ١٠ / ٤١٠ وما بعدها لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي(٣٩٢-٤٦٣هـ) ، دار الكتب العلمية، ط(بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة عشر مجلداً.
وانظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢ / ١٩٧ وما بعدها لجمال الدين أبي الحسن على بن يوسف القفطي (٥٦٨-٦٢٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

(٢) لسان العرب١ / ١٨٢، ١٤ / ٣٠٤ وما بعدها لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ) دار صادر، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً.

■ **وورد في تاج العروس:** « رَبَأَ المَالَ: أي حفظَهُ وأصلحه ، قال الشاعر:

ولا أَرْبَأُ المـال مـن حُـبِّـه ... ولا للفخـار ولا للْبَخَلْ
ولكـن لحِـقٍّ إذا نـابني ... وإكـرام ضيف إذا ما نَزَلْ » (١)

يتضح لنا من كل ما سبق أن لفظ التربية يعود إلى الأصول اللغوية التالية:

[١] ربا الشيء رُبُوًّا : بمعنى الزيادة والنماء.

[٢] رَبَوْتُ في حِجره : أي نشأتُ بمعنى النشوء والترعرع.

[٣] ربأ المالَ : أي حَفظه وأصلحه بمعنى الحفظ والإصلاح.

[٤] ربأت الأرض رباءً : أي زكَتْ وارتفعت بمعنى التزكية والارتفاع.

[٥] ربَّيتُ فلاناً :أي غذَّوتُهُ بمعنى تولى الأمر والإمداد والرعاية والهداية إلى المصالح.

ثانياً:المعنى الاصطلاحي للتربية:

جاء في «المفردات» أن التربية تعني: « إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام » (٢).

ويرى البيضاوي (٣) أن التربية تعني : « تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً

---

(١) تاج العروس١ / ٢٣٧، لمحمد مرتضى الحسين الزَّبيدي (ت٨١٦هـ)تحقيق إبراهيم الترزي وعبد الستار أحمد فرج، دار إحياء التراث العربي ،ط (بدون) ، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، ، بيروت ، لبنان، والكتاب يقع في خمسة وعشرين مجلداً.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد، (ت٥٠٢هـ) ص١٨٤ ، تحقيق وضبط محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، ط (بدون) دت، بيروت، لبنان.

(٣) هو أبو سعيد أو أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، ناصر الدين البيضاوي الشافعي، المولود في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز، وهو قاضٍ مفسر علامة، كان عارفًا بالفقه والعربية والمنطق وغير ذلك من العلوم ، وكان متعبداً زاهداً، ولي القضاء بشيراز، توفي عام ٦٨٥هـ ، وقيل ٦٩١هـ في تبريز، وقيل غير ذلك. له عدة تصانيف منها « الغاية القصوى » في الفقه الشافعي، و« مختصر الكشاف » و« أنوار التنزيل وأسرار التأويل » في التفسير، وغير ذلك من الكتب. انظر: طبقات المفسرين ١ / ٢٤٢-٢٤٣ للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، دار الكتب ، ط١، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، الناشر: مكتبة وهبة ، عابدين، القاهرة، والكتاب يقع في مجلد واحد ضمن جُزأين ، وانظر: كتاب الوافي بالوفيات للصفدي ١٧ / ٢٠٦، وانظر: شذرات الذهب ٣ / ٣٩٢ (الجزء الخامس)، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨ / ١٥٧ .

فشيئاً »(١).

والتعريف الذي نختاره اعتماداً على كل ما سبق هو ما ذكره صاحب كتاب « مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام »؛حيث ذكر أن التربية تعني: " المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها، وتنمية مواهبه واستعداداته كلها وتوجيه هذه الفطرة وتلك المواهب نحو الصلاح والكمال اللائق بها بصورة متدرجة مقصودة" (٢) .

فتخرج بذلك كل تربية لا تحافظ على فطرة الناشئ التي فطره الله عليها ، ولا تنمي مواهبه التي منحه الله إياها، وتكون عفوية غير مقصودة وغير هادفة . هذا هو المقصود بالتربية إجمالاً.

وأما المقصود بالتربية تفصيلاً فهي تعني: " تنمية الإنسان في أبعاده الستة : الروحي، والجسدي، والعقلي، والعاطفي، والأخلاقي، والاجتماعي، في إطار بُعد مركزي هو الإيمان بالله وبوحدانيته" (٣)

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٨، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد الشيرازي (ت٧٩١هـ) دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

(٢) مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ص٢٠-٢١ بتصرف وزيادة يسيرة، لعبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، ط(بدون) ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت، لبنان.
وانظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دمشق، سوريا.

(٣) مقتبس من بحث قدمه كل من: د. عبد الحميد الهاشمي، د. فاروق عبد السلام لندوة خبراء أسس التربية الإسلامية في مكة عام ١٤٠٠هـ بتصرف وزيادة يسيرة ، انظر كتاب: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، لعبد المجيد بن مسعود ص٤١، سلسلة كتاب الأمة، العدد٦٧، رمضان١٤١٩هـ وزارة الشئون الإسلامية ، قطر.

المطلب الثاني

مفهوم الربانية

أولاً: المعنى اللغوي للربانية:

ورد في لسان العرب أن « لفظ الرَّب يُطلق على المالك والسَّيد والمدبِّر والمربِّي والقيِّم والمُنعِم.. ، والجمع أربابٌ ورُبُوبٌ .. ، وإنه لمربُوبٌ بيِّنُ الرُّبوبية : أي لمملوك ، والعباد مربُوبُون لله أي مملوكون ....

...والرب هو الله ـ عز وجل ـ هو رب كل شيء: أي مالكه.. ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة، وعلْمٌ رَبَوي: منسوب إلى الرب على غير قياس.. .، والرِّبِّي أو الرَّبَّاني: الحَبْرُ وربُّ العِلم، وقيل الربَّاني الذي يعبد الرب، زيدت الألف والنون للمبالغة في النَّسب. وقيل الربَّاني: هو المُتألِّه العارف بالله، وفي التنزيل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

وقال سيبويه (١) : زادوا ألفاً ونوناً في الرَّبَّاني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرَّب دون غيره.. والرَّباني قيل هو من الرَّب بمعنى التربية » (٢)

---

(١) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، الملقب بسيبويه، مولى بني الحارث بن كعب وقيل مولى آل الربيع بن زياد، ولد عام ١٤٨هـ في إحدى قرى شيراز، إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو، ومعنى سيبويه: رائحة التفاح بلغة فارس، وإنما سُمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، وقيل أن وَجْنَتيه كانتا كالتفاحة. .،لزم ـ أولاً ـ المحدثين والفقهاء ، ثم لزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، وكان شاباً حسناً جميلاً نظيفاً.. توفي عام ١٨٠هـ وعمره لم يتجاوز اثنين وثلاثين عاماً. من مؤلفاته المطبوعة « كتاب سيبويه » في النحو،لم يصنف قبله ولا بعده مثله، انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي١٢ / ١٩٥ وانظر:البداية والنهاية١٠ / ١٨٢، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ) ، تدقيق وتحقيق: د. أحمد أبو ملحم، وآخرين، دار الريان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في اثني عشر جزءاً ضمن ستة مجلدات.

(٢) لسان العرب لابن منظور١ / ٣٩٩ وما بعدها، وانظر القاموس المحيط ص١١، باب الباء-فصل الراء، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (ت٨١٧هـ)، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان، والكتاب يتكون من مجلد واحد (حجم كبير).

■ **وورد في المفردات أن:** « الرب في الأصل التربية . . ، يقال ربَّه وربَّاه وربَّبَهُ ؛ فالرَّب مصدر مستعار للفاعل . . . ، والرَّبَّاني قيل هو منسوب إلى الرب أي الله تعالى الذي هو المصدر وهو الذي يَرُبُّ العلم . . ، والجمع ربَّانيون » (١)

وقال البيضاوي: « الرَّبُّ في الأصل بمعنى التربية . . . ثم سُمِّي به المالك ؛لأنه يحفظ ما يملكه ويُربِّيه » (٢)

وقال ابن قيم الجوزية (٣) « الرَّبُّ هو الذي يُربي عبده ، فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى مصالحه »(٤)، وقال : « ومعنى الرباني في اللغة :الرفيع الدرجة في العلم العالي المنزلة فيه . .ولا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد » (٥).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، كتاب الراء، وما يتصل بها ص١٨٤ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٨ .

(٣) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية، المولود عام ٦٩١هـ في دمشق ، المجتهد المفسر النحوي الأصولي ، تتلمذ على يد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ، وسمع من الشهاب النابلسي، وإسماعيل بن مكتوم، قال عنه ابن رجب « كان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة. . . لم أشاهد مثله في ذلك ولا رأيت أوسع منه علماً. . . » وقد امتُحن وأوذي مرات، وحُبس كذلك .. توفي عام ٧٥١هـ في دمشق، ألف كثيراً من الكتب التي تربو على خمسين مؤلفاً ، منها: « إعلام الموقعين »، و« الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » ، و« زاد المعاد » و« أحكام أهل الذمة » ، و« تهذيب سنن أبي داود » .
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣ / ٤٠٠-٤٠٢ للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) ، دار الجيل، ط (بدون) د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.
وانظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦ / ١٦٨-١٧١ للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٣٢-١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثمانية أجزاء ضمن أربعة مجلدات.

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١ / ٤٤، لابن قيم الجوزية، أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ٦٩١ - ٧٥١ هـ ، تصحيح وتحقيق محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، بيروت، لبنان ، والكتاب يقع في مجلدين.

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١ / ٤٠٥ لابن قيم الجوزية، تقديم وتعليق علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، مراجعة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان ، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، الخبر ـ السعودية ، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للربانية:

حتى يمكن تعريف الربانية لابد من التمهيد بذكر أقوال بعض أهل التفسير لمعنى ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

فقد أورد المفسرون عدة معانٍ متقاربة المعنى لكلمة الرَّبَّانية وذلك كما يلي:

(أ) ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبري [(١)] أن معنى ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ : « فقهاء، علماء، حكماء، أتقياء... والرَّبانيون جمع ربَّاني، وهو المنسوب إلى الرَّبَّان الذي يربُّ أمور الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربُّها ويقوم بها، والربَّاني هو : من يُعلِّم الناس الخير، ويدعوهم إلى ما فيه مصلحتهم. والربَّاني هو: الوالي الذي يلي أمور الناس .. بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وهو مَنْ جَمَعَ إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية » [(٢)]

(ب) وذكر القرطبي [(٣)] نحواً مما سبق وزاد فقال: « الربَّاني : هو العالم بدين

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام ، العلامة، القارئ، المحدث، المفسر، المؤرخ، الفقيه، صاحب التصانيف، ولد بآمل إحدى مناطق طبرستان سنة ٢٢٤هـ، توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ، ألف عدة كتب منها: « جامع البيان » في التفسير، و« تاريخ الأمم والملوك »، و« تهذيب الآثار » .
انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ١٠٦، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٦٧، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في خمسة وعشرين مجلداً. وانظر: كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي ٢ / ٧١٠ .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن٣ / ٣٢٤-٣٢٥،لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٥-٣١٠هـ) دار الكتب العلمية، ط١،١٤١٢هـ-١٩٩٢م، بيروت-لبنان،والكتاب يقع في اثني عشر مجلداً.

(٣) هو أبو عبد الله القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي المالكي، ولد بمنية بني خصيب (من صعيد مصر) مصنف التفسير المشهور باسم « الجامع لأحكام القرآن » .. كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بالآخرة، توفي عام ٦٧١هـ بمنية بني خصيب (من صعيد مصر)،من مصنفاته: « التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ».
انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٦٥، وانظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢ / ٤١٣٠ للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (٩٨٦-١٠٤١هـ) ، تحقيق: يوسف البقاعي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

الرب الذي يعمل بعلمه » (١)

(جـ) وقال الشوكاني (٢) : « الرباني : هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره » (٣) ، وزاد نحواً مما سبق.

(د) وقال ابن عاشور(٤): « الرباني :هو المنسوب للرب،وهو العالم المربي »(٥).

(هـ) وقال محمد رشيد رضا (٦): « الربَّاني : هو المنسوب إلى الرَّبِّ مباشرة

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٤ / ١٢٢، لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، دار التراث الإسلامي ، ط٢، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م، بيروت-لبنان. والكتاب يقع في عشرين مجلداً.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني ثم الصنعاني، ولد بهجرة شوكان (تبعد عن صنعاء دون مسافة يوم ، وهي من بلاد خولان باليمن) سنة١١٧٣هـ، ونشأ بصنعاء وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ، كان مشتغلاً في جميع أوقاته بالعلم درساً وتدريساً وإفتاءً وتصنيفاً، ترك التقليد واجتهد رايه اجتهاداً مطلقاً غير مقيد.
توفي عام ١٢٥٠هـ في صنعاء، بلغت مصنفاته أربعة عشر ومائة كتاب، منها: تفسيره « فتح القدير » ، و« إرشاد الفحول » في أصول الفقه، و« السيل الجرار » ، و« نيل الأوطار » وغير ذلك.
انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢ / ٢١٤ للعلامة محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) مكتبة ابن تيمية، ط (بدون)، د.ت، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في مجلدين.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١ /٥٣٦ ، للعلامة محمد بن علي بن الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠ هـ)توثيق وتعليق/سعيد محمد اللحام، المكتبة التجارية، ط ٢ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م ،مكة، السعودية، والكتاب يقع في خمسة مجلدات ومجلد خاص بالفهارس.

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة ١٢٩٦هـ بتونس، كان مفسراً حكيماً...
توفي سنة ١٣٩٣هـ وقيل ١٣٩٤هـ بتونس، له عدة مصنفات منها: « أصول الإنشاء والخطابة » ، و« مقاصد الشريعة » ، وتفسيره المعروف « تفسير التحرير والتنوير » .
انظر: الأعلام ٦ / ١٧٤ لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات .
وانظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٥ / ٢٨٠-٢٩٣ لمحمد رجب البيومي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دمشق، سوريا. والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٦ / ٢٠٨، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور(١٢٩٦-١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٨٤م تونس، والكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً.

(٦) هو محمد رشيد رضا، ولد في ٢٧جمادي الأولى عام ١٢٨٢هـ في بلدة القلمون، بالقرب من طرابلس الشام، ونشأ في رعاية والديه، في بيت علم وفضيلة، اجتهد منذ صغره في طلب العلم، وقد مدحه شيوخه بتفوقه على أقرانه، وهمته في طلب العلم، وقد تأثر بشكل كبير بمجلة « العروة =

من غير توسط الرسول أو التوسل بشخصه » (١)

« والرباني: هو المنسوب إلى الرب إما:

(أ) بمعنى الخالق المدبر لأمر المُلك لأنهم يعنون بالعلم الإلهي والتهذيب الروحاني.

(ب) أو بمعنى مصدر ربَّه يربُّه أي ربَّاه لأنهم يُربون أنفسهم ثم غيرهم بالعلم والعرفان وأحسن الآداب والأخلاق » (٢)

وبعد أن ذكرتُ أقوال بعض أهل التفسير لمعنى كلمة ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، يمكن تعريف الربانية اصطلاحاً بما عرَّفها به العلامة ابن جرير الطبري - رحمه الله - بتصرف وزيادة يسيرة، حيث وافقه كثير من أهل التفسير كما هو واضح من التعريفات السابقة ؛ إلا أن عبارته أشمل من غيره، فنقول: « الربَّانية هي: المنسوبة إلى الرب - سبحانه وتعالى - ذات العلم والحكمة وحُسن التدبير، لتحقيق الصلاح في العاجل والآجل » .

فيخرج بهذا التعريف تربية البشر لبعضهم البعض ،التربية القاصرة، بما يعتريها من جهل ونقص وسوء تدبير، واقتصار على صلاح النفس في الدنيا دون الآخرة.

الوثقى » التي كان يحررها الشيخ محمد عبده آنذاك...، وتحمس للقيام بأعمال إصلاحية.. فقد كان يعقد جلسات أثناء دراسته... للوعظ والإرشاد... وأثمر في ذلك... حتى اشتهرت بلدته « القلمون » بصلاح أكثر أهلها.. وكان له مجلس يعلم فيه عدداً من العلوم...
وقد التقى الشيخ محمد عبده مرتين في طرابلس الشام، وأعجب به... وانتقل إلى مصر... واتفق مع الشيخ محمد عبده على إصدار مجلة المنار... للمساهمة في الإصلاح ، عمل على إنشاء مدارس وجمعيات إسلامية في كثير من الأقطار، توفي في القاهرة عام ١٣٥٤هـ.
من أهم مؤلفاته :« تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار » ، و« الوحي المحمدي » و« عقائد النصارى » ، وغير ذلك.
انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد البيومي ١ / ٢٣٥-٢٥٠ .
وانظر: المختار من المنار ١ / ٩-١٩ باختصار، لعبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مطبعة (بدون) ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

(١) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٣ / ٣٤٨، للشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، ط (بدون) ١٤١٤هـ-١٩٩٣م بيروت ، لبنان، والكتاب حوى تفسير القرآن من أول الفاتحة وحتى سورة يوسف فقط، وهو يقع في اثنى عشر مجلداً .

(٢) نفس المرجع ٦ / ٣٩٨ بتصرف يسير.

المطلب الثالث

مفهوم القرآنية

أولاً: المعنى اللغوي للفظ القرآنية :

قال ابن الأثير [(١)] **في معنى القرآن :** « والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكلُّ شيء جمعته فقد قرأته، وسُمي القرآن قرآناً لأنه جمعَ القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض. وهو مصدر كالغفران والكفران.

وقد يُطلق على الصلاة ؛ لأن فيها قراءة، تسمية للشيء ببعضه، ويُطلق على القراءة نفسها، يقال: قرأ يقرأ قراءة وقرآناً.

والاقتراء افتعال من القراءة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: جمعه وقراءته [(٢)] .

وقد تُحذف الهمزة منه تخفيفاً فيقال: قُران وقَرَيْتُ وقارٍ، ونحو ذلك من التصريف » [(٣)] .

---

(١) هو أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب مجد الدين، المولود سنة ٥٤٤هـ المحدث ، اللغوي، الأصولي، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر (نسبةً إلى رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر) وانتقل إلى الموصل بالعراق.. وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه.. ولازمه المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل عام ٦٠٦هـ، له عدة مصنفات ، قيل أنه ألفها كلها في زمن مرضه، إملاء على طلبته، منها: «النهاية في غريب الحديث والأثر» ، و«جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ » وغير ذلك كثير، وهو أخو ابن الأثير المؤرخ ، وابن الأثير الكاتب، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣ / ٣٤٩ وما بعدها و٤ / ١٤١ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ) تحقيق: د. إحسان عباس ، دار صادر، ط (بدون) د.ت، بيروت، لبنان ، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات.

(٢) ومعنى الآية كما قال الشوكاني في تفسيره ٥ / ٤٧٥ : «أي جمعه في صدرك... وإثبات قراءته في لسانك... » .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٣٠-٣١ بزيادة يسيرة، للإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، (٥٤٤-٦٠٦هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، دار الفكر، ط(بدون)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

وورد في لسان العرب« . . .وقارأَهُ مقارأَةً وقِراءً ـ بغير هاء ـ :دارَسَهُ. واستقرأه: طلب إليه أن يقرأ »(١)

وقد وقع خلاف في لفظ « القرآن » من حيث الاشتقاق وغيره ، وقد فصّل القول في هذا كلٌّ من ابن جرير الطبري، والسيوطي (٢) ـ رحمهما الله ـ .

ويمكن إجمال ذلك بالقولين التاليين:

القول الأول: أن القرآن هو:

«اسم علم جامد غير مشتق، خاص بكلام الله،فهو غير مهموز،وبه قرأ ابن كثير(٣)،(٤)،

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١ / ١٢٨ مادة قرأ، وانظر: المعجم الوسيط ٢ / ٧٢٢ مادة قرأ ، للدكتور/ ابراهيم انيس وآخرون، إشراف: حسن على عطية ومحمد شوقي أمين ، دار إحياء التراث العربي، ط٢، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يتكون من مجلدين.
وانظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح اللغة العربية ٦ / ٢٤٦٠ مادة قرأ، لإسماعيل بن حماد الجوهري، (ت٣٩٣)هـ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، ط٣، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، بيروت، لبنان. والكتاب مكون من ستة مجلدات ومقدمة في مجلد خاص.

(٢) هو أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري، السيوطي، أو الأسيوطي نسبة إلى أسيوط مصر، الشافعي، المسند، المحقق، إمام ، حافظ، مؤرخ، أديب، ولد في عام ٨٤٩هـ، توفي والده وهو ابن خمس سنوات، ختم القرآن وعمره ثمان سنين، ثم حفظ عدداً من الكتب.. توفي في روضة المقياس (على نيل مصر) في منزله... عام ٩١١هـ، وله عدة مصنفات تزيد على الخمسمائة منها:
«تناسق الدرر في تناسب السور» ، و«الإتقان في علوم القرآن» ،و«تاريخ الخلفاء »، و«طبقات المفسرين» ، وغيرها كثير. انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤ / ٦٥ وما بعدها لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١-٩٠٢هـ)، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في ستة مجلدات ضمن اثني عشر جزءاً.
وانظر: شذرات الذهب لابن العماد ٨ / ٥١، و: قطف الأزهار في كشف الأسرار١ / ٢٦-٤٩ .

(٣) هو الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء، البصري ثم الدمشقي، الشافعي ، ولد عام ٧٠١هـ في «مجيدل القرية » من أعمال مدينة بُصرى، وقدم دمشق، وصاهر الحافظ المزني، وصحب ابن تيمية وتبعه في كثير من آرائه ، وامتحن بسبب ذلك وأوذي، كان كثير الحفظ سهل الاستحضار، انتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير، توفي عام ٧٧٤هـ ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. له عدة مؤلفات منها: «تفسير القرآن العظيم » ثاني كتاب في التفسير المأثور بعد تفسير ابن جرير وله موسوعة في التاريخ «البداية والنهاية » .
انظر: شذرات الذهب ٦ / ٢٣١، وانظر: البدر الطالع للشوكاني ١ / ١٥٣ .

(٤) انظر: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المُسمّى :منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات للعلامة الشيخ أحمد بن محمد البناء ت (١١١٧هـ) تحقيق وتقديم : د. شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت،لبنان١ /٢١٧، والكتاب يقع في مجلدين.

وهو مروي عن الشافعي (١) ـ رحمه الله ـ »، واختاره السيوطي ـ رحمه الله ـ في كتابه الإتقان (٢) .

القول الثاني:

أن القرآن « هو اسمٌ لكلام الله ـ تعالى ـ ، مصدر، وهو مشتق وليس بجامد » ، ولكن اختلف أهل هذا القول في أصل اشتقاق لفظ القرآن كما يلي:

(أ) **قال الأشعري** (٣) : « هو مشتق من قرنتُ الشيء بالشيء إذا ضممتُ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع... الهاشمي القرشي المطلبي، يجتمع جده شافع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، وقد لقي جده شافع رسول الله ﷺ وهو مترعرع... والشافعي: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة.. ولد في غزة بفلسطين عام ١٥٠هـ وحُمل منها إلى بغداد وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، ... قال المبرد: كان الشافعي من أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات ، وقد برع في الرمي والشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان شديد الذكاء، توفي في القاهرة عام ٢٠٤هـ له مصنفات كثيرة أشهرها كتاب « الأم » في الفقه ، ومن كتبه « المسند » في الحديث، و« الرسالة » في أصول الفقه وغير ذلك، والشافعي أول من ألف في أصول الفقه.
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ١٦٣ وما بعدها، وانظر: تهذيب التهذيب ٩ / ٢٥، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند، ط(بدون) ١٣٢٥هـ ، دار صادر ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في اثني عشر مجلداً، وتهذيب الأسماء واللغات ١ / ٤٤ وما بعدها لأبي زكريا محيى الدين بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، ط(بدون) د.ت، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في جزئين ضمن مجلد واحد.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١ /١٤٦ ، وانظر: البرهان في علوم القرآن١ / ٢٧٧، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥-٧٩٤)هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م ، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في أربعة مجلدات .

(٣) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المجتهدين المتكلمين ، ولد في البصرة عام ٢٦٠هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، وقد نصر مذهبه أبو بكر الباقلاني، كان حنفي المذهب، معتزلي الكلام، وقد سمع من زكريا الساجي وأبا خليفة الجمحي، ثم رجع عن آراء المعتزلة ومعتقداتهم وجاهر بذلك، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ له عدة مصنفات منها « الإبانة عن أصول الديانة » ، و« الرد على المجسمة » ، و« إمامة الصديق » وغيرها كثير.
انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢ / ٥٤٤-٥٤٥ لمحيى الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد القرشي الحنفي(٦٩٦ - ٧٧٥ هـ) ، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو،

أحدَهما إلى الآخر، وسُمِّي به القرآن ، لاقتران السور والآيات والحروف فيه، ومن قولهم قِران لمن جمع بين الحج والعمرة، وهو غير مهموز.

وهذا قريب من قول الراغب (١) أن القرآن إنما سُمي بذلك لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة ، وقيل لأنه جمع ، أنواع العلوم كلها، وهذا يوافق قول الزجاج أنه مشتق من القَرْءِ بمعنى الجمع،ومنه قَرَأ الماء في الحوض: إذا جَمَعَهُ (٢). وتَرْكُ الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن.

(ب) **وقال الفراء** (٣): هو مشتق من القرائن ؛ لأن الآيات منه يُصدِّق بعضها بعضاً، وهي قرائن، وهو غير مهموز.

(جـ) **وقال قطرب** (٤) : إنه سُمي قرآناً ؛ لأن القارئ يُظهرهُ ويُبَيِّنهُ مِنْ فِيْهِ،

مؤسسة الرسالة، مطبعة هجر، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان، . والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

وانظر: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ٢ / ٣٥٩-٣٦٠ لأبي العباس أحمد بن علي المقريزي ت(٨٤٥هـ).

(١) هو الحسين بن محمد بن مفضل الأصفهاني الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، أديب متكلم مشهور،توفي عام ٥٠٢هـ، من تصانيفه «جامع التفسير» ، و«محاضرات الأدباء» و«المفردات في غريب القرآن» .

انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨ / ١٢٠ وهو عنده باسم (الحسين بن محمد بن المفضّل الأصبهاني) بالباء.

(٢) وقد رجّح هذا مناع القطان في كتابه (مباحث في علوم القرآن) ص١٦ ، لكن يبدو أن الصواب في غيره ، كما سنذكر في ترجيحنا لأصل كلمة القرآن لاحقاً.

(٣) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور، الكوفي، النحوي، صاحب الكسائي، ولد عام ١٣٩هـ وقيل ١٤٤هـ، سماه بعضهم أمير المؤمنين في النحو، وقال ثعلب لولا الفراء لما كانت عربية، مات عام ٢٠٧هـ في طريق مكة للحج، من أشهر كتبه«معاني القرآن» ومنها(«المذكر والمؤنث» وكتاب «اللغات» وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٠ / ١١٨، وانظر: تهذيب التهذيب: ١١ / ٢١٢، وانظر: وفيات الأعيان ٦ / ١٧٦ .

(٤) هو أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بقطرب، (وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه لتبكيره إليه في الأسحار، والقطرب دويبة تدب ولا تفتر) نحوي ، عالم بالأدب، واللغة، من أهل البصرة، من الموالي ، كان يرى رأي المعتزلة النظّامية، وهو أول من وضع «المثلث» في اللغة، توفي عام ٢٠٦هـ ، من كتبه «النوادر» و«معاني القرآن» ، و«غريب الحديث» وغير ذلك.

انظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام ٣ / ٢٩٨ للخطيب البغدادي.

أخذاً من قول العرب: ما قَرَأَت الناقة سلا قطٌّ، أي: ما رمت بولد، أي: ما أسقطت ولداً، أي: ما حملت قط. والقرآن يَلفِظُه القارئ مِنْ فِيْهِ ويُلقيه فسُمي قرآناً»[١].

(د) **وقال اللحياني:** «القرآن مصدر مهموز بوزن غفران، وهَمْزَتُهُ أصلية، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا، وسُمِّي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة: ١٧][٢].

وهذا يوافق قول ابن جرير الطبري - رحمه الله - حيث قال: (.. فأما القرآن فإن المفسرين اختلفوا في تأويله، والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس [٣] من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدراً من قول قرأتُ كقولك: الخسران من خسرتُ، والغفران من غفر الله لك.. - ثم استشهد ابن جرير لذلك بتفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة: ١٨]، فقال في تفسيرها: «فإذا بيناه بالقراءة فاعمل بما بيناه لك في القراءة»، ثم قال ابن جرير: وأما على قول قتادة [٤] - أي في تفسيره للآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة: ١٧-١٨]، بأن معناه:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ١٤٦ مع إضافات يسيرة.

(٢) الإتقان للسيوطي ١ / ١٤٦ بتصرف يسير.

(٣) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول بالفقه في الدين وتعليمه التأويل، وقد سمي بالبحر والحبر لكثرة علمه، مات بالطائف سنة ثمان وستين هجرية، وهو ابن إحدى وسبعين سنة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٩٥ لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية، ط (بدون)، د.ت، بيروت، لبنان، وانظر: سير أعلام النبلاء: ٣ / ٣٣١، وانظر: تقريب التهذيب ١ / ٥٠٤ للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٣١هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلدين.

(٤) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي البصري الضرير الأكمه المفسر، ولد عام ٦٠هـ، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، وكان أحفظ الناس، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وله تفسير، مات بواسط في الطاعون سنة ثماني عشرة ومائة وقيل سنة سبع عشرة ومائة. انظر: كتاب تذكرة الحفاظ ١ / ١٢٢ لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، ط (بدون)، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات ومجلد خامس هو «ذيل تذكرة الحفاظ»، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٥ / ٢٦٩، وانظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٤٣.

إن علينا حفظه وتأليفه ، فإذا قرأناه فاتبع جلاله واجتنب حرامه ، فإن لكلا القولين ، أي : قول ابن عباس وقول قتادة ـ وجهاً صحيحاً في كلام العرب ، غيرَ أنَّ أولى قوليهما بتأويل الآية قول ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأن الله جل ثناؤه أمر نبيه في غير آية من تنزيله باتباع ما أُوحي إليه ، ولم يرخص له في اتباع شيء من أمره إلى وقت تأليفه القرآن له...الخ » (١)

وبعد استعراض أقوال أهل اللغة والتفسير لكلمة القرآن وأصل اشتقاقها ، يمكن إجمال أقوالهم في أنها مشتقة من :

[١] القِـران : وهو الجمع بين الأشياء.

[٢] القرينة : وجمعها : القرائن، وهي المتشابهة التي يُصدِّق بعضها بعضاً .

[٣] قَـرأً : بمعنى القراءة والتلاوة، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول أي المقروء .

والذي يبدو من كل ما سبق أن قول القائلين بأن كلمة القرآن مشتقة من غيرها هو قول مرجوح، ويمكن توضيح ذلك كما يلي :

(أ) من قال بأن القرآن مشتق من القِران بمعنى الجمع، أو قَرَأ بمعنى جَمَعَ، وأن القراءة هي جمعٌ وضمٌّ للحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل (٢)، فإن لازم قوله أن معنى الآية : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ هو : إن علينا جمعه وجمعه، وهذا لا يستقيم في تفسير الآية ؛ لأن الله تعالى إنما ذكر كلمة ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ بعد ﴿ جَمْعَهُ ﴾ لإثبات المغايرة بين الكلمتين لا الترادف بينهما .

ويؤيد هذا مانصّ عليه الزركشي (٣) رحمه الله في كتابه : البرهان في علوم

---

(١) جامع البيان ١ / ٦٧، وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) ذكر هذا الشيخ مناع القطان، رحمه الله ، في كتابه : مباحث في علوم القرآن ص١٦ .

(٣) هو الإمام العلامة بدر الدين محمد بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي، مصري المولد والوفاة، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، أخذ العلم عن العلمين : جمال الدين الأسنوي ،وسراج الدين البلقيني، كما رحل إلى الشام وسمع من علمائها ، نبغ في الأصول والفقه والتفسير والحديث والأدب، توفي بمصر في رجب سنة ٧٩٤هـ ، له عدة تصانيف منها : « تكملة شرح المنهاج للإمام الأسنوي »، و« النكت على البخاري » ، و« البحر المحيط في أصول الفقه » ، و« شرح جمع الجوامع للسبكي » في مجلدين. انظر: شذرات الذهب ٦ / ٣٣٥، وانظر: الدرر الكامنة٣ / ٣٩٧ .

القرآن ؛ حيث قال: « لا يكون القرآن من قرأ بمعنى جمع لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ فغاير بينهما » [(١)] .

(ب) من قال بأن القرآن مأخوذ من قولك قرأتُ، وأنه مصدر على وزن فُعلان، سُمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ ، فإن لازم قوله أن كل ما قُرئ من غير كتاب الله المنزل على محمد ﷺ هو قرآن، وهذا غير صحيح.

ولو تأملنا في سياق الآية السابقة لوجدناه يتحدث عن القرآن الذي كان الرسول ﷺ يستعجل قراءته عند نزوله عليه مخافة تَفلُّته منه، ولا يلزم من ذلك دخول غيره فيه،ولأن غير القرآن ـ وهي السُّنَّة ـ كان يُوحَى بمعناه إلى النبي ﷺ ، واللفظ له فما سُمي حديثُهُ قرآناً.

ومن خلال ما سبق : يمكن القول أن الراجح في تعريف القرآن هو القول الأول والذي ينص على أن القرآن اسم علم غير مشتق ، خاص بكلام الله المنزل على محمد ﷺ .

ويُؤيِّد هذا ما ذكره الخطيب البغدادي [(٢)] ، في ترجمته للشافعي ؛ حيث

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٧٧ .

(٢) هو ابو بكر احمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب : أحد الحفاظ المؤرخين المقدّمين، ولد في ٣٩٢هـ في « زُبَيّة » بصيغة التصغير ـ منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشؤه ووفاته ببغداد، رحل إلى مكة، وسمع بالبصرة والدينور والكوفة... واقام مدة في دمشق وصُور وغيرهما... ولما مرض مرضه الأخير وقف كتبه، وفرّق جميع ماله في وجوه البر وعلى اهل العلم والحديث،وكان فصيح اللهجة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر، ولوعاً بالمطالعة والتأليف... توفي عام ٤٦٣هـ، له عدة مصنفات ، من أفضلها « تاريخ بغداد » طبع في اربعة عشر مجلداً، ومن كتبه « البخلاء » ، و« الكفاية في علم الرواية » في المصطلح ، وغير ذلك من المؤلفات التي قيل أنها بلغت ستة وخمسين مؤلفاً، وقيل تسعة وسبعين مؤلفاً.

انظر: معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ١ / ٤٩٧ ،وما بعدها لأبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ)، دار الكتب العملية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، بيروت، وانظر: طبقات الحفاظ ص٩٨٢، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) تحقيق: د. على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط (بدون) ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، مصر.

قال: « وكان يقول - أي الشافعي - القرآن اسمٌ ليس بمهموز، ولم يُؤخذ من قرأتُ، ولو أُخذَ من قرأتُ لكان كلُّ ما قرئَ قرآناً، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل، يُهمَز قرأتُ ولا يهمز القرآن » [1] ، وهذا يوافق قول أبي إسحاق النحوي [2] في القرآن ؛ حيث قال: « يُسمى كلام الله الذي أُنزل على نبيه محمد كتاباً وقرآناً وفرقاناً » [3]

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للفظ القرآنية:

بناءً على ما سبق من معانٍ لغوية للفظ « القرآن » ومشتقاته في اللغة العربية، وانسجاماً مع فقرات البحث وعنوانه؛ فيمكن تعريف القرآنية بأنها: « المقتبسة والمكتسبة من القرآن الكريم الموحى به إلى النبي ﷺ خلال فترة النبوة والرسالة ».

فيخرج بذلك تربية الله لنبيه ﷺ من غير القرآن سواءً عبر الأحداث والوقائع، أو الأحاديث القدسية، أو الآيات المبثوثة في النفس والكون أو غيرها.

---

(١) تاريخ بغداد أو مدينة السلام ٢ / ٦٢ للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.

(٢) هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، الزجاج، البغدادي، نحوي زمانه، قال عنه القفطي : « كان من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد، وله مؤلفات حسان في الأدب » توفي في بغداد عام ٣١١هـ له تأليف جمة منها كتاب: « معاني القرآن » ، و« الاشتقاق » وغير ذلك.
انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١/ ١٩٤ (وهو عنده باسم إبراهيم بن السري بن سهل)، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٦٠، و وفيات الأعيان ١ / ٤٩ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ١ / ١٢٨ .

المطلـــب الرابـــع

مفهـــوم النبـــي

أو لاً: المعنى اللغوي للفظ النبي:

ورد في لسان العرب: « نَبَأُ بمعنى خبر، والجمع أَنْباء.. والنبي هو المخبر عن الله ـ عز وجل ـ كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩] ؛ لأنه أنبأ عنه ، وهو فعيل بمعنى فاعل.. » (١)

وفي النهاية (٢): « فعيل بمعنى فاعل للمبالغة، من النبأ: أي الخبر؛لأنه أنبأ عن الله أي أخبر.. .ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه،يقال نَبَأ ونبًّا وأنْبَأ... » (٣) وتُجمع على أنبئاءُ ونُبَئاءُ،وأما تخفيف الهمز كقولك: نبي الله تُجمع على أنبياء الله .. وقال سيبويه: والهمز في النبيء لغة رديئة، يعني لقلة استعمالها لا لأن القياس يمنع مَن ذلك،الا ترى إلى قول سيدنا رسول الله ﷺ وقد قيل يا نبيء الله، فقال له: (لا تنْبر باسمي فإنما أنا نبيٌّ الله ـ وفي رواية ـ لستُ ببنيءِ الله ولكني نبيٌّ الله). (٤) . قال الجوهري (٥) يُجمع على أنبياء ، ومن غير المهموز حديث

(١) لسان العرب لابن منظور ١ / ١٦٢ وما بعدها، مادة نبأ.

(٢) أي النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري المتوفي عام ٦٠٦هـ

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥ / ٣ لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير.

(٤) رواه الحاكم في ٢ / ٢٣١، في كتاب التفسير عند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وقال الحاكم :هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي إنما قال: بل منكر لم يصح، انظر المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١-٤٠٥ هـ) ، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة، ط (بدون) ، د.ت. بيروت ، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات ومجلد خامس خاص بالفهارس.
وانظر: كنز العمال لعلاء الدين على المتقي الهندي ١١ / ٤٥٧ برقم ٣٢١٤٨ .

(٥) هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، أول من حاول الطيران ومات في سبيله، لغوي، من الائمة... من أشهر كتبه « الصحاح » مطبوع، وله كتاب في « العروض » ومقدمة في « النحو » ، من فاراب من بلاد الترك، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية ، وعاد إلى =

البـراء (١) ، (قلتُ : ورسـولك الذي أرسلتَ، فـردَّ عليَّ وقـال : ونبـيك الذي أرسلْتَ) (٢) ، وتصغير النبيء نُبَيءٌ على الهمز؛ ونُبَي بغير الهمز، وتصغير النبوءة نُبيِّئة » (٣) .

وفي القاموس المحيط: « والنبيء المخبر عن الله ، وترك الهمز المختار... » (٤) .

وفي المفردات في غريب القرآن: « ... والنبي بغير همز ؛ فقد قال النحويون أصله الهمز فتُرِكَ همزه، واستدلوا بقولهم : مسيلمة نُبَيءُ سُوء، وقال بعض العلماء هو من النَّبْوَة أي الرفعة ،وسُمِّي نبياً لِرِفْعَةِ محله ، فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز ؛لأنه ليس كل منَّبأ رفيع القدر والمحل... » (٥) ، « فالنبي ذو

= خراسان، أصله ، ثم أقام في نيسابور، وصنع جناحين من خشب وربطهما بحبل، وصعد سطح داره، ونادى في الناس : لقد صنعت ما لم أسبق إليه وساطير الساعة، فازدحم أهل نيسابور ينظرون اليه، فتأبط الجناحين ونهض بهما، فخانه اختراعه، فسقط إلى الأرض قتيلاً عام ٣٩٣هـ.
انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤ / ٢٠٧ لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ) ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ط (بدون)، د.ت، وزارة الثقافة، مصر. والكتاب يقع في ستة عشر جزءاً، ضمن سبعة مجلدات.

(١) هو البراء بن عازب بن الحارث بن مالك بن الأوس الانصاري الأوسي، يكنى أبا عمارة استصغر يوم بدر، وشهد احداً، وشهد مع الرسول ﷺ خمس عشرة غزوة، شهد مع على الجمل وصفين وقتال الخوارج، نزل الكوفة وابتنى بها داراً ، ومات في إمارة مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين هجرية، وقيل توفي سنة إحدى وسبعين هجرية عن بضع وثمانين سنة.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ١٤٧ لابن حجر العسقلاني، و: أسد الغابة في معرفة الصحابة ١ / ٢٥٨ لعز الدين بن الاثير الحسن علي بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ) ، تصحيح الشيخ عادل الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في سبعة مجلدات، و: سير اعلام النبلاء ٣ / ١٩٤ لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في ٥ / ٢٣٢٦ في كتاب الدعوات، باب: إذا بات طاهراً، برقم ٥٩٥٢ وأخرجه مسلم في ٤ / ٢٠٨١ برقم ٢٧١٠.
انظر:صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)،ضبط وشرح: د. مصطفى ديب البغا، دار القلم، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، دمشق، سوريا، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٣) لسان العرب لابن منظور ١ / ١٦٢ وما بعدها. مادة نبأ

(٤) القاموس المحيط للفيروزآبادي ص٦٧، باب الهمز، فصل النون.

(٥) المفردات في غريب القران، للراغب الأصفهاني ، كتاب النون وما يتصل بها ص٤٨٢ .

رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة ؛ فالأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس » [١]

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للفظ النبي:

أورد الألوسي [٢] ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : ٥٢] .

أورد عدة أقوال في معنى النبي والرسول والفرق بينهما كما يلي:

(أ) النبي هو من بعثه الله لتقرير شرع سابق، والرسول هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه.

(ب) النبي هو من أُوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ أصلاً، والرسول هو من أوحي إليه وأُمِر بالتبليغ.

(جـ) النبي هو من لا كتاب له، والرسول من الأنبياء هو من جمع إلى المعجزة كتاباً منزَّلاً عليه.

(د) النبي هو من يُوحى إليه في المنام لا غير، والرسول هو من يأتيه الملك عليه السلام بالوحي يقظة » [٣]

---

(١) الرسل والرسالات ص١٣، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس ، ط٥، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، عمان، الأردن.

(٢) هو أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود افندي الآلوسي، ولد سنة ١٢١٧هـ في جانب الكرخ من بغداد، جمع كثيراً من العلوم ، فكان مفسراً ومحدثاً، وأصولياً، وفقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي ، ووُلّي المدرسة المرجانية التي كانت ولايتها مشروطة لأعلم أهل البلد، انفصل من منصب الإفتاء وأكب على تفسير القرآن حتى أتمه، وهو «روح المعاني » ، توفي سنة ١٢٧٠هـ ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ.
انظر: التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ١ / ٣٥٢وما بعدها، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٣٩٦هـ، مصر. والكتاب يقع في مجلدين.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٩ / ١٧٢ ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، دار الفكر ، ط(بدون) ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً.

وأورد الشوكاني ـ رحمه الله ـ في معنى النبي والرسول ما يلي:

(أ) النبي هو من أوحى الله إليه إلهاماً أو في المنام، والرسول هو الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً، ومحاورته شفاهاً.

(ب) النبي هو من أُمِر أن يدعو إلى شريعة من قبله ولم يُنزل عليه كتاب، والرسول هو من بُعث بشرعٍ وأمِر بتبليغه... »[١].

وذكر ابن تيمية[٢] ـ رحمه الله ـ في كتابه النبوات أن: « النبي هو الذي يُنبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ الله به،.. فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر، والنهي »[٣].

« والرسول هو من أُرسل إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالةً من الله إليه، فهو الذي يُنبئه الله وهو يُنبئ من خالف أمر الله بما أنبأه الله به..، فالرسل هم منْ أُرسِلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له.. »[٤].

وعلى هذا فإنا نجد أن ابن تيمية ـ رحمهُ الله ـ قد عرَّف الرسول بما عرّف به النبي وزاد أنَّ الرسول مُرسلٌ إلى من خالف أمر الله من الكفار ونحوهم، وكلُّهم ـ أي الأنبياء والرسل ـ مُنبأٌ من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

---

(١) فتح القديره / ٥٣٥ .

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ المجتهد المطلق المفسر شيخ الإسلام ... ابو العباس احمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية الحراني، ولد بحران (على طريق الموصل والشام) دون العشرين من عمره، وقد امتحن وأوذي في الله وحبس مرات، ومات معتقلاً في قلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.
بلغت مصنفاته ثلاث مائة مجلد منها: «العقيدة الواسطية والحموية والتدمرية »، و« رفع الملام عن الائمة الأعلام » ، و« التوسل والوسيلة » ، و« السياسة الشرعية » ، و(الفتاوى) وغيرها.
انظر: تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٩٦، وانظر: شذرات الذهب ٦ / ٨٠ .

(٣) كتاب النبوات٢ / ٧١٤-٧١٧ للعلامة تقي الدين أبي العباس احمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، تحقيق: د. عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، الرياض ، السعودية، والكتاب يقع في مجلدين.

(٤) المرجع السابق ٢ / ٧١٧ بتصرف يسير

وحسَّن شارح العقيدة الطحاوية ابن أبي العز الحنفي (١) رحمه الله قول من قال إنَّ: « مَن نَبَّأه الله بخبر السماء، إنْ أمَرَه أن يُبلِّغ غيره فهو نبيٌّ رسولٌ (٢)، وإن لم يأمره أن يبلِّغ غيره فهو نبيٌّ وليس برسولٍ ؛ فالرسول أخصُّ من النبي، وليس كلُّ نبي رسولاً (٣)، ... » (٤)

ويبدو من استعراض الأقوال السابقة في تعريف النبي ، أن قول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ والذي وافقه عليه شارح العقيدة الطحاوية هو أصح الأقوال ، بمعنى أن النبي هو « منْ أنباه الله وأوحى إليه سواءً أمره بالتبليغ أم لا » .

ويؤيد هذا القول ما يلي:

[١] موافقة ذلك للمعنى اللغوي للفظ نبي كما سبق أن أوضحت.

[٢] اتفاق أهل التفسير ـ دون خلاف ـ صراحة أو ضمناً أن النبي هو من

---

(١) هو القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الدمشقي،ولد عام٧٣١هـ فقيه ، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، وامتحن بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أيبك الدمشقي، توفي عام ٧٩٢هـ بدمشق، له كتب منها: « التنبيه على مشكلات الهداية » في الفقه، و« النور اللامع فيما يُعمل به في الجامع » ، أي جامع بني أمية.
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣ / ٨٧ لابن حجر العسقلاني ، وانظر: شذرات الذهب ٦ / ٣٢٦ لابن العماد الحنبلي (وهو عنده باسم محمد بن علي)

(٢) وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الحج ٥٢، فالآية توحي بان الله قد يرسل أنبياء كما أرسل رسلاً، وقال ابن تيمية في كتابه النبوات ٢ / ٧١٨ عن الآية أنها : « دليل على ان النبي مرسل » .

(٣) قال الالوسي في روح المعاني ٩ / ١٧٢ « وعطف « نبي » على « رسول » أي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ يدل على المغايرة بينهما وهو الشائع، ويدل على المغايرة أيضا ما روى انه ﷺ سُئل عن الأنبياء ، فقال: (مائة الف واربعة وعشرون الفاً) قيل: فكم الرسل منهم؟، قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً) » انتهى.
والحديث الذي ذكره الألوسي -رحمه الله- اخرجه أبو نعيم في الحلية١ / ١٦٦-١٦٧، والبيهقي في السُنن الكبرى٩ / ٤ عن أبي ذر الغفاري، وأول الحديث « دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده...الخ) وهو ضعيف جداً كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ٢ / ٧٩ بتحقيق: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، بيروت ، لبنان.
والحديث سكت عنه الالباني في تحقيقه للمشكاة٣ / ١٥٩٩ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٨، للقاضي على بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (٧٣١-٧٩٢ هـ) ، حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها الألباني، المكتب الإسلامي، ط٩، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ، بيروت، لبنان.

أُوحي إليه، بمعنى أنبأه الله.

[٣] دلالة قوله تعالى عن النبي ﷺ : ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ، فالمفهوم من الآية أن قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أبلغ مما لو قال: « خاتم المرسلين » حيث توحى العبارة الأولى بانقطاع الوحى ، وختم باب النُّبوة (١) ، وهذا مالا تدل عليه عبارة « خاتم المرسلين » فدلَّ هذا على أن النبوة تعنى الوحي والإخبار من الله لأحدٍ من خلقه والنبي هو من أنبأه الله أو نبَّأه.

وبناءً على كل ما سبق فيمكن أن نُعرف النبي ﷺ بما يلي:

النبـي هو: من نبَّأَهُ الله وأوحى إليه ـ سواء أمره بالتبليغ أم لا ـ وهذا لا يكون مشافهة ، إنما كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى : ٥١] . هذا هو تعريف النبي اصطلاحاً.

أما محمد ﷺ ، فهو كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠] .

فيخرج بدلك كل نبي أو رسول قبل محمد ﷺ .

وخلاصة ما ذُكر: في تعريف المفردات السابقة لمصطلحات البحث الواردة في عنوانه أن (التربية الربانية القرآنية للنبي محمد ﷺ) تعني: « عملية الحفظ والرعاية، والإعداد والهداية، التي تلقاها النبي ﷺ من ربه مباشرة عبر آيات القرآن الكريم خلال فترة الرسالة » .

وهذا ما سيتم شرحه بالتفصيل في هذا البحث المكون من ثلاثة أبواب كما يلي:

الباب الأول: إعداد وتربية النبي ﷺ قبل النبوة.

الباب الثاني: تربية النبي ﷺ بعد النبوة.

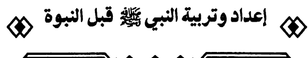
الباب الثالث: الأساليب القرآنية في التربية النبوية .

---

(١) قال ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ٢٢ / ٤٥ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ هو خاتمهم في صفة النبوءة» .

الباب الأول

إعداد وتربية النبي ﷺ قبل النبوة



ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الإعداد الجبلّي للنبي ﷺ قبل النبوة.

الفصل الثاني: الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ قبل النبوة.

الفصل الثالث: الإعداد التأييدي للنبي ﷺ قبل النبوة.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإعـــداد الجبلّي للنبي ﷺ قبل النبـــوة

الفصل الأول

الإعداد الجبلّي للنبي ﷺ قبل النبوة

تمهيد :

مما لا شك فيه أن الأعمال الجليلة والمنجزات العظيمة في تاريخ البشرية لا يقوم بها إلا أولو العزم من الرجال ممن علت هِمَّتُهم وقَويت إرادتهم وتوفرت استعداداتهم وطاقتهم.

وبناء على هذا ، فإنَّ أقدر الخلق تأثيراً في واقع المخلوقين هم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وذلك لأنهم يمثلون ذروة الكمال الإنساني في شخصيتهم الإنسانية والرسالية، وبالتالي يقتضي الأمر العناية بهم والإعداد لهم ليتمكنوا من حمل الأمانة الجسيمة .

وعندما التأمل في مراحل حياة النبي ﷺ والأحداث التي مر بها والظروف البيئية والعادات المتوارثة التي أحاطت به، نجد أن الله عز وجل، قد أعد هذا الرسول العظيم إعداداً خاصاً واعتنى به عناية فائقة خلال أربعين عاماً من حياته قبل النبوة ،وذلك ليصل إلى مرحلة النضج والاكتمال البشري، ويُؤهَّل لتحمل الرسالة بجدارة واقتدار ونجاح، كغيره ممن اصطفاهم الله عز وجل للنبوة والرسالة ، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج :٧٥] ، فرسولنا العظيم قد جمع الله له من المؤهلات والكمالات للرسالة السماوية ما تفرق في غيره ممن سبقه من صفوه خلق الله .

وأول ما أعدَّ الله به رسوله محمداً ﷺ لتحمل الرسالة الإعداد الجبلي له ـ قبل إكرامه بالنبوة والرسالة ـ وأقصد به ما طبع الله ـ تعالى ـ به رسوله محمداً ﷺ من

صفات خَلْقية خلقه عليها ، وما أوجد فيه من كمال الخِلْقة والخُلُقِ مما يؤهله لتحمل الرسالة وأدائها على أحسن وجه وأكمله ، كما قال القاضي عياض [(١)] ـ رحمه الله ـ « إذا نظرْتَ إلى خصال الكمال ـ أي في رسول الله ﷺ ـ التي هي غير مكتسبة، وفي جِبِلَّة الخِلْقة، وجدتَهُ ﷺ حائزاً لجميعها مُحيطاً بشتات محاسنها دون خلاف » [(٢)]

وحتى يتضح لنا أن الله ـ تعالى ـ قد أعد رسوله جِبِلِّيًا للرسالة خَلقاً وخُلُقاً، يمكن تقسيم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين .

---

(١) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، المولود في سبتة عام ٤٧٦هـ، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، تولى القضاء في سبتة ثم غرناطة، توفي عام ٥٤٤هـ بمراكش مسموماً، قيل سمَّه يهودي، له عدة مصنفات منها: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» و«شرح صحيح مسلم» في الحديث و«الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» في المصطلح، وغير ذلك.
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ٤٨٣ .
وانظر: ديوان الإسلام ٣ / ٢٧٢-٢٧٣ لشمس الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزى (١٠٩٦-١١٦٧هـ) تحقيق: سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٨١ للقاضي عياض ، أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي٤٦٧ - ٥٤٤هـ تحقيق على محمد البجادي، دار الكتاب العربي، ط (بدون) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

المبحث الأول
الإعداد الجبلّي لرسول الله ﷺ خَلقاً

أكرم الله رسوله ﷺ ببعض المزايا والخصائص اللازمة لنجاحه في دعوته ، ولها أثر عظيم في أسر قلوب المدعوين ، وجذب انتباههم لحديثه،ويتضح هذا من خلال المطالب الثلاثة التالية:

- المطلب الأول: سلامة الحواس ووفور الأعضاء ورجاحة العقل.
- المطلب الثاني: جاذبية المنطق ووضاءة الوجه.
- المطلب الثالث: أُمّية القراءة والكتابة.

المطلـــب الأول

سلامة الحواس ووفور الأعضـــاء ورجاحة العقـــل

اقتضت حكمة الله عز وجل أن خَلَقَ رسول الله ﷺ في أحسن تقويم، فاكرمه بكمال الخِلْقة وَصَانه من كل نقص أو عيب في جوارحه، وسلَّمه من كل علة وخلل في حواسه مما يتعارض مع تمام التبليغ أو قبول البلاغ المبين .

قال القاضي عياض: " وأما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك.. " (١) .

بل نجد أن الله عز وجل قد جبل النبي ﷺ على نضوج الفهم ورجاحة العقل وذكاء اللُّب ، كما قال القاضي عياض: " وأما وفور عقله وذكاء لُبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، فلا مِرْية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة.. دون تَعَلُّمٍ سَبَقَ ولا ممارسةٍ تقدمت ، ولا مطالعة للكتب.. لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة" (٢) .

ولا شك أن هذا الإعداد بهذه الصفة للنبي ﷺ له أثر عظيم في تمكنه ﷺ من البلاغ المبين سواء بفصاحة اللسان، أو قوة الحجة وغيرها.

---

(١) الشفا للقاضي عياض ١ / ٨٢ .
(٢) المرجع السابق ١ / ٩١ .

المطلـب الثانـي

جاذبية المنطق ووضاءة الوجـه

كما أن الله تعالى قد أعدَّ نبيه ﷺ بسلامة الحواس ووفور الأعضاء ورجاحة العقل، فقد أعده ـ سبحانه وتعالى ـ أيضاً بحلاوة المنطق، وعذوبة اللسان، ووضاءة الوجه، واعتدال الحركات، واتزان النفسية.

ويظهر كل هذا من خلال وصف أم مِعبد(١) لرسول الله ﷺ وهي تخبر زوجها بذلك قائلة له (رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة(٢)، حَسَنَ الخَلْق، أبْلَج الوجه(٣)، وسيم(٤)، قسيم(٥)، إن صَمَتَ فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصلاً لا نزر(٦) ولا هذر(٧) ..)(٨)

---

(١) هي أم معبد بنت خالد الخزاعية الكعبية، واسمها عاتكة، وهي أخت حبيش بن خالد، وهي التي نزل عندها رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة.. أسلمت يوم هجرة النبي ﷺ .. وقيل بل بعد ذلك؛ حيث قدمت على رسول الله ﷺ وبايعته على الإسلام، كانت امرأة تسقي وتطعم.. وقد وصفت رسول الله ﷺ فاحسنت.
انظر: أسد الغابة ٧ / ٤٣٤ ترجمة رقم ٧٥٩٨ وانظر: طبقات ابن سعد ١ / ٢٣٠، وانظر: تقريب التهذيب ٢ / ٦٧٣، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، وبذل كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٣ / ٢٩٠ وما بعدها.

(٢) ظاهر الوضاءة أي: ظاهر الحسن والجمال والنظافة لسان العرب ١ / ١٩٥

(٣) ابلج الوجه أي: حسن أبيض واسع الوجه، والمعنى مشرق الوجه مضيئة. لسان العرب ٢ / ٢١٥.

(٤) وسيم أي: ثابت الحُسن، وفلان وسيم أي حسن الوجه. لسان العرب ١٢ / ٦٣٧

(٥) قسيم أي: جميل كله، لسان العرب ١٢ / ٤٨٢.

(٦) لا نزر أي: ليس بقليل فيدل على عيٍّ، النهاية في غريب الحديث والاثر ٥ / ٤٠.

(٧) ولا هذر أي كثير الكلام فيما هو غير مفيد وفاسد، نفس المرجع ٥ / ٤٠.

(٨) رواه الحاكم ٣ / ٩، وقال: حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال: «ونزول المصطفى في الخيمتين متواتر في أخبار صحيحة»، وقال عبد القادر وشعيب الارناؤوط في زاد المعاد ٣/ ٥٧: حديث حسن.

وكما قال أبو هريرة [١] رضي الله عنه في وصف رسول الله ﷺ : (من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبهُ) [٢] .

ولا شك أن لكل ما سبق أثراً بارزاً في إقبال المدعوين على رسول الله ﷺ ورسالته، فالعين تأنس برؤيته، والأذن تصغي برغبة وإقبال على حديثه، والذهن أو العقل يُعجب بكمال ووفور فهمه وحلاوة كلامه وفصاحة لسانه، والقلب يُقبل عليه بكل شغف واهتمام وهيبة وتعظيم واحترام ، وبالتالي فإن حصول كل ما سبق هو أدعى لنجاح محمد ﷺ في دعوته وتأثيره في قلوب وعقول المدعوين.

---

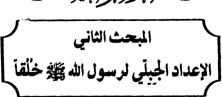
(١) وعبد الرحمن بن صخر ـ على أرجح الأقوال ـ الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ ، أبو هريرة رضي الله عنه الدوسي اليماني، حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.. حدّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين.. كان يُصْرع لشدة جوعه.. قال الشافعي : «أبو هريرة رضي الله عنه احفظ من روى الحديث في دهره »، وقد ولي البحرين لعمر.. وكان وثيق الحفظ.. مات سنة تسع وخمسين هجرية بالمدينة المنورة ـ وقيل غير ذلك ـ .
روى من الأحاديث خمسة آلاف وثلاث مائة واربعة وسبعين حديثا .
انظر: سير أعلام النبلاء ٢ / ٥٧٨-٦٣٢، و: أسد الغابة٣ / ٤٧٥، و: تقريب التهذيب٢ / ٤٨٣ .

(٢) الشفاء للقاضي عياض ١ / ٨٥ .

المطلب الثالث

أمية القراءة والكتابة

ومن مظاهر الإعداد الجِبِلّي لرسول الله ﷺ في خَلْقه أن عاش أُمِّيًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكن ليحدِّث قومه بأخبار الغيب لعدم علمه بها وخاصة غيب الماضي، ولم يُعرف عنه دراسة كتب السابقين أو علومهم، وهذا كله إنما هو من قبيل الإعداد له بإثبات صدق رسالته وتقرير حقيقة عدم معرفته للقراءة والكتابة والشعر والقصة والغيب، وأنَّ علومه كلها كان مصدرها الوحي : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، بل إن هذه الفترة - الأربعين عاماً قبل النبوة - كانت كافية لقوم محمد رسول الله ﷺ ليعرفوا ماضيه، ويتحققوا من صدق ما جاء به ، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس : ١٦] .



المبحث الثاني
الإعداد الجبلّي لرسول الله ﷺ خُلُقاً

لمّا كانت الرسالة التي يحملها الرسول ﷺ عظيمةً في أهدافها وحقائقها وعقيدتها وتشريعاتها وثمارها في الدنيا والأخرى، فإنه لا يمكن أن يحملها إلا من تمَّ إعداده لها بخُلُقٍ عظيم، وسلوك قويم، وهمَّة عالية وصفات أخرى لا بد منها.

ورسول الله ﷺ قد حقق الله له هذا الإعداد قبل النبوة، حيث جبله على أخلاق عظيمة وسجايا كريمة لم تكن لغيره، وجمع له من خصال الخير ما لم يجمعه لغيره، وحفظه من خصال الشر ولوجاً فيها أو تطبعاً عليها أو تعلُّقاً بها - بصورة جعلته - يتميز عن غيره في مجتمعه وبيئته التي عَلَتْها ظلمات الشرك والوثنية والجهالة.

وتتضح هذه المميزات التي جَبَله الله عليها من خلال المطالب الأربعة التالية.

المطلـــب الأول

أصالة نَسَبه ، وطهارة عِرْقه ﷺ

مما اشتهر في مجتمع القبائل العربية الافتخار بالأنساب والأصول الشريفة والمدح لذلك، ومما تعارف عليه العرب ـ أيضاً ـ الطعن والقدح في ذوي الأنساب المقطوعة أو المجهولة وما فيها من عيب أو نقص أو دخن ونحوه، فغالباً ما يتعرض صاحب النسب الوضيع أو المجهول إلى سخرية واحتقار وتجريح وتشنيع وانتقاص، فيشعر بالدونية والنقص مما يدفعه إلى التهرب من مواجهة المجتمع والتغيب عن ساحاته العامة.

وهذا كله قد صان الله نبيه محمداً ﷺ من الوقوع فيه أو التعرض له ؛ فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ « يأوي إلى ركن شديد في عراقة النسب وشرف الموطن في بيئة تقيم وزناً خاصاً لذلك، وتُعِدُّه من أهم الأمور في حياتها، وتفاخر به، بل وتُربي أجيالها عليه » (١) .

وفي هذا يقول القاضي عياض ـ رحمه الله ـ « وأما شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومَنْشَئِه، فهو مما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قِبَلِ أبيه وأُمِّه، وهو من أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.. » (٢) .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ،**

(١) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٥٩٢، بتصرف يسير، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨)هـ، تحقيق: عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة، والكتاب يقع في مجلدين.
(٢) الشفاء ١ / ١٠٧ .

واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم » (١)

وفي رواية للترمذي (٢) : عن العباس بن عبد المطلب (٣) ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : « **إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخيَّر فجعلني من خير قبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً**» (٤)

---

(١) رواه مسلم في ٤ / ١٧٨٢ في كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ برقم ٢٢٧٦ عن واثلة ابن الأسقع، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١٥٠ برقم ١٦٩٥٧ والترمذي في ٥ / ٥٤٤ برقم ٣٦٠٥ .
انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ) تعليق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في خمسة مجلدات .

(٢) هو الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، صاحب(الجامع)وكتاب (العلل) ولد في حدودسنة عشرومئتين هجرية، في ترمذ، وقيل في قرية بوغ(إحدى قرى ترمذ) من شيوخه البخاري وإسحاق بن راهوية وغيرهما، فقد بصره في كبره بعد رحلته وكتابته العلم، مات سنة سبعين ومئتين.
انظر: تهذيب التهذيب ٩ / ٣٨٧، وانظر: وفيات الأعيان: ٤ / ٢٧٨، وانظر: سير اعلام النبلاء للذهبي١٣ / ٢٧٠ .

(٣) وهو عباس بن عبد المطلب بن هاشم.. عم رسول الله ﷺ، يكنى أبا الفضل بابنه.. وكان أسنّ من رسول الله ﷺ بسنتين وقيل بثلاث سنين.. وكان في الجاهلية رئيساً في قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية...وشهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة لما بايعه الأنصار ليشدد له العقد، وكان حينئذ مشركاً، وكان ممن خرج مع المشركين إلى بدر مكرهاً، وأسر يومئذ فيمن أسر.. وفدى يوم بدر نفسه.. وأسلم عقيب ذلك، وقيل أنه أسلم قبل الهجرة، وكان يكتم إسلامه، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين ، وكان من بمكة من المسلمين يتقوون به... وأراد الهجرة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله «مقامك بمكة خير » . ثم هاجر إلى النبي ﷺ ، وشهد معه فتح مكة.. وشهد حنيناً وثبت مع رسول الله لما انهزم الناس بحنين. كان ذا رأي سديد وعقل غزير.. استسقى عمر بن الخطاب به عام الرمادة.. وفقد بصره في آخر عمره، وتوفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين هجرية ودفن بالبقيع ، وقد أعتق العباس سبعين عبداً.
انظر: أسد الغابة ٣ / ١٦٣-١٦٦ ترجمة رقم ٢٧٩٧، و:سير أعلام النبلاء٢ / ٧٨، و: تقريب التهذيب١ / ٤٧٣

(٤) أخرجه الترمذي في٥ /٥٤٥ في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ باب فضل النبي ﷺ برقم ٣٦٠٧، وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وأخرجه الإمام أحمد في ١ / ٢٥٩ برقم ١٧٨٧، وابن كثير

وعندما سأل هرقل الروم أبا سفيان [١] عن رسول الله ﷺ قائلاً: له « .. كيف نسبه فيكم؟ قلتُ - أي أبو سفيان - هو فينا ذو نسب، قال - أي هرقل - فهل قال هذا القول منكم أحد قط؟ قلتُ: لا .. إلى أن قال للترجمان: قل له سألتُكَ عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها »[٢].

وهكذا جبلَ الله رسوله ﷺ على أصالة النسب ليدعو قومه وهو رافع الرأس عزيز النفس « فَمِنْ أصالة أبيه وأمه أخذ رسول الله ﷺ في دمه وأعصابه أصالة شخصيته ووضوحها ونقائها، وكسب على المستوى الاجتماعي احتراماً وتقديراً في بيئةٍ كانت تستهجن مجهول الأنساب وتحتقر الخلطاء » [٣]

= في تفسيره ٢ / ١٧٩ .
انظر: الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩-٢٩٧)هـ بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(١) هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، يكنى أبا حنظلة، وهو والد معاوية، وابنته أم حبيبة ﵂ زوج النبي ﷺ ، كان رأساً للمشركين يوم أُحُد والأحزاب، ثم أسلم عام الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، مات في آخر خلافة عثمان وهو ابن ثمان وثمانين سنة، إحدى وثلاثين هجرية، وقيل غير ذلك ، وكانت وفاته بالمدينة المنورة.
انظر: الإصابة ٣ / ٢٣٧، وانظر: أسد الغابة لابن الأثير٦ / ١٥٧ ترجمة رقم ٥٩٦١، و: سير أعلام النبلاء٢ / ١٠٥ .

(٢) رواه البخاري في ١ / ٧ في كتاب بدء الوحي ، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم ٧، عن عبد الله بن عباس ﵄ . وأول الحديث قول أبي سفيان (انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ...) وأخرجه مسلم في ٣ / ١٣٩٣ برقم ١٧٧٣ .

(٣) دراسات في السيرة، ص٤٧، د. عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، ط٣، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، بيروت ، لبنان .

المطلـــب الثانــــي

اتصافه ﷺ بصفتي الصدق والأمانة

فرسول الله ﷺ قد اتصف بذلك منذ نعومة أظفاره حتى اشتهر بهما بين الناس وسمّاه قومه بالصادق الأمين، بل قالوا ما جرّبنا عليك إلا صدقاً .. وذلك في قصة إنذاره لهم عند نزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾. [الشعراء : ٢١٤] [١]

ومما يدل على اشتهاره بالصدق إجابة أبي سفيان على هرقل الروم عندما قال له هرقل: (..وسألتُك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرفُ أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله) [٢]

ومن أدلة شهادتهم له بالأمانة ما أورده ابن هشام [٣] في السيرة النبوية عن ابن

---

(١) أخرج البخاري في ٤ / ١٧٨٧ برقم ٤٤٩٢ في كتاب التفسير، في تفسير سورة الشعراء، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ عن ابن عباس قال: «لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا ... إلى أن قال ابن عباس ، فقال رسول الله ﷺ : «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً.. » .

(٢) رواه البخاري في ١ / ٧ كتاب بدء الوحي ، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم ٧، عن ابن عباس، والحديث طويل، وأخرجه مسلم في ٣ / ١٣٩٣ برقم ١٧٧٣ .

(٣) هو العلامة النحوي الأخباري أبو محمد عبد الملك بن هشام الذهلي السدوسي ، سمع السيرة النبوية من زياد البكائي، ـ صاحب إسحاق ـ وهذبها، له مصنف في أنساب حمير وملوكها ، التقى بالشافعي واثنى عليه توفي بسنة ثلاث عشرة ومائتين وقيل سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية .انظر: كتاب الوافي بالوفيات ٦ / ٢٦ لصلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ) تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في تسعة وعشرين مجلداً. وانظر: سير أعلام النبلاء١٠ / ٤٢٨، وانظر: وفيات الأعيان ٣ / ١٧٧، و إنباه الرواة ٢ / ٢١١ .

إسحاق[١] قوله: « . . أما علي ، فإن رسول الله ـ فيما بلغني ـ أخبره وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس. . » [٢].

فهذا يُفهم منه أنه ﷺ قد بلغ مبلغاً عظيماً في الأمانة حتى وضع كفار قريش ودائعهم عنده رغم محاربتهم له.

يتضح لنا مما سبق أن الله قد جبل رسوله ﷺ على الصدق والأمانة؛ ليكون له ولدعوته القبول لدى المدعوين عند إبلاغه لهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وليفهم الناس أن من لم يكذب عليهم طوال أربعين عاماً من حياته معهم كبشر سويٍّ لن يكذب عليهم أبداً بعد أن صار رسولاً يوحى إليه من السماء.

---

(١) هو العلامة الحافظ الإخباري أبو بكر ، محمد بن إسحاق بن يسار ، مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، رأى أنس بن مالك وحدّث عنه، كان احد أوعية العلم حبراً في معرفة المغازي والسيرة وثقه بعضهم، وضعفه آخرون، قال ابن سعد : كان محمد ثقة، وقد روى الناس عنه، وقال عنه الزبيري وجُلِدَ ابن إسحاق « يعني في القدر »، وقد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه، ولد سنة ثمانين هجرية وأقام بالمدينة ثم خرج إلى بغداد ومات بها سنة إحدى وخمسين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد٧ / ٣٢١، و: تذكرة الحفاظ١ / ١٧٢، و: تهذيب التهذيب لابن حجر ٩ / ٣٨ - ٤٦ .

(٢) السيرة النبوية ٢ / ١٢٧، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ أو ٢١٨)هـ تعليق محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

المطلب الثالث

تحلّيه ﷺ بخُلُق الحياء

من مظاهر الإعداد الجِبِلّي لرسول الله ﷺ خلُقاً أن طبعه الله ـ عز وجل ـ بطابع الحياء كما في الحديث المروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (١) .

قال رضي الله عنه : (**كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عُرف في وجهه**) (٢) . هذا كله رغم وجوده ﷺ في مجتمع يجاهر بالمنكرات ، ويكشف العورات، وهذا يعني أن هذه الصفة هي إحدى الصفات الكريمة التي عصمه الله تعالى بها من الوقوع فيما يخدش الحياء من منكرات الأخلاق والأعمال والأقوال ، وبهذا يتحقق الإعداد الأكمل للنبي ﷺ .

---

(١) هو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، سعد بن مالك بن سنان بن الأبجر وهو: خدرة بن عوف الأنصاري الخزرجي، استصغر بأُحد واستشهد أبوه بها، وغزا هو ما بعدها، كان من المكثرين للحديث عن رسول الله ﷺ ، وكان افقه أحداث الصحابة، مات سنة اربع وسبعين هجرية، وقيل غير ذلك، وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع.

(٢) رواه البخاري في ٣ / ١٣٠٦ في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، برقم ٣٣٦٩، ومسلم في ٤ / ١٨٠٩ في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه برقم ٢٣٢٠ .

المطلب الثالث

تميزه ﷺ بصفات وخلال أخرى (حميدة)

من مظاهر الإعداد الجبلي لرسول الله ﷺ في خُلُقه أن جَبَله الله - عز وجل - على أخلاق وسجايا كريمة أخرى تجعل له المكانة العظمى والاحترام والمحبة والتقدير لدى قومه.

ومن هذه الاخلاق والخلال الحميدة التي أكرمه الله بها قبل النبوة ما ذَكَرَتْه خديجة (١) - رضي الله عنها - عند نزول الوحي لأول مرة على رسول الله ﷺ، واشتد خوفه من ذلك، فطمأنَتْهُ خديجة رضي الله عنها بذكر بعض أوصافه وخلاله التي اتصف بها قبل النبوة قائلة له: « **والله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل** (٢)**، وتكسب المعدوم** (٣)**، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب**

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد.. القرشية الأسدية، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، أول امرأة تزوجها، وأول من أسلم على الإطلاق بإجماع المسلمين، كانت تُدْعى في الجاهلية الطاهرة، وكانت قبل رسول الله عند أبي هالة هند بن النباش... وخلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عابد ثم رسول الله ﷺ، تزوجها قبل الوحي وعمره حينئذ خمسة وعشرون عاماً - وقيل غير ذلك -، زوّجها منه عمها عمرو بن أسد، وكان عمرها حينئذ أربعين سنة وأقامت رضي الله عنها معه أربعاً وعشرين سنة... ولدت له غلامين وأربع بنات.. وقيل ثلاثة وأربع بنات.. توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين-كما صوّبه ابن الاثير في أسد الغابة- قبل أن تفرض الصلاة.

انظر: كتاب أزواج النبي ﷺ ص٣٥-٧٦، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي (ت٩٤٢هـ) تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، دمشق، سوريا، وسير أعلام النبلاء ٢ / ١٠٩-١١٠، وأسد الغابة ٧ / ٨٨-٩٦ ترجمة رقم ٦٨٦٧ . .

(٢) تحمل الكَلّ: الكَلّ بفتح الكاف، وهو من لا يستقل بامره، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ [النحل :٧٦].

(٣) تُكسب المعدوم: بالفتح والضم.. الكسب هو الاستفادة، والمعنى إذا رغب غيرك أن يستفيد مالا موجودا رغبت أنت ان تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه، وقد يكون معناه: ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه هو ويكسبه .

الحق..الخ)[١] .

وجماع القول ما ذكره الشيخ الطاهر بن عاشور قائلاً: « إن رسول الله ﷺ جمَعَ هَدْيَ الأولين، وأُكملت له الفضائل »[٢] ، بل (لقد حاز من الشرف وكرم النسب وزكاء الأصل والكمال الجسماني والخُلقي ما لم يَحُزْه أحد قط)[٣] .

ولا شك أن اجتماع أنبل الأخلاق العظيمة في شخص رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم : ٤] ، قبل النبوة إنما هو من باب الإعداد الإلهي له، وذلك فضل الله القائل ممتّناً على رسوله : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

ولم يكتسب النبي ﷺ هذه الأخلاق العظيمة من تلقاء نفسه أو باجتهاده، إنما كما قال القاضي عياض - رحمه الله - عن الأنبياء أنهم إنما « يصلون الغاية، ويبلغون باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة »[٤]

وبعد هذا الإعداد الجبلي من الله لرسوله محمد ﷺ خَلْقاً وخُلقاً حيث تُعتبر هذه هي المرحلة الأولى من مراحل إعداده ﷺ للنبوة، أعده الله عز وجل إعداداً آخر وهيأه من جانب آخر، وذلك لينجح في البلاغ المبين عن رب العالمين على أحسن صورة، حيث أعدَّه إعداداً ربانياً ، وأكسبه الكثير من الخبرات والتجارب اللازمة له والنافعة له عند حمل الرسالة وأداء الأمانة ، وهذا ما سأعرض له في الفصل الثاني.

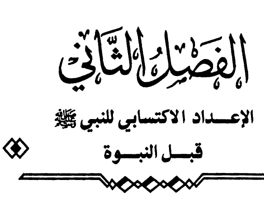
= انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١ / ٢٤-٢٥ للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢)هـ ، ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط (بدون) د. ت، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في ثلاثة عشر مجلداً ومقدمة في فهرس خاص.

(١) أخرجه البخاري في ١ / ٤ في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي برقم ٣، عن عائشة، ومسلم ١ / ١٣٩، في كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي برقم ١٦٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ٣٥٥، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسُّنَّة ٢ / ٦٦٥، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلدين.

(٤) الشفا ١ / ١٣١ .



الفصل الثاني

الإعــداد الاكتسابي للنبي ﷺ
قبــل النبــوة

الفصل الثاني

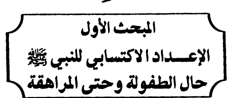
الإعــداد الاكتسابي للنبي ﷺ قبــل النبــوة

واقصد به ما أعدَّ الله به رسول الله ﷺ عن طريق إكسابه صفاتٍ وخبراتٍ وتجارب كثيرة في حياته قبل النبوة كان لها أثر كبير في صقل مواهبه والارتفاع بقدراته وطاقاته واستعداداته، وتهيئته فكرياً ونفسياً وجسدياً لتحمل مشاق الدعوة والصبر على بلائها وُحسن إبلاغها إلى أهلها .

ويتضح هذا من خلال تقسيم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين:

المبحث الأول : الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ حال الطفولة وحتى المراهقة .

المبحث الثاني : الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ حال شبابه ، وحتى بلوغه الأربعين من عمره .



المبحث الأول
الإعـــداد الاكتسابي للنبي ﷺ
حال الطفولة وحتى المراهقة

وينقسم إلى أربعة مطالب:

المطلـــب الأول
رضاعته ونشأته ﷺ في البادية

من المعلوم أن العرب سابقاً كانوا يحرصون على تربية أبنائهم صغاراً في البادية ، حيث صفاء الهواء ونقاوة الطبيعة وفصاحة العربية وشجاعة القلوب وصحة الأبدان ، ففي مثل هذه البيئة رضع ونشأ النبي ﷺ وتطبع على ما فيها من خلال الخير ومكتسبات المجتمع والبيئة، كان ذلك كله ولا زال النبي ﷺ على الفطرة وصفاء الذهن ونقاء السريرة حيث كان مُهَيَّئًا لأن يُطبع بطابع الخير .

كما قال ابن خلدون (١) ـ رحمه الله ـ : : « إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت متهيأة لقبول ما يَرِد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، وبقدر ما سبَقَ أحد الخُلُقين تَبْعُد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا

---

(١) هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي المعروف بابن خلدون، المولود في تونس عام ٧٣٢هـ من ولد وائل بن حجر الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري المالكي، حفظ القرآن وعدداً من المتون، وبرع في عدد من العلوم الشرعية واللغوية، ورحل في طلب العلم، وكان آخر أمره أن تصدَّر للإقراء في جامع الأزهر، وكان لساناً فصيحاً بليغاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور . . توفي عام ٨٠٨هـ ، له عدة مصنفات أهمها : « تاريخ ابن خلدون » المسمى « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .
انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد السخاوي ٤ / ١٤٥ وما بعدها.

سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصَلَتْ له ملَكَتُه بَعُدَ عن الشر وصعُب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده» (١)

ومن هنا نفهم أن النبي ﷺ عندما تربى حال طفولته في البادية ورضع ونشأ هناك إنما كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُعده إعداداً خاصاً للنبوة من خلال إكسابه قوة البدن، وفصاحة اللسان وطلاقة الفكر، «ويُحصِّنه من أمراض المدنية العضوية والنفسية والفكرية والسلوكية الاجتماعية التي غالباً ما تعاني منها التجمعات البشرية» (٢)

---

(١) تاريخ ابن خلدون المسمى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١ / ١٣٢ لعبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨)هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في سبعة مجلدات.

(٢) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة في المرحلة المكية، للطيب برغوث ص٢٠٤ .

المطلب الثاني

رعيه ﷺ للأغنام

ومما أعد الله به رسوله محمداً ﷺ لحمل النبوة والرسالة، أن ألهمه رعي الأغنام كما في الحديث الصحيح: «**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحاب** رسول الله ﷺ : وأنت؟ ، فقال: « **نعم ، كنتُ أرعاها على قراريط** (١) **لأهل مكة**» (٢)

قال الحافظ ابن حجر (٣) **ـ رحمه الله ـ** « قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أُمتهم، ولأن في مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحِلم والشفقة ؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمْعِها بعد تفرقها في المرعى، ونَقْلِها من مسرح إلى مسرح،

(١) قراريط: جمع قيراط وهو جزء من النقد، وقيل اسم موضع قرب جياد بمكة. انظر صحيح البخاري ٣ / ٧٨٩، ضبط وترقيم: د. مصطفى البغا، وانظر فتح الباري ٤ / ٤١٤، لابن حجر رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري في ٢ / ٧٨٩، كتاب الإجارة ، باب رعى الغنم على قراريط، برقم ٢١٤٣ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وانظر نصب الراية للزيلعي ٤ / ١٣٢، وشرح السُّنَّة للإمام البغوي ٨ / ٢٦٥ .
قراريط: جمع قيراط وهو جزء من النقد، وقيل اسم موضع قرب جياء بمكة، انظر صحيح البخاري ٣ / ٧٨٩، د. مصطفى البغا، وانظر فتح الباري ٤ / ٤١٤، لابن حجر رحمه الله .

(٣) هو الإمام الحافظ الشهير أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده بالقاهرة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، انفرد بمعرفة الحديث وعلله في الزمان المتأخر ، حفظ القرآن وهو ابن تسع وبعض متون العلم، ورحل إلى بلدان كثيرة لطلب العلم، أطلق عليه لفظ الحافظ، ورحل الطلبة إليه، وانتشرت مؤلفاته في حياته ،وهي كثيرة جداً منها ما كمل ومنها ما لم يكمل.. توفي بالقاهرة ٨٥٢هـ، من أشهر مصنفاته « فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، و« لسان الميزان» ، و« تهذيب التهذيب» ، و« بلوغ المرام من أدلة الأحكام» وغيرها .
انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ١ / ٨٧ ومابعدها، و: الضوء اللامع لاهل القرن التاسع٢ / ٣٦ للسخاوي، و: الجواهر والدر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٨٣١ - ٩٠٢ هـ)، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، بيروت، لبنان، . والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

ودفع عدوها من سبُعٍ وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألِفُوا من ذلك الصبر على الأُمَّة ، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل ممَّا لو كُلِّفوا القيام بذلك لأول وهله لِمَا يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم.. » (١)

إذاً مما سبق تتضح لنا حكمة الله في إعداده للنبي ﷺ من خلال إلهامه ﷺ رعاية الأغنام ، وذلك ليكتسب كل ما سبق ذكره وليعتاد التواضع والخلوة ، ويتربى ﷺ من سياسية الغنم ورعيها إلى سياسة الأمم وقيادتها وتربيتها.

---

(١) فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

المطلب الثالث

تعرُّضه ﷺ لليتم والفقر في حياته

من المعلوم أن النبي ﷺ لم ير أباه، حيث مات قبل ميلاده، ثم لحقت به أمه، وعمره ﷺ ست سنوات، ثم جده، وبلغ الثامنة من عمره وهو في كفالة عمه أبي طالب الذي تكفل بتربيته بعد أبويه وجدّه عبد المطلب، وهنا تتجلى رعاية الله وعنايته بالنبي ﷺ من خلال أمرين اثنين:

أولاً: حفظه من مؤثرات اليُتم السلبية في حياته؛ فمن المعروف أن نشأة الأيتام تكون عادة على نقائص؛لأنهم لا يجدون من يُعْنى بتهذيبهم وتعهد أصولهم الخُلقية،وأيضاً فإن الأيتام ـ غالباً ـ يتربون على نقص في الفضائل وأخلاق الخير ـ هذا إن سلموا من الرذائل وأخلاق السوء ـ هذا هو المعهود في الأيتام، لكن النبي ﷺ رغم تعرضه لليُتم في صغره قد حفظه الله ـ عز وجل ـ من مؤثرات اليُتم السلبية في حياته، وأشار إلى ذلك فقال ممتنًا عليه فقال:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ [الضحى:٦] ، أي: «حوَّل يُتمك هذا إلى نعمة فانشاك على كمال الإرادة والاستقامة وجعلك نموذجاً فريداً في اكتمال خلقك وخُلُقك تأخذ بمجامع قلوب الناس» [١].

وقد كان يُتم والنبي ﷺ نعمةً له من حيث «إكسابه الاعتماد على النفس والصلابة والاستقلالية والقدرة على التحمل والإرادة النافذة» [٢] ، «وحتى لا يعتمد من أول صباه، إلى آخر عمره على أحد سوى الله» [٣] .

---

(١) منهج النبي في حماية الدعوة المكية ص١٩٦ للطبيب برغوث.

(٢) دراسات في السيرة ص٤٧، د/ عماد الدين خليل

(٣) التفسير الكبير ٣١ / ٢٠٠، للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (٥٤٥-٦٠٦)هـ، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ـ بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أحَدَ عَشَرَ مجلداً تضَمَّن اثنين وثلاثين جزءاً .

ثانياً: نجد رعاية الله للنبي ﷺ في صِغره بعد موت أمه من خلال تعويضه الحنان والحب الذين كانت تحوطُه بهما مرضعته التي كانت تحرص عليه أكثر من أولادها، ثم جده عبد المطلب حالَ يتمه ، ثم عمه أبي طالب بعد ذلك الذَّيْنِ كانا يوليانه كل معاني الحب والحنان، فلم يُحْـرَم ﷺ نهائياً من عواطف الحب والحنو كما يحدُث لكثير من الأيتام .

ومع هذا فقد «أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً تتولاه عناية الله وحده، بعيداً عن الذراع التي تُمعنُ في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، وحتى لا تميل به النفس إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من الزعامة فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول للثاني» (١) .

(١) فقه السيرة ص٦٢ ، محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر، ط٨، ١٩٧٠م ، بيروت، لبنان.

المطلب الرابع

سفره ﷺ مع عمه أبي طالب

ومما أعد الله به رسوله ﷺ أن هيأ له فرصة السفر مع عمه أبي طالب إلى الشام ـ الرحلة الأولى ـ وكان عُمْر النبي ﷺ آنذاك كما ـ تحكي كتب السيرة ـ اثني عشر عاماً بمعنى أنه ﷺ قد بلغ السن التي يستوعب فيها ما حوله من أحداث، ويقدر على التعامل مع من حوله من أشخاص.

وبالتالي فإن خبراته تنمو، ومداركه تتسع بما كان يراه ويسمعه طوال رحلة السفر، سواء من خلال تعامله مع عمه، أو التجار الذين كانوا برفقته، أو الراهب الذي تم الالتقاء به (١) ، والحديث الذي دار معه حول نبوة رسول الله ﷺ كما أورد ذلك ابن سعد (٢) في الطبقات ، قال: «أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي ﷺ : أي عم ، إلى من تخلُفني هاهنا؟، فما لى أمٌ تُكلفني (٣) ، ولا أحد يُؤويني. فرقَّ له، ثم أردفه خلفه فخرج به، فنزلوا على صاحب دير.

---

(١) قصة بحيرا الراهب صحيحة ، وقد أكد على صحتها وردَّ أقوال القائلين بضعفها أو وضعها الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ محمدالغزالي،راجع ذلك ص٦٦،٦٧في فقه السيرة للشيخ محمدالغزالي.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، الهاشمي، مولاهم، البصري، المولود عام١٦٨هـ في البصرة، وهو مؤرخ، ثقة، من حفاظ الحديث، نزيل بغداد، قال فيه الخطيب البغدادي: «محمد ابن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه ، فإنه كان يتحرى في كثير من رواياته»، وكان كثير العلم كثير الرواية ، كتب الحديث وغيره من كتب الغريب والفقه ، .. توفي عام ٢٣٠هـ، من أشهر مصنفاته «طبقات الصحابة» المعروف بطبقات ابن سعد.
انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٩ / ١٨٢، و: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥ / ٣٢١ .

(٣) الكلَف بالشيء: الولع به، والحب له، والمعنى تهتم بي وترعاني، انظر لسان العرب ٩ / ٣٠٧ مادة كلف .

فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أبٌ .. حتى قال ـ أي أبو طالب ـ : ولم ذلك؟ قال: لأن وَجْهَهُ وجْهُ نبيٍّ وعينه عين نبي. قال أبو طالب : سبحان الله ، الله أجلُّ مما تقول، وقال: يا ابن أخي ، ألا تسمع ما يقولون؟ ، قال: أي عم،لا تُنكر لله قدرة» [1].

ثم عاد محمد ﷺ إلى مكة من رحلته وقد علم ما تحدث به الركبان عنه «فأيُّ صورة ارتسمت في نفس محمد ﷺ لهذه الأحاديث التي تتحدث عن النبوة والوحي، وعن هذا الغلام اليتيم الأمي الذي سيكون نبي هذه الأمة. فما النبوة؟ وما الوحي؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت في تفكير محمد عليه الصلاة السلام وهو عائد إلى مكة. .. » [2].

وكل هذا من باب الإعداد للنبي ﷺ لتحمل النبوة والرسالة ، «فلا بد أن سفر محمد ﷺ إلى الشام كان ذا أثر في نفسه، فهو قد رأى قوماً غير قومه وعادات غير عاداتهم ومتعبدات غير متعبداتهم وتفكيراً غير تفكيرهم، وعقائد غير عقائدهم، وأخلاقاً غير أخلاقهم، ومعيشة غير معيشتهم .. فلا يمكن أن تمر هذه الصورة ثم لا تترك أثراً في نفسه.. .» [3]

ومن خلال ما سبق نجد أن الله تعالى قد أعد رسوله ﷺ في هذا السفر مع عمه بإكسابه المزيد من الخبرات والتجارب والتفاعل الإيجابي معها، ودرَس رسول الله ﷺ طبائع الجماعات والشعوب وكُنه العلاقات بينها واختلاف البيئات والأوضاع، وكل هذا له أثر في تنمية مواهبه وصقل تجربته في الحياة.

---

(١) الطبقات الكبرى١ / ١٥٣ لابن سعد ، أبي عبد الله البصري محمد بن مسعد بن منبع الهاشمي مولاهم (١٦٨-٢٣٠)هـ ، دار بيروت، ط (بدون) ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات ومجلد خاص بالفهارس.

(٢) «محمد من نبعته إلى بعثته» لمحمد الصادق عرجون، ص٢٩٢ن طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (بدون)، ١٩٨٣م، السعودية.

(٣) المرجع السابق ص٢٩١ .

وفعلاً «إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة وأعمقها أثراً، ومثل محمد ﷺ في صفاء ذهنه ، ونقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى في حِلّه وترحاله» (١) .

كل هذا الإعداد قد كان في مرحلة طفولته ﷺ وحتى بلوغه سن المراهقة، ثم بعدها ـ أعده الله ـ عز وجل ـ إعداداً آخر، وربَّاه تربية أخرى ـ أكمل وأشمل ـ وأكثر أثراً عليه في حياته، وذلك هو ما كان حال شبابه وحتى بلوغه سن الأربعين من حياته، حيث تعرض النبي ﷺ لأحداث وظروف أعمق أثراً في نفسيته وأقوى تأثيراً في مجريات حياته، وهذا ما أعرض له في المبحث الثاني.

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ ص٦٥، وقد أخرج أحاديث الكتاب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ دار القلم، ط٤، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، دمشق ، سوريا.

المبحث الثاني
الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ حال شبابه وحتى بلوغه الأربعين من عمره

تتميز هذه المرحلة من حياته ﷺ بزيادة المعاناة وشدتها التي لقيها في حياته، وعظيم الجهد الذي بذله فيها ، وكثرة ارتباطاته الاجتماعية واحتكاكه بالآخرين مما هيأه وأعده للرسالة على المستوى الاجتماعي بعد أن تم إعداده على المستوى الفردي.

وفي هذه المرحلة تعرض النبي ﷺ لعدة عوامل تربوية اجتماعية كان لها أثرٌ بارزٌ في تأصيل الروح الجماعية في نفسيته، وإكسابه المكانة الاجتماعية في قومه، وتربيته على مكابدة مشاق الحياة، ومعاناة الخلق، وتأهيله لقيادة المجتمع والفصل في قضاياه العامة مما كان لها الأثر العظيم في فتح الآفاق أمامه، وتدريبه على مجاهدة نفسه، والوصول به إلى مستوى من الفهم والسلوك والتفاعل لم يكن ليصل إليه إلا من خلال هذه التجارب كما يقول سيد قطب [1] ـ رحمه الله ـ : «لم تكن لتتفتح له أبداً ـ أي هذه المفاهيم والآفاق السابق ذكرها ـ وهو قاعد آمن ساكن، ولم تكن لتتبين له حقائق عن الناس والحياة بغير هذه الوسيلة،

---

(١) هو سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد باسيوط سنة ١٩٠٦م، تخرج من كلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل مدرساً ثم موظفاً فمراقباً بوزارة المعارف المصرية، وأوفد إلى امريكا لدراسة برامج التعليم الغربية، ولما عاد وقد تغير فكره، طالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية، وبنى على هذا استقالته وانضم إلى حركة الإخوان المسلمين، وسُجن معهم مرات، وقد كتب كتابه الشهير «في ظلال القرآن» في السجن ما بين عام ١٩٥٤-١٩٦٥م، صدر الحكم بإعدامه عام ١٩٦٦م، من مؤلفاته : «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«المستقبل لهذا الدين» ، و«معالم في الطريق».

انظر: الأعلام للزركلي ٣ / ١٤٧ ، وانظر: النهضة الإسلامية في سير اعلامها المعاصرين ٣ / ١٤٦-١٦٨ .

... ولم يكن ليبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته هذا المبلغ العظيم بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة» (١)

لقد تربى النبي ﷺ في ظل أحداث اجتماعية عامة، ومعاناة نفسية مُعيَّنة ليؤهَّل للنبوة والرسالة، فالتربية بالمعاناة والمجاهدة ومكابدة الحياة تؤهِّل الرجال للمهام الجليلة.

ويمكن توضيح ذلك من خلال تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين .

---

(١) «هذا الدِّين» لسيد قطب، ص١٠، بتصرف يسير، دار الشروق، ط(بدون)، د.ت، بيروت، لبنان .

المطلــب الأول

مشاركة النبي ﷺ في بعض الأحداث الاجتمــاعية المُهمّــة

تذكر كتب السير أن النبي ﷺ قد شارك قبل النبوة في بعض الأحداث الاجتماعية المُهِمَّة التي زادت من تجاربه في الحياة، وصقلت قدراته في التعامل مع الظروف والأحداث أو المناسبات الاجتماعية، ويتضح هذا من خلال الفقرات الثلاث التالية:

أولاً: حلف الفضـول (١) :

من المعلوم أن النبي ﷺ قد شارك مع قومه في حلف الفضول الذي ينص في مضامينه على: « تعاقَدِ وتعاهَدِ أهل مكة ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلَمه حتى تُردَّ عليه مظلمته » (٢) . فقد شارك رسول الله في هذا الحلف ضِمْن قبائل من قريش.

وقال عنه ﷺ : **« شهدتُ مع عمومتي حلف المطيَّبين (٣) وأنا غلام، فما أحب أن أنكثه وأنَّ لي حُمر النَّعم » (٤)**

(١) حلف الفضول: سُمِّي بذلك لأن من قام به كان في أسمائه الفضل، مثل: الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة، انظر : سيرة ابن هشام ١ /١٥٣

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٥٤ .

(٣) حلف المُطيِّبين: سُمي بذلك لاجتماع تسعة أبطن من قريش ـ منهم بنو هاشم، وبنو زهرة، وبنو تيم، في دار ابن جدعان في الجاهلية، وبعثت اليهم أم حكيم ابنة عبد المطلب بجفنة فيها طيب فغمسوا فيها أيديهم ثم ضربوا بها الكعبة .انظر:فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد٢ / ٢٨ .

(٤) اخرجه البخاري في الأدب المفرد كما في فضل الله الصمد ٢ / ٢٨، باب حلف الجاهلية، برقم ٥٦٧، عن عبد الرحمن بن عوف، وصححه الالباني في صحيح الأدب المفرد وذكره في ص٢١٢، رقم ٤٤١، واخرجه الإمام احمد في مسنده ١ / ٢٣٥ برقم ١٦٥٤، وهو كذلك في مجمع الزوائد للهيثمي في ٨ / ١٧٢ .

يتضح لنا من الرواية السابقة أن النبي ﷺ قد شارك في هذا الحِلف كواحد منهم، وليس شاهدا وحاضراً فقط، مع أنه من أصغر قومه سناً.

وهذا يدل على مكانته عند كبار قومه من أعمامه، ولا يخفي ما في هذه المشاركة من إعدادٍ للنبي ﷺ في مجال السياسة والحكم، وخوضه تجربة عَقْدِ المعاهدات والاتفاقيات وفَهْم ما يتعلق بها من شروط ونظم وقوانين وغير ذلك مما يعطي النبي ﷺ ويكسبه خبرةَ تجربةٍ ناجحة في مجال الأحلاف والاتفاقيات بين القبائل بعضها مع البعض.

ثانياً: حربُ الفِجار [(١)] :

ومما تذكره كتب السيرة النبوية أن النبي ﷺ قد شارك في حرب الفجار التي وقعت« بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان، وقد كان الظَفَرُ في أول النهار لقيس على كنانة وفي وسطه لكنانه على قيس، وقد حضر رسول الله ﷺ هذه الحرب وكان يُنبل على عمومته، وكان عمره حينها خمسة عشر عاماً [(٢)] ، وقيل أنه شارك فيها وعمره عشرون عاماً تقريباً » [(٣)] .

ولا شك أن في هذه المشاركة عدة معانٍ تربوية للنبي وذلك لما « تفرضه الحرب من تحديات وتثيره من توتر وقلق وخوف، وتستدعيه من يقظةٍ واحتياط وحذر، وما ترسخه في نفوس الرجال من الصبر والقوة والاحتمال ورباطة الجأش وسرعة الاستجابة والحركة، بالإضافة إلى ما تفتحه من نوافذ أمام النفوس الكبيرة على المجتمع لتكتشف مواطن الخلل فيه وتقف على عوراته وأمراضه » [(٤)]

---

(١) الفجَار: بكسر الفاء، بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وقد سُميت بذلك ؛ لأنها كانت في الشهر الحَرام، حيث فجروا فيه جميعاً وانتهكت فيه حرمات الحرم والأشهر الحرُم .

انظر: سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٩، بتعليق: عمر عبد السلام تدمرى، والرحيق المختوم ص٥٩ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٠٨ .

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ١٢٨ .

(٤) منهج النبي في حماية الدعوة المكية للطيب برغوث ص١٩٦، وما بعدها.

فلا شك أن لمشاركة النبي ﷺ فيما سبق من أحداث عسكرية سياسية تأثيراً كبيراً في إكسابه الخبرات العسكرية والقتالية والسياسية التي يحتاجها في دعوته وجهاده في سبيل الله .

ثالثاً: بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود:

وعندما بلغ النبي ﷺ سن الخامسة والثلاثين من عمره، إذا به يشارك في حدث آخر من أحداث المجتمع المُهِمَّة التي عاشها ﷺ في حياته ، وهو حدث إعادة بناء الكعبة، ثم تحكيمه ﷺ في شأن وضع الحجر الأسود مكانه.

وخلاصة هذه الحادثة: «أن الكعبة تعرضت لسيل عَرِم.. فأوشكت منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها.. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً.. ثم اتفقوا على تحكيم أول داخل عليهم، .. فكان محمد بن عبد الله ﷺ ، فطلب رداءً، ووضع الحجر الأسود وسطه، وطلب من رؤساء القبائل رفعه حتى وضعَه في مكانه» [1] ، بيديه الشريفتين، ولا شك أن في هذه الحادثة وتحكِيم النبي ﷺ فيمن يضع الحجر الأسود مكانه تدريباً له على فصل الخلافات وفض النزاعات وممارسة الحكم، وحسن سياسة المتخاصمين، وكيفية حقن الدماء وغير ذلك.

كما تدل مشاركته هذه على علو منزلته في قومه، ومكانته بين شيوخ القبائل رغم صغر سنه، وفيها من البيان للناس والتوضيح لهم ما يكفي لأن يعرف المجتمع محمداً ﷺ في سرعة بداهته وفطانة ذهنه، إضافة إلى ما تدل عليه من خضوع زعماء القبائل لحكم محمد بن عبد الله في شئون الدنيا وقناعاتهم بحكمه فكان ليس غريباً أن يخضعوا له في شئون الدين والاحتكام لشرع الله ومنهج رسوله ﷺ .

(١) الرحيق المختوم، ص٦٢ بتصرف سير، لصفي الرحمن عبد الله بن محمد المباركفوري المولود عام ١٩٤٣هـ دار السلام ، ط٩، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، الرياض ـ السعودية.

المطلب الثاني

تجارة النبي ﷺ بمال خديجة رضي الله عنها وزواجه بها

سبق أن ذكرنا أنَّ من نعم الله على نبيه ﷺ أنْ جَبَله على الصدق والأمانة حتى اشْتُهِر بين قومه بهما، كما اشْتُهِر بغنى النفس وعفاف اليد، وسَمِعَتْ بذلك خديجة ـ رضي الله عنها ـ فطلبت منه المتاجرة بمالها، وكان حينها لا يزال في سن الخامسة والعشرين عاماً من عُمُره ، فقبل النبي ذلك، وسافر بمالها إلى الشام، برحلة طويلة هي رحلته الثانية ـ بعد رحلته الأولى مع عمه في صباه ـ ورجع من الشام بعد نجاحه في التجارة بأرباح وفيرة، فتحقق له غنى المال إلى جوار غنى النفس.

وكما يقول الطاهر بن عاشور: " أغناه الله غِنَاءَيْن ، أعظمهما غنى القلب؛ إذ ألقى في قلبه قلة الاهتمام بالدنيا، وغنى المال حين ألهم خديجة مقارضته في تجارتها" (١) . فصار بفضل الله يستغني عن الناس، ولا يشعر بالحاجة إليهم أو يتطلع لما في أيديهم.

وبسفره ﷺ للتجارة في مال خديجة إلى الشام مسئولاً عنه، تعلم واكتسب الكثير من الخبرات، التي هي من باب إعداده للرسالة والبلاغ، فتعلم كيف يعيش الناس في الحضر والمدن، بعد معرفته لعيشهم في البدو والريف، وتجاوزت معرفته الصحراء وسكونها إلى المدن بنشاطها، ونمت قدراته على أن يُحَوِّل القليل إلى كثير، وتحقَّقَ ثباته أمام مغريات الدراهم والدنانير.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .

وهكذا أكرم الله رسوله في سفره للتجارة بمال خديجة بمال يغنيه عن الناس، وَمَنَحَهُ ثقته بنفسه في قدرتها على الحفظ على حقوق الآخرين، وتوفيرها، وتنميتها، وغير ذلك.

وبعد أن رجع النبي ﷺ من الشام بمال خديجة كاملاً وبربحه وافراً، طمعت خديجة -رضي الله عنها- في الزواج منه، بعد أن تيقَّنت من صدقه وأمانته وبركة هذا النبي العظيم-قبل النبوة-فعرضت عليه الزواج بها، فقبِل وتزوج بها.

وهنا يُعِدُّ الله ـ عز وجل ـ محمداً ﷺ إعداداً آخر من خلال إكرامه بزوجة صالحة، غنية، موسرة، صبور ، عاقلة، كان لها التأثير الكبير في الشد من أزره، والأخذ بيده، والوقوف معه بنفسها ومالها وجاهها، حتى بُشِّرت بالجنة ولا زالت تمشي على الأرض -رضي الله عنها- .

وفي زواج رسول الله ﷺ بها أعدَّه الله إعداداً آخر من حيث تدريب النبي ﷺ على منسئولية الزواج وما يتبعه من تحمل وإدارة منزل وزوجة وأولاد، وقيادتهم وحسن سياستهم.

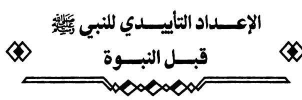
ولا شك أن كل ذلك أكْسب النبي ﷺ المزيد من الخبرات والتجارب التي ستتكرر عليه بعد اصطفائه نبياً ورسولاً ﷺ .

من كل ما سبق يتضح لنا أن الله ـ عز وجل ـ لم يتخلَّ عن إعداد محمد ﷺ طرفة عين ، بل كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حفظٍ من الله ورعاية واهتمام وعناية، تُعِدُّ قدرة الله وحكمته وإرادته لأمر عظيم ومهمة جليلة لا يصلح لها ولا يقدر عليها إلا أمثال محمد ﷺ .

وإلى جوار هذا الإعداد الاكتسابي للنبي ﷺ أعده الله عز وجل إعداداً آخر، وهذا ما أعرض له في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

الإعداد التأييدي للنبي ﷺ قبل النبوة



الفصل الثالث

الإعـــداد التأييـــدي للنبي ﷺ قبـــل النبـــوة

سبق أن شرحتُ الإعداد الجِبِلِّي والاكتسابي للنبي ﷺ ، ومظاهر ذلك، وأهميته لرسول الله ﷺ قبل النبوة، وبقى لنا الإعداد التأييدي للنبي ﷺ قبل النبوة، وأقصد به ما أيَّد الله به رسوله ﷺ قبل النبوة من أسباب وأحداث أو أقدار زادته سُمُوًّا وطهارة في ذاته، وعُلُواً لمكانته في قومه وبين أفراد مجتمعه، وجعلت الكفار لا يستطيعون الطعن في تاريخ صباه أو شبابه، حتى بلوغه سن البعثة ـ أربعين عاماً من حياته ـ ، وهو في حفظ الله ورعايته.

فعناية الله بنبيه في هذه المرحلة وهذا الجانب كانت ترشحه وتؤهله ﷺ ليتبوأ المكانة السامية بين قومه حسياً ومعنوياً، ويتضح هذا من خلال المبحثين التاليين .

المبحث الأول
شـــق صدره لتطهير قلبه ﷺ

في سبيل إكمال إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة ، أكرمه الله بحادثة شقّ الصدر في حياته أكثر من مرة، كما روى الإمام مسلم (١)عن أنس بن مالك(٢) ، قال: قال رسول الله ﷺ : **(أُتيتُ فانطلقوا بي إلى زمزم، فشُرح عن صدري ثم غُسِل بماء زمزم ثم أُنزلتُ)** (٣).

وفي رواية لأنس رضي الله عنه أيضاً: **(أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه ، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسلـه في طستٍ من ذهـب بماء**

---

(١) هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، حافظ من أئمة المحدثين،ولد بنيسابور عام ٢٠٤هـ، رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق لطلب العلم.. قال عن نفسه: صنفت هذا المسند في صحيحه من ثلاث مئة الف حديث مسموعة... كان من احد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين... قال أبو علي الجنى النيسابوري عن صحيح مسلم ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم، قال فيه إسحاق بن منصور «لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين» ، وأثنى عليه آخرون... توفي عام ٢٦١هـ في نيسابور، من مصنفاته: «صحيح مسلم» جمع فيه اثني عشر الف حديث كتبها في خمس عشرة سنة، و«المسند الكبير» رتبه على الرجال، و«الجامع» رتبه على الأبواب و«الكنى والأسماء» و«الأقران» وغيرها كثير تزيد على الأربعة عشر مصنفاً. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ١٩٤ ترجمة رقم ٧١٧، وانظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٠ / ١٢٦-١٢٨، و: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣ / ١٠٠ .

(٢) هو أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم من بني عدي بن النجار الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ ، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، رواية الإسلام، روى عن النبي ﷺ علماً جمًّا وعن غيْره من الصحابة، وروى عن خلق كثير.. لازم النبي ﷺ منذ هجرته حتى موته، وغزا معه غير مرة،وبايع تحت الشجرة... وخرج لبدر لخدمة رسول الله ﷺ ... كان آخر الصحابة موتاً بالبصرة عام ٩٠هـ.

انظـر: الإصابـة ١ / ٧٢، و: سيـر أعلام النبـلاء ٣ / ٣٩٥ وما بعدهـا ، و: تقريـب التهذيـب ١/ ١١.

(٣) ثم انزلتُ: اي تُركتُ ، قال ابن السراج: أنزلتُ في اللغة بمعنى تُركتُ.

زمزم، ثم لأمهُ [١] ، ثم أعاده في مكانه..) [٢]

يتضح لنا من الرواية السابقة أن الله ـ عز وجل ـ قد أعدَّ رسوله ﷺ للنبوة والرسالة بإكرامه بحادثة شق الصدر التي وقعت له في حياته مرتين!..، المرة الأولى: حال طفولته، كما ورد في الرواية السابقة، ، والمرة الثانية: ليلة الإسراء والمعراج، كما في رواية أنس بن مالك قال: كان أبو ذر [٣] يُحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: **« فُرِجَ سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطستٍ من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء..»** [٤]

وكل هذا وقع لتطهير قلبه ﷺ من حظ الشيطان ووساوسه كما في الحديث: **(ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن، قالوا وإيَّاك يا رسول الله، قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلمُ [٥] فلا يأمرني إلا بخير)** [٦]

(١) ثم لأمهُ: أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، على وزن ضربه. انظر: صحيح مسلم بتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ١ / ١٤٧ .

(٢) اخرجه مسلم في ١ / ١٤٧، في كتاب الإيمان باب الإسراء، برقم ٢٦٠، ٢٦١، وهو في: كنز العمال للمتقي الهندي برقم ٣١٨٣٨ .

(٣) هو جندب بن جنادة بن سفيان من بني غفار، يكنى أبا ذر، كان من السابقين إلى الإسلام، انصرف إلى بلاده بعد إسلامه يدعو قومه إلى الإسلام ، وقدم المدينة بعد بدر وأُحد، وكان عمر يلحقه بهم، وكان في علمه يوازي ابن مسعود، تأخر يوم تبوك عن الرسول ثم لحق به، سكن الشام بعد وفاة عمر، وكان له رأي في ملكية المال، فامر عثمان ان يتحول إلى الربذة ـ من قرى المدينة ـ ومات بها سنة إحدى وثلاثين هجرية .
انظر: طبقات ابن سعد ٤ / ٢١٩، و: الإصابة ٧ / ٦١ .

(٤) اخرجه مسلم في ١ / ١٤٨، في كتاب الإيمان، باب الإسراء، برقم ٢٦٣، والبخاري في ١ / ١٣٥، وذكره البغوي في شرح السنّة ١٣ / ٣٤٥ .

(٥) فاسلم: برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: ان القرين أسلمَ، من الإسلام ، وصار مؤمناً لا يامرني إلا بخير.
انظر: صحيح مسلم بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، ٤ / ٢١٦٧ .

(٦) رواه مسلم في ٤ / ٢١٦٧، في كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه.. وان مع كل إنسان قريناً ، برقم ٦٩ / ٢٨١٤ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، واخرجه الإمام احمد في ١ / ٤٨١ برقم ٣٦٤٧ وذكره صاحب كنزالعمال برقم ١٢٤٢

ولا شكَّ أن كل هذا الإعداد ليتحقق للنبي ﷺ ما قاله الشيخ الغزالي - رحمه الله - : " .. إن بَشَراً ممتازاً كمحمد ﷺ لا تدعه العناية الإلهية عرضة للوساوس الصغيرة التي تتناوش غيره من سائر الناس.. . وذلك ليكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهير منه، فقد عافاه الله من لوثاته" (١)

وهكذا أيد الله رسوله ﷺ وأعده بطهارة قلبه، واستئصال نوازع الشر منه، وبَذْر الخير فيه؛ليتمكن من حمل الرسالة والبلاغ المبين على أحسن وجه وأكمله.

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص٦٢ بتصرف يسير جداً .

المبحث الثاني
حفظه ﷺ من التأثر بموروثات الجاهلية السيئة فكراً وسلوكاً

مما لا شك فيه أن الإنسان ابن بيئته، ولها الأثر الكبير في تكوين شخصيته، وصياغة أفكاره، وتحديد سلوكياته إيجابياً وسلبياً، أو طبعه على النافع والضار منها في الخير والشر، ويُصدِّقُ كلَّ هذا حديثُ النبي ﷺ : **«كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..»** (١)

وبالتالي فإن للأسرة ، والمجتمع، وطبيعة الأرض، والمناخ، والحياة التي يعيشها الإنسان أثراً كبيراً في طبع الإنسان بطابع معين في فكره، وسلوكه يعكس ما هو موجود في المجتمع، ويؤيد هذا ما ذكره الباحثون في علم نفس النمو عن تأثير المجتمعات في سلوكيات الفرد وتأثر الإنسان بالآخرين وتأثيره فيهم.

وبناءً على ما سبق فإن من المفروض أن يكون لبيئة النبي ﷺ تأثيرٌ كبيرٌ عليه في أفكاره وسلوكه وشخصيته بخيرها وشرها، وبما فيها من مفاهيم عقدية، وأنماط سلوكية، وعادات وتقاليد جاهلية.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث للنبي ﷺ إلا في العادات والتقاليد الحميدة والسلوكيات أو الأفكار الخيِّرة المفيدة، وهذا طبعاً لم يكن ليحصل له لولا عناية الله بهذا النبي العظيم وإعداده له للنبوة والرسالة ، فقد حفظه الله - عز وجل - من كل ما يخل بمروءته، أو يُضعف علو همته، أو يجرح عدالته وصفاء تاريخه ونصاعة سيرته، ويتضح هذا من خلال المطلبين التاليين .

(١) أخرجه البخاري في ١ / ٤٦٥، في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، برقم ١٣١٩، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وأخرجه مسلم في ٤ / ٢٤٠٧ برقم ٢٦٥٨ .

المطلب الأول

حفظ الله لـه ﷺ من التأثـر بفسـاد بيئته في فكـره

من المعلوم أن العمل فرعٌ عن التصور، والسلوك ثمرة المعتقد، والله ـ عز وجل ـ قد حفظ محمداً ﷺ في فكره ومعتقده ـ بعد أن وهبه عقلاً راجحاً كما سبق أن بيناه في الفقرات السابقة ـ.

فلم يثبت أن النبي ﷺ تعلق فكره بمبدأ من مبادئ الجاهلية الباطلة، أو اعتقد صحة وصواب ذلك، أو تأثّر به، أو مدحه بلسانه وأُعجب به، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد ذكر ابن سعد في الطبقات في معرض حديثه عن خروج النبي ﷺ إلى الشام للمرة الثانية أن النبي ﷺ قال لرجل طلب منه أن يحلف باللات والعزى: (**ما حلفتُ بهما قط، وإني لأمُرّ فأعرض عنهما**) (١)

ومع إعراض النبي ﷺ عن ذلك فلم يؤثر عنه ﷺ انه دخل في منازعات أو مشاحنات مع قومه قبل النبوة رغم فعلهم وقولهم واعتقادهم لكثيرٍ من الباطل، وممارستهم لكثير من المنكرات والكبائر، فكان يحفظ نفسه ـ بحفظ الله ـ من الوقوع فيما وقعوا فيه، ويحافظ على حسن علاقته معهم دون احتكاك أو جدال.

لقد حفظ الله النبي ﷺ في فكره ومعتقده، رغم أن مجتمع الجاهلية في زمن النبي ﷺ قبل النبوة كان يعجُّ بكثير من الأفكار والمعتقدات الباطلة، ففي مجال العقيدة انتشر الشرك بالله، واعتقاد النفع والضر في غيره، وغير ذلك من الشركيات التي اتَّصف بها المجتمع الجاهلي.

(١) الطبقات لابن سعد ١ / ١٣٠، وانظر: دلائل النبوة لابي نعيم ١ / ٥٤، وانظر: تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١ / ٢٧٤.

وفي مجال العبادة ابتدع الكفار الكثير من البدع الباطلة في صور عباداتهم، واعتقدوا صواب ذلك، وسلكوا ذلك في حياتهم كالطواف بالبيت الحرام عُرَاة، والنذر والذبح لغير الله .

وفي مجال المعاملة حرَّم الكفار بعض الحلال وأحلوا الحرام، وشرعوا بعض التشريعات ؛ فأَحَلُّوا الربا، وحرموا بعض الأنعام كالبَحِيْرَة (١) ، والسائبة (٢) ، والوصيلة (٣) ، والحام (٤) وجوَّزوا بعض الأنْكِحَة المحرمة ، وصار سلوكهم بناء على معتقداتهم هذه.

ورغم ظلمات وظلم الجاهلية إلا أن السيرة النبوية تشهد أن النبي ﷺ لم يعتقد لحظة واحدة صواب معتقداتهم هذه ، أو وجود أدنى خير فيها.

وهكذا ، ففي مثل هذه البيئة الضَّالة في المعتقدات والعبادات والمعاملات حفظ الله فكر وعقل رسوله ﷺ وعصم قلبه وفؤاده ـ رغم أنه تربى فيها وقضى معظم سنين حياته بين جنباتها ـ لكن العناية الإلهية أكسبته كل خير ومعروف وحفظته من كل شر ومنكر لِتُعدّه الإعداد القويم لتحمل الرسالة العظيمة.

بل لقد كان ﷺ يصرف همَّه للتفكير والتأمل في هذا الكون، وآفاق السماوات والأرض بحثاً عن الإله الحق الواحد، وذلك في غار حراء قبل النبوة.

---

(١) البَحِيْرَةُ هي: من تشق أذنها (من البَحْر) علامة لها أنها خليت بلا راعٍ ، وهي الناقة التي تنتج خمسة أبطن إناث ، فيكون درها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس، وقيل غير ذلك.

(٢) السائبة هي: الناقة تُسَيَّبُ أو البعير لنذر ينذره الرجل إن سلَّمه الله من مرض ونحوه، وقيل هي التي تابعت بني عشر إناث ليس بينهن ذكر ، فلا يركب ظهرها ولا يُجَزُّ وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، وقيل غير ذلك. انظر: فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٩ وما بعدها.

(٣) الوصيلة هي: الشاة إذا تابعت بين عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، جُعلت وصيلة فكان ما وُلد بعد ذلك للذكور دون الإناث إلا أن يموت شيء فيشترك فيه، وقيل غير ذلك.

(٤) الحام هو الفحل: إذا نتج له عشر إناث متتابعات فقد حمى ظهره فلم يركب . . وقيل غير ذلك. انظر: فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٩، وما بعدها.

المطلب الثاني

حفظ الله له ﷺ من التأثر بفساد بيئته في سلوكه

وكما حفظ الله ـ عز وجل ـ رسول الله ﷺ في فكره من التأثر بفساد ومعتقدات الجاهلية الباطلة ليُعدَّ عقله لاستقبال الخير من المعتقدات الصحيحة والتشبع بها ؛ لتفيض بعد ذلك على ما حوله ومن حوله ـ كذلك حفظه الله في سلوكه الاجتماعي بين قومه لتبقى صفحته بيضاء نقية، وسيرته مشهوداً لها بالنزاهة والعدالة والصلاح، فلا يتجرأ أحدٌ على القول في ماضيه إلا بكل خير، ولا ينتقصه أو يحتقره أحد أو يدعي سوء تاريخه قبل النبوة أو ماضي سلوكه قبل الرسالة والبعثة.

وحِفْظُ الله لرسوله ﷺ في سلوكه من التأثُّر بفساد مجتمعه يتضح من خلال الرواية التالية:

روى ابن إسحاق بسنده ـ عن علي بن أبي طالب [1] ـ رضي الله عنه ـ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(ما هممتُ بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من**

---

(١) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب. القُرَشيُّ الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، واسم أبي طالب: عبد مناف، وقيل اسمه كنيته.. ، وكنية الإمام علي: أبو الحسن، وهو صهر رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين، وهو أول هاشمي ولد بني هاشميين بمكة، وأول خليفة من بني هاشم.. وهو أول الناس إسلاماً من الصبيان... هاجر إلى المدينة، وشهد جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ... إلا تبوك فإن رسول الله خلّفه على أهله... وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء في مواطن كثيرة منها: يوم بدر، وآخاه رسولِ الله مرتين وهو الذي نام على فراش النبي ﷺ يوم الهجرة، واشتهر بزهده وعدله... وله عدة فضائل... وكان رابع الخلفاء الراشدين .. وله في قتال الخوارج آيات مذكورة في التواريخ.. وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، وقيل أربع سنين وتسعة أشهر. تُوفِّي مقتولاً قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي عام أربعين هجرية في الكوفة، انظر: أسد الغابة ٤ / ١٠٠-١٣٤ ترجمة رقم ٣٧٨٣، و: تقريب التهذيب ١ / ٦٩٦ .

الدهر، كلتاهما يعصمني الله منها، قلتُ ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى، أبصر لي غنمي حتى أسهر هذه الليلة بمكة كما تسهر الفتيان، قال نعم، فخرجتُ فلما جئتُ أدنى دار من دور مكة سمعتُ غناء وصوت دفوف وزَمْر، فقلتُ: ما هذا؟، قالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة، فلهوتُ بذلك الغناء والصوت،حتى غلبتني عيني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس،فرجعتُ ،فسمعتُ مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوتُ بما سمعتُ، وغلبتني عيني ؛فما أيقظني إلا مسُّ الشمس،ثم رجعتُ إلى صاحبي، فقال: ما فعلتَ ؟ ، فقلتُ: ما فعلتُ شيئًا، قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممتُ بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته) [1].

من خلال هذه الرواية تتضح لنا مدى عناية الله -عزوجل- بنبيه وحفظه له ﷺ من أن يتلوث سمعه أو عقله بشيء من اللهو وسماع المعازف مما تتعلق به النفوس ويميل إليه من كان في مثل سن النبي ﷺ .

فعندما تتحرك نوازع النفس فيه لاستطلاع بعض متع الدنيا ومفاتنها مما لا يليق ببشر سَوِيٍّ ، تتدخل العناية الإلهية للحيلولة بينه ﷺ وبينها .

وبهذا يتبيّن لنا أن الله تعالى اعتنى بنبيه ﷺ وأعدَّه لحمل الرسالة والنبوة من خلال حفظه لسلوكه من كل ما يخدش المروءة، أو يجرح الرجولة من المنكر والقبيح مما كان أهل الجاهلية يفعلونه: «فلم يشرب الخمر أبداً، ولم يلعب الميسر، ولم يقع في الفاحشة، بل لم يسمع اللهو والغناء ، ولم يتعامل بالربا، ولم

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، وقال: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت الذهبي ، انظر المستدرك ٤ / ٢٤٥، وقد أورد ابن حجر نحوه وقال ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية ٤ / ٣٦١-٣٦٢ وهو حديث حسن متصل ورجاله ثقات، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية٢ / ٢٦٧ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٢٦ . انظر المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني (٧٧٣هـ-٨٥٢هـ) تحقيق: أبي بلال غنيم بن عباس وأبي تميم ياسر بن ابراهيم، دار الوطن ، ط١ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، د الرياض ، والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

يأكل مال اليتيم، ولم يئد البنات، ولم يظلم أحداً، ولم يقع في شيء من المنكرات التي كان قومه يتفاخرون بها ويتسابقون إليها» (١) .

وكما حفظه الله ـ عز وجل ـ من أن تظهر عورة في سلوكه فقد حفظه الله من ظهور عورة من جسده، وقد وقع كل هذا في زمنٍ وبيئةٍ يقصد أهلُها إلى كشف العورات عمداً وطواعية.

ففي الحديث الشريف: **(لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره، وجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأُقبِلُ معهم كذلك وأُدبِرْ، إذ لكمني لاكمٌ مًا أراه لكمة وجيعة؟ ثم قال: شد عليك إزارك، قال فأخذتُهُ فشددتُهُ عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليَّ من بين أصحابي)** (٢)

---

(١) دراسات في السيرة، د. عماد الدين خليل ص٤٥، وما بعدها.

(٢) ذكره ابن إسحاق في كتابه السير والمغازى، ص٧٩ بلفظ: (إني لمع غلمان هم أسناني قد جعلنا أزرنا على أعناقنا لحجارة ننقلها نلعب بها؛ إذ لكمني لاكم لكمة شديدة، ثم قال: اشدد عليك إزارك) ولم يُخرِّج له راوٍ من الصحابة، لكنه أورده بلفظ: فحدثني والدي إسحاق بن يسار عمن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال (وأورد الحديث)

وقد أورد الرواية ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٦٦ عن محمد بن إسحاق بلفظ (لقد رايتني.. إلخ) كما أوردناها في المتن اعلاه، ثم علق عليها قائلاً: (وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عندبناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس.) لكنه لم يُخرِّج لهذه الرواية راوٍ من الصحابة ولم يعلق بتصحيح أو تحسين أو تضعيف لرواية ابن إسحاق.

وقد أورد رواية ابن إسحاق أيضاً ابن حجر في فتح الباري ٧ / ١٤٦، ونسبها إلى ابن إسحاق، ثم علق قائلاً: قال السهيلي: إنما وردت هذه القصة في بناء الكعبة، فإن صح أن ذلك كان في صغره فهي قصة أخرى، مرة في الصغر، ومرة في حال الاكتهال)، لكنه أيضاً لم يحكم بصحة الرواية ولا ضعفها ولم يُخرج لها رواة من الصحابة، وقد علق الدكتو/ أكرم ضياء العمرى في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة ١ / ١١٥، علق على هذه الرواية قائلاً: «كما وردت روايات ضعيفة تُفيد أن الله عصمه من العُرْى وهو فتى ينقل مع أقرانه حجارة يلعبون بها وقد رفعوا أُزُرَهم، فأُمر أن يشد عليه إزاره» [ويقصد بذلك رواية ابن إسحاق]، ثم ذكر في الهامش أن في سند هذه الرواية مُبْهَمًا ولم يشرح ابن الإبهام ولا كيف هو بعد أن نسبها إلى ابن إسحاق.

وبعد مراجعة أمهات كتب الحديث، لم أعثر على أصل هذه الرواية ولا سندها المتصل ولا راويها من الصحابة، ولم أجد من صححها من أهل الحديث، والله أعلم.

وفي أثناء مشاركة النبي ﷺ لقريش في إعادة بناء الكعبة المشرفة، شارك رسول الله ﷺ مع عمه العباس رضي الله عنه في نقل الحجارة فقال له العباس رضي الله عنه : «اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشدَّ عليه إزاره» (١) .

يتضح لنا من الروايتين السابقتين حفظ ـ الله عز ـ وجل لنبيه ﷺ من أن تظهر عورته أو تنكشف سوأته ليتميز عن جميع أفراد قومه في سمو المكانة والتحلي بالآداب والاحتشام والحياء والهيبة والاحترام.

وهكذا «شب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى، يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزُّهاً وتكرماً حتى ما سمَّاه قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة، وكان أشدَّ الناس حياءً، وأعظمهم صلة للرحم..» (٢)

وبهذا يمكن القول: «إن أربعين عاماً من حياة رسولنا العظيم وسيرته الذاتية قبل النبوة هي الأرضية الراسخة التي أُقيمت عليها أصول نبوته الشامخة، تم فيها التأهيل الكامل والرعاية الربانية من الله لنبيه ﷺ، وصار النبي ﷺ بعدها أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان (٣) ، جمع الله له النسب الأصيل في بيئة ترفض الهُجَنَاء والمختلطين، ثم قدَّر عليه اليُتم السريع والفقر والحرمان ليصلب عوده ويعتمد على نفسه، ثم رحل به في رحلتين إلى الشام ليتعلم أصول التعامل ويعرف البلاد والعباد، ثم أشركه في أحداث اجتماعية هامة في مكة ليعرف

---

(١) رواه البخاري في ٣ / ١٣٩٢، كتاب فضائل الصحابة، باب: بنيان الكعبة ، برقم ٣٦١٧، عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – ، وأخرجه مسلم نحوه في ١ / ٢٦٧ برقم ٣٤٠ .

(٢) السيرة النبوية ص١٠٨–١٠٩، بتصرف يسير، لأبي الحسن على الحسنى الندوي ، المولود عام ١٩١٤هـ دار ابن كثير ، ط١٢، ١٤١٢هـ–٢٠٠١م، دمشق ، سوريا.

(٣) عبقرية محمد للعقاد ١٦ / ١٥٤، عباس محمود ، ت١٩٦٤هـ دار الكتب ، ط بدون، ١٣٨٥هـ–١٩٦٦م القاهرة، مصر.

الناسُ بداهة عقله وذكاءَ لُبّه وعُلُو همته ، ثم حفظه من التلوث بمعتقدات وسلوكيات الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ليبقى صفحة بيضاء في جاهلية قومه المظلمة، ثم حُبِّبَ إليه العزلة والخلوة في غار حراء بعيداً عن صخب مكة وضجيجها لتتفتح له آفاقٌ واسعة لفهم حقيقة هذا الكون ومعرفة خالقه ـ سبحانه وتعالى ـ كل هذا وأمثاله لإعداد النبي ﷺ ليكون سراجاً منيراً» (١) .

وخلاصة القول:

أن الله عز وجل قد أعد النبي ﷺ للنبوة والرسالة من خلال عدة صفات أهمها:

«الرجولة، والإحساس بالمسئولية، وتدبير الأمور بحكمة، والأخذ بالأسباب، والعفة عما في أيدي الناس، وحسن المعاشرة والتعامل مع المجتمع، والتفاعل والمشاركة مع حوادث البيئة، والشجاعة والجرأة والاعتزاز بالنفس، مع الشعور بالشرف وعلو المنزلة والنجابة، والنجاح في المهام التي تُسند إليه وحُسن الصحبة في الأسفار، والتعاون مع الرفقاء، والحِلم، والشفقة، والصبر، والتواضع، والعفاف والطهارة والتنزه عن القاذورات ، والصدق والأمانة، وحسن الشَّرْكة في التجارة، مع عدم المماراة، وعدم الحرص على المال، وشدة الحياء.. مع مشاركة المجتمع في أسواقه وأعياده وأعماله واجتماعاته ، وعاداته» (٢) .

بل لقد أيد الله رسوله ﷺ قبل النبوة بصديقٍ حميم وصاحب كريم فيه الكثير من صفات النبي ﷺ ، ألا وهو أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الذي اشترك مع النبي ﷺ في بعض صفاته كما في حديث عائشة (٣) رضي الله عنها قالت: (:.. خرج أبو بكر

(١) دراسات في السيرة، د. عماد الدين خليل ص ٤٥ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٢) الإسلام ونبي الإسلام ص٥٥، ٨١، للشيخ محمد بن رزق طرهوني السُّلمي

(٣) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الصديقة بنت الصديق، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ وأشهر نسائه، تزوجها رسول الله قبل الهجرة بسنتين، وهي بِكر، بعد موت خديجة رضي الله عنها بثلاث سنين، وكان عمرها لما تزوجها ست سنين، وقيل سبع، وبنى بها وهي بنت تسع سنين بالمدينة، وكنّاها رسول الله ﷺ بأمّ عبد الله ، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض... كانت من أفقه الناس وأحسن النساء رأياً وهي صاحبة قصة الإفك المشهورة... والتي برأها الله عز وجل في آيات من كتابه العزيز، روت عن النبي ﷺ كثيراً ، وروى عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثير من الصحابة =

مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد (١) ، لقيه ابن الدَّغِنَة (٢) وهو سيد القارَة (٣) ، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبُد ربي، قال ابن الدَّغِنَة : فإن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ ، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق... الخ حديث الهجرة) (٤)

وبعد هذا الإعداد الرباني العظيم للنبي ﷺ قبل النبوة لمدة أربعين عاماً أكرمه الله بالنبوة والرسالة وحقق له التربية الربَّانية المتكاملة عن طريق آيات القرآن الكريم.

وهذا ما سأشرحه بالتفصيل في الباب الثاني.

= والتابعين. توفيت سنة سبع وخمسين ، وقيل ثمان وخمسين للهجرة بالمدينة ودفنت بالبقيع ليلاً . انظر: كتاب أزواج النبي للإمام محمد الصالحي الدمشقي، ص٧٧-١٣٦، و: طبقات ابن سعد ٨ / ٥٨ وما بعدها، و: تقريب التهذيب ٢ / ٦٥١

(١) برك الغماد: موضع على بُعد خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.. وقيل هي اقاصي هجر، ورجح الأول ابن حجر في فتح الباري ٧ / ٢٣٣ .

(٢) الدَّغِنة: ذكر ابن حجر انها هكذا عن الرواة، وهي عند أهل اللغة بلفظ الدَّغُنَّة ، واسمه الحارث بن يزيد ، وقيل مالك، وقيل ربيعة بن رفيع.

(٣) سيد القارة: هي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مضر، وكانوا يُضرب بهم المثل في قوة الرمي، انظر: فتح الباري لابن حجر ٧ / ٢٣٣ .

(٤) رواه البخاري في ٣ / ١٤١٧ في كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، برقم ٣٦٩٢ .

الباب الثاني



الباب الثاني

تربيــة النبي ﷺ بعد النبــوة

تمهيــد:

تناولت في الباب الأول مرحلة إعداد وتأهيل النبي ﷺ قبل النبوة (جبلياً وكسبيّاً وتأييدياً)؛ حيث كانت العناية الإلهية تُعدُّه إعداداً خاصاً، وتؤهِّله تأهيلاً كاملاً شاملاً لحمل النبوة والرسالة بكفاءةٍ واقتدار.

وقد أعقب هذا الإعداد الإلهي للنبي العظيم ﷺ تربية عظيمة خلال فترة النبوة والرسالة بشكل أكمل وأشمل وأفضل، لينتقل ﷺ من بشرٍ سَوِيٍّ إلى الرسول الأعظم ﷺ .

فمما لا شك فيه أن النبي ﷺ بعد أنْ أمَرَهُ ربُّهُ بالبلاغ المبين بما أوحى إليه ربُّهُ سيُواجه في سبيل ذلك كثيراً من الابتلاءات والمحن بشتى صورها وأساليبها كالتي واجَهَتْ من سَبَقَه من الأنبياء والمرسلين من أقوامهم الكفار والمشركين ، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام :٣٤]،وستعترضه كثيرٌ من التحديات والمعوِّقَات التي تعترض كل مصلح اجتماعي لمجتمع فسدت عقائده ومُسخت فطرته، وانحرف سلوك أفراده.

وهذا ما عبَّر عنه ورقة بن نوفل (١) في قوله للنبي ﷺ عندما نزل عليه الوحي لأول مرة في غار حراء، وانطلقت خديجة رضي الله عنها برسول الله ﷺ إلى ورقة فقال لرسول الله ﷺ : (.. . **لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن**

---

(١) هو ورقة بن نوفل القرشي.. ابن عم خديجة، وهو الذي أخبر خديجة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ نبي هذه الأمة عندما أخبرته بما رأى النبي ﷺ لما أوحي إليه ، والقصة مشهورة.. اختُلف في إسلامه. انظر: أسد الغابة ٥ / ٤٦٣-٤٦٥ ترجمة رقم ٥٤٥٨، و:الإصابة ١٠ / ٣٠٤-٣٠٧، و:طبقات ابن سعد١ / ١٩٤ .

يُدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزّراً) (١)

وقد كان لنزول القرآن الكريم منجماً أثر عظيم في تربية النبي ﷺ في شتى المجالات والجوانب الشخصية والاجتماعية ـ بصورة متدرجة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، كما قال تعالى ردّاً على الكفار الذين طلبوا ـ تعنتاً ـ نزول القرآن دُفعةً واحدة على النبي ﷺ فقال سبحانه : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان:٣٢] .

وفي هذا قال البغوي(٢) ـ رحمه الله ـ « أي أنزلناه مفرَّقاً ليقوَى به قلبُك فتَعيه وتحفظُه » (٣)

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: "ولقد جاء القرآن ليُربي أمة، ويُنشئَ مجتمعاً، ويُقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة.. والنفس البشرية لا تتحول تحوُّلاً شاملاً كاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل كامل للمنهج الجديد.. إنما تتأثر يوماً بعد يوم، وتتدرج في مراقي الإيمان رويداً رويداً، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً.. من أجل هذا كله نزل القرآن مفصَّلاً يُبيِّن أول ما يُبيِّن عن منهجه لقلب رسول الله ﷺ ويُثبته على طريقه.." (٤) .

---

(١) البخاري٦ / ٢٥٦١، في كتاب التعبير، باب: أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي، برقم ٦٥٨١ عن عائشة، وأول الحديث« أول ما بدئ به رسول الله ... » وأخرجه الحاكم في ٣ / ١٨٣، وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٣ / ١٦٢٣ برقم ٥٨٤١ .

(٢) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، الفقيه الشافعي، يعرف بابن الفراء أو الفراء، ويلقب بمحيي السُّنَّة، نسبته إلى بغا من قرى خراسان بني هراة ومرو، ولد عام ٤٣٦هـ وهو فقيه، محدث، مفسر، وكان جليلاً ورعاً زاهداً، توفي عام ٥١٠هـ في مرو الروذ، وقد جاوز الثمانين، ولم يحج، له عدة مصنفات،منها :« معالم التنزيل » في التفسير،و« الجمع بين الصحيحين » في الحديث، و« التهذيب » في الفقه الشافعي، وغير ذلك . انظر: طبقات المفسرين لمحمد بن أحمد الداودي١ / ١٥٧-١٥٩، و:تذكرة الحفاظ للذهبي٤ / ١٢٥٧ .

(٣) تفسير البغوي، معالم التنزيل، ٦ / ٨٣، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (٤٣٦-٥١٠ هـ) تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة، ط٢، ١٩٩٣م، الرياض-السعودية، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات .

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم (ت١٩٦٦)، دار الشروق، ط٢٤، (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

لقد كانت تربية النبي ﷺ وفق منهج «محدد الأهداف، واضح الخطوات، معلوم المصادر، متكامل الجوانب، متنوع الأساليب» (١)

فقد استمر تنزل القرآن مفصّلاً متدرجاً ـ خلال فترة البعثة ـ ليؤتي ثماره في تربية النبي ﷺ، ولينجح ﷺ في دعوة الناس وإرساء قواعد لا إله إلا الله بتدرج نظري وعملي في واقع الحياة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ في الآية قراءتين: الأولى ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتخفيف (٢)، والثانية ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتشديد (٣)، وأورد في تفسيرها على القراءة الأولى أن معناها: «بيّناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل..» (٤).

وقال في تفسيرها على القراءة الثانية: «..أي أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملةً واحدة.. ـ بل هو ـ على تطاول في المدة شيئاً بعد شيء.. أو أنزلناه آيةً آيةً وسورةً سورةً، .. على ترسُّل وتمهُّل في التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ.. وأنزلناه منجماً مفرقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا، ولم يطيقوا..» (٥).

لكل ما سبق من حكم عظيمة وغيرها نزل القرآن منجّماً على رسول الله ﷺ ويؤيد هذا ما صحَّ عن عائشة رضي الله عنها ـ أنها قالت: «... إنما نزل أوَّل ما نزل منه ـ أي من القرآن ـ سورةٌ من المفصّل (٦)، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى

(١) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا للدكتور: يوسف القرضاوي، طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) وهي قراءة الجمهور.

(٣) وهي قراءة علي وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبي.

(٤) فتح القدير ٣ / ٣٧٧.

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة بتصرف يسير.

(٦) سورة من المفصل: أي أن المراد إما سورة اقرأ وفيها إشارة إلى الجنة والنار في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾ [العلق ١٨]، وإما سورة [المدثر: ٢٧] وفيها تصريح بهما بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧)﴾ .. وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدثر: ٤٠]، والمفصّل من

الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نَزَل أولَ شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً » (١)

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على قول عائشة رضي الله عنها: « نزل الحلال والحرام » : « أشارت ـ أي عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة والكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أُنزلت الأحكام . . »(٢) .

وهكذا نزل القرآن الكريم مفرقاً متدرجا على قلب النبي ﷺ آيةً آيةً، وسورةً سورةً ، لتتحقق التربية الربّانية القرآنية للنبي ﷺ عبر آيات القرآن الكريم خلال سنوات الوحي .

وحتى يتضح الأمر جلياً رأيتُ أن أُقَسِّم هذا الباب إلى الفصول الأربعة التالية:

الفصل الأول : تربية النبي ﷺ نفسياً .

الفصل الثاني : تربية النبي ﷺ عقلياً .

الفصل الثالث : تربية النبي ﷺ إيمانياً .

الفصل الرابع : تربية النبي ﷺ أخلاقياً .

= القرآن يبدأ من سورة ق وقيل غير ذلك ، وسمي بالمفصل لقصر سوره وانفصالها عن بعضها البعض. انظر: صحيح البخاري ١ / ١٩١٠ وفتح الباري٩ / ٤٠ .

(١) رواه البخاري في ٤ / ١٩١٠ في كتاب فضائل القرآن ، باب: تاليف القرآن ، برقم ٤٧٠٧ عن يوسف بن مَاهَك ، وأوله « إني عند عائشة . . » .

(٢) فتح الباري ٩ / ٤٠ .

الفصل الأول

تربية النبي ﷺ نفسياً

الفصل الأول

تربيـة النبـي ﷺ نفسيـاً

من المقرر لدى علماء النفس أن الإنسان كلما كان يحمل نفسية مستقرة آمنة مطمئنة توّاقةً متفائلة عاليةً ،كلما كان صاحبُها أقدر وأنجح على إدارة شئون حياته الخاصة والعامة، وأثبت وأرسخ على مواجهة الأحداث الاجتماعية العسيرة والشاقّة.

وكذلك الأمر بالنسبة للنبي ﷺ، فمتطلبات الدعوة التي كلّفهُ الله بها، ومراحل الجهاد التي سلكها، وحجم المعاناة التي لاقاها أثناء البلاغ، وصلَفُ القوم الذين دعاهم إلى الله ، كل ذلك استدعى أن يكون النبي ﷺ على مستوى عالٍ من استقرار واتزان النفسية، وعلو المشاعر، ورحابة الصدر، ورباطة الجاش، وعلى قسطٍ وافر من التفاؤل والاستبشار بالنجاح والنصر، وعلى بُعد تام عن اليأس أو الشك في تحقيق ما وعده به ربُّ العالمين مهما تعرض لابتلاءات وشدائد في سبيل الله ، ومهما طال الزمن، واستدعى كل ذلك وغيره ـ أيضاً ـ أن يكون النبي محمد ﷺ على ثقة مطلقة بصحة المنهج ، وسمو الهدف، ومعية الإله وحِفظِه ـ سبحانه وتعالى ـ وأن العاقبة للمتقين.

وهذا كله يحتاج إلى " قوةٍ نفسية، تتمثل في إرادة قوية لا يتطرّق إليها ضعف، ووفاء ثابت ...، وتضحية عزيزة.. ومعرفة بالمبدأ مع إيمان به وتقدير له.." (١) .

وبلوغ هذا كله لا يتحقق إلا من خلال معالجة القرآن الكريم لعدة جوانب

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، إلى أي شيء ندعو الناس ص١٤٣، دار القلم، ط بدون، د.ت،بيروت، لبنان.

تتعلق بنفسية النبي ﷺ .

وهذا ما حققه القرآن الكريم في نفس رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ فالقرآن قد عالج ذلك بأكثر من أسلوب وصيغة، وفي جميع مراحل الدعوة المكية والمدنية حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى ربه. ويمكن توضيح هذا من خلال المباحث الثلاثة التالية .

المبحث الأول
الضمانات والبشارات المستقبلية

ليتمكن النبي ﷺ من السير في الدعوة إلى الله واثقَ الخُطىٰ ، مطمئن النفس، هادئ البال، عالي الهمة، عظيم التضحية، ضمن الله له عدة أمور تتعلق بذاته ودعوته، ويتضح هذا من خلال المطالب الأربعة التالية .

المطلب الأول

ضمان الحفظ والعصمة من تحقق مكر الكفار بالنبي ﷺ أو الحيلولة بينه وبين دعوته

ضمن الله للنبي ﷺ أن يحفظه من كيد الكافرين وخُلُوصهم إليه أو إلى دعوته بِشَرٍّ، وقد ورد هذا في أكثر من آية مكية ومدنية، وذلك كما يلي:

أولاً: في المرحلة المكية:

قال سبحانه في الآيات المكية ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾**﴾ [الحجر : ٩٤ – ٩٥] ، قد كان هذا الضمان في بداية العهد المكي وأوائل الرسالة ؛ حيث كان النبي ﷺ وحده لا يمتلك عشيرة تدافع عنه، ولا أنصاراً ينصرونه إلا ما كان من زوجته وعمِّه، فامر الله رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة وضمن له الكفاية والحفظ من الكفار .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « ... أي بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدُّوك عن آيات الله .. ولا تَخَفْهُم ؛ فإن الله كافيك إيَّاهم وحافظك منهم » (١)

وقال سبحانه وتعالى في سورة الطور المكية بعد أن بدأ النبيُّ ﷺ يبلغ الدعوة ويجهر بها، وتعرَّض للأذى من الكفار بسبب ذلك : ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور : ٤٨] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها : « أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٧٩، للحافظ ابي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٠١–٧٧٤) هـ دار المعرفة، ط٦، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.، ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في اربعة مجلدات.

فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس » (١)

وهكذا ضَمِنَ الله لنبيه محمد ﷺ الحفظ والعصمة من مكر الكفار، وكيدهم بالدعوة قبل أن يجهر بها، وبعد جهره، وأثناء تعرضه لأذى كفار قريش، وبعد ذلك، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ « ومن عصمة الله لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحُسّادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبُغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته، فصانه في ابتداء دعوته بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً في قريش، وجعل الله في قلبه محبّةً طبيعيةً لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لمّا كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمُّه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قيّض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، وكلما همَّ أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين بسوء كاده الله وردَّ كيده عليه » (٢)

ومن الأمثلة الدالة على عصمة الله لرسوله ﷺ في مكة من أذى الكفار في الحضر ما صحَّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: « قال أبو جهل: هل يُعفرُ محمد وجهه بين أظهركم (٣) ؟ ، قال: فقيل نعم. فقال: واللات والعُزّى، لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأُعفِّرنَّ وجهه في التراب، قال فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليَطأَ على رقبته، قال: فما فَجِئهُم (٤) منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيه (٥) ، ويتقي بيديه، قال: فقيل له مالك؟ ، فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤ / ٢٦٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٨١-٨٢ .
(٣) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجهه بالتراب وهو العفر، كناية عن عبادته لله تعالى.
(٤) فما فجئهم: بكسر الجيم،ويقال أيضاً : فجاهم بفتحها، لغتان، والمعنى بَغَتَهُمْ.
(٥) يَنْكُص على عقبيه: أي رجع يمشي إلى ورائه ، قال ابن فارس: النكوص الإحجام عن الشيء.
انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ٢١٥٤، لمحمد فؤاد عبد الباقي

نار وهَوْلاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» (١)

ومن الأمثلة الدالة على حفظ الله لرسوله ﷺ من الكفار في السفر تحقيقاً وتصديقاً لضمان الله سبحانه له بذلك، ما ثبت عن أبي بكر الصديق (٢) - رضي الله عنه - في قصة الهجرة النبوية قال: « . .فارتحلْنا بعدما مالت الشمس، واتَّبَعَنا سراقةُ بن مالك(٣) ، فقلتُ: أُتِينَا يا رسول الله ، فقال: ﴿ لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فدعا عليه النبي ﷺ ، فارتطمت (٤) به فرسه إلى بطنها،. . فقال: إني أراكما قد

---

(١) رواه مسلم ٤ / ٢١٥٤ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله تعالى: ﴿ إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ [العلق:٦] برقم ٢٧٩٧، وذكره ابن حجر في الفتح ٨ / ٧٢٤، والخطيب التبريزي في المشكاة ٥ / ١٦٢٩ برقم ٥٨٥٦ .

(٢) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو.. القرشي التيمي، ابو بكر الصديق بن أبي قحافة، صاحب رسول الله في الغار وفي الهجرة والخليفة بعده، قيل له الصديق لأنه صدّق بإسراء النبي إلى المسجد الأقصى حيث كذّبه آخرون... كان من رؤساء قريش محبباً إليهم، وكان أول من أسلم للنبي ﷺ من الرجال.. وأسلم على يديه جماعة من العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، هاجر مع النبي ﷺ وآنسه في الغار ووقاه بنفسه.... شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، له فضائل عديدة... كان عظيم الزهد والتواضع والإنفاق في سبيل الله، توفي سنة ثلاث عشرة هجرية.
انظر: أسد الغابة ٣ / ٣١٥-٣٤١ ترجمة رقم ٣٠٦٤، وانظر: تاريخ الخلفاء ص٣٥-١٢٢ للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) تحقيق الشيخين: قاسم الشماعي ومحمد العثماني، دار القلم، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت، لبنان، وانظر: تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ، (حوادث ووفيات) (١١-٤٠هـ) ص٥-٦٦٢ للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي ٧٤٨ هـ ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي، ط٢،١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في تسعة وثلاثين مجلداً.

(٣) هو سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي، يكنى أبا سفيان، اشتهر بملاحقة النبي ﷺ -يوم الهجرة- قبل إسلامه، يعتبر من مسلمة الفتح ٨هـ ، روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه جابر بن عبد الله وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم، كتب له رسول الله ﷺ كتاباً يوم الهجرة لرجوعه عنه ، ووعده بسواري كسرى ومنطقته وتاجه ووفّى عمر بذلك في خلافته، مات سنة اربع وعشرين اول خلافة عثمان وقيل بعد خلافته .
انظر: الإصابة ٣ / ٦٩، و: تهذيب التهذيب٣ / ٤٥٦، و: أسد الغابة ٢ / ٣٩٥ .

(٤) فارتطمت: أي وقعت في الأرض وساخت قوائمها كما تسوخ في الوحل. لسان العرب ١٢ / ٢٤٤ .

دعوتما عليَّ ، فادعوا لي، فالله لكما أن أردَّ عنكما الطَّلب (١) ، فدعا له النبي ﷺ فنجا، فجعل لا يلقى أحداً إلا قال : كُفيتم ماهنا، فلا يلقى أحداً إلا ردَّه، قال: « ووفَّى لنا » (٢) .

والقرآن الكريم قد نصّ في أكثر من موضع على حفظ الله لنبيه الكريم ﷺ من الكفار ومكرهم، ومنْ ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٤] .

لم تثبت رواية صحيحة عن سبب نزول الآية ـ على حد علمي ـ ، ولكن المفسرين ذكروا في معنى الآية عدة أقوال ؛ فقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ « .. أي قاربوا أن يخدعوك فاتنين، .. بإعطائهم ما سألوه مخالفةً لحُكم القرآن وافتراءً على الله سبحانه .. من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد .. » (٣)

وقال ابن جرير-رحمه الله -:

« **والصواب من القول في ذلك أن يقال:** إن الله تعالى ذِكرُه أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله ...ولا بيان في الكتاب ولا في خبرٍ يقطع العذر أيُّ ذلك كان.. »(٤) .

وأيًا كانت الفتنة التي أراد الكفار أن يفتنوا النبي ﷺ بها فالشاهد أن الله تعالى يخبر عن « تأييده لرسولِهِ ﷺوتثبيته وعصمته،وسلامته من شر الأشرار

---

(١) الطلب : جمع طالب، والمعنى من يطلب النبي وصاحبه.صحيح البخاري بشرح د. مصطفى ديب البغا ، دار القلم ط١ ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، دمشق سوريا ، ٣ / ١٣٢٤ ، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٢) البخاري٣ / ١٣٢٣، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة،برقم ٣٤١٩، عن البراء بن عازب ﷺ، واخرجه مسلم ٤ / ٢٣٠٩ برقم ٢٠٠٩ ، وأول الحديث (جاء أبو بكر إلى أبي ...) .

(٣) فتح القدير ٣ / ٣٥٤ بتصرف يسير .

(٤) جامع البيان ٨ / ١١٩ .

وكيد الفجار. .وأنه لا يَكِلُه إلى أحد من خلقه[١] »[٢]. .والعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، وكما قال صاحب أضواء البيان ـ رحمه الله ـ « ... بيّنَ ـ جلّ وعلا ـ في هذه الآية الكريمة تثبيتَهُ لنبيه ﷺ وعصمَتَهُ له من الركون إلى الكفار. . ـ كما أن ـ هذه الآية الكريمة قد أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون ؛ لأن" لولا" حرف امتناع لوجود،فمقاربة الركن مَنَعتْهَا "لولا" الامتناعية لوجود التثبيت من الله ـ جل وعلا ـ لأكرم خلقه ﷺ فصحَّ يقيناً انتفاء مقاربة الركون فضلاً عن الركون نفسه »[٣]

وهكذا نجد أن الله تعالى ضمن لنبيه ﷺ الحفظ والعصمة بشكل عام من مكر الكفار وكيدهم عند البلاغ المبين في حال السِّلم، وضمنها كذلك في حال الحرب، وفي حال العهود والمواثيق وغير ذلك [٤]

ويتضح هذا جلياً في هجرته ﷺ حيث ذكر القرآن مشاهد وأحداث مكر

---

(١) أورد ابن جرير الطبري في جامعه ٨ / ١٢٠ عن قتادة ـ رحمه الله ـ ان النبي قال بعد نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ قال: (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين).

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٦ بزيادة يسير.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣ / ٥٦٤-٥٦٥ بتصرف يسير، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (١٣٠٥-١٣٩٣هـ)، مكتبة ابن تيمية، ط بدون،١٤١٣هـ-١٩٩٢م،القاهرة،مصر،والكتاب يقع في تسعة مجلدات.

(٤) ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة :٧٤] ...الآية٧٤ التوبة.
ذكر ما نصه : (وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ قال: هم رجل يقال له الأسود بقتل النبيﷺ) راجع فتح القدير٢ / ٥٥٨.
وذكر الواحدي في أسباب النزول ما يلي : (قال الضحاك: هموا أن يدفعوا النبي ليلة العقبة، وكانوا قوماً قد اجمعوا على ان يقتلوا رسول الله وهم معه، فجعلوا يلتمسون غرته حتى اخذ في عقبة ، فتقدم بعضهم، وتاخر بعضهم، وذلك كان ليلاً، فقالوا إذا اخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر، وسائقه حذيفة ، فسمع اخفاف الإبل فالتفت فإذ هو بقوم متلثمين ، فقال: (إليكم يا اعداء الله) فامسكوا، ومضى النبي حتى نزل منزله الذي اراد، فانزل الله : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾. انظر: أسباب النزول لأبي الحسن على بن احمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) تحقيق: ايمن صالح شعبان، دار زمزم، ط بدون، د.ت، الرياض، السعودية.

الكفار بالنبي ﷺ وكيف نجّاه الله سالماً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

قال الشوكاني-رحمه الله - «ليثبتوك بالجراحات،وقيل ليحبسوك، وقيل ليوثقوك،ومعنى﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ أي من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك..»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :« شَرَى(٢) علي - رضي الله عنه - نفسه، ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون (٣)رسول الله ﷺ ،وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه بُردة، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ ، فجعلوا يرمون علياً ويَرَوْنَهُ النبي ﷺ وقد لبس بُردةً، وجعل علي - رضي الله عنه - يتضوَّر (٤) ، فإذا هو علي، فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضوَّر، ولقد استنكرناه منك" (٥) .

ثانياً: في المرحلة المدنية:

وكما أن الله - تعالى - ضمن الحفظ لنبيه ﷺودعوته في المرحلة المكية - وشهدت أحداث الواقع بذلك - فقد ضمن ذلك له أيضاً، في المرحلة المدنية - بعد الهجرة، ضمن الحفظ له من كفار المدينة المنورة، سواء أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أو المنافقين والأعراب، ومن على شاكلتهم.

وقد وردت أكثر من آية مدنية تُطمئن النبي ﷺ على نفسه ودعوته، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة : ٦٧].

---

(١) فتح القدير ٢ / ٤٤١-٤٤٢ .

(٢) شرى: أي باع، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ، انظر:لسان العرب١٤ / ٤٢٧ .

(٣) يرمون: أي يقصدون ويرمون، ومنه: أين ترمي أي: أين تقصد ، نفس المرجع١٤ / ٣٣٦-٣٣٨ .

(٤) يتضور: أي يتقلب ظهراً لبطن، والتضوّر هو شدة الجوع ، نفس المرجع ٤ / ٤٩٤ .

(٥) أخرجه الحاكم في٣ / ٤ في كتاب الهجرة وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « كان رسول الله ﷺ يُحَرْس (١)، حتى نزلت : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، فأخرج رأسه من القُبّة ، فقال: «**أيها الناس انصرفوا ؛ فقد عصمني الله** » (٢) .

وعصمة الله لنبيه ﷺ ودعوته من الكفار قد تجلّت بعد المرحلة المكية في أكثر من موقف، منها ما أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه (٣) قال: « كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ ، قال: فجاء رجل من المشركين ، وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه (٤) فقال لرسول الله : أتخافني؟ قال : (**لا**) ، قال: فمن يمنعك مني؟ ، قال: (**الله يمنعني منك**) قال: فتهدده أصحاب رسول الله ، فاغمد السيف وعلّقه» (٥)

وفي رواية « .. فرعَدَتْ يد الأعرابي، وسقط السيف منه» (٦) . وفي رواية: « فقال النبي ﷺ : (الله) فانزل الله عز وجل﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره ٢ / ٨١ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن العباس رضي الله عنه كان يحرس رسول الله ﷺ قبل نزول هذه الآية، وروى مسلم في ٤ / ١٨٧٥ برقم ٢٤١٠ عن عائشة قالت: «**أرق رسول الله ذات ليلة، فقال: "ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة) ، قالت : وسمعنا صوت السلاح، فقال : رسول الله (من هذا) ؟ قال : سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت احرسك، قالت عائشة: فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه**».

(٢) رواه الحاكم في ٢ / ٣١٣ في كتاب التفسير، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٨ .

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، يكنى أبا عبد الله ، وقيل أبو عبد الرحمن، والأول أصح، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي... وكان من المكثرين في الحديث، الحافظين للسنن، شهد مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة.. وقيل أكثر.. وشهد صفين مع علي.. وهو الذي باع من رسول الله ﷺ بعيراً واشترط ظهره إلى المدينة، توفي سنة أربع وسبعين، وقيل سبع وسبعين هجرية، وقد بلغ من العمر أربعاً وتسعين سنة.

انظر: أسد الغابة ١ / ٣٧٧-٣٧٩ ترجمة رقم ٦٤٧، و:سير أعلام النبلاء ٣ / ١٨٩ وما بعدها.

(٤) اخترطه: أي سله ، انظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٥٧٦ .

(٥) مسلم ١ / ٥٧٦ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف برقم ٣١١ / ٨٤٣، وأخرجه ابن حنبل في مسنده٣ / ٤٦٣ برقم ١٤٩١١ ، ورواه البيهقي في دلائل النبوة٣ /٣٧٥ .

(٦) جامع البيان للطبري ٤ / ٦٤٨ برقم ١٢٢٨١ .

رَبِّكَ (١) وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة : ٦٧] (٢) .

قال ابن كثير -رحمه الله -في تفسير الآية السابقة : « أي بلّغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك » (٣)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: « . . ثم إن الله ـ سبحانه ـ وعده بالعصمة من الناس دفعاً لم يُظنُّ أنه حامل على كتم البيان وهو خوفُ لحوق الضرر من الناس »(٤).

ومن الآيات المدنية التي ضمن الله فيها للنبي ﷺ الحفظ والعصمة من شر الكفار ومكرهم ما نزل في شأن أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم وكفروا بالنبي محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ « . . وعدٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه سيكفيه من عانده

---

(١) أورد الشوكاني في فتح القدير٢ / ٨٩ عن ابن عباس« أن رسول الله سُئل: اي آية انزلت من السماء اشد عليك؟ قال: كنت بمنى أيام موسم فاجتمع مشركو العرب وافناء الناس ـ أي اخلاطهم ـ في الموسم فانزل عليَّ جبريل ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ قال: فقمت عند العقبة فناديت: يا أيها الناس من ينصرني على أن ابلغ رسالة ربي وله الجنة؟ ، قال: فما بقي رجل ولا امراة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجار، ويبزقون في وجهي ويقولون كذاب صابئ، فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك فقال النبي ﷺ :«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فجاء العباس ﷺ فانقذه منهم وطردهم عنه».

(٢) موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان ص٤٣٠، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥-٨٠٧ هـ) ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، ط بدون، د.ت. بيروت، لبنان،. وقال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص٦١-٦٢ هذا حديث حسن.. قد توبع، كما في تفسير ابن كثير ٢ / ٨٢، .. ذكره ابن كثير بسند ابن مردويه، وهو كذلك .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٨١، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل الوادعي، (١٤٢٢هـ) دار الأرقم،ط٣،د.ت،الكويت

(٤) فتح القدير٢ / ٧٨ .

وخالفه من المتولين» [١]

وضمن الله عز وجل للنبي ﷺ الحفظ من كل محاولات الإضلال، والعصمة من كل ضُر يُراد به من قبل الكفار، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]

قال ابن كثير -رحمه الله-: «..ثم امتن الله على رسوله بتأييده في جميع الأحوال وعصمته له..» [٢]

وضمن الله ـ عز وجل ـ حفظ نبيه ﷺ من كل ما يخافه من غدر الكفار ونكثهم للعهود والمواثيق أو خديعتهم له، وذلك في حال عقد الصلح معهم لأَجَلٍ مسمى، قال ـ تعالى ـ في شأن الكفار الذين يخشى رسولُ الله ﷺ غدرهم: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

قال الشوكاني رحمه الله:

«أي كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر» [٣] وبهذه الضمانات كلها ـ سواء في المرحلة المكية أو المدنية ـ اطمأن النبي ﷺ نفسياً على ذاته ودعوته، وازداد يقيناً بحفظ الله له ورعايته، فبلّغ دين الله آمناً مطمئناً فهو محفوظ بعين الله ورعايته جسداً وروحاً، وهو معصوم بفضل الله وعنايته وتسديده قلباً وفكراً [٤]،

---

(١) فتح القدير ١ / ١٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٥ / ٥٦٧.

(٣) فتح القدير ٢ / ٤٠١.

(٤) أورد الشوكاني ـ رحمه الله ـ في فتح القدير ٥ / ٦٠٠-٦٦١، في تفسيره قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⑥﴾ [الأعلى: ٦]، عدة معان منها ما يدل على ان النبي ﷺ معصوم من النسيان الكُلّي الدائم للقران الكريم حيث قال ـ رحمه الله ـ في تفسير ما سبق: «أي سنجعلك قارئاً بان نلهمك القرآن فلا تنسى ما تقرؤه، والجملة مستانفة لبيان هدايته الخاصة بعد بيان الهداية العامة وهي هدايته لحفظ القران، قال مجاهد والكلبي كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ باولها مخافة ان ينساها فنزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⑥﴾ وقوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.. اي لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الاشياء إلا ما شاء الله ان تنساه، قال الفراء: وهو لم يشا سبحانه ان ينسى محمد شيئاً.. وقيل إلا ما شاء الله ان تنسى ثم تذكر بعد =

ولسانا (١) . وضمن الله عز وجل للنبي ﷺ ضماناً آخر ، لتطمئن نفسه بما هو مُقدم عليه ، بل تتفاءل بنصر الله تعالى في المستقبل القريب، وهذا ما أعرض له في المطلب الثاني .

= بذلك، فإذاً قد نسي ، ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً .. وقيل ان معنى النسيان النسخ، وقيل: ترك العمل، وقيل تاخير الإنزال».

(١) وقد ورد ايضاً ما يدل على عصمة النبي ـ ﷺ ـ من الوقوع في الخطأ أثناء التلاوة وإقرار ذلك حيث يذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج : ٥٢]، يذكر الشوكاني في تفسير ما سبق عدة أقوال للمفسرين في معنى قوله تمنى وسبب نزول هذه الآية ، ثم ناقشها جميعاً وفنَّدَ قصة الغرانيق العُلى وذكر انه لم يصح منها شيء ثم رجع ان معنى تمنى تلا وقرأ ، نقلاً عن الواحدي والبغوي الذين نقلا عن أكثر المفسرين..، ومعنى﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ اي في تلاوته وقراءته ، ثم قال الشوكاني: «فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله اي لا يهولنك ذلك ، ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والانبياء.. ثم يقول: وعلى تقدير ان معنى تمنى حدَّث نفسه.. فالمعنى انه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان والقاه في مسامع الناس من دون ان يتكلم به رسول الله ولا جرى على لسانه.. وقيل ان ذلك جرى على لسانه سهواً ونسياناً وهما مجوزان على الأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرر في مواطنه، ثم لما سلاه الله بهذه التسلية وانها قد وقعت لمن قبله من الرسل والانبياء بيَّن سبحانه أنه يُبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ اي يُثبتها، راجع فتح القدير ٣ / ٦٦٠ .

المطلـب الثانـي

ضمان النصر والغلبة على الكافرين

كما أن الله ـ عز وجل ـ قد ضمن للنبي ﷺ الحفظ والعصمة لذاته ودعوته من الكفار ، فقد ضمن له ضماناً آخر يتعلق بمستقبل هذا الدين العظيم ، ألا وهو النصر المبين وإعلاء كلمة الله ولو بعد حين، وإحقاق الحق ونصر أهله وإبطال الباطل وخذلان حزبه، ويتضح هذا من كثير من الآيات التي توالت على النبي ﷺ في المرحلة المكية والمدنية، تؤكد له حتمية النصر القادم ـ بإذن الله ـ وتدعوه إلى الصبر ويمكن توضيح هذا كما يلي :

أولاً: الآيات المكيـــة:

قال تعالى في سورة الروم المكية : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠] .

وقال في سورة مريم المكية: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤] .

قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية الأولى : "فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم [١] ، وبلّغهم رسالة ربك ؛ فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وتُبّاعك [٢] في الأرض حق" [٣]

وقال الشوكاني في تفسير الآية الثانية : « فلا تعجل عليهم بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر ، وعنادِهم للحق، وتمرُّدِهم عن داعي الله سبحانه » [٤] .

---

(١) نعم لقد تعرض النبي ﷺ لأذى الكفار لكن ليس إلى الحد الذي يحول بينه وبين دعوته والبلاغ المبين.

(٢) تباعك: جمع تابع وهو من تبع الشيء، ويقال تبيع أي : نصير، انظر لسان العرب٨ / ٢٩،٢٧ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن ١٠ / ٢٠٠ .

(٤) فتح القدير ٣ / ٥٠١

وقد ذكر القرآن الكريم من مواقف الأمم الماضية من أنبيائهم للنبي ﷺ ما يدل على صبر الأنبياء والرُّسل السابقين على أقوامهم حتى أتاهم نصر الله ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري: « وهذا تسلية من الله لرسوله، ذكرُهُ لنبيه.. فلا يحزنك ذلك واصبر على تكذيبهم إيَّاك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذِّبت رسلٌ من قبلك أرسلتُهم إلى أممهم.. فصبروا على تكذيب قومهم إيَّاهم..حتى حكم الله بينهم، ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ ، أي: ولا مُغير لكلمات الله ، وكلماته ـ تعالى ـ ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ من وعده إياه النصر على مَنْ خالفه وضادَّه ، والظَّفر على من تولّى عنه وأدبر » (١) .

وإضافة إلى ما سبق فهناك آيات مكية ـ أيضاً ـ كانت تَعد النبي ﷺ بالنَّصر، وتبشّره بالظُّفر كما في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥].

أخرج البخاري (٢) بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ

---

(١) جامع البيان ٥ / ١٨٢ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ، الجعفي، مولاهم البخاري، حبر الإسلام، الحافظ المولود في بخارى عام ١٩٤هـ، حفظ تصانيف ابن المبارك وهو صبي، ونشأ يتيماً، ورحل مع أمه وأخيه.. بعد- أن سمع مرويات بلده من محمد بن سلام، ومحمد بن يوسف... وأكثر من الرحلة في طلب العلم، سمع من نحو ألف شيخ ، وكان رأساً في العلم والذكاء والورع والعبادة، بدأ بالتصنيف وعمره ثمانية عشر عاماً... قال عن نفسه: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف غير صحيح، أثنى عليه العلماء فقال عنه ابن خزيمة: (ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري، .. توفي عام ٢٥٦هـ في خرتنك-إحدى قرى سمرقند-) من مؤلفاته « الجامع الصحيح » المعروف بصحيح البخاري، و« الأدب المفرد » و« الضعفاء » وله كتب أخر مثل « خلق أفعال العباد » و« التاريخ » وغير ذلك.

انظر: كتاب تذكرة ، الحفاظ لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ٢ / ٥٥٥-٥٥٦، و: تهذيب التهذيب لأبي الفضل شهاب الدين أحمد العسقلاني ٩ / ٤٧ .

يوم بدر: «اللهم إني أُنشدُك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ﷺ فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

والشاهد من الرواية السابقة أن الله تعالى وعد نبيه ﷺ وأكدَّ له حتمية هزيمة الكفار ـ كفار قريش ـ وقد تحقق ذلك يوم بدر، حيث نصر الله نبيَّه محمداً ﷺ وأولياءه على الكفار المعاندين.

وهكذا توالت الآيات المكية التي تقرر حقيقة النصر للمؤمنين بشكل عام، وتؤكد عليه، وتذكر حتمية الغلبة لجند الله الموحدين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

وكما في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات : ١٧١ـ ١٧٣] .

وكما ورد في سورة الأعراف حكاية عن موسى عليه السلام ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨]، وغيرها من الآيات المكية (٢).

ثانياً: الآيات المدنية:

وكما أن الله تعالى قد ضمن لرسوله ﷺ ـ في الآيات المكية ـ النصر على الكفار، فكذلك الحال بالنسبة للآيات المدنية، ففي سورة الفتح المدنية قال سبحانه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح : ١ـ٣] .

---

(١) البخاري ٤ / ١٤٥٦ في كتاب المغازي، باب: قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩]، برقم ٣٧٣٧، وأخرجه ابن حنبل في مسنده ١ / ٤٠٩ برقم ٣٠٤٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٢ / ٣٣٣ .

(٢) كقوله تعالى في سورة القصص آية ٨٣ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، وفي سورة غافر آية ٥١ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ .

وفي السورة نفسها قال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ [الفتح: ١-٣].

وفي سورة المجادلة قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] .

قال ابن عاشور رحمه الله: « ..وقد كتب ـ الله ـ لجميع رسله الغلبة على أعدائهم فغَلَبتُهم من غلبة الله .. فثبت لرسوله ﷺ الغلبة لشمول ما كتب الله لرسله إياه، وهذا إثباتٌ لغلبة رسوله أقواماً يحادُّونه بطريق برهاني » (١)

والقرآن الكريم قد أشار إلى انتصار النبي ﷺ في بعض الأحداث والوقائع التي وقعت بينه وبين قومه من كفار قريش، كخروجه سالماً من بين أظهرهم إلى المدينة مهاجراً إلى الله تعالى.

قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة : ٤٠] .

ففي هذه الآية أخبر الله ـ سبحانه ـ عن نصره لرسوله ﷺ في ثلاثة مواطن حرجة أشار إليها بكلمة "إذ" التي تكررت ثلاثاً.

كما ردَّ القران على كل من كان يعتقد أن الله لن ينصر محمداً ، فقال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج : ١٥] .

قال ابن جرير في تفسير الآية: « من كان من الناس يحسب أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل ، وهو السبب إلى السماء ، يعني سماء

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٧ / ٥٧ .

البيت وهو سقفه ، ثم ليقطع السبب بعد الاختناق به، فلينظر هل يُذهبنَّ اختناقه ذلك وقطعُه السبب بعد الاختناق ما يغيظ: يقول: هل يُذهبن ذلك ما يجد في صدره من الغيظ » (١) .

وخلاصة المقال:

أن الله تعالى عندما وعد النبي ﷺ بالنصر وضمن له الغلبة على كفار قريش خاصة، وغيرهم عامة، والتمكين للدين، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: ٥٥] (٢).

إنما كان القرآن يهدف من كل ذلك إلى معالجة نفسية النبي ﷺ مما كان يُصيبه من هَمٍّ وغَمٍّ وضيق وحُزن لمعارضة الكفار له ومحاربتهم لدين الله وأنصاره، فمن وسائل العلاج النفسي القرآني للقلق والاكتئاب التبشير بالفرج أو الثواب وذلك « لمعالجة الأزمات والصدمات التي واجهت النبي ﷺ في طريق دعوته »(٣).

وكثير من أسباب القلق والاكتئاب تعرض لها النبي ﷺ في حياته الدعوية ؛ فكان من الطبيعي أن يعالج القرآن الكريم ذلك بأسلوب حكيم ليثبته التثبيت الكامل لتحمل النبوة والرسالة.

والله ـ عز وجل ـ الذي وعد الله نبيه محمداً ﷺ بالنصر المبين قد حقق له ذلك في حياته وبعد مماته، وتمت البشرى له ولأصحابه، رغم أن كثيراً من آيات النصر

---

(١) جامع البيان٩ / ١١٨ .

(٢) النور ٥٥، وقد نزلت هذه الآية حال شدة خوف الصحابة مما أصابهم في المدينة من حروب ، روى الحاكم في مستدركه ٢ / ٤٠١ في كتاب :التفسير عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه المدينة وآوتهم الانصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي..

(٣) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ص٣٨٨بتصرف يسير، محمد عز الدين توفيق، دار السلام، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م ، القاهرة، مصر.

كانت تنزل في حالة ضعف المسلمين بل تعرُّضهم للعذاب من كفار قريش في المرحلة المكية حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) عند نزول قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر : ٤٥] ، « أيُّ جمع يُهزم؟ أي جَمع يُغلب؟ فلما كان يوم بدر، رأيتُ رسول الله يثب (٢) في ذرعه وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ فعرفتُ تأويلها يومئذ » (٣)

هكذا كان استبعاد عمر للنصر المبين، أما رسول الله ﷺ فقد بلغت الثقة بنصر الله مبلغاً جعلته يُقسم بربه على تحقق النصر ولو بعد حين، وذلك ليُطمئنَ أصحابه المعذبين بما رسخ في قلبه من وعد الله ، فقال لهم عندما شكوا له طول فترة تعذيبهم وشدة ألمهم ومعاناتهم قال: (**والله ليُتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**) (٤) .

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي، القرشي العدوي، أبو حفص، ... ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة... وكان من أشراف قريش، أسلم بعد اربعين رجلاً وإحدى عشرة امراة-وقيل بعد تسعة وثلاثين رجلاً وعشرين امراة.. وكان النبي ﷺ قد دعا قائلاً « **اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام يعني أبا جهل** » وكان إسلام عمر رضي الله عنه في السنة السادسة ، وقد سماه النبي ﷺ الفاروق ، وكانت هجرته إلى المدينة جهاراً.. شهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو الذي أشار بقتل أسارى المشركين في بدر، وكان فقيهاً في دين الله، قائماً بحدوده، ذا هيبة في صدور الرجال، كثير الزهد والتواضع، له فضائل عديدة، تولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق- رضي الله عنه - ، طعن سنة ثلاث وعشرين هجرية صباح يوم الأحد لأربع ليال بقين من ذي الحجة، ومكث ثلاثاً وتوفي، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال.

انظر: أسد الغابة٤ / ١٥٦-١٩٢ ترجمة رقم٣٨٢٤، و: تاريخ الإسلام ـ الخلفاء الراشدون ـ للسيوطي ص١٢٧-١٧٤، و: البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ١٣٧ وما بعدها.

(٢) يثب: يتحرك بسعة، والوثب هو الطفر والحركة السريعة. لسان العرب٩ / ٧٩٢ مادة وثب.

(٣) جامع البيان ٢٧ / ٦٤، الدرر المنثور ٧ / ٦٨١ .

(٤) البخاري ٣ / ١٣٢٢ في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، برقم ٣٤١٦، وأخرجه أبو داود في ٣ / ١٠٨ برقم ٢٦٤٩ وأول الحديث: عن خباب بن الأرت قال: « شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقه باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ...**) الحديث .

ولقد أنجز الله وعده لرسوله ﷺ فاظهر دينه، وأعزَّ جنده، وهزم أعداءه، وتتابع عليه النصر في المواطن ؛ ففتح له البلاد وقلوب العباد ودخل الناس في دين الله أفواجاً (١) كما في بدر والأحزاب والحديبية وأخيراً فتح مكة وحنين وغير ذلك، هذا ما عبّر عنه ابن كثير ـ رحمه الله ـ فقال : « وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خَالَفَهُ . . فجعل كلمته هي العُليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وجعل له في المدينة أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، . . ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، . . وخضعت له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها . . ، ثم جاء أصحابه من بعده ففتحوا البلاد والقرى والقلوب . .الخ » (٢)

وفي ختام هذه الفقرة يحسُن بنا أن نَعْرِض لمظاهر النصر الذي وعده الله الأنبياء والمؤمنين على الكفر والكافرين ، قال ابن جرير بعد استعراضه لما تعرض له الأنبياء والرسل السابقون من قتل وإيذاء وكيد من أقوامهم وتساؤله : كيف يكون نصر هؤلاء الأنبياء قد تحقق مصداقاً لوعد الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر : ٥١]، وقد أصابهم كل ما سبق؟! فيجيب قائلاً :

« **إن نصر الله لرسله يكون** : إما بإعلائنا لهُم على من كذّبنا ، وإظفارنا إياهم بأعدائهم حتى يقهروهم غلبة . .وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقّهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل . .أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مُكذّبيهم بعد وفاة رسولنا ﷺ . . » (٣).

---

(١) منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه ص٣٠٣، عبد الرحمن بن عبد الجبار هوساوي "رسالة ماجستير"، مؤسسة الريان، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بيروت، لبنان.

(٢) تفسير القرآن العظيم٤ / ٩٠بتصرف واختصار يسيرين.

(٣) جامع البيان ١١ / ٦٩ بتصرف وزيادة يسيرة.

وقال الفخر الرازي(١) ـ رحمه الله ـ « .. واعلم أن نُصْرَةَ الله المُحقِّين تحصل بوجوه:

■ أحدها: النُّصرة بالحجة.. .

■ وثانيها: أنهم ـ أي الرسل ـ منصورون بالمدح والتعظيم ـ أي من الناس ـ.

■ وثالثها: أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين.

■ ورابعها: أن استيلاء المبطلين لا يدوم..

■ وخامسها: أنهم منصورون بمزيد الثواب وتعظيم الدرجات..

■ وسادسها: أن آثارهم باقية على وجه الدهر والناس يقتدون بهم..

■ وسابعها: أن الله قد ينتقم لهم بعد موتهم » (٢)

وزاد الشنقيطي(٣) ـ رحمه الله ـ إلى ما سبق أن الغلبة " قد تكون بالسيف والسنان، أو الحجة والبيان، فالأُولى لمن أُمِرَ بالقتال من الرسل، والثانية ثابتة لجميع الرسل" (٤) .

(١) هو الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل، ثم الرازي، المفسر المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية، توفي بهراة يوم الفطر عام ٦٠٦هـ، من تصانيفه « التفسير الكبير » المعروف بـ « مفاتيح الغيب » و « المحصول » و « نهاية العقول » ، قيل إنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام.
انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٢١٤ وما بعدها، و: شذرات الذهب٥ / ٢١ .

(٢) التفسير الكبير ٩ / ٥٢٣-٥٢٤ بتصرف واختصار

(٣) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ، ولد عام ١٣٢٥هـ، مفسر، مدرس، من علماء شنقيط، موريتانيا، ولد وتعلم بها، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وحصل على الإجازة بقراءة نافع وهو في السادسة عشرة من عمره، وطلب العلم وتعلم الأدب وغير ذلك من فنون العلم الأخرى، رحل للحج عام ١٣٦٧هـ ، واستقر مدرساً في المدينة المنورة ، ثم الرياض ثم المدينة مرة أخرى... وتوفي بمكة عام ١٣٩٣هـ، له عدة مصنفات منها: تفسير « أضواء البيان » و « منع جواز المجاز » و « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » وغير ذلك.
انظر: الأعلام للزركلي ٦ / ٤٥، و: ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، جمع عبد الرحمن ابن عبدالعزيز السديس، دار الهجرة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١، الرياض، السعودية، و: علماء ومفكرون عرفتهم ١ / ١٧١-١٩١ لمحمد المجذوب ، دار الشواف، ط٤، ١٩٩٢م، الرياض، السعودية. والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

(٤) أضواء البيان ١ / ٢٥٥ بتصرف واختصار يسيرين، والشنقيطي رحمه الله قد ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

وقال سيد قطب -رحمه الله-: « إن وعد الله قاطع جازم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ، بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يُقتل،ومنهم من يُهاجر من أرضه وقومه مكذَّباً مطروداً، وأن المؤمنين فيهم من يُسام العذاب، وفيهم من يُلقى في الأخدود، وفيهم من يُستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ، ثم يجيب قائلاً : ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قِيَمٍ كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير، إن الناس يعيشون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل فَيَعْرِضُ القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان،والناس كذلك يُقصِرُون معنى النصر على صُور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة ـ ثم يتساءل مرة ثانية قائلاً: إبراهيم ـ ﷺ ـ وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم موقف هزيمة ؟ ، ثم يجيب قائلاً : ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يُلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار، ..، وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يُودِع القلوبَ من المعاني الكبيرة، ويُحفِّز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه..» (١) .

وهكذا قد يكون النصر بثبات الدعاة أو هلاك الطغاة، أو الفتح المبين. وهذا كله قد تحقق للنبي ﷺ .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٣٠٨٥-٣٠٨٦ .

وبهذه الضمانات الربانية للنبي ﷺ بالغلبة والنصر المبين على الكافرين اندفع النبي ﷺ لقول كلمة الحق متفائلاً مستبشراً بالنصر القادم متيقناً من حتمية بلوغه لتحقيق أهدافه مهما اعترضته من عقبات، أو أصابته من نكبات، أو قل الأنصار، وتأخر الفتح المبين.

وكما أن الله تعالى قد ضمن لرسوله ﷺ النصر على أعدائه، فقد ضمن له ضماناً آخر وهو ضمان المعية الدائمة له، وهذا ما أعرض له في المطلب الثالث .

المطلـــب الثالث

ضمان المعية الخاصة وما في معناها

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ عندما يستشعر معية الله له أثناء دعوته لدين الله وجهاده في سبيله، فإن ذلك سيُثمر فيه قوة العزيمة، ورباطة الجأش، واطمئنان الفؤاد، والشعور التام المطلق بأنه يأوي إلى ركن شديد، وأن الله معه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] (١).

قال قتادة ـ رحمه الله ـ : « والله ما يُضيعُ الله رجلاً قط حَفظَ له دينهُ » (٢) . ومَنْ أعظمُ وأكثرُ من النبي ﷺ نُصرةً لهذا الدين وجهاداً في سبيل الله؟! ، وبالتالي من أَوْلى بمعية الله وحفظه غير رسول الله ﷺ ؟! .

ومعية الله لرسوله ﷺ قد تجلت في عدة صور، كما يتضح من النقاط الأربع التالية :

أولاً: معية الله لرسوله ﷺ بالرؤية، والشهادة، والتيسير لكل عسير:

قال تعالى مخاطباً نبيَّهُ ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[الطور:٤٨] . ذكر الماوردي (٣) في تفسير ما سبق أن معنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

---

(١) وهناك آيات أخرى كما في سورة المائدة ٦٩ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/٢٤٩٥ ، وقول قتادة هذا ورد في تفسير قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج :٣٨] .

(٣) هو أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب الماوردي، البصري، الشافعي، المولود عام ٣٦٤هـ في البصرة ، نسبته: الماوردي إلى بيع ماء الورد الذي كان يعمل به والده، وتلقى علومه الأولى في البصرة.. ثم رحل إلى بغداد.. فأخذ الحديث والفقه.. ولما بلغ أشده تصدّى للتدريس في بغداد والبصرة، وتنقل في بعض المدن الأخرى لنشر علمه، ثم استقر في بغداد.. وحدّث وفسّر القرآن وألف فيها كتبه، وهو من أقضى قضاة عصره، وأعلمهم بالأدب والنحو والفلسفة وعلوم الاجتماع =

« الأول: بعلمنا، الثاني : بمرأى منا.. الثالث: بحفظنا وحراستنا.. » (١) .

« وذكر الثعالبي (٢) في تفسيره أن معنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى ومنظرٍ، نرى ونسمع ما تقول » (٣)

فالله عليم بحاله ﷺ ، سميع لأقواله ﷺ، مُشاهد لأفعاله ﷺ ، مُدبر لشئونه ﷺ قد تجلّت معية ربه له برؤية الله له ذاتاً لحفظه، وتجلّت بسماع الله لدعائه نداءً لإجابته، ومعرفته بحاله حُزناً لتفريج همه، كما قال تعالى مبيناً رؤيته وعلمه بكل حركة وسكنة منه: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) ﴾ [آل عمران :١٢١]. وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ

والأخلاق ، وقد ولي القضاء ببلدان كثيرة، توفي عام ٤٥٠هـ في بغداد، له عدة مؤلفات تربو على التسعة منها: « النكت والعيون » و« الحاوي الكبير » و« أعلام النبوة » و« الاحكام السلطانية » وغيرها من الكتب. انظر: طبقات الفقهاء الشافعيين ١ / ٤١٨-٤١٩ لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل ابن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ) تحقيق وتعليق د. أحمد عمر هاشم ود. محمد زينهم محمد غرب، مكتبة الثقافية الدينية، ط (بدون). والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات المجلد الثالث باسم ذيل طبقات الفقهاء الشافعيين للعبادي. وانظر: النكت والعيون للماوردي١ / ٩-١٤ .

(١) النكت والعيون تفسير الماوردي ٥ / ٣٨٧، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (٣٦٤-٤٥٠هـ) راجعه وعلق عليه السيد: عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ط(بدون) د.ت. بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري الفقيه المالكي، المولود عام ٧٨٦هـ مفسر من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق لطلب العلم، درس التاريخ والتفسير والحديث والأصول والكلام والأدب والنحو والصرف والعروض، توفي عام ٨٧٥هـ، له عدة مصنفات تزيد على العشرة منها: « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » و« روضة الأنوار » و« المختار من الجوامع » و« شرح منظومة ابن برّي في قراءة نافع » و« كتاب في معجزاته ﷺ »، وغير ذلك، وقد أثنى العلماء على مصنفات الثعالبي، فقال السخاوي « كان إماماً علامة مصنفاً... » . انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ٥ / ٥٣٢-٥٣٣ لإسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلدين الأول برقم ٥، والثاني برقم ٦ ضمن سلسلة لدار الكتب العلمية.
وانظر: تفسير الثعالبي بتحقيق: الشيخ على محمد معوّض وعادل احمد ١ / ٩-٣٩ .

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٥ / ٣١٩ لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي المالكي (٧٨٦-٨٧٥هـ) تحقيق: على محمد معوض وعادل أحمد ، دار إحياء التراث العربي، ط١ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس : ٦٥] .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : " فهو ـ أي محمد ﷺ ـ في الحماية الإلهية التي أضفاها على أوليائه، فلا يحزن لما يقولون والله معه، وهو السميع العليم الذي يسمع قولهم ويعلم كيدهم " (١)

وتجلّت أيضاً بإحاطة الله له ورعايته بكل صور الرعاية، ومن ذلك تيسيره لكل ما تعسّر عليه ، وهدايته للشريعة السمحة،وفي هذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الأعلى : ٨] . أي: « نُوفقُك للطريقة اليسرى، أي الشريعة السمحة السهلة التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة البشر» (٢)

وقال تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦] .

قال ابن جرير الطبري : « يقول تعالى ذكْره للنبي ﷺ : فإن مع الشدة التي أنت فيها مِنْ جهاد هؤلاء المشركين .. رجاءً وفرجاً بأن يُظفرك بهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به » (٣)

ثانياً: معية الله لرسوله ﷺ بإبطال كيد الكفار:

وتجلت معيَّة الله لنبيه ﷺ أيضاً بإبطال كيد أعدائه المشركين وغيرهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

قال القشيري (٤) في تفسيره : « ذكّرَهُ ـ أي ربُّه ـ عظيم مِنّته عليه، حيث

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٨٠٤ ، بتصرف يسير .

(٢) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ١٠ / ١٢٩ لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط٢ ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

(٣) جامع البيان ١٢ / ٦٢٧

(٤) هو الإمام أبو القاسم، زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري النيسابوري الشافعي، المولود عام ٣٧٦هـ في بلدة «إستوا» ونسبته القشيري إلى بني قشير بن كعب، توفي أبوه وهو صغير فرُبِّيَ يتيماً، وطلب العلم في نيسابور، الزاهد، الصوفي، شيخ خراسان، قرأ الأدب =

خلّصه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة،وحاولوا أن يمكروا به في السِّرّ ، فأعمله الله ذلك. .والمكر من الله الجزاء على المكر، ويكون المكر بهم أن يُلقِي في قلوبهم أنه مُحسنٌ إليهم ثم ـ في التحقيق ـ يُعذِّبهم، وإذا شغل قوماً بالدنيا صرَفَ همومهم إليها حتى ينسوا أمر الآخرة وذلك مكرٌ بهم. .ومن جملة مكره اغترار قوم بما يرزقهم من الصِّيت الجميل بين الناس. .وهم عن الله غافلون »(١) .

وقال شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري ما نصه: « . . واذكر يا محمد نعمتي عندك بمكري بمن حاول المكر بك من مشركي قومك. . حتى استنقذتُك منهم وأهلكتُهم ، فامضِ لأمري في حرب من حاربك من المشركين. . ولا يُرعبَنَّك كثرة عددهم، فإن ربك خير الماكرين بمن كفر به. . » (٢) .

ثالثاً: معية الله لرسوله ﷺ بتعاهده بالوحي:

وتجلّت معية الله لنبيه ﷺ باستمرارية تنزل الوحي عليه وتعاهده به، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾** ﴾ [الضحى : ١ – ٣] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « وهذا نفيٌ لأن يكون الله قطع عنه الوحي »(٣) .

= والعربية والفقه والكلام، وغير ذلك ، وسمع الحديث ، وبرع في علوم الفروسية واستعمال السلاح، كان إماماً قدوة محدثاً فقيهاً متكلماً نحوياً زاهداً واعظاً. . قال فيه ابن السمعاني: « لم ير أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته »، توفي عام ٤٦٥ هـ بمدينة نيسابور، ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق . له عدة مصنفات تزيد على أربعة عشر مصنفاً منها: « لطائف الإشارات في تفسير القرآن » و« كتاب المعراج » و« الفصول في علم الأصول » و« التحبير في علم التذكير في معاني اسم الله تعالى » وغيرها . انظر: طبقات المفسرين ص١٢٥–١٢٧ لأحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر ، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م، المدينة المنورة، السعودية، وانظر: تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات بتعليق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ١ / ٣–٤ .

(١) تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات ١ / ٣٩١ للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي (٣٧٦–٤٦٥هـ) تعليق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

(٢) جامع البيان٦ / ٢٢٩ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير٣٠ / ٣٩٥ .

فاستمرار تنزل الوحي على النبي ﷺ خلال فترة الرسالة يعتبر دليلاً قاطعاً على معية الله لرسوله ﷺ ، وكأن الله تعالى يخاطب نبيه قائلاً: " إن الله ما تركك مُنذ اعتنى بك، ولا أهملكَ مُنذ ربّاك ورعاك، بل لم يزل يُربِّيك أكمل تربية، ويُعْليك درجة بعد درجة" (١)

قال صاحب أضواء البيان : « هنا ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ بصيغة الماضي، وهو كذلك للمستقبل.. وقد جاء في السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويُثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه، وعنايته به، وحفظه له.. » (٢)

والمتأمل لتنزل الوحي على النبي ﷺ يجد أن الله تعالى تعاهد نبيه بالوحي دون انقطاع إلا ما كان في أوّله فقد: "احتبس جبريل على النبي ﷺ ، فقالت امرأة من قريش (٣) : أبطأ (٤) عليه شيطانه، فنزلت: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[الضحى : ١ ـ ٣] (٥) .

وفي رواية : " اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد ، إني لأرجو أن يكن شيطانُك قد تركك، لم أره قربَكَ منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ (٦) .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥ / ٤٢٩، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ) تقديم محمد زهري النجار، دار المدني، ط بدون، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ، جدة، السعودية، والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٩ / ٢٧٧ .

(٣) في بعض الروايات انها أم جميل بنت حرب زوجة أبي لهب، واخت أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ انظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٨ / ٤٨١، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٣٩٣، وانظر صحيح البخاري بشرح البغا ١ / ٣٧٩ .

(٤) أبطأ عليه: أي تأخر عنه، انظر: صحيح البخاري بشرح د. مصطفى البغا ١ / ٣٧٩ .

(٥) البخاري ١ / ٣٧٨، في أبواب التهجد ،باب: ترك القيام للمريض، برقم ١٠٧٣عن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ، وأخرجه مسلم في ٣ / ١٤٢١ برقم ١٧٩٧ بلفظ (اشتكى رسول الله ﷺ..).

(٦) البخاري ٤ / ١٨٩٢ في تفسير القرآن ، باب: تفسير سورة " والضحى " ، " الضحى " برقم ٤٦٦٧، عن جندب بن سفيان، ومسلم في ٣ / ١٤٢١ برقم ١٧٩٧ بلفظ (أبطأ جبريل..).

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين في حياته ﷺ :

أولاهما : قبل نزول سورة المدثر أو المزمل ، أي بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث .. وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله ﷺ أن يكون قد انقطع عنه الوحي، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض [(١)] ... وقد قيل إن مدة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يوماً، ولم يشعر بها المشركون ؛ لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه وقبل أن يقوم النبي ﷺ بالقرآن ليلاً .

وثانيتهما : فترةُ بعد نزول نحو من ثمان سور، أي السور التي نزلت بعد الفترة الأولى ، فتكون بعد تجمُّع عشر سور وبذلك تكون هذه السورة ـ أي سورة الضحى ـ حادية عشرة، فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور .. فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يوماً" [(٢)]

ولعلّ هذا الاحتباس للوحي عن النبي ﷺ كان لحكمة يعلمها الله ، كما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ " ما كان إلا للرفق بالنبي ﷺ كي تستجمَّ نفسه، وتعتاد قُوته تحمل أعباء الوحي ؛ إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوماً، ثم كانت الثانية اثني عشر يوماً أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وفي هذه المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة .. " [(٣)] .

وقد صحّ أن جبريل عليه السلام تاخر عن وعدٍ كان بينه وبين النبي ﷺ ، فعن عائشة

---

(١) يُشيرابن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى حديث جابر بن عبد الله في صحيح البخاري ١ / ٥ برقم ٤ عن النبي ـ ﷺ ـ وفيه : « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبتُ منه فرجعت فقلتُ : زملوني زملوني» ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ فحمى الوحى وتتابع.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٩٦ .

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

ـ رضي الله عنها ـ قالت: "واعد رسولَ الله ﷺ جبريلُ ـ عليه السلام ـ في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصاً، فألقاها من يده، وقال: (**ما يُخلف الله وعده ولا رُسُله**)، ثم التفت فإذا جرو كلب[1] تحت سريره، فقال: (**يا عائشة متى دخل هذا الكلب هاهنا؟**)، فقالت: والله ما دريْتُ، فأمر به فأُخرج، فجاء جبريل، فقال رسول الله ﷺ: (**واعدتني فجلستُ لك فلم تأت**) **فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة** [2] " [3].

رابعاً: معية الله لرسوله ﷺ بتحقيق الولاية والكفاية والهداية:

وتجلّت معية الله لنبيه محمد ﷺ بتحقيق الولاية والكفاية والهداية له، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ**﴾[الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ [النساء: ٦] . وقوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③**﴾ [الفتح : ١-٣] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي : " يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه " [4]

(١) جرو كلب: بكسر الجيم وضمها وفتحها، وهو الصغير من أولاد الكلب وسائر السباع، انظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٦٦٤ .

(٢) مسلم ٣ / ١٦٦٤ في كتاب اللباس والزينة ، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان، برقم ٢١٠٤، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار في١ / ٣٧٧ ، والزيلعي في نصيب الراية في٢ / ٩٨ .

(٣) وفي رواية أخرى لمسلم ٣ / ١٦٦٤ برقم ٢١٠٥ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أخبرتني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً واجماً ـ أي ساكتاً يظهر عليه الهم والكآبة والحزن ـ فقالت ميمونة: يا رسول الله لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم ، قال رسول الله ﷺ: (**إن جبريل كان وعدني أن يلقاني الليلة، فلم يلقني، أم والله ما أخلفني**) قال: فظل رسول الله ﷺ يومه ذلك على ذلك ، ثم وقع في نفسه جروكلب تحت فسطاط لنا، فأمر به فاخرج ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل، فقال له: (**قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة**) قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ، فأمر بقتل الكلاب ، حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير، ويترك كلب الحائط الكبير».

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٦٣، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

وبهذا كله تحققت معية الله لنبيه ﷺ، حتى حقَّقت له الكفاية التامة بالله، وأغنته عمَّن سواه، ويسَّرت له كلّ عسير، وهدته إلى أحسن الأخلاق والأعمال، وأرشدته إلى أقوم طريق في البلاغ المبين والجهاد في سبيل رب العالمين، وحفظته من كل شر وخطأ قد يقع فيه من تلقاء نفسه، وعصمته من كل كيد يُراد له أو به من أعدائه ، ودفعته لاستحضار دوام رعاية الله له، في حال حياته حتى عبّر عنها في يوم هجرته قائلاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وفعلاً فقد كان الله معه من خلال: " إجابته لدعائه كلما دعاه، وتنزيل الملائكة عليه عند الشدائد لتثبيته، ووقوع المعجزات على يديه عند الحاجة إليها لتأييده ، وتولّي الرد على استفسارات المؤمنين وشبهات الكافرين، والدفاع عنه وعن رسالته ، وعن القرآن الذي أُنزل عليه، وإبطال كيد الكافرين به، وتسليته بسرد قصص من سبقه من الأنبياء مع أقوامهم" (١) ، وغير ذلك.

ومعية الله لرسوله ﷺ قد أثمرت فيه التوكل على الله حق توكله، امتثالاً لأمر الله له القائل: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ③ ﴾ [الأحزاب : ٣] .

قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ : أي « وتوكل أنت يا محمد على الله، وفوِّض أنت أمرك إليه، وثق به في أمورك.. وولِّها إياه، وحسبك الله وكيلاً فيما يأمرك ، ووليّاً لها، ودافعاً عنك وناصراً» (٢) . وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد : ٣٠] ، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

وباستشعار النبي ﷺ لمعية الله له وتوكله عليه ، أورثه ذلك: راحة البال، واستقرار الحال، وشجاعة نادرة في قول الحق والدعوة إليه، وتحقّقَ له عون الله

---

(١) سنفصل ذلك كله في الفقرات القادمة.
(٢) جامع البيان ٤ / ١٨٢ .

وتأييده ونصره ، وكمال محبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وكما أن الله تعالى قد ضمن لنبيه المعية الخاصة وما في معناها فقد ضمن له أيضاً المغفرة وعظيم المثوبة، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المطلب الرابع.

المطلـــب الرابـــع

ضمان المغفرة وعظيم المثوبـــة

مع أن النبي ﷺ قد جاهد في سبيل الله حق جهاده ابتغاءَ وجه الله،وطاعةً له ، وتحقيقاً لكمال العبودية ، إلا أن الله تعالى وعَدَه بأمرين اثنين، وضمن له تحقيقهما ، وأكّد له بلوغه إيَّاهما ؛ لقد ضمن له المغفرة التامة لجميع ذنوبه، وضمن له عظيم الأجر عند ربه.

ولا شك أن لهذا الوعد الحق أثراً بارزاً على نفسية النبي ﷺوهو يعمل لهذا الدين، من حيث :تفاؤله واستبشاره بما تفضَّل الله عليه به من غفران الذنوب، وأكرمه به من وافر الأجر،ومن حيث التهوين عليه مما يلقاه من أذى في سبيل التمكين لهذا الدين وما يبذله من مال ووقت وجهد وتضحيات في سبيل الله رب العالمين.

ولا شك أيضاً أن لضمان الأجر العظيم للنبي ﷺ أثراً عظيماً في زيادة زهده بالحياة الدنيا وزينتها، وشدة تعلقه بالدار الآخرة، وما أعدَّ الله له فيها من نعيم عظيم مقيم في الفردوس الأعلى .

وحتى يتضح هذا الأمر رأيتُ أن أقسم هذا المطلب إلى النقطتين التاليتين:

أولاً: ضمان المغفرة لجميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر :

لقد ضمن الله لرسوله ﷺ مغفرة ذنوبه كلها صغيرها وكبيرها، سرها وعلانيتها، وأخبره بذلك وهو حي صحيح يمشي على الأرض.

قال العز بن عبدالسلام (١): "من خصائصه - أي من خصائص رسول الله ﷺ -

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء لمواقفه الجريئة مع الحكام، ولد ونشأ في دمشق سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية، تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الاموي، سمع من عدد من المشايخ ، تفقه وقرأ الاصول والعربية ودرّس وافتى وصنّف، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وكان ناسكاً ورعاً ، توفي سنة ٦٦٠هـ في =

أن الله أخبره بالمغفرة، ولم يُنقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، بل الظاهر أنه لم يُخبرهم بدليل قولهم في الموقف (**نفسي نفسي**) (١)، ويتضح ضمان الله لنبيه ﷺ بمغفرة جميع ذنوبه من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح : ١- ٢] .

قال ابن كثير حول ما سبق: " هذا من خصائصه ﷺ التي لا يُشاركه فيها غيره، .. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ " (٢)

وقد وردت بعض آيات وأحاديث حول هذا المعنى ؛ فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝** ﴾ [الشرح : ١-٣] .

قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل في تفسيرها: « ..وفيه ثلاثة أقوال: الأول قول الجمهور أن الوزر الذنوب ، ووضعها هو غفرانها ..وهذا على قول من جوَّز صغائر الذنوب على الأنبياء أو على أن ذنوبه كانت قبل النبوة، ..(٣). (٤) » .

القاهرة، له مصنفات كثيرة منها: «قواعد الشريعة» ، و«قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» وغير ذلك.

انظر: غربال الزمان في وفيات الأعيان ص٥٣٨ ليحيى بن حسين العامري الحرضي اليماني (٨١٦-٨٩٣هـ) صححه وعلّق عليه محمد ناجي زعبى العمر، الإشراف القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، مطبعة زيد بن ثابت، ط (بدون) ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥، دمشق ، سوريا.

وانظر: فوات الوفيات والذيل عليها ٢ / ٣٥٠ لمحمد بن شاكر الكبتي (٦٨٦-٧٦٤هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، ط (بدون) د.ت، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(١) انظر بداية السُّول في تفضيل الرسول ص٣٥، العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) تحقيق: عبد الله الغماري د.ت، بيروت، لبنان.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٩٨ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ٥٨٥ للشيخ أبي القاسم محمد بن أحمد جُزى الكلبي (ت:٧٤١)هـ ضبط وتصحيح وتخريج : محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، بيروت-لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

(٤) ذكر المؤلف ان القول الثاني هو" ان الوزر هو اثقال النبوة وتكاليفها، ووضعها -على هذا- هو إعانته على تكاليفها.. والقول الثالث هو: ان الوزر هو تحيره قبل النبوة ، إذ كان يرى أن قومه على ضلال ولم ياته من الله أمر واضح ، فَوَضَعَهُ على هذا هو بالنبوة والهدى والشريعة. انظر التسهيل٢ / ٥٨٥ .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "هي بمعنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" (١) . فإذا حملنا معنى الآية على قول ابن كثير ، فإنها تعني أن الله تعالى قد غفر ذنوب النبي ﷺ كلها الماضية والآتية.

ومن الأحاديث الدالة على مغفرة الله لذنوب نبيه ﷺ ،ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في حديث الشفاعة، وفيه: (... **فيأتون عيسى فيقول ..اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ ،فيأتون محمداً ،فيقولون :يا محمد ،أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**)(٢) .بل إن عيسى ـ عليه السلام ـ يشهد يوم القيامة للنبي محمد ﷺ بغفران ذنوبه كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ في حديث الشفاعة وفيه: (.. **فيأتون عيسى، فيقول: لستُ هناكم**(٣) **ولكن ائتو محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر** ..) (٤).

وقد شهد النبي ﷺ على مغفرة ربه لذنوبه، واستشعر فضل الله عليه بذلك، فقد روى حذيفة (٥)ـ رضي الله عنه ـ ما نصُّه: « غاب عنا رسولُ الله ﷺ فلم يخرج،

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٦٠ .

(٢) مسلم ١ / ١٨٤ في كتاب الإيمان ، باب: أدنى أهل الجنة منزلة، برقم ٣٢٧ / ١٩٤، وأخرجه البخاري في ٣ / ١٢١٥ في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح :١] ، برقم ٣١٦٢ .

(٣) أي لست أهلاً لذلك، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي١ / ١٨٠ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) مسلم ١ / ١٨١، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، برقم ٣٢٢ / ١٩٣، والبخاري في ٣ / ١٢١٥ برقم ٣١٦٢ .

(٥) هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وهو حذيفة بن حسل، ويقال حسيل بن جابر بن عمرو بن ربيعة، أبو عبد الله العبسي، واليمان ، لقب حسل بن جابر–وقيل غير ذلك– وإنما قيل له اليمان لأنه أصاب دماً في قومه، فهرب إلى المدينة، فسماه قومه اليمان لأنه خالف الأنصار وهم من اليمن.
هاجر إلى النبي ﷺ فخيّره بين الهجرة والنصرة، فاختاره النصرة، وشهد مع النبي ﷺ أحداً، وهو صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحداً غيره ، وقد شهد الحرب بنهاوند، وأخذ الراية، وكان فتح همَزَان والرّي والدّينور على يديه.. وكان يسأل النبي ﷺ عن الشر ليجتنبه.
وأرسله النبي ﷺ ليأتيه بخبر الكفار، ولم يشهد بدراً ؛لأن المشركين أخذوا عليه العهد ألا يقاتلهم... وأجازه رسول الله ﷺ على ذلك، وكان موته بعد قتل عثمان بأربعين ليلة سنة ست وثلاثين هجرية بالمدائن . انظر: أسد الغابة١ / ٥٧٢–٥٧٥ ، ترجمة رقم١١١٣، و:سير أعلام النبلاء٢ / ٣٦١، و:تقريب التهذيب١ / ١٩٢ .

حتى ظننا أنه لن يخرج، فلما خرج، سجد سجدةً، حتى ظننا أن نفسه قد قُبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: " **إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أُمتي ماذا أفعلُ بهم؟، فقلتُ ما شئت أي ربٍّ، هم خلقُك وعبادُك، فاستشارني الثانية؟، فقلتُ له كذلك، فقال: لا نُخزيك في أمتك يا محمد، وبشّرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب، ثم أرسل إليَّ فقال: ادعُ تُجب، وسل تُعطه، فقلتُ لرسوله (١) أو مُعطِيَّ ربي سُؤلي؟. فقال: ما أرسلني إلا ليعطك، ولقد أعطاني ربي عز وجل ولا فخر، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأنا أمشي حياً صحيحاً..**" »(٢).

ثانياً: ضمان الأجر العظيم له ﷺ في الدار الآخرة:

ضمن الله لنبيه ﷺ الأجر العظيم في حياته الأخرى، وأعدَّ له من الكرامة والدرجات العليا وعظيم المثوبة يوم القيامة ما تقر به عينه، وتفرح به نفسه ﷺ، ويتضح هذا من تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ [الضحى: ٥].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: " أي في الدار الآخرة يُعطيه حتى يُرضيه في أُمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، وطينه مسكٌ أذفر.. " (٣).

وقال ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: « ثم وعده بما تقرُّ به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يُعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يُعطيه من القرآن،

---

(١) أي جبريل عليه السلام.

(٢) أخرجه ابن حنبل ٥ / ٤٨٧ برقم ٢٣٣٢٨، وأخرجه الحافظ الهيثمي في ١٠ / ٦٨-٦٩، وقال: وإسناده حسن، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ)، بتحرير العراقي وابن حجر - رحم الله الجميع - دار الريان للتراث، ط (بدون) ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في عشرة مجلدات، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢ / ١٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٥٨.

وما يعطيه بعد مماته، وما يُعطيه في موقف القيامة، وما يُعطيه في الجنة» [١] .

ومن الآيات التي تؤكد عظيم الأجر والمثوبة لمحمد ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾ [القلم : ٣] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «وإن لك يا محمد لثواباً من الله عظيماً على صبرك على أذى المشركين إيَّاك غير منقوص ولا مقطوع..» [٢] .

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : «غير محسوب..» [٣]

ومما يدل على إكرام الله لنبيه ﷺ يوم القيامة أن جعَله سيد الناس في ذلك اليوم ـ كما هو كذلك في الدنيا ـ واختصّه بالشفاعة العظمى في المقام المحمود[٤] يوم القيامة ، ولم يجعل هذا لأحد غيره من الأنبياء والرسل.

وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: **«أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد [٥]، فيُسمعُهم الداعي، وينفذهم البصر ،وتدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكرب ما لا يُطيقون ، ومالا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض :ائتوا آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم ، أنت أبو البشر... ـ حتى قال ﷺ ـ فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسولُ الله وخاتم [٦] الأنبياء،**

---

(١) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية ٥ / ٢٥٦، جمع وتوثيق وتخريج: يُسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي ، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، الدمّام، السعودية ، والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(٢) جامع البيان ١٢ / ١٧٩ .

(٣) فتح القدير ٥ / ٣٧٤ .

(٤) المقام المحمود: قال ابن حجر في فتح الباري ٢ / ٩٥ أي: الذي يُحمد القائم فيه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، وهو هنا خاص بموقف النبي ـ ﷺ ـ يوم القيامة.

(٥) في صعيد واحد: أي أرض واسعة مستوية، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ١٨٤، لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٦) خاتم: بالفتح والكسر، كلاهما صحيح.

وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا، فأنطلق، فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده، وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطه، اشفع تُشفع) (١)

هذه هي الشفاعة العظمى الكبرى في هذا المقام المحمود الذي اختص الله به نبيه محمداً ﷺ إكراماً له، ومن عظيم الأجر الذي ضمنه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة وأكرمه به اختصاصه بالوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا عبدٌ واحدٌ من عباد الله، هو رسولنا محمد ﷺ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «الوسيلة عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ ، وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش» (٢)

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: **(من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة** (٣) ، **وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة)** (٤)

وفي حديث آخر قال ﷺ : **(الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة)** (٥) .

---

(١) مسلم ١ / ١٨٤-١٨٥، في كتاب الإيمان، باب: ادنى أهل الجنة منزلة، برقم ٣٢٧-١٩٤، عن ابي هريرة - رضي الله عنه - باختصار، واول الحديث " أتي رسول الله - ﷺ - يوماً بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجبه، فنهس منها نهسة -اي أخذ بأطراف أسنانه، فقال: (أنا سيد الناس، .. الحديث) والحديث طويل، واخرجه البخاري في ٣ / ١٢١٥ برقم ٣١٦٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٥

(٣) الفضيلة: هي المرتبة الزائدة على سائر الخلق، ويُحتمل أن تكون منزلة اخرى، أو تفسيراً للوسيلة، انظر فتح الباري لابن حجر ٢ / ٩٥ .

(٤) البخاري في ١/ ٢٢٢في كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء،برقم ٥٨٩، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه،واخرجه ابن حنبل في مسنده ٣ / ٤٥١ برقم ١٤٨٠١،والبيهقي في السنن الكبرى١ / ٤١٠ .

(٥) اخرجه الإمام احمد في مسنده ٣ / ١٠٤، برقم ١١٧٦٨ / ٨٠١ عن ابي سعيد الخدري - رضي الله عنه - . وقال الالباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢ / ١٢٠١ برقم ٧١٥١ صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير" للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢١هـ) إشراف زهير الشاويش، المكتب الاسلامي،ط٣،١٤٠٨هـ-١٩٨٨م،بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

وهكذا نجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ضمن لنبيه ﷺ الأجر العظيم، والرِّفعة والكرامة يوم القيامة إلى جوار ضمانته بالحفظ والعصمة له ولدعوته، والنصر والغلبة على من خالفه من الكفار والمشركين، والمعية والرعاية والهداية له، ولاشك أن لكل هذه الضمانات الإلهية أثراً عظيماً في انشراح صدر النبي ﷺ، وعلو همته، وقوة عزيمته، وثقته بتحقق وعد الله له بالتمكين لدين رب العالمين.

وكما أن القرآن قد اشتمل على ضمانات مستقبلية للنبي ﷺ، فقد اشتمل ـ أيضاً ـ على مؤيدات ومعززات ربانية، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المبحث الثاني كما يلي.

المبحث الثاني
المؤيدات والمعززات الربّانية

ليزداد النبي ﷺ يقيناً وثباتاً في طريق الدعوة والبناء، ويقوى ساعده، ويشتد أزره، وتعلو حجته على شُبهة كل مبطل وجاحد وفوق كل أباطيل الكفار والمشركين، فإن الله ــ تعالى ــ بعد أن أنزل عليه القرآن الكريم كلام الله المعجز وحجة الله البالغة ــ أيدّه وعزّزه بصورٍ من المؤيدات ،المعززات الربانية التي تعددت وتنوّعت ، ويتضح هذا من خلال المطالب الخمسة التالية .

المطلـــب الأول

إجـــابة دعـــائه ﷺ

وقد تجلى هذا الأمر للنبي ﷺ في أكثر من موقف في حال العُسر واليسر، والسِّلم والحرب، والسفر والحضر، وبين صفوف المؤمنين ، وفي مواجهة الكافرين، حتى بلغ النبي ﷺ مبلغاً عظيماً في استشعار واستحضار معية الله له [١] وإجابته لدعوته كلما دعا ربَّه أن يُفرِّج عنه كُرْبَةً أو يقضي له حاجةً، أو يحقق له أُمنية، أو يهدي له فلاناً من الناس، أو يهلك عدواً، أو ينصر له جنداً.

وهذا واضح في كثير من أحداث السيرة النبوية ، كما قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : « وكثرة الحوادث في هذا الباب تجعل الإنسان على يقين كامل أن محمداً رسول الله ﷺ ، وأن الله تعالى يؤيده ويسدده، ويستجيب دعاءه، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم أو عليهم متواتر على الجملة معلوم بالضرورة » [٢] . ومن ذلك ما يلي:

أولاً: إجابة دعائه ﷺ على الكفار حال استضعافهم له:

عن عبد الله بن مسعود [٣] ـ رضي الله عنه ـ قال: « بينما رسول الله ﷺ يُصلي عند البيت، وأبو جهل [٤] وأصحاب له جلوس، وقد نُحرت جزُور [٥] بالأمس، فقال

(١) انظر ما سبق، فقرة (ضمان المعية الخاصة وما في معناها) ص ١٤٦ .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ١ / ٤٥٥ .

(٣) هو أبو عبدالرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، حليف بني زهرة، أسلم قديماً، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، .. وهو الإمام الحبر، فقيه الأمة، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها.. روى علماً كثيراً، حدّث عنه كثير من الصحابة، قال الذهبي عنه : « كان معدوداً في أذكياء العلماء ». انظر: الإصابة ٤ / ١٢٩، و: سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦١ وما بعدها، و: تقريب التهذيب ١ / ٥٣٣ .

(٤) هو عمرو بن هشام، ويُكنى بأبي الحكم.

(٥) أي : ناقة ، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤١٨ .

أبو جهل: أيُّكم يقوم إلى سلا (١) جزور بني فلان فيأخُذه، فيضَعه في كتفي محمَّدٍ إذا سجد؟، فانبعث أشقى القوم (٢) فأخذَهُ، فلما سجد النبي ﷺ وضَعَهُ بين كتفيه. قال: فاستضحكوا (٣)، وجعل بعضُهم يميل على بعض، وأنا قائمٌ انظر، لو كانت لي مَنَعة (٤) طرحتُهُ عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ساجد، ما يرفع رأسهُ حتى انطلق إنسانٌ، فأخبر فاطمة فجاءت وهي جُويرية (٥) فطرحْتهُ عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمُهم (٦)، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سال سال (٧) ثلاثاً، ثم قال: (**اللهم عليك بقريش**) ثلاث مرات، فلما سمعوا صوتهُ ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: (**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة (٨)، وأُمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعيط**) وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمَّداً ﷺ بالحق، لقد رأيت الذي سمَّىٰ

---

(١) سلاجزور: هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية المشيمة، انظر المرجع السابق ٣ / ١٤١٨.

(٢) أي بعثته نفسه الخبيثة من دونهم فاسرع السير، وهو عقبة بن أبي معيط، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) أي حملوا أنفسهم على الضحك والسخرية، ثم أخذهم الضحك جداً، انظر: نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) مَنَعَة: بفتح النون وحُكي إسكانُها، وهو شاذ ضعيف، ومعناه لو كان لي قوة تمنع اذاهم او كان لي عشيرة بمكة تمنعني. انظر نفسُ المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٥) جُويرية: تصغير جارية بمعنى أنها شابة يعني أنها إذ ذاك ليست بكبيرة، انظر: نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) تشتمهم: الشتم هو وصف الرجل بما فيه إزراء ونقص، ويكون من قبيح الكلام وليس فيه قذف، انظر لسان العرب١٢ / ٣١٨مادة شتم.، وانظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤١٨.

(٧) وإذا سال: لعل المقصود به قضاء الحوائج، والدعاء ينقسم إلى: دعاء طلب، ودعاء عبادة.

(٨) الوليد بن عقبة: هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم، الوليد بن عقبة، واتفق العلماء على انه غلط، وصوابه: الوليد بن عتبة، كما ذكره مسلم في رواية أبي بكر بن أبي شيبة-بعد هذا-. انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي لمحمد فؤاد عبد الباقي ٣ / ١٤١٨.

صرعى يوم بدر ، ثم سُحبوا إلى القليب ، قَليب بدر) (١) . (٢)

ثانياً: إجابة دعائه ﷺ للمسلمين بالنصر يوم بدر:

صحَّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: « لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ،وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً. فاستقبل نبيُّ الله القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه :(**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تُهلكْ** (٣) **هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**)، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه،مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال:يا نبي الله! كذاك مناشدتك ربك (٤) ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال : ٩]، فأمده الله بالملائكة » (٥)

من خلال استقراء ألفاظ الحديث السابق ، نفهم أن الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر على أعدائه، كما سبق ذكره (٦) . ثم حقق له ذلك في هذه المعركة استجابةً لدعائه ﷺ .

---

(١) قَليب بدر: القليب هي البئر التي لم تُطو، وإنما وُضعوا في قليب بدر تحقيراً لهم، ولئلا يتأذى الناس برائحتهم. انظر: نفس المرجع السابق٣ / ١٤١٩ .

(٢) مسلم في ٣ / ١٤١٨ في كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي من أذى المشركين، برقم ١٧٩٤ . والبيهقي في السنن الكبرى٩ / ٨، والخطيب في المشكاة ٣ / ١٦٢٦ برقم ٥٨٤٧ .

(٣) تُهلك: بالفتح والضم للتاء، فعلى الفتح تُرفع العصابةُ لأنها فاعل وعلى الضم تُنصب العصابة لأنها مفعول. والعصابة هي الجماعة ، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٣٨٤ .

(٤) في بعض الروايات كفاك، والمناشدة السؤال، مأخوذ من النشيد وهو رفع الصوت.
مناشدتك: بالرفع والنصب وهو الأشهر، قال القاضي: مَنْ رَفَعَهُ جعله فاعلاً بكفاك، ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك ، انظر نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٥) مسلم ٣ / ١٣٨٣، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر رقم ١٧٦٣، وذكره ابن حجر في الفتح ٨ / ٣٦٨، والقرطبي في الجامع ٤ / ١٩٣ .

(٦) راجع فقرة ضمان النصر والغلبة "في المرحلة المكية" ص ١٣٦ .

ثالثاً: إجابة دعائه ﷺ بهداية بعض الناس:

اتضح لنا مما سبق أن الله تعالى استجاب لنبيه ﷺ في دعائه بالنصر للمسلمين، وفي الرواية التالية يتضح لنا استجابة الله ـ عز وجل ـ لدعاء نبيه ﷺ بهداية بعض الناس، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: « كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مُشركة، فدعوْتُها يوماً، فأسْمَعَتْني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيتُ رسول الله وأنا أبكي، قلتُ يا رسول الله إني كنتُ أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتُها اليوم فأسْمَعَتْني فيك ما أكره، فادعُ الله أن يهدي أُم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: (**اللهم أهد أمَّ أبي هريرة**) قال: فخرجْتُ مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئتُ فصرتُ إلى الباب، فإذا هو مُجافٌ [١]، فسَمعتْ أمِّي خشف [٢] قدميَّ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعْتُ خضخضة [٣] الماء، قال: فاغتسلَتْ ولبستْ درعها، وعَجلَت عن خمارها، فَفَتَحَتْ الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح، قال: قلتُ يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً، قال قلت: يا رسول الله أدعُ الله أن يُحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويُحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: (**اللهم حبِّب عُبيدك هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأُمَّهُ إلى عبادة المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**) فما خلقٌ مؤمنٌ يسمع بي، ولا يراني إلا أحبَّني » [٤].

---

(١) مجاف: من جفا الشيء يجفو جفاء وتجافى، وهو بمعنى لم يلزم مكانه، والجفاء هو البعد عن الشيء، والمقصود أن الباب مغلق فلم يلزم مكانه من حيث الفتح، انظر لسان العرب ١٤ / ١٤٨٠ مادة جفا.

(٢) خشف قدمي: من الخشف وهو المرُّ السريع، والمقصود صوتهما في الأرض، لسان العرب ٩ / ٦٩

(٣) خضخضة الماء: هو صوت تحريك الماء. لسان العرب ٧ / ١٤٤.

(٤) مسلم في ٤ / ١٩٣٨ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٢٤٩١ عن أبي كثير يزيد بن عبد الرحمن، وأخرجه ابن حنبل في مسنده ٢ / ٤٢٢ برقم ٨٢٣٥، والخطيب التبريزي في المشكاة ٣ / ١٦٥٣ برقم ٥٨٩٥.

وهكذا استجاب الله لنبيه ﷺ كلما دعاه، فتارةً باستسقائه واستنزاله المطر من الله (١) ، وتارةً بطلبه الهداية لدوس (٢)، وتارة بدعائه على كسرى فارس بتمزيق مُلكه (٣) ، وتاره بدعائه أن يبارك الله له وللمسلمين في طعامهم (٤) ، وتارة بدعائه أن يُكثر ماءهم كما في يوم الحديبية (٥) ، وتارة بدعائه لأنس بن مالك بالبركة في ماله وولده (٦) ، وغير ذلك كثيراً (٧) ، كلّه يُستجاب للنبي ﷺ تأييداً له وتأكيداً بأن الله معه.

كما أيّده الله ـ عز وجل ـ بمظهر آخر من مظاهر التأييد، وهو ما يتم شرحه في المطلب الثاني .

---

(١) انظر صحيح مسلم٢ / ٦١٢، في كتاب: صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء في الاستسقاء، برقم ٨٩٧، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –

(٢) انظر صحيح البخاري ٥ / ٢٣٤٩، في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء للمشركين ، برقم ٦٠٣٤، عن أبي هريرة – رضي الله عنه –

(٣) انظر صحيح البخاري ٤ / ١٦١٠، في كتاب: المغازي، باب: كتاب النبي إلى كسرى وقيصر، برقم ٤١٦٢، عن ابن عباس – رضي الله عنهما –

(٤) انظر صحيح مسلم١ / ٥٤، في كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، برقم ٢٧، عن أبي هريرة – رضي الله عنه –

(٥) انظر صحيح البخاري ٤ / ١٥٢٥، في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، برقم ٣٩١٩، عن البراء – رضي الله عنه –.

(٦) انظر صحيح مسلم٤ / ١٩٢٨، في كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل أنس ، برقم ٢٤٨٠، عن أم سليم – رضي الله عنها –

(٧) انظر الشفاء للقاضي عياض ١ / ٤٥٥، فقرة إجابة دعائه ـ ﷺ ـ .

المطلب الثاني

تنزيل الملائكة عليه

مع أن كثرة عبادة النبي ﷺ لربه، وقوة يقينه بالله لها أثر عظيم في زيادة أُنسه وطمأنينته، ومع أن تنزُّل جبريل ـ عليه السلام ـ على النبي ﷺ طوال فترة الوحي له أثر بارز في تأييده والشد من أزره في طريق الدعوة إلى الله، إلا أن الله ـ تعالى ـ أيده بأمرٍ آخر، وهو: تنزيل الملائكة عليه لتثبيته وتثبيت المؤمنين، وخاصة عند الشدائد، كما في حادثة الهجرة، حيث قال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)** ﴾ [التوبة : ٤٠].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في معنى ﴿ **وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ : « أي وقوَّاه بجنود من الملائكة لم تروها أنتم » (١)

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : " .. القوة المادية كلها في جانب، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجردٌ، كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس.. " (٢) . وهكذا أيّد الله رسوله ﷺ بجندٍ من عنده أثناء الهجرة.

وأيّده كذلك بالملائكة في مواطن أخرى كما في غزوة بدر، حيث قال تعالى مخاطباً المؤمنين ومُذكّراً إيّاهم بفضله عليهم : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)** ﴾ [الأنفال : ٩] . وقال تعالى مخاطباً

---

(١) جامع البيان ٦ / ٣٧٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣ / ١٦٥٦ .

نبيه ﷺ ومذكِّراً له بفضله عليه في إنزال الملائكة - تأييداً وتثبيتاً له وللمؤمنين -: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾[الأنفال: ١٢] .

وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٢٣-١٢٥] .

يتضح من خلال الآيات السابقة أن الله تعالى قد استجاب لنبيه ﷺ عندما استغاث بربه وسأله النصر المبين في غزوة بدر، فأمدَّه بالملائكة لتحقيق سكينته وتثبيته ومن معه من المؤمنين تأييداً وتعزيزاً ونصراً له ﷺ (١)

وهكذا أيَّد الله نبيه ﷺ بتنزيل الملائكة لتثبيته، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط، بل لقد أيده الله وعزّزه بوقوع بعض المعجزات على يديه وهذا ما يتم شرحه في المطلب الثالث .

---

(١) وردت روايات صحيحة تفيد أن الملائكة شاركت في القتال في غزوة بدر .
انظر صحيح البخاري٤ / ١٤٦٧، في كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً، حديث رقم ٣٧٧٣ عن ابن عباس، وانظر صحيح مسلم ٣ / ١٣٨٣، في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، حديث رقم ١٧٦٣ عن ابن عباس- ﷺ - .

المطلـــب الثالث

وقـــوع المعجزات على يديـــه

من المعلوم أن المعجـزة على ضربين: ضربٌ من جنس ما يقدر عليه البشر، وضربٌ خارج عن قدراتهم ، فمن النوع الأول أيَّد الله نبيه ﷺ بالمعجزة الكبرى ـ القرآن الكريم ـ ، فتحدَّى رسول الله ﷺ الكفار بالمجيء بمثله كله، أو بعض سُوَرِه، أو سُورَةٍ واحدة منه، أو آية واحدة فعجزوا عن كل ذلك ، رغم توفر عوامل التحدي من: تمكنهم في اللغة العربية ـ لكونهم أرباب الفصاحة والبلاغة ـ ، ورغبتهم في معارضة القرآن الكريم، وعدم وجود المانع من ذلك.

ومن النوع الثاني ـ الخارج عن قدرة البشر ـ أيد الله نبيه محمداً ﷺ بعدة معجزات ؛ « فهو أكثر الرسل معجزات، وأبهرهم آيات، وأظهرهم برهاناً، فله من المعجزات مالا يحد ولا يعد [١] » [٢] .

ومن هذه المعجزات ما هو سماوي، ومنها ما هو أرضي، وتفصيل ذلك فيما يلي:

أولاً: المعجزات السماوية:

من معجزات النبي ﷺ الدالة على نبوته ما رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في حادثة انشقاق القمر ـ قال: « إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية،

---

(١) قد اعتنى بجمعها أبو نعيم الأصبهاني والبيهقي في" دلائل النبوة" ، وابن سعد في الطبقات، وغيرهم.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١ / ٥٢٠، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد ، وعبد الرحمن بن محمد ملّوح ، دار الوسيلة ، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، جدة، السعودية، والكتاب يقع في اثني عشر مجلداً. المجلد الأخير خاص بالفهارس.

فأراهم انشقاق القمر مرتين - وفي رواية - فرقتين» (١).

ولأن هذا الانشقاق خارج عن قدرة النبي ﷺ وظاهر في ملكوت السموات فصار معجزة عظيمة للنبي ﷺ، خاصة بعد أن جاءت استجابة لطلب أهل مكة، وقد خلّد الله ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤﴾.

[القمر : ١-٥] .

فصارت هذه المعجزة الباهرة تأييداً وتعزيزاً للنبي ﷺ ؛ لأن الكفار طلبوا ذلك منه لإثبات صدق نبوته، ومع هذا كفروا وكذبوا بالحق لما جاءهم.

وقد أيد الله - عز وجل - نبيه ﷺ بمعجز سماوية أخرى (٢) هي حادثة الإسراء والمعراج التي أنزل الله فيها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾(٣).

[الإسراء : ١] .

ثانياً: بعض المعجزات الأرضية:

تعدّدت المعجزات التي وقعت في الأرض لرسول الله ﷺ ، وعزّزت موقفه

---

(١) رواه مسلم في٤ / ٢١٥٩ في كتاب «صفات المنافقين» ، باب انشقاق القمر ،برقم ٢٨٠٢ ، واخرجه ابن حنبل في مسنده٣ / ٢٧٨ برقم١٣٢٨٨ .

(٢) من هذه المعجزات:
[١] تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه .
[٢] تكثير وبركة الطعام والشراب بين يديه.
[٣] شكوى البعير له ما يلقاه من جوع وجهد من راعيه.
[٤] إخبار الذئب بنبوته ﷺ .
[٥] حنين جذع النخل شوقا إليه وشفقاً من فراقه.
[٦] تسليم الحجر عليه.
[٧] تسبيح الطعام بين يديه، وغير ذلك كثير. راجع: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم١ / ٥٢٦-٥٣٧ .

(٣) وسيتم تفصيل حادثة الإسراء والمعراج فيما يلي من فقرات قادمة.

كرسول للناس من رب العالمين ؛ فمن ذلك انقياد الشجر لرسول الله ﷺ في أكثر من حادثة، منها ما صحَّ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: « "سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيحَ (١) ، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته ، فاتَّبعْتُهُ بإدواة (٢) من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: (انقادي عليَّ بإذن الله) فانقادت معه كالبعير المخشوش (٣) الذي يُصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغُصنٍ من أغصانها،فقال: (انقادي عليّ بإذن الله) فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمَنْصَف (٤) مما بينهما لأَم (٥) بينهما ــ يعني جمعهما ــ فقال: (التئما عليَّ بإذن الله) فالتأمتا، فقال جابر: فخرجتُ أُحْضِرُ (٦) مخافة أن يُحسَّ رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد.. فجلستُ أُحدِّث نفسي، فكانت مني لفتة (٧) ، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق، فرأيتُ رسول الله ﷺ وقف وقفة ، فقال برأسه هكذا.. الخ الحديث » (٨)

ومثلما انقادت الشجرة لرسول الله ﷺ ،فإن بعضها قد شهد له بالرسالة تأييداً

---

(١) أفيح: أي واسعاً، انظر مختصر شرح النووي لصحيح مسلم ٤ / ٢٣٠٦، لسان العرب ٢ / ٥٥١ .

(٢) إداوة: هي المطهرة، انظر مختصر شرح النووي لصحيح مسلم ٣ / ١٣٥٥ .

(٣) المخشوش: هو الذي يجعل في أنفه خشاش، وهو عُود يجعل في أنف البعير إذا كان صعباً، ويُشد فيه حبل ليذل وينقاد، وقد يتمانع لصعوبته، فإذا اشتد عليه وآلمه انقاد شيئاً، ولهذا قال " الذي يصانع قائده" .انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي لمحمد فؤاد عبد الباقي ٤ / ٢٣٠٦،لسان العرب٦ / ٢٩٦ .

(٤) المَنْصَف : أي نصف المسافة، انظر : صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ٢٣٠٧ .

(٥) روي بهمزة مقصورة لأم، وممدودة لاءم، كلاهما صحيح ، نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) أحضر: أي أعدو وأسعى سعياً شديداً، نفس المرجع ونفس الصفحة ، لسان العرب٤ / ٢٠١ .

(٧) لفتة: أي نظرة إلى جنب ، نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٨) رواه مسلم في ٤ / ٢٣٠٦، في كتاب الزهد والرقائق ، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، برقم ٣٠١٢، والحديث طويل، وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة ٣ / ١٦٤٨ برقم ٥٨٨٥ ، والبيهقي في السنن الكبرى١ / ٩٤ .

له وتصديقاً، فعن عبد الله بن عمر (١) - رضي الله عنه - قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: (**أين تُريد؟**) قال: إلى أهلي، قال: (**هل لك في خير؟**) قال: ما هو؟، قال: (**تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله**) قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: (**هذه الشجرة**)، فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ (٢) الأرض خداً، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم إنها رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال: «إن يتبعون أتيتُك بهم، وإلا رجعتُ إليك وكنتُ معك» (٣)

وبعد كل ما سبق فقد تجلّى لنا أن الله عز وجل عزّز نبيه ﷺ وأيّده بالمعجزات الحسية والمعنوية، منها ما يتعلق بالكائنات الحية، ومنها ما يتعلق بالجمادات،

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي... أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، ولم يشهد بدراً حيث استصغره النبي ﷺ، واختلفوا في شهوده أُحُداً، فقيل شهدها وقيل رده رسول الله ﷺ مع غيره ممن لم يبلغ الحلم، والصحيح أن أول مشاهده الخندق.. وشهد مؤتة واليرموك وفتح مصر وأفريقية، وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى إنه كان ينزل منازله، وكان شديد الاحتياط والتوقي لدينه في الفتوى، وكل ما تاخذ به نفسه،حتى إنه ترك المنازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له، ولم يقاتل في شيء من الفتن، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه... ثم ندم بعد ذلك.. وكان بعد رسول الله ﷺ يكثر الحجج، وكان كثير الصدقة، توفي سنة ثلاث وسبعين وقيل اربع وسبعين هجرية، وقد بلغ من العمر ستاً وثمانين عاماً.
انظر: أسد الغابة٣ / ٣٤٧-٣٥٢ ترجمة رقم ٣٠٨٠، و:سير أعلام النبلاء٣ / ٢٠٣، و:تقريب التهذيب١ / ٥١٦.

(٢) تخدُّ الأرض اي: تشقّ الأرض،والخدُّ هو الشق في الارض، انظر لسان العرب ٣ / ١٦٠-١٦١ مادة خدد.

(٣) رواه ابن كثير-رحمه الله - في البداية والنهاية، مجلد٣، ج٦، في باب: انقياد الشجر لرسول الله - ﷺ - ص١٣٠.
وقال: هذا إسناد جيد، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٩٢، وذكره ابن حجر في المطالب العالية ٤ / ٢٠٢ برقم٣٨٢٢.
انظر: البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١-٧٧٤هـ)، تدقيق وتحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الريان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في سبعة مجلدات ضمن أربعة عشر جزءاً.

ليمحو أدنى شك أو ريب في نفوس مكذبيه ﷺ .

وكما أن الله ـ تعالى ـ أيَّد رسوله ﷺ بالمعجزات السابقة، فقد أيّده أيضاً بالرد على استفسارات المؤمنين وشبهات الكافرين طوال فترة الرسالة في مكة والمدينة، وهذا ما يتم شرحه في المطلب الرابع .

المطلب الرابع

تولي الرد على استفسارات المؤمنين وشبهات الكافرين

مما لا شك فيه أن كل من تصدَّر وتولَّى قيادة قوم معينين،فقد صار مرجعاً مُهماً لهؤلاء القوم في كثير من شئونهم الخاصّة والعامة،وصار أيضاً هدفاً لأعدائه.

والنبي ﷺ بعد أن اصطفاه ربُّه رسولاً للعالمين ، وأمره بالبلاغ المبين، صار قدوة للمؤمنين، وهدفاً يُراد النيل منه من قِبَلِ الكافرين، فتعرض ﷺ لكثير من أسئلة الصحابة الكرام، وتعرّض أيضاً لشبهات الكفار الملحدين، ولم يكن عنده ﷺ شيء من العلم أو الحجة الدامغة ، إلا ما علَّمه الله، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** (١١٣) ﴾ [النساء:١١٣] . فتكفَّل الله ـ عز وجل ـ بالبيان لأهل الإيمان، والرد من سواهم.

تكفل الله بذلك تثبيتاً للمؤمنين، وتعليماً لهم، وتوضيحاً لما أُشكل عليهم، وردًّا على شبهات الكافرين وأباطيلهم، ودحضاً لافتراءاتهم، ودرءًا لتشكيكهم في رسالة النبي ﷺ وما أوحى الله إليه، وانتصاراً للحق الذي جاء به ، ومعالجةً لنفسية النبي ﷺ مما كان يصيبها أحياناً من هم وغم وضيق بسبب ما يُثيره ويُشيعه الكفار من شبهات حول الرسول ﷺ ورسالته، وقد سجل القرآن الكريم آثار ذلك على نفسية النبي ﷺ، فقال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** (٩٧) **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** (٩٨) ﴾ [الحجر :٩٧ - ٩٨].

قال ابن كثير: « .. أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيقُ صدرٍ وانقباض.. » (١) . وإنما كان ضيق صدر النبي ﷺ لإشاعات المشركين

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٨٠ .

واليهود خشية ما قد تُحْدِثه هذه الإشاعات من تشكيك في دين الله، وإرجاف بين المدعوين، وخلخلة في الصف، وصدّ عن سبيل الله، فكان القرآن يتنزل عقب مثال هذه الحوادث معالجةً لكل ما سبق ونحوه، وتسريةً عن رسول الله ﷺ ، فأمر الله نبيه ﷺ بعدم الاكتراث لما يُشيعه الكفار من أفكار وأقوال تُشكّكك في رسالته، وسلامة منهجه، وصدق دعوته، كما قال تعالى: ﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦]، ومثال هذا كثير في آيات القرآن الكريم (١)

ومن هنا ، فإن القرآن الكريم قد حقق مزيداً من طمأنينة النبي ﷺ واستقرار نفسيته، وتربيتها على السلوك القويم في مواجهة مثل هذه الحوادث التي تكررت عليه كثيراً.

وحتى يتضح الأمر جلياً رأيت أن أقسم هذا المطلب إلى الفقرتين التاليتين:

أولاً: الرد على استفسارات المؤمنين:

كان الصحابة ـ ﷺ ـ يتخذون النبي ﷺ قدوة مطلقة لهم في جميع شئونهم التعبدية لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] .

وكانوا يرجعون إليه في كل صغيرة وكبيرة من أمورهم فيسألونه، ويتبعون إرشاداته ، ويأخذون عنه أحكام الله وآياته، وهكذا كلما نزلت بهم نازلة،أو جدّ لهم جديد،أو أُشْكِلَ عليهم أمر، هرعوا إلى النبي ﷺ فسألوه ليتبينوا منه حكم الله في ذلك وليبين لهم الذي اختلفوا فيه لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء : ٥٩] . فيرد عليهم النبي ﷺ بما أوحى الله إليه وأوجب قبوله والعمل

(١) كما في سورة آل عمران ١٧٦، والمائدة ٤١، والأنعام ٣٣، ويونس ٦٥، ولقمان٢٣، والنحل١٢٧، والنمل٧٠

بما فيه من أحكام لقوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء : ٦٥] . وذلك لأنه ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم : ٣ – ٤] .

ومن هنا فإن القرآن الكريم قد بيّن كل ما كان يسأل عنه الصحابة الكرام من شؤون العقيدة والعبادة والمعاملة وعلم الغيب ومظاهر قدرة الله وآياته وغير ذلك.

« فمنهج السؤال والجواب في كتاب الله قد عُني بأهم قضايا الإنسان، وشمل منهج حياته الخاصة، كالإنفاق مما يجب، .. وأخص من ذلك محيض النساء، والعشرة بين الزوجين، ورعاية الأيتام، كما تناولت مطعمه ومشربه ومكسبه..، وكذلك مغانمه في الجهاد، وكذلك الظواهر الكونية في الأرض كالجبال، وفي السماء كالهلال ، بل في خواص أنفسهم والروح التي بها حياتهم مما لم يُدركوا كُنهه ولم يعلموا حقيقته، وكذلك ما بقى لهم من معتقد في الأشهر الحرم، وحُرمتها في الإسلام، وعن مشروعية القتال فيها، وعدم مشروعيته ، بل شمل القرآن تساؤلاتهم عن البعث والجزاء، وعن الساعة أيّان مرساها، بل وسؤالهم عن الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة :١٨٦] . وعن بعض الماضين كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف :٨٣] ،وهكذا نجد عمق الأسئلة في كتاب الله واستيعابها الدنيا والآخرة..» [1] .

وقد كان أصحاب النبي ﷺ لا يفزعون إلى السؤال إلا عند الضرورة والحاجة بعد أن نُهوا عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) السؤال والجواب في آيات الكتاب للشيخ عطية محمد سالم ـ رحمه الله ـ مكتبة دار التراث، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، المدينة المنورة، السعودية.

حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة : ١٠١] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهيٌ لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها »(١) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : **(إن أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يُحرَّم، فَحُرِّم من أجل مسألته)** (٢)

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : " والصواب .. أن المراد بالجرم الإثم والذنب، وحملوه على من سأل تكلفاً وتعنتاً فيما لا حاجة له به إليه " (٣) . وفي رواية أخرى: « . . ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » (٤)

وبناءً على ما سبق، فإن أصحاب النبي ﷺ لم يكونوا يُكثرون في المسالة على رسول الله ﷺ ، بل كانوا يعتمدون على قبول سُنَّته قولاً وفعلاً وتقريراً والاقتداء به، فيصلُّون كما رأوه يُصلي، ويأخذون عنه مناسك الحج ، وغير ذلك، وما كانوا يفترضون المسائل والقضايا (٥)

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٨

(٢) رواه البخاري في ٦ / ٢٦٥٨، في كتاب: الاعتصام ، باب: ما يُكره من كثرة السؤال، برقم ٦٨٥٩ عن عامر بن سعد بن ابي وقاص عن ابيه، واخرجه مسلم في ٤ / ١٨٣١ برقم ٢٣٥٨ .

(٣) فتح الباري ١٣ / ٢٦٨ .

(٤) رواه مسلم في ٢ / ٩٧٥ في كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم ١٣٣٧، عن أبي هريرة ﵁، وأخرجه ابن حنبل في مسنده في ٢ / ٣٢٥ برقم ٧٣٥٩، واخرجه البيهقي في السنن الكبرى١ / ٣٨٨ .

(٥) ذكر الحافظ الدارمي في مسنده المعروف بالسنن ١ / ٦٢-٦٣ بسنده قال: قال القاسم: « إنكم تسالون عن اشياء ما كنا نسال عنها، وتُنَقِّرن عن اشياء ما كنا نُنَقِّر عنها.. وذكر بسنده أيضاً عن ابن عمر ﵄ انه قال: لا تسال عما لم يكن فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سال عما لم يكن .. وذكر بسنده ايضاً عن عبادة بن نسي الكندي انه قال: أدركت أقواماً ما كانوا يشددون تشديدكم، ولا يسالون مسائلكم ».

انظر: سنن الدارمي للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي (١٨١-٢٥٥)هـ تحقيق وتخريج فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م القاهرة، مصر، والكتاب يقع في مجلدين.

ومع هذا فقد ثبت أنهم سألوا النبي ﷺ واستفسروه عن بعض القضايا، لكنها كانت قليلة ، قال ابن عباس . . رضي الله عنهما ـ « ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما سألوه إلا عن ثلاث عَشْرة مسألة [١] حتى قُبض، كلُّهن في القرآن ، منهن: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة :٢٢٢] ، قال: ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم » [٢] .

"وكان النبي ﷺ يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم ، وتُرفع إليه القضايا فيقضي فيها" [٣]

ومن الأمثلة التي سأل عنها الصحابةُ رسولَ الله ﷺ وتكفل القرآن بالرد عليها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ : " أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت" [٤] .

فسأل أصحاب النبي ﷺ ، فانزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ . فقال رسول الله ﷺ ـ أي للصحابة ـ (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) [٥] .

---

(١) علّق ابن قيم الجوزية على ذلك بقوله: " ومراد ابن عباس . . المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبيّن لهم أحكامها بالسُّنَّة لا تكاد تحصى " .
انظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين ١ / ٧٢ لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (٦٩١-٧٥١هـ) تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م القاهرة، مصر، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

(٢) أخرجه الدارمي في ١ / ٦٣، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد١ / ١٥٨ .

(٣) حجة الله البالغة ١ / ١٤١ للشيخ شاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ) دار المعرفة، ط بدون،د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلد واحد يحوي جزئين.

(٤) ولم يجامعوهن في البيوت: أي لم يخالطوهن ولم يُساكنوهن في بيت واحد. انظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٢٤٦

(٥) رواه مسلم في ١ / ٢٤٦ في كتاب الحيض ، باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها، برقم ٣٠٢، وأخرجه ابن ماجة في سُننه ١ / ٢١١ برقم ٦٤٤، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى٢ / ٣١٣ .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾ [النساء : ١٧٦] .

عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: " مرضتُ فأتاني رسولُ الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيان (١) ، فأُغمي عليَّ، فتوضأ ـ أي رسول الله ﷺ ـ ثم صبَّ عليَّ من وضوئه فأفقتُ، قلتُ: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يردَّ علي شيئاً حتى نزلَتْ آية الميراث، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾ (٢)

وهكذا تولى الله الرد على استفسارات المؤمنين عبر آيات القرآن الكريم ، حيث كان النبي ﷺ كلما سأله سائل من الصحابة الكرام أمهله ووعده لحين نزول شيء من القرآن ، أو سكت انتظاراً لنزول الوحي عليه في نفس اللحظة ، فكان القرآن المصدر الرئيس لتولي الرد المبين على كل ما يسكت عنه النبي ﷺ من أسئلة الصحابة الكرام (٣) .

ثانياً: دحض شبهات الكافرين:

وكذلك الأمر بالنسبة لأسئلة أو شبهات الكفار الذين كانوا كثيراً ما يسألون النبي ﷺ للتعجيز أو التعنت أو الاستهزاء والسخرية، فكان الوحي سرعان ما يُواجه ذلك بالرد الذي يتناسب معهم ويدحض شبهاتهم ويرد على افتراءاتهم، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

---

(١) ماشيان هكذا في أكثر النسخ : ماشيان، وفي بعضها ماشيين ، وهذا ظاهر ، والأول صحيح أيضاً، والتقدير له: وهما ماشيان ، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٢٣٤

(٢) رواه مسلم في ٣ / ١٢٣٤، في كتاب الفراض، باب: ميراث الكلالة، برقم ١٦١٦، وأخرجه الترمذي في الجامع ٤ / ٣٦٤ برقم ٢٠٩٧، وأخرجه البيهقي في السُنن الكبرى٦ / ٢٢٣ .

(٣) ومما سأل عنه الصحابة وذكره القرآن الكريم ما ورد في آيات السورة التالية: البقرة١٨٦، ١٨٩، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، المائدة٤، الأنفال١، وغير ذلك ، انظر السؤال والجواب في آيات الكتاب لـ عطية محمد سالم ـ رحمه الله ـ .

وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن عبد الله (١) قال: " بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث (٢) وهو مُتكئ على عسيب (٣) ، إذ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقال: ما رابكم إليه (٤) ؟ ، فقالوا: سلوه ، فسألوه عن الروح ،فامسك النبي ﷺ ، فلم يردَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يُوحى إليه ، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ (٥)

وفي موضع آخر يتكفل القرآن بالرد على شبهات الكفار التي يضعونها في طريق دعوة النبي محمد ﷺ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾ [البقرة : ١٤٢] .

وسبب نزول هذه الآية، ما رواه ابن اسحاق ـ رحمه الله ـ بسنده قال: « كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس، ويُكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فانزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٤٤]، فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات قبل أن نُصرف إلى القبلة ، فانزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وقال السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ،

---

(١) اي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) حرث: اي زراعة أو ارض مزورعة.

(٣) عسيب: اي جريدة النخل المستقيمة.

(٤) ما رابكم إليه: اي ما إربكم وحاجتكم إلى سؤاله، وفي نسخة ما رابكم، انظر صحيح البخاري ٤ / ١٧٤٩ بشرح د. مصطفى ديب البغا.

(٥) صحيح البخاري ٤ / ١٧٤٩، في كتاب التفسير، باب: ويسالونك عن الروح ، برقم ٤٤٤٤، واخرجه ابن حنبل في مسنده ١٥ / ٣١٨ برقم ٢٣٠٨، وذكره المتقى الهندي في كنز العمال برقم ٤٤٨٤ .

فانزل الله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ [١] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " قيل المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب . وقيل أحبار اليهود . . وقيل المنافقون . . والآية عامة في هؤلاء كلهم والله أعلم "[٢] .

يتضح لنا من خلال كل الروايات السابقة ـ سواء ما يتعلق باستفسارات المؤمنين أو شبهات الكافرين ـ أن العناية الإلهية كانت تتولى النبي ﷺ وتتكفل بالرد نيابة عنه على استفهامات المؤمنين، أو إرجاف الكافرين وأقوالهم وأسئلتهم ، فكانت آيات القرآن الكريم تعالج ما قد يطرأ في نفسية النبي من تردّد وحيرة أمام أسئلة صحابته الكرام، وتعالج أيضاً ما قد يعترى نفسه الآمنة المطمئنة المستقرة من ضيق وقلق واكتئاب أو هم وغم وحُزن وحسرات أوعجزٍأمام شبهات أعدائه الكافرين.

وهكذا ما برحت آيات القرآن تتولى إرشاد النبي ﷺ في كيفية قيادة الطائفة المؤمنة، ومواجهة الطائفة الكافرة، وتُبيّن له المنهج القويم في ذلك ليبقى ﷺ دائماً قوى الحجة، واضح البرهان، ثابت النفسية، مطمئن البال، لا يتردَّد لحظة واحدة أمام شبهات الكفار، ولا يعجز أبداً أمام استبيانات المؤمنين، وهذا كله من تأييد الله وتعزيزه للنبي ﷺ . وقد أيّد الله رسوله وعزّزه بشيء آخر، وهذا ما أتناول شرحه في المطلب الخامس .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٥ ، وذكره الشيخ مقبل الوادعي ـ رحمه الله ـ في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٤، وسكت عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ١٩٤ .

المطلب الخامس

تزكية النبي ﷺ والدفاع عنه

سبق أن ذكرتُ أن الكفار ـ سواء قريش في مكة أو أهل الكتاب والمنافقين في المدينة ـ كانوا كثيراً ما يطعنون في شخص النبي ﷺ أو أصحابه، ويُشككون في سلامة منهجه، وصدق توجُّهِهِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وكانت العناية الإلهية سرعان ما تتدارك النبي ﷺ بالرد على كل ذلك قبل أن يؤثر ذلك في نفسيته أو يَفُتَّ في عضده ﷺ .

فالكفار ما برحوا يصدون عن سبيل الله، وينهون عن اتباع رسول الله ﷺ أو الاستماع إليه ويتقوَّلون عليه الأقاويل، ويتّهمونه بكثير من التّهم الباطلة الكاذبة ليصرفوا الناس عنه وعن دعوته ، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٦] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : « أي ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد ﷺ ، ويبعُدُونِ في أنفسهم عنه(١) » (٢) .

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : « وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها ، كما يخافون على أتباعهم ، ومن ثم كانوا ينهون أتباعهم أن يستمعوا لهذا القران، كما كانوا هم أنفسهم ينأوْن بأنفسهم خوفاً عليها أن تتأثر وتستجيب » (٣). قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا

---

(١) فتح القدير ٢ / ١٥٧ .

(٢) وقال الشوكاني في تفسير آخر للآية: " وقيل أنها نزلت في أبي طالب ، فإنه كان ينهى الكفار عن أذية النبي ـ ﷺ ـ ويبعد هو عن إجابته " نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٣) في ظلال القرآن ٢ / ١٠٦٧ .

لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت : ٢٦] .

ومما افتراه الكفار على النبي ﷺ اتهامهم له بالكذب والافتراء، والسحر والجنون والشعر والكهانة، وغير ذلك، فتولى الله بنفسه الدفاع عن نبيه ﷺ في كتابه الكريم، " فما من شبهة أثاروها إلا فنّدها، وما من تهمة ألصقوها به إلا دفعها، وما من مؤامرة دبّروها إلا كشفها، وما من أسئلة تعجيزية سألوها إلا دحضها، وما من مكيدة حبكوها لقتله إلا أحبطها" (١) .

وهذا كله من شأنه أنه يجعل النبي ﷺ غير عابئ أو مكترث بمكر الكفار به قولاً وعملاً، أو ضربهم الأمثال التي تنال منه، كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) ﴾ [الفرقان : ٩] .

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ : "ضربوا لك الأمثال أنهم تارة يقولون: إنك ساحر، وتارةً مسحور، وتارةً مجنون، وتارة كاهن، وتارة كذاب" (٢) ، وهكذا ، ولكن القرآن دافع عن النبي ﷺ تجاه ذلك كله.

وحتى يتضح الأمر نأتي لبعض هذه التُهم التي وجهها إليه الكفار ليتم شرحها بشيء من التفصيل عبر الفقرات التالية:

أولاً: عند اتهام الكفار للرسول ﷺ بالجنون (٣) والضلال (٤) في عقله :

سجل القرآن الكريم اتهام الكفار للنبي ﷺ كذباً وزوراً، بالجنون والضلال في عقله ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر: ٦] . وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ

(١) منهج القرآن في تثبيت الرسول وتكريمه ص١٦٣ عبد الرحمن هوساوي .

(٢) أضواء البيان ٦ / ٢٨٤ .

(٣) الجنون هو: حائل بين النفس والعقل، وجُنّ فلان: قيل أصابه الجن، انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٩٨،٩٩ .

(٤) الضلال هو: العدول عن الطريق المستقيم ، ويُضادُّه الهداية، انظر: المرجع السابق ص٢٩٧ وما بعدها.

كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون : ٧٠] .

وغيرها من الآيات التي سجلت تهمة الكفار للنبي ﷺ بالجنون والضلال [١] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الأولى: « أي قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله ومتهكمين به : إنك بسبب هذه الدعوة التي تدّعيها من كونك رسولاً مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون . . » [٢]

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الثانية: « يحكي ـ أي الله عز وجل ـ قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوّل القرآن أي افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول . . » [٣] .

وهكذا اتهم الكفار ـ كفار مكة ـ النبي ﷺ بالجنون والضلال في عقله مع أنهم كانوا يشهدون له قبل بعثته بانه الصادق الأمين، ثم بعد نزول الوحي عليه وإكرامه بالرسالة قالوا عنه: مجنون؟! ، فقال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم : ٢] ، وهي نعمة الوحي والرسالة.

والمعنى أيعترفون لك قبل البعثة برجاحة العقل، وكمال الصدق والأمانة، حتى إذا جاءتك نعمة الله عز وجل، قالوا عنك: مجنون . . ؟ فاقسم الله ـ تعالى ـ بالقلم لما فيه من البيان ، وأقسم بما يُكتب ويُسطر به انه ﷺ عاقل: « كانه قيل: أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة » [٤] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة: " . . والمقسَم عليه: نفي أن يكون النبي ﷺ مجنوناً، والخطاب له بهذا تسليةً له لئلا يحزنه قول المشركين لما دعاهم إلى الإسلام:هو مجنون،وذلك ما شافهوا به النبي ﷺ ،

---

(١) كما في سورة الأعراف ١٨٤ ، وسبأ ٨، ٤٦، وغيرها من السور والآيات .
(٢) فتح القدير ٣ / ١٧٤ بزيادة يسيرة .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٦٠ .
(٤) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٣٧٤ .

وحكاه الله عنهم في آخر السورة، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم : ٥١] (١).

وهكذا زكّى الله عقل النبي ﷺ بأن نفى عنه تُهمة الجنون، وأكّد على ذلك بثلاثة مؤكدات ، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم : ٤] ، ومن المعلوم أن الأخلاق العظيمة لايمكن أبداًأن تصدر من مجنون.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : "هذا تعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ، وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومَن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجزإضافة الجنون إليه ؛لأن أخلاق المجانين سيئة"(٢)، ورسول الله ﷺ قد تنزَّه عن كل ذلك بل تحلَّى بالخُلق العظيم، فكيف يتهمونه بالجنون .ثم أن الله ـ تعالى ـ خاطبهم قائلاً لهم:﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : ٢٢] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكَرَهُ بوصْفِ الصّحبة ـ لهم ـ للإشعار بانهم عالمون بامره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء،وانهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بانه أعقل الناس وأكملهم" (٣)

وهذا ما ذَكَرَتْهُ كتب السيرة مما اتصف به النبي ﷺ من كمال الأخلاق العظيمة وسموّ الشمائل المحمدية قبل النبوة وأكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المؤمنون : ٦٩] ، « فقد نبَّه الله ـ سبحانه ـ بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق، وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة، فكيف كذبوه بعد أن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٦١ .
(٢) مفاتيح الغيب ١٠ / ٦٠١ .
(٣) فتح القدير ٥ / ٥٥٢ .

اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين» (١)

والقرآن قد أكّد صحة منهج النبي ﷺ وصواب طريقته، وزكّى عقله، فقال ردّاً على الكفار الذين اتهموه بالغواية والضلال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم : ٢] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : «هذا هو المقسم عليه - أي بعد قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ [النجم : ١] ، وهو الشهادة للرسول بأنه راشد تابع للحق ليس بضال: وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزّه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود..» (٢)

ولم يقتصر دفاع الله عن نبيه وتزكيته لعقله بالرد على افتراءات الكفار وتأكيد سلامة عقل النبي بالأقسام المتعددة، بل لقد دعاهم القرآن لإعمال عقولهم والتفكير المجرد عن الأهواء، في شأن النبي ﷺ بصدق وجدّية فقال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ㊻﴾ [سبأ : ٤٦] .

قال ابن جرير - رحمه الله - : "أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك : إنما أعظكم أيها القوم بواحدة، وهي طاعة الله. ... وتلك الواحدة التي أعظكم بها هي: أن تقوموا لله اثنين اثنين، وفرادى (٣) .. بالنصيحة وترك الهوى، يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد جنوناً قط؟ ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فرداً هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم.." (٤) .

(١) التفسير الكبير للرازي ٨ / ٢٨٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٦٤ .
(٣) وفرادى: لعله وفرداً فرداً، انظر: جامع البيان ١٠ / ٣٨٤ .
(٤) جامع البيان ١٠ / ٣٨٤-٣٨٥ .

«وكيف يُمكن لمجنون يأتي بمثل ما أتىٰ به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة؟!» (١)

ثانياً: حال اتهام الكفار للنبي ﷺ وما أوحاه الله إليه بأنه سحر : (٢)

تعددت صُور اتهام الكفار للنبي ﷺ وما جاء به بأنه سحر، فتارة قالوا عن

---

(١) التفسير الكبير للرازي ، مجلد ٨، جزء٢٣، ص٢٨٦

(٢) السحر: «هو الأخذة، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر يأخذ العين حتى يُظن أن الأمر كما يُرى وليس الأصل على ما يُرى، وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وهو عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، والسحر أيضاً البيان في فطنة، ومنه قول النبي ﷺ : (إن من البيان لسحراً) ويُجمع على: أسحار وسحور وسحرة» ، انظر: لسان العرب ٤ / ٣٤٨ .

وهو أيضاً: «تصوير الباطل بصورة الحق ، وهوما يُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشياطين مما لا يقدر عليه الإنسان». انظر: دائرة معارف القرن العشرين ٥ / ٥٥، لمحمد فريد وجدى، دار المعرفة، ط٣، د.ت، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

وقال ابن قدامة المقدسي: " السحر: عقد ورقي وكلام يتكلَّم به-اي الساحر، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له..:" انظر: المغنى ١٢ / ٢٩٩ لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي (٥٤١-٦٢٠هـ)، تحقيق:د. عبد الله عبد المحسن التركي، د.عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة هجر، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً.

وقال ابن خلدون : «السحر هو: علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير مُعين أو بمعين من الأمور السماوية ،والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات»، انظر مقدمة ابن خلدون ٢ / ١٩٣ بتصرف يسير.

وقال ابن عاشور-رحمه الله - « والسحر: الشعوذة، وهم تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات واحوال يظن الرائي أنها هي المؤثرة مع ان المؤثر خفي.. وأُطلق على ما عُلم ظاهره وخفي سببه». انظر: تفسير التحرير والتنوير ١ /. ٦٣٠ . والقرآن الكريم قد أكد وجود السحر ووقوعه وانكر تعلمه ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٠٢ : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. والنبي ﷺ قد اعتبر السحر من الكبائر والموبقات كما في رواية البخاري ٣ / ١٠١٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) - أي المهلكات - قالوا: يا رسول الله وما هي؟، قال: (الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق..) الخ الحديث. قال ابن عاشور في التحرير ١ / ٦٣٧: « .. وقد حذر الإسلام من عمل السحر، وذمه في مواضع ... » .

رسول الله ﷺ أنه ساحر، كما حكى القرآن عنهم : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس : ٢] . وتارة اتهموه بانه مسحور، كما سجل القرآن ذلك فقال تعالى عنهم: ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء :٤٧] . وتارة أُخرى اتهموا الدين الذي جاء به والقرآن الذي أُوحي إليه، وما فيه من تقرير لحقيقة يوم البعث أو الدعوة لتوحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، قالوا عن ذلك كله إنه سِحر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ : ٢] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي لأمر الدين الذي جاءهم به رسول الله.. وهذا إنكار منهم ـ أي من مشركي العرب ـ خاص بالتوحيد، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان مُتَّفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين " .

= وقد اختلف علماء الإسلام في إثبات حقيقة السحر وإنكارها ، وهو اختلاف في الأحوال.. وحكى عياض.. ان جمهور أهل السُّنَّة ذهبوا إلى إثبات حقيقته.. وليس في كلامهم وصف كيفية السحر الذي اثبتوا حقيقته فإنما اثبتوه على الجملة، وذهب عامة المعتزلة إلى ان السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل ..وافقهم على ذلك بعض اهل السُّنَّة.. والمسالة بحذافيرها من مسائل الفروع الفقهية.. ولا تدخل في أصول الدين..» .

وقال ابن قدامة في المغنى ١٢ / ٢٩٩ : " والسحر له حقيقة فمنه ما يقتل، وما يُمرض، وما ياخذ الرجل عن امراته فيمنعه وطاها ، ومنه ما يُفرق بين المرء وزوجه.." .

وقال ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٢٢٢ ، قال النووي: «والصحيح ان له حقيقة ، وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء».

وللسحر اصول ثلاثة كما قال ابن عاشور في تفسيره١٥ / ٦٣٣ الأول: «زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التاثير النفساني في نفسه، ومن الضعف في نفس المسحور، ومن سوابق شاهدها المسحور واعتقدها. والثاني: استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والمعدن.. والزئبق... والمخدرات.. والمرقدات. والثالث: الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة..» وصحٌ عند البخاري٥ / ٢١٧٥ أن لبيد بن الاعصم اليهودي سحر رسول الله ﷺ حتى كان يُهيئ له فعل الشيء وما يفعله، كإتيان أهله. وقال ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٢٢٤ : «قال النووي: عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقال ابن حجر: ومنه ما يكون كفراً ومنه مالا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول او فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فهو حرام، فإن كان فيه ما يقتضى الكفر كفر صاحبه واستُتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قُبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقضي الكفر عُزّر »، والسحر لا يثبت مع اسم الله .

وقال تعالى مُبيناً اتهام الكفار للقرآن بأنه سحر، وموضحاً إنكارهم على من قارب التصديق بنبوة محمد ﷺ ، وبالقرآن الذي أوحي إليه ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ [هود: ٧] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « .. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد ﷺ .. وكذلك الاستفهام في قوله: ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ إنكاري، وأراد بالسحر الكلام الذي يتلوه عليكم، والمعنى: أنه لمّا كان بشراً مثلكم ، فما تصديقكم لنبوءته إلا مِنْ سِحرٍ سَحَرَكُم به.. » (١)

وقال تعالى مخاطباً النبي ﷺ ومؤكداً له إنكار الكفار لحقيقة البعث بعد الموت واعتبارهم أن هذا من قبيل السحر: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧] .

وهكذا سجَّل القرآن صور اتهام الكفار للنبي ﷺ وما جاء به بأنه سحر مبين، ولم يقتصر اتهام الكفار للنبي ﷺ ، وما أوحي به إليه فقط بأنه سحر، بل لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا في شأن انشقاق القمر بعد أن طلبوا هذه الآية، قالوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر: ٢] ، ومعلوم من اللغة العربية أن التنكير في سياق الشرط يُفيد العموم كما في لفظ ﴿ آيَةً ﴾ ، والمجيء بالفعل المضارع يُفيد التجدد والحدوث، كما في لفظ ﴿ وَيَقُولُوا ﴾ ، بل أكدّوا ذلك بقولهم مستمر، كما حكى القرآن عنهم، وهذا يعني دوام اتهامهم للنبي ﷺ باستمرار سحره في كل ما يأتي به من آية.

وهكذا سجل القرآن الكريم اتهام الكفار للنبي ﷺ وما أُوحي إليه بالسحر، وَرَدَّ عليهم في أكثر من آية، ودحَضَ جميع مزاعمهم، دفاعاً عن النبي ﷺ وعن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٧ / ١٣-١٤ .

الحق الذي جاء به، فسلاّه ربُّه بأن ذَكَّرَ له أن مثل هذا الاتهام قد وقع من الأمم السابقة لأنبيائها، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

قال ابن عاشور - رحمه الله -: " . . فالمعنى أن حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممن كانوا مشركين، أن يصفوا الرسول ﷺ بأنه ساحر. . " [١]، وفي موضع آخر دعا الله رسوله ﷺ للنظر والتعجب من اتهام الكفار له بالسحر وحَكَمَ سبحانه وتعالى - بضلالهم في ذلك، قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٨].

قال الشوكاني - رحمه الله -: ﴿ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أي: قالوا تارة إنك كاهن، وتارة إنك ساحر، وتارة شاعر، وتارة مجنون، ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبلُه العقول ويقع التصديق له. . " [٢].

وفي موضع ثالث أنكر على الكفار تعجبهم واستبعادهم أن يُوحِيَ الله إلى رجل من البشر، وأن رسول الله ﷺ ساحر مُبين، فقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[٣] [يونس: ٢]. وفي قراءة ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [٤].

قال ابن عاشور: "ولما كان التعجب مبدأً للتكذيب، وهم قد كذّبوا بالوحي إليه، ولم يقتصروا على كونه عجيباً، جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر. . " [٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢١ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٣٣٢-٣٣٣ .

(٣) لساحر: قراءة ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي .

(٤) لسحر: قراءة الجمهور. انظر: تفسير ابن عاشور ١١ / ٨٦ .

(٥) التحرير والتنوير ١١ / ٤٨ .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾: هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾

ووجه هذا الإبدال أن قولهم هذا يُنبئ عن بلوغ التعجب من دعوى الوحي والرسالة من نفوسهم مزيد الإحالة والتكذيب حتى صاروا إلى القول: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾، أو ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وفي موضع رابع توعَّد سبحانه وتعالى من قال عن القرآن الكريم أنه سحر - رغم يقينه بصدقه وإعجازه، بل وشهادته على ذلك - توعَّده تعالى بالعذاب الشديد، قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش الذين صدُّوا عن سبيل الله كثيراً، وقد كان من شأنه أن قال عن القرآن الكريم إنه سحر يُؤثَرْ، قال تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٦] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة (٢) - وكان منْ خبره.. أنه - دخل على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلقَ حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال - أي الوليد - ألستُ أكثرهم مالاً وولداً؟! فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتُصيب من طعامه، فقال الوليد: أقَدْ تحدَّثَ به عشيرتي، فلا

---

(١) المرجع السابق ١١ / ٨٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٧٢ .

والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عُمر ولا ابن أبي كبشة (١) ، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ⑪ ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ㉘ ﴾ الآيات [المدثر : ١١ - ٢٨] .

وفي رواية لابن جرير ـ رحمه الله ـ : « أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه القرآن ـ أي قرأ رسول الله القرآن على الوليد ـ فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل ، فقال : ـ أي أبو جهل ـ أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبلهُ (٢) ، قال ـ أي الوليد ـ : قد عَلِمَتْ قريشٌ أني أكثر مالاً، قال ـ أي أبو جهل ـ : فقل فيه قولاً يعلم قومُك أنك مُنكر لما قال، وأنك كارهٌ له، قال: فما أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يُشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليُحطِّم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يُعلى! قال ـ أي أبو جهل ـ : والله لا يَرْضى قومك حتى تقول فيه، قال: فَدعني حتى أُفكِّر فيه، فلما فكَّر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ الآيات » (٣) .

وهكذا ردّ الله عن رسوله ﷺ ودافع عن الحق الذي جاء به ، ودفع هذه التهمة الباطلة ، فلم يكن ﷺ ساحراً ولا مسحوراً، وليس الذي جاء به من قرآن وحقائق عن البعث والنشور من قبيل السحر أبداً، بل هو الحق المبين، ولم يُؤثر عن النبي ﷺ أنه تعلّم السحر عند أحد، ولم يمارسه أدنى ممارسة، وليس بينه ﷺ وبين السَّحرة أي شبه أو تقارب أو اتصال، بل لقد حارب رسولُ الله ﷺ السحر والسحرة وكلَّ ما يتعلق بذلك (٤) .

(١) هكذا في الأصل: ابن أبي كبشة، ولعله تكرار لابن أبي قحافة. والله أعلم . وهو لقب أطلقه كفار قريش على النبي ﷺ للتقليل من شأنه ﷺ .

(٢) لما قبله: أي لما عنده . انظر لسان العرب ١١ / ٥٤٣ .

(٣) جامع البيان ١٢ / ٣٠٩ .

(٤) لقوله ﷺ فيما صح عند البخاري ٣ / ١٠١٧ مما رواه أبو هريرة ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا وماهن يا رسول الله ؟، قال: «الشرك بالله ، والسحر،...» الخ الحديث.

ومن هنا تبيَّن لنا أن الكفار اتهموا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بغير الحق، وبما لا دليل عليه، ولا أمارات له، بل إن «الدراسة العميقة المتأملة لشخصية محمد ﷺ الذي كان يحب العزلة ـ قبل البعثة ـ بعيداً عن أعين الناس، يعبد ربه في غار حراء، وإذا خالط الناس خالطهم بالأمانة والصدق، يجد اختلافاً جوهرياً بين هذه الشخصية وشخصية الساحر القائمة على خداع العقول بالنبوءة المزعومة، أو خداع النظر بالأعمال السحرية»(١)

ثالثاً: عند اتهام الكفار للرسول ﷺ وما أوحاه الله إليه بالشعر(٢) والكهانة:

لم يقتصر اتهام الكفار لرسول الله ﷺ على السحر فقط، بل لقد زعم الكفار أن رسول الله ﷺ شاعر، وأن القرآن الذي يتلوه إنما هو من قبيل الشعر، وفي هذا قال ـ عزَّ منْ قائل ـ : ﴿ **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ** ﴾[الأنبياء: ٥]، وقال تعالى ـ مؤكداً تجدد واستمرار تهمتهم هذه للنبي ﷺ ـ : ﴿ **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات :٣٦] . أي: «أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ »(٣)، فردَّ الله عليهم في نفس السورة في الآية التالية؛ حيث قال سبحانه: ﴿ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات :٣٧]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «قال الله تعالى تكذيباً لهم وردّ عليهم : ﴿ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ** ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له..»(٤)

---

(١) معركة النبوة مع المشركين ص٤٥ إبراهيم زيد الكيلاني، مكتبة الأقصى، ط١، ١٤١٠هـ، عمان، الأردن.

(٢) الشعر: هو منظوم القول،غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، ويجمع على أشعار. انظر لسان العرب ٤ / ٤١٠ مادة شعر.

(٣) تفسير ابن كثير٤ / ٧ .

(٤) تفسير القرآن العظيم٤ / ٧ .

وفي موضع آخر قال تعالى ـ رداً عليهم ونافياً لاتهامهم بأن ما جاء به رسول الله ﷺ ـ أي القرآن ـ ليس بقول شاعر، قال سبحانه: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة : ٤١] .

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : « فالمعنى ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر ؛ لأن هذا الوصف مُباينٌ لصنُوف الشعر كلّها ، إلا أنكم لا تؤمنون ، أي لا تقصدون الإيمان ، فلذلك تُعرضون عن التدبير ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم إنه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضُروب الشّعر » (١)

وفي موضع ثالث نفى الله ـ عز وجل ـ أن يكون رسول الله ﷺ قد تعلّم الشعر من ربه، وذكَرَ أنه ـ أي رسولَ الله ﷺ ـ لو أراد أن يقول الشعر لما استطاع ذلك،قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس : ٦٩] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « .. اقتصر هنا ـ أي اللفظ ـ على تنزيه القرآن عن أن يكون شعراً، والنبي ﷺ ، عن أن يكون شاعراً.. فتقدير المعنى: نحن علّمناه القرآن وما علّمناه الشعر.. والتعليم هنا بمعنى الوحي أي: ما أوحينا إليه الشعر... .

وأما معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .. أي: لم يجعل الله لرسوله مَلَكة أصحاب قرض الشعر.. وما يتأتى له الشعر.. ، فالنبي ﷺ منزّهٌ عن قرض الشعر وتأليفه، أي ليست من طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية ـ وليس المراد أنه لا ينشد الشعر ؛ لأن إنشاد الشعر غير تعلمه ـ وكان النبي ﷺ قد انتقد الشعر،ونبّه على بعض مزاياه، وفضّل بعض الشعراء على بعض،وهو مع ذلك لا يقرض شعراً.. »(٢)، ولكن قد ينشده وقد يُخطئ في ترتيب كلماته من حيث

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠ / ٦٣٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٣ / ٦٢-٦٣ .

الوزن والقافية (١).

وكيف يقرض رسولُ الله ﷺ الشِّعر والله ـ عز وجل ـ قد ذمَّ شعراء العصر الجاهلي، لما يغلب عليهم من الغواية والضلال والكذب، ومناقضة القول للفعل، "فإن للشعر طرائق من الأغراض كالغزل والنسيب والهجاء والمديح والمُلَح، وطرائق من المعاني، كالمبالغة البالغة حد الإغراق، وكادِّعاء الشاعر أحوالاً لنفسه في غرام أو سِيَر أو شجاعة هو خِلْوٌ من حقائقها ، وذلك لا يليق بأرفع مقام لكمالات النفس، وهو مقام أعظم الرسل صلوات الله عليه وعليهم ..على أن الشعراء في ذلك الزمان كانت أحوالهم غير مرضية عند أهل المروءة والشرف لما فيهم من الخلاعة والإقبال على السكر والميسر والنساء ونحو ذلك" (٢) .

وفي هذا كله ونحوه قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ .

[الشعراء :٢٢٤ – ٢٢٦] .

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : « ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ فرَّق بين محمد ﷺ وبين الشعراء ، وذلك أن الشعراء يتَّبِعُهم الغاوون ـ أي الضالون ـ ثم بيَّن تلك الغواية بأمرين:

الأول: أنهم في كل وادٍ يهيمون، والمراد منه الطُّرق المختلفة، وذلك لأنهم قد

---

(١) ذكر ابن جرير في جامعه ١٠ / ٤٦١ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ انه قيل لها: «هل كان رسول الله يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان ابغض الحديث إليه، غير انه كان يتمثل ببيت اخي بني قيس فيجعل آخره أوله واوله آخره» ـ والمقصود ما ذكره طرفة بن العبد في معلقته المشهورة:

ستُبدى لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

«فكان رسول الله يقول: (ويأتيك من لم تزود بالأخبار) فقال له ابو بكر: إنه ليس هكذا، فقال نبي الله ﷺ : «إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي».

وذكر ابن عاشور في تفسيره ٢٣ / ٦٣-٦٤ ان النبي ﷺ انشد بيت عباس بن مرداس:

اتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع

فقال رسول الله ﷺ : (بين الاقرع وعُيينة).

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣ / ٦٤ .

يمدحون الشيء بعد أن ذمُّوه ، وبالعكس، وقد يُعظِّمونه بعد أن استحقروه، وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق، بخلاف أمر محمد ﷺ ، فإنه من أوَّل أمره إلى آخره بقي على أمر واحد، وهو الدعوة إلى الله تعالى، والترغيب في الآخرة ، والإعراض عن الدنيا .

الثاني: أنهم يقولون مالا يفعلون، وذلك من علامات الغُواة، فإنهم يُرَغِّبُون في الجُود وَيَرْغَبون عنه، ويُنفِّرون عن البخل ويُصِرُّون عليه،وذلك يدل على الغواية والضلالة، فقد ظهر بهذا الذي بيَّناه أن حال محمد ﷺ ما كان يُشبه حال الشعراء" (١) .

ويمكن أن نجمل القول بأن المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أنها ليست من الشعر في شيء (٢) ؛ لأن الشعر له صفات وخصائص من حيث منبعه ومصدره، ومن حيث موضوعاته، ومن حيث أسلوبه،" .. فإن إقامة الشعر لا يخلو الشاعر فيها من أن يتصرَّف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقتضيه الفصاحة..مثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال، فيتعذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية.."(٣).

والشعر من حيث مادته هو قائم على التخيل التصوُّر ، ويعتمد على نظم القول بوزن وقافية، ومن حيث موضوعاته التي يتناولها أو أغراضه ومعانيه، فغالباً ما تكون حول الماضي والوطن، ووصفٌ لما يعايشه الشاعر العربي من إبل وصحراء وليل وحروب وفخرٍ ومدحٍ وهجاء وغزل وغير ذلك (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٨ / ٥٣٨ .

(٢) ذكر ابن عاشور في تفسيره ٢٣ / ٥٨، وما بعدها، وجود فقرات قرآنية استكملت ميزان بحور من البحور الشعرية، ،وذكر بعض أمثلة على ذلك ، ثم ذكر أن بعض الملاحدة طعنوا في القرآن لهذا الأمر واعتبروه شعراً، وأن أبا بكر الباقلاني والسكاكي وابا بكر بن العربي قد دحضوا ذلك وردُّوا على هؤلاء الملاحدة، وتعرض لرد هؤلاء جميعاً ، وذكر أنه غير مقتنع بتلك الردود،ثم أورد ردَّه على هذه الشبهة.

(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣ / ٦٢ .

(٤) انظر: مرآة الإسلام،د.طه حسين ص١٤٤،دار المعارف،ط بدون،١٩٦٦م، مصر،بتصرف وزيادة يسيرة.

هذه هي مميزات وأغراض الشعر الجاهلي، وهذا كلُّه قد تنزَّه عنه القرآن الكريم، فإنما كان يتحدث عن حقائق، ويكشف واقعاً، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ،وكل موضوعاته لا تخرج عن قضايا ثلاث:

القضية الأولى: مسألة العقيدة والتوحيد بجميع أصنافه : ألوهية، ربوبية، أسماء وصفات، وأركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر بما فيه، والوعد والوعيد، والقضاء والقدر، والدعوة إلى لفت النظر إلى الآيات النفسية والكونية، والنعم المحيطة بالإنسان.

القضية الثانية: الإخبار عن الماضي بما في ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم، وأخبار الغيب ـ غيب الحاضر والمستقبل ـ مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وأوحى به إلى رسوله ﷺ .

القضية الثالثة: التشريع للمسلمين الشامل للأحكام والآداب، وكذا شؤون السلم والحرب، وتربية وقيادة الطائفة المؤمنة، ودعوة ومواجهة الطائفة الكافرة.

هذه هي موضوعات القرآن الكريم التي دار حولها، فلم يكن القرآن شعراً، وليس رسول الله ﷺ بشاعر أبداً ـ كما زعم الكفار ـ بل هو كلام الله رب العالمين، الذي نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين.

وكما أن الله تعالى دافع عن نبيه ﷺ ودفع عنه تهمة الشعر، فكذلك ردَّ الله اتهام الكفار للنبي ﷺ بأنه كاهن [1] ، فقد زعم الكفار أن رسول الله ﷺ كذلك ، فردَّ سبحانه هذه التهمة بنفي ذلك عن رسول الله ﷺ ، وأمَرَ اللهُ رسوله باستمرار دعوته لقومه إلى الله ودوام تذكيرهم بالحق الذي جاء به، قال تعالى :

---

(١) الكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكاهنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار. انظر لسان العرب ١٣ / ٣٦٣ مادة كهن. وقال ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٢٧٧ : الكهانة: هي ادِّعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيه استراق الجن السمع من الملائكة فيلقيه في اذن الكاهن.

وقال الشوكاني في تفسيره ٥ / ١٤١ : الكاهن هو الذي يوهم انه يعلم الغيب من دون الوحي.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور : ٢٩] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : « أي اثْبُت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير.. والمعنى : ما أنت متلبساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوة بكاهن.. » (١)

وفي آية أخرى نفى سبحانه وتعالى أن يكون القرآن الذي أُوحي إلى رسول الله ﷺ من قول الكُهَّان ، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة : ٤١ – ٤٢] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « والمعنى : ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقَّاه من أحدهما ونسبَه إلى الله تعالى » (٢) .

وقال: « ..ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن..وذلك لأنه ـ أي القرآن ـ محتاج إلى أدنى تأمل؛ إذ قد يُشبه في بادئ الرأي على السامع ـ من حيث أنه كلام منثور مؤلّف على فواصل ـ كلام الكهان ، فهو على أسجاع مُثنَّاة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمُه مخالف لنظم كلام الكُهان، إذ ليست فقراته قصيرة، ولا فواصلة مزدوجة، مُلتزمٌ فيها السجع، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عمَّا يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يُلمُّ بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفياً عنهم التذكر والتدبر » (٣)

وكيف يمكن أن يكون النبي ﷺ كاهناً، أو أن القرآن الذي جاء به هو قول كاهن ورسول الله ﷺ قد أنكر على الكهنة أعمالهم، وأبطل ذلك، بل اعتبر الذهاب

---

(١) فتح القدير ٥ / ١٤٠-١٤١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير٢٩ / ١٤٢ .
(٣) نفس المرجع ص١٤٣ بتصرف واختصار يسيرين.

إليهم والتصديق لمزاعمهم من الكبائر التي قد يكفر صاحبها،فقد قال ﷺ : **(من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد)** (١)

وهكذا نفى الله عن نبيه ﷺ تهمة الكهانة وادِّعاء علم الغيب ـ التي ألصقها الكفار به ـ وكلَّفه أن يرد على الكفار بقوله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (١٨٨) ﴾ [الأعراف : ١٨٨] . وقوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ** ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

فقد أمره الله في الآيتين السابقتين بالإعلان للكفار أنه لا يعلم شيئاً من الغيب ـ إلا ما علّمه الله ـ .

وكما أن الله ـ عز وجل ـ قد دافع عن النبي ﷺ ، ودفع عنه تهمة الكهانة، فقد نفى عنه اتهام الكفار له بالكذب والافتراء على الله .

وهذا ما نعرض له في الفقرة التالية:

رابعاً: عند اتهام الكفار للرسول ﷺ بالكذب والافتراء على الله ـ عز وجل ـ :

ما برح الكفار يبحثون عن التهم الباطلة لإلصاقها بالنبي ﷺ ، ومن أشدّ هذه التهم زعمهم أن نبي الله كاذب في ادِّعاء الرسالة، وكاذب في تنزل القرآن عليه من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ فمما قالوه في شأن رسالته ما حكاه الله تعالى عنهم : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** (٤٣) ﴾ [الرعد :٤٣] ، ففي هذه الآية بيان تكذيب الكفار برسالة النبي ﷺ .

وفي آية أخرى ذكر الله ـ عز وجل ـ اتهام الكفار لرسول الله ﷺ بالكذب في

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ١ / ٨ عن أبي هريرة، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى٨ / ١٣٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥ / ١١٨ .

تنزل القرآن عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④﴾ [الفرقان : ٤] .

وفي موضع ثالث سجل القرآن الكريم افتراء أهل الكفر على رسول الله ﷺ وادّعائهم أن القرآن الذي أُوحي إليه إنما تعلمه من بشر مثله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ⑩③﴾ [النحل : ١٠٣] .

قال الشوكاني - رحمه الله -: « أي ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون إنما يُعَلِّمُ محمداً القرآنَ بشرٌ من بنى آدم غير مَلَك ، وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا . . » (١) ، ولا فائدة تتعلق بمعرفة من هو هذا الرجل الأعجمي، أو أولئك القوم الذين زعم الكفار أنهم أعانوا رسول الله ، على اختلاق القرآن الكريم (٢)

لكن الذي يهمنا أن الله تعالى دافع عن صدق محمد ﷺ في رسالته وتنزل القرآن عليه، ودفع عنه تهمة الافتراء والكذب على الله التي الصقها الكفار به فمن ذلك .

(أ) رد تهمتهم بأن النبي ﷺ تعلم من بشر، وبيان بطلان ذلك:

فقد ردَّ الله - عز وجل - زعمهم أن رسول الله ﷺ تعلم القرآن من بشر مثله، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله -: « أي القرآن . . فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن

---

(١) فتح القدير ٣ / ٢٧٩ .

(٢) ذكر الشوكاني في تفسيره ٣ / ٢٧٩ بعض الذين نسب إليهم الكفار تعليم رسول الله ﷺ القرآن منهم: جبر وهو غلام الفاكه بن المغيرة ، وكان نصرانياً فاسلم ، وقيل: هو يعيش عبد لبني الحضرمي ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل هما غلامان اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا يصنعان السيوف وكانا يقرآن كتاباً لهم ، وقيل كانا يقرآن التوراة والإنجيل ، وقيل غير ذلك.

في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ،كيف يتعلم ـ أي رسول الله ﷺ ـ من رجل أعجمي؟ ، لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل» (١) .

(ب) بيان علم الكفار بصدق النبي ﷺ والتأكيد على ذلك:

ومما ردّ الله به اتهام الكفار لرسول الله ﷺ بالافتراء على الله تقريره ـ سبحانه وتعالى ـ وتأكيده للنبي ﷺ أن الكفار يعلمون بصدقه ـ رغم كفرهم بما جاء به ـ كما قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ** (٢) **وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : «والمعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئتَ به» (٣)

وهذا ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فقد صحَّ " عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «لما نزلت: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** (٢١٤) ﴾ (٤) ، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: (**ياصباحاه**) (٥)، فقالوا: من هذا؟ ، فاجتمعوا إليه، فقال: (**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصدِّقي ؟**)، قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: (**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)، قال أبو لهب: تبّاً لك (٦)، ما جمعتنا إلا لهذا ، ثم قام، فنزلت: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** (١) **مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** (٢) **سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** (٣) **وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** (٤) **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** (٥) ﴾ [المسد] . وقد

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦٠٨ .

(٢) يُكذِّبونك: بالتشديد ، اي ينسبونك إلى الكذب، ويردون عليك ما قلته.
يَكذبون: بالتخفيف، اي لا يجدونك كذاباً. انظر: فتح القدير ٢ / ١٦١ .

(٣) فتح القدير ٢ / ١٦١-١٦٢ .

(٤) اورد البخاري في صحيحه ٤ / ١٩٠٢ إضافة بعد الآية نفسها نصها "ورهطك منهم المخلصين .

(٥) ياصباحاه: اي هجموا عليكم صباحاً.

(٦) تباً لك: اي خسارة وهلاك ودمار، انظر فتح الباري، ٨ / ٨٣٦، ٨٣٧ .

تبَّتْ . . » (١)

ودلت الآثار المتعددة الصحيحة على علم الكفار بصدق النبي ﷺ ، وتحدثهم وشهادتهم بذلك (٢) .

(جـ) شهادة الله لنبيه ﷺ بصدق رسالته وأمره بالاكتفاء بذلك:

ومما ردّ الله به اتهام الكفار للنبي ﷺ بالكذب والافتراء على الله أن شهد الله ـ عز وجل ـ للنبي ﷺ بصدق رسالته ، وما أوحى الله به إليه ، فقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٧٩] .

وأكد ـ تعالى ـ في موضع آخر أنه هو ـ سبحانه ـ الذي اصطفى نبيه محمداً ﷺ لإرساله بالهدى ودين الحق، قال ـ عز وجل ـ : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** (٢٨) **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ** ﴾ .

[الفتح : ٢٨ ـ ٢٩] .

وأمر الله رسوله ﷺ بالاكتفاء بشهادة الله له بصدق وحقيقة رسالته، وإعلام

---

(١) رواه البخاري في ١ / ١٩٠٢ في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة تبت يدا أبي لهب ، برقم ٤٦٨٧ ، وأخرجه ابن حنبل في مسنده١ / ٣٤٩ برقم ٢٥٤٣، والترمذي في جامعه٥ / ٤٢٠ برقم٣٣٦٣ .

(٢) ومما يدل على علم الكفار بصدق النبي ﷺ وتحدثهم بذلك ما يلي :

(أ) رواية البخاري بسنده في ١ / ٧ في كتاب بدء الوحي ، برقم ٧ عن ابن عباس ـ ﷺ ـ في قصة أبي سفيان ـ قبل الإسلام ـ مع هرقل أنه سأله "فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ ، فأجاب أبو سفيان بقوله: لا" .

(ب) ما رواه البخاري في ٣ / ١٣٢٩، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ؛ حيث ذكر ـ رحمه الله ـ حواراً جرى بين سعد بن معاذ وأمية بن خلف، وفيه: «فقال سعد ـ أي لأمية بن خلف : فإني سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك، قال : إياي؟ قال : نعم، قال : والله ما يكذب محمد إذا حدّث، فرجع إلى امرأته ـ أي أمية ـ فقال: أما تعلمين ما قال أخي اليثربي، قالت: وماذا قال؟، قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمدٌ، قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ ـ أي صوت المستصرخ وهو المستغيث ـ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ ، قال: فأراد ألا يخرج ، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي فسر يوماً أو يومين، فسار معهم فقتله الله » .

الكفار بذلك، قال تعالى في ختام سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد : ٤٣] .

ففي هذه الآية.. إعلام الله لرسوله ﷺ بأن طائفة من أهل الكتاب يعملون بصدق رسالة النبي ﷺ ويشهدون على ذلك، وأمرٌ لرسول الله ﷺ بالاكتفاء بذلك.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية السابقة: «أي يقول المشركون أو جميع الكفار لست يا محمد مرسلاً إلى الناس من الله، فأَمَرَهُ ـ سبحانه ـ بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فهو يعلم صحة رسالتي، وصدق دعواي، ويعلم كذبكم، ومن عنده علم الكتاب ، أي علم جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل، فإن أهلها العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ..» (١) (٢)

وقال شارح العقيدة الطحاوية في شرحه لعبارة: «وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى» : «فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين.. وما من أحد ادّعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز.. وهذا كله قد عصم الله منه رسوله محمداً ﷺ قبل النبوة وبعدها، فمن عرف الرسول ﷺ وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله عَلِم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن .." (٣) .

(د) أمر الله لرسوله ﷺ بتحدي الكفار بالمجيء بمثل القرآن أو بعضه:

وقد دفع الله عن رسوله ﷺ تهمة الكفار له بالكذب والافتراء على الله بأساليب متفاوتة ، منها ما سبق، ومنها ما ورد في أكثر من آية من أمر الله لرسول

---

(١) ومن هؤلاء من أسلم مثل: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، ونحوهم.

(٢) فتح القدير ٣ / ١٣٠ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٩-١٥٢، باختصار وزيادة يسيرة. لابن ابي العز الحنفي.

الهدى ﷺ أن يتحدى الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعضه ـ كعشر سور منه ـ أو جزئه ـ كسورة واحدة ـ فعجز الكفار عن كل ذلك.

والقرآن الكريم قد تحدي الكفار بذلك ؛ لأنهم أصحاب فصاحة وبلاغة وقد برعوا في ذلك وبلغوا مبلغاً عظيماً ، وعندهم رغبة المعارضة للقرآن الكريم والتحدي للنبي ﷺ ، ولا يمنعهم من ذلك شيء من خوف وغيره ـ ومع هذا كله عجزوا عن المجيء بمثل هذا القرآن ، والقرآن تدرج معهم في هذا التحدي، فطلب منهم أوّل الأمر الإتيان بمثل هذا القرآن ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء : ٨٨] . فعجزوا، ثم طلب منهم المجيء بمثل عشر سور منه، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود : ١٣]. فعجزوا، ثم تحدَّاهم بالمجيء ولو بسورةٍ واحدة من مثل القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس : ٣٨] ، فعجزوا عن ذلك كله.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة،...والتقدير: أيقولون افتراه،والاستفهام للتفريع والتوبيخ ، ثم أمره ـ سبحانه ـ أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم ، ويتبين ضعفهم، فقال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه فاتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة،فانتم مثله في معرفة لغة العرب،وفصاحة الألسن، وبلاغة الكلام،وادْعُوا بمُظاهريكم ومعاونيكم من استطعتم دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم..» [1] .

(١) فتح القدير ٢ / ٦٤٥ .

(هـ) إعلام الله لرسوله ﷺ أنه لو شاء تعالى لختم على قلبه، ولو تقوَّل رسول الله على ربه لمسَّه العذاب والهلاك:

لم يكن القرآن الكريم الذي جاء به محمد ﷺ إلا وحياً من عند الله ـ عز وجل ـ أوحى به إليه ، ونعمةً أنعم بها عليه وأكرمه به وجعله معجزة له ودليلاً على صدقه.

وفي هذا أعلم الله رسوله ﷺ في معرض ردّه على الكفار اتهامهم بكذب وافتراء رسول الله على ربه أنه تعالى لو شاء لسلب رسول الله ﷺ عقله وتفكيره ـ مادام يكذب على الله ـ، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى : ٢٤] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير: ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي: "سلبك العقل (١)... فتعجز عن الكلام عن الله، فلا تستطيع أن تتقول عليه ـ أي على الله ـ وليس ثمة حائل يحول دون مشيئة الله ذلك لو افتريتَ عليه..، والمعنى أن افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوا محمداً ﷺ العداء، فالله أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته، وبأن يذبَّ (٢) عن جلاله.. فإن الله لو شاء لختم على قلبك ، فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلاماً.." (٣)

---

(١) العقل هو: الحِجْر والنُّهي ضد الحُمق، والجمع عقول، ورجل عاقل هو الجامع لأمره ورأيه، والعقل: االتثبُّت في الأمور،.. وسُمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك اي يحبسه، وقيل العقل: هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان.. وعقل الشيء: فهمه، .. والعقل: الدية، وَعَقَلَ القتيل: وداه، اي دفع ديته، وعقل عنه: اي ادى جنايته، وذلك إذا لزمته دية فاعطاها عنه..، والمعقُلَةُ: الدية، والمعاقل: الديات ..، وعقيلة القوم: سيدهم وعقيلة كل شيء: أكرمه.. والعقل: القلب. انظر: لسان العرب ١١ / ٤٥٨-٤٦٢ بتصرف واختصار.

(٢) يذب: أي يدافع.. وذببت عنه: إذا دفعت عنه.
انظر: معجم مقاييس اللغة ٢ / ٣٤٨ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥) هـ، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط بدون، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥ / ٨٦ بتصرف واختصار يسير.

وقد أخبر القرآن أن النبي ﷺ لو تقوّل على الله غير ما أوحى به إليه لعجل بعقوبته، وأمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الكفار بذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الحاقة : ٤٤- ٤٨] .

وقال سبحانه آمراً نبيه ﷺ بإخبار الكفار بوقوع عذاب الله عليه إن كذب على الله ـ وعدم نفع المشركين له حينها: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [الأحقاف : ٨] .

قال ابن عاشور في تفسير الآية الأولى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ :

« وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله تعالى واسع القدرة وهو عليم، فلا يقرر أحد على أن يقول عنه كلاماً لم يقله، أي لو لم يكن القرآن منزلاً من عندنا، ومحمد ادّعى على أنه منزل منا لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه، فعدم هلاكه ﷺ دال على أنه لم يتقوّله على الله ، فإن ﴿ لَوْ ﴾ تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوانبها . . » (١)

وهكذا تولى الله عز وجل الدفاع عن النبي ﷺ وعمّا جاء به، ودحض اتهام الكفار للنبي ﷺ بالكذب والافتراء على الله ، كما دحض اتهامهم له عليه الصلاة والسلام بالجنون والضلال في عقله، والسحر والكهانة في قوله وفعله، كما أوضحتُ ذلك فيما سبق.

وكما أن القرآن الكريم قد سعى لتحقيق التربية الربانية القرآنية "نفسياً" للنبي ﷺ بتزكيته والدفاع ـ كما أسلفتُ ذكره ـ فقد سعى لتحقيق ذلك من خلال التثبيت الإلهي لرسول الله ﷺ ، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المبحث الثالث كما يلي .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٤٤-١٤٥ .

المبحث الثالث
التثبيـــت الإلهــي

تمهيـد :

لم تقتصر عناية المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بنبيه ﷺ نفسياً بعد النبوة على مسألة الضمانات أو البشارات المستقبلية ـ السابق ذكرها ـ، ولم تقتصر كذلك على تأييده بمعززات ربانية ـ كما سبق ذكره ـ ، لكن الله تعالى الذي تولى وحده تربية هذا النبي العظيم، قد أكرمه بعدة كرامات ربانية ، لعل من أهمها التثبيت الإلهي حتى لا تفتُرَ همَّته ﷺ في الدعوة إلى الله ، أو يُصيبه شيء من الضعف والوهن.

فقد ثبّته الله بعدة أمور نزل بها الوحي لتبقى قدمُ راسخة في طريق البلاغ المبين دون أن يتزعزع أو يتزحزح عن ذلك قيد أُنْملة لشدة ما يلاقيه من مكر الكفار وعداوتهم، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٤] .

وإذا كان المرء في المجتمع المسلم معرض لعدم الثبات على الحق لما يصيب القلوب من تقلب كما ورد في الأحاديث عن النبي ﷺ(١) ، فما بالنا بالنبي ﷺ

---

(١) روى ابن ماجة في سُننه في ١ / ٧٢ في المقدمة، باب: فيما انكرت الجهمية، برقم ١٩٩عن النواس ابن سمعان الكلابي انه قال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)، وكان رسول الله يقول: (يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبت قلوبنا على دينك) قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة ١ / ٦٩ : هذا إسناد صحيح.

انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للحافظ: شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الكناني البوصيري (٧٦٢-٨٤٠هـ) ، دراسة وتقديم: كمال يوسف الحوت، دار الجنان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ، بيروت ، لبنان ، والكتاب يقع في مجلدين.

وانظرسنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمدبن يزد القزويني(٢٠٧-٢٧٥هـ)،تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي،دارالريان للتراث،مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط(بدون) دت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

وهو يعيش في مجتمع الكفر ـ وخاصة في المرحلة المكية ـ ويواجه من المكر والدهاء، والبطش والإيذاء، والفتنة والإغراء، ما لا ينفع معه إلا دوام عناية الله وتثبيته للنبي ﷺ ،وذلك بتكرار التقائه بجبريل ـ عليه السلام ـ ودوام تنزل الوحي عليه، واستعراض قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وبيان بعض الحقائق المتعلقة بالدعوة وما يتصل بها، واستمرارية تعاهد الله لنبيه ﷺ بكثير من الوصايا والمواعظ والتوجيهات التي تحقق له الثبات.

ورحم الله سيد قطب القائل عن المشركين ومحاولاتهم التي بذلوها لفتنة النبي ﷺ : "لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى.. منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء...

والنص يشير إلى هذه المحاولات ـ ويقصد بالنص قوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الإسراء : ٧٤] ، ليذكر فضل الله على الرسول ﷺ في تثبيته على الحق وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله " (١)

والثبات الذي يعني: « عدم احتمال الزوال بتشكيك المشكّك » (٢) بالقول والفعل، قد تحقق للنبي ﷺ في حال الأمن والطمأنينة والسلم ، وفي حال الخوف

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٤٥ .

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ١ / ٥٣٦ للعلامة: محمد على التهانوي المولود في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، وثبت أنه كان حياً حتى عام ١١٥٨هـ كما في مقدمة الموسوعة، تقديم: د. رفيق العجم، تحقيق: د. على دحرج، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

والشدائد والحرب، وقد كان ﷺ يكثر من الدعاء بذلك قائلاً: **(يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك..)** (١)

وكان من دعائه ﷺ : **(رب أعني ولا تُعن عليَّ..رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي..)** (٢)

وقد حقق الله الثبات لنبيه ﷺ على أحسن وجه وأكمله، وبعدة أساليب وصور، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المطالب الأربعة التالية .

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ٥ / ٥٠٣ برقم ٣٥٢٢، والحاكم في مستدركه ٢ / ٢٧٨ وأخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة / ١٠١ برقم ٢٢٥ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ونص الحديث «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: (**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**) قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فما تخاف علينا ؟ ، فقال: (**نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها**). وفي رواية بزيادة: (**كيف يشاء**) » .
وقال الألباني في ظلال الجنة في تخريج الحديث السنة ١ / ١٠١ : حديث صحيح.
انظر: كتاب السُّنَّة للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت٢٨٧)هـ بتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني،المكتب الإسلامي،ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت،لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

(٢) أخرجه الترمذي في ٥ / ٥١٧ برقم ٣٥٥١، وأبو داود في سننه ٢ / ١٧٥ برقم ١٥١٠ ، ورواه الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٢ /٧٦٦ في كتاب الدعوات، باب: جامع الدعاء، الفصل الثاني، برقم ٢٤٨٨، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسكت عنه الألباني في تحقيقه للمشكاة.
انظر: مشكاة المصابيح للشيخ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، (ت بعد عام ٧٣٧) هـ تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.

المطلب الأول

شرح قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم

قص (١) القرآن علي النبي محمد ﷺ كثيراً من قصص الأنبياء والمرسلين السابقين مع أقوامهم لعدة حِكم.

وقد تنوعت قصص القرآن الكريم من حيث الطول والقصر فمنها « القصير، ومنها المطوَّل، ومنها القصة متوسطة الطول ذات المشهد الواحد أو المشاهد القصيرة، ومنها القصة المطولة ذات المشاهد الكثيرة والعرض المنوع المكرر لعدة أهداف.. » (٢)

والقصص القرآني له مميزات وخصائص تميز بها عن غيره من القصص، ومن هذه المميزات:

أولاً: أنه هو القصص الحق والصدق والصواب: لأن الذي يقصها على محمد ﷺ هو الله الحق -عز وجل- المطَّلع عليها المقدر لها، العالم بتفاصيلها، ومَن أصدق من الله قيلاً؟، قال تعالى - بعد أن ذكر قصة عيسى بن مريم عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران : ٦٢]، وقال في سورة الكهف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣].

---

(١) القص هو: تتبع الأثر، والقصص هو الأثر وهو الأخبار المتتابعة. انظر المفردات للراغب الأصفهاني ص٤٠٤ .

(٢) مثال القصة القصيرة قصة إلياس مع قومه في سورة الصافات، ومثال المتوسطة قصة سليمان مع الهدهد والنملة وملكة سبا ، ومثال القصة الطويلة قصة يوسف في سورة يوسف (كلها في موضع واحد) وقصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل في عدة مواضع مطولة مكررة منوعة، انظر: « مع قصص السابقين في القرآن » ص١١، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، طبعة دار القلم، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، دمشق، سوريا.

ثانياً: ومن خصائص القصص القرآني: أنه أحسن القصص كما قال تعالى في سورة يوسف للنبي ﷺ : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [يوسف :٣]، فقصص القرآن من أحسن القصص ؛ لأنها : « تقدم البشرى والأمل للمكروبين وأصحاب الابتلاءات والمحن ، والذين يعانون آلام الاضطهاد والفتنة » [١]

"ووصف القصص بالحُسن ، ليس لأنها تتوسع في التفصيلات ، وتكثر من سرد الأحداث ،وتحدد الأسماء والأماكن ...إنما لأن فيها الحق والصدق والصواب"[٢]، والعظة والعبرة ، والمتعة والاستئناس.

ثالثاً: ومما تميزت وانفردت به القصة القرآنية أنها:" غير مقصودة لذاتها ، إنما هي لمعالجة وضع اجتماعي عقدي أو اخلاقي أو دعوي .. أو لمعالجة وضع شخص قد يتعلق بحالة نفسية أو فكرية أو سلوكية وغير ذلك ، وهي لا تُعني من حقائق التاريخ إلا بالقدر الذي يؤدي الدور الأساسي المقصود من البيان القرآني ... فالمقصود من قصص القرآن يختلف باختلاف متلقيه ، فهو للرسول تثبيت وتصديق،وهو للصحابة تثبيت وتبشير،كما قال الله تعالى:﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهو للمؤمن تذكرة وعظة،وللغافل تحذير ووعيد وإنذار وإعذار..[٣].

رابعاً: ومن مميزات القصة القرآنية أنها : تقوم على حقائق الأحداث ، فلا خيال فيها ولا أساطير ولا خرافات ، كما قال تعالى في شأن قصة يوسف عليه السلام ، بعد أن سرد في شأنها ما يقرب من مائة آية: ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف:١١١].

---

(١) مع قصص السابقين في القرآن لـ د/ صلاح الخالدي ص٢٠ .

(٢) نفس المرجع ص٢١ .

(٣) البيان القصصي في القرآن الكريم ص١١١-١١٢ بتصرف وزيادة يسيرة، د. إبراهيم عوضي، دار الأصالة، ط ٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م الرياض، السعودية.

خامساً: ومن مميزات القـــصة القرآنية أنها : ليست سرداً تاريخياً يحكي أحداث التاريخ ووقائعه دون التفات إلى أهداف أخرى ، بل إن النص القرآني يتخير الحدث الذي يخدم ما يتعرض له من قضايا ، ليقدمه في سياق مناسب، من خلال القالب القصصي (١) ـ أحياناً بذكر الأسماء والأماكن ،كما في قصة عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ في سورة آل عمران (٢) ، وهذا نادر في أسلوب القرآن ،وأحياناً بدون ذكر الأسماء كما في سورة الكهف في قصة أهل الكهف (٣) . وغيرها ـ وهذا هو الغالب ، وهذا يعني عدم الحاجة لدراسة ما أغفله القرآن ، أو لم يذكره من أسماء وأماكن وهيئات وغير ذلك ؛ لأن العبرة لا تتعلق بالأشخاص بل بالحدث.

والقصة القرآنية قد تتكرر في أكثر من موضع؛ فقد تكون مجملة في موضع ، ومفصلة في غيره ، حسب الحاجة والحكمة من ذلك ، كما في قصة نوح مع قومه حيث أُجملت في سورة الأعراف (٤) ، وفُصِّلت في سورة هود (٥) لمناسبة السياق لذلك ، ويبرز في كل موضع جانب من القصة هو موضع العظة والعبرة.

والله عز وجل قد قصَّ على نبيه ﷺ من القصص الشيء الكثير كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [طه : ٩٩] .

وقال في موضع آخر: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

(١) انظر: البيان القصصي ص١١٦، د. إبراهيم عوضي
(٢) في سورة آل عمران تذكر القصة أسماء من بُشر بولادتهم كمريم ابنة عمران، وعيسى ابن مريم، والكافل لمريم وهو زكريا ، وبُشر بولد اسمه يحي ـ عليهم جميعاً سلام الله ـ.
(٣) لأن الغاية من القصة تحتاج لذكر بعض صفاتهم أكثر من احتياجها لأسمائهم وبلدانهم بالتفصيل، انظر البيان القصصي ص١١٦ .
(٤) الآيات : ٥٩-٦٤ .
(٥) الآيات : ٢٥-٢٨ .

وقال في موضع ثالث: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ [هود : ١٠٠] ، وكل هذه القصص تعتبر مظهراً من مظاهر رحمة الله بنبيه ﷺ وفضله عليه .

قال أبو حيان الأندلسي (١) **في البحر المحيط ، في تفسير:** ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي: " أعطيناك من عندنا قرآناً يُتلى منطوياً على المعجزات الباهرة، امتن عليه بإتيانه الذكر المشتمل على القصص والأخبار..." (٢)

والقران الكريم لم يذكر للنبي ﷺ قصص جميع الأنبياء والمرسلين ، بل بعضهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]، "أي ذكرنا لك قصصهم وأخبارهم في القرآن وهم خمسة وعشرون ،ومنهم لم نقص عليك أي لم نذكر لك قصصهم في القرآن"(٣).

وعند التأمل في قصص القرآن نجد أن: " أحداثها كلها تقريبًا تدور في محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ... ولذلك كانت دعوة الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني بحيث ساغ أن يسمى القرآن باسم صاحب الدعوة، فيقال: قصة يوسف، وقصة موسى ، وقصة يونس ، ... وهكذا" (٤)

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي ، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، ولد بغرناطة سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية ، إمام العربية في عصره، مفسر ومحدث ومؤرخ ومقرئ، اشتهر اسمه وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، .. مات بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجرية . من تصانيفه : «البحر المحيط في التفسير » ، و « النهر» مختصر التفسير، وغيرها.
انظر: طبقات المفسرين ٢ / ٢٨٦ لمحمد بن علي الداودي (ت٩٤٥هـ)، و: طبقات المفسرين ص٢٧٨ وما بعدها لأحمد بن محمد الأدنهوي (من علماء القرن الحادي عشر).

(٢) البحر المحيط: ٦ / ٢٧٨ .

(٣) حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ٤ / ١٦، للشيخ أحمد الصاوى المالكي، دار إحياء التراث العربي، ط (بدون) د.ت بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبد الكريم الخطيب، ص٤٥-٤٦، مطبعة السُّنَّة المحمدية، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، القاهرة، مصر.

وقد تضمنت الآيات التي خاطبت محمداً ﷺ عن الأنبياء السابقين الحديث حول ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم من عداء وسخرية واستهزاء وتكذيب، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

[الأنعام : ١١٢] (١)

وقال ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠] (٢)،وقال تعالى في موضع ثالث: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فاطر : ٢٥] (٣) .

ثم قررت الآيات إن كل ما يلقاه النبي ﷺ من قومه من مطاعن وشبهات وغيرها قد قيل لمن سبقه من المرسلين، كما في قوله سبحانه : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت: ٤٣].

« أي: ما يقال لك من التكذيب إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك.. والآية فيها شروع لتسلية النبي ﷺ على ما يصيبه من أذية المشركين » (٤) .

والخلاصة كما قال أبو السعود (٥) في تفسير لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ

---

(١) وفي سورة الفرقان آية ٣١: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

(٢) وفي سورة الرعد ٣٢: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، وانظر: [سورة الأنبياء: ٤١] .

(٣) وفي سورة الحج آية ٤٢: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين المسماه بالفتوحات الإلهية ٤ / ٤٥ للشيخ سليمان الجمل، دار إحياء التراث العربي، ط «بدون» د.ت، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

(٥) هو الإمام العلامة المولى أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، مفسر، شاعر، ولد بقرية قريبة من قسطنطينية عام ٨٩٨هـ واجتهد في التعلم والتحصيل، كان حاضر الذهن سريع البديهة، أفتى سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة هجرية بعد ان توفي أمير خان، كما تقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم إيلي، توفي عام ٩٨٢هـ ،ودفن جوار أبي أيوب الأنصاري، هو صاحب التفسير المسمى بـ« إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » ، وله (تحفة =

برُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ . قال : " والمعنى أن ذلك الاستهزاء ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطَّرد ، قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك" (١)

وآيات القرآن الكريم توحي بأن الأمم الكافرة قد اتفقت على اتِّهام الأنبياء والمرسلين بالسحر والجنون كأنما تواصَوْا بذلك ، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٢-٥٣] .

وهكذا ذكر الله لنبيه ﷺ قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، ودعاه للاقتداء بأولئك الرسل واقتفاء آثارهم، فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

« قد أمر الله ـ سبحانه ـ عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يقتدي بإخوانه أولي العزم (٢) من الرسل في الصبر ، وذلك عندما قابله قومه بأنواع الأذى والتكذيب والإعراض» (٣)

وبيَّن له أن عاقبة هؤلاء الكفار ـ دائماً ـ إلى زوال،كما في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد :٣٢] (٤) ، حيث" ذكر لرسول الله ﷺ سنته تعالى فيمن سبقه من

= الطلاب» و« رسالة المسح على الخفين» .
انظر : شذارت الذهب٨ / ٣٩٨ لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي .

(١) تفسير أبي السعود ٥ / ٢٤

(٢) هم: نوح وإبراهيم وموسى ، وعيسى وآخرهم محمد ﷺ ـ على قول بعض أهل العلم ـ .

(٣) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب الديلمي ٢ / ٨٥٢، رسالة دكتوراه، دار المجتمع، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ، جدة، السعودية، والكتاب يقع في مجلدين.

(٤) وكما في قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٠١ ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ، ونحو ذلك في سورة الأنبياء٤١ ، ومريم ٩٨، وغافر ٥ .

الرسل وأتباعهم ، وأنهم ظفروا بحسن العاقبة والنصر على الأعداء بسبب ما تحلَّوا به من التقوى والصبر.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة : ٢٤] (١).

وهناك آيات كثيرة حضَّت النبي ﷺ على الصبر على قومه (٢) تسليةً له وتثبيتاً لفؤاده.

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود : ١٢٠] .وقد وردت هذه الآية في نهاية سورة هود بعد أن بيَّن الله لنبيه ﷺ - بالتفصيل - قصص بعض من سبقه من الأنبياء والرسل مع أقوامهم وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى - عليهم السلام - حيث نزلت هذه السورة في المرحلة المكية عندما لاقى النبي ﷺ من قومه ما لم يحصل له قبل، وعندما كان ﷺ يشكو قلة الأنصار، وأذى الكفار له - وخاصة بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة - رضي الله عنها - وقد كانا السند العظيم له بعد الله سبحانه وتعالى - ففي مثل هذه الظروف الحرجة، والشدة التي لقيها النبي ﷺ في حياته في عام الحزن (٣) يثبت الله نبيه ﷺ بذكر قصص بعض من سبقه من المرسلين.

وكما قال الطاهر بن عاشور: "وتثبيت فؤاد الرسول ﷺ : زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله - أي من النصر - ، لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء

---

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب الديلمي ٢ / ٨٥٢ .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة ص، آية ١٧ : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) ﴾ ، ونحوها في سورة الأحقاف، آية٣٥، وهود آية ١١٥، والنحل آية١٢٧، والروم آية ٦٠، والحجرات آية٣٩، وغافر آية ٥٥، ٧٧، والقلم آية٤٨ وغير ذلك.

(٣) سُمّي كذلك لموت زوجة النبي ﷺ وعمه في نفس العام ، فحزن رسول الله ﷺ أشد الحزن، انظر الرحيق المختوم ص١١٥ .

وأحوال الأمم يزيده تذكُّراً وعلماً بأن حاله جار على سُنن الأنبياء ـ الذين سبقوه بالدعوة إلى الله ـ وأن عاقبته النصر على أعدائه، وبهذا تتجدد تسليته على ما يلقاه من قومه من التكذيب فيزداد صبراً . . " (١)

وقال صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[هود : ١٢٠] ، «ولما أخبر ـ سبحانه ـ ما فعَل بالقرى الظالمة . . عطف بقوله : ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ ﴾ ، أي ونقص عليك كل نبأ ـ أي خبر ـ عظيم جداً ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ مع أممهم . . ما نثبت ـ أي تثبيتاً عظيماً ـ ﴿ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي فيسكن في موضعه ويطمئن ، أو يزداد يقينه . . . وبهذا تبين أن المراد بذلك هو التسلية ؛ لأن المشاركة في الأمور الصعبة تُهوّن على الإنسان ما يلقى من الأذى، والإعلام بعقوبات المكذبين فيها تأنيس للمكروب» (٢)

وهكذا فإن القرآن الكريم قد عرض للنبي ﷺ قصص بعض الأنبياء مجملة ومفصلة، مطوّلة، وقصيرة، فلا تكاد تخلو سورة منْ السبع الطوال (٣) أو المئين(٤) أو المثاني(٥) من ذكرٍ لقصة نبي مع قومه، بل لقد اشتملت بعض سور المفصّل (٦)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير١٢ / ١٩٢ بتصرف واختصار يسيرين

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٩ / ٤٠٣-٤٠٤ للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، القاهرة، مصر. والكتاب يقع في اثنين وعشرين مجلداً.

(٣) الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة قيل الأنفال وبراءة معاً، وقيل يونس.

(٤) المئين: هي التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

(٥) المثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات وسميت بذلك ؛ لأنها تُثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.

(٦) المُفصَّل: هي ما ولي المثاني من قصار السور، سمي بذلك لكثرة الفواصل التي بين السور بالبسملة، وقيل لقلة المنسوخ فيه.
وقد اختُلف في أول المفصل على أقوال: فقيل أوله ق، وقيل أوله الحجرات.
قال النووي : « ورجح ابن كثير القول الأول ودلل على ذلك . . ثم قال: "فتعين أن أوله سورة ق، وهو الذي قلناه ولله الحمد » .

على قصص بعض الأنبياء (١)

وما أكثر القصص في القرآن الكريم ، وخاصة في السور المكية التي نزلت في العهد المكي ، حيث شدة حاجة النبي ﷺ والصحابة للاستئناس بمن سبقهم على طريق العبادة لله والثبات على الصراط المستقيم، والدعوة إليه، بل إننا نجد أن القرآن الكريم قد أفرد سورة بكاملها وخصص منها مائة آية تقريباً لذكر قصة نبي من الأنبياء أشبه حالاً بالنبي ﷺ من حيث افتقاد الأبوين حال الصغر، والغربة عن الوطن، وغير ذلك.

وهذه السورة هي سورة يوسف عليه السلام التي ذكَرت قصتَه كلَّها بتفاصيلها في نفس السورة دون تفريقها في سور القرآن، كما في قصص كثير من الرسل.

فقد ذكرت له قصة يوسف عليه السلام (٢) . وما ابتُلي به من ابتلاءات بين إخوته صغيراً، ثم ما يتعلق ببيعه في السوق وهو من سلالة الأنبياء، ثم استخدامه في

= وللمفصل طوال: من (ق) إلى (البروج)، وأوساط : من(الطارق) إلى (لم يكن)، وقصار: من (الزلزلة) إلى (الناس).
انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم. د. محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة ، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، القاهرة ، مصر ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٣٥ .

(١) مثل سورة نوح، والنازعات، والشمس، وغيرها من السور..

(٢) ذكر سيد قطب في الظلال٤ / ١٩٤٩أن سورة يوسف نزلت عام الحزن،ولم يدلل على ذلك،ولم نجد من قال بهذا القول سواه(على حد علمي)، ولعل سيد قطب جانب الصواب في ذلك-رحمه الله -لأن ابن كثير -رحمه الله - في تفسيره ٢ / ٤٨٣ ذكر أن سبب نزول السورة فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ وأورد ابن كثير عدة روايات نحواً من ذلك.
وأما عام الحزن الذي ذكره سيد قطب فالمقصود به العام الذي مات فيه عم النبي ﷺ أبو طالب وزوجته خديجة سنة عشر من النبوة بعد الخروج من الشعب ، وتعرض رسول الله ﷺ للرمي بالحجارة في الطائف.
انظر: إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع١ / ٢٧ لتقي الدين المقريزي ، تصحيح وشرح: محمود محمد شاكر، دار الأندلس، ط «بدون» د.ت، جدة ، السعودية، والكتاب يقع في مجلدين.، وانظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص١١٥ وما بعدها.

القصر ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [١] ، ثم مراودة سيدته له على فعل الفاحشة بها مع كمال طهارته ﷺ ونزاهته، وتهيئ الأسباب لذلك من: عزوبته ، وغربته، وجماله، وجمال سيدته، وتهيئتها الزمان والمكان والذات له ، بل ودعوتها له.

ثم ما تلى ذلك من اتهام له بالفاحشة بغير حق، ثم محنة سجنه لعدة سنوات، وغير ذلك، وفي نهاية القصة ذَكَرت السورة حُسْنَ عاقبته وجزائه على صبره ـ عليه سلام الله ـ .

تتنزل هذه السورة على قلب النبي محمد ﷺ مُبْتدئة بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣] ، وفعلاً إنها من أحسن القصص ، فما سمعها مهموم ولا مكروب إلا خفّت كربته وسلا خاطره وهدأ حاله.

ثم في نهاية هذه السورة يختمها الله عز وجل بمخاطبة النبي ﷺ قائلاً له: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢]. ثم قال له: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣] .

ثم خاطبه في آخر آية منها قائلاً سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١]

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في مقدمة تفسير هذه السورة، عند الحديث عن موضوعاتها: "ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله ﷺ ،

---

(١) لما رواه البخاري ٣ / ١٢٤٠ في كتاب الانبياء، باب قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ برقم ٣٢١٠ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ انه قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام) .

وتهوين أمر المكذبين على نفسه.." (١)

وبهذا حقق القرآن ـ عبر قصصه ـ مزيداً من التثبيت الإلهي للنبي ﷺ ، ووجه هذا التثبيت الإلهي لرسول الله ﷺ في قصص القرآن يتضح من خلال عدة استنباطات من آيات القرآن كما يلي:

(أ) إقرار أهل الكتاب لحقيقة ما يسرده عليهم رسول الله ﷺ من قصص أنبيائهم وعدم إنكارهم لذلك :

فقد ذَكَرَ القرآن الكريم قصص بعض أنبياء أهل الكتاب مع أقوامهم ، وتلا رسول الله ﷺ ذلك أمام أهل الكتاب ـ ممن عندهم علم به ـ العالمين بتاريخ بعض أنبيائهم السابقين مع أقوامهم ـ ابتداءً بإبراهيم عليه السلام وانتهاءً بعيسى عليه السلام ـ مع ذكر بعض التفاصيل الدقيقة لما حصل لهم مع أقوامهم ـ مما فيه عظة وعبرة ـ دون أن ينكر أحد من أهل الكتاب الذين عاشوا في زمن رسول الله ﷺ وعلموا نبوته والتقوا به شيئاً من ذلك ، ودون أن يُخَطِّئوا رسول الله ﷺ في حدث أو قول قاله عن قصص أنبيائهم الذين أرسلهم الله إلى أجداد أهل الكتاب.

كل هذا دليل على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به هو الحق، كما قال تعالى في قصة طالوت : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢٥٢] .

وقال في قصة خلق عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ :﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقال في شأن قصة ـ ابنى آدم ـ :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧] .

ولا شك أن هذا كله مع إذعان أهل الكتاب لما قاله رسول الله ﷺ عن أنبيائهم يزيده ثباتاً ويزيد المؤمنين يقيناً بنبوته، ويزيل الشك من نفوس غيرهم.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : "..وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم:

(١) في ظلال القرآن ٤ / ١٩٦٦ .

المسلمون، واليهود والنصارى وغيرهم، اتفقوا على أن الرسول لابد أن يكون صادقاً معصوماً فيما يبلغه عن الله .. " (١) .

(ب) تذييل القرآن الكريم في نهاية بعض القصص الخاصة بأنبياء أهل الكتاب بالتأكيد على نبوة رسول الله ﷺ :

فقد ورد في بعض قصص أنبياء أهل الكتاب التي سردها القرآن الكريم، ورد في آخر الآيات تأكيدُ الله عز وجل لرسوله ﷺ انه مرسل من عند الله حقاً كقوله تعالى ـ بعد ذكره لقصة طالوت مع قومه من بني إسرائيل ـ : ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٢] ... وفي هذا التأكيد بـ (إن) و (لام التأكيد) إنكار على موقف الكفار من رسالته، وتعريض بمن يشكك فيها.

كما قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ قال: " يُفهم من تأكيده هنا بإن واللام أن الكفار ينكرون رسالته كما تقرر في فن المعاني.. " (٢)

وبهذا يتضح لنا تثبيت الله لرسوله ﷺ من خلال قصص القرآن ذات العظة والعبرة.

كما ان تثبيت الله لرسوله ﷺ قد تحقق من خلال إنزال القرآن مُنَجَّماً عليه، وهذا ما أذكره بالتفصيل في المطلب الثاني كما يلي .

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١ / ١٤١ لشيخ الإسلام ابي العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨)هـ تحقيق وتعليق: د. على بن حسن بن ناصر، وآخرون، دار العاصمة، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، الرياض، السعودية، والكتاب يقع في سبعة مجلدات.

(٢) أضواء البيان ١ / ١٩٤ .

المطلب الثاني

إنزال القرآن منجّماً (١) على النبي ﷺ

مما لا شك فيه أن القوم الذين كان يدعوهم النبي ﷺ إلى دين الحق قد طُبعوا على صلف وعناد، وشدة عداوة للنبي ﷺ والحق الذي جاء به.

ولهذا فلا عجب أن ينزل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ مفرَّقاً ـ خلال سنوات الرسالة ـ تثبيتاً لقلبه، وتسليةً له، وتدرجاً مع الأحداث والوقائع التي عايشها النبي ﷺ مع الكفار، وتيسيراً لحفظ آيات القرآن، ورحمة بالصحابة حتى لا تنزل التكاليف جملة واحدة ، فيشق عليهم العمل بها، كما أن لنزول القرآن مفرقاً أثر عظيم في تربية رسول الله ﷺ والصحابة الكرام من خلال الأحداث والوقائع.

والقرآن الكريم قد مر بمرحلتين في نزوله ـ على الراجح (٢) . كما يظهر لنا من خلال رواية ابن عباس التي أخذ بها الجمهور .

---

(١) منجماً: اي مقطعاً ومفرقاً. لسان العرب ١٢ / ٥٧٠ .

(٢) ذكر السيوطي في الإتقان في علوم القرآن ثلاثة اقوال رئيسية في كيفية إنزال القرآن من اللوح المحفوظ:

«إحداها: وهو الأصح والأشهر أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجماً.

ثانيها: أنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر ، وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السَّنة، ثم أُنزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة.

ثالثها: أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات».

«وقد رجح ابن حجر القول الأول ، وقال في فتح الباري ٩ / ٤ : «وهو الصحيح المعتمد» .

وانظر: تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن ص٧٤-٧٥، بقلم: محمد بن عمر بن سالم بازمول، دارالهجرة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، الرياض ، السعودية.

فقد أخرج ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ [القدر: ١] (١)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ـ وهذا هو النزول الأول ـ، ثم نزل مفصّلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سَنة على رسول الله ﷺ "(٢). وهذا هو النزول الثاني المفرق.

وفي رواية أخرى لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: "أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض" (٣).

وهكذا شاءت حكمة الله ـ عزوجل ـ بتنزل القرآن الكريم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: نزول كُلي، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة القدر جملة واحدة لحكمة يعلمها الله (٤)

المرحلة الثانية: نزول جُزئي من بيت العزة من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ مفرقاً ومنجّماً خلال سنوات الرسالة التي استمرت ثلاثًا وعشرين سنة.

وفي هذا ذكر السيوطي ـ رحمه الله ـ: " أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأقل وأكثر" (٥)

وكان أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ صدر سورة العلق كما ثبت في

---

(١) ونحوها في قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٨٥: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، ونحوها في سورة الدخان آية ٣: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٦٦.

(٣) أخرجه الحاكم في ٢ / ٥٣٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وذكره الربيع بن حبيب في مسنده ١ / ٨.

(٤) ذكر السيوطي في الإتقان ١ / ١١٨: "أن الحكمة من إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا: تفخيم أمره وأمر من نزل عليه..، ثم نسب إلى السخاوي-رحمه الله- حكمة نزول القرآن جملة وهي تكريم بني آدم، وتعظيم شانهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر الله سبعين الفاً من الملائكة ان تشيع سورة الانعام..الخ".

(٥) الإتقان في علوم القرآن ١ / ١٠٧ للسيوطي.

الحديث الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: " أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم.. وذكَرَت الحديث . .إلى أن قالت: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: ﴿ اقْرأْ ﴾ قال رسول الله ﷺ فقلتُ: (ما أنا بقارئ) (١) ، **فأخذني فغطني (٢)، حتى بلغ مني الجهد**(٣) **ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرأْ ﴾ فقلتُ: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني (٤) فقال: ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② ﴾ حتى بلغ: ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾** [العلق : ١ ـ ٥] " (٥).

وهكذا ابتدأ تنزل القرآن من بيت العزة في السماء الدنيا إلى النبي ﷺ منجماً بتدرج وحكمة شاءها الله ـ عز وجل ـ ، وسأل عنها الكفار فقالوا: **﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾** ـ فرد الله عليهم قائلاً سبحانه ـ : **﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ㉜ ﴾** [الفرقان : ٣٢] .

قال صاحب فتح البيان في مقاصد القرآن في تفسيره للآية السابقة: " هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم ، أي: هلاً أنزل الله عليه الكتاب دفعة واحدة غير منجم.. وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة ؛ لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقاً، مع أن للتفريق فوائد؛ منها:

- أن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوصًا على المعنى.
- كما أن له تأثيراً بالغاً في النفوس حين ينزل ليعالج حادثة معينة، أو يجيب على سؤال معين.

---

(١) ما أنا بقارئ: أي لا استطيع القراءة "لأنه امي" ﷺ .
(٢) فغطني: أي عصره بشدة وكبسه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئاً.
(٣) الجهد: أي غاية وُسْعي.
(٤) ارسلني: أي اطلقني .
انظر: صحيح البخاري بشرح د. مصطفى ديب البغا١ / ٣ .
(٥) رواه البخاري في١ / ٤ في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، برقم٣، واخرجه مسلم في ١ / ١٣٩ برقم ١٦٠ .

▪ ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم ، فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة قلبه ﷺ .

▪ ولأن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يقرؤون ويكتبون، والقران نزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ.

▪ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب سؤال.. ففرقناه ليكون أدْعى لرسول الله ﷺ وأيسر للعامل به" (١)

وقال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة أي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

قال والمعنى: " هلاَّ نزل على محمد القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام جملة واحدة، فقال الله ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ، أي تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء، لنثبت به فؤادك ، ومعنى ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي: لنصحح به عزيمة قلبك، ويقين نفسك، ونشجعك به، ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أي: وشيئاً بعد شيء علمناكه حتى تحفظه ، والترتيل في القراءة هو الترسل والتثبت (٢) " (٣) .

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٦ / ٤٣٧ بزيادة يسيرة، للعلامة صديق حسن خان (١٢٤٨م) ومكتبة أم القرى، ط «بدون» ، د.ت، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري ٨ / ٣٨٦ .

(٣) ذكر د. محمد لطفي الصباغ في كتابه لمحات في علوم القرآن ص٥٨-٦٦ عدة حِكم لتنجيم القرآن هي باختصار:

[١] تثبيت فؤاد النبي ﷺ .

[٢] تسهيل حفظه وفهمه على الرسول والمسلمين.

[٣] موالاة تقريع الكفار بالحجة بعد الحجة.

[٤] استغلال الحوادث والوقائع للرد على المشركين وفضح المنافقين .

[٥] تعميق التأثير في النفس والتذكير.

[٦] رعاية المجتمع الإسلامي والأخذ بيده في الحياة الجديدة على ضوء هداية الله .

=

إذاً فلا شك أن تنزل القرآن مفرقاً على النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً يعني تجدد نزول الوحي عليه، أي تكرار لقائه ﷺ بجبريل عليه السلام. وفي هذا مزيد تثبيت له (١) وعناية به ؛ فرسول الله ﷺ في دعوته لقومه لقى منهم " نفوراً وقسوة، وهم قوم غلاظ الأكباء، فُطِروا على الجفوة، وجُبِلُوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت مع رغبته الصادقة في إبلاغ الخير الذي يحمله إليهم " (٢) .

وهكذا ثبَّت الله رسوله ﷺ بتنزل القرآن عليه منجماً ، وثبته أيضاً ببيان بعض الحقائق المتعلقة بموقف الكفار منه ﷺ وموقفه منهم ـ في مجال الدعوة إلى الله ـ وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المطلب الثالث .

= [٧] إثبات الإعجاز من وجهين:
(أ) كون القرآن محافظًا على المستوى الرفيع في البيان والدرجة العالية في البلاغة.
(ب) كون الآيات نزلت في أوقات متباعدة ولأسباب مختلفة ، ومع هذا بدت موضوعات السورة متماسكة.
انظر : لمحات في علوم القرآن ، د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ، بيروت، لبنان.

(١) وذكر الزرقاني في مناهل العرفان ١ / ٥٣-٦٢ عدة حكم من تنزل القرآن منجماً على النبي ﷺ منها: باختصار :
[١] تثبت قلب النبي ﷺ من خلال:
(أ) تجدد الوحي عليه، وتكرار ذلك، فينشرح صدره بتعهد مولاه إياه.
(ب) تيسير حفظه وفهمه، ومعرفة أحكامه وحكمه، وتقويةً لنفسه على ضبط ذلك كله.
(جـ) تجدد معجزات القرآن في بلاغته وفصاحته، ويقابل هذا عجز الكفار عن معارضته ، فيشتد أزر النبي ﷺ .
(د) تعهد الله لرسوله ﷺ عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه ... في أوقات معينة فيجيء القرآن تسلية له بذكر قصص السابقين من الأنبياء والمرسلين، ودعوة رسول الله ﷺ إلى الصبر، وتبشيره بالنصر، والحفظ والعصمة من أن يحول الكفار بينه وبين دعوته.
انظر :مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ)، دار الفكر، ط «بدون» ، د.ت، بيروت، لبنان.

(٢) مباحث في علوم القرآن ، ص١٠٧-١٠٨، للشيخ مناع القطان.

المطلـــب الثالث

بيان بعض الحقائق المتعلقة بموقف الكفار من النبـــي ﷺ وموقفه منهم

استمر النبي ﷺ يدعو كفار مكـة والمدينـة ، وما حولهما إلى دين التوحيد ـ الإسلام ـ ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاماً.

وخلال هذه الفترة لقي من الكفار جفوة وإعراضاً، وصداً للناس عن اتباعه، وحرباً ضروساً لا هوادة فيها.

وكان هدفهم من كل ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف : ٨] .

وفي سبيل ذلك بذل الكفار كل ما في وسعهم للصدّ عن سبيل الله حتى أنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [محمد : ٣٢] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " والمراد بهؤلاء هم المنافقون،وقيل أهل الكتاب، وقيل هم المُطْعِمُون يوم بدر من المشركين (١) " (٢)

وأياً كان الكفار الذين تعنيهم الآية، فالشاهد من ذلك أنَّ صَدَّ الكفار عن سبيل الله ومشاقتهم لرسول الله ﷺ بعد معرفتهم للحق الذي جاء به أثَّرَ في نفسية النبي ﷺ تأثيراً بالغاً، فأنزل الله على نبيه ﷺ كثيراً من آيات القرآن الكريم التي تخفف من همومه وأحزانه وحسراته عليهم.

وبيَّن الله لرسوله ﷺ بعض الحقائق المتعلقة به أو بقومه من الكفار وغيرهم من

---

(١) لعل الشوكاني ـ رحمه الله ـ يقصد بقوله : (المطعمون يوم بدرمن المشركين) الذين أطعموا الكفاروصرفوا من أموالهم لقتال المسلمين.

(٢) فتح القدير ٥ / ٥١ .

المنافقين وأهل الكتاب بهدف تسليته ومواساته ﷺ ، وذلك كما يلي :

أولاً: ما يتعلق بحال النبي ﷺ مع الكفار، ومكانته عند الله :

أعلم الله نبيه محمداً ﷺ في أكثر من آية أنه يعلم بحاله مع القوم الذين لم يستجيبوا له ؛ فقد أخبر الله نبيه ﷺ أنه على علم بحزنه على مقالة الكفار فيه وتكذيبهم له .

قال تعالى: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** (٣٣) ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " هذا الكلام.. مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عمّا ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له.. " (١)

وقال تعالى في موضع آخر ـ كاشفاً عن شدة حزن رسول الله ﷺ على عدم إيمان قومه ـ ، وهو يُخلص لهم النصح ويريد هدايتهم: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** (٦) ﴾ [الكهف : ٦] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "ثم سلّى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ** ﴾ أي: مجهد نفسك، أو مُضْعِفها، أو مهلكها ﴿ **عَلَىٰ آثَارِهِمْ** ﴾ أي: على فراقهم ومِنْ بَعْدِ تولّيهم وإعراضهم ﴿ **إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ** ﴾ أي: القرآن، ﴿ **أَسَفًا** ﴾ أي: غيظاً وحزناً " (٢) .

وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٣) **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤) ﴾ [الشعراء :٣-٤] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيتين السابقتين: " أي: مهلك نفسك مما تحرص وتحزن عليهم، ألا يكونوا مؤمنين، وهذه تسلية من الله لرسوله

---

(١) فتح القدير ٢ / ١٦١ .

(٢) المرجع السابق .

ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار.. ، ثم قال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] ، أي: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك؛ لأنَّا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري (١) " (٢)

وآياتٌ كثيرة نزلت تُشعر النبي ﷺ أن الله تعالى يعلم بحاله وحزنه لعدم إيمان الكفار به وبالقرآن الذي جاء به، وتذكر له أن الله مطلع على ضيق صدره وهمِّه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧] ، بل لقد بلغ ضيق صدر النبي ﷺ من مقالة الكفار فيه، وفي القرآن وتكذيبهم لذلك ما أنزل الله فيه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . [هود : ١٢] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: « .. أمَرَ الله تعالى رسوله وأرشده إلى ألا يضيق صدره ولا يصدُّنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله » (٣) .

وكما أعلم الله نبيه ﷺ أنه يعلم بحاله وضيق صدره وحزنه لما يلقاه من الكفار؛ فقد بيّن له في آية أخرى تسليةً له أنَّ ما أصابه قد وقع لمن سبقه من الأنبياء والرسل، فقال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: ٤٣] .

قال الشوكاني - رحمه الله -: "ثم سلّىٰ سبحانه رسوله ﷺ عما كان يتأثر له

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٤٣ .

(٢) وقال تعالى مُسلياً لرسوله عدم إيمان الكفار به، وموضحاً له أن الهداية بيد الله تعالى أي: هداية التوفيق: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ البقرة ٢٧٢، و﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ الغاشية ٢٢، و﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ القصص ٥٦، وغيرها من الآيات.
وسنشرح هذا بالتفصيل في الفقرة التالية بعنوان (ما يتعلق بدعوة النبي ﷺ للكفار).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٤٨١

من أذية الكفار؛ فقال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ ﴾ الآية" [١]

وكما أن الله قد بيَّن لرسوله سُنَّته في كل الأنبياء والرسل وابتلائهم بأقوامهم فقد بيَّن له ـ أيضاً ـ حقيقة هامة ، وهي أن العاقبة والغلبة في نهاية المطاف للرسل على الكفار ـ وقد فصلتُ القول في هذا فيما سبق ـ [٢] .

وأيضاً فإن القرآن الكريم قد عرَّف محمداً ﷺ بقَدْرِه عند الله ، ومكانته في السماوات، وفضله في الملأ الأعلى، إن كان أهل الكفر قد جحدوه وكفروا به وآذوه حتى أحزنه ذلك منهم، فإن له شأناً عند الله وحظوة ليست لأحد غيره ؛ فتارة يصفه بالسراج المنير ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦] ، وتارة يمتن عليه بأنه رفع له ذكره في العالمين، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ [الشرح : ١-٤] .

وهذه من أعظم نعم الله على رسوله ﷺ حيث لا يَذْكُرُ اسمَ الله ذاكرٌ إلا وذَكَرَ معه رسولَ الله .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذُكر معه ، قال قتادة :رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة،فليس خطيب ولا مُتَشهِّد ولا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

قال مجاهد [٣] : ورفعنا لك ذكرك بالتأذين، وقيل المعنى: ذكرناك في

(١) فتح القدير ٤ / ٧٣٩ .

(٢) انظر فقرة ضمانات النصر والمعية في هذا الفصل

(٣) هو الإمام أبو الحجاج المكي مجاهد بن جبر، شيخ القراء والمفسرين، تابعي مفسر من أهل مكة، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي-وقيل غيره-ولد عام ٢١هـ أشهر تلاميذ ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول: عرضتُ القرآن على ابن عباس، أقفه عند كل آية أساله فيم نزلت، وكيف كانت، قال عنه قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، استقر في الكوفة، توفي عام ١٠٣هـ-وقيل غير ذلك-، وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة، يقال أنه مات وهو ساجد.
انظر: طبقات ابن سعد ٥ / ٤٦٦، و:سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٤٩ .

الكتب المنزلة على الأنبياء..، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وعند المؤمنين في الأرض..وكذلك الأمر بالصلاة والسلام عليه" (١) ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦] .

وقال البغوي - رحمه الله -: " رفعه بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله" (٢)

ومما بين الله لرسوله ﷺ : أنه يصلي عليه هو والملائكة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦] .

والمراد بصلاة الله على نبيه أي،رحمته،وبالنسبة للملائكة دعاؤها (٣) ،وقيل أن المراد بصلاة الله على نبيه: مغفرته، وبالنسبة للملائكة استغفارها (٤) ، وقيل أن صلاة الله على نبيه: أي ثناؤه عليه (٥) ، وقيل أن صلاة الله على نبيه وصلاة الملائكة أيضاً المقصود به بركته والملائكة (٦) .

فأيُّ حُزن وهَمٍّ يبقى في نفس رسول الله ﷺ بعد هذا كله ؟! .

والشاهد أن الله تعالى بيَّن لنبيِّه ﷺ مكانته عند الله ، ويتأكَّد هذا من خلال القَسَم بحياته، كما في قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢]،فإن الله تعالى لم يقسم بحياة أحد من البشر إلا بحياة محمد ﷺ .

قال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: " والإقسام بحياة المقسَم.. يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسِم بها.. ولم يثبت هذا لِغَيْرِه ﷺ " (٧) .

---

(١) فتح القدير ٥ / ٥٨٤ .
(٢) تفسير البغوي٤ / ٥٠٢ .
(٣) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٢٣٢ .
(٤) قاله الشوكاني في فتح القدير: ٤ / ٣١٠ .
(٥) قاله البغوي في تفسيره ٣ / ٥٤٢ .
(٦) انظر جامع البيان ٢ / ١٣٨ .
(٧) بداية السول في تفضيل الرسول ص٣٧ ، للعز بن عبد السلام بتصرف يسير .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : "وهذا من أعظم فضائله ـ أي فضائل النبي ﷺ ـ أن يقسم الرب ـ عز وجل ـ بحياته، وهذه مزية لا تُعرف لغيره" (١)

والخلاصة :

أن الله تعالى أوحى لنبيه ﷺ بكثير من الآيات التي تبين له فضله وقدره عند الله مواساةً له وتسليةً وتثبيتاً لفؤاده.

ثانياً: ما يتعلق بدعوة النبي ﷺ للكفار، وحدود مهمته وواجبه:

لا شك أن النبي ﷺ أصابه الهم والغم لعدم استجابة الكفار له حتى نزل في ذلك أكثر من آية كما سبق شرحه.

وكم كان النبي ﷺ يتمنى أن يهدي الله هؤلاء القوم إلى الصراط المستقيم، وكم تحسَّر على ضلالهم لدرجة أن حسرته عليهم لم تكن تفارقه، وهذا ما شهدت به كثير من الآيات ـ السابق شرحها ـ .

ولذلك فقد بين الله لرسوله ﷺ عدة حقائق و قضايا تتعلق بطبيعة رسالته وحدود مهمته وواجبه، ووضَّح له عدة أمور تتعلق بمشيئة الله وإرادته في شأن الكفار.

فمن الحقائق والقضايا التي أعلم الله بها رسوله ﷺ مما يتعلق بدعوته للكفار ما ذكرَ له في أكثر من آية، أن عليه البلاغ المبين فقط، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل : ٨٢] ،وغير ذلك من الآيات (٢).

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "أي إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به فقد

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ، لابن القيم ص٣١٠، تحقيق الشيخ محمد شريف، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ، بيروت، لبنان.

(٢) كما في سورة آل عمران آية ٢٠: حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ونحو ذلك في سورة المائدةآية٩٢-٩٣والرعد، آية٤٠،والنحل،آية٥٣، النور، آية ٥٤، والعنكبوت، آية ١٨ .



تمهّد عذرك.. وصَرْفُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسليةً له" (١)

وفي آية أخرى يخاطبه سبحانه وتعالى قائلاً له: ﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ ﴾ [طه : ١-٣] .

فقد افتُتِحَتْ هذه السورة بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يُرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك.

فالآية تبين للنبي ﷺ الهدف من إنزال القرآن عليه ، وهو تذكيرٌ وتحذيرٌ لكل من يخشى لقاء الله أو عذابه.

وبهذه الملاطفة للنبي ﷺ يهدأ رَوْعه ويسلو خاطره عند عدم استجابة الكفار له ـ بعد أن بلّغهم البلاغ البين الواضح وبذل جهده في سبيل ذلك.

ولم يقتصر القرآن على تبيينه للنبي ﷺ الهدف نزوله، بل نزلت آيات أخرى توضح للنبي ﷺ وتؤكد له أنه ليس مُلزماً بهداية هؤلاء الكفار على سبيل الإجبار،وتخاطبه أنه لو أحب أحداً فلا يملك هدايته ـ سواء كان عمه أو غيره ـ .

قال تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] . وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⑩⑦ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] (٢) .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا.. ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي: رقيباً، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي: قيِّم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم" (٣) . فهذه هي طبيعة مهمته ﷺ .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : "وليس رسول الله ﷺ مسؤولاً عن عملهم

---

(١) فتح القدير ٣ / ٢٦٥ .

(٢) ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ②② ﴾ [الغاشية : ٢٢] .

(٣) فتح القدير ٢ / ٢١٨ .

وهو لم يوكل بقلوبهم ، فالوكيل عليها هو الله .. " (١) .

وفي موضع آخر قال ـ سبحانه وتعالى ـ :﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق : ٤٥] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «أي ولستَ بالذي تُجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كُلِّفتَ به» (٢)

إذاً مادام الله يخبر رسوله ﷺ انه ليس مكلفاً بإجبار هؤلاء الكفار على الإيمان بالله ، وليس وصيًّا عليهم أو قَيِّمًا ولا يملك الهداية لهم، إنما عليه البلاغ المبين، وأما هدايتهم ، فإنها قضية ترجع إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى.

فإن كل هذا سيجعل النبي ﷺ يطمئن نفسياً، ويهدأ، ولا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها، أو يظن في نفسه التقصير والإهمال لعدم إيمان الكفار.

وبهذا البيان لهذه الحقائق كلها ـ سواء ما يتعلق بالنبي ﷺ وحاله مع الكفار، أو دعوته لهم ومدى استجابتهم له ـ يتحقق للنبي ﷺ المزيد من انشراح الصدر وبرد الرضا لحكم القضاء والثبات على طريق الدعوة ، وخاصة بعد أن أخبره ربه بامرٍ آخر يتعلق بالكفار ، وهو انهم على علم بانه ﷺ على الحق ولم يكذبوه.

كما قال تعالى في شان أهل الكتاب:﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ : ٦] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : "لما ذكر ـ تعالى ـ الذين سَعَوْا في إبطال النبوة بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق.. وهم مؤمنو أهل الكتاب..، وقيل

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١١٦٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٤٧ .

جميع المسلمين" (١)

ولم يكتف القرآن بالبيان للنبي ﷺ أن الكفار يعلمون أنه جاء بالحق من ربهم، بل أظهر القرآن له أن كفرهم به وتكذيبهم له إنما هو جحود للحق الذي جاء به وليس هو الاتهام له بالكذب أو الجهل بصدقه، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق.." (٢)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "والمعنى أن تكذيبهم ليس يرجع إليك؛ فإنهم يعترفون لك بالصدق، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به" (٣) .

وخاطب الله نبيه ﷺ مبيناً له أنه لولا أنه قد سبق الوعد من الله بتأخير عذاب هؤلاء الكفار من هذه الأمة إلى الدار الآخرة لاستعجل عقوبتهم على ذنوبهم في هذه الدنيا قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) ﴾ [طه : ١٢٩] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي ولولا الكلمة السابقة وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿ لَكَانَ ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ لِزَامًا ﴾ أي: لازماً لهم،لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي: يوم القيامة، أو يوم بدر" (٤) .

وإضافة إلى كل ما سبق بيَّن الله لنبيه ﷺ أن الحق سيظهر ولو بعد حين ، وأن

---

(١) مختصر تفسير القرطبي ٤ / ١٦٤ ، اختصره الشيخ محمد كريم راجح، دار الكتاب العربي، ط «بدون» ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت ، لبنان، والكتاب يقع في خمسة مجلدات.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٣٤ ,

(٣) فتح القدير٢ / ١٦١ .

(٤) فتح القدير ٣ / ٥٦٢ .

الحجج والآيات ستبقى تتوالى عليهم حتى يعرفوا تمام المعرفة ويوقنوا تمام اليقين بأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وبيَّن الله له في موضع آخر أن هناك من يعبد الله غيرهم ويُقَدِّرُهُ حق قدره - إن جحده هؤلاء الكفار - وهم الملائكة البررة، قال تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت:٣٨] .

ذكر أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن الجوزي (١) أن معنى الآية: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي : تكبروا عن التوحيد والعبادة ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ،أي: الملائكة، يسبحون، أي: يصلون له بالليل والنهار ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ ، أي: لا يملون" (٢)

---

(١) هو أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، ولد عام ٥٠٨هـ في بغداد، توفي أبوه وعمره ثلاث سنين، وكان أهله تجاراً في النحاس (الصُّفر) ولهذا كُتب اسمه في بعض السماعات بعبد الرحمن الصُّفار، ونسبته بالجوزي إلى « مشرعة الجواز » ، قرأ القرآن وجوّده وأخذ الإجازات فيه.. سمع الكتب الكبار، وكان فقيهاً حافظاً مفسراً أديباً، له أكثر من ثمانين شيخاً... أثنى عليه بعض العلماء حيث قال عنه الموقف عبد اللطيف « ... يكتب في اليوم أربعة كراريس ... وله في كل علم مشاركة... » قرأ على يديه وروى عنه خلق كثير... بدأ التصنيف وعمره ثلاث عشرة سنة، توفي عام ٥٩٧هـ في بغداد، له عدة مصنفات تزيد على الثلاث مئة منها: « زاد المسير » ، و« منهاج الوصول إلى علم الوصول » و « جامع المسانيد » و « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ، و « مناقب بغداد » و « الإنصاف في مسائل الخلاف » وغير ذلك، انظر: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة٣ / ٣٣٩ لأبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي (٧٣٦-٧٩٥هـ) دار المعرفة، ط(بدون) د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة مجلدات منها مجلدين للطبقات ومجلدين للذيل، و:كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ١٨ / ١٠٩، و: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تقديم زهير الشاويش ١ / ٢١-٣٥ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ٥٠٨هـ-٥٩٧ هـ) المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في تسعة مجلدات .

وبيّن الله لرسوله ﷺ - أيضاً - مصير هؤلاء الكفار إن استمروا على كفرهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر : ٦] وآيات كثيرة تبين له أن مصير هؤلاء الكافرين إلى نار جهنم وبئس المصير (١)

وبهذا كله يكون القرآن الكريم قد بيَّن للنبي ﷺ عدة حقائق وقضايا، وشرَح له عدة أمور تتعلق بحدود مهمته ودعوته للكافرين، وسُنَّة الله فيهم، ومشيئته التي لا تتبدل، ليظهر له الأمر على حقيقته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام :٥٥] ، فيسير على هدى من الله وتوفيق يزداد كل يوم ثباتاً ويقيناً بصحة منهجه ، وسلامة مقصده فيطمئن لعاقبته كما استقر لمبتدأ دعوته.

ويثبت الله رسوله ﷺ بأمر آخر وهو توجيه بعض الوصايا والمواعظ التي تُقوِّي من عزيمته ﷺ ، وتعلو بهمته، وتزيده ثباتاً على طريق الدعوة ، وهذا ما أُفَصِّلُ القول فيه في المطلب الرابع كما يلي .

---

(١) كما في سورة البقرة آية١٢٦، حيث قال سبحانه :﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ونحوها في سورة آل عمران آية١٦٢،والتوبة آية٧٣،والنورآية ٥٧، والحديد آية ١٥، وغيرها من الآيات .

المطلـــب الرابـــع

توجيه بعض الوصايا والمواعظ القرآنية للنبي ﷺ

ما برحت آيات القرآن الكريم تتنزل على النبي ﷺ لتوجيهه الوجهة الصحيحة التي يريدها له ربه ـ سبحانه وتعالى ـ في كل مجال، ومن هذه المجالات ما يتعلق بدعوته للكفار؛ فقد حفل القرآن الكريم بعدة أوامر ونواهٍ ،وتعينه على الثبات في طريق الدعوة، وتشد من أزره، وتعلي من همته، ولها أثر عظيم في تسلية رسول الله ﷺ ، ومعالجة نفسيته التي تحتاج لمزيد من العناية والمواساة الربانية ، وقلبه الذي يحتاج مزيداً من الربط بالله والدار الآخرة ، ومن هذه الوصايا والمواعظ ما يلي:

أولاً: نهيُ الله لرسوله ﷺ عن الإفراط في الحزن على كفر الكفار:

المنهيات الواردة في القرآن كثيرة،وفي مجالات متعددة، منها ما هو عام للمؤمنين ، ومنها ما هو خاص بالنبي ﷺ، فمن ذلك نهي الله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الحزن على كفر الكافرين ، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٧٦) ﴾ [آل عمران : ١٧٦] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " قيل هم قوم ارتدوا فاغتم النبي ﷺ لذلك ، فسلاه الله سبحانه ، ونهاه عن الحزن ... وقيل هو عام في جميع الكفار .. " (١).

وأياً كان مقصود الآية، فالشاهد منها تحذير الله لنبيه ﷺ ـ **رأفة بحاله ـ من الحزن على الكفار ما دام قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده** ﷺ .

(١) فتح القدير ١ / ٦٠٦-٦٠٧ .

وقد ورد نهي الله لرسوله ﷺ عن الحزن على كفر الكفار في أكثر من آية، فتارة يُقرن النهي عن الحزن ببيان نفي ضرر الكفار على شرع الله وأوليائه ـ كما في الآية السابقة ـ وتارة يُقرنه ببيان مرجع الكفار وعاقبتهم عند الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [لقمان :٢٣]، وتارة ينهاه عن الحزن على قولهم مؤكداً أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم سرهم ونجواهم، كقوله تعالى :﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس : ٧٦] ، وتارة ينهاه عن الحزن لقولهم ، مؤكداً له أن العزة والغلبة لله ـ سبحانه وتعالى ـ كقوله ـ عز وجل ـ :﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وتارة ينهاه عن الحزن، محذراً إيَّاه من التعلق بما عند الكفار من زينة الحياة الدنيا أو الافتتان بها، حتى لا ينشغل خاطره بذلك وينسى البلاغ المبين لأقوام آخرين.

قال تعالى: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (١) مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "أي استغنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية" (٢) .

وآيات كثيرة تنهى النبي ﷺ عن الحزن (٣) الذي كاد أن يهلك النبي ﷺ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : ٨] . والمعنى " لا يشتد حزنك لكفرهم حتى تهلك نفسك" (٤) .

---

(١) أزواجاً: أي أصنافاً. فتح القدير للشوكاني ٣ / ٢٠٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١٤ .

(٣) كما في سورة النمل٧٠: حيث قال سبحانه ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ونحوها في سورة المائدة ٦٨، ون٤٨، وغيرها.

(٤) تفسير وبيان مفردات القرآن ص٤٣٥، إعداد محمد حسن الحمصي، دار الرشيد، ط بدون، د.ت، دمشق، سوريا.

بل لقد بلغ الحزن بالنبي ﷺ درجةً جعلت الإله يخاطبه قائلاً : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

والمعنى كما قال الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : " . . فإن رسول الله ﷺ كان يحزنه ما يقولون فيه من التكذيب به وبالقرآن حُزناً على جهل قومه بقدر النصيحة، وإنكارهم فضيلة صاحبها، وحزناً من جراء الأسف عليهم من دوام ضلالهم شفقةً عليهم، وقد سلاّه الله تعالى عن الحزن الأول بقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام : ٣٣][١]، وسلاّه عن الحزن الثاني بقوله : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ وكَبُرَ هنا بمعنى : شقَّ عليك . . فإن قدرت . . أن تطلب نفقاً أو سلّماً لتبلغ إلى خبايا الأرض وعجائبها، وإلى خبايا السماء . . فتأتيهم بآية فإنهم لا يؤمنون بها"[٢].

ورسول الله ﷺ لن يستطيع فعل ذلك أبداً ـ إلا أن يشاء الله ـ وهذا يعني أنه لا داعي أن يُهلك نفسه على هؤلاء حسرةً وأسى .

وكما أن الله تعالى نهاه عن الحزن لكفر الكفار فقد نهاه أيضاً أن يفعل فعل نبي الله يونس بن متَّى عندما يئس من قومه فتركهم وركب البحر إلى غيرهم، فأمر الله نبيه محمداً ﷺ بالصبر على قومه، وحذّره من أن يقطع دعوة قومه إلى توحيد الله ، قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم : ٤٨] .

قال ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : " . . ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت، حيث لم يصبر صبر أولي العزم"[٣]

---

(١) إشارة إلى الآية التي قبلها ونصها : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٢٠٣-٢٠٥ باختصار .

(٣) الضوء المنير على التفسير ٦ / ١٤٤ لابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) جمع / علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور، ط بدون، د.ت، الرياض، السعودية، والكتاب يقع في ستة مجلدات .

والخلاصة : أن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الحزن لكفر الكفار، أو قولهم الكاذب فيه وفي قرآنه، أو صدهم عن سبيل الله كثيراً، تسليةً له، ورأفة به ﷺ .

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بالصبر الجميل على الدعوة والمدعوين:

ورد الأمر للنبي ﷺ بالصبر في غير ما آية [١] ، لكنه كثر بصورة أكبر في المرحلة المكية حين استضعاف المسلمين، وقوة وتنكيل المشركين بهم.

فقد وردت عدة آيات التي تأمر النبي ﷺ بالصبر، تارة مقترنة بأجر عظيم أعده الله له، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١١٥) ﴾ [هود:١١٥] ،وتارة مقترنة بتأكيد وعد الله له بالنصر المبين ،كما في قوله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠) ﴾ [الروم : ٦٠] [٢] .

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ: " .. والآية جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلية له ووعداً له بالنصر، ووعيداً لأهل الكفر" [٣] .

وهذا الوعد من الله لرسوله ﷺ بالنصر على أعدائه قد تحقق في مرحلة الدولة المدنية بعد صبر وجهاد وطول انتظار له،لحكم يعلمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ[٤].

وتارةً تأمره بالصبر والاعتماد على الله ، والاستعانة به، وتنهاه عن الحزن

---

(١) ورد الأمر للنبي ﷺ بالصبر في أكثر من عشرين موضعاً.

(٢) وكما ورد في سورة غافر ٥٥، ٧٧: حيث قال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

(٣) البحر المحيط ٧ / ١٧٨ لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥هـ) ، دراسة وتحقيق الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثمانية مجلدات.

(٤) ذكر سيد قطب ـ رحمه الله ـ "أن النصر قد يُبطئ لأن بُنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد.. ولم يتم تمامها، ولم تحشد طاقتها، وقد يُبطئ حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة.. وقد يبطئ حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها المادية.. لتدرك أن النصر من عند الله .. ولتزيد الأمة صلتها بالله ، ولتتجرد من حظوظ نفسها.. ولأن الشر الذي تكافحه فيه بقايا خير يريد الله استخلاصه.. وقد يُبطئ لينكشف زيف الباطل أمام الناس فلا يخدع به أحد بعد ذلك.. وقد يبطئ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة" انظر: طريق الدعوة في ظلال القرآن ١ / ٣٥٩-٣٦٠، باختصار، جمع وإعداد أحمد فائز، مؤسسة الرسالة، ط بدون، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

والضيق من مكر الكفار، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

وتارةً تأمره بالصبر اقتداءً بمن سبقه من الأنبياء وعدم استعجال هلاك الكفار، قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ ﴾ .

[الأحقاف : ٣٥] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "ولا تستعجل لهم، أي: لا تستعجل حلول العقوبة بهم، فإنها نازلة بهم لا محالة" (١)

وهكذا أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على أقوال الكفار فيه وفيما جاء به، قال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص:١٧] (٢) ، فيصبر على ذلك، وليصبر على إيذائهم له ولأصحابه، وقد صبر على ذلك ودعا الصحابة إليه كما في رواية خباب بن الأرت (٣) ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ ، قال: (**كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه ، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيتمَّن هذا الأمرُ حتى يسير الراكب**

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٥ .

(٢) وكما ورد في سورة طه ١٣٠ : حيث قال سبحانه ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ونحو ذلك في سورة ق: ٣٩، والمزمل: ١٠ .

(٣) هو أبو عبد الله خباب بن الأرت بن جندلة بن خزيمة التميمي الخزاعي، سُبي في الجاهلية وبيع بمكة، فكان مولى أنمار الخزاعية ثم حالف بني زهرة، كان من السابقين إلى الإسلام ، وأول من اظهر الإسلام، وعُذب عذاباً شديداً بمكة، شهد بدراً وما بعدها، ونزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين هجرية .

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية ، ط(بدون) د.ت، بيروت، لبنان .

وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ٢٣٢ ، و: تقريب التهذيب لابن حجر ١ / ٢٦٦ .

من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) [١] .

فهذه الرواية تُبين شدة ما أصاب الصحابة رضي الله عنهم من عذاب في سبيل الله ، وتبين أيضاً امتثال النبي ﷺ لخُلق الصبر ودعوته الصحابة الكرام لذلك تأسِّياً بمن سبقهم من أهل الإيمان بالله .

وهكذا تتوالى الآيات التي أمر الله فيها نبيه ﷺ بالصبر على قومه، وما يقولون فيه، وما يكون منهم من صد عن سبيل الله ، وتتوالى الآيات التي أمر الله فيها نبيه ﷺ بالصبر على قضاء الله وحُكمه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [الطور : ٤٨] .

وقال سبحانه : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾** ﴾ .

[الإنسان: ٢٤] .

وكل هذه التوجيهات التي تلقّاها النبي ﷺ من ربه آمرةً له بالصبر على قومه، وما يكون منهم، تدعوه ليكون صبرُه صبراً جميلاً، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾** ﴾ [المعارج :٥] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: "هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله "[٢] وتدعوه للهجر لقومه ـ هجراً جميلاً ـ كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾** ﴾ [المزمل : ١٠] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عن الهجر الجميل: " . .هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى . .

---

(١) رواه البخاري في ٣ / ١٣٢٢، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام برقم ٣٤١٦، وذكره ابن حجر في تلخيص الحبير ٤ / ١٥ برقم ١٦٨٤، وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة ٣ / ١٦٣٠ برقم ٥٨٥٨ .

(٢) فتح القدير ٥ / ٢٨٩ .

وهذا الهجر هو إمساك النبي ﷺ عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه.." (١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ عن وقت الهجر الجميل الذي أمر الله به رسوله محمداً ﷺ : "وكان هذا قبل الأمر بالقتال.." (٢) .

ثالثاً: أمر الله لرسوله ﷺ بالصبر مع التزام العبادات التي تعينه على ذلك:

وجّه الله نبيه ﷺ لالتزام بعض العبادات الشرعية مع الصبر ليستعين بذلك على الثبات أمام الكفار (٣) ، وتحمل أعباء الدعوة، فأمره بالصبر، مع أداء عبادة الاستغفار والتسبيح بحمد ربه كما قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر :٥٥] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي متلبساً بحمده.." (٤) .

وقال ابن عاشور: " ..وعُطِفَ على الأمر بالصبر الأمرُ بالاستغفار والتسبيح فكانا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر، رمز (٥) إلى تحقيق الوعد؛ لأنه أمر عقبه بما هو من آثار الشكر كناية عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة" (٦).

والمقصود أن الله تعالى أمر نبيه بالاستغفار والتسبيح وهما من العبادات التي تعقب النصر والفتح غالباً، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾** ﴾ [النصر] .

فكأن الله ـ تعالى ـ أمره بذلك باعتبار ما سيئول إليه حاله ﷺ من نصر وفتح مبين.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٦٨-٢٦٩ .

(٢) فتح القدير ٥ / ٣١٨ .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ . [البقرة :١٥٣] .

(٤) فتح القدير ٣ / ٥٦٣ .

(٥) رمز: هكذا في الأصل، ولعل الصواب رمزاً بالنصب والله أعلم.

(٦) تفسير التحرير والتنوير٢٤ / ١٧١ .

وفي موضع آخر أمر الله نبيه ﷺ بأن يُقرن صبره على قول الكفار بالتسبيح حين يقوم، وفي الليل، وحال إدبار النجوم، وقبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (١) ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الطور : ٤٨-٤٩] .

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه : ١٣٠] ، وغير ذلك من الآيات (٢)

وأَمَرَهُ تعالى بأن يصبر على عبادة ربه كلّها - ويدخل فيها العبادات السابقة - فقال تعالى: ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم : ٦٥] .

والخلاصة :

ان الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقرن صبره ببعض العبادات من تسبيح واستغفار وغيره لما لهذه العبادات من أثر عظيم في تثبيت النبي ﷺ في طريق الدعوة.

قال الشنقيطي - رحمه الله - : " وأمرُ الله لرسوله ﷺ بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور" (٣)

والظاهر من نصوص الآيات السابقة أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالتسبيح تارة بالعشي والإبكار، وتارةً قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وتارةً من الليل وأدبار السجود، وهذا يعني كثرة المواطن التي شُرع فيها ذكر الله ، وتعدد الأوقات التي

---

(١) اي حين تقوم من مجلسك.. أو إلى صلاتك.. أو من منامك.. والأول أولى ، قاله الشوكاني في فتح القدير ٥ / ١٤٦ .

(٢) كما في سورة ق: ٣٩، حيث قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

(٣) اضواء البيان ٧ / ٦٥٥ بتصرف يسير جداً.

أمر الله رسوله ﷺ بذكره فيها ـ وخاصة حال خلوته بالله ـ عز وجل ـ لتُحقّق له الاستعانة بالله والطمأنينة بذكره كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وكما قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في مقدمته لسورة المزمل ـ عن أثر العبادات في تحقيق ثبات الإنسان واحتماله أعباء الدعوة والصبر على متطلباتها ومقتضياتها: " . .وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ، والاتصال بالله ، وتلقّي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ ، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! ويُنير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الجافة بهذا الطريق المنير. . " (١) .

ولهذا أمر الله نبيه مخاطباً إياه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ .

[الحجر : ٩٧ – ٩٩].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ :"اعلم أن ترتيبه ـ جلّ وعلا ـ الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه ، ولذا كان ﷺ إذا أحزنه أمر بادر إلى الصلاة" (٢) .

وقد اختلف المفسرون في التسبيح المراد بالآيات السابقة :

فقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في المراد بالتسبيح فيما سبق : «أي: تنزيه الله عما لا يليق بجنابه العالي ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر ـ وهو هنا

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٤٥ باختصار يسير.
(٢) أضواء البيان ٣ / ٢٠٤ .

ذكر اللسان ـ وقيل المراد صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل الصلوات الخمس، وقيل صلاة ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها ـ قال : والأوَّلُ أَوْلى » ـ أي ذكر اللسان ـ (١)

وقال في المراد بالتسبيح آناء الليل وأدبار السجود ـ أي: بعض الليل ـ ، وقيل صلاة الليل، وقيل ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ أي: وسبِّحه أعقاب الصلوات. . ، وقال جماعة من الصحابة والتابعين: إدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وإدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر" (٢)

وخلاصة أقوال أهل التفسير أن المراد بالتسبيح هو:

[١] ذكر اللسان عموماً.

[٢] صلاة الفجر وصلاة العصر.

[٣] الصلوات الخمس.

[٤] صلاة ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها.

[٥] صلاة الليل.

[٦] صلاة العشاء.

[٧] ذكر اللسان بعد الصلوات.

[٨] ركعتان بعد المغرب وركعتان قبل الفجر.

وأيّاً كانت أقوالهم ، فالشاهد أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بذلك كله في عدة أوقات وأحوال، لما لهذه العبادات من أثر عظيم على النبي ﷺ .

فالصلاة كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : "مجلبة للرزق، حافظة للصحة. . ، مقوية للقلب. . مفرحة للنفس، مُذهبة للكسل، منشّطة للجوارح، ممدة للقوى،

---

(١) فتح القدير ٥ / ٩٨ بتصرف يسير.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

شارحة للصدر، .. مغذية للروح، منورة للقلب، وبالجملة فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ..وسر ذلك أن الصلاة صلة بالله ـ عز وجل ـ وعلى قدر صلة العبد بربه تفتح عليه من الخيرات أبوابها، .. وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل، والعافية والصحة والغنيمة والغنى والراحة والنعيم والأفراح، والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه" (١)

وهكذا فإن " للصلاة تأثيراً كبيراً فعّالاً في علاج الإنسان من الهم والقلق؛ فوقوف الإنسان في الصلاة أمام ربه في خشوع واستسلام، وفي تجرد كامل عن مشاغل الحياة ومشكلاتها، يبعث في النفس الهدوء والسكينة والاطمئنان، ويقضي على القلق وتوتر الأعصاب الذي أحدثته ضغوط الحياة ومشكلاتها "(٢).

" والصلاة تثمر الشعور بالعزة والقوة والثقة.. المستمدة من قوة الله وعزته ونصره وتأييده.. ففيها حضور القلب، وإعمال الفكر، وصفاء الروح، وخشوع الجوارح، وطهارة البدن والنفس.. " (٣).

أما صلاة الليل التي أمر الله بها نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④ ﴾ [المزمل: ١] ، فإن الله سبحانه وتعالى حينما " انتدب محمداً ﷺ للدور الكبير الشاق ـ أوحى إليه بها ـ فكان الإعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن .. إنها العبادة التي تفتح القلب، وتُوَثِّق الصلة، وتُيَسِّر الأمر، وتُشرق النور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.. " (٤).

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ٤ / ٣٣٢ لابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (٦٩١-٧٥١هـ) تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط٢٧، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٢) الحديث النبوي وعلم النفس ص٣١٥، للدكتور. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط١، ١٩٨٩م، القاهرة، مصر.

(٣) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص١٩٠، مؤسسة الرسالة، ط بدون، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ، بيروت، لبنان.

(٤) طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢ / ٢١٠ بزيادة يسيرة لـ أحمد فايز .

وقد لاحظ أطباء النفس "انخفاض حالات الاكتئاب في شهر رمضان ؛ ففي تجربة لأحد أطباء علم النفس، قام طبيب بمعالجة أربعة وستين مريضاً بالاكتئاب علاجاً طبياً ، وقسّمهم إلى مجموعتين ، منها اثنان وثلاثون مريضاً أعطاهم العلاج الطبي فقط، والأخرى اثنان وثلاثون مريضاً أعطاهم العلاج الطبي وطلب منهم القيام بالليل من الساعة الثانية إلى الرابعة صباحاً لصلاة التهجد وذِكْر الله وقراءة القرآن والدعاء والاستغفار، وبعد أربعة أسابيع وجد أن ٧٨ ٪ من المجموعة الثانية و١٥٪ من المجموعة الأولى قد تخلصوا من الاكتئاب.." (١)

وهكذا شرع الله لنبيه ﷺ عبادة الصلاة وغيرها لتؤدى دورها في تثبيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتربيته نفسياً وإيمانياً (٢) . (٣)

وبهذا التثبيت من الله لرسوله ﷺ تتحقق له « قوة النفس، ورباطة الجأش، ويكتسب مزيداً من القوة في ميدان الجهاد في سبيل الله، ويتمكن من نشر الحق، وإزهاق الباطل، ويهتدى بذلك إلى الجنة » (٤)

وكما أن الله عز وجل قد حقق التربية الربانية القرآنية للنبي ﷺ نفسياً عبر آيات القرآن الكريم ـ كما سبق شرحه في هذا الفصل كاملاً ـ فقد رباه تربية عقلية، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في الفصل الثاني .

---

(١) نقلاً عن ابحاث قدمها د. محمد شريف " طبيب نفسي باكستاني" للمؤتمر الدولي للصحة النفسية بلاهور، باكستان، عام ١٩٨٥م، اقتبسه محمد عز الدين في كتابه" التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص٣١٥ .

(٢) ذكر محمد شديد في كتابه منهج القرآن في التربية ص٢١٣ ما نصه :"وفي وقوف المؤمن بين يدي ربه خمس مرات في اليوم وأكثر من ذلك لمن يشاء في جو من الطهر والخشوع والتدبر والصفاء تربية عملية على الإحساس بالصلة المباشرة بينه وبين الله ، لها أثرها العميق في النفس" .

(٣) سنفصل القول في أثر الصلاة في تزكية النفس فيما يأتي من الفصل الثالث.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٤ / ١٤٤٩ باختصار وتصرف يسير.



الفصل الثاني

تربية النبي ﷺ عقلياً

الفصل الثاني

تربيـــة النبـــي ﷺ عقليـــاً

تمهيد :

ذكرتُ في المبحث الأول تربية الله للنبي ﷺ نفسياً، وأهمية ذلك له باعتباره نبياً ورسولاً للعالمين.

وفي هذا المبحث أناقش موضوع تربية الله للنبي ﷺ عقلياً، وأهمية ذلك في ظهور دينه، ووضوح حجته، وقوة دليله، وزيادة إيمانه، وحُسن إعمال عقله وتوظيفه فيما ينفعه ﷺ في الآخرة والأولى، فالإسلام الذي ـ يعتبر العقل مناط التكليف ، ومحور الثواب والعقاب، وأداة التلقي للوحي، قد أولاه كل اهتمام ورعاية وتوجيه " .. والوحي قد قام بترشيده، ومَنَحَهُ مفاتيح قراءة الكون والحياة منذ النشأة الأولى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة : ٣١] .

كما منحه القيم الضابطة التي تؤطر أنشطته وسعيه الإنساني في المجالات المتعددة ، فكان العقل الذي جاء ثمرة لهدايات الوحي عقلاً: يقظاً، واعياً، مسؤولاً... يستكشف العلل والمقاصد،ويتعرف على الأسباب،ويدرك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلقنا عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، وأنه ما من شيء في الوجود إلا وله علة وسبب، وَتحْكُم مسيرتَهُ سُنَّة وقانون، ويسير إلى هدف وغاية" (١) .

ولذا تُعتبر التربية العقلية مُهمَّة ؛ لأنها "وسيلة الرقي العلمي والحضاري.. وسبيل بناء العادات الحسنة، والتحرر من العادات السيئة" (٢) .

(١) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، ص١٠ ، باختصار، عبد المجيد بن سعود، والعبارة ضمن مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة.

(٢) ثقافة الطفل المسلم ص٢٦٨، باختصار، رسالة ماجستير، لأحمد عبدالعزيز الحليبي، إشراف / د. محمد رأفت سعيد، دار الفضيلة، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، الرياض، السعودية.

ويظهر اهتمام الإسلام بالعقل من خلال اعتباره أحد الكليات الخمس التي يجب حفظها تحقيقاً لمقاصد الشريعة من جلب للمصالح ودرء للمفاسد، فحرّم كل ما يضر بالعقل أو يذهب بالوعي،ودعا لإعماله وتوظيفه فيما خُلق له، وأكثر من مخاطبة الإنسان في القرآن من خلال وظيفة عقله التي تشمل: التدبر (١) والتفكر (٢) ، والتعقل (٣) ، والتفقُّه (٤) ، والنظر للعظة والعبرة (٥) ، وغير ذلك، كما قدَّم الوحيُ للعقل كثيراً من العلوم والمعارف المتعلقة بدنياه وآخرته، وبالإنسان والكون والحياة، والموجودات الحسية والغيبيات وغيرها.

وعموماً فإن " ما في القرآن الكريم من علوم ومعارف من بدئه إلى منتهاه ـ في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية ـ كفيلة بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، بأن تهزَّ عقل الإنسان ، وأن تفجر ينابيعه وطاقاته، وأن تُحدث في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يُحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء" (٦) .

والوحي الذي اهتم بعقل الإنسان ـ بعد أن زوَّد الله الإنسان بأسباب العلم وأدوات المعرفة، كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨] ، هذا الوحي قد...جعل عالم الشهادة بالنسبة للإنسان من الوسائل المُعينة على إدراك

---

(١) كما في قوله تعالى في سورة النساء، آية٨٢: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ونحوها في محمد ٢٤، المؤمنون ٦٨، ص٢٩ .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية٢١٩: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ونحوها في سبأ٤٦، الأنعام٥٠، الروم٨،وغيرها.

(٣) كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ٢٤٢: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ ونحوها في آل عمران ١١٨، يوسف٢، المؤمنون٨٠، وغيرها .

(٤) كما في قوله تعالى في سورة الأنعام آية٦٥: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ونحوها في النساء ٧٨، الأنعام ٩٨، التوبة٨١، وغيرها.

(٥) سنعرض ذلك في فقرات قادمة.

(٦) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص٤٦ بتصرف واختصار، د. عماد الدين خليل.

عالم الغيب حفظًا لملكاته من التبعثر والهدر والضلال... وجعل إعمال العقل والنظر في نفسه ومن حوله وما حوله والتعرف إلى العواقب ورصد النتائج هو سبيل المعرفة الحقيقية والإيمان الصحيح وتحقيق اليقين، وجعل التعلّم وتحصيل المعرفة من الفروض العينية ، واعتبر ذلك واجباً عليه وليس حقاً له فقط.

قال رسول الله ﷺ : (**طلب العلم فريضة على كل مسلم..**) (١). والوحي الذي اهتم بالعقل ودعاه للاجتهاد ، قد رتب على ذلك التفكير وممارسة النظر وبذل الجهد الأجر والثواب حتى لو كانت النتائج خاطئة ؛ لأن الخطأ في النهاية هو أحد الطرق الموصلة إلى الصواب" (٢)

والوحي أيضاً قد رفع التكليف عن كل فاقد عقل ، لحديث : (**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه (٣) حتى يعقل**) (٤)

ورسول الله ﷺ قد أخذ حظَّه الشامل الكامل من التربية الربانية لعقله وفكره بعد حفظ الله له من كل عيب ونقص وخلل في عقله، ومَنْحه ذكاء اللب، ووفور الفطنة، ورجاحة العقل وحُسن المنطق حتى صار كلامه ﷺ هو " الكلام الذي

---

(١) أخرجه ابن ماجة في١ / ٨١ في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم ٢٢٤ عن أنس بن مالك، وصححه الألباني في كتابه: صحيح سنن ابن ماجة١ / ٩٢ برقم١٨٤، وأخرجه الهيثمي في المجمع ١ / ١١٩، وذكره ابن حجر في المطالب العالية برقم ٣٠٦٥
انظر: صحيح سنن ابن ماجة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١هـ) ، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، الرياض، السعودية.

(٢) انظر: القيم الإسلامية التربوية ص١٤ لـ عبدالمجيد بن سعود، بتصرف واختصار وزيادة .

(٣) المعتوه: المجنون، والتعته: التجنن، لسان العرب ١٣ / ٥١٢ .

(٤) رواه الترمذي ٤ / ٢٤ في كتاب الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، برقم ١٤٢٣ عن علي بن أبي طالب ﷺ ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٥ / ٥٩، والبيهقي في السُنن الكبرى١ / ٥٦ ، وصححه الألباني في الإرواء ٢ / ٤ برقم ٢٩٧ .
انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني، إشراف : محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢،١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في ثمانية مجلدات ومجلد تاسع للفهارس.

أَلْقَى الله عليه المحبة، وعشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام وقلة الكلام، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ، ولا أَبْيَنَ في فحوى من كلامه ﷺ " (١) ، فهو الذي أوتي جوامع الكلم، وسرعة البديهة، وبُعد النظر الثاقب، وقوّة الحجة، وغزارة العلم، ووضوح البرهان، وحُسن الإقناع وأَسْرِ القلوب والأفكار، وتحقَّقَ له حسن إعمال عقله في تقوية إيمانه بالله .

ولا شك أن هذا كله لم يأت من فراغ، بل كان بعناية من الله وتربية ربانية للنبي ﷺ في عقله.

إذاً فما هو المقصود من التربية العقلية ؟

يُقصد بالتربية العقلية هنا:" التربية التي تهتم بالعقل (٢) وتغذية وتمده بأسباب نشاطه وحيويته، وتعطيه القدرة على النظر والتأمل والتدبر والتحليل والاستنتاج.. " (٣)

فكما أن « التربية الإيمانية (٤) تاسيس، والتربية الجسمية إعداد وتكوين،

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ للجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (١٥٠-٢٥٥هـ) ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط٤ ، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في اربعة أجزاء ضمن مجلدين.

(٢) ناقش ابن تيمية-رحمه الله – في "رسالة العقل والروح" الأقوال المتعلقة بتعريف العقل، وبعد نقاش مستفيض خلص إلى القول "أن اسم العقل عند جمهور العقلاء والمسلمين إنما هو صفة، .. قال: وعلى هذا دل القرآن في قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] ، ثم قال: فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم، بل إنما يُسمَّى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم، قال: ولهذا قال أهل النار ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ ﴾ [الملك : ١٠] ، انظر:مجموعة الرسائل المنيرية مجلد ١ ج٢، ص٢٠ .

(٣) تربية الناشئ المسلم، د. على عبد الحليم محمود ص٢٥٩، دار الوفاء، ط٣، د.ت. ، المنصورة، مصر.

(٤) سافصل القول في التربية الإيمانية للنبي ﷺ في الفصل الثالث.

والتربية الخلقية (١) تدريب وتعويد ، فإن التربية العقلية توعية وتثقيف وتعليم» (٢) . وهذا ما حصل للنبي ﷺ عبر آيات القرآن الكريم بصورة مباشرة وغير مباشرة، وحتى يتضح الأمر رأينا أن نقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: تربية الله للنبي ﷺ عقلياً بصورة مباشرة.

المبحث الثاني: تربية الله للنبي ﷺ عقلياً بصورة غير مباشرة.

---

(١) سأفصل القول في التربية الخلقية للنبي في الفصل الرابع.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام للشيخ: عبد الله علوان ١ / ٢٥٥، بتصرف يسير، دار السلام، ط٨، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، القاهرة، مصر، الكتاب يتكون من مجلدين.

المبحث الأول
تربية الله للنبي ﷺ عقلياً بصورة مباشرة

تحققت تربية النبي ﷺ عقلياً بشكل خاص به من خلال عدة آيات قرآنية ذات نصوص صريحة في مخاطبة النبي ﷺ ، كلها تهدف إلى صياغة عقليته وبناء فكره وتوسيع معرفته، وتدله على المنهج الصحيح في الاعتقاد والتفكير، والأسلوب القويم في الاكتساب والتحصيل العلمي.

ويتضح هذا من خلال تقسيم هذا المبحث إلى المطالب الأربعة التالية .

المطلـــب الأول

دعوته للقراءة والتعلم، وتعليمه عن طريق الوحـــي

منذ أول لحظة يتنزل فيها الوحي على النبي ﷺ في غار حراء ، وفي أول آية تتنزل عليه نجد أن القرآن الكريم يوجه النبي ﷺ للقراءة التي هي أول وأهم سبيل للتعلم والمعرفة ـ رغم أن النبي ﷺ كان أُميّاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ـ فيوحى الله إليه بـ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② ﴾ . [العلق: ١-٢] .

ثم يؤكد عليه مرة ثانية قائلاً: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥] .

قال محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ: "وافتتاح السورة بكلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ إيذان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئاً، أي تالياً كاتباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً.. وقوله: ﴿ اقْرَأْ ﴾ : أمر بالقراءة .. وفعل ﴿ اقْرَأْ ﴾ الثاني تأكيدٌ لـ ﴿ اقْرَأْ ﴾ الأول للاهتمام بهذا الأمر..

وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة .. فمن أجل ذلك اتَّخذ النبي ﷺ كُتَّاباً للوحي من مبدأ بعثته" (١) .

ولم يقتصر القرآن على توجيه النبي ﷺ للقراءة فقط، بل لقد دعاه أيضاً للتعلم وطلب المزيد من العلم، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ:

" .. فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله في زيادة العلم التي تظهر

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٣٥ وما بعدها.

بتمام القرآن (١) أو بيان ما نُزل عليه" (٢)

وقد امتثل النبي ﷺ لذلك فكان يدعو ربه قائلاً: " **اللهم انفعني بما علّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً..** " (٣)

ومن هنا يتبين لنا أن القرآن اهتم بدعوة النبي ﷺ لطلب العلم النافع، وصار ذلك ـ في شريعة الإسلام ـ فريضة على كل مسلم ـ ورسول الله ﷺ من بابٍ أوْلى؛ لأنه قدوة للعالمين.

وقد تحقق تعليم الله لنبيه ﷺ ، وسعة علمه من خلال الوحي الذي يمكن أن يُقسم إلى قسمين كما يلي:

أولاً: القرآن الكريم:

وهو ما أوحاه الله إلى النبي ﷺ لفظاً ومعنى ـ بلا خلاف ـ ،وقد اشتمل القرآن على كثير من علوم غيب الماضي من قصص وغيره، كما حوى كثيراً من علوم غيب الحاضر، وكشف للنبي ﷺ ما هو كائن في المستقبل ـ في عهد الرسالة وما بعدها ـ ، وفي كل هذا قال سبحانه: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ [النساء : ١١٣].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة:

" و ﴿ **الْكِتَابَ** ﴾ القرآن ، و ﴿ **الْحِكْمَةَ** ﴾ النبوءة، و﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ** ﴾ هو: ما زاد على ما في الكتاب من العلم الوارد في السُنَّة والإنباء بالمغيبات" (٤) .

---

(١) هكذا في الأصل: "تمام القرآن" ، ولو قال: "بتمام الوحي" لكان أولى ليعم القرآن وغيره.
(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٠٥
(٣) أخرجه ابن ماجة في١ / ٩٢ في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، برقم ٢٥٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الألباني في صحيح سُنن ابن ماجة ١ / ٤٧، صحيح، وذكره برقم ٢٠٣، وأخرجه الحاكم في ١ / ٥١٠ ، والهيثمي في المجمع ١٠ / ١٨١ .
(٤) التحرير والتنوير ٥ / ١٩٧ .

ثانياً: السُّنّة النبويــة:

وهي ما أوحاه الله إلى النبي ﷺ بالمعنى دون اللفظ،عن طريق ـ جبريل عليه السلام ـ سواء كانت حديثاً نبويًّا (١)، أو قدسيًّا (٢)، فكل ما جاء عن رسول الله ﷺ إنما هو من قبيل الوحي لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم :٣-٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء :١١٣].

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : فذكَرَ الله الكتاب وهو القرآن، وَذَكَرَ الحكمة، فَسَمِعْتُ من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول :الحكمة سُنَّة رسول الله ﷺ" (٣).

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : "والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك في غير موضع" (٤)

ولا شك أن الحكمة ـ السُّنَّة ـ إنما وصلت إلى رسول الله ﷺ ـ من ربه ـ عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ .

وكما ذكر صاحب جامع بيان رواة السند العلم وفضله ـ رحمه الله ـ عن حسان ابن عطية (٥) « أنه قال: كان الوحي ينزل على رسول ﷺ ويحضره جبريل عليه السلام

---

(١) الحديث النبوي: هو ما اضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أوصفة.

(٢) الحديث القدسي: هو ما يضيفه النبي ﷺ إلى ربه، اي انه ﷺ يرويه على انه من كلام الله .
انظر: مباحث في علوم القرآن ص٢٠ للشيخ مناع القطان ـ رحمه الله ـ.

(٣) الرسالة ص٧٨ للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤)هـ بتحقيق وشرح: احمد محمد شاكر، دار الفكر، ط بدون، د.ت. بيروت، لبنان.

(٤) الفتاوى ١٩ / ١٧٥ لشيخ الإسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨)هـ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد العاصمي وابنه محمد، مكتبة المتنبي، دار الرحمة للنشر والتوزيع، ط «بدون» ، د.ت، الدمام ، السعودية، والكتاب يقع في سبعة وثلاثين مجلداً.

(٥) هو الإمام الحجة ابو بكر حسان بن عطية المحاربي، مولاهم، الدمشقي، .. وقيل كان حسان من أهل بيروت من الفرس ، قال عنه الأوزاعي: (ما رأيت أحداً أكثر عملاً منه في الخير)، وقال: « كان حسان بن عطية يتنحى إذا صلى العصر في ناحية المسجد،فيذكر الله حتى تغيب الشمس » ، وقد رُمي بالقَدَر... ولكن رد ذلك الأوزاعي، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٦٨ لعله رجع =

بالسُّنَّة التي تفسر ذلك » (١)

ووحي السُّنَّة "لا يلتزم فيه جبريل عليه السلام باللفظ الذي سمعه من ربه ؛ لأن تبليغ السُّنَّة مبناه على المعنى لا على اللفظ" (٢)

ومن هنا « جاز رواية السُّنَّة بالمعنى، لأن جبريل عليه السلام أدّاه (٣) بالمعنى . . " (٤) .

وهكذا ، فمن خلال ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ من قرآن كريم وسُنَّة ، بلغ رسول الله ﷺ درجة عالية في تعلم كل ما علَّمه ربه عبر وحي القرآن والسُّنَّة، حتى صار ﷺ أعظم مربٍّ ومُزَكٍّ لأمته، كما قال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة : ١٥١] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " . . أي: يقرأ عليكم القرآن ... والتزكية: تطهير النفس... ؛ لأن في أصل خلقه النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل ؛ فتهذيب النفس وتقويمها يزيدها من ذلك

= وتاب » ، وكان من دعائه : « اللهم إني أعوذ بك ان اتعزّز بشيء من معصيتك، واعوذ بك ان أتزيّن للناس بشيء يُشيني عندك، واعوذ بك ان اقول قولاً ابتغي به وجه غيرك، اللهم اغفر لي فإنك عالم ، ولا تعذبني فإنك علي قادر» ، وله أقوال حكيمة ماثورة عنه، توفي عام ١٣٠هـ، انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٦ / ٧٠-٧٩ للحافظ ابي نعيم احمد بن عبد الله الأصفهاني (الأصبهاني) (ت٤٣٠هـ) ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، بيروت ، وانظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٤ / ١٤٤ لأبي القاسم على بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر (٥٧١ هـ) هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران المتوفى ١٣٤٦هـ، دار المسيرة، ط ٢ ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م ، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في سبعة مجلدات. و: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام لشمس الدين الذهبي ٥ / ٧٤-٧٦، و: سير اعلام النبلاء للذهبي ٥ / ٤٦٦-٤٦٨ ترجمة رقم ٢١٢ .

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١٩١، للإمام ابي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٢-٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، ط. بدون، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في جزأين ضمن مجلد واحد .

(٢) المدخل لدراسة القرآن ص٦٤، د. محمد أبو شهبة.

(٣) هكذا في الأصل (أداه): ولعل الصواب والله اعلم (أداها) .

(٤) الإتقان ١ / ١٢٧، للسيوطي.

الخير المودع فيها.. و﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي: يعلمكم الشريعة، فالكتاب هنا هو القرآن باعتبار كونه كتاب تشريع لا باعتبار كونه معجزاً، ويعلمكم أصول الفضائل، فالحكمة هي التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد، و ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ : تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة، من معرفة أحوال الأمم وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغير ذلك.. " (١) .

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة ١٢٠] (٢)

قال الشوكاني - رحمه الله - بعد تفسيره لما قبلها: " ثم أتْبَعَ ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ إن اتبع أهواءهم.. (٣) " (٤) .

وقال ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قال: " تحذير لكل من تلقَّى الإسلام الا يتَّبِع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، جاء على طريقة تحذير النبيﷺ... وهو جواب القسم ودليل جواب الشرط؛ لأن اللام موطِّئة للقَسَم ، فالجواب لها، وجيء بإن الشرطية التي تأتي في مواقع عدم القطع بوقوع شرطها ؛ لأن هذا فرض ضعيف في شأن النبي ﷺ والمسلمين..." (٥) .

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ٤٩-٥٠ .
(٢) ونحوها في سورة البقرة: ١٤٥ .
(٣) فتح القدير ١ / ٢١١ .
(٤) علق الشوكاني في تفسيره على ما سبق قائلاً: " وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يُوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان " أي المصانعة واللين وإظهار خلاف الباطن كما في متن اللغة".
وقال الجوهري : المداهنة والدِّهان كالمصانعة لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما، .. فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ.. فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة" انظر فتح القدير ١ / ٢١١-٢١٢، والصحاح للجوهري٥ / ١٧٠٦ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٦٩٤ .

وقد نزلت آيات القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ الذي امتدحه الله تعالى بعد تبرئة النبي ﷺ عن اتباع الهوى ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم : ٣-٥] .

وقال سبحانه ممتدحاً لرسول السماء ـ جبريل عليه السلام ـ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١] .

ومن هنا فلا عجب أن يشهد ﷺ لنفسه أنه أعلمُ الناس بالله ودينه وأتقاهم له، كما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «... **إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا...**» (١)

وكما أن القرآن الكريم قد دعا النبي ﷺ للقراءة وطلب المزيد من العلم ـ ليحقق تربيته عقلياً ـ ، فقد كلَّفه بأمر آخر، يحقق له مزيداً من التربية العقلية، وهذا ما يتم شرحه في المطلب الثاني كما يلي .

---

(١) رواه البخاري ١ / ١٦ في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ : (أنا أعلمكم بالله ...) برقم ٢٠، عن عائشة رضي الله عنها، وأول الحديث " عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ثم يقول:(إن أتقاكم و..الخ الحديث).
وقد روى الحديث السيوطي في جمع الجوامع ٢ / ١٨٨ برقم ٤٨٨١، وعلي المتقي الهندي في كنز العمال برقم ٣١٩٩١ .
انظر: جمع الجوامع (الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير وزوائده) للحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تخريج وتعليق/خالد عبدالفتاح شبل،دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠هـ بيروت، لبنان، والكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً.

المطلـــب الثانـــي

تكليف الله لرسوله ﷺ بمعاهدة القرآن الكريم تلاوة (١) وترتيلاً (٢) وتدبراً (٣) وحفظاً لآياتـــه

لتلاوة القرآن فوائد جَمَّة، وآثار عظيمة يكتسبها الإنسان في حياته الدنيا والأخرى، ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ بتلاوة القرآن الكريم،ومداومة ترتيله وتدبيره، وحفظ آياته، ولا يخفى على ذي عقل ما في ذلك كله من أثر على النبي ﷺ بتحقق المزيد من رسوخ العلم، وقوة الإيمان، ودوام أخذ العظة والعبرة من قصص السابقين، وغير ذلك من الفوائد ـ الأساسية المباشرة، أو الثانوية غير المباشرة ـ

---

(١) التلاوة لغة هي: القراءة ، انظر لسان العرب ١٤ / ١٠٤، مادة تلا. وهي عند القراء تعني: قراءة القرآن متتابعاً كالأوراد والأسباع، انظر فتح الباري ٨ / ٧٠٧لابن حجر، وقد وردت في القرآن الكريم بعدة معان كما يلي:
[١] القراءة :كما في قوله تعالى في سورةآل عمران آية ٩٣ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .
[٢] بمعنى الاتباع: كما في قوله تعالى في سورة الشمس آية٢ : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ ﴾ .
[٣] بمعنى العمل:كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية١٢١ :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أي: يعملون بمحكمه، كما قال الحسن البصري في تفسير ابن كثير١ / ١٦٨ .
[٤] بمعنى الرواية :كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٠٢ : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ .
[٥] بمعنى الإنزال: كما في قوله تعالى في سورة القصص، آية ٣ : ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ . نضرة النعيم ٤ /١١٧٧ بتصرف يسير.

(٢) الترتيل لغة: هو الترسل والتبيُّن في القراءة من غير بغي، انظر لسان العرب ١١ / ٢٦٥ مادة رتَّل. وهو يعني القراءة بتؤدة واطمئان، وإخراج كل حرف من مخرجه ، وإعطائه حقَّه ومستحقه، مع تدبر المعاني،انظر البرهان في تجويد القرآن ص٦، للشيخ: محمد الصادق قمحاوي، المكتبة الثقافية، ط بدون، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت ، لبنان.

(٣) التدبر لغة: هو التامل والتفكر، انظر لسان العرب ٤ / ٢٦٨ ماد دبر، وهو يعني:تحديق ناظر القلب إلى معانيه،وجمع الفكر على تدبره و تعقله،انظر مدارج السالكين١ / ٤٨٥ لابن القيم.

الناشئة عن تلاوة القرآن الكريم التي "تدفعه إلى التفكير في حقائق الأمور، وتستحثُّه على البحث والاستقصاء..وتلفت العقل إلى الكون المشاهد...ولذا فلا عجب أن ينمو تفكير قارئ القرآن ومتدبر آياته،ويزكو عقله، وينضج فهمه"(١).

والآيات التي أمر الله فيها رسوله ﷺ بتلاوة القرآن وترتيله وتدبره وحفظه كثيرة، منها قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ :﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) ﴾[النمل:٩١-٩٢].

وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾[الكهف :٢٧] .

قال الشوكاني-رحمه الله- : "أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوةالكتاب المُوحَىٰ إليه" (٢) .

وقال ابن جرير الطبري-رحمه الله-: "أي :وبين القرآن إذا قرأته تبييناً،وترسل فيه ترسلاً" (٣)

وقد كان ﷺ يقرأ القرآن في صلاته وفي غيرها، في الليل والنهار، في السفر والحضر، قبل نومه وعند استيقاظه وفي كل وقت وحين ، ولم يكن يمنعه من القرآن إلا الجنابة كما ورد في حديث على بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:**"كان رسول الله ﷺ لا يحجبه أو قال لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة"** (٤)

---

(١) ثقافة الطفل المسلم ص٢٨٤-٢٨٥، بتصرف يسير ، احمد الحليب.
(٢) فتح القدير ٣ / ٤٠١ .
(٣) جامع البيان ١٢ / ٢٨٠ .
(٤) اخرجه الحاكم في ٤ / ١٠٧، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ولكن ضعّفه الالباني في إرواء الغليل ٢ / ٢٤١-٢٤٥ وذكره برقم ٤٨٥، واخرجه الدارقطني في سُننه ١ / ١١٩ برقم ١٠، والبغوي في شرح السُّنّة ١ / ٥٣١ .
انظر :سُنن الدارقطني للإمام على بن عمر الدارقطني (٣٠٦-٣٨٥هـ)،تصحيح السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المحاسن للطباعة، ط (بدون) ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م ، القاهرة، مصر. والكتاب يقع في مجلدين.

ولم يقتصر حال النبي ﷺ على تلاوة القرآن فقط بل كان يطلب سماعه من بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم .

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: "قال النبي ﷺ: (**اقرأ عليَّ**) قلتُ يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أُنزل؟ قال : (**نعم**) ، فقرأتُ سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١] قال : (**حسبك الآن**) ، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان" [١]

وما زال النبي ﷺ يعيش مع القرآن تارة وحده، وتارة مع الصحابة، ويذكر الله تعالى في كل أحيانه ـ امتثالاً لأمر الله تعالى له بمعاهدة القرآن الكريم تلاوةً وترتيلاً وتدبّراً وتذكراً وحفظاً واسترجاعاً لآياته حتى لا ينسى، كما صحَّ عنه ﷺ فيما روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل، فقال: (**يرحمه الله ، لقد أذكرني آية كذا وكذا، كنتُ أُنسيتها من سورة كذا وكذا**) [٢]

قال النووي [٣] ـ رحمه الله ـ: "... فيه دليل على جواز النسيان عليه ﷺ

(١) رواه البخاري ٤ / ١٩٢٥، كتاب: فضائل القرآن ، باب: قول المقرئ للقارئ حسبك، برقم ٤٧٦٣، وأخرجه الترمذي برقم ٣٠٢٥ ، وابن ماجة برقم ٤١٩٤ .

(٢) رواه مسلم ١ / ٥٤٣ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضائل القرآن وما يتعلق به، برقم ٧٨٨، وأخرجه البخاري في ٤ / ١٩٢٢ برقم ٤٧٥٠

(٣) هو محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حس، الفقيه الشافعي الدمشقي، الحافظ الزاهد القدوة أحد أعلام الأمة، ولد سنة ٦٣١هـ في نوَى (من قرى حوران بسوريا) وإليها نسبته، كان علامة بالفقه والحديث، تعلم في دمشق وأقام بها زمناً طويلاً، وكان يقرأ كل يوم على مشايخه اثنى عشر درساً شرحاً وتصحيحاً... لزم الاشتغال ليلاً ونهاراً عشرين سنة حتى فاق الأقران.. ثم أخذ في التصنيف حتى مات ، كان راساً في الزهد وقدوة في الورع، آمراً بالمعروف... قانعاً باليسير.. لم يتزوج ..ـ رحمه الله ـ.
توفي سنة ٦٧٦هـ في قريته نوى، له مصنفات كثيرة من أشهرها: « شرح صحيح مسلم » و« المجموع شرح المهذب » . و« رياض الصالحين » وغير ذلك.
انظر: شذرات الذهب٥ / ٣٥٤، و: النجوم الزاهرة ليوسف تغر الاتابكي ٧ / ٢٧٨ .

فيما قد بلّغه إلى الأمة..." .

وقال القاضي عياض - رحمه الله -: "...اتفق جمهور المحققين على جواز النسيان عليه ﷺ ابتداءً فيما ليس طريقه البلاغ..وجواز سهوه في الصلاة..." (١) .

وقد بلَغَتْ عناية الله برسوله ﷺ أن كان يرسل إليه جبريل - عليه السلام - ليتدارس القرآن معه في شهر رمضان، ويراجع حفظه لديه.

فقد صح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: "كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن" (٢)

وثبت أن جبريل - عليه السلام - أقرأ رسولَ الله ﷺ القرآن على عدة أحرف كما قال ﷺ : (**أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل استزيده ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف (٣)**) (٤)

وهكذا كان ﷺ مع القرآن الكريم تلاوةً وسماعاً، واسترجاعاً، ومدارسة مع جبريل - عليه السلام - طوال حياته، حتى أتاه اليقين من ربه.

ولا شك أنه من خلال كل ما سبق تتحقق التربية العقلية للنبي ﷺ على

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٧٦-٧٧ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٢) رواه البخاري ١ / ٧ في كتاب: بدء الوحي، باب: (١) كيف كان بدء الوحي، برقم ٦، ومسلم في ٤ / ١٨٠٢ برقم ٢٣٠٧ .

(٣) اختلف أهل العلم في المراد بالأحرف السبعة الواردة في الحديث اختلافاً كبيراً، وتعددت مذاهبهم في ذلك، وقد ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري ٩ / ٢٣-٣٨ .
وناقش ذلك د. حسن ضياء الدين في كتابه "الأحرف السبعة" ورجح أن المراد بها "اللغات السبع التي هي أفصح اللغات وأوسعها انتشاراً من العرب آنئذ.." وعضد ذلك بعدة أدلة وأقوال لمن سبقه من العلماء كابن الجوزي وأبي بكر الآجُرّي وغيرهما.
انظر: الأحرف السبعة ص١٧٧، لـ د. حسن ضياء الدين، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، بيروت، لبنان.

(٤) رواه مسلم١ / ٥٦ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، برقم ٨١٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري في ٣ / ١١٧٧ برقم ٣٠٤٧ .

أحسن وجه وأكمله ؛ فمعاهدة القرآن تثمر عدة ثمار إيمانية وعقلية، وقارئ القرآن « يستنير عقله، ويمتلئ قلبه بالحكمة، وتتفجر منه ينابيع العلم، وقارئ القرآن لا يجهل مع الجاهلين،بل يُكتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وقارئ القرآن ـ كذلك ـ هو متمسك بالعروة الوثقى.. يُعصم من الزيغ، وينجو من الشدائد، وغير ذلك من الفوائد التي يجنيها كل من تعاهد القرآن بصدق وإخلاص وتدبر» (١)

وكما أن الله تعالى قد ربّى رسول الله ﷺ عقلياً بأمره بمعاهدة القرآن الكريم كما سبق شرحه ، فقد ربّاه أيضاً بتحذيره من اقتفاء ما لا علم له به، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المطلب الثالث .

(١) نضرة النعيم ٤ / ١١٨٢ وما بعدها باختصار.

المطلب الثالث

تحذير الله لرسوله ﷺ من اقتفاء (١) ما لا علم له به

لأن الدين الإسلامي بمعتقداته وتصوراته دين يقوم على اليقين ويعتمد منهج النظر والتبصر (٢) للشيء والتثبُّت منه والتبيُّن له قبل الإيمان به، ويرفض الظن والتخمين أو الخرص (٣) في مجال المعتقدات العقلية، حذر الله نبيه ﷺ من اعتقاد واتباع ما لا علم له به، حتى لا ينهج بعقله نهج أهل الضلال في معتقداتهم وسلوكياتهم، الذين يتبعون ما لا يعلمون صحته وحقيقته .

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ :﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء : ٣٦] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "... أي لا تتبع ما لا تعلم.. ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به... وقيل أن المعنى: لا تتبع الحدس والظنون... (٤) " (٥) .

(١) الاقتفاء: الاتباع، واقتفاه وتقفّاه أي اتبعه، انظر : لسان العرب ١٥ / ١٩٤ مادة قفا .

(٢) النظر والتبصر: هو تقليب البصيرة لإدراك حقائق الأشياء ومعرفتها بعد التأمل فيها وفحصها، وطلب ذلك من خلال البراهين الحسية والمشاهدة. لسان العرب ٤ / ٦٤، مادة بصر، و٥ / ٢١٥ مادة نظر. ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢ / ٨٥ لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (٧٢٩ – ٨١٧هـ) المكتبة العلمية، ط بدون، د.ت، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ستة مجلدات.

(٣) الخرص: هو الكذب، وخرص يخرص... اي كذب، واصل الخرص التظني فيما لا تستيقنه... قال الزجاج: ويجوز أن يكون الخرّاصون إنما يظنون الشيء ولا يحقونه، فيعملون بما لا يعلمون . انظر: لسان العرب ٧ / ٢١، مادة خرص.

(٤) فتح القدير ٣ / ٣٢٥ ، بتصرف يسير .

(٥) كما وردت آيات أخرى تنكر على المؤمنين التقول بأفواههم فيما لا يعقلون ، كما في حادثة اتهام عائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ النور: ١٥-١٦ .

وهكذا فكما أن العمل فرع عن التصور، والسلوك ثمرة المعتقد، فقد افترض الله على نبيه ﷺ والمسلمين من بعده ألا يكون اعتقادهم للشيء أو قولهم له أو عملهم به إلا بعد علم حقيقي صحيح كامل له ؛ ليكون السلوك صحيحاً ، فلا مكان للأوهام أو التصورات أو المفاهيم الباطلة والمعتقدات الزائفة ـ القائمة على الحدس والظن ـ في عقيدة الإسلام.

وقد امتثل النبي ﷺ نهي ربه في الابتعاد عن كل ما يجهل حقيقته أو الحكم عليه حتى يتبين تفاصيل ذلك.

وقد حدث هذا للنبي ﷺ في أكثر من موقف، فمن ذلك ما صح عنه : "... أن ماعز بن مالك الأسلمي[١] ـ رضي الله عنه ـ أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيتُ وإني أريد أن تطهرني، فردَّه ، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله ،إني قد زنيت ، فرده الثانية، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى قومه، فقال: (أتعلمون بعقلة بأساً تُنكرون منه شيئاً؟) ،فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل، من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ، ثم أمر به فرُجم" [٢] .

وهكذا كان ﷺ يسلك مسلك النظر والتبصر للشيء قبل اعتقاده وتصديقه أو الحكم عليه أو اقتفائه والتصرف بناءً عليه.

---

(١) هو ماعز بن مالك الأسلمي، وهو الذي أتى النبي ﷺ فاعترف عنده، بالزنى،فرجمه، ... معدود في المدنيين، كتب له رسول الله ﷺ كتاباً بإسلام قومه، .. روى عنه ابنه عبد الله حديثاً واحداً... وماعز لقب، ويقال ان اسمه غريب، ويكنى بابي الغيل الخزاعي.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة وبذيله كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ٩ / ٣١، ١١ / ٢٩٨، وطبقات ابن سعد ٤ / ٣٢٤، و:أسد الغابة ٥ / ٨ .

(٢) رواه مسلم٣ / ١٣٢٣ في كتاب: الحدود، باب: رجم الثيب الزاني، برقم١٦٩٥ عن سليمان بن بُريدة عن ابيه، وذكره ابن ابي شيبة في مصنفه ١٠ / ٧٤ .
انظر: المصنف في الأحاديث والآثار للحافظ عبد الله بن محمد بن ابي شيبة الكوفي (١٥٩-٢٣٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط (بدون) د.ت، بيروت، لبنان .

وقد أثمر هذا للنبي ﷺ مزيداً من التثبُّت والتبيُّن للأمور قبل التعامل معها، ووقاية له من اتِّخاذ قرارات سريعة متعجِّلة غير مدروسة ، واستحصالاً للثقة في النفس، وبُعداً عن الشك وهواجس الشيطان، وروية في معالجة المواقف ، بل إن ذلك كله زاده رجاحةً في العقل وسلامة في التفكير.

وبذلك استمر عقل النبي ﷺ سليماً من كل اعتقاد يقوم على الظنون والأوهام، ولا يقبل الشيء إلا بعد تمحيص وتبين ودراسة فاحصة.

المطلب الرابع

إمداد الله لرسوله ﷺ

بالعلوم والمعارف اللازمة له

لم تقتصر عناية الله بنبيه ﷺ ورعايته له في مجال التربية العقلية على حفظه من كل عيب وخلل ونقص، أو مجرد دعوته للقراءة وطلب المزيد من العلم، أو حثّه على مراجعة القرآن واستظهار وتدبر آياته فحسب ـ كما سبق ـ ، بل إن الله تعالى الذي أمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى أركان الإيمان، وإلى أركان الإسلام، ومواجهة قوم من أهل الكتاب عندهم علم بالكتب السابقة وبكثير من غيب الماضي وقصص الأنبياء والرسل السابقين مع أقوامهم، وعندهم باعٌ طويل في القدرة على طرح الشبهات وإغواء العقول، إن الله تعالى قد اقتضت حكمتُه أن يُمدّ رسوله ﷺ بكثير من العلوم والمعارف المتعلقة بما يدعو إليه ، واقتضت إرادته أيضاً أن يكشف لرسوله ﷺ كثيراً من الأحداث والقصص التي عاشرها أهل الكتاب مع رسلهم السابقين ـ وخاصةً المرتبطة بتاريخهم السيئ مع أنبيائهم، وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يُعرّف رسوله ﷺ بمكر وكيد الكفار وسبيلهم في الصدّ عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام : ٣٠] .

ويُعرِّفه أيضاً بأوصاف وشبُهات الكفار، وخُبث بواطن المنافقين، وأن يُزوِّد رسوله ﷺ بوسائل الدعوة وكيفيتها وطرق البلاغ المبين ، وغير ذلك مما يلزم له لأداء مهمته، حتى يكون صاحب حجة وبيان، وعلم وبرهان، ومعرفة تامة بما قد حصل قبله، وما يحصل ويدور حوله، وما سيكون في المستقبل مما شاء الله تعالى أن يكشفه له.

لقد علّم الله نبيه محمداً ﷺ كل ما يحتاجه في دعوته الناس إلى الإيمان عبر وسيلتين اثنتين هما:

أولاً: شرح القرآن للمنهج الذي يقوم عليه الإيمان:

أنزل الله - عز وجل - على نبيه ﷺ عدة آيات أمره فيها بالدعوة إلى دين الحق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى : ١٥] ، فامتثل النبي ﷺ أمر ربه على أحسن وجه وأكمله، فدعا إلى الإيمان - بجميع أركانه - ، ولم تكن دعوته لذلك دعوة من يجهل ما يدعو إليه، أو لا يعلم أدلته، وتفاصيله، ولوازمه، ومقتضياته، ونواقضه.

فلقد بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ البيان الكافي ، وشرح له الشرح الوافي عن حقيقة ما يدعو إليه وعلّمه الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل ربه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وشمل هذا البيان جميع أركان الإيمان ومقتضياته المتعلقة بأعمال القلب واللسان والجوارح [١] ، **ويتضح هذا الأمر من خلال الفقرات التالية:**

(أ) ما يتعلق بالله - عز وجل - :

مع أن الإيمان بوجود الله وربوبيته - عز وجل - فطري، فطر الله الناس عليه - كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم : ٣٠][٢] .

وقد اعترف المشركون بهذا أمام النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

---

(١) سنشرح هذا بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ، وإنما اقتصرنا هنا على ما يتعلق بالتربية العقلية له ﷺ .

(٢) والفطرة هي في الأصل : الخلقة ، والمراد بها في الآية الملة، وهي الإسلام والتوحيد.. فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أي مخلوق على ملة الإسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يُعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو الحق. فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣١٨ - ٣١٩ .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[العنكبوت : ٦١] ، وكما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

فمع أن الإيمان بالله فطري إلا أن الله تعالى أنزل على رسوله ﷺ عدة آيات زادته معرفةً بحقيقة الذات العلية ـ في حدود ما يطيقه العقل البشري ـ ، وأدلّة وجوده، ومظاهر عظمته وقدرته ومُلكه وربوبيته وألوهيته وحده في هذا الكون، وعرَّف الله رسوله ﷺ بكثير من أسمائه وصفاته.

فمما يتعلق بأدلة وجود الله ومظاهر عظمته وألوهيته أنزل الله مخاطباً النبي ﷺ وكل من يصلح له الخطاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [لقمان : ٢٩-٣٠] (١) . ومن ذلك قوله ـ عز وجل ـ :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " أمر الله رسوله بالثبات على ما عنده من العلم بوحدانية الله .. " (٢)

ومما يتعلق بأسمائه وصافته أنزل الله على رسوله ﷺ عدة آيات بيّن له فيها كثيراً من صفاته ـ سبحانه ـ كما يتضح من تذييله تعالى لنهاية عدد من المقاطع والآيات بذكر بعض أسمائه وصفاته كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

وقوله: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٤٥] . وكما يتضح من آيات

(١) والقرآن الكريم يستخدم مثال هذه الآيات مع الخصوم للانتقال من الدليل الذي يسلم به ـ وهو توحيد الربوبية ـ إلى الذي ينازع فيه وهو توحيد الألوهية. تفسير التحرير والتنوير ٢٦ / ١٠٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٦/١٠٤ .

أخرى كقوله ـ عز من قائل ـ : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف : ٥٨]. وغيرها من الآيات (١)

والقرآن قد دحض جميع شبهات الكفار وأباطيلهم التي نسبوها إلى الذات الإلهية ـ كذباً وافتراءً على الله ـ سواءً ما يتعلق بوحدانيته سبحانه أو صفاته العظمى ، أو غير ذلك مما يتصل بالذات الإلهية.

فمما يتعلق بوحدانية الله ردّ القرآن على أهل الكتاب الذين زعمت كل طائفة منهم أن الله اتَّخذ ولداً كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾، فرد الله عليهم قائلاً : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة : ٣٠].

وردّ عليهم وعلى أمثالهم القائلين بمثل قولهم في موضع آخر ـ بعد أن سجّل مقالتهم ـ فقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٣] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ : " ففيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإدُّ ـ كما قال الجوهري ـ : الداهية والأمر الفظيع (٢) .

ومعنى الآية: قلتم قولاً عظيماً، وقيل الإدُّ العَجَب ، والإدَّة الشّدة ، والمعنى متقارب ، والتركيب يدور على الشدة والثقل... " (٣) .

ولم يكتف القرآن بدحض شبهات الكفار ونفيه لما زعموه في شأن وحدانية

---

(١) كقوله تعالى في سورة الاعراف آية رقم ١٦٧ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وغيرها كثير في آيات القرآن .

(٢) الصحاح للجوهري ٢ / ٣٨٤ .

(٣) فتح القدير ٣ / ٥٠٢ .

الله ، بل لقد أمر النبي ﷺ أن يرد على المشركين الذين طلبوا منه أن يعرفهم بنسب الواحد الأحد [١] قائلاً: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص : ١-٤] .

وأوضح الله لرسوله ﷺ أنه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ونَفَى القرآن كل صفة مذمومة نسبها الكفار إلى المولى ـ سبحانه ـ ، ومن ذلك ما افتراه اليهود وردَّ الله عليهم قائلاً بعد أن سجّل مقالتهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

[المائدة : ٦٤] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: "يخبر تعالى عن اليهود... بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم ـ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء [٢]، وعبّروا عن البخل بأن قالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وقد رد الله ـ عز وجل ـ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه.. فقال: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، وهكذا وقع لهم فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم" [٣]

وهكذ، فإن القرآن الكريم قد تناول قضية الإيمان بالله،وشرحها للنبيﷺ بصورة شاملة كاملة،كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فقدّم له كل ما هو حق في ذلك، وكشف له كل ما هو باطل مما لا يليق بجلال الله وعظمته.

---

(١) كما أخرج الحاكم في مستدركه ٢ / ٥٤٠ وصححه ووافقه الذهبي عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أن المشركين قالوا: يا محمد ـ انسب لنا ربك ـ فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص ١-٤ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١] .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٨ باختصار .

إننا نجد أن القرآن الكريم قد أوضح للنبي ﷺ وشرح له كل ما يتعلّق بركن الإيمان بالله ، وما يجب في حقه، وما يحرم، وما يُرضيه، وما يُسخطه، وما يقرب إليه، وما يباعد عنه، وغير ذلك.

ولا شك أن القرآن بهذا البيان الكافي الشافي للنبي ﷺ ـ والمؤمنين من بعده ـ إنما يهدف إلى " تكوين العقلية العلمية المؤمنة بالله " (١) كما يحب الله ويرضى من خلال: تزويد عقله ﷺ بمفردات عقيدة التوحيد لله بصورة تحقق تمام علمه وكمال معرفته بالمولى سبحانه، وكلما زاد القرآن من ذلك زادت معرفة النبي ﷺ بربه (٢) ، وبالتالي لن يبقى هناك مجال لعجز النبي ﷺ أو تحيُّره أو تردُّده عن الإجابة عن حقيقة هذه الذات العظيمة، وكل ما يتعلق بأسمائها وصفاتها الذاتية والفعلية أمام كل باحث عن الحق، ولن يبقى هناك مجال أمام كل مبطل من الكفار أن يتقوّل على الله غير الحق.

فالقرآن بشرحه المفصل لعقيدة التوحيد لله قد صان عقلية النبي ﷺ من البحث وراء حقيقة هذه الذات الغائبة عن البصر الحاضرة في البصيرة ، هذا الإله العظيم الذي يشهد بوجوده ووحدانيته وربوبيته وألوهيته الكون بكل من فيه من الذرّة حتى المجرّة، وصَدَقَ اللهُ القائل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ففي هذا الجو المشبع بالحق يُربي الإسلام عقلية النبي ﷺ ويُعمّق فيها الشعور والمعرفة التامة بهذا الإله العظيم (٣)

وتلك هي طريقة القرآن في تربية عقل النبي ﷺ والمؤمنين ، قال تعالى :

---

(١) جوانب التربية الإسلامية الأساسية ص٩٠، د.مقداد يالجن، مطبعة (بدون) ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، الرياض، السعودية.

(٢) وكلما ازدادت معرفة النبي ﷺ بربه ازدادت خشيته له كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

(٣) منهج التربية الإسلامية ١ / ٨١ بتصرف وزيادة يسيرة.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

(ب) ما يتعلق بالملائكة:

بيَّن الله لرسوله وجودهم (١) ، وأصل خلقهم (٢) ، وعظمة ذلك (٣) ، وأنواعهم (٤) .

ووجوب الإيمان بهم (٥) ، وشرَح له صفاتهم الخَلْقية (٦) والخُلُقية (٧) ،

---

(١) كما هو المفهوم من الآيات الكثيرة التي تتحدث عنهم مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

(٢) كما هو المفهوم من قوله ﷺ فيما رواه مسلم ٤ / ٢٢٩٤ في كتاب : الزهد والرقائق، باب : في أحاديث متفرقة، برقم ٢٩٩٦ عن عائشة ﵂ : (خُلقت الملائكة من نور..) .

(٣) كما يتبيّن من قوله تعالى في سورة التحريم آية ٦ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ .

وكما قال تعالى عن جبريل- ﵇ - في سورة التكوير ١٩-٢٠ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ ﴾ .

وكما يفهم من قوله ﷺ فيما اخرجه ابو داود في ٤ / ٢٣٢ برقم ٤٧٢٧ عن جابر بن عبد الله ﵁ ان رسول الله ﷺ قال : (أذن لي أن أحدِّث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) صححه الالباني في صحيح سنن ابي داود ٣ / ٨٩٥ برقم ٣٩٥٣ .

(٤) كجبريل وميكال الذين قال الله فيهما آمراً نبيه ﷺ بالرد على اهل الكتاب : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ۝٩٨ ﴾ [البقرة : ٩٧-٩٨] .

■ ومالك الذي ذكره الله عز وجل في معرض مناداة اهل جهنم له كما في قوله سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

(٦) كوجود اجنحة للملائكة كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١] .

■ وكوصفه عز وجل للملائكة بعدم سامهم من دوام طاعتهم الله وتسبيحهم له، قال سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝٣٨ ﴾ [فصلت : ٣٨]

(٧) كقوله تعالى في وصفهم: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ [عبس ١٥-١٦] .

وقُدراتهم (١) ، وعبادتهم لربهم (٢) ، ومكانتهم عند الله (٣) ـ عز وجل ـ .

وكشف الله لرسوله ﷺ قصة سجود الملائكة لآدم (٤)، وعلاقتهم به وبذريته ـ سواء أهل الإيمان (٥) أو غيرهم ـ (٦) ، وواجب المؤمن تجاه هؤلاء الملائكة (٧) .

وأوضح الله لرسوله ﷺ علاقة الملائكة بالكون وبقية المخلوقات والوظائف التي

---

(١) كقدرة جبريل عليه السلام ـ بإذن الله ـ على التمثل بصورة بشر، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ⑯ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑰ ﴾ [مريم :١٦-١٧] .

(٢) كما يُفهم من قوله تعالى في وصفهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⑸⓪ ﴾ [النحل: ٥٠] ، وقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤ ﴾ [الشورى: ٥] .

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى منكراً على الكفار الذين نسبوا لله الولد او البنات من الملائكة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ㉖ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ㉗ ﴾ .
[الأنبياء : ٢٦، ٢٧] .

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى فيما يتعلق بسجود الملائكة لآدم عليه السلام ـ سجود تكريم ـ امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ㉘ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ㉙ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ㉚ ﴾ .
[الحجر : ٢٨ – ٣٠] .

(٥) كمشاركتهم في القتال مع المؤمنين في معركة بدر–على رأي من يقول بذلك–قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ⑫ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

(٦) كلعنهم للكفار كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ㊑ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ㊒ ﴾ [آل عمران ٨٦–٨٧] .

(٧) كما يفهم من وحي السُّنَّة وقول الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ④ ﴾ [النجم:٤] ، حيث أوحى الله إلى نبيه ﷺ عدة أمور تتعلق بواجب المؤمن تجاه الملائكة ،فالتزم النبي ﷺ ذلك بفعله وعبّر عنها بقوله، فمن ذلك: وجوب حُبِّهم وموالاتهم، كما هو مفهوم المخالفة لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ⑨⑧ ﴾ [البقرة :٩٨] ، ومما يجب على المؤمن البعد عن إيذاء الملائكة سواء بالذنوب والمعاصي ، أو إتيان المساجد بعد أكل الثوم والبصل، ونحوهما، وبقاء رائحتهما لقوله ﷺ عن ذلك فيما رواه مسلم ١ / ٣٩٤ برقم ٥٦٤ عن جابر رضي الله عنه: (من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس) ، ومما يؤذي الملائكة ويجب الابتعاد عنه: البصق عن اليمين في الصلاة، وغير ذلك مما ورد في السُّنَّة.

كلّف الله بها ملائكته مما يتعلق بشؤون المخلوقات كلّها في هذه الحياة (١) ، ثم الدار الآخرة (٢). كما أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ أن الملائكة تُصلي (٣) عليه (٤) ، وتشهد على صدقه وصدق ما جاء به (٥) .

---

(١) كما يُفهم من قسمه تعالى في سورة الذاريات آية ٤ بنوع من الملائكة- من حيث وظيفتها كما قال سبحانه: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ ﴾ ، وهي الملائكة التي تنزل بأوامر الله الكونية والشرعية - كما قال ابن كثير في تفسيره ٤ /٢٤٨ ، وكما يفهم من قسمه تعالى في سورة المرسلات ١-٥ بالملائكة قال تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③ ﴾ ذكر ابن كثير في تفسيره ٤ / ٤٨٩ في أحد أقوال أهل التفسير- أنها صنف من الملائكة، ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ ﴾ : وهي "الملائكة التي تنزل بأمر الله على الرسل تُفرق بين الحق والباطل...، وتُلقي إلى الرسل وحياً إعذاراً إلى الخلق وإنذاراً لهم عقاب الله إن خالفوا أمره" . كما قال ابن كثير في تفسيره ٤ / ٤٨٩ ، وكذلك بيّن الله لرسوله ﷺ صنفاً آخر من الملائكة أقسم الله بهم، كما في قوله تعالى في سورة النازعات آية ١-٥: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① ﴾ وهي الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم بعسر فتغرق في نزعها وهي أرواح الكفار. ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ② ﴾ وهي الملائكة التي تأخذ أرواح المؤمنين المطيعين بسهولة- وهناك أقوال أخرى لأهل التفسير والصحيح هذا، ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ③ ﴾ ، وهي من الملائكة- وهناك أقوال أخرى ، ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ④ ﴾ وهي الملائكة التي سبقت إلى التصديق والإيمان بالنبي وما جاء به- في أحد أقوال المفسرين ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ⑤ ﴾ ، وهي الملائكة التي تُدبّر أمر الله من السماء إلى الأرض.." تفسير ابن كثير ٤ / ٤٩٧-٤٩٨، ومن الملائكة التي أوضح الله لرسوله علاقتها بالكون ما ورد في سورة الصافات ١-٣ حيث أقسم الله بها، قال تعالى: (﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① ﴾ وهي الملائكة التي تصطفُّ عن ربها أو في السماء ، ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② ﴾ وهي الملائكة التي تزجر السحاب - في أحد أقوال أهل التفسير - ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ ﴾ وهي الملائكة التي تأتي بالكتاب والقرآن من عند الله...) تفسير ابن كثير ٤ / ٣ .

(٢) من الوظائف التي كلّف الله بها ملائكته في الدار الآخرة إدخال آل فرعون أشد العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ غافر٤٦، ومن وظائف الملائكة تعذيب أرواح الكفار عند قبضها لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

(٣) تُصلّي عليه أي يُبرّكون عليه ويدعون له ويستغفرون . تفسير ابن كثير ٣ / ٥١٤

(٤) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ⑤⑥ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ①⑥⑥ ﴾ [النساء:١٦٦]، قال الرازي-رحمه الله -: " والمقصود كأنه قيل : يا محمد، إن كذّبك هؤلاء اليهود فلا تبال بهم ؛ فإن الله تعالى وهو إله العالمين يُصدّقك في ذلك ، وملائكة السماوات السبع يُصدقونك في ذلك.." التفسير الكبير ٤ / ٢٦٩ .

ولا شك أن القرآن الكريم بتبيينه لعالم الملائكة الأبرار وشرحه المفصّل لكل ما يتعلق بهم ، إنما يهدف إلى بناء عقلية النبي ﷺ بالمفاهيم الصحيحة عن المخلوقات الغيبية الخيّرة من الملائكة الكرام.

والقرآن الكريم بذلك يُزوّد عقلية رسول الله ﷺ بعلوم ومعارف ـ أو عقائد ـ تتعلق بمخلوقات أُخرى غير البشر تَعْرفُ اللهَ وتخشاه [١] وتقدّره، وتعبُدُه [٢] ، فتتفتّح آفاق ذهنه ﷺ على علوم جديدة تتعلق بعالم الغيب ويتشبّع بعلوم الغيب الحقّه ، لأنها من عند الله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وبالتالي تتحقّق "صيانة عقله من أن يُبدَّد وراء الغيبيات ـ بحثاً عنها وعما يتعلق بها ـ مما لا سبيل للعقل البشري للوصول إليها دون عالم الغيب ـ سبحانه وتعالى ـ " [٣] .

وتعريف الله لرسوله ﷺ بعالم الملائكة الخيار، وكشْفه له ما يتعلق بصفاتهم الخَلْقية والخُلُقية وقدراتهم التي تفوق قدرة البشر ومكانتهم عند الله . . كل هذا لا شك أنه سيُولِّد في نفس رسول الله ﷺ التعظيم والإجلال لهذه المخلوقات العظيمة، وبالتالي كمال التعظيم والإجلال للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلقها وجعلها بهذه الهيئة العظيمة.

كذلك يتبيّن لرسول الله ﷺ سبب عدم استجابة الله ـ عز وجل ـ لطلب الكفار بإنزال ملك من السماء يشهد على صدق ما جاء به ﷺ أو يكون معه نذيراً [٤] ، وذلك لاستحالة تلقّي البشر عنهم وهم بهذه الهيئة العظيمة، ولأنه بنزول الملائكة بناءً على طلب الكفار يتوجّب عذابهم إن لم يؤمنوا.

---

(١) كما في قوله تعالى في وصف الملائكة: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٩] .

(٣) منهج التربية الإسلامية ١ / ٧٧ لـ محمد قطب، بتصرف وزيادة يسيرة.

(٤) كما في قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧] .

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ⑧ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨ ﴾ [الانعام: ٨ – ٩] .

قال ابن عاشور - رحمه الله - « ... معناه: لو أنزلنا ملكاً على الصّفة التي اقترحوها يُكلمُهم ﴿ لَّقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ .. أي لقُضي أمر عذابهم الذي يتهددهم به... ذلك أنه لا تنزل ملائكة غير الذين سخّرهم الله للأمور المعتادة ، مثل: الحفظة (١)، ومَلك الموت (٢) ، والملك الذي يأتي بالوحي (٣) ، أو ملائكة تنزل لتأييد الرسل بالنصر على من يكذبهم، مثل الملائكة التي نزلت لنصر المؤمنين في بدر، ولا تنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلا لإنزال العذاب بهم، كما نزلت الملائكة في قوم لوط.. .

ومن المفسرين من قال: ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ : بمعنى هلاكهم من هول رؤية الملك في صورته الأصلية... » (٤)

و"...لعل حكمة ذلك أن الله فطرهم على الصلابة والغضَب للحق... فلذلك حجزهم الله عن الاتصال بغير العباد المكرّمين الذين شابهت نفوسهم الإنسانية النفوس الملكية..." (٥)

ومن هنا يتبين لنا كما تبيّن لرسول الله ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي: « ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر وجعلنا الرسول إليهم ملكاً لتعيّن أن نصوّر ذلك الملَك بصورة

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] .
(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪ ﴾ . [السجدة: ١١] .
(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ⑲ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ⑲ ﴾ . [الشعراء: ١٩٣].
(٤) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ١٤٣-١٤٤ .
(٥) نفس المرجع والجزء ص١٤٤

رجل ؛ لأنه لا محيد عن تشكّله لتتمكّن إحاطة أبصارهم به... ليُطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد ﷺ »(١).

وهكذا فبيان الله لرسوله ﷺ وكشفه له ما يتعلق بغيب الملائكة وتفاصيل ذلك إنما كان لعدة حكم عظيمة وفوائد جليلة شاءها الله عز وجل (٢)

(جـ) ما يتعلق بالكتب المنزلة:

الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله - عز وجل - هو الركن الثالث من أركان الإيمان، ومن أهم الكتب وأصحها وأجمعها دستور المسلمين من أمة محمد ﷺ - القرآن الكريم - الذي جعله الله - عز وجل - مهيمناً على الكتب السابقة ومصدقاً لما فيها جامعاً لخلاصتها، كما قال تعالى: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ** ③ ﴾ [آل عمران :٣] .

وقوله سبحانه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

قال الشوكاني - رحمه الله -: " ... والمهيمن الرقيب، وقيل الغالب المرتفع؛ وقيل الشاهد؛ وقيل الحافظ؛ وقيل المؤتمن؛ ... " (٣)

فقد بيّن الله لرسوله ﷺ كل ما يتعلق بالإيمان بالقرآن الكريم، وكلّفه أن يبلغ الناس بأن الذي نزل به من عند الله - عز وجل - هو جبريل أمين الوحي - عليه السلام - (٤)، وأخبره بأنه مودع في اللوح المحفوظ (٥)، وأنه شامل مُبيّن لكل شيء (٦) ،

(١) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ١٤٥ .

(٢) من هذه الفوائد أنْ علم النبي ﷺ بأن الملائكة تعبد الله وتخافه، وتشهد بصدق ما جاء به ، وتدعو له وتستغفر له وغير ذلك كل هذا يزيده استئناساً بوجودهم وحُباً لهم ..الخ.

(٣) فتح القدير ٢ / ٧٠ .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ١٠٢ ﴾ [النحل:١٠٢] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ** ٢١ **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ٢٢ ﴾ [البروج ٢١-٢٢] .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الانعام : ٣٨] ، وقوله سبحانه: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل : ٨٩] .

مفصّل الآيات (١) ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٢) ، وشرح له الغاية من إنزاله (٣) ، ووجوب الإيمان به (٤) ، وكُفر من أنكره (٥) ، وأنّ منْ أهل الكتاب من آمن به (٦) .

وأوضح الله لرسوله ﷺ أنه بالقرآن تتحقق الكفاية (٧) ، والهداية (٨) ، والشفاء (٩) ، والرحمة (١٠) ، والموعظة (١١) ، وأن منه المحكم والمتشابه (١٢) ، وهو ذكر للعالمين أجمعين (١٣) .

وأخبر الله رسوله ﷺ بأسماء القرآن الكريم (١٤) ، وصفاته (١٥) ، وأن بعض

---

(١) لقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ [فصلت : ٣] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ㊶ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ㊷ ﴾ [فصلت : ٤١- ٤٢] .

(٣) وهي قراءته على الناس كما قال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[الإسراء : ١٠٦] . ليكون نذارة للظالمين الكافرين وبشارة للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الاحقاف: ١٢] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑧ ﴾ [التغابن : ٨] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ㊵ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ㊶ ﴾ [فصلت : ٤٠- ٤١] .

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ㊷ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ㊸ ﴾ [القصص٥٢-٥٣] .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ﴾ [البقرة : ٢] .

(٩) لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [يونس:٥٧] .

(١٠) لقوله تعالى: ﴿ . وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ㊆ ﴾ [النمل : ٧٧] .

(١١) لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ⑬⑧ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

(١٢) لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ . [آل عمران ٧] .

(١٣) لقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ㊇ ﴾ [ص : ٨٧] .

(١٤) ومن ذلك : التنزيل، الذكر، الزبور، السبع المثاني، الصحف، الفرقان، القرآن، الكتاب ، النور.

(١٥) ومن ذلك : البرهان، البشرى، البصيرة، البلاغ، الحق، الحكيم، الذكرى، العربي، العزيز، العظيم، العلي، الكريم، المبارك، المبين، المجيد، المفصّل.

ما فيه يُشبه ما أنزل الله على إبراهيم وموسى عليهما السلام (١)

وكما أفاض القرآن الكريم في تعريف النبي ﷺ بكل ما يتعلق بالإيمان به، فقد كشف الله لرسوله ﷺ أنه أنزل كتبا سابقة على رسل أمم ماضية (٢) ـ وأنها كلها كالقرآن من عند الله وحده (٣)، وأن الله تعالى أنزلها على رسله بالحق (٤)، وأخبره بوجوب الإيمان بها كلها إجمالاً، وتفصيلاً (٥) ، وكُفر من لم يؤمن بذلك (٦) ، وأعلم الله نبيه ﷺ أن من السابقين من آمن بالكتب . .ومنهم من كفر. . . وأن أهل الكتاب قد حرّفوا (٧) وبدّلوا وغيّروا وكتموا شيئاً مما أنزل الله عليهم (٨) .

والقرآن الكريم ببيانه لكل ما يتعلق بركن الإيمان بالكتب ومنها القرآن الكريم ـ للنبي ﷺ لا شك أنه بهذا يحقق لرسول الله ﷺ مزيداً من التربية العقلية ،

---

(١) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الاعلى : ١٨-١٩] .

(٢) ومن هذه الكتب التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ في القرآن:

(أ) زبور داود عليه السلام ، لقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] .

(ب) صحف إبراهيم عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[النساء : ٥٤] .

(ج) توراة موسى عليه السلام ، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة :٥٣] .

(د) إنجيل عيسى عليه السلام ، لقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ٤٦] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى :٣] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ . [آل عمران : ٨٤] .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ . [النساء : ١٣٦] .

(٧) كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة : ٧٥] .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ البقرة : ١٥٩] ، وقال الشوكاني في تفسيره ١ / ٢٥٠ ان المقصود بكتم البينات في الآية هو كتم جميع الكتب ، وقيل التوراة.

وذلك كما يلي:

▪ تناولَ القرآن الكريم الحديث عن الكتب السابقة بالبيان والتفصيل، وأن الله تعالى أنزلها على الرسل السابقين بالحق، وبهذا عرّف الله نبيه ﷺ بمن سبقه من الرسل ، وما سبق كتابه من الكتب، فيتمكن بذلك من محاجّة أهل الكتاب وكشف أباطيلهم وزيفهم، والرد على شبهاتهم وأكاذيبهم التي نسبوها إلى رسل الله السابقين،فتقوى حجتُه ﷺ أمامهم ويزيد يقينه بضلالهم وبُطلان ما عندهم.

▪وهكذا. .فكلما تنزّلت آياتٌ تتعلق بأهل الكتاب وكُتُبهم التي أُنزلت عليهم كلما علم رسول الله ﷺ ماضي أهل الكتاب واستطاع محاجتهم، فلولم يكن لديه ﷺ شيء من علم أهل الكتاب وكتبهم لما استطاع ﷺ تكذيبهم فيما نسبوه إلى أنبيائهم، كما يتضح من قوله تعالى في معرض الرد على أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ الذين ادّعى كلُّ فريق منهم أن إبراهيم ﷺ ـ كان على دينهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران : ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

▪ وبذكر القرآن الكريم لما أحدثه أهل الكتاب في كتب أنبيائهم ـ التوراة والإنجيل ـ المنزّلة من السماء من كتمان وتحريف وتغيير وتبديل ليشتروا به ثمناً قليلاً، تبيّن لرسول الله ﷺ بطلان احتجاج أهل الكتاب ـ في عصره ـ بكتبهم، وبما هو مصادم للحق الذي جاء به، وتبيّنت له أيضاً حكمة الله ـ عز وجل ـ في اتّخاذ أمة أُخرى غير أهل الكتاب تُستأمن على آخِر كتاب يتم إنزاله على البشرية ـ القرآن الكريم ـ وهم العرب الأُمّيُّون.

▪ وبتوضيح القرآن الكريم للنبي ﷺ كُفر من كفر من السابقين برسلهم ، والكتب التي أنزلها الله عليهم يعرف رسولُ الله ﷺ أنه ليس أول رسول يَكفر به

قومُه وبالكتاب الذي جاء به، فيهون عليهم ما يلقاه من الكفار من صدٍّ وإعراض عن سبيل الله (١).

وبإخبار الله للنبي ﷺ بوجوب دعوته إلى الحق الذي جاء به، ودوام إنذاره للناس بالقرآن (٢)، وتلاوة آياته الكريمة لتزكية المؤمنين وتعليمهم، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]، يتحقق للنبي ﷺ مزيداً من ترسيخ آيات القرآن الكريم في قلبه، ومعاودة تدبر آياته (٣)، وسرد قصصه على الناس أجمعين، وهذا يؤدي إلى إحكام حفظه واستظهاره.

ونفس الأمر يتحقق من خلال تكرار النبي ﷺ لتلاوة آيات القرآن طلباً لرحمة الله ودوام هدايته، والاستشفاء بآياته، والجمع لحسنات تلاوته.

(د) ما يتعلق بالأنبياء والرسل - عليهم السلام -:

وكذلك الأمر بالنسبة للركن الرابع من أركان الإيمان - وهو ركن الإيمان بالرسل - عليهم السلام - فقد أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ عبر آيات القرآن الكريم أن هناك من سبقه من الرسل (٤)، وأن عددهم ليس بالقليل (٥)، وأنهم قد

---

(١) سبق شرح هذا بالتفصيل في فصل التربية النفسية للنبي ﷺ.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وغيرها من الآيات

(٣) سبق شرح هذا بالتفصيل في هذا الفصل في فقرة (تكليفه ﷺ بمعاهدة القرآن الكريم).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

(٥) ذكر الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٣ / ١٥٩٩ برقم ٥٧٣٧ عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: " قلتُ يا رسول الله، أي الأنبياء كان أوّل ؟ قال: (آدم).. قلتُ يا رسول الله! ونبيًّا كان؟ قال: (نعم نبيٌّ مكلَّم) قلتُ يا رسول الله، كم المرسلون؟. قال: (ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً) وفي رواية عن أبي أمامة، قال أبو ذر رضي الله عنه: قلتُ يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟، قال: "مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيراً ". الحديث سكت عنه الألباني في تحقيقه للمشكاة ٣ / ١٥٩٩.

اتفقوا معه في الدعوة إلى توحيد الله (١) سبحانه وتعالى وأصول التشريع ، واختلفوا في الفروع(٢) ، وقصّ الله عليه قصص بعضهم وسكت عن الباقي(٣) ، وأخبر الله رسوله ﷺ عن تفاضل الأنبياء عند الله(٤) ، وأن أفضلهم أولو العزم من الرسل (٥) ، وأكّد وجوب الإيمان بهم أجمعين (٦) ، وأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالجميع (٧) ، وذكر له بعض صفاتهم (٨) ، ووظائفهم التي كلّفهم الله

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ . [الأنبياء:٢٥].

(٢) مما يدل على اتفاق الرسل في أصول التشريع قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] ، قال الشوكاني في تفسيره ٤ / ٦٥٥-٦٥٦ : "أي بيّن لكم وأوضح من التوحيد ودين الإسلام وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل وتوافقت عليها الكتب..." .ومما يدل على اختلاف المسلمين عن أهل الكتاب في فروع الشريعة قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤]

(٤) كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام : ٨٣-٨٦] . وكما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٥٥] .

(٥) وقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ بالاقتداء بهم في صبرهم على أقوامهم، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

(٦) لعموم قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، ومن المعلوم أن قوم نوح إنما كفروا وكذبوا به فقط ؛ لأن الله تعالى لم يرسل غيره إليهم، فدلّت الآية على أن الكفر برسول واحد يعني الكفر بالجميع ؛ لأن الجميع حملة رسالة واحدة - هي رسالة التوحيد - ومُرسلهم واحد هو الله - عز وجل - ، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء : ١٥٠ - ١٥١] .

(٨) ومن هذه الصفات التي ذكرها الله لرسوله ﷺ عن الرسل السابقين:

[أ] أنهم من البشر، لقوله تعالى على لسان الرسل: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

[ب] أنهم من الذكور، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٧] .

بها (١) ،ومعجزاتهم (٢) . وبيّن له سُنَّة الله فيه وفيهم بالابتلاء لهم بأقوامهم(٣) ، ثم تنزل النصر عليهم(٤) .

---

(١) ومن وظائف الأنبياء ومهماتهم ما يلي :

[أ] البلاغ المبين، لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ [الاحزاب : ٣٩] .

[ب] الدعوة إلى الله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

[جـ] التبشير والإنذار، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف : ٥٦] .

[د] إصلاح النفوس وتزكيتها، لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧] ، ولا يكون هذا إلا عن طريق الرسل ، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم:٥] ، ولا يكون هذا الإخراج إلا عن طريق إصلاح النفوس وتزكيتها بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة : ٢].

[هـ] إقامة الحجة، لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء ١٦٥] .

[و] سياسة الامة، لقوله تعالى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

(٢) ومن هذه المعجزات:

[أ] ناقة صالح- عليه السلام - قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ [الاعراف : ٧٣] .

[ب] نار إبراهيم التي قال تعالى عنها: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ ﴾ [الأنبياء ٦٨-٦٩].

[جـ] آيات موسى التسع وأعظمها العصا، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ ﴾ [طه : ١٩ - ٢١] ، واما بقية الآيات فهي:

١-تلألؤ يده بياضاً كالقمر . ٢ - القحط الذي أصاب قوم فرعون، ونقص الثمرات.

٣-خروج الماء من الصخر. ٤- الطوفان.

٥-الجراد. ٦ - القمّل.

٧-الضفادع. ٨ - الدم.

[د] آيات عيسى ومنها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] .

(٣) كما في سورة الانعام آية ١٠ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠ ﴾ .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ ﴾ . [الصافات ١٧١-١٧٢] .

وشرَح القرآن لرسول الله ﷺ ما فعله وقاله أهل الكتاب في أنبيائهم من السُّوء [١] ، وذكر له أيضاً بشارات بعض الأنبياء السابقين لأقوامهم بنبوة رسول الله ﷺ [٢] ، وغير ذلك مما ذكره القرآن لرسول الله ﷺ عن الرسل السابقين.

والقرآن الكريم لم يكن ليعرض هذا كله لرسول الله ﷺ لغير حكمة، فكما أن القرآن قد سرد لرسول الله ﷺ قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم تسلية له وتثبيتاً لفؤاده [٣] ، فكذلك شرح له كل ما سبق ليحقق له مزيداً من التربية العقلية ـ إضافة إلى ما سبق ذكره ـ ، وذلك كما يلي:

بذكر القرآن الكريم لرسلٍ سابقين سبقوا رسول الله ﷺ في مجال الدعوة إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ تتوسّع معرفته ﷺ ويزيد علمه بأسماءِ رسلٍ ورسالاتٍ وأقوام وشرائع كانت في الزمان الماضي، فيكتسب حصيلةً علميةً جديدةً عن غيب الماضي، فيتمكن حينها من الوقوف أمام أهل الكتاب خاصةً الذين ينسبون لأنفسهم العلم بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم وغير ذلك من القصص التي حصلت في الزمان الماضي .

ويتضح هذا من خلال قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣].

ومن قوله تعالى في شأن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢] [٤] .

---

(١) كقتلهم الأنبياء ، كما قال تعالى في شأن اليهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

(٢) كدعوة إبراهيم لذريته كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [البقرة ١٢٨-١٢٩] .

وكما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

(٣) سبق ذكر هذا بالتفصيل في فصل تربية القرآن للنبي ﷺ نفسياً.

(٤) ونحو هذا في قصة مريم وموسى وهارون ـ عليهم السلام ـ.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " الخطاب...لرسول الله ﷺ...والمعنى الإخبار من الله لرسوله ﷺ بأن هذا الذي قصّه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عن رسول الله ﷺ، فأوحاه الله إليه، وأعلمه به، ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك..." (١) .

وهكذا فما زال القرآن الكريم يعرض لرسول الله ﷺ من أخبار الرسل السابقين وماضيهم الغائب ما يجعله يرد على أهل الكتاب ويكشف أكاذيبهم ويُصوّب خطأهم فيما يعتقدون ويقولون عن أنبيائهم، ولاشك أن هذا يُبين صدقه ﷺ وصدق ما جاء به أمامهم.

كما أن القرآن بذكره لقصص بعض الأنبياء السابقين وصفاتهم، ومعجزاتهم، وكلّ ما يتعلق بهم ـ مما ذكره القرآن ـ إنما يُحقق بهذا مزيداً من علم رسول الله ﷺ الذي يُمكن أن يستخدمه في تسلية الصحابة، وتبشيرهم وتثبيتهم ، كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

والقرآن ـ أيضاً ـ ببيانه لرسول الله ﷺ بشارات الأنبياء السابقين لأقوامهم به كإبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ، إنما يُقدِّم لرسول الله ﷺ علماً به يحاجُّ أهل الكتاب الذين أنكروا رسالته وكفروا بنبوته ، كيف وقد بشّر به أنبياؤهم ، بل كل الرسل السابقين؟! كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران : ٨١] (٢) .

---

(١) فتح القدير ٣ / ٨٣

(٢) وذكر ابن كثير في تفسيره ١ / ٣٨٦ ما نصه " قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه وابن عمه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما بعث الله نبياً إلا اخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وامره ان يأخذ الميثاق على امته لئن بُعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه،... " .

=

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " وهذا الميثاق أخذه الله على جميع الأنبياء، يُؤذنهم فيه بأن رسولاً يجيء مصدّقاً لما معهم، ويأمرهم بالإيمان به، وبنصره، والمقصود من ذلك إعلام أُممهم بذلك، ليكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال..،وفي أخذ العهد على الأنبياء زيادة تنويه برسالة محمد ﷺ .. " [(١)].

وهكذا فلازال القرآن الكريم ببيانه أحوال الرسل السابقين، وشرحه لركن الإيمان بهم، وكلٌ ما يتعلق بهم، لا زال القرآن بهذا يقدم لرسول الله ﷺ حصيلةً علميةً كافية بها يزيد الله ثباته في طريق الدعوة، وعلمه في ميدان البلاغ، وبها يُقَوّي الله حجته ويؤكد رسالته أمام العالمين.

(هـ) ما يتعلق باليوم الآخر:

وكما أن الله عز وجل قد بيّن لرسوله ﷺ وشرح له كلّ ما يتعلق بالرسل ـ وهذا من غيب الماضي ـ ، فكذلك أظهر الله لرسوله ﷺ كل ما يتعلق باليوم الآخر ـ وهو من غيب المستقبل ـ حتى بلغ بالنبي ﷺ مبلغاً عظيماً في دوام تذكر واستحضار هذا اليوم العظيم، والاستعداد له ، وكأنه ﷺ يراه بأم عينيه ولا زال في دار الدنيا، وبلغ علم النبي ﷺ وإيمانه بهذا اليوم أعلى درجات اليقين، وهي أعلى منازل المتقين، وبها تُنال الإمامة في الدين، كما قال تعالى في شأن بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى وبما جاء به، وأيقنوا بذلك وصبروا صبراً عظيماً:

= ثم استشهد ابن كثير بحديثين على ذلك الاول: رواه الإمام احمد في مسنده٣ / ٦١٤ برقم ١٥٨٤٥ ؛ عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ؛ إني مررتُ بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة، الا اعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله : فقلت له: الا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ .. فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، قال: فسُرّي عن النبي ﷺ ثم قال: " **والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين**" ؛..

والثاني رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده ٤ / ١٠٢ برقم ٢١٣٥ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **(لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني)**.

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣ / ٢٩٨-٢٩٩ .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة : ٢٤] (١) ، ومَنْ أعظم يقيناً باليوم الآخر من رسول الله ﷺ ؟! .

ولهذا فالقرآن في سبيل ذلك قد شرح لرسول الله ﷺ كلّ ما يتعلق بهذا اليوم ابتداء من تقرير حقيقته بكل ما فيه، وحتمية مجيئه (٢) والتدليل عليه (٣) وتأكيد وقوعه، وكرّر ذلك في كثير من آياته.

وأكدّ للنبي ﷺ وجوب الإيمان به (٤) ، وتكفير من أنكره (٥) ، وشنّع القرآن على المكذبين بيوم البعث (٦)

وحذّر الكافرين من التمادي في ذلك، ودعاهم للإيمان به (٧) ، وخوّف المؤمنين به من هوله ودعاهم للاستعداد له (٨)

وذكر الله لرسوله ﷺ اتفاق الأنبياء على تحذير أقوامهم من هذا اليوم (٩)

---

(١) وذكر الشوكاني في تفسيره ٤ /٣٦٦ اقوالاً اخرى في تفسير الآية منها ان المراد بالائمة الانبياء،وقيل العلماء.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه :١٥-١٦] ، ومعنى ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ كما ذكر ابن كثير في تفسيره ٣ / ١٥٢ " اي أكاد اخفيها من نفسي... وعن ابن عباس: لا اطلع عليها أحداً غيري، وفي قراءة ابن مسعود : إني أكاد أخفيها من نفسي " .

(٣) كما في قوله تعالى رداً على كل من انكر البعث وتدليلاً على الإعادة بإنشائها اول مرة: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس : ٧٩ - ٨٠] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ [سبا : ٨] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ . [النساء: ١٣٦] .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن : ٧] .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم : ٢] . وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠] .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] .

(٩) كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر :٧١] .

والله - عز وجل - قد أخبر النبي ﷺ - عبر آيات القرآن بتفاصيل هذا اليوم العظيم، فذكر له أسماءه (١) ، وإخفاء وقت الساعة (٢)

وأخبره بعلاماتها الصغرى (٣) ، والكبرى (٤) ، وشرح له الأحداث المتعلقة ببداية هذا اليوم المشهود، وما يقع فيه من أهوال عظيمة في الكون (٥) ، ثم نَفْخَ الصور وبَعْثَرَة من في القبور (٦) ، وبيّن له حال أرض المحشر (٧) ، وأحوال الناس فيها (٨) ، وبيّن له كل ما يحصل في هذا اليوم الآخر من: شفاعات (٩)، وتطاير الصحف(١٠) ، ووقوع الحساب والجزاء (١١)، و اقتصاص المظالم بين العباد (١٢).

---

(١) ومن ذلك: الحاقة، الساعة، الصاخة، الطامة الكبرى، الغاشية، الميعاد، الواقعة، اليوم الآخر، الآزفة، يوم البعث، يوم التغابن، يوم التلاق، يوم التناد، يوم الجمع، يوم الحساب، يوم الحسرة، يوم الخروج، يوم الخلود، يوم الدين، يوم الفتح، يوم الفصل، يوم القيامة، يوم الوعيد، وغير ذلك.

(٢) لقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣] .

(٣) ومن علاماتها الصغرى: انشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] .

(٤) ومن علاماتها الكبرى: خروج الدخان ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان ١٠ - ١١] .

(٥) كما في قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾ .... إلخ الآيات [التكوير: ١-١١] ونحوها في سورة الانفطار والانشقاق وغير ذلك.

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ [النازعات :٦-٧] ، وقوله تعالى مخاطباً الإنسان الكافر: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات :٩-١٠].

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم :٤٨]

(٨) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٣٤ -٤٢] .

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الإنشقاق :٧-٨].

(١١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ [إبراهيم :٤٩ -٥١] .

(١٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وأخبره عن الميزان (١) ، والحوض الذي أعدّه له في هذا اليوم العظيم (٢) ، والحشر بعد ذلك كلّه إلى دار القرار في الجنة أو النار(٣) ، بعد المرور على الصراط المستقيم (٤)

والقرآن الكريم قد حدّث النبي ﷺ بكل ما يتعلق بالجنة والنار، ابتداءً من خلق الله لهما عندما خلق الكون (٥)

والله ـ عز وجل ـ قد أخبر نبيه ﷺ عبر آيات القرآن عن الجنة ، فذكر له أسماءها (٦) ، وصفاتها (٧) ، وما يتعلق بدخول أهلها فيها (٨) ، والنعيم الذي أعدّه الله لهم، وأكّد له خلودها وخلود أهلها (٩)

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١ ﴾ [القارعة ٦-١١] .

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر : ١] .

(٣) كما في قوله تعالى عن الكفار: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ ﴾ [فصلت : ١٩] . وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ ﴾ [مريم : ٨٥] .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢ ﴾ [مريم : ٧١-٧٢] .
قال شارح العقيدة الطحاوية ص٤١٦ : « واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور-في الآية ما هو؟ والاظهر والاقوى انه المرور على الصراط » .

(٥) لقوله تعالى فيما يتعلق بالجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ -اي جبريل ﷺ- ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ ﴾ [النجم: ١٣ -١٥] ، وبالنسبة للنار قال سبحانه: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] ، وقال : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ ﴾ [النبا : ٢١] .

(٦) ومن أسماء الجنة: عدن، الغرفة، الفردوس، جنة الخلد، جنة المأوى، جنة النعيم، دار السلام، دار المقامة.

(٧) ومن صفاتها: عرضها السماوات والارض، تجري من تحتها الانهار ، فيها انهار من ماء ، وانهار من خمر ، وانهار من عسل، وانهار من لبن مصفى، عالية، وقطوفها دانية، وفيها من الفواكه، والافنان، والحور العين والفرش، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله .

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝٧٣ ﴾ [الزمر : ٧٣] .

(٩) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨ ﴾ [الكهف : ١٠٧ - ١٠٨] .

وكذلك الأمر بالنسبة للنار؛ فقد أخبر الله نبيه ﷺ عن النار بذكر أسمائها (١)، وصفاتها (٢)، وسعتها (٣)، وخزنتها (٤) ، وأبوابها (٥) ، ودركاتها (٦) ، ووقودها (٧)، وشدة حرّها (٨) ، وعظيم دخانها (٩) ، وشرارها (١٠) ، وعذابها، وأخبره عن طعام أهلها (١١) وشرابهم (١٢) ، ولباسهم (١٣) ، وغير ذلك.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن القرآن الكريم بشرحه لكل ما يتعلق باليوم الآخر ، قد حقّق للنبي ﷺ كثيراً من معاني التربية العقلية، والإيمانية (١٤) .

وتتضح معالم التربية العقلية مما يلي:

آيات القرآن التي ذكَرت حقيقة قدوم اليوم الآخر ، وحتمية وقوعه في وقت لا

---

(١) ومن أسمائها: جهنم، الحطمة، السعير، سقر، وغير ذلك.

(٢) ومن صفات النار: لها سبعة ابواب، وهي مؤصدة على اهلها، لها تغيظ وزفير، فيها شجرة الزقوم، و هي لظى، نزاعة للشوى، لا تُبقي ولا تذر، وغير ذلك.

(٣) كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق : ٣٠] .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [غافر : ٤٩] .

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر:٧١] .

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ . [التحريم :٦] .

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ . [القارعة : ٨-١١] .

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الواقعة : ٤١-٤٤] .

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣] .

(١١) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾. [المزمل : ١٢-١٣] .

(١٢) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ . [النبأ : ٢٤-٢٥] .

(١٣) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحج ١٩-٢٠] .

(١٤) ساعرض للتربية الإيمانية للنبي ﷺ -بالتفصيل - في الفصل الثالث.

يعلمه إلا الله ، عالم الغيب، وأكّدت ذلك في أكثر من موضع وكرّرته ، ودلّلت عليه، وأوجبت الإيمان به، وكفّرت من أنكره.

آيات القرآن بهذا كله تكون قد قدّمت للنبي ﷺ حُجَجاً ودلائل قوية، بها يحاجج من أنكر يوم البعث ويُدلّل عليه بكل الأدلة العقلية من واقع الحياة الدنيا في آيات الله المنظورة (١) أو الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم (٢) ويُدلّل عليه بكل الأدلة النقلية من آيات الله المسطورة في القرآن الكريم (٣) ؛فلا يعجز أمام من أنكر البعث ولا يتحيّر، ولا يقصّر في عرض حقائق وتفاصيل هذا اليوم العظيم بادلته وبراهينه لكل من شكٍّ أو كفر به، "فلم يبق أوضح من حجة رسول الله ﷺ التي حاجج بها هؤلاء الكفار" (٤) . والقرآن الكريم بإفاضته في الحديث عن اليوم الآخر ـ بكل ما فيه وما قبله وما بعده يكون قد قدّم للنبي حصيلةً علميةً كافية تتعلق بالدار الآخرة ـ عَالمَ الغيب ـ فوق ما عنده مما يتعلق بعالم الشهادة ـ الدار الأولى.

وبهذا تزداد مدارك النبي ﷺ توسُّعاً، وتكثر علومه تنوعاً ؛ فيتحقق بهذا قوله

---

(١) كإحياء الارض بعد موتها، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ . [الحج : ٥-٦] .

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس:٧٨-٨٣] .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة :٢٤٣] .
وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس:٧٧-٧٩]، وغيرها من ادلة كما في سورة الأعراف ٥٧ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣ / ٢٦٤ بتصرف يسير .

تعالى مخاطباً النبي ﷺ ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

فإذا توسَّعت مدارك النبي ﷺ ، وكثرت علومه التي علّمه الله - عز وجل - وقام بالدعوة إلى الله ، ووَعَظَ المؤمنين بما علّمه الله ،كانت موعظتُه ترجف لها القلوب، وتدمع لها العيون (١)، ويستسلم لها كل من له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد .

(و) ما يتعلق بالقضاء والقدر:

وكما أن القرآن قد بيّن للنبي ﷺ كل ما يتعلّق بالركن الخامس من أركان الإيمان - وهو ركن الإيمان باليوم الآخر - ، فإنه أيضاً قد أوضح للنبي ﷺ كلّ ما يتعلق بالركن السادس من أركان الإيمان - وهو ركن الإيمان بالقضاء(٢)والقدر(٣) -

(١) وأخرج الحاكم في مستدركه ١ / ٩٦ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه انه قال: " وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله إن هذا- هكذا في الأصل (هذا) لموعظة مودِّع ، فإذاً تعهد إلينا، قال: (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سُنّتي وسُنَّة الخلفاء المهديّين الراشدين من بعدي، وعليكم بالطاعة وان عبداً حبشياً ، عضوا عليها بالنواجذ). وقد اخرج الذهبي نحوه وقال: " على شرطهما ولا اعرف له علّة" مستدرك الحاكم بتلخيص الذهبي١ / ٩٦ .

(٢) القدر هو: ما سبق به العلم ، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الابد، وانه عز وجل قدّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل ان تكون في الأزل، وعلم سبحانه انها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدّرها" عقيدة السفاريني١ / ٣٤٨ .

انظر: لوامع الانوار ١ / ٣٤٨ للشيخ محمد بن احمد السفاريني (١١١٤-١١٨٨هـ) تعليق: الشيخ عبدالرحمن ابابطين، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلد ضمن جزأين.

(٣) القضاء هو: الفصل والحكم، ويرجع إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكُلّ ما أُحكم عمله او أُدّي او أُوجب او عُلم او نُفّذ او أُمضي، وقيل في القضاء قولان كما يلي:

[أ] هو العلم السابق الذي حكم الله به في الازل، قال ابن حجر: « القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله » .

[ب] هو الخلْق، قال ابن بطال: القضاء هو المقضي اي المخلوق،وبناء على هذا، فالقدر هو الحكم السابق وهو التقدير والقضاء هو الفصل والقطع. انظر: فتح الباري لابن حجر ١١ / ١٤٩-٤٧٧ .

وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٧٨ للإمام مجد الدين المبارك محمد الجزري ، وانظر: المفردات في غريب القرآن ص٤٠٦ للراغب الاصفهاني.

وهو يشمل الإيمان " بعلم الله الشامل المحيط بكل شيء (١)، وبكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة (٢) ، وبمشيئة الله النافذة وقدرته التامة ، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن (٣) ، وبخلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك له في خلقه (٤) " (٥)

كما قدم القرآن للرسول ﷺ التصور الصحيح عن القدر الذي افترق فيه المسلمون من بعده إلى فرق ومذاهب (٦). ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة في ذلك

---

(١) لقوله تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس : ٨٢] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

(٥) القضاء والقدر ص٢٩-٣٦ باختصار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، مكتبة الفلاح، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م ، بيروت، لبنان .

(٦) وخلاصة ذلك كما يلي:

(أ) مذهب المكذبين بالقدر (النفاة) ، ويسمون: القدرية ، حيث يزعم هؤلاء ان الله تعالى لا يعلم بالاشياء قبل حصولها . . وإنما يعلم بالموجودات بعد خلقها وإيجادها . . وان الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يُطيعه ممن يعصيه، ولا يعلم من يدخل الجنة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه او رفضوا علم السعداء منهم والاشقياء، ولا يقولون بان الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والارض، وقد نشأ هذا القول في آخر عهد الصحابة، واول من قال به معبد الجهني،ثم أئمة المعتزلة كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، انظر: معارج القبول ٣ / ٩٤٣ للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (١٣٤٢-١٣٧٧هـ)، ضبط عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم ، ط٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م ، الدمام ، السعودية، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات .

والقدرية هم مجوس الأمة الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم .

والمجوس هم الذين يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظلمة، والقدرية قالوا بوجود خالقين ، بل كل عبد يخلق فعله .

وقد انقرض هذا المذهب كما قال القرطبي-رحمه الله - في عقيدة السفاريني ١ / ٣٠٣ ، حيث قال: قد انقرض هذا المذهب . . فلا نعرف أحداً يُنسب إليه من المتاخرين، وقال ابن حجر-رحمه الله - القدرية اليوم مطبقون على ان الله عالم بافعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بان افعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول ، والمتاخرون منهم أنكروا تعلق الإرادة بافعال العباد. عقيدة السفاريني١ / ٣٠١

ولازم قول القدرية هذا إخراج أفعال العباد عن خلق الله -عز وجل- ومُلكه ، وانها ليست داخلة في ربوبيته -عز وجل- ، وانه يكون في ملكه مالا يُريد، وانهم اغنياء عن الله -عز وجل- فلا يستعينون به على ==

ما لخّصه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال: "مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب ما دلّ عليه الكتاب والسُّنَّة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو: أن الله خالق كل شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بَل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون،

= طاعته،ولا ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور انفسهم، ولا من سيئات اعمالهم، ولا يستهدونه الصراط المستقيم. انتهى. معارج القبول ٣ / ٩٤٥ .

والقدرية بزعمهم هذا كان قصدهم تنزيه الله وتقديسه عن فعل الشر ،فزعموا ان الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر هو الذي شاء الكفر، وحجتهم في ذلك ان هذا يؤدي إلى الظلم ؛ إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه، وهُم بهذا كما قال شارح العقيدة الطحاوية ص٢٤٩ : هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم ان مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله ، فإن الله قد شاء الإيمان منه–على قولهم– والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله ، وهذا من اقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل. انظر: لوامع الأنوار ١ / ٣٠٠ للسفاريني.

(ب) مذهب الجبرية التاركين للعمل اتكالاً على القدر : وهؤلاء على النقيض من الفريق الاول، حيث قالوا: ان الله عالم بكل شيء يفعله الإنسان، وبمصيره إلى الجنة أو النار، وهو الخالق لافعال العباد، ومريد لجميع الكائنات–وهذا كله موافق لمعتقد اهل السُّنَّة والجماعة – لكنهم زعموا ان كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه واحبه، وان العباد مجبورون على افعالهم، وكما قال شارح العقيدة الطحاوية ص٤٣٦ " زعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي: ان التدبير في افعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية.. وإضافتها إلى الخلق مجاز.." وهذا باطل ومخالف لمعتقد اهل السُّنَّة والجماعة القائم على الدليل من الكتاب والسُّنَّة وما سار عليه السلف الصالح–رحمهم الله – ، فإن لازم قول الجبرية هذا ان الإنسان كريشة في مهب الريح لا يملك امرًا ولا إرادة ولا قدرة، ولهذا قالوا: " إذا كان الله الخالق للافعال ، فلماذا العمل والنصب، ما دام القدر سياتي ويقع، شاء الإنسان ام ابىٰ، فزعموا انه لا حاجة بالعباد إلى الاخذ بالأسباب أو العمل.

ولازم معتقدهم هذا ان الله احب الكفر وسائر المعاصي، لزعمهم ان كل شيء خلقه الله واوجده فهو يحبه ويرضاه، ومن آثار معتقدهم هذا ترك الاعمال الصالحة التي تُنجي من النار وتوصل إلى الجنة، وقد قال ابن تيمية في شانهم : " الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا ان ذلك يوافق الامر والنهي، فهؤلاء يئول امرهم إلى تعطيل الشرائع، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق.. حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات ورفع العقوبات" الفتاوى ٨ / ٢٥٦ لابن تيمية – رحمه الله –.

انظر: لوامع الأنوار البهية ١ / ٣٠٠ للشيخ محمد بن احمد السفاريني.

وما لم يكن، لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها .

وقد قدّرالله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدّر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة .

فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها ، وكتابته إياها قبل أن تكون ... وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورن بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسُّنَّة ، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجبٍ تركَهُ ، ولا محرّم فعلَه، بل لله الحجة البالغة على عباده .

ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ... أن الله يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه (١) مع قولهم -أي أهل السُّنَّة والجماعة - أن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله .. " (٢)

قال شارح العقيدة الطحاوية : " ... والقدر خيره وشره، وحلوه ومره من الله تعالى... لقوله تعالى: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١] (٣).

والقرآن الكريم قد أخبر النبي ﷺ بمسائل القضاء والقدر كلّها حتى حقّق له تمام النور وكماله في الهداية إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)** ﴾ [الشورى: ٥٢: ٥٣].

(١) وفي شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٨ قال الطحاوي - رحمه الله - : "وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد".

(٢) الفتاوى ٨-٤٤٩-٤٥٩ باختصار .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦٤ .

ويتضح بيان القرآن للركن السادس من أركان الإيمان ـ ركن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ـ من خلال إخباره للنبي ﷺ أن كل شيء ـ في الخير والشر(١) ـ خلقه الله بقدر (٢) وأن أمر الله وقضاءه نافذ في ذلك كله (٣) ، وأن الله يمحو ما يشاء ويُثبت وعنده أم الكتاب (٤)

(١) مع ملاحظة ان افعال الله تعالى كلها خير من حيث نسبتها إلى الله تعالى خلقاً وإيجاد كما ثبت عن النبي فيما صح عنه في دعاء الاستفتاح في الصلاة : " والخير كله في يديك ، والشر ليس اليك" رواه مسلم في ١ / ٥٣٥ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، برقم ٧٧١ .

قال شارح العقيدة الطحاوية ص٣٦٦ وما بعدها في شرحه للحديث السابق : " اي فإنك لا تخلق شراً محضاً، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهذا شر جزئي إضافي، فاما شر كلي أو شر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه ، وهذا هو الشر الذي ليس إليه، ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط، بل إما ان يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ، ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] ، وإما ان يضاف إلى السبب كقوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ [الفلق : ٢] ، وإما ان يُحذف فاعله كقول الجن ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾ [الجن: ١٠] ، وليس إذا خلق ما يتاذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرحمة والحكمة ولا يقدر قدره إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ـ يكون شراً كلياً عاماً ، بل الامور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً او مصلحة للعباد كالمطر العام، وكإرسال رسول عام... " .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ ﴾ [القمر : ٤٩] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧ ﴾ [البقرة: ١١٧] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩ ﴾ الرعد٣٩، قال ابن تيمية في شرحه لهذه الآية في الفتاوى ٨ / ٥١٧-٥٤٠ ، فيما يتعلق بعلاقة الارزاق والاعمار بالمحور والإثبات: «الارزاق والاعمار نوعان: نوع جرئ به القدر وكُتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغيّر ولا يتبدل، ونوع اعلم الله به ملائكته فهذا الذي يزيد وينقص ... وام الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدّر الله فيه الامور على ما هي عليه، ففي كُتب الملائكة يزيد العمر وينقص ، وكذلك الرزق بحسب الاسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً واجلاً، فإذا وصل رَحِمَه ، زيد له في الرزق والاجل، وإلا فإنه يُنقص له منهما" ، وقال في الفتاوى٨ / ٥١٧ " والاجل اجلان : اجل مطلق يعلمه الله واجل مقيد، فإن الله يامر الملك ان يكتب لعبده اجلاً، فإن وصل رحمه فيامره بان يزيده في اجله ورزقه ، والملك لا يعلم ايُزاد له في ذلك ام لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الامر، فإذا جاء الاجل لم يتقدم ولم يتاخر».

وقال ابن حجر-رحمه الله- : " الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل ولا يبعُد ان يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، واما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله " فتح الباري ١١ / ٤٨٨ .

وأن ليلة القدر هي الليلة التي يتنزَّل فيها من أم الكتاب ما يكون في السَّنَة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك (١)، كما أخبر الله رسوله ﷺ بكل قضاء وقدر يكون في الكون كما يتضح من النقاط التالية:

أولاً: ما يتعلق بالأفلاك والمخلوقات العظيمة:

أخبر الله رسوله ﷺ أن قدره وقضاءه اقتضى خلقَ سبع سماوات في يومين، وتزيين السماء الدنيا بمصابيح (٢)، وجَعْلها رجوماً للشياطين (٣)، واقتضى تقدير الليل والنهار (٤)، وجعلَ الشمس ضياءً والقمر نوراً، وتقدير منازل للقمر؛ ليعلم الناس عدد السنين والحساب (٥)، وألا تُدرك الشمسُ القمر، والليلُ النهار (٦)، وبمشيئة الله وقدرته كان فلْقُ الإصباح وسكون الليل (٧)، وجريان الشمس لمستقر لها (٨)، وإنزال الماء من السماء (٩)

(١) لقوله تعالى فيما يتعلق بنزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾ [الدخان: ٣ - ٥] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾ فصلت ١١-١٢] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ الملك : ٥] .

(٤) لقوله تعالى مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ [يونس : ٥] .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس : ٤٠] .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٩٦ ﴾ [الأنعام : ٩٦] .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ ﴾ [يس : ٣٨] .

(٩) لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨ ﴾ . [المؤمنون : ١٨] .

ثانياً: ما يتعلق بالإنسان بشكل عام ـ في الدنيا والآخرة ـ:

أخبر الله نبيه ﷺ ـ عبر آيات القرآن الكريم عن كل قضاء وقدر يتعلق بالإنسان، فمن ذلك أن الله تعالى قدّر خلق الإنسان من نطفة، وجعل له قراراً إلى أجل معلوم (١)، وقدّر له رزقه ـ بسطاً وتقتيراً ـ (٢)، وقدّر حسناته وسيئاته خلقاً وإيجاداً (٣)، وقدّر ابتلاءه (٤) . (٥)

---

(١) لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑳ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ㉑ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉒ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ㉓ ﴾ [المرسلات ٢٠-٢٣] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : ٢٦] .
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ⑮ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ⑯ ﴾ [الفجر : ١٦] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء ٧٨] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② ﴾[الملك٢] .

(٥) **قد يُبتلى الإنسان بالمصائب وما يؤذيه لعدة حكم منها:**

[١] تكفير سيئاته لقوله ﷺ فيما رواه مسلم ٤ / ١٩٩٢ برقم ٢٥٧٣ عن ابي سعيد وابي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ اهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: **(ما يُصيب المؤمن من وصب ـ[وجع]ـ، ولا نصب ـ[تعب]، ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهمّه إلا كُفِّر من سيئاته)** .

[٢] رفع درجاته لقوله ﷺ فيما رواه مسلم٤ / ١٩٩٢ برقم ٢٥٧٢ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ : **(ما يُصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حطّ عنه بها خطيئة)** .

[٣] زيادة أجوره لقوله ﷺ فيما رواه مسلم٤ /١٩٩١ برقم ٢٥٧١ عن عبد الله رضي الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يُوعك فمسستُه بيدي، فقلت يا رسول الله إنك لتُوعك وعْكاً شديداً ـكناية عن شدة الحمّى ـ فقال رسول الله ﷺ : **(أجل إني أُوعك كما يُوعك رجلان منكم)** قال فقلت: ذلك ان لك اجرين، فقال رسول الله ﷺ (أجل) ثم قال رسول الله ﷺ : **(ما من مسلم يُصيبه أذىً من مرض فما سواه إلا حطّ الله به سيئاته، كما تحطّ الشجرة ورقها)** . ولقوله ﷺ فيما رواه مسلم ٤ / ١٩٩٢ برقم ٢٥٧٢ عن عائشة قالت: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **" ما من شيء يُصيب المؤمن حتى الشوكة تُصيبه إلا كتب الله له بها حسنة، أو حُطّت عنه بها خطيئته"** ».

[٤] إدخال العبد المبتلى الصابر الجنة لما ثبت في صحيح مسلم ٤ / ١٩٩٤ برقم ٢٥٧٦ عن عطاء بن ابي رباح قال: قال لي ابن عباس: الا أُريك امرأةً من اهل الجنة؟ قلت بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ قالت: إني أُصرع وإني أتكشّف فادع الله لي ،قال: **(إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يُعافيك)** ، قالت: اصبر ، فإني اتكشف، فادع الله الا اتكشف، فدعا لها" .

[٥] للابتلاء، ليرى الله صبر العبد واحتساب اجره عند الله وثباته على الطاعات وبعده عن المعاصي والسيئات وقوة إيمانه ، لما صحّ عنه ﷺ فيما رواه سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه انه قال : **(أشد الناس بلاء** =

وقدَّر عليه الموت (١) ، وجعل له أجلين (٢)

وكشف الله لرسوله ﷺ أن إرادته اقتضت ثبات الآجال دون تقديم ولا تأخير (٣) ، وأن ما يُصيب العبد من مصائب فبسبب منه (٤)

ثالثاً: ما يتعلق بأهل الكفر والإيمان:

أعلم الله نبيه ﷺ أنه لو شاء لهدى الناس جميعاً (٥)، ولو شاء لانتصر من الكفار؛ لكنه لم يفعل ذلك لتتحقّق حكمة الابتلاء (٦)،وعرّفه بسنته تعالى التي اقتضتها إرادته بإهلاك مَنْ كَفر من الأمم الماضية (٧) ، وتأخير عقوبات مَنْ عصى مِنْ أُمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة (٨) ، وأن النصر لرسل الله والغلبة لجنده في

الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) أخرجه الحاكم ٣ / ٣٤٣ وصحّحه وسكت عنه الذهبي، وفي رواية للترمذي ٤ / ٥٢٠ عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن ابيه رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله : أيّ الناس أشدُّ بلاءً؟ ، قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة) .

(١) لقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الواقعة : ٦٠] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الانعام : ٢] . والمراد بالاجلين كما قال ابن كثير في تفسيره ١ / ١٢٧ أن الاجل الأول هو مدة الدنيا، والثاني: هو عمر الإنسان إلى حين موته.

(٣) لقوله تعالى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجر : ٥] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩] .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر : ٤٣-٤٤] .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر : ٤٥] .

الحياة الدنيا (١) ، ويوم يقوم الأشهاد (٢)

وأنَّ مشيئة الله اقتضت ورود كل بني آدم ـ أهل الكفر والإيمان ـ على جهنم والمرور على الصراط يوم القيامة (٣) ، وأن رحمة الله اقتضت إنجاء المتقين (٤) ، وإبعاد الذين سبقت لهم من الله الحسنى عن النار (٥) ، وغير ذلك من مسائل القضاء والقدر التي عرّف الله رسوله ﷺ بها.

ولا شك أن لهذا التعريف أثراً في تحقيق المزيد من التربية العقلية للنبي ﷺ وذلك كما يلي:

■ بإخبار الله لنبيه ﷺ بعلمه السابق المحيط بكل شيء قبل إيجاده ومعرفته سبحانه بتفاصيل كل مخلوق سيخلقُه كما قدّر أزلاً إيجاده في زمانٍ ومكانٍ وعلى صفاتٍ وهيئاتٍ وأحوالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ معيّنة ، وما يصيبه من خير أو شر، وما يصْدُرُ عنه، ومتى يوجد، وإلى متى يستمر، وغير ذلك مما يتعلق بهذا المخلوق من كل صغيرة وكبيرة ـ ، وبأن الله قد كتب كلَّ ذلك في اللوح المحفوظ عنده، وأنه كائن بمشيئة الله تعالى وحده ـ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ـ وأن كلّ مخلوق خلقه الله جاء موافقاً لما قدّره الله وعَلمه وشاءه وكتبه ـ من أكبر مخلوق حتى أصغره ـ وأن الله تعالى يمحو ما يشاء ويُثبت وعنده أم الكتاب، وأن ليلة القدر في شهر رمضان هي الليلة التي تتنزل فيها أقدار الخلق من اللوح المحفوظ إلى الملائكة ليتم إجراء ذلك على الخلق لسنة كاملة من رزق وعافية وغير ذلك، بمعرفة رسول الله ﷺ لهذا الأمر كلّه تتوسّع مداركه وتزيد معارفه عن قدرات وصفات هذا الإله العظيم.

(١) لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات :١٧١-١٧٢] .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر : ٥١] .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم : ٧١] .

(٤) لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم : ٧٢] .

(٥) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] .

وهذا ما أكّده النبي ﷺ بنفسه قائلاً: (... **وأعلمكم بالله أنا**)[١]، وبالتالي يكون أكثر خشوعاً وتقوى لله وخشية منه كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر : ٢٨] ، فكيف برسول الله ﷺ الذي عُرج به فوق سبع سماوات إلى الملأ الأعلى [٢] ؟! .

وبتعريف الله للرسول ﷺ كل قضاء وقدر يتعلق بالأفلاك والمخلوقات العظيمة ـ مما ذكرته آيات القرآن ـ يتمكن النبي ﷺ من استثمار ذلك في الذود عن الذات الإلهية والرد على أهل الكتاب الذين نسبوا إلى الله ـ عز وجل ـ التعب بعد خلقه السماوات والأرض، فأعلم الله نبيه ليرد على الكفار بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾ [فاطر : ٢٨] [٣].

فقد اقتضت مشيئة الله خلْق السماوات والأرض، وتنزّه الإله ـ عز وجل ـ عن التعب والحاجة للاستراحة.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية : " كان بعض اليهود بمكة يقولون إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة، والاستراحة تُؤذن بالنصب والإعياء، ...فعطفت الآية إلى تكذيب الذين كانوا يتحدثون بحديث الاستراحة" [٤] .

---

(١) رواه البخاري١ / ١٦ ، في كتاب :الإيمان، باب :قول النبي ﷺ :**"أنا أعلمكم بالله"** برقم ٢٠عن عائشة رضي الله عنها، وذكره السيوطي في جمع الجوامع٢ / ١٨٨برقم٤٨٨١ ، والمتقي الهندي في كنز العمال برقم ٦٠٧٧ ، واول الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ : إذا امرهم ـ اي امر الصحابة ـ امرهم من الاعمال بما يُطيقون، قالوا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ، ثم يقول " **إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** " » .

(٢) ساشرح ذلك في الفقرة القادمة (التالية)

(٣) لغوب : اللغوب هو التعب والإعياء... لسان العرب ١ / ٧٤٢ مادة لغب .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٢٥ بتصرف واختصار يسرين ،وقد علق ابن عاشور على ورود هذه الآية في سورة ق المكية قائلاً : « فهذا تاويل موقع هذه الآية في هذا المحل .. مع الإجماع على ان هذه السورة كلها مكية.. فقول من قال : نزلت في يهود المدينة تكلف ؛ إذ لم يكن اليهود مقصورين على المدينة من بلاد العرب ، وكانوا يترددون إلى مكة ».

وبإخبار القرآن النبي ﷺ بقضاء الله وقدره الذي اقتضى تقدير القمر على منازل خلال أيام الشهر ـ ليعلم الناس عدد السنين والحساب ـ فيه دعوة ـ ضمناً ـ لرسول الله ﷺ وأُمته لتعلُّم حساب الأزمان والأوقات ـ عبر معرفة منازل القمر ـ ، وعبر الشمس التي قال تعالى عنها وعن القمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن : ٥] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "أي لحساب الناس مواقع سيرهما" (١) . وبذلك تنتظم أمور الخلق في شؤون الدنيا والدين، وأهمها : أداء الصلاة في أوقاتها، وصيام شهر رمضان ، والحج لبيت الله الحرام ونحو ذلك.

ولا شك أن تعلم حساب منازل القمر وفهم ذلك لا يتم إلا عن طريق أداة الفهم الخاصة بالإنسان وهي العقل "فمن معرفة الليالي تُعرف الأشهر، ومن معرفة الأشهر تُعرف السنة، وفي ذلك رفقٌ بالناس في ضبط أمورهم، وأسفارهم، ومعاملات أموالهم، . . . " (٢)

والقرآن الكريم قد أخبر النبي ﷺ بكل قضاء وقدر يتعلق بالإنسان، ومن ذلك ابتلاؤه بالمصائب ونحوها التي بسبب ذنوبه، فيتعلم رسول الله ﷺ بذلك ويُعلِّم أمته ـ المنهج الإسلامي القرآني الصحيح لتفسير وفهم ما يقع في الكون من كوارث ونكبات ـ بدلاً من الاقتصار على التفسير العلمي الحديث الذي يشرح الأسباب المادّية العلمية (القدرية الكونية) ويُهمل الأسباب الشرعية التي قال الله تعالى عنها : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ ﴾ [الروم : ٤١] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٣٤

(٢) نفس المرجع ونفس المؤلف ١١ / ٩٦ .

ثانياً: كشف بعض الغيبيات ووقوع بعض المعجزات:

دلّت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ كثيراً من علوم الغيب عن طريق آخر ـ غير آيات القرآن ـ .

فكل ما جاء على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيّبات فبوحي من الله تعالى" وهو من إعلام الله لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته"(١).

من ذلك ما روى حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قام فينا رسول الله مقاماً، فما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه، حَفِظه من حفظه ونسيه من نسيه» (٢)

وفي رواية أخرى لـ عمرو بن أخطب الأنصاري (٣) ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى الظهر، فنزل فصلّى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة، فاعلمنا أحفظنا» (٤)

تذكر هذه الرواية والتي قبلها أن رسول الله ﷺ أخبر الصحابة عن كثير من علوم الغيب التي علمه الله إياها، وهي كثيرة لا يمكن حصرها، وقد عبّر عنها حسان بن ثابت (٥) ـ رضي الله عنه ـ بقوله شعراً، فقال:

(١) موسوعة نضرة النعيم ١ / ٥٣٤

(٢) رواه مسلم٤ / ٢٢١٧ في كتاب: الفتن واشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، برقم ٢٨٩١، واخرجه ابو داود في سننه برقم ٤٢٤٠، وذكره الخطيب في مشكاة المصابيح برقم ٥٣٧٩ .

(٣) هو عمرو بن أخطب، ابو زيد الأنصاري، وهو مشهور بكنيته، يقال إنه من بني الحارث بن الخزرج، وقيل ليس من الاوس ولا من الخزرج، له صحبة، وغزا مع النبي ﷺ غزوات، ومسح رسول الله ﷺ راسه ودعا له بالجمال.. يقال إنه بلغ مائة سنة ونيفاً وما في راسه ولحيته إلا نبذ من شعر ابيض.
انظر: اسد الغابة ٤ / ٢٠١ ترجمة رقم ٣٨٤٨، ٦ / ١٣٧، ترجمة رقم ٥٩٢٢ .
و: تقريب التهذيب لابن حجر١ / ٧٢٩ .

(٤) رواه مسلم ٤ / ٢٢١٧ في كتاب: الفتن، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، برقم ٢٨٩٢ ورواه ابن حنبل في مسنده ٥ / ٤٢٥ برقم ٢٢٨٨٣ .

(٥) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار، الانصاري الخزرجي، من سكان المدينة ، شاعر رسول الله ﷺ، ابو الوليد ، المؤيد بروح القدس، عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، قيل لم يشهد مع النبي مشهداً ،كان ابن ستين سنة وقت هجرة النبي ﷺ .وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه هاجر مع رسول الله ﷺ =

نبي يرى مـا لا يرى الناس حـوله ويتلو كـتاب الله في كل مـسجد
وإن قال في يوم مـقـالـة غـائـب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد(١)

وتنقسم علوم الغيب التي علّمها الله رسولهَ ﷺ من غير القرآن إلى ثلاثة أقسام، فمنها:

ما يتعلق بغيب الماضي " مما جاءت به السُّنَّة المطهرة من تفاصيل ودقائق عن أخبار الأمم السابقة، كحديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار (٢) وأشباه ذلك مما صدّقه علماء أهل الكتاب ولم يقدروا على تكذيبه بل أذعنوا لذلك" (٣)

ومنها ما يتعلق بغيب الحاضر في زمانه "كإعلام الله لنبيه ﷺ بمصارع طغاة قريش زماناً ومكاناً (٤) ، وإخباره بسوء خاتمة بعض الذين قاتلوا معه في بعض المعارك قتالاً شديداً (٥) .

بنفسه وماله ، قال الذهبي «هذا دال على انه غزا» ، توفي في المدينة عام ٥٤هـ وعمي قبيل وفاته.
انظر :الإصابة ٢ / ٥٣، و: سير أعلام النبلاء ٢ / ٥١٢-٥٢٣، و:تقريب التهذيب لابن حجر١ / ١٩٨ .

(١) انظر: شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ص١٤١، وضع وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، طبعة (بدون)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، بيروت، لبنان ، ووردت في موسوعة نضرة النعيم ١ / ٥٤٣ بالنص كالتالي :

نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلـو كتاب الله في كـل مشهد
فإن قـال في يـوم مقالة غائـب فتصديقها في صحوة اليـوم أو غد

(٢) رواه الإمام احمد في مسنده ٤ /٣٧٣ برقم ١٨٣٧٧ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٨ / ٤٠ ، وقال : «رجاله رجال الصحيح» ، وهو عند : أبي يعلى والطبراني والبزار .

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١ / ٥٤٤ .

(٤) روى مسلم ٤ / ٢٢٠٢ عن انس بن مالك رضي الله عنه انه قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال، وكنتُ رجلاً حديد البصر (اي نافذه) فرأيته، وليس احد يزعم انه رآه غيري. قال: فجعلتُ اقول لعمر: اما تراه؟ فجعل لا يراه، قال: يقول عمر ساراه وانا مستلقٍ على فراشي، ثم انشأ يحدثنا عن اهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع اهل بدر بالامس،يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله،قال:فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما اخطاوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ...الخ الحديث.رواه مسلم برقم ٢٨٧٣ .

(٥) روى مسلم ١ / ١٠٦ في كتاب: الإيمان، باب: تحريم قتل الإنسان نفسه برقم ١٧٩، عن سهل بن سعد الساعدي: «ان رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي اصحاب رسول الله رجل لا يدع لهم شاذة -اي : لا يدع احداً من الكفار- إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما اجزا منا اليوم احد كما اجزا فلان -اي: ما اغنى وكفى- فقال رسول الله ﷺ : (أما إنه من أهل النار)، فقال رجل من القوم: انا اصاحبه ابداً-اي:ساصحبه لانظر السبب الذي به

ومنها ما كان يُخبر الله رسوله ﷺ عنه من أحوال المؤمنين والكافرين والمنافقين مماكان يدوربعيداًعن مجلسه أوفي نفوسهم فيكشفه الله تعالى للرسول ﷺ (١).

ومن علوم الغيب التي أخبر الله بها رسوله ﷺ: ما يتعلق بغيب المستقبل، وفي ذلك روايات قد ذكرها البيهقي (٢) في دلائل النبوة، وابن كثير في الملاحم والفتن وفي البداية والنهاية، والسيوطي في الخصائص الكبرى، والقرطبي في التذكرة وغيرهم، فمنها إعلام الله لنبيه ﷺ أن مُلك أُمته سيبلغ مشارق الأرض ومغاربها، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى (٣) لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زوى لي منها**» (٤) ومنها أمارات الساعة وغير ذلك كثير.

ومن علوم الغيب التي أخبر بها جبريلُ محمداً ﷺ وعلّمه إياها ما ورد في

= يصير من اهل النار–، قال فخرج معه، كلما وقف، وقف معه، وإذا أسرع، أسرع معه، قال: فجُرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالارض وذُبابه بين ثدييه (أي طرفه الاسفل) ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، قال: فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: اشهد إنك رسول الله ...وذكر تمام الحديث".

(١) وهذا كثير في آيات القرآن، ومن ذلك قوله عن المنافقين في سورة الاحزاب آية ١٢ وما بعدها: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

(٢) هو ابو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي، المولود في جُروجر (من قرى بيهق بنيسابور) عام ٣٨٤هـ وهو فقيه، حافظ، اصولي، زاهد، ورع، من جبال العلم، ... سمع من كبار علماء عصره، ورحل لطلب العلم إلى بغداد وخراسان والحجاز وغيرها من البلدان، له اكثر من مائة شيخ، روى عنه جمع كثير، وقد اخذ الفقه، و قرأ علم الكلام، ثم اشتغل بالتصنيف، بلغت تصانيفه الف جزء، قال عنه إمام الحرمين: «ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منّة، إلا البيهقي، فإن له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرته لمذهبه واقاويله»، وقال الذهبي: «لو شاء البيهقي ان يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف» من مصنفاته: (السُنن الكبرى) و(السُنن الصغرى) و(دلائل النبوة) في الحديث و(الأسماء والصفات) في التوحيد. وغير ذلك من الكتب، توفي عام ٤٥٨هـ في نيسابور.
انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي ١٦ / ٩٧ ترجمة رقم ٣٣٨٧ و: طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٨–١٦ ترجمة رقم ٢٥٠، لتاج الدين ابي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي (٧٢٧–٧٧١هـ) تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي، طبع بمطابع عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٨٥هـ–١٩٦٦م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

(٣) زوى: أي جمع وطوى وقبض، انظر لسان العرب١٤ / ٣٦٤ مادة زوى.

(٤) رواه مسلم ٤ / ٢٢٢٥، في كتاب: الفتن، باب: هلاك هذه الأمة برقم ٢٨٨٩ عن ثوبان رضي الله عنه، واخرجه ابو داود برقم٤٢٥٢، والبيهقي في السُنن الكبرى٩ / ١٨١.

جوابه ﷺ على أسئلة أهل الكتاب بما هو مطابق للحق المقرر عندهم.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: "بلغ عبد الله بن سلام رضي الله عنه (١) مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشراط (٢) الساعة؟، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع (٣) الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ ،فقال رسول الله ﷺ : **«خبّرني بهن آنفاً جبريل، قال... وذكر بقية الحديث»** (٤)

وفي رواية أُخرى يذكر رسول الله ﷺ أنه ما كان له علم بشيء من ذلك حتى آتاه الله به (٥)

وهكذا كشف الله لنبيه ﷺ كثيراً من علوم الغيب مما هو مختص بالله

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، ثم الانصاري، كان حليفاً لهم، من بني قينقاع، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليها السلام، وكان اسمه في الجاهلية الحصين، فسماه رسول الله ﷺ حين اسلم عبد الله، وكان إسلامه لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجراً ..فيه نزل قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ شهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجاهلية، توفي سنة ثلاث واربعين هجرية في المدينة المنورة .

انظر: أسد الغابة لابن الاثير٣ / ٢٦٨-٢٦٩، و:سيراعلام النبلاء للذهبي٢ / ٤١٣-٤٢٦ .

(٢) الأشراط: العلامات، والمعنى: ما أول العلامات التي تتقدم الساعة، انظر لسان العرب٧ / ٣٢٩ مادة شرط.

(٣) ينزع: اي يشبه، قال في لسان العرب١ / ٣٥٠ : نزع فلان إلى أبيه ينزع في الشبه اي: ذهب إليه واشبهه.

(٤) رواه البخاري ٣ / ١٢١١،كتاب:أحاديث الانبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ برقم٣١٥١ والحديث طويل، واخرجه مسلم في ١ / ٢٥٢ برقم ٣١٥ وبقية الحديث: (قال: فقال عبد الله ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ : **" أما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت**-وهي القطعة المنفردة المتعلقة بالكبد-، **وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبق ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها"** ، قال: اشهد انك رسول الله ، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت -جمع بهوت وهو كثير البهتان وهو اسوا الكذب، والمعنى: كذابون ممارون لا يرجعون إلى الحق-، إن علموا بإسلامي قبل ان تسالهم بهتوني عندك،فجاءت اليهود ودخل عبدُ الله البيت، فقال رسول الله ﷺ :**(أي رجل فيكم عبدُ الله ابن سلام)** قالوا: اعلمُنا وابن اعلمنا، واخيرنا وابن اخيرنا، فقال رسول الله ﷺ : **(أفرأيتم إن أسلم عبدُ الله)** ، قالوا: اعاذه الله من ذلك، فخرج عبدُ الله إليهم، فقال: اشهد ان لا إله إلا الله، واشهد ان محمداً رسول الله ، فقالوا: شرُّنا ، وابن شرِّنا، ووقعوا فيه".

(٥) كما في صحيح مسلم ١ / ٢٥٢، في كتاب: الحيض، باب: صفة مني الرجل، برقم ٣١٥ وفيه **(لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه ، حتى آتانيَ الله به...)** والحديث طويل.

تعالى وحده إلا ما شاء الله أن يُطلعه على بعض أنبيائه ، ويُعرّفهم به، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ . [آل عمران : ١٧٩] .

وقال سبحانه واصفاً نفسه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : "هذه كقوله تعالى: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهكذا قال هاهنا إنه يعلم الغيب والشهادة وإنه لا يطّلع أحدٌ من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه..."(١).

وكما علّم الله نبيه ﷺ - عن طريق وحي السُّنة - بعض علوم الغيب فقد علّمه وزاده علماً بكشف علوم غيب أخرى عن طريق آخر، وهو وقوع بعض المعجزات الكبرى، كمعجزة الإسراء والمعراج ؛ ففي هذه الحادثة العظيمة أسرى الله بنبيه ﷺ جسداً وروحاً - على الصحيح (٢) - ، ونقله إلى عالم آخر - خارج عالمه الذي عرفه - أسْرَى به من مكة - بلد المسجد الحرام - إلى المسجد الأقصى في فلسطين، ثم عَرَجَ به إلى السماوات العُلى حتى سدرة المنتهى؛ والقصة معروفة (٣)

وقد ابتدأت الرحلة بشق صدره ﷺ وغسل قلبه، ثم ملئه إيماناً وحكمة كما ثبت في الحديث الصحيح (٤) .

والشاهد منها أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ في هذه الحادثة ملكوت السموات

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٢ .

(٢) فصّل ابن كثير القول في ذلك ، وأورد جميع الأقوال في تفسيره ٣ / ٢٥-٢٦ .

(٣) ذكرها الإمام مسلم ١ / ١٤٥ في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء ، برقم ٢٥٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه والحديث طويل، وذكرها البخاري ١ / ١٣٥، في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، برقم ٣٤٢، عن أنس عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٤) لقوله ﷺ ، فيما رواه مسلم ١ / ١٥٠ في كتاب: الإيمان ، باب: الإسراء برقم ٢٦٤ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه... ثم اعيد مكانه-أي قلب رسول الله ﷺ -ثم حُشي إيماناً وحكمة).

ابتداءً من الدابة التي حملته (البراق) (١) ، ثم ما شاهده ﷺ في السماء الأولى ـ السماء الدنيا ـ سواء آدم عليه السلام وترحيبه بالنبي ﷺ ودعائه له أو ملكوت هذه السماء ـ ثم ما رآه ﷺ من ملكوت السماء الثانية ومن فيها كابني الخالة : عيسى بن مريم ويحي بن زكريا الَّذَّينِ رحّبا به ﷺ ، ودعوا له بخير ، ثم ما رآه من ملكوت السماء الثالثة ومن فيها كيوسف ـ عليه السلام ـ ، ثم ما شاهده من ملكوت السماء الرابعة والتقائه بإدريس ـ عليه السلام ـ الذي رفعه الله مكاناً عليًّا ، ثم ما رآه بأم عينيه في السماء الخامسة ـ سواء ملكوتها أو من فيها من الأنبياء ـ كهارون ـ عليه السلام ـ ، ثم التقائه بموسى ـ عليه السلام ـ في السماء السادسة ومشاهدته ﷺ لملكوتها ـ ثم ما رآه في ملكوت السماء السابعة ـ وهناك التقى بإبراهيم عليه السلام مُسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي أقسم الله به في القرآن على وقوع عذاب الله بالكافرين ، كما قال تعالى : ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ⑧﴾ [الطور : ١ ـ ٨] .

وفي هذه الرحلة السماوية المباركة كشف الله لرسوله ﷺ دخول سبعين ألف ملك كلّ يوم إلى هذا البيت المعمور لا يعودون إليه ، ثم انتقل ﷺ إلى السدرة المنتهى (٢) ، فرأى أوراق شجرها ـ العظيمة ـ فإذا هي كآذان الفيلة ، وأبصر ثمرها ، فإذا هي كالقلال (٣) ، وهناك زاد الله نبيه ﷺ من العلم عن طريق الوحي ما قال تعالى عنه ـ بعد ذكره اقتراب جبريل من النبي ﷺ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ

(١) البراق : هي اسم الدابة التي ركبها النبي ﷺ ليلة الإسراء ، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ١٤٥ ، لمحمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) السدرة المنتهى : هكذا في الأصل عند الإمام مسلم ١ / ١٤٦ ، وقال النووي ـ رحمه الله ـ في شرحه : "هكذا وقع في الأصول : السدرة بالألف واللام ، وفي الروايات بعد هذا سدرة المنتهى ، وسُميت بذلك ؛ لأن علم الملائكة ينتهي إليها ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ ، وحُكي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنها سُميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى .

(٣) كالقلال : جمع قلة ، وهي الجرة الكبيرة ، تسع قربتين أو أكثر ، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ١٤٦ .

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم : ٨ – ١٢] (١)

قال الشوكاني - رحمه الله - : " أي فكان مقدار ما بين جبريل - عليه السلام - ومحمد ﷺ أو ما بين محمد وربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين عربيين .. وعندها أوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى...وقيل المعنى: فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ (٢) ما أوحى " (٣) .

وأيّاً كان مصدر الوحي إلى رسول الله ﷺ ، سواء الذات الإلهية أو جبريل - عليه السلام - فالشاهد من كل ما سبق أن رسول الله ﷺ في سدرة المنتهى تلّقى وحياً جديداً زاده الله به علماً عظيماً فوق ما رآه من آيات قال تعالى عنها: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٧ -١٨] (٤) .

وفي هذه الرحلة فرض الله على رسوله ﷺ وأمته من بعده خمسين صلاة في اليوم والليلة، وما زال رسول الله ﷺ يُراجع ربه، ويسأله التخفيف - بناءً على مشورة موسى - عليه السلام - وإخباره عليه السلام لمحمد ﷺ أن أمته لا تُطيق ذلك ؛ لأنها أضعف أجساداً وقلوباً من قومه الذين أرسله الله إليهم (٥) ، حتى أرجعها الله إلى خمس صلوات في الأداء وخمسين في الأجر.

والروايات في حادثة الإسراء والمعراج، ومما رآه النبي ﷺ في تلك الليلة كثيرة ومتعددة وطويلة، منها الصحيح ومنها غير ذلك ؛ فمن الصحيح ما رواه الإمام

---

(١) وذكر الشوكاني في تفسيره ٥ / ١٥٠قولاً آخر ، غير ما ذكرنا من قول الجمهور حيث قال: "وقيل هو النبي ﷺ -اي الذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ - والاول اولى" ، وذكر اقوالاً في تفسير الآية بناءً على هذا المعنى.

(٢) وذكر الشوكاني في تفسيره ٥ / ١٥١ قولا آخر ، وهو ان المُوحى إليه جبريل-أوحى الله إليه-.

(٣) فتح القدير ٥ / ١٥١ .

(٤) وقال الشوكاني في تفسيرها في٥ / ١٥٢-١٥٣: " اي والله لقد راى تلك الليلة من آيات ربه العظام مالا يُحيط به الوصف، وقيل راى رفرفاً سد الافق، وقيل راى جبريل عليه السلام في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح، ... وقيل : هو كل ما رآه تلك الليلة في مسراه وعوده... " .

(٥) كما ثبت في صحيح البخاري ٦ / ٢٧٣٠ برقم ٧٠٧٩ .

مسلم ـ رحمه الله ـ بعدة صيغ ، في بعضها زيادات منها : أن النبي ﷺ رأى في السماء الدنيا عن يمين آدم أسودة[(١)]،وعن يساره كذلك،وعندما سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن معنى ذلك ، ولماذا كلما نظر آدم قِبل يمينه ضحك؟ وكلما نظر قِبل شماله بكى؟ ، فاعلمه جبريل عليه السلام وعرَّفه أن هذه الأسودة هم نسم بني آدم (أرواحهم) فأهل اليمين أهل الجنة ، والذين عن شماله هم أهل النار .

وفي هذه الرحلة ـ المعجزة ـ يقول ﷺ : «**ثم أُدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ** [(٢)] ، **وإذا تُرابها المسك**» [(٣)]

وفي هذه الرحلة أيضاً عَلِم رسولُ الله ﷺ سبب بكاء موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن جاوزه [(٤)] .

وصحّ أن رسول الله ﷺ رأى في هذه المعجزة أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، قال: (**فقلت :يا جبريل ، ما هذه الأنهار؟، قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات**) [(٥)] .

وقد رأى رسول الله ﷺ مالكاً خازن النار، والدجّال، ورأى غيرهما ، حتى أنه ﷺ حكى للصحابة أوصاف بعض الأنبياء والرسل الذين رآهم وأوصاف دوابّهم، بل ومن يشبههم من الصحابة، أما هو فقد أشبه خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ

(١) أسودة: جمع سواد، كسنام وأسنمة... وتجمع على اساود، وقال أهل اللغة: السواد: الشخص، وقيل: السواد الجماعات.

(٢) جنابذ اللؤلؤ: جمع جُنبذة ، وهي القباب.
صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ١٤٨-١٤٩ لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) مسلم ١ / ١٤٩ في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ ، حديث رقم ٢٦٣، عن انس رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يُحدث ان رسول الله ﷺ قال: " فرج سقف بيتي... وذكره" و الحديث طويل، وأخرجه البخاري في١ / ١٣٥ برقم ٢٤٢ .

(٤) كما ثبت في صحيح مسلم ١ / ١٥٠ برقم ٢٦٤، وفيه: ... فاتيت على موسى- عليه السلام- فسلمت عليه، فقال مرحباً بالاخ الصالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى، فنودي ما يبكيك؟ قال: ربٌ ، هذا غلام بعثته بعدي، يدخل من أمته الجنة اكثر مما يدخل من أمتي..."

(٥) رواه مسلم ١ / ١٥٠ برقم٢٦٤ عن انس بن مالك بن صعصعة، واخرجه البغوي في شرح السنّة ١٣ / ٣٤٥، وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة برقم ٥٨٦٤ .

كما قال عن نفسه..." (١)

هذه مجمل المشاهد التي شاهدها ﷺ ليلة الإسراء والمعراج واستوعبها، كما رواها الإمام مسلم(٢) ـ رحمه الله ـ ،وكذلك البخاري(٣) ـ رحمه الله ـ وغيرهما.

وقبل أن أشرح أثر هذه الرحلة والكشوفات العلمية والشرعية ـ التي أعلم الله بها نبيه ﷺ في تحقيق مزيد من التربية العقلية للنبي ﷺ أؤكد على أنه ﷺ في هذه الرحلة: رأى وسمع وسأل وتنقَّل وغير ذلك مما وقع منه، أَوْ لَهُ، وبهذا كله ونحوه يتم تحصيل العلوم وتربية العقل، وهل بغير السماع والمشاهدة والسؤال والترحال يتم تحصيل العلوم وتنضيج العقول؟! لئن كان القرآن الكريم قد حقق لرسول الله ﷺ بعضاً من جوانب التربية العقلية عن طريق التلقي للوحي من جبريل عليه السلام، فإن حادثة الإسراء والمعراج قد أكملت لرسول الله ﷺ ذلك عن طريق جبريل وغيره، وباستخدام جميع حواس التعلم من سمع وبصر للاستقبال، ولسان للاستفسار، وانتقال بكل الجسد للتعرف على حقيقة الأشياء عن قرب، فاكتسب رسول الله ﷺ من العلم والإيمان ما لا يُقَدَّر قدره، ولا يمكن حصره، كيف وقد رأى مالا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!.

وتتضح مظاهر ومعالم التربية العقلية التي اكتسبها النبي ﷺ في هذه الرحلة مما يلي:

- في أول هذه الرحلة قامت الملائكة بشق صدره،وغسل قلبه ـ بعد استخراجه ـ ثم ملأته إيماناً وحكمة ـ كما أسلفتُ ذكره في الحديث الصحيح ـ .

---

(١) وقد ثبت كل هذا في الأحاديث الصحيحة عند الإمام مسلم١ / ١٥١-١٥٤ .

(٢) صحيح مسلم١ / ١٤٥-١٥٤، وقد ذكرنا معظم ما ذكره الإمام مسلم في صحيحه.

(٣) صحيح البخاري ١ / ١٣٥ في كتاب: الصلاة، باب : كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، برقم ٣٤٢، وفي ٦ / ٢٧٣٠، في كتاب: التوحيد، باب: وكلم الله موسى تكليماً، برقم ٧٠٧٩، وأول الحديث عن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة... والحديث طويل.

والشاهد أن الملائكة ـ بأمر من الله تعالى ـ ملأت قلب النبي ﷺ حكمة، والحكمة لها عدة معان منها: كما قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء :١١٣] . أنها تعني: السُّنَّة ، حيث قال في تفسير الآية السابقة: ... ثم امتنَّ الله على رسوله ﷺ بتأييده إياه، في جميع الأحوال... وما أنزل عليه من الكتاب وهو: القرآن ، والحكمة وهي: السُّنَّة... " (١)

وفي حادثة الإسراء والمعراج رأى رسولُ الله ﷺ وعَلِم كلَّ جديد عليه؛ فمن ذلك: البُراق الذي حمله إلى حيث شاء الله ، ومن ذلك: المسجد الأقصى الذي صلى فيه إماماً بالأنبياء(٢)، ومن ذلك: ملكوت السماوات السبع وبعض من فيها من الأنبياء، ثم البيت المعمور والملائكة التي تدخله كل يوم لا تعود إليه، ثم سدرة المنتهى وبعض ما فيها ، رأى رسول الله ﷺ وعَلِم كل هذا وغيره.

وكشَفَ الله من ملكوته وخلقه ما به تنتقل ذاكرة رسول الله ﷺ من المجرد المشاهد المحسوس إلى الغائب المكشوف له ﷺ ، وما به ينتقل ذهنه من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الملكوت الأعلى، بما فيه من جنة ونار، فعرف الله وحقيقة عظمته سبحانه حق المعرفة، وسبّح الله في ركوعه وسجوده قائلاً : **(سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)** (٣) .

إذاً ، ففي هذه الرحلة تعرّف ﷺ على حقيقة خلق السماوات، كما قال تعالى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٥٦٧ .

(٢) كما ذكر ذلك ابن كثير ٣ / ١٦ .

(٣) أخرجه أبو داود ١ / ٥٤٤ في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، برقم ٨٧٣، عن عوف بن مالك الأشجعي، وأول الحديث قال عوف: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف، فتعوذ ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه (سبحان ... وذكر الحديث) حتى قال: ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة .. الخ الحديث» . قال الألباني في صحيح سُنن أبي داود ١ / ١٦٦ : صحيح. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٢ / ٣١٠ ، والبغوي في شرح السُّنَّة ٤ / ٢٢ .

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر : ٥٧] . ورأى ما كان قد أُوحِي إليه في آيات الله المسطورة متجسداً في آيات الكون المنظورة.

وانتقل ﷺ من علم اليقين إلى عين اليقين ، حيث رأى السماوات ومن فيها بأُم عينيه، بل انتقل إلى أعلى درجات اليقين وهي مرتبة حق اليقين من خلال معراجه في السماوات وفوقها، ودخول الجنة، فيا ترى كيف سيكون علمه بعد رجوعه إلى الأرض وقد كشف الله له كل هذه العلوم الكونية؟.

ولم يكن ﷺ ليتعلم ويَكتشف العلوم الكونية فقط ـ عبر هذه الرحلة ـ بل إن الله تعالى أوحى إليه ما أوحى هناك عند سدرة المنتهى، ولسنا نعلم ما الذي أوحاه الله إلى رسوله وليس لنا سبيل إلى ذلك،وكما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: "وقد أبهم الله ما أوحاه ...إلى عبده محمد ﷺ ولم يبيّنه لنا، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره" (١) .

لكن الشاهد كما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : ... وفي قوله ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ إيهام، لتفخيم ما أُوحي إليه..." (٢) .

ورجع ﷺ بالصلوات الخمس لتكون معراجاً لكل مسلم إلى ربه في اليوم خمس مرات، فتعلم ﷺ فرضيتها وعددها وأجرها، وعلِم أن أمته لا تطيق أكثر من ذلك، وأن اليهود ـ قوم موسى عليه السلام ـ قد عجزوا عن أدائها كما أمر الله بشهادة نبيهم عليه السلام ، فتعلم رسول الله ﷺ حقيقة جديدة عن اليهود فوق ما عنده مما علمه الله .

وبرؤيته ﷺ لأرواح أهل الجنة عن يمين آدم ـ عليه السلام ـ وأرواح أهل النار عن شماله، ورؤيته لموسى باكياً على قلة أعداد أهل الجنة من أمته، رجع ﷺ وقد

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ١٥١ ، وقد ذكر هذا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم : ١٠] .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٧ / ٩٨ .

فهم أهل الجنة منْ أهل النار إجمالاً، وأيقن أن أعداد الداخلين الجنة من أمته أكثر ممن سبقهم من الأمم، فعلم فضل الله عليه وعلى أمته ﷺ .

ومن خلال دخوله ﷺ الجنة، ورؤيته لأنهار أربعة فيها، ومشاهدته لبعض نعيم الجنة رجع ﷺ إلى المؤمنين وعنده من الحقائق عن الجنة ما كان يستزيد منه ليُزهِّد الصحابة في الحياة الدنيا ويشوِّقهم به للدار الأخرى.

أليس كل هذا مما علّم الله رسوله ﷺ ؟، إضافة إلى رؤيته ﷺ لمالك خازن جهنم، والمسيح الدجال؛ بل وغيرهم، كما ثبت في كتب التفسير (١) والسُّنَّة .

وبعدها فلا عجب أن يصف رسول الله ﷺ المسيح الدجال بكل أوصافه محذِّراً أمته منه ومن فتنته، أو أن يصف النار وأهلها وأعمالهم وغير ذلك.

وهكذا كانت رحلة الإسراء والمعراج معجزة ووسيلة عظيمة قدّرها الله لرسوله ﷺ لعدة حِكم يعلمها سبحانه وتعالى ـ سواء إيمانية أو نفسية أو عقلية ـ كما أسلفتُ ـ تتعلق بالنبي ﷺ فـ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ . [الإسراء : ١] .

(١) كما في تفسير ابن كثير٣ / ٣-٢٧ .

المبحث الثاني
تربية الله للنبي ﷺ بصورة غير مباشرة

لم تقتصر آيات القرآن الكريم على تربية عقل النبي ﷺ ، وبناء فكره بالعلوم والمعارف الحسية والغيبية بصورة مباشرة، بل إن آيات القرآن وَضعت له المنهج الصحيح لاستخدام العقل وتوظيفه، وعلّمته منهج التفكير السليم لتحقيق الإيمان وتقويته، وحصّنت عقله من الأوهام والخرافات وغيرها.

وكل هذا تحقق للنبي ﷺ ، ضِمناً من خلال منهج القرآن الكريم في التربية العقلية بشكل عام ، كما يتضح من المطالب التالية .

المطلــب الأول

تحصين عقل النبي ﷺ من الأوهام والخرافات والعقائد الباطلــة

كان للقرآن العظيم أثر بارز في تزكية عقل النبي ﷺ في مجال العقائد والأفكار، فكما أنه يدعو إلى حمل العقائد والأفكار الصحيحة القائمة على البرهان والحجة، فإنه كذلك يرفض " كل الأوهام والمعتقدات التي لم تقم على برهان صحيح أو دليل صادق..." (١)

وبذلك حصَّن القرآن عقل النبي ﷺ وحرر عقول غيره من المسلمين من كل باطل في المعتقدات والمفاهيم، وكان أول ما توجه اهتمام القرآن لمحاربته: الشرك بالله المتمثل في تعدد الآلهة،كما قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ . [البقرة : ١٦٣] .

فالتعلق بالشرك "إهداراً للعقل، ومسخٌ له، وفسادٌ للفطرة" (٢) ، وهو يعني سقوط صاحبه في العبودية لغير الله وحمل المعتقدات الباطلة ، وبالتالي صرف العبادات لغير الله من الملائكة والجن والشجر والحجر دون تفكير وإعمال للعقل لمعرفة هل تستحق هذه المخلوقات العبادة أم لا ؟ ، وما مبرر ذلك؟ ، وما عاقبة هذا التعبد لهذه الأنداد؟.

ولذا فمن أجل هداية العقل إلى الصواب من كل ذلك نزل القرآن لإيقاظ العقل ودعوته إلى إحداث " ثورة عنيفة على الشرك والكهانة والوساطة بين العبد وربه، وقضى على جميع مظاهر العبودية أو استعباد العقل لغير الله أو استعباده

(١) النظرية التربوية ص٤٤، د. ماجد عرسان الكيلاني، دار التراث، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، المدينة المنورة، السعودية.

(٢) منهج القرآن في التربية، ص١٢٧، محمد شديد، بتصرف وزيادة يسيرة.

في حمل المعتقدات ، وحرر العقول وطالبها بالتفكير والتدبر، وأشاع فيها اليقظة والنور..." (١)

وقدّم القرآن الكريم لعقل النبي ﷺ وللمسلمين من بعده عقيدة التوحيد الخالص لله ، وحذّر من الشرك الذي هو أصل ضلال العقول، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥] . وحدّد مسار العقل فيما يطيقه ويقدر عليه من المعتقدات والمعارف و"أعفاه من كل ما لا يطيق كالتفكر في ذات الله والملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغيرها مما تعجز عنه العقول ولا سبيل لها إلى إدراكه مفصلاً حتى لا يضل العقل أو يحتار أو يُبدّد الجهد والطاقة في غير الفائدة" (٢)

وهذا ما عبّر عنه ﷺ بقوله: (**تفكروا في آلاء (٣) الله ، ولا تفكروا في الله** ـ عز وجل ـ ، وفي رواية ـ **فإنكم لن تُدركوه إلا بالتصديق**) (٤)

والقرآن الكريم قد حارب وَرَفَضَ كل معتقد لا يقوم على أساس من الصحة، ومن ذلك : " السحر والشعوذة (٥) ، والدجل (٦) ، والكهانة والعرافة (٧) ،

(١) نفس المرجع ص١٢٨-١٢٩ بزيادة يسيرة ، لمحمد شديد .

(٢) تربية الناشئ المسلم ص٢٦٣، د. علي عبد الحليم محمود .

(٣) آلاء الله : اي نعمه سبحانه وتعالى، تفسير ابن كثير٤ / ٢٩١ .

(٤) ذكره على المتقى الهندي في كنزالعمال بهذا اللفظ برقم ٥٧٠٧، وقال الالباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ٣٩٧ برقم ١٧٨٨ ، (فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١ / ٨١ بلفظ قريب جداً من هذا ، والعجلوني في كشف الخفا ١ / ٣٧١، انظر: السلسلة الصحيحة للالباني ٤ / ٣٩٥-٣٩٧ .

(٥) السحر والشعوذة:سبق تعريفهما في المطلب الخامس من المبحث الثاني في فصل (التربية النفسية للنبي ﷺ (بعنوان" تزكية النبي والدفاع عنه") .

(٦) الدجل: هو الكذب وتغطية الشيء ، واصله الخلط، يقال: دجل إذا لبس وموه، لسان العرب١١ / ٢٣٦ .

(٧) الكهانة والعرافة: سبق تعريف ذلك في المطلب الخامس ، المبحث الثاني ، بعنوان" تزكية النبي ﷺ والدفاع عنه". في فصل (تربية النبي ﷺ نفسياً) ص ١٢٣ .

والعيافة (١) ، والطِّيرة (٢) ، والطرق (٣) ، وغيرها، واعتبر ذلك من الجبت (٤) الذي يجب محاربته (٥) ؛ لقوله : " **العيافة والطيرة والطرق من الجِبْت**" (٦)

وأنكر الإسلام اعتقاد العدوى بنفسها (٧) ، والشؤم (٨) ، والهامة (٩) ، والأنواء (١٠)، وصفر (١١) ، وغير ذلك مما يُضَلِّلُ به على العقول ، ولا أساس له من الصحة، وفي هذا كله قال النبي ﷺ :(**لا عدوى، ولا هامة، ولا نَوْءَ، ولا صَفَر**) (١٢).

---

(١) **العيافة**: هي زجر الطير والتفاؤل بها كما كانت العرب تفعله ، والعائف هو المتكهن ، لسان العرب٩ / ٢٦١ .

(٢) **الطيرة**: هي التشاؤم بما يُرى من مجيء الطير والظباء نحو الشمال، وما يُسمع من صوتها ، والطيرة مضادة للفال ، وفي الكتاب العزيز: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : ١٩] ، أي شؤمكم. لسان العرب٤ / ٥١٢ .

(٣) **الطَّرق**: هو ضرب الحصى أو الخط في الرمل، وهو ضرب من التكهن، والطُّرّاق: المتكهنون، والطوارق: المتكهنات. لسان العرب ١٠ / ٢١٥ .

(٤) **الجِبْت**: هو كل ما عُبد من دون الله ، وقيل هو الكاهن والشيطان ، لسان العرب ٢ / ٢١ .

(٥) قد سبق التدليل على حرمة ذلك كله، انظر: المطلب الخامس من المبحث الثاني في فصل: تربية النبي ﷺ نفسياً.

(٦) رواه أبو داود.في مج٢، ج٤، ص١٥ في كتاب: الطب، باب: الخط وزجر الطير، برقم ٣٩٠٧ عن قبيصة الهلالي ، وقال الألباني في صحيح سُنن أبي داود ٢ / ٧٤٠: صحيح مقطوع ، وذكره برقم ٣٣٠٧، وقال محقق جامع الأصول الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في الجامع ٧ / ٦٣٩ (وهو حديث حسن).

(٧) **العدوى**: هي ما يُعدي من جرب أو غيره، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره، انظر: القاموس المحيط ، ص١٦٨٩، مادة عدىٰ .

(٨) **الشؤم**: هو خلاف اليمُن، وهو ما يُكره عاقبته ،لسان العرب ١٢ / ٣١٤ .

(٩) **الهامة**: واحدة الهوام، وقيل: كانت العرب تقول في الجاهلية إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثاره خرجت من رأسه هامة فتدور حول قبره فتقول: اسقوني اسقوني، فإذا أدرك بثاره ذهبت وإلا بقيت، وقيل غير ذلك . لسان العرب ١٢ / ٦٢٤ .

(١٠) **الأنواء**:جمع نوء،وهو قول الكفار ، مُطرنا بنوء كذا ، إشارة إلى النجوم واعتقادهم ذلك، انظر صحيح مسلم ١ / ١٧٤٤ .

(١١) **صفر** : هي دواب في البطن، وهي دودة ، وكانوا يعتقدون أن في البطن دابة تهيج عند الجوع، وربما قتلت صاحبها، وقيل: كانوا يتشاءمون بدخول شهر صفر، لسان العرب٤ / ٤٦١وما بعدها.

(١٢) رواه مسلم ٤ / ١٧٤٤ في كتاب: السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة، برقم ٢٢٢٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه ورواه البيهقي في السُّنن الكبرى ٧ / ٢١٦، والبغوي في شرح السُّنَّة ١٢ / ١٦٧ .

وقال رسول الله ﷺ : «**الطيرة شرك - ثلاثاً -، وما منا إلا** (١)، **ولكن الله يُذهبه بالتوكل**» (٢)"(٣).

ولذا فقد كان ﷺ أبعد ما يكون عن التطير، وقد صح " أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء.. " (٤)

وقد ألغى القرآن الكريم كل عقيدة وتصور يقوم على الظن والتخمين في مجال العقائد، سواء ما يعلق بالذات الإلهية وما أشركه الناس فيها، أو النبوة التي دارت حولها الأساطير والخرافات ، كما فعل أهل الكتاب بعيسى ابن مريم عليه السلام، أو معتقدات الناس الباطلة بشكل عام.

والوحي السماوي قد قدم للإنسان جملة من المعارف والمعتقدات الصحيحة ، وأعطى العقل حقه ونصيبه من المعتقدات اللازمة له ليسير الإنسان على هدى وبصيرة في هذه الحياة .

ففي مجال المعارف المتعلقة بالإنسان بيَّن له من أين جاء، وإلى أين المصير، وما واجبه، أو ما الغاية من خلقه في الحياة فلا مكان في العقيدة الإسلامية لشيء

---

(١) وما منا إلا: هكذا ورد بدون ذكر المستثنى ، أي : إلا وقد يعتريه التطير، وتسبق إلى قلب النبي ﷺ الكراهة لذلك فلا يضرب لنفسه مثل السوء، فحذف النبي ﷺ اختصاراً واعتماداً على فهم السامع، ويُسمى هذا الحذف في علم البديع بالاكتفاء ، قاله السيوطي وأيّده الالباني في صحيح سنن ابي داود ٢ / ٧٤٠، وقيل ان قوله : (وما منا إلا...) من قول ابن مسعود رضي الله عنه ادرجه في الحديث. وإنما جعل الطيرة شرك ؛ لأنهم اعتقدوا انها تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها.

انظر: عون المعبود شرح سنن ابي داود ، مج٥، ج١٠، ص٢٨٩، حديث رقم ٣٩٠٤، للعلامة ابي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في اربعة عشر جزءاً ضمن سبعة مجلدات.

(٢) ولكن الله يذهبه بالتوكل: اي إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفر الله له ، وحاصله ان الخطرة ليس بها عبرة، فإن وقعت غفلة لابد من رجعة، انظر: نفس المرجع السابق.

(٣) رواه أبو داود في ٤ / ٢٣٠ في كتاب: الطب، باب: في الطيرة، برقم ٣٩١٠ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الالباني في صحيح سنن ابي داود ٢ / ٧٤٠ : صحيح، وذكره برقم ٣٣٠٩، واخرجه ابن حنبل في مسنده١ / ٥٤٨ برقم ٤١٧٢ والترمذي برقم١٦١٤، وابن ماجة برقم ٣٥٣٨ .

(٤) رواه أبو داود ، مج٢، ج٤، ص١٨،في كتاب: الطب، باب الطيرة، رقم ٣٩٢٠ عن بريدة - رضي الله عنه - ، وقال الالباني في صحيح سنن ابي داود ٢ / ٧٤٢: صحيح، وذكره برقم ٣٣١٩ .

اسمه الصدفة أو الأقدار العمياء ، بل خلق الله الإنسان لهدف وغاية وحكمة وأجل ، وبين له كل ذلك.

كما بيَّن له الغاية من الحياة ، والهدف من تسخير هذا الكون للإنسان، وبيَّن له كل حقيقة علمية يعجز العقل عن الوصول إليها وإلى الحق فيها من غير وحي السماء.

وفي مجال العقائد الإسلامية قدّم الوحي لعقل الإنسان وفكره جملةً من المعتقدات الصحيحة اللازمة له ـ الغيبية منها و غير الغيبية ـ لتحلَّ محل المعتقدات الباطلة، وتحقق له مزيداً من التربية والنضوج العقلي الصحيح.

فقد جاءت العقيدة الإسلامية "لتوسيع مساحة النفس... ليخرج الإنسان من دائرة حواسِّه الضيقة، فيقرَّ في خُلده أن الكون أوسع مما تراه وتلمسه حواسه وأشمل،وأن لله آيات في الكون لا يُدركها الإنسان بحواسه أصلاً، ولكنها مع ذلك موجودة، لعل ذلك أن يفتح بصيرته، ويُوحي له بالإيمان... وبهذا وذلك ينفذ الإسلام إلى النفس عن طريق إيمانه بما تُدركه الحواس وما لا تُدركه..."(١) .

وقد أشار الله ـ عز وجل ـ إلى العوالم الخارجة عن حس الإنسان وإدراكه في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحاقة : ٣٨-٣٩] . وقوله تعالى:﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨] .

وحتى لا يزيغ عقل الإنسان وقلبُه حرّم الله عليه الاجتهاد في العقائد، وأغلق باب البدع في العبادات، حتى لا يَضِلَّ في نفسه أو يُضلِّل غيره، فمصدر العقيدة والتشريع هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وبهذا كله تبيّن لنا أن الله تعالى" لم يترك الإنسان على الأرض هملاً لدوافعه وعقله وفطرته... إنما تعهّده بالهداية ووالاه بالتوجيه"(٢)، عبر القرآن الكريم الذي

(١) منهج التربية الإسلامية ص١٦٠ بتصرف يسير لمحمد قطب .

(٢) منهج القرآن في التربية ص١٠٣ لـ محمد شديد .

قال فيه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ . [الأعراف : ٥٢] .

واتضح لنا أن الله تعالى حصّن عقل النبي ﷺ من العقائد الباطلة هذا من جانب ، ومن جانب آخر حقق له مزيداً من التربية العقلية من خلال إنكار القرآن على الكفار تجميد عقولهم وتعطيل وظيفتها بل إفسادها بالمعتقدات الباطلة والتصورات الزائفة، وهذا ما يتم شرحه في المطلب الثاني كما يلي .

المطلب الثاني

ذم التقليد وإنكار التعطيل للعقول

بما أن الله تعالى قد منح كل إنسان استقلالية العقل في التصور والتفكير والتدبُّر والفهم، فقد منعه من اتِّباع غيره وتقليده في العقائد دون إعمال العقل فيها لإدراك الحق من الباطل، والصائب من الخاطئ، ومعرفة الدليل، وغير ذلك.

« وأنكر القرآن على الذين تُنشأ شخصياتهم من خلال التقليد والموروث الاجتماعي دون اكتساب المعايير التي تمكّن من اختبار هذا الموروث والحكم على صلاحه أو فساده » (١) .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

قال الشوكاني - رحمه الله -: " وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش واعتقادهم الفاسد مالا يُقادر قدره...، وفي ذلك دليل على قُبح التقليد، والمنع منه..." (٢) .

فالتقليد مذموم شرعاً وعقلاً ، وخاصة في مجال الدين والمعتقدات.

ولذا أوجب الشرع أن يكون " التدين والاعتقاد ثمرة اختيار واقتناع، وليس بسبب وراثة؛ ومحاكاة ، وتعطيل ملكات العقل" (٣) ، مِنْ تبصُّر ونظر وتمحيص وبحث واستدلال وغير ذلك.

---

(١) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر لعبد المجيد بن سعود، ص١٤-١٥، نقلاً عن مقدمة الكتاب لعمر عبيد حسنة.

(٢) فتح القدير : ١ / ٢٥٩ .

(٣) القيم الإسلامية التربوية ص١٥ لعبد المجيد بن سعود.

"فقضية التوحيد بالذات لابد فيها من اقتناع وحوار عقلي واستخدام أدلة وبراهين كما فعل إبراهيم ﷺ مع النمرود، حيث سجّل الله ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة:٢٥٨] (١).

فلا يمكن أن يتحقق الإيمان عن طريق التقليد،فهو غير ممكن في أمور العقيدة؛ إذ لا بد فيه من الدليل " العقلي والنقلي" (٢)

وهذا ما عبرّ عنه القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] قال: "قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تُعطي إبطال التقليد، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة: ١٠٤] (٣).

وبهذا يتبين لنا « أن العلم، والتفكّر، وإيقاظ الوعي،واكتساب العبرة، إلى جانب التشبُّع من نصوص الوحي هو طريق الإيمان، وأن الإيمان هو المحرِّض والموجه لاكتساب العلم والمعرفة، فالإسلام جعل العلم إيماناً والإيمان علماً" (٤).

والقرآن قد ذمَّ التقليد والمقلدين من الكفار بشدة بل جعلهم كالأنعام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، أي: أنها محرومة الاستفادة من أدوات العلم والفهم والتدبّر.

---

(١) تربية الناشئ المسلم لمؤلفه د. علي عبد الحليم محمود، ص٢٦٩.

(٢) كما قال أصحاب الكهف: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)﴾ [الكهف: ١٥].

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢١١ للقرطبي.

(٤) القيم الإسلامية التربوية ص١٥ بزيادة يسيرة لعبد المجيد بن مسعود.

فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ .

[البقرة : ١٧٠ – ١٧١] .

واعتبر مآل من يُعطِّل عقله وسمعه وبصره إلى أهل النار، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ .

[الأعراف : ١٧٩] .

فلم يكتفِ القرآن الكريم بإسقاط المعطَّلة لعقولهم من أهل الكفر إلى درك الحيوانات ، بل اعتبرهم أسوأ من ذلك لضلالهم وغفلتهم .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "ووجه كونهم أضل من الأنعام: أن الأنعام لا يبلغ بها ضلالُها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي ؛ لأن لها إلهامًا تتفصّى (١) به عن المهالك كالتردى من الجبال والسقوط في الهُوّات... والأنعام قد خُلق إدراكها محدوداً لا يتجاوز ما خُلقت لأجله ؛ فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها، فلا تكون بمحل الملامة، وأما أهل الضلالة فإنهم حجزوا أنفسهم عن مُدركاتهم بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال فهم أضل سبيلاً من الأنعام" (٢) .

ولهذا فإنهم يوم القيامة يتحسرون لعدم إعمال وتوظيف عقولهم في طريق الإيمان،كما قال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾

[الملك : ١٠] .

---

(١) تتفصّى:هكذا في الأصل، ولم أعثر على أصلها أو معناها في لسان العرب٧ / ١٠٦مادة وفص،ماعدا معنى لفظ الوفاص: وهو الموضع الذي يمسك الماء،ولعل مراد ابن عاشور–رحمه الله –أن للأنعام إلهاماً تُمسك بها نفسها عن المهالك. والله أعلم.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٩ / ١٨٤ .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي، أو نعقل عقل من يُميّز وينظر، ما كنا من أهل النار" (١)

وكما أن القرآن الكريم قد ذمَّ التقليد وإنكار تعطيل العقول عما خُلقت له ـ ليكون عقل الإنسان دائماً على يقظة دائمة وحرص دائم من الوقوع في التقليد، أو اتباع الغير بدون علم، أو تجميد العقل عن معرفة الحق واليقين ـ فقد دعاه لتوظيف عقله فيما خُلق له .

وهذا ما أعرض له في المطلب الثالث كما يلي .

(١) فتح القدير ٥ / ٣٦٥

المطلب الثالث

دعوة الإنسان لتوظيف عقله في النظر لآيات الله في الكون

بما أن العقل هو القوة المدركة التي بها يعقل الإنسان ما حوله، وهو أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد الإسلام ، فإن القرآن الكريم قد دعا الإنسان لتوظيف عقله، في معرفة الأشياء ، التي حوله، وإدراك ما فيها من أسرار تقوده إلى معرفة وجوه العظة والعبرة والحكمة والعظمة التي استودعها الله في كثير من مخلوقاته، وتدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ، كما قال القائل:

وفـي كـل شـيء لـه آيـة تـدل على أنه الواحد [1]

ولا شك أن الإنسان كلما وظّف عقله في دراسة المحسوس لمعرفة الغائب المجرد، والاستدلال بالمخلوق على الخالق، كلما تحقق نضجه، ونموه العقلي، وزادت معرفته بالله وخشع له، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

والقرآن الكريم قد وجّه القلوب والعقول إلى بدائع صنع الله في هذا الكون ، ودعا إلى التفكر في آياته ومعرفة أسراره، وفهم نُظمه ونواميسه.

---

(١) نسبه ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان٧ / ١٣٧ إلى ابي نواس، ونسبه ابو الفرج الاصفهاني في كتابه الأغاني ٤ / ٣٩ لابي العتاهية إسماعيل بن القاسم وأول الابيات كما يلي:

الا إننا كلنا بائد وأي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكلٌ إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يُعصى الإله ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على انه الواحد

انظر: الاغاني لابي الفرج على بن الحسين الاصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ) شرح : عبد على مُهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان. والكتاب يتكون من سبعة وعشرين مجلداً.

لقد جعل من الكون كتاباً للمعرفة .. فحرّر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل،وأغرى بالبحث والدراسة والعلم...ولعل هذا يتضح من خلال قصة سليمان مع ملكة سبأ ـ في نقل عرشها إليه ـ فالقرآن لا يعرض ذلك على أنه من أعمال السحر، أو قُوى الجن ، ... لكنه عمل قام به من عنده علم من الكتاب، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] (١) ؛ ليلفت العقول إلى دَوْرِ العلم وأهميته في حياة الإنسان.

فجاء القرآن ليربط بين فكر الإنسان وما حوله في هذا الكون من مظاهر وآيات تدل على باريها ـ سبحانه وتعالى ـ .

"ووجَّه العقول والأبصار إلى عالم الحس والواقع... لقد كان القرآن فتحاً جديداً في تاريخ الفكر الإنساني، ونقلة هائلة للعقل والتفكير" (٢) ، فتحقَّقَ لعقل الإنسان مزيدٌ من الوعي والإدراك ، وبعدٌ في الفهم والنظر.

وقد كان لعقيدة الإسلام تأثير عظيمٌ في "إطلاق العقل البشري ليعمل في أوسع نطاق متاحٍ له على الأرض، ولم تُغلق عليه الأبواب أو تُجمِّده في قوالب مصبوبة لا فكاك منها، وكان من آيات الإسلام الكبرى أنه في دعوته إلى الإيمان بالله لم يقهر العقل بالخوارق القاهرة التي يَخضع لها الفكر، ولا بأسرار لا حيلة له فيها ولا اختيار، بل خاطبة ووعّاه، وأيقظه وناقشه..." (٣) .

ويتضح هذا كله من خلال استقراء آيات القرآن الكريم التي تخاطب الإنسان وتحث العقل على التفكير (٤) في هذا الخلق بما فيه : من إنسان وأرض وسماء،

(١) منهج القرآن في التربية لمحمد شديد ، ص١١٦-١١٧ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٢) نفس المرجع ، لمحمد شديد، ص١١٨ .

(٣) منهج التربية الإسلامية ـ لمحمد قطب ، ص٨٨-٨٩ ، بتصرف يسير.

(٤) وردت آيات الفكر والتفكر في القرآن الكريم في أكثر من ثمانية عشر موضعاً، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٦٦٧ .

وتدعوه للتدبر في سُنن الله في هذا الكون ، وتأمّل حِكمٍ عديدة عظيمة في التشريع الإسلامي، وتدبر القرآن " المعجزة الكبرى" ، ثم الاستدلال بكل ذلك على ألوهيته سبحانه وتعالى وعظيم أسمائه وصفاته، وأسراره في الخلق.

قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس : ١٠١] .

وقد تبيّن من استقراء آيات القرآن المتعلقة بالنظر في الكون وأقدار الله وسُننه وآياته أنها تدور حول النقاط التالية:

أولاً: التفكر في النفس الإنسانية وبداية خلقها:

من المعلوم قطعاً أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن هيئة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤] ،أي: "خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل، منتصب القامة،سوي الأعضاء،حسن التركيب، يأكل بيده، يتميز بالعلم والفكر والكلام والتدبير والحكمة،..." (١) .

ولهذا فقد دعت آيات القرآن الكريم صراحة ـ دعت الإنسان ـ إلى التأمّل في نفسه وبداية خلقه وهيئة جسده وحقيقة روحه ليُدرك من خلال ذلك كله أن له خالقاً خلَقه على هذه الهيئة العظيمة والتكوين الدقيق ، فيخضع لربه ـ سبحانه وتعالى ـ ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " أي:وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل... أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية ... وقيل المراد بالأنفس الأرواح، أي: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات" (٢) .

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: أ.د. وهبة الزحيلي٣٠ / ٣٠٦، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في ثلاثين مجلداً .

(٢) فتح القدير٥ / ١٢٠-١٢١ .

وفي موضع آخر تدعو آيات القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر والتأمل في أصل خلقه الذي منه نشأ، قال سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة : ٥٨ – ٥٩] .

وقال سبحانه: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾ [يس: ٧٧] [١] ، ويقول سبحانه في موضع ثالث: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾[الطارق:٥-٧]، أي: "فلينظر بعقله، وليتدبر في مبدأ خلْقه، لتتضح له قدرة واهبه.. فقد خُلق من ماء مدفوق [٢] يخرج من الظهر والترائب [٣] لكل من الرجل والمرأة، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في رحم المرأة"[٤] .

كما دعت آيات القرآن الكريم الإنسان بصورة غير صريحة وغير مباشرة لتأمل خلْقه الذي خلَقه الله عليه والاستدلال بذلك على إعادة البعث، فقال تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية : ٤].

وقال في موضع آخر:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ، أي: " ومن البراهين الدالة على أنكم تُبعثون... أنْ خلَقكم...

---

(١) وقال الشوكاني في تفسيره للآية في ٥ / ٥٤٤: "... مسبوقة لبيان إقامة الحجة على من انكر البعث، وللتعجب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم في انفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الاجسام وردّها كما كانت، والإنسان المذكور في الآية المراد به جنس الإنسان... ولا وجه لتخصيصه بإنسان معني، كما قيل: إنه عبد الله بن ابي، وانه قيل له ذلك لما انكر البعث، وقال الحسن: هو امية بن خلف، وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي، وقال قتادة ومجاهد هو ابي بن خلف الجمحي، فإن احد هؤلاء ـ وزاد ابن عاشور في تفسيره ٢٣ / ٧٣، ابا جهل- وإن كان سبباً للنزول فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً اولياً...".

(٢) مدفوق: اي مصبوب، (ومنه: دفق الماء: اي انصبّ) لسان العرب ١٠ / ٩٩، مادة دفق

(٣) الترائب: هي عظام الصدر، لسان العرب ١ / ٢٣٠

(٤) تفسير المراغي ٣٠ / ١١٢، للشيخ: احمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، ط بدون، د.ت بيروت، لبنان، والكتاب يقع في ثلاثين مجلداً.

في ضمن خلْق آدم ﷺ من تراب ليس فيه حياة قط... فجئتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض عقلاء ناطقين آدميين من لحم ودم" (١)

ولم تكتف آيات القرآن الكريم بدعوة الإنسان لإعمال عقله في أصل خلقه ، بل لقد شرحت له أصل ذلك ومراحل تخلّقه في آيات كثيرة (٢) ، وتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمع لفظُه ، ويُترك التفكر في معناه.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم تارة يدعو الإنسان للتفكر في أصل خلقه ، من تراب" الأصل البعيد" ، وتارة للتفكر في أصل خلقه من نطفة "الأصل القريب" ، وتارة للتأمل في أصل روحه التي هي من الله سبحانه وتعالى، وتارة للتفكر في مراحل تخلقه ابتداءً من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم كسوته باللحم، ثم نفخ الروح فيه حتى صار خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فجسد الإنسان وروحه فيهما من الآيات والعبر الشيء الكثير ، فلو أعمل الإنسان عقله فيهما لاتَّعظ واعتبر، كما قال سفيان بن عُيينة (٣)ـ رحمه الله ـ :

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة (٤)

---

(١) المقتطف من عيون التفاسير، بتصرف يسير، للعلامة: مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، القاهرة، مصر..

(٢) كما ورد في سورة: المؤمنون١٢-١٤، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ ، ونحوها في سورة الحج٥، عبس١٧-٢٢، القيامة٣٧-٣٨، المرسلات ٢٠-٢٢، الإنسان٢ .

(٣) هو أبو محمد سفيان بن عُيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرث المكي، من الموالي، من تابعي التابعين، ولد بالكوفة عام ١٠٧هـ، وسكن البادية وتوفي بها، كان حافظاً، ثقة، واسع العلم، كبير القدر، حجّ سبعين سنة، .. سمع من كثير من أهل العلم ، وروى عنه الكثير من تلامذته، وكان حديثه نحو سبعة آلاف حديث، أثنى عليه العلماء ، فقال الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»، رُوي أنه قال «قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين»، له (الجامع) في الحديث ، وكتاب في (التفسير)، توفي عام ١٩٨هـ.

انظر: تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي ١ / ٢٢٤-٢٢٥، و: غربال الزمان في وفيات الأعيان ليحيى بن أبي بكر العامري الحرضي اليماني ص١٨٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٧٤ .

وصدق القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله: "... إن كل شيء في العالم الكبير له نظيرٌ في العالم الصغير الذي هو بدن الإنسان (١) " (٢) .

والقرآن الكريم يَهْدِف من دعوة الإنسان للتفكر في نفسه إلى تنوير عقله وقلبه، وتحقيق استشعاره لعظيم نعم الله عليه، والتعرّف على مظاهر قدرة الله وعظمته، وآيات ربوبيته سبحانه وتعالى، وبيان فداحة كفر الإنسان بربه وخالقه، وَصَدَق الله القائل: ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ﴾ [عبس : ١٧ – ١٩] .

قال ابن جرير في تفسيرها : " أي: لُعِن الإنسان الكافر ما أكفرَه... .

وقال: في قوله أكفره وجهان: أحدهما: التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده، والآخر: ما الذي أكفره ، اي: أيُّ شيء أكفره" (٣) ؟.

ثانياً: النظر في الأرض وما عليها :

تنوعت صيغ القرآن الكريم التي دعت الإنسان لتوظيف عقله في معرفة دلائل قدرة الله وعظمته في كلّ ما فيه عظة وعبرة مما في هذا الكون، فتارة: تدعوه للتأمل (٤) ، وتارة: للنظر والتبصر (٥)، وتارة: للتدبر (٦)، وتارة: للتذكر (٧) ، وتارة: للاعتبار (٨)، وتارة أخرى: للتفكر (٩)، وتارة : للفقه (١٠)، ووردت عدة

(١) الجامع لاحكام القرآن ٢ / ٢٠٢ .

(٢) ذكر الغزالي في الإحياء ٤ / ٤٣٤-٤٣٦ كلاماً حسناً استعرض فيه مظاهر عظمة الله وإبداعه في خلق الإنسان.

(٣) جامع البيان ١٢ / ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) وقد وردت في اكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم .

(٥) وقد وردت في اكثر من سبعين موضعاً من آيات القرآن الكريم.

(٦) وقد وردت في اربع آيات فقط وكلها خاصة بالقرآن الكريم.

(٧) وقد ورد هذا في اكثر من اربعين موضعاً في آيات القرآن الكريم.

(٨) وقد ورد هذا في اكثر من ست آيات صراحة ، واكثر من خمس آيات ضمناً.

(٩) وقد وردت في اكثر من خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم.

(١٠) وقد ورد هذا في اكثر من خمسة عشر موضعاً من آيات القرآن الكريم.

آيات تنهى الإنسان عن الغفلة (١)، والجهل (٢)، والضلال (٣) وعدم الفقه (٤).

فكل ما في الكون من آيات بأرضه وسمائه وجميع مخلوقاته تدل على باريها. ولذا فلا عجب أن يدعو القرآن الكريم الإنسان لاستغلال عقله في استكشاف دلائل ومظاهر وحدانية الله وألوهيته وربوبيته في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس : ١٠١] .

قال الشوكاني - رحمه الله -: "...والمراد بالنظر: التفكر والاعتبار..." (٥)

فالآيات السابقة تأمر محمداً ﷺ أن يدعو الكفار والمشركين إلى التفكر وأخذ العظة والعبرة من كل ما خلق الله في هذه الأرض، فآيات الله في أرضه كثيرة عديدة، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ [الغاشية : ١٧ - ٢٠] .

قال ابن عاشور - رحمه الله -: "... والهمزة للاستفهام الإنكاري، إنكاراً عليهم - أي على الكفار - إهمال النظر في الحال إلى دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته، والنظر: نظر العين المفيد الاعتبار بدقائق المنظور، وتعديته بحرف إلي: تنبيه على إمعان النظر..." (٦) .

وكما أن القرآن قد دعا الإنسان للتفكر في كل ما هو على الأرض من إبل وجبال وأودية وغيرها، فقد دعاه أيضاً لمعرفة مَنْ مهَّدها وجعلها قراراً، وجعل

---

(١) وقد ورد هذا في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم .
(٢) وقد ورد لفظ الجهل ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعاً
(٣) وقد ورد لفظ الضلال ومشتقاته في القرآن في أكثر من مائة وخمسين موضعاً.
(٤) وقد ورد لفظ "عدم الفقه-البلادة" في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن الكريم .
(٥) فتح القدير ٢ / ٦٨٩ .
(٦) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٠٤ .

خلالها أنهاراً.

قال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [النمل: ٦١] (١).

ودعا الله الإنسان للتفكر في جنات الأرض (٢)، وتنوع نباتها (٣)، واخضرار أشجارها (٤)، واختلاف فواكهها (٥)، وإنبات زرعها (٦)، وتفتيؤ ظلالها (٧)، وتسخير بحارها (٨)، وأنعامها (٩) وإرسال رياحها (١٠)، واشتعال النيران من

---

(١) النمل: ٦١، ونحوها في، ق: ٥-١١، والرعد٢-٣.

(٢) كما في سورة الرعد آية ٤، قال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾.

(٣) كما في سورة الشعراء آية ٧، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) ﴾ وانظر الذاريات: ٤٧-٤٩، وقد ذكر احمد حسن الزيات في كتابه الادب العربي ص٣٠٠، لابي نواس حول هذا عدة أبيات شعرية منها قوله:

تأمل في آيات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... باحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بان الله ليس له شريك

(٤) كما في سورة الحج آية ٦٣، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾.

(٥) كما في سورة عبس آية ٢٤-٣١ قال تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) ﴾.

(٦) كما في قوله تعالى في سورة السجدة آية٢٧: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ ونحوها في سورة الواقعة آية ٦٣-٦٧.

(٧) كما في سورة النحل آية ٤٨، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾.

(٨) كما في قوله تعالى في سورة لقمان آية٣١: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾ وانظر سورة النحل آية ١٤.

(٩) كما في سورة المؤمنون آية ٢١: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾.

(١٠) كما في قوله تعالى في سورة النمل آية ٦٣: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾.

أشجارها (١) ، وغير ذلك (٢)

كما أمر الله محمداً ﷺ أن يسأل الكفار عن مُلْك هذا كله ، لمن هو؟ ، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون : ٨٤ – ٨٥] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير ما سبق: "... ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ، ولا يملكون شيئاً ، ولا يستبدون بشيء... فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ ، أي : مَنْ مالكها الذي خلقها ، ومَنْ فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك، قل: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره" (٣) .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " و ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط حُذف جوابه لدلالة الاستفهام عليه تقديره: فأجيبوني عن السؤال... وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأملوا،فيظهر لهم أن الأرض لله وأن من فيها لله فإن كون جميع ذلك لله قد يخفى ؛ لأن الناس اعتادوا نسبة المسبَّبات إلى أسبابها المقارنة والتصرفات إلى مباشريها، فنُبِّهوا بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى التأمل" (٤) .

---

(١) كما في قوله تعالى في سورة الواقعة آية٧١-٧٣: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة الجاثية آية ٣-٥: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٣ بتصرف يسير .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١٨ / ١٠٩ .

ورحم الله سيد قطب القائل: " هذه الآيات كلها... لا توقظ قلوبهم، ولا تُنبّه عقولهم، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبِّر، وكأن قلوبهم مقيدة، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات" (١) .

ثالثاً: التأمل في السماء وما فيها:

احتوى القرآن الكريم على عدة آيات تخاطب الإنسان وتخبره أن هناك من الخلْق ما هو أعظم منه، قال تعالى: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٥٧) ﴾ [غافر : ٥٧] .

وقال عزَّ منْ قائل: ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)** ﴾ [النازعات : ٢٧ – ٢٩] .

والسماء بما فيها وما علاها تحوي من الآيات ما حقُّها أن تتاملها العقول، وتتعظ بها قلوب أهل الإيمان، وتُدرك عظمتها أبصار ذوي البصائر الحية، لتنطق بعدها الألسنة قائلةً: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ .

[آل عمران : ١٩١] .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٣) ﴾ [الجاثية :٣] .

وهذا يعني ضرورة أن يتامل الإنسان كل ما في الكون من آيات، لكن: "إلف العادة والتكرار يجعل الناس لا يرون إلا الأسباب الظاهرة ، ولا ينفذون بتفكيرهم وبصائرهم إلى ما وراء هذه الأسباب" (٢) .

ولهذا وردت عدة آيات قرآنية تدعو الإنسان ـ بشكل مباشر وغير مباشر ـ للنظر والتفكر في خلق السماوات وما فيها،قال تعالى:﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ**

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٠٤٧، وقد أورد العبارة أعلاه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد: ٤] .

(٢) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص١٣٩ .

السَّمَاءِ من مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠- ١٩١] .

قال ابن عاشور-رحمه الله-: "والمراد بخلق السماوات والأرض إما آثار خلقها، وهو النظام الذي جُعل فيها ، وإما أن يُراد بالخلق المخلوقات ، كقوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ﴾ و ﴿ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ هم: أهل العقول الكاملة ...، و﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ إما من الذكر اللساني، وإما من الذكر القلبي وهو التفكر ...، والتفكر عبادة عظيمة" [١] ، «وليس المقصود من ذلك مجرد التأمل والتدبر، وإنما القصد تنوير العقل بهذا التأمل والتدبر، وإيقاظ القلب، وتصفية الروح من الشوائب» [٢] .

والمقصود أيضاً من التفكر الوارد في الآيات أعلاه هو الذي يدفع إلى معرفة خالق هذا الكون وتعظيمه وعبادته، ويوصّل إلى الشكر، كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾[الفرقان :٦٢].

قال الشوكاني-رحمه الله-: " أي: أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة والألطاف الكثيرة" [٣] .

وقال ابن عاشور-رحمه الله-: " والشكر عرفان إحسان المحسن، والمراد به هنا العبادة ؛لأنها شكرٌ لله تعالى... فتفيد الآية معنًى: لينظر في اختلافهما المتفكّر ، فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال من فعل مؤثّر حكيم،

(١) تفسير التحرير والتنوير ٤ / ١٩٦ .
(٢) تربية الناشئ المسلم ، د. علي عبدالحليم محمود ص٢٦٩ .
(٣) فتح القدير٤ / ١٢٣ .

فيُستدل بذلك على توحيد الخالق، ويعلم أنه عظيم القدرة، فيوقن بأنه لا يستحق غيره الإلهية..." (١) .

إذاً " فلَمْ يكن هذا التفكير مقصوداً لذاته...أو جافاً لا ينبض بالحياة ولا يصل لغاية، إنما غايته إصلاح القلب البشري،...،وتعويد العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام...وضبط الأفكار وربطها،والوصول إلى الكليات التي تربط الجزئيات..."(٢) .

ولهذا نجد أن القرآن الكريم عندما يدعو للتفكر في خلق السماوات ونجومها (٣) ، وارتفاعها (٤) ، وسُحُبها (٥)، وأمطارها (٦)، وليلها ونهارها (٧) ، وشمسها وقمرها (٨) ، وطيرها (٩) . وغير ذلك.

وعندما يستعرض ويذكر - إجمالاً أو تفصيلاً - كل ما خلق الله في السماوات

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٩ / ٦٥ بزيادة يسيرة .

(٢) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب، ١ / ٧٩ .

(٣) كما في قوله تعالى في سورة يونس، آية ١٠١ : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ، ونحوها في سورة البقرة آية ١٦٤، آل عمران ١٩٠، الإسراء٩٩، الأحقاف٣٣، الأنبياء ٣٠، النمل ٦٠، لقمان ١٠ ، ٢٠، سبأ٩، الجاثية٣، ٥ - ١١، الواقعة ٧٥-٧٦، يونس ٣ ، السجدة ٤ ، الروم ٢٢ .

(٤) كما في قوله تعالى في سورة الغاشية آية١٧-١٨ : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ﴾ .

(٥) كما في قوله تعالى في سورة النور آية ٤٣ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ونحوها في سورة البقرة ١٦٤، والأعراف٥٧ .

(٦) كما في قوله تعالى في سورة النحل آية١٢ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ، ونحوها في سورة البقرة١٦٤، النحل٦٥، والأنبياء٣٠، والنمل٦٠، لقمان١٠-١١، الجاثية٥، الواقعة٦٨-٧٠، غافر ١٣ .

(٧) كما في قوله تعالى في سورة النور، آية٤٤ : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ونحوها في سورة النحل١٢، آل عمران١٩٠ ، ١٩١، لقمان ٢٩، الجاثية ٥ ، الفرقان٦٢ .

(٨) كما في قوله تعالى في سورة لقمان، آية ٢٩ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ونحوها في النحل١٢، يس٤٠ .

(٩) كما في قوله تعالى في سورة الملك، آية ١٩ : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ، ونحوها في سورة النحل ٧٩ .

والأرض نجده يؤكد ويكرر أن تلك المخلوقات إنما خُلقت بالحق،ومن أجل الحق(١)، وأن عملية الخلق هذه لم يتخلّلها باطل (٢) ، أو عبث (٣) ، أو لعب.

وصدق الله القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان:٣٨] (٤) ، وما دام الأمر كذلك، فإنه في " هذا الجو المشبع بالحق يُربِّي الإسلام النفس البشرية فيعمِّق في شعورها الإحساس بالحق حتى يُصبح هو العقيدة ويُصبح هو الحياة" (٥) .

وقد كان شأن النبي ﷺ دائماً وأبداً التفكر فيما خلق الله ، بل لقد كان" فكراً متصلاً، ودعوة وتربيةً على النظر والتفكير، يَبيتُ ليله عابداً لله، باكياً مفكراً في آلاء الله وخلقه" (٦) .

فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما كانت ليلة من الليالي قال ـ أي رسول الله ﷺ ـ :(يا عائشة، ذريني أتعبّد الليلة لربي)، قلتُ:والله إني لأُحبُّ قربك وأُحبُّ ما سرّك ، قالت: فقام فتطهّر ثم قام يُصلي ، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلّ حِجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال (٧) يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه

(١) كما في قوله تعالى في سورة الأنعام آية ٧٣: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾، ونحوها في سورة إبراهيم ١٩، الحجر٨٥، النحل٣، العنكبوت٤٤، الروم٨، ص٢٧، الدخان٣٨، الجاثية٢٢، التغابن٣ .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة ص ،آية ٢٧: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ .

(٣) كما في قوله تعالى في سورة المؤمنون آية ١١٥: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾.

(٤) وقال تعالى في سورة الأنبياء آية ١٦: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

(٥) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب١ / ٨١ .

(٦) منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، ص١٣٩ بزيادة يسيرة.

(٧) هو بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه ، كان مولى بني جُمح، وكان امية بن خلف-سيده-يعذبه إذا حميت الظهيرة، يريد فتنة عن دينه ، فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه واعتقه. اتخذه النبي ﷺ مؤذناً له، وشهد معه المشاهد كلها، مات بالشام مجاهداً، وقيل مات في طاعون عمواس سنة عشرين هجرية. انظر: الإصابة١ / ١٧٠وما بعدها، و:سيراعلام النبلاء١ / ٣٤٧، و:تقريب التهذيب لابن حجر١ / ١٤٠ .

يبكي قال: يا رسول الله، لِمَ تبكي؟ ، وقد غفر الله لك ما تقدّم وما تأخّر؟! قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ، لقد نزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]) (١) . والمتأمل لآيات القرآن يجد أن الله تعالى يصف الإنسان بقلة التذكر والاتعاظ (٢) .

ولهذا ، فلا عجب أن تدعو آيات القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر والتذكر والاتعاظ والاعتبار، " فأولو الألباب يتفكرون ويستخدمون قُواهم الواعية في تدبّر آيات الله في الكون وتأملها، ولكنهم لا يتفكرون فكراً مجرداً ذاهلاً عن الواقع المحسوس الذي لا يصل بهم إلى شيء، ولا يتفكرون كذلك بمعزلٍ عن الصلة بالله ، فيضلوا؛ إنما يتفكرون وهم يذْكُرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ومن ثمّ يتصل الفكر عندهم بالله ، ويتصل العلم كذلك بالله .

وهم لا يتفكرون في الله وآياته وهكذا... بلا هدف، وإنما يَصِلون إلى هدفهم سريعاً ـ ربنا ما خلقت هذا باطلاً، فيعرفون لتوّهم أنه الحق.

ويُلاحظ أن الآية لم تُفْصِل بين التفكر وبين نتيجة التفكر، ولا حتى بكلمة (يقولون) بل قال الله ـ عز وجل ـ :﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، فكأنما التفكر ونتيجته شيء واحد متّصل متلاحقٌ سريع، ثم هم لا يقفون عند النتيجة الذهنية التي انتهوا إليها من التفكر وعرفوها، لا يقفون عند المعرفة في ذاتها بلا غاية، وإنما تتحرك في الحال قلوبُهم وأرواحهم بالتسبيح ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ " (٣) .

---

(١) رواه ابن حبان في أخلاق النبي ﷺ ، انظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان٢ / ٣٨٧، برقم ٦٢٠، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ١ / ١٠٧ برقم ٦٨، وقال: "وهذا إسناده حسن"، ورواه المنذري في الترغيب والترهيب ٢ / ٣٧٢ برقم ١٣ .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة الأعراف، آية ٣ : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ ، ونحوها في سورة النمل ٦٢، غافر٥٨، الحاقة٤٢ .

(٣) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٨٢-٨٣ بتصرف يسير.

ولم يكتف القرآن بدعوة الإنسان للتفكر في خلق السماوات والأرض، بل دعاه للسير في الأرض والنظر في تاريخ الأمم البائدة، كما يتضح مما يلي:

رابعاً: الاعتبار من تاريخ الأمم ـ الكافرة منها والمؤمنة ـ وسُنن الله فيها:

لا شك أن القرآن الكريم لم يذكر القصة القرآنية وأخبار الأمم الماضية للنبي ﷺ وأمته بهدف التسلية، أو لمجرد التعريف بسُنن الله في الأمم المؤمنة والكافرة مع رسلها فقط، لكنه كان يهدف من وراء ذلك أيضاً لأخذ العظة والعبرة بعد التأمل الدقيق . ولهذا كثُرت آيات القرآن الكريم التي تدعو الإنسان للنظر في ماضي الأمم والأحداث التي عايشتْها ، وتدعوه للتأمل في عاقبتها.

ومن هذه الآيات ... ما هو خطاب للنبي ﷺ بصورة مباشرة، ومنها... ما هو خطاب لغيره، فمن النوع الأول ، قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)** ﴾ [الزخرف : ٢٣-٢٥].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "...فالنظر في قوله تعالى: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ : نظر التفكُّر والتأمل فيم قصّ الله على رسوله ﷺ من أخبارهم ـ أي من أخبار الكفار ـ ...وليس نظر البصر، إذ لم ير النبي حالة الانتقام فيهم"(١).

ودعوة القرآن للنبي ﷺ أن ينظر نظر التفكُّر والتأمل قد وردت في أكثر من آية ولأكثر من موقف وفي أكثر من مجال (٢) .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٥ / ١٩١ .

(٢) كما في سورة الروم آية ٥٠ : حيث دعا الله نبيه للتفكر في إحياء الأرض بعد موتها والاستدلال بذلك على البعث ، قال تعالى: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾ . وكما ورد في سورة الأعراف٨٤، حيث دعا الله نبيه ﷺ للنظر في عاقبة قوم لوط عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)** ﴾ [الأعراف: ٨٤] ، وكذلك قوم فرعون ، كما في الآية ١٠٣ من نفس السورة، وكذلك قوم نوح كما في يونس٧٣، وكذلك قوم صالح كما في سورة النمل٥١، ونحو ذلك في سورة الصافات٧٣ وغيرها.

وهناك آيات أُخرى خاطبت غير النبي ﷺ ودعته للنظر في أحوال الأمم السابقة، بعين العظة والعبرة والتبصر والتدبر ، فمنها قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

وغيرها من الآيات التي سجّلت ما حلّ بالمفسدين والمجرمين والمكذبين المنذرين ـ الذين كذّبوا رسلهم من الأمم الماضية التي كفرت بالله ورسله ـ ودعت كفار قريش وغيرهم للنظر والاعتبار (١) . والقرآن الكريم قد اعتبر التبصر من صفات المؤمنين المتقين من الأنبياء وغيرهم، فقال تعالى:﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) ﴾ [ص : ٤٥] .

وقال سبحانه في معرض المقارنة بين المؤمنين والكفار: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [هود : ٢٤] ، وآيات كثيرة تدعو للتبصر وتمتدح أهله المنتفعين به (٢) ، وتعيب على الكفار عدم تبصرهم في الدنيا (٣)، وعدم انتفاعهم به في الأخرى (٤) بعد فوات الأوان.

= وكما ورد في سورة المائدة ٧٥، حيث دعا الله نبيه للتامل في بيان القرآن لاهل الكتاب عن حقيقة عيسى عليه السلام وإعراضهم عن ذلك ، قال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) ﴾ ، وغير ذلك كما في سورة النساء٥٠، والأنعام ٤٦،٦٥ .

(١) كما ورد في سورة الأنعام ١١ حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ ، ونحوها في سورة ، والأعراف٨٦، ويوسف١٠٩ ، والنحل٣٦، والنمل٦٩، والروم٩، ٤٢، وفاطر٤٤، وغافر٢١،٨٢، ومحمد ١٠ .

(٢) كما ورد في سورة الأنعام آية ١٠٤، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾ ، ونحوها في الآية ٥٠ من نفس السورة، وآية ١٣ من آل عمران، وآية ٢٠١ من الاعراف، وآية ١٠٨ من يوسف، وآية ١٦ من الرعد، وآية ٤٤ من النور، وآية٥٨ من غافر .

(٣) كما في سورة الاعراف آية ١٧٩ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ ونحوها في آية ١٩٥ من نفس السورة، وآية ٧ من البقرة، وآية ٤٣ من يونس، وآية ٢٠من هود، وآية١٠٨ من النحل، وآية ٤٦ من الحج، وآية٣٨ من العنكبوت ، وغيرها.

(٤) كما في سورة الملك آية ١٠-١١، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الأولى: "... والأبصار جمع بصر بالمعنى المجازي، وهو النظر الفكري المعروف بالبصيرة، أي التبصر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوخّي مرضاته" (١)

ولهذا كان النبي ﷺ إذا مرّ بقرية أو بلدة أو مساكن الذين ظلموا أنفسهم تبصّر واعتبر ودعا الصحابة لذلك..، فقد ورد في الصحيح أنه لمّا مرَّ النبي ﷺ بالحِجْر(٢) قال: (**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يُصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**) ثم قنَّعَ(٣) رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي" (٤).

هكذا كان رسول الله ﷺ ينظر لتاريخ الأمم وحياة المجتمعات السابقة، وعلى هذا المنهج كان يُربي صحابته ـ رضي الله عنهم ـ فدعوةُ القرآن للإنسان أن ينظر لسنن الله في الأمم، دعوة «جديرة بالدراسة والفهم... فالنظر لسُنن الله في الأمم من الأمور المهمَّة ... والواجبة ديانة؛ لأن معرفتها معرفة لبعض الدين» (٥)، وهذه الدعوات المتكررة... التي تُلِحُّ على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل البقاء والفناء في المجتمعات، دراسة واعية متفتحة بصيرة معتبرة... إنها ليست دعوة لحفظ التاريخ ـ دونما هدف أو حكمة ـ وليست دعوة للتفكُّه بدراسة التاريخ والتظاهر بالعلم...

إنها دعوة للنظر والاعتبار، دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة...، إنَّ تاريخ الأمم وحياة المجتمعات في نظر الإسلام... ليست أطواراً متعاقبة بغير معنى،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٧٦ .

(٢) الحجر: هو موضع قوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، شمال المدينة المنورة، في الطريق إلى تبوك. انظر صحيح البخاري بشرح د. مصطفى البغا ٣ / ١٢٣٦ ، وانظر الرحيق المختوم للمباركفوري ص٤٣٤ .

(٣) قنّع رأسه: اي غطى راسه، لسان العرب ٨ / ٣٠٠ .

(٤) رواه البخاري ٣ / ١٢٣٧ في كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [هود: ٦١] برقم ٣٢٠٠، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ورواه في مواضع أخرى، في كتاب: التفسير، باب ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الحجر: ٨٠] ، ورواه مسلم في ٤ / ٢٢٨٥برقم ٢٩٨٠ .

(٥) السُنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ص١٦ بتصرف يسير للدكتور.عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

ولا هدف، ولا غاية، ولا نظام معروف، إنها تَتبع سُنَّة معينة ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الأحزاب:٦٢] ، إنها سُنَّة الهُدى الذي يَتْبعه الخير والبركة والتمكين في الأرض، والضلال الذي يتبعه الفساد والضعف والانحلال والفناء... وليس للبشرية في تاريخها كله سوى أحد هذين الطورين المتغايرين... " (١)

خامساً: التدبر في القرآن ومعجزاته، والتشريع وحِكَمِه:

ومن آيات القرآن التي خاطبت العقل آياتٌ دَعَتْهُ إلى التدبر فيه ـ أي في القرآن الكريم نفسه ـ فهو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ ، الباقية إلى قيام الساعة، الشاملة لوجوه كثيرة من وجوه الإعجاز ـ وهو " مُعجزٌ في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلَّف خصائصه ـ هو ـ معجز في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها،... كلٌّ توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسب وتتكامل وتُحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتُلبيها وتدفعها دون أن تتعارض جُزئيةٌ واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أُخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقتصر عن تلبيتها، وكلُّها مشدودة إلى محور وإلى عُروة واحدة في اتِّساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة.

وهو معجزٌ في يُسر مداخله إلى القلوب والنفوس ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، ومخاطبة مواضع التأثر والاستجابة فيها " (٢) .

وللقرآن الكريم عدة مزايا وخصائص، وعدة وجوه في الإعجاز (٣) . وكما أنه معلوم لكل ذي لب (٤) أن محمداً ﷺ منْ أعقل خلق الله ، بل أعقلُهم

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٩٤-٩٥ بتصرف يسير.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١ / ٥٢٢ بتصرف واختصار يسيرين .

(٣) قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من أربعين خصيصة ووجه إعجازي ،كما في نضرة النعيم ١ / ٥٢٢-٥٢٦ .

(٤) لُبٌ: أي عقل؛ ولب الرجل: هو ما جُعل في قلبه من العقل. لسان العرب ١ / ٧٩٢ مادة لبب.

وأكملهم على الإطلاق . وبالتالي ، فما كان لِيقدِم بالتبليغ به إلا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضتُه ، وهكذا وقع.

فإنه من لدن رسول الله ﷺ وإلى زماننا هذا ، لم يستطع أحدٌ أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبداً ، فإنه كلام رب العالمين الذي لا يُشبههُ شيء من خلقه ، لا في ذاته، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله، فأنّى يُشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟ » [١]

وقد ذكر وأجمل القاضي عياض ـ رحمه الله ـ كثيراً من صور إعجاز القرآن الكريم فقال : " **وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:**

أولها: حُسن تأليفه...وفصاحته، ووجود إيجازه،وبلاغته الخارقة عادة العرب....

ثانيها: صورة نظمه العجيب،والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه،ووقف مقاطع آيه، وانتهاء فواصل كلماته.

ثالثها: إخباره بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع، فوُجِد كما وَرَدَ وعلى الوجه الذي أخبر به...

رابعها: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة [٢] ، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك...

■ ثم قال :... ومن الوجوه غير هذه: آيٌ وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنه لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك [٣]...ومنها: الرّوعة [٤] التي تلحق

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ١ / ٥٢٢ بتصرف يسير

(٢) الدائرة: من دائر والمقصود بعهده العهد القديمة المندرسة، انظر لسان العرب ٤ / ٢٧٦، مادة دثر.

(٣) كقوله تعالى لليهود: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ البقرة ٩٤-٩٥ ، اورد ابن كثير حول الآية في تفسيره٢ / ١٣١ ما نصه: "... ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات...".

(٤) الروعة: هي من الروع، وهو الفزع، لسان العرب٨ / ١٣٥ مادة روع، والمقصود الخوف والفزع الذي يُصيب من لم يؤمن بهـ والله اعلم-.

قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه،والهيبة التي تُصيبهم عند تلاوته.

■ **ومنها:** كونُه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفُّل الله بحفظه ... .

■ **ومنها:** أن قارئه لا يملُّه، وسامعه لا يمجُّه [١]، بل الإكباب [٢] على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة ...

■ **ومنها:** جمعُه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامّة ولا محمدٌ ﷺ قبل نبوته خاصّة بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يُحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم...

■ **ومنها:** تيسيره تعالى حِفظِه لمتعلّميه...

■ **ومنها:** مُشاكلةُ بعض أجزائه بعضاً... وحُسن التخلص من قصة لأخرى، والخروج من باب لغيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى: أمر ونهي، وخبر واستخبار[٣]، ووعد ووعيد، وإثبات نبوة وتوحيد ... وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك من فوائده، دون خلل يتخلل فصوله... ومنه [٤] : الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة..." [٥]

وما دام القرآن الكريم يحوى كل هذه الوجوه من الإعجاز وغيرها فلا عجب بعدها أن يدعو الإنسان إلى تدبر آياته ، وتأمل تشريعاته. فمن الآيات التي تحث العقل على تدبر آي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء:٨٢] وغيرها من الآيات[٦] .

(١) يمجه: من مجُّ الشراب ، أي رماه من فيه، والمعنى: وسامعه لا يرفضه ويرميه بل يقبله برغبة ويُقبل عليه، انظر لسان العرب ٢ / ٣٦١، مادة مجج.

(٢) الإكباب: من اكبّ على الشيء أي اقبل عليه يفعله ولزمه، انظر لسان العرب ١ / ٦٩٥ مادة كبب.

(٣) استخبار: أي : استفهام ، واستخبره أي : سأله عن الخبر. لسان العرب٤ / ٢٢٧، مادة خبر.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الصواب، منها:

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٣٨٥-٣٩٦باختصار وتصرف يسير، للقاضي عياض ابي الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي .

(٦) كما في سورة المؤمنون آية ٦٨، قال تعالى:﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، ونحو ذلك في سورة ص٢٩، محمد ٢٤ .

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: "...وأصل التدبُّر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استُعمل في كل تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه، ... والمعنى ـ أيشكُّون في أن ما ذُكر شهادة الله تعالى فلا يتدبرون القرآن الذي جاء به هذا النبي ﷺ ..." (١).

وقد كان شأن النبي ﷺ التدبر لآيات القرآن في صلاته وغير ذلك، فعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلّيتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مُتَرَسِّلاً (٢)، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذ» (٣)

وكما أن آيات القرآن الكريم تدعو الإنسان لتأمل وتدبر آياته، فهي كذلك تدعوه إلى النظر في حكمة التشريع الإسلامي العظيم وتخاطب أُولي الألباب وتُوجِّهُهم لمعرفة مقاصد الشريعة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: "... وفي قوله تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تنبيهٌ بحرف النداء على التأمل في حكمة القصاص، ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالّة على أنهم من أهل العقول الكاملة..." (٤).

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني٣ / ٩٢، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي.

(٢) الترسُّل في القراءة: هو التمهل فيها، والتحقيق بلا عجلة، لسان العرب ١١ / ٢٨٢ مادة رسل.

(٣) رواه مسلم١ / ٥٣٦في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم ٧٧٢، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٤٧٧ برقم ٢٣٢٥٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ١٤٥.

كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٩ - ٢٢٠] ..

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ [البقرة : ٢٤١ - ٢٤٢]. وغيرها من الآيات التي تنص على العلم أو التفكر أو التعقل أو التبيُّن لأحكام الله وحِكْمة تشريعه الحكيم [1] ، ومع أن شرع الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه" تشريع من حكيم عليم خبير، لكن القرآن يدعو سامعه ـ وقارئه ـ إلى التأمل والتدبر في حكمة ذلك التشريع، وما فيه من جلب المصالح ودرء المفاسد، ليلتزمه المرء على علم ومعرفة، واقتناع وحب وإعجاب ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل : ٤٤] [2] " [3] .

---

(١) ذكر عبد الله علوان ـ رحمه الله ـ في كتابه: تربية الأولاد في الإسلام ١ / ٢٥٠ نقلاً عن العلامة شبرل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا في مؤتمر الحقوق عام ١٩٢٧م ما نصه " إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها ؛ إذ انه ـ رغم أميَّته ـ استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون ـ نحن الأوروبيين ـ أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة ".

(٢) تربية الناشئ المسلم د. علي عبد الحليم محمود ص٢٨١، بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) ذكر عبد الرحمن النحلاوي، في كتابه: أصول التربية الإسلامية ص٥٧، وما بعدها عدة آثار للشريعة في تربية الفكر منها:

[١] الشمول في نظرة الإنسان لما حوله ، فتجعل قدرة الإنسان على العطاء أعظم من طاقاته، وأمله أوسع من إمكانياته، وتفكيره أوسع من إحساساته.

[٢] التفكير الدائم الواعي السليم المنهجي الهادف المتقن المنتج ؛ لأنها تقدم للمسلم قواعد ونظماً سلوكية غاية في الدقة والنظام والاستنتاج .

[٣] تربي الإنسان على التفكير المنطقي.. وتحقق مرونة عقل المسلم وقدرته على حسن المحاكمة والاستدلال لما في الشريعة من استنباط للأحكام وغير ذلك.

[٤] تُخرِّج فكراً متحضراً متعلماً واعياً لدعوتها إلى القراءة والتعلم والتفقه وغير ذلك.

انظر : أصول التربية الإسلامية لعبد الرحمن النحلاوي، ص٥٧-٦٠بتصرف يسير.

ولا شك أن التشريع الإسلامي فيه ما يتعلّق بالعقيدة، وفيه ما يتعلق بالعبادات، وفيه ما يتعلق بالمعاملات.

والقرآن الكريم عندما دعا العقل لتدبر التشريع الإسلامي ومقاصده والحكمة منه قد منع العقل البشري من الاجتهاد فيما فيه نص قاطع، مما يتعلق بالعقيدة والعبادة، وفتح له باب الاجتهاد ـ بعد استيفاء الشروط اللازمة ـ فيما يتصل بالمعاملات بعد أن وضع الأسس والمبادئ الأساسية، وحدّد الأُطُر والضوابط اللازمة، وترك له الجزيئات والتفاصيل بما يتناسب مع زمانه ومكانه وظروفه "ليحقق الإنسان لنفسه مصالح الدين والدنيا ويدفع ضررهما" (١)

وقد نتج عن هذا الأمر ثروةٌ فكرية فقهية تمثلت في المذاهب الإسلامية وأئمتها ومدارسها بعد أن "شهد الواقع الإسلامي جهداً ضخماً في ميدان الفقه" (٢) . والاجتهاد للبحث عن الحق والوصول إليه.

ولم تكن وظائف العقل لتنتهي هنا ـ في مجال التدبر والتأمل ونحوها ـ لكن له وظائف أُخرى دعا القرآن الكريم لتحقيقها واستغلال العقل للوصول إليها ، وهذا ما أعرض له في المطلب الرابع كما يلي .

---

(١) تربية الناشئ المسلم ، ص٢٨٣، د. علي عبدالحليم محمود، بتصرف واختصار يسير.

(٢) منهج التربية الإسلامية ١ / ٨٧ لمحمد قطب.

المطلب الرابع

توجيه الإنسان لاستغلال عقله في النافع المفيد له

لم تقتصر آيات القرآن الكريم على دعوة الإنسان لتوظيف عقله في النظر لآيات الله في الكون تأملاً وتدبراً لأخذ العظة والعبرة منها فقط، بل وردت آيات القرآن أيضاً لتوجه الإنسان لاستغلال عقله في كسب النافع المفيد له في شؤون الدنيا والدين مما أودع الله من كنوز في الكون، وفي عمارة الأرض ودراسة عوامل تطور ونمو المجتمعات ، ويتضح هذا الأمر من النقاط التالية :

أولاً: توجيه الإنسان لاستغلال عقله في عمارة الأرض:

من المعلوم قطعاً أن دعوة الرسول ﷺ ظهرت ونشأت في البادية العربية "في بلاد لا تعرف من الحضارة المادية إلا القليل - جداً - ... ولا تهتم إلا بالشعر والحروب القبلية - ولا تعيش إلا على الظلم ونهب حقوق الآخرين وممتلكاتهم - ... لا تفكر في علم ولا اختراع ولا بحث تجريبي ولا تفكير نظري" (١)

فجاء الإسلام العظيم ليحمل معه أفضل مقوّمات لإقامة أعظم حضارة عرفتها البشرية، ذلك لأن القرآن الكريم يدعو للعلم والعمل للدين والدنيا معاً، ويعتبر عمارة الأرض بعد استخلاف الإنسان فيها جزءاً لا يتجزأ من الواجبات الشرعية وذلك " لتكون هذه الأرض على النحو الذي يليق بتكريم الله للإنسان ، وعلى الوجه الذي يُمكّنُه من عبادة الله وحده وفق ما شرع" (٢) .

وهذا ما قررته الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٩٩ بزيادة يسيرة.

(٢) تربية الناشئ المسلم د. علي عبد الحليم محمود ص٢٦٩ .

جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾.

[البقرة: ٣٠ – ٣١] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "أي: أعلمُ ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض" (١)

وقال الله ـ عز وجل ـ في موضع آخر: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : "... أي جعلكم عُمَّارها وسكَّانها ... ورُوي أن المعنى: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار، وقيل المعنى: ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها" (٢)

ولا شك أن إعمار الأرض لا يكون بغير استخدام العقل وتوظيفه تفكراً وتدبراً ودراسة وتخطيطاً...الخ.

وبالتالي فدعوة وتوجيه الإنسان لإعمار الأرض(٣) إنما هي دعوة لاستغلال عقله فيما ينفعه في شؤون دنياه ، وهي في نفس اللحظة تدريب لهذا العقل وتربية لصاحبه لاستخلاص الطاقة المادية لتذليل عقبات الحياة وإزالة عوامل الشقاء فيها، وتحقيق العيش الرغيد ـ قدر الإمكان ـ باستغلال ما في هذا الكون مما سخَّره الله للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، على أن يكون الانتفاع بكل ذلك في إطار منهج الله ووفق إرادته ومرضاته ـ سبحانه وتعالى ـ .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٤٠٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٥٦ بتصرف يسير .

(٣) ذكر القرطبي في جامعه ٩ / ٥٦ نقلاً عن ابن العربي، قال: "قال: بعض علماء الشافعية الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله على الوجوب".

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في شأن التسخير لما في الأرض (١) وغيرها :

" والتسخير (٢): تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يُؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير... ، ولولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلب عليها بتعريفه نواميس الشيء المراد الانتفاع به، وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره، وبالاحتيال على تملُّكه مثل: صيد الوحوش ومَغاصات اللؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن، ومثل التشكيل في صُنع الفُلك والعجل، ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيات والصياغة، ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأدوية والأنواء والليل والنهار..." (٣)

وهكذا نجد أن " الإسلام يوجه قلب الإنسان وعقله لفتح بصيرته على عوامل التطور في المجتمعات، واستخدام طاقته الواعية في تدبرها والبحث في أسبابها ونتائجها... وتذليلها لخدمة الإنسان" (٤) .

وصدق الله القائل: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ⑩ ﴾ [الأعراف: ١٠] ، وغيرها من الآيات التي تدعو الإنسان وتوجهه للاستفادة مما في الأرض من خيرات (٥) باستغلال عقله الذي كرَّمه الله به، ولكن "دون الافتتان بالتقدم المادي الذي يقطع عن الله ومنهجه وعبادته والسير على

---

(١) اي في تفسير الآية ٦٥ من سورة الحج ونصها: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ .

(٢) وعرَّف الراغب الأصفهاني التسخير في كتابه المفردات ص٢٢٧، فقال: التسخير هو سياقةٌ إلى الغرض المختص قهراً... والسُّخري هو الذي يُقهر فيتسخر بإرادته... والمسخَّر هو المقيَّض للفعل. انتهى بتصرف واختصار يسيرين.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١٧ / ٣٢١-٣٢٢ بتصرف واختصار يسيرين.

(٤) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٩٦-٩٧بتصرف يسير

(٥) كما في قوله تعالى في سورة الملك، آية ١٥ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⑮ ﴾ ونحوها في سورة الاعراف١٦٠، والانبياء٨٠ .

هداه، ودون استغلال ذلك في سبيل الشر" (١)

ثانياً: توجيه الإنسان لاستغلال عقله واستثمار علمه في تحقيق وزيادة الإيمان:

وردت بعض آيات من القرآن الكريم تربط بين العلم والإيمان - فلا إيمان بدون علم - ولا خير في علم لا يحقق الإيمان، فالمعرفة في الإسلام "ذات هدفين كبيرين هما: الإيمان والعمل" (٢) .ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء:١٦٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر :٢٨] . وغير ذلك من الآيات (٣)

قال ابن كثير - رحمه الله - : "... أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به... .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: العالم بالرحمن من عباده مَنْ لم يشرك به شيئاً، وأحلَّ حلاله، وحرَّم حرامه، وحَفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسبٌ بعمله .

وقال الحسن البصري (٤) - رحمه الله - : العالم من خشي الرحمن بالغيب،

---

(١) منهج التربية الإسلامية ١ / ٩٩ لمحمد قطب.

(٢) تربية الناشئ المسلم ، د. علي عبد الحليم محمود ، ص٢٧٢

(٣) كما في قوله تعالى في سورة الإسراء، آية١٠٧-١٠٩: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ونحوها في سورة القصص، آية٨٠ .

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري بن أبي الحسن، تابعي، مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقيل غيره، ولد بالمدينة عام ٢١هـ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان إمام أهل البصرة في زمانه وحبر الأمة، وهو أحد الفقهاء العلماء الفصحاء الشجعان النساك.. سكن البصرة.. كان لا يخاف في الله لومة لائم.. تتصبب الحكمة من فيه وله مع الحجاج بن يوسف مواقف وقد سلم من أذاه.. له كلمات سائرة، مات بالبصرة سنة عشرين ومائة هجرية، له : (التفسير) ، و(الكتاب إلى عبد الملك بن مروان في الرد على القدرية) .
انظر: طبقات المفسرين للداودي ١ / ١٤٧، و: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤ / ٥٦٣، و: تقريب التهذيب لابن حجر: ١ / ٢٠٢ .

ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه..." (١)

ولهذا فإنا نجد أن آيات القرآن الكريم تدعو النبي ﷺ للاستغفار ما دامت قد تمّت معرفته بالله ـ عز وجل ـ .

قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ [محمد : ١٩] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " ... فاعلم أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، والمعنى: فاثبت على ذلك واستمر عليه ؛ لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله قبل هذا، وقيل ما علِمتَهُ استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً، وقيل المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله ، وعبّر عن الذكر بالعلم..." (٢)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تعليقه على نفس الآية : " ومن اللطائف القرآنية أنه أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل..." (٣)

إذاً "فالمعرفة ما لم تُؤدِّ إلى شيء... ما لم تؤد إلى غاية في حياة الإنسان... فوجودها وعدمها سيان، بل هي وبال على صاحبها، والجهل في هذه الحال خير منها" (٤)

وهذا ما ترفضه شريعة الإسلام ،وهذا يعني أنه لا بد وأن يعقب المعرفة الذهنية إيمان وعمل ـ "إنها تبدأ بالتفكر وتنتهي بالعمل، العمل بمقتضى الحق الذي نزل به القرآن ... والجهاد في سبيل إقرار هذا الحق وتسيير دفة الحياة على نهجه وشريعته، ثم تصل إلى الغاية القصوى ، تصل إلى الجزاء في الآخرة" (٥)

وصـدق الله القائـل: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٦٠٨ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٥٢ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٦ / ١٠٥ .

(٤) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٨٣ بزيادة يسيرة .

(٥) نفس المرجع والصفحة بتصرف يسير .

عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد : ٢] .

قال ابن جرير - رحمه الله - أي: يفصِّل لكم ربكم آيات كتابه... لتوقنوا بلقاء الله والميعاد إليه ، فتُصدِّقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان ، وتُخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك" (١) .

إذاً فالقرآن الكريم يدعو الإنسان ويوجهه لاستثمار علمه ومعرفته الذهنية في تحقيق الإيمان وزيادته ، وهكذا كان حال النبي ﷺ .

فقد كان ﷺ يجمع بين التفكر (العلم) والعبادة (العمل) ،كما ورد في الحديث الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "بتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، ثم قام فتوضا واستنّ (٢)، فصلّى إحدى عشرة ركعة، ثم أذَّن بلال فصلّى ركعتين، ثم خرج فصلّى الصبح" (٣) .

قال القرطبي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث وتعليقه عليه:

"... فانظروا - رحمكم الله - إلى جمعه بين التفكر في المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده... فيجمع بين التفكر والعمل... وهذه التي يُعتمد عليها" (٤) .

ومن كل ما سبق نفهم أن "الإسلام ينظر إلى العلم - وهو عمل عقلي - أنه وسيلة إلى الإيمان - وهو عمل قلبي - والإيمان وسيلة للعمل الصالح - وهو عمل الجوارح"(٥).

---

(١) جامع البيان ٧ / ٣٣٠ .

(٢) استن: أي استعمل السواك لتنظيف أسنانه، انظر صحيح البخاري ٤ / ١٦٦٥ بشرح د. مصطفى البغا .

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ٤ / ١٦٦٥ برقم٤٢٩٣، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٣٤١ برقم ٢٤٨٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣١٠، ٣١٥ باختصار .

(٥) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ص٢٧٢ .

وهكذا نجد أن آيات القرآن الكريم تحقق للعقل الإنساني التربية الصحيحة بجميع قدراته التي أشار إليها القرآن وهي: "قدرة العقل(الفهم)، وقدرة الاستنباط، وقدرة التدبر، وقدرة الفقه، وقدرة التفكر، وقدرة التذكّر، وقدرة النظر، وقدرة الشهود، وقدرة الإبصار، وقدرة الحكمة" (١)

وتهدف من وراء ذلك كله إلى تعريف العبد بربه حقّ المعرفة، وإبعاده عن الجهل والغفلة والبلادة (٢) التي وصف الله بها من لا يعقل من البهائم وأمثالها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا (٣) لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف :١٧٩] .

وقد حقق الله ـ عز وجل ـ للنبي ﷺ التربية العقلية ـ بصورة غير مباشرة أيضاً ـ من جانب آخر وبأسلوب آخر، وهذا ما أعرض له في المطلب الخامس كما يلي.

---

(١) مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص٥٢ بتصرف يسير، الكتاب رقم٢٩ من سلسلة كتب الأمة ، ط١، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر.

(٢) البلادة: هي ضد النفاذ والذكاء، والمضاء في الأمور، ورجل بليد إذا لم يكن ذكياً، والمبلود هو الذي ذهب حياؤه أو عقله، والمبلود المتحير لا فعل له، وهو المعتوه، والبلادة هي ضعف الفكر في الأشياء العملية التي تتعلق بحسن التدبير، وجودة المعاش ومخالطة الناس والمعاملة معهم، انظر لسان العرب٣ / ٩٥، مادة بلد .

(٣) ذرأنا: أي خلقنا، انظر لسان العرب١ / ٧٩ مادة ذرأ .

المطلـــب الخامس

وضع المنهج العلمـــي الصحيح لتوظيف العقـــل

بعد أن استعرضتُ ـ في المطالب السابقة ـ دعوة القرآن الكريم الإنسان لتوظيف عقله واستغلال ملكاته لتحقيق نموه ونضوجه العقلي، تبيّن من خلال استقراء آيات القرآن ـ بشكل عام ـ أن القرآن الكريم قد وضع بذلك أُسس المنهج العلمي الصحيح لدراسة الحقائق والتفكير السليم ـ ويمكن توضيح هذا من خلال الفقرتين التاليتين:

أولاً: وضع المنهج العلمي الصحيح لدراسة الحقائق:

يتضح لنا من خلال استقراء آيات القرآن الكريم والتمعُّن فيها، أن الحقيقة في الإسلام ـ أو المعلومة بشكل عام ـ لا تُقبَل إلا بعد إخضاعها لعوامل عدة تُبيّن صوابها من خطئها وصحتها من بطلانها، وذلك هو ما يُسمى بالمنهج العلمي لدراسة الحقائق، الذي وضعه القرآن الكريم لصياغة العقلية المسلمة، ويتضح من خلال:

[أ] أخذه بالمنهج الاستدلالي:

أي: اعتماد الدليل والبرهان لإثبات الحقيقة والقبول بها والإيمان بها والحكم عليها، "فتعويد العقل منهج الاستدلال بعد النظر والتأمل ـ كما سبق ذكره ـ منهج علمي دقيق تمثّل في كثير من آيات القرآن الكريم" (١) .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ استدل لإثبات التوحيد لقومه عند محاجّته لهم بآثار الله في مخلوقاته ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ

(١) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ، ص٢٦١، بتصرف وزيادة يسيرة.

وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾
[الأنعام : ٧٥ – ٨٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "... والحق أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مُبيِّناً لهم بُطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام.

فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ـ حسب زعم الكفار ـ ليشفعو إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم ـ أي الكفار ـ أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة... وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزُحل، وأشدهنَّ إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة.

فبيّن أولاً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخّرة مقدَّرة بسير معيّن لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرّفاً ، بل هي جُرمٌ من الأجرام خَلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحِكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل

إلى القمر، فبيَّن فيه مثل ما بيّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام :٧٨] . أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تُنظرون، ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام :٧٩] ، أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومُسخِّرها ومُقدِّرها ومُدبِّرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء، وربّه ومليكُه وإلههُ..." (١)

وهكذا استخدم إبراهيم - عليه السلام - منهج الاستدلال واعتماد الدليل والبرهان لإثبات الحقيقة والقبول والإيمان بها.

وأهل الكهف أنكروا على قومهم اتخاذ آلهة من دون الله دون دليل صحيح أو برهان صادق على ألوهيتها، قال تعالى على لسانهم: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾ [الكهف : ١٤ - ١٥] .

قال الشوكاني - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا ﴾:

"وفي هذا الإخبار معنى الإنكار، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم"، وقال في تفسير: ﴿ لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي: هلاً يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها..." (٢) .

إذاً " فالتماس الدليل والبرهان في الإسلام مطلب عام في كل الأمور العقدية والعبادية والأخلاقية والعادية" (٣) . ويتضح هذا في كثير من أحكام الإسلام في

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٦-١٥٧ .
(٢) فتح القدير ٣ / ٣٩٠ بتصرف يسير .
(٣) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ، ص٢٦٦ .

الفقه في أبواب التقاضي والشهادات والجنايات والحدود والقصاص وغيرها"[١] .

وهكذا اعتمد الإسلام المنهج الاستدلالي في كل حقيقة يقدمها لأهله ويطلب منهم القبول بها والإيمان بها وأعظمها قضية التوحيد لله التي نادى بها الأنبياء والرسل ـ على مدار التاريخ البشري ـ وهم يجادلون عن الحق الذي جاؤوا به بأدلة وبراهين قوية ـ عقلية ونقلية ـ كما يتضح من خلال دعوة نوح عليه السلام لقومه[٢] ، وإبراهيم عليه السلام للنمرود[٣] ،وغيرهم من الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[٤]

ونجد أن القرآن الكريم قد استدلّ للإنسان ببدء خلقه على إعادة بعثه ـ أخذاً بمنهج الاستدلال ـ في أكثر من آية[٥] .

وفي نفس اللحظة التي يدعو فيها القرآن الكريم للأخذ بهذا المنهج فإنه يرفض أن يقبل الإنسان كل معلومة تلقّاها عن طريق السماع دون تبيّن وتثبُّت ، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات :٦] وفي قراءة ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ .

وكما أن القرآن الكريم قد حذّر النبي ﷺ من اقتفاء ما ليس له به علم[٦] ، فقد نعى على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تلقّي المعلومات وقبولها وإصدار الأحكام فيها دون علم كما في حادثة الإفك التي اتُّهمت فيها عائشة رضي الله عنها ظُلماً وبُهتاناً ـ

(١) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ، ص٢٦٦ .

(٢) كما في سورة هود من آية ٢٤-٣٢ .

(٣) كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ٢٥٨ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨ ﴾ .

(٤) كما في سورة هود من الآية رقم ٥٠-١٢٠ .

(٥) كما في سورة يس من آية ٧٧-٧٩ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ .

(٦) سبق ذكر ذلك في المطلب الثالث من المبحث الاول في هذا الفصل ص ٢٧٠ .

بالفاحشة ، والقصة معروفة (١) .

فأنكر الله عليهم قائلاً: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور : ١٥] .بل إن النبي ﷺ قد اعتبر من يتحدث بكل ما يسمع من الكاذبين، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع) (٢) .

وحين تتعقّد المواقف والمشكلات ـ وخاصّة تلك المتعلقة بأمور السلم أو الحرب والأخطار ـ وتحتاج لدليل قوي واضح لبناء المواقف والأحكام عليها، وتحتاج إلى درجات عالية من القدرات العقلية، والخبرات العميقة، ومناهج التفكير الحكيم ، فإن القرآن يعيب على أولئك الذين يتلقّون الإشاعة دون إرجاعها لأُولي الأمر من العلماء والحكماء ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء :٨٣] (٣) .

والقرآن الكريم ـ أيضاً ـ تأكيداً على دعوته للأخذ بمنهج الاستدلال يرفض الظن (٤) الباطل (٥) ، وينهي عنه ويُندّد بأهله ويدعو إلى "صيانة العقل من

---

(١) قد اخرجها البخاري في صحيحه ٤ / ١٧٧٤-١٧٧٨ في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور:١٢] ، حديث رقم ٤٤٧٣ .

(٢) رواه مسلم ١ / ١٠، المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سُمع ، برقم ٥، والبغوي في شرح السُّنّة ١٢ / ٣٦٢ والخطيب التبريزي في المشكاة برقم ١٥٦ .

(٣) مقومات الشخصية المسلمة، د. ماجد الكيلاني، ص٦٠ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٤) الظن: هو شك ويقين إلا انه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فاما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم. لسان العرب ١٣ / ٢٧٢ ماد ظنن.

(٥) ذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره ١١ / ١٦٥ :
[١] ان الظن قد يُطلق مجازاً على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك ، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٤٦] .
[٢] وقد يطلق حقيقة على الاعتقاد المشوب بشك ، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الاعراف : ٦٦] .
[٣] وقد يُطلق مجازاً على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢].

الأحكام المبنية على الظنون والتخمينات والأهواء ؛ لأن هذا كله ـ يُعوِّد المرء على قبول مالا يعلم صحته ـ ويُباعد بينه وبين الحقيقة" [١] .

ولهذا قال تعالى مُنكراً على أقوام اتِّباعَ ظنونهم : ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ [يونس : ٣٦] ..

قال ابن كثير [٢] **ـ رحمه الله ـ :** " ثم بين تعالى أنهم (أي الكفار) لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم أي : توهُّم وتخيُّل ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً" [٣]

وفي الحديث عن النبي ﷺ : **(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)** [٤] .

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد ربط بين اتِّباعَ الظن والهوى في غير ما آية، منها قوله تعالى : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ** ﴾ [النجم : ٢٣] .

ولعلّ الحكمة من وراء الجمع بينهما هي ضلال طريق أهلهما لاشتراكهما في خلو الدليل والبرهان وخطأ الأحكام المبنية .

ونجد أن القرآن قد حذّر النبي ﷺ من اتِّباع أهواء الجهلة ،كما في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨)** ﴾ .

[الجاثية : ١٨] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "...والأهواء : جمع هوى، وهو المحبّة والميل، والمعنى : أن دينهم (أي دين الكفار) أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين، والخطاب للنبي ﷺ ، والمقصود منه إسماع المشركين... وفيه تعريض

---

(١) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ص٢٦١ بتصرف يسير.

(٢) انظر ملحق التراجم .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٧ .

(٤) رواه مسلم ٤ / ١٩٨٥في كتاب : البر والصلة والآداب، باب : تحريم الظن والتجسس، ... برقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، والترمذي برقم ١٩٨٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى٦ / ٨٥ .

للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون" (١)

والقرآن الكريم قد أنكر الجدال بغير علم فقال سبحانه منكراً على اليهود جدالهم بغير حق ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "وفي الآية دليل على منع الجدال بالباطل"(٢) .

والقرآن الكريم قد دعا ـ في أكثر من آية ـ وطلب الدليل والبرهان على صدق ما يدَّعيه الإنسان ويعتقده من الباطل (٣) ، فقال تعالى ـ في معرض الرد على اليهود والنصارى الذين زعم كل فريق منهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم ـ ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة : ١١١] .

قال أبو حيان الأندلسي ـ رحمه الله ـ : " وفي هذا دليل على أن من ادَّعى نفياً أو إثباتاً فلابد له من الدليل، وتدل الآية على بطلان التقليد وهو قبول الشيء بغير دليل" (٤)

من كل ما سبق يتبيّن لنا أن القرآن الكريم " قد جعل المعرفة مرتبطة ببرهانها ودليلها ـ الصحيح الصادق ـ كما جعل البرهان دليل صدقها" (٥) .

ويتبيّن لنا أيضاً اعتماد القرآن على منهج الاستدلال في عرض الحقائق وغرس العقائد الصحيحة، بل وقبول الأقوال والادعاءات على الغير.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٤٨

(٢) فتح القدير ١ / ٥٨٢ .

(٣) كما ورد في سورة الأنبياء٢٤، قال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ إلخ الآية ونحوها في سورة النمل ٦٤، والقصص ٧٥ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٥٢١

(٥) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، لعبد المجيد بن سعود ص ١٧، نقلاً عن مقدمة الكتاب لعمر عبيد حسنة.

كما أن القرآن الكريم قد دعا وأكد على استخدام المنهج العلمي الصحيح في دراسة الحقائق من خلال:

(ب) حثه على استخدام المنهج التجريبي: [(١)]

وهو يعني الطريقة التي يستخدمها الباحث للحكم على قضايا متكررة لإحساسات كثيرة من غير علاقة عقلية مع الاقتران بقياس خفي [(٢)]

وهو " يعتمد على الحواس في إدراك المحسوسات ، وعلى العقل في إدراك المعقولات" [(٣)]

وهذا المنهج الإسلامي هو ما شهد به الغربيون أنفسهم، وأكّدوا أنه تراث إسلامي أصيل حتى قال قائلهم: "أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدّم المعرفة العلمية مساعدةً ماديّة ملموسة، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى" [(٤)] .

وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في شأن ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف : ٨٤ -٨٥] .

قال الشوكاني - رحمه الله - في تفسير ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي: "طريقاً يتوصّل به إلى ما يريده... وقيل: أتبع من كل شيء علماً يتسبَّب به إلى ما يريد..." [(٥)] .

---

(١) المنهج التجريبي : او التجربيّات والمُجربات هي: القضايا التي يحتاج العقل في جزم الحكم بها إلى واسطة تكرار المشاهدة... والتجربة قد تكون كلية وذلك عندما يكون بتكرر الوقوع بحيث لا يحتمل معه اللاوقوع، وقد تكون أكثرية وذلك عندما يكون بترجيح طرف الوقوع مع تجويز اللاوقوع، انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ١ / ٣٨١ .

(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة بتصرف يسير.

(٣) تربية الناشئ المسلم، د. علي عبد الحليم محمود ص٢٧٥ .

(٤) من مقالة لـ هـ.ر. جب في كتابه: الاتجاهات الحديثة في الإسلام، اقتبسها: محمد قطب في كتابه: منهج التربية الإسلامية ١ / ٩٩ .

(٥) فتح القدير ٣ / ٣٨٢ .

(جـ) دعوته إلى الأخذ بمنهج الاستقراء : (١)

ويعني " الطريقة التي يستخدمها الباحث لتتبع وتفحص ودراسة الجزئيات في قضية ما للخروج بحكم كلي " (٢)

وهو يعتمد على التأمل والتفكر للوصول إلى الاستنباط العقلي والحقائق الصحيحة... ووجه العظة والعبرة فيها.

فالقرآن يجعل من المنهج الاستدلالي وسيلة للوصول بالإنسان العاقل إلى المنهج الاستقرائي ، فهو "يستخدم مثلاً : منطق دلالة الصنعة على الصانع لإثبات وجود الله ،... فيوجه الإنسان إلى الظواهر المصنوعة (٣)" (٤) ، كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار، وجريان الفُلك في البحار، وغير ذلك ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

ثم يقول عقب ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أو ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ـ كما في الآية السابقة ـ أو﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو غير ذلك مما فيه دعوة لإعمال عقل الإنسان،

---

(١) منهج الاستقراء: الاستقراء لغة: هو التتبع، مِنْ استقريت الشيء إذا تتبعته، وعند المنطقيين هو قول مؤلف من قضايا تشمل على الحكم على الجزئيات لإثبات الحكم الكلي، والاستقراء هو الحكم على كلي لوجوده في أكثر جزئياته، وهو تصفح الجزئيات لإثبات حكم كلي ـ وكلها متقاربة المعنى ـ، والاستقراء قسم من الدليل ، وينقسم قسمين:

[أ] **استقراء تام** : ويُسمى قياساً... وهو أن يُستدل بجميع الجزئيات ويُحكم على الكل، وهو قليل الاستعمال.

[ب] **استقراء ناقص** : وهو أن يُستدل بأكثر الجزئيات فقط ويُحكم على الكل. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوني ١ / ١٧٢ .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوني ١ / ١٧٢ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) المصنوعة: هكذا في الأصل، ولعل الأصوب المخلوقة لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر:٦٢ .

(٤) جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، د. مقداد يالجن، ص١١٠

لاستقراء ما في الكون من آيات الله ، ثم الاستدلال بها على وجوده سبحانه وكذا ربُوبيته وألوهيته، كما في الآية السابق ذكرها ، حيث سبقها قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٣].

وهكذا نجد آيات كثيرة (١) تدعو الإنسان لتفحّص واستقراء ما حوله من مخلوقات لمعرفة الخالق وصفاته ـ سبحانه وتعالى ـ .

وصدق الله القائل : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات : ٢٠-٢٣] .

وهكذا "مِنْ أجل حمل العقل على التأمل والنظر والاستدلال، فإن الإسلام قد دعا كل ذي عقل إلى الاستقراء والفحص الدقيق لحقائق الأشياء، كيف كانت؟ وكيف صارت؟ ، وكيف تطوَّرت ، ومم تركّبت... "(٢) وعلام يدل ذلك كله؟!.

من كل ما سبق يتبيّن لنا أن القرآن الكريم قدّم للعقلية الإنسانية حقائقه وعقائده من خلال منهج علمي متميز ،يتمثّل في المنهج الاستدلالي والاستقرائي والاستنباطي ، واعتبر ذلك هو الطريق الصحيح للعقلية المؤمنة التي ينبغي أن تسير عليه في دراسة الحقائق، وسعى أيضاً من خلال نصوصه إلى صياغة العقلية الإسلامية التي تنظر بمنظار الإسلام إلى الكون والحياة، وتُقوِّم ذلك بمعايير الإسلام... ليتمكن الإنسان من رؤية الحقائق العلوية المعنوية والسفلية المادية بالشكل الصحيح" (٣) .

ثانياً: وضع المنهج العلمي الصحيح للتفكير السليم:

سبق ذكر أن القرآن الكريم قد دعا إلى تحصين عقلية الإنسان وتحريرها من

---

(١) كما في سورة العنكبوت آية ٢٠ حيث قال سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ..الخ الآية ، ونحوها في سورة يس : ٣٢-٤٠، والغاشية:١٧-٢٠ وما بعدها.

(٢) تربية الناشئ المسلم ، د. علي عبد الحليم محمود ص٢٧٧ بتصرف يسير

(٣) جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، د. مقداد يالجن ص٩٠-٩١ بتصرف وزيادة يسيرة.

الأفكار والمعتقدات الباطلة، وزوّدها بالقدر اللازم والكافي من المعتقدات الغيبية " القدر الذي يُلبي ميل الإنسان إلى معرفة المجهول" (١) ، «وأعفاه من كل مالا يطيق تصوره أو اعتقاده، من منطلق: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا ﴾ [البقرة :٢٨٦]، حتى لا تُبدد طاقة الإنسان وجهده فيما لا ينفع، وحتى يَحفظ عقلَ الإنسان من الخطأ والاضطراب والعجز والحيرة والضلال، وحتى لا يتعوّد العقل الشطط (٢) ، أو التعلق بالخيال والوهم، ومالا وجود له في الواقع» (٣)

والقرآن ـ أيضاً ـ قد نَهَجَ نهْجَ مخاطبة الناس وتعليمهم على قدر عقولهم حتى لا يُفتنوا أو يُكذبوا الحقائق أو يفقد المتعلم ثقته في نفسه وقدرته على التعلم، كما في الأثر الموقوف عن ابن مسعود (٤) ـ رضي الله عنه ـ قال: "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" (٥)

وصحّ عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال" حدّثوا الناس بما يعرفون أتُحبُّون أن يُكذّب الله ورسوله" (٦)

وكما أن القرآن الكريم قد وضع للإنسان المنهج العلمي الصحيح لدراسة الحقائق، فهو أيضاً قد وضع له مناهج وأساليب التفكر السليم المقبول، وحذّره من غيرها.

ومناهج أو أساليب التفكر السليم التي قرّرها القرآن الكريم تتمثل في عدة أمور، منها:

(أ) دعوته إلى النقد الذاتي بدلاً من التفكير التبريري:

فهو يُنكر على الإنسان تبريره ما وقع منه من خطأ باختياره أو مصائب وقعت

(١) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب ١ / ٧٧ بتصرف يسير.

(٢) الشطط: هو التجاوز أو الجور في الحكم، لسان العرب ٧ / ٣٣٤ مادة شطط.

(٣) تربية الناشئ المسلم ، د. علي عبدالحليم محمود ص٢٦٦-٢٦٧ بتصرف واختصار.

(٤) انظر ملحق التراجم .

(٥) أخرجه مسلم ١ / ١١ في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم ٥، وذكره المتقى الهندي في كنز العمال برقم ٢٩٠١١ .

(٦) رواه البخاري ١ / ٥٩ في كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية الا يفهموا برقم ١٢٧، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال برقم ٢٩٣١٨

عليه بسببه، أو الفشل الذي يصيبه في حياته لعدم أخذه بأسباب النجاح بدلاً من الاعتراف بذلك والسعي لإصلاح ما فسد وانتقاد الذات.

وهذا كله يعني أن القرآن الكريم يدعو للنقد الذاتي ـ بدلاً من التفكير التبريري ـ ويتضح هذا من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠] . ومن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧].

فالآية « تقرر عدم عذر الذين بقوا في مكة بعد إسلامهم مع قدرتهم على الهجرة حتى فُتنوا في دينهم وخرجوا يوم بدر مع المشركين... فقُتلوا ببدر وهم يقاتلون في صفوف المشركين ، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ولكنّهم أُكرهوا على الكفر والخروج، فنزلت هذه الآية فيهم...وهذا أصح الأقوال في هذه الآية » [1]

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " وجيء باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ للدلالة على أنهم أحرياء [2] بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة من أجل الصفات المذكورة قبله ؛ لأنهم كانوا قادرين على التخلص من فتنة الشرك بالخروج من أرضه" [3] .

والقرآن الكريم يرفض أن يُبرئ الإنسان نفسه من مسئولية خطئه، أو ينسب ذلك لغيره، أو يبحث عن مبررات خارجية، والله عز وجل إنما غفر لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ لندمهما واعترافهما بذنبهما ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٥ / ١٧٦ .

(٢) أحرياء: أي مستحقون وأهل لذلك، قال في لسان العرب ١٤ / ١٧٣: «...والحري الخليق...» .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٥ / ١٧٧ .

إذاً فنسبة الخطأ للغير وتبرير الذات أو الاحتجاج بالقدر في باب المعاصي هو منهج تفكير إبليسي لا يجوز؛ فإبليس احتجَّ بالقدر عندما عصى الله ـ عز وجل ـ برفض السجود لآدم عليه السلام ـ ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦] . فقد نسب إبليس ما وقع منه من عصيان وغواية إلى قضاء الله وقدره وإرادته ـ سبحانه وتعالى ـ محتجاً بذلك ، فأنكر الله عليه الاحتجاج بالقضاء و القدر في باب المعاصي [١]؛ لأن المخلوق مخير فيها لا مجبر عليها [٢].

والقرآن الكريم يحذر الإنسان من اعتقاد الكمال في نفسه أو ادِّعائه، وهذا يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

[النجم : ٣٢] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "أي لا تمدحوها، ولا تُبرِّؤوها عن الآثام ، ولا تُثنوا عليها" [٣] .

« وهكذا نجد أن القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية تُظهر النقد الذاتي وكأنه من المبادئ الثابتة والموازين الدائمة التي تُوجه العقل لأن يتحرَّى دور صاحبه في كل ما يصيبه في أي زمان أو مكان » [٤] .

(ب) تحذيره من التفكر الجزئي بدلاً من التفكير الشامل:

نجد القرآن الكريم يُوجِّه عقل الإنسان للتفكير الشامل بدلاً من التفكير الجزئي [٥]، بمعنى أنه يدعوه للتفكير الذي يتناول الظاهرة من جميع جوانبها

---

(١) وأنكر الله على المشركين احتجاجهم بالقدر في باب الكفر وعبادة الأصنام ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، [الزخرف : ٢٠]. حيث احتجوا بقضاء الله وقدره ومشيئته في وقوع الكفر منهم وعدم الإيمان .

(٢) مذهب السلف فيما يتعلق بخلق أفعال الإنسان هو مذهب وسط بين الجبرية والقدرية (نفاة القدر) ، وأن الخير والشر كله من الله ، وسبب الشر هو كسب الإنسان، انظر فتاوى ابن تيمية ٨ / ٦٣-٦٤ .

(٣) فتح القدير ٥ / ١٦١ .

(٤) النظرية التربوية الإسلامية ص٤٥، د. ماجد الكيلاني، بتصرف يسير.

(٥) مقومات الشخصية المسلمة ، ص٥٨، د. ماجد الكيلاني.

بجميع ما يتعلق بها، دون الاكتفاء بجزء منها ثم يعمم الحكم على جميعها.

ويتضح هذا من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: لا تكونوا من المشركين الذين فرّقوا دينهم، "أي بدّلوه وغيّروه" وآمنوا ببعض وكفروا ببعض (١)» (٢)

ووجه الاستدلال أنهم أخذوا بجزء من دينهم وتركوا الجزء الآخر مكتفين بما عندهم وفرحين به، فلم يؤمنوا ويعملوا به كلّه، وهذا ما حذّر الله منه مؤمني هذه الأمة ـ ضمناً ـ عندما نزل قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: "... أُمروا كلُّهم ـ أي أهل الإيمان ـ أن يعملوا بجميع شُعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها..."(٣).

فمفهوم المخالفة من الآية السابقة تحذير الله لأهل الإيمان من أخذ شيء من الإسلام والاكتفاء به وترْك الباقي.

وهكذا فقد تبيّن من كل ما سبق أن القرآن الكريم يدعو للشمولية في الإيمان والتفكير والعمل، ويرفض الجزئية من ذلك كلّه، وأخص هنا ما يتعلق بالتفكير "سواء أكان موضوع الفهم والتفكير هو الدين، أم غيره، فإن التفكير الجزئي يؤدي إلى تعدد وجهات النظر، وتباعدها، وتنافرها، وينتهي إلى تفتيت الجهود والفشل في الوصول إلى الحقيقة، أو الثمرات المنشودة" (٤).

ولذا فلا عجب أن يُنكر الله على بني إسرائيل عملهم ببعض أحكام توراتهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٤٣.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٤٣: "وقرا بعضهم ـ اي الآية ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ قرا ... ﴿ فَارَقُوا دِينَهُم ﴾" اي: تركوه وراء ظهورهم كاليهود والنصارى...).

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦٦.

(٤) مقومات الشخصية المسلمة ص٦٠ بتصرف يسير، د. ماجد الكيلاني.

وكفرهم بالبعض الآخر، قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

(جـ) تأكيده على التفكير السُّنني بدلاً من التفكير الاتّكالي:

والقرآن الكريم في منهجيته لتحقيق التربية العقلية الصحيحة يوجه عقل الإنسان للتفكير السُّنني بمعنى: النظر إلى الكون والتعامل معه من خلال ما أوجده الله فيه من سُنن وقوانين وكيفية الاستفادة من ذلك كلّه، لا من خلال انتظار وقوع المعجزات وتحقق خوارق العادات لقضاء حاجاته وحل مشكلاته دون سعيه في التغيير والعمل، فكل شيء في الكون ـ من الذرّة وحتى المجرّة ـ يجري لأجل مسمّى وفق سُنن أرادها الله وقدّرها تقديراً ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر : ٤٩] .

وقد جعل الله لهذا الكون قوانين ونواميس ربّانية معيّنة هي التي تحكم هذا الكون ـ بأمر من الله ـ سُنة الله في خلقه ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] . و"بقدر نجاح الإنسان في الكشف عن هذه السنن والقوانين، وفي حُسن استخدامها، والتوافق معها، بمقدار ما يستطيع تسخير الكون" (١)

وصدق الله القائل: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]

(د) دعوته للتفكير الجماعي بدلاً من التفكير الفردي:

والقرآن الكريم أيضاً يُربي العقل على " التفكير الجماعي بدلاً من التفكير الفردي"(٢).

فالمسئولية في الإسلام قد تكون جماعية ، وقد تكون فردية، تكون جماعية

---

(١) مقومات الشخصية المسلمة، ص٦٤، د. ماجد الكيلاني.

(٢) مقومات الشخصية المسلمة، ص٦٣، د. ماجد الكيلاني.

في بعض تشريعات الإسلام من حيث أدائها كالجهاد في سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله ، ونحو ذلك، فهي جماعية التنفيذ، فردية المحاسبة عند الله ، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم : ٩٥] .

ويتضح منهج القرآن في تربية العقل على التفكير الجماعي من خلال قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " ...فإن المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول ﷺ دبَّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء وذلك الحال هو المعبّر عنه بالفتنة... ليعلموا أنه قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يُقوّموا عِوج قومهم... .

وبهذا نعلم أن الفتنة قد تكون عقاباً من الله تعالى... فإن من سُنّتِها ألا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد ؛ لأنها عقوبات تحصل بحوادث كونية" (١)

ونفس الأمر في مجال النصرة بين المؤمنين لدفع شر أو جلب خير،فالقرآن يدعو لتغليب الروح الجماعية على الأنانية الفردية ،كما قال ﷺ : **(مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى)** (٢)

ومن هنا نفهم أن " مصير الفرد ـ في شريعة الإسلام ـ مرتبط بمصير الجماعة، وتبادل الرعاية بين الطرفين صفة لازمة للمجتمع الراقي" (٣) .

وبهذا نكون في نهاية هذا المطلب ـ الذي تناولت فيه المنهج العلمي الصحيح

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩ / ٣١٦-٣١٧ .

(٢) رواه مسلم عن النعمان بن بشير٤ / ١٩٩٩، في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم ٢٥٨٦، واخرجه الإمام احمد في مسنده ٤ / ٣٦٨ برقم ١٨٣٤٠ ، والبيهقي في السُنن الكبرى ٣ / ٣٥٣، والبغوي في شرح السُنّة ١٣ / ٤٦ .

(٣) مقومات الشخصية المسلمة د/ماجد الكيلاني، ص٦٣ .

لتوظيف العقل في دراسة الحقائق والتفكير السليم - قد وصلنا إلى ختام هذا الفصل (التربية العقلية للنبي ﷺ) وتبيّن لنا أن الله - عز وجل - قد حقق ذلك للنبي ﷺ على أحسن وجه وأكمله، وبعدة صور مباشرة وغير مباشرة - عبر آيات القرآن الكريم - حتى بلغ بالنبي ﷺ مبلغاً قال عنه القاضي عياض - رحمه الله - "وأما وفور عقله، وذكاء لُبه، وقوى حواسه، وفصاحة لسانه، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم" (١) .

وقال وهب بن منبه (٢) : «قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً، فوجدتُ في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً" (٣)

وكما أن القرآن الكريم قد حقق التربية العقلية للنبي ﷺ على أحسن وجه وأكمله، فقد حقق له أيضاً نوعاً آخر من أنواع التربية. وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في الفصل الثالث وهو بعنوان: (التربية الإيمانية للنبي ﷺ) .

---

(١) الشفا ١/٩١ .

(٢) هو ابو عبد الله وهب بن مُنبّه الأبناوي، الصنعاني، الذماري، مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الاولين ولا سيما الإسرائيليات، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن ، ولد عام ٣٤هـ قيل عنه أنه لبث أربعين سنة لم يسبُ شيئاً فيه الروح، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً، ويُنسب إليه أنه قال: «إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوّة»، روى عن أبي هريرة وغيره من الصحابة، وكان الغالب هي علمه القصص، وقيل أنه صحب ابن عباس رضي الله عنهما ولازمه ثلاث عشرة سنة، وولي القضاء لعمر بن عبد العزيز.
اتُّهم بالقدر، ورجع عنه، ويقال ألّف فيه كتاباً ثم ندم عليه، وقد امتحن في كبره وحُبس على يد يوسف ابن عمر له بعض الكتب منها: «ذكر الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» وله أيضاً «قصص الأنبياء» و«قصص الأخبار»، توفي في صنعاء عام ١١٤هـ، وقيل ١١٠هـ وقيل ١٢٠هـ.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ٥٤٣، و:طبقات فقهاء اليمن ص٥٧ لعمر الجعدي.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٩١ - ٩٢ .

الفصل الثالث

تربية النبي ﷺ إيمانياً



الفصل الثالث

التربية الإيمانية للنبي ﷺ

تمهيــد:

من المعلوم قطعاً أن الوحي تنزَّل على النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً، تارة كان يتنزَّل عليه في مكة، وتارة أُخرى في المدينة، وتنزَّل القرآن على قلب النبي ﷺ حال الأمن والشدة، والسِّلم والحرب، والحضر والسفر، في بيته وبين أصحابه، في يقظته ومنامه، في الليل والنهار، وغير ذلك، ليحقق للنبي ﷺ كمال التربية الربانية القرآنية .

ومن هنا نفهم أن القرآن الكريم قد تعاهد النبي ﷺ طوال فترة النبوة والرسالة، وكان لذلك الأمر الأثر العظيم في تربية النبي ﷺ نفسياً وعقلياً ـ كما سبق ذكره ـ وإيمانياً كما سأفصِّل القول فيما يلي من فقرات قادمة.

وقد بلغت التربية الربَّانية القرآنية للنبي ﷺ إيمانياً مبلغاً عظيماً،حتى اكتملت عبوديته لربه، ووصَفَهُ الله بذلك في غير ما آية،كما في قوله تعالى في مقام الوحي مخاطباً الناس أجمعين: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)** ﴾ [البقرة:٢٣] [١] .

وقوله تعالى في مقام الإسراء:﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)** ﴾ [الإسراء : ١] وغيرها من الآيات [٢] .

---

(١) وأول الآيات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [٢١ ـ ٢٢ البقرة] .

(٢) كما في سورة: الأنفال آية ٤ ، والكهف: آية ١ ، والفرقان، آية ١ ، والحديد، آية ٩ ، والجن آية ١٩ .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : « وقال الله ـ تعالى ـ بعبده ولم يقل بنبيِّه أو رسوله أو بمحمَّدٍ تشريفاً له ﷺ ، قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسمَّاه الله سبحانه به . . » (١) .

إذاً فكلما اكتملت عبودية المرء لربه كلما ارتفع شأنه وقدره عند الله ،ولا شك أن الله عز وجل لم يكن ليمتدح النبي ﷺ بالعبودية ويُضيفه إليه ـ سبحانه بقوله عبدنا أو عبد الله ـ إلا لما وصل إليه ﷺ من درجة عالية في تمام عبوديته وكمال عبادته لربه، ولا يمكن أن يكون قد وصل لذلك إلا بتربية الله له إيمانياً عبر آيات القرآن الكريم التي فيها من الترغيب والترهيب، والتوجيه والإرشاد، والتحليل والتحريم، والأمر والنهي، والتشريع والقصص والأمثال والعبر وغير ذلك ما يُحقق هذه التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

وحتى تتضح معالم التربية الربانية القرآنية للنبي ﷺ إيمانياً رأيتُ أن أُقسم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين :

المبحث الأول : مفاهيم حول الإيمان والتربية الإيمانية .

المبحث الثاني : منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ إيمانياً .

---

(١) فتح القدير ٣ / ٢٩٦ .

المبحث الأول
مفاهيم حـــول الإيمـــان والتربية الإيمانية

الإيمان هو القضية الكبرى في حياة الإنسان التي بناءً عليها تتحدد حياته في الدنيا والأُخرى ، وبناءً عليها تتحقق سعادته أو شقاوته في الدارين، وبالإيمان تصلح حياة الإنسان جسداً وروحاً، ولا معنى لوجود إنسان بلا إيمان.

إذاً فما هو الإيمان؟ ، وما حقيقته؟ ، ما أركانه؟ ، وما شعبه؟ ، وما هي أهمية التربية الإيمانية للنبي ﷺ ؟.

يمكن توضيح كل ما سبق من خلال تقسيم هذا المبحث إلى المطالب الأربعة التالية .

المطلب الأول

تعريف الإيمان

أولاً: الإيمان لغةً:

ورد في لسان العرب أن الإيمان لغة: " هو مصدر آمن، مأخوذ من (أ م ن) التي تدل على معنيين هما:

أ ـ الأمانة التي هي ضد الخيانة (١)

ب ـ التصديق الذي هو ضد التكذيب (٢) " (٣)

وفي مختار الصحاح أن: " الأمان" و " الإيمان" بمعنى التصديق.

والله تعالى "المؤمن" لأنه آمن عباده من أن يظلمهم(٤). وأصل آمن أأْمَنَ بهمزتين لُيِّنَتْ الثانية ، ومنه المهيمن ، وأصله مُؤَامن : لُيِّنَتْ الثانية، وقُلبت ياءً كراهة اجتماعها وقُلبت الأولى هاء كما قالوا: أراق الماء وهراقة" (٥)

والإيمان ضد الكفر ؛ لأن الكفر في اللغة هو الستر (٦) ، ولما كان الكافر معرضاً عن عبادة الله ، فكأنه جحد وستر نعمة الله عنه، كما ستر ما كان عليه من الفطرة، والإيمان بخلاف ذلك.

---

(١) ومن ذلك قول النابغة الذبياني:

وَكُنتَ أَمِينَة لَوْلَمْ تَخُنْهُ ... ولكن لا أمَانَـة لليَماني

انظر: ديوان النابغة الذبياني ص٧٨ .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ يوسف ١٧، أي بمصدق لنا.

(٣) انظر: لسان العرب ١٣ / ٢٤ ، وقالوا للخليل: ما الإيمان؟ ، قال : الطمانينة، نفس المرجع والصفحة.
انظر: معجم مقاييس اللغة ١ / ١٣٣ ـ ١٣٤ لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ).

(٤) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ قريش آية ٤ .

(٥) انظر: مختار الصحاح ص٢٢ ـ ٢٣ لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت بعد٦٦٦هـ)، المكتبة العصرية، ط٣، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، بيروت، لبنان.

(٦) الستر: هو الإخفاء والتغطية، انظر: لسان العرب ٤ / ٣٤٣ مادة ستر.

واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان لغة معناه التصديق [١]، [٢].

وقال ابن عثيمين [٣] - رحمه الله - : « والإيمان الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق »[٤].

---

(١) ولكن رد على هذا الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين - رحمه الله - في شرحه للعقيدة الواسطية حيث قال: « ولكن في هذا نظر؛ لأن الكلمة - أي الإيمان - إذا كان بمعنى الكلمة - أي التصديق - فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلوم أن التصديق يتعدّى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه، فتقول مثلاً: صدَّقته، ولا تقول: آمنته!، بل تقول: آمنتُ به، أو: آمنتُ له، فلا يمكن أن نفسر فعلاً لازماً لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به نفسه، ثم إن كلمة (صدَّقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت)، فإن (آمنت) تدل على طمانينة بخبره أكثر من (صدَّقت) ثم قال ابن عثيمين - رحمه الله - ولهذا لو فسر الإيمان بالإقرار لكان أجود، فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فتقول ثم قربه، كما تقول: آمن به، وأقر له، كما تقول آمن له، هذا في اللغة ».
انظر: شرح العقيدة الواسطية ص٥٧٣ - ٥٧٤ للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، إعداد: فهد بن ناصر ابن إبراهيم السليمان، دار الثريا، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م - الرياض، السعودية.

(٢) انظر: لسان العرب ١٣ / ٢٤، معجم مقاييس اللغة ١ / ١٣٣ - ١٣٤، مختار الصحاح ص١١، وغيرها من مراجع اللغة.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي، وُلد في مدينة عُنيزة في ٢٧رمضان عام ١٣٤٧هـ، قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه وحفظه على يديه، ثم اتجه إلى طلب العلم فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، ثم قرأ علوم العقيدة والفقه والفرائض والتفسير والحديث وأصول الفقه والنحو والصرف وغير ذلك على يد بعض المشايخ، الذين كان أولهم وأهمهم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وقرأ على يد الشيخ عبد العزيز بن باز - الذي يُعتبر شيخه الثاني - صحيح البخاري وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية وتأثر به بشكل كبير.
تولى إمامة الجامع الكبير في عُنيزة بعد شيخه عبدالرحمن، والتدريس في مكتبة عُنيزة الوطنية، بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي، ثم انتقل الى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وكان له - رحمه الله - نشاط كبير في الدعوة إلى الله، والتعليم، وتبصير الدعاة في كل مكان، وقد صدر قرار لتوليته القضاء فاعتذر عن ذلك، توفي عام ١٤٢١هـ ودفن في مكة المكرمة، له عدة مؤلفات قيمة زادت على الأربعين مؤلفاً أولها: « تلخيص الحموية » فرغ منه في عام ١٣٨٠هـ، ومنها: « الأصول من علم الأصول » و« مصطلح الحديث » و« شرح لمعة الاعتقاد » و« شرح الواسطية » وغير ذلك.
انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ١ / ٩ وما بعدها، (الترجمة الموجزة عنه) جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، و: صفات مشرقة من حياة الإمام محمد بن صالح العثيمين لحمود بن عبد الله المطر، و: مجلة البيان، العدد ١٦٠، ذو الحجة ١٤٢١هـ - مارس ٢٠٠١م، ص٣٤ - ٦٦.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين ص٥٧٣ - ٥٧٤.

وقال تعالى عن الأعراب الذين زعموا الإيمان وادّعوه بغير صدق،وإنما كان قولهم هذا خوف القتل والسبي، أو الطمع في الصدقة، قال تعالى عنهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] . أي: " لم تصدقوا وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل" (١)

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: " وهم قالوا آمنا حين كانوا في شك لم يتمكن الإيمان منهم، فانبأهم الله بما في قلوبهم، وأعلمهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب لا بمجرد اللسان" (٢)

قال صاحب لسان العرب: " . . . فالمؤمن مبطنٌ من التصديق مثل ما يُظهر . . والأصل في الإيمان: الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صّدقه بلسانه فقد أدّى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق" (٣) .

ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥] .

وقد فرق بعض أهل العلم بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، كما قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في العقيدة الواسطية: " فالفاسق يدخل في اسم مطلق الإيمان ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢] ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق (٤) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ في شرحه للعقيدة الواسطية : " مراد المؤلف ـ أي ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بـ (المطلق) أي قوله في العبارة الأولى

---

(١) لسان العرب ١٣ / ٢١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٦٤ .

(٣) لسان العرب ١٣ / ٢١ ـ ٢٤ بتصرف واختصار يسيرين.

(٤) أي في مطلق اسم الإيمان، كما قال ابن عثيمين في شرحه للعقيدة الواسطية ص٥٨٤ .

(مطلق الإيمان) يعني : إذا أُطلق الإيمان ، فالعطف يعود إلى الاسم لا إلى الإيمان . . فيكون المراد به مطلق الإيمان الشامل للفاسق والعدل"

وقال في شرحه لقول ابن تيمية - رحمه الله - : (وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق) .

« أما عدم دخوله في مطلق اسم الإيمان كما ورد في الآية ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ . . ﴾ الآية فإنما أداة حصر ، يعني : ما المؤمنون إلا هؤلاء ، والمراد بالمؤمنين

يعني: ذوي الإيمان المطلق الكامل ، فلا يدخل في المؤمنين هنا الفساق ؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله ما زادته إيماناً ، ولو ذكرتَ الله له لم يوجل قلبه .

والخلاصة :

أن الإيمان قد يُراد به مطلق الإيمان ، وقد يراد به الإيمان المطلق ، فإذا رأينا رجلاً إذا ذكر الله لم يوجل قلبه ، وإذا تُليت عليه آياته لم يزدد إيماناً ، فيصح أن نقول : إنه مؤمن ويصح أن نقول ليس بمؤمن ، فنقول مؤمن ، أي : معه مطلق الإيمان ، يعني أصله ، وليس بمؤمن أي : ليس معه الإيمان الكامل » (١)

ثانياً: الإيمان اصطلاحاً:

الإيمان في اصطلاح الشرع مسألة تكلم فيها عددٌ كبير من أهل الفقه والحديث والمتكلمين والمفسرين وغيرهم ، ويمكن إجمال أقوالهم في ذلك على أربعة أقوال كما يلي :

[١] **منهم من قال:** أن الإيمان هو : " المعرفة بالقلب فقط " وهذا باطل ومردود عليه (٢) .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين - رحمه الله ص٥٨٣ ، وما بعدها : بتصرف واختصار يسيرين .

(٢) وهذا قول القدرية الجهمية ، وهو باطل ، لأنه يستلزم أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، لمعرفتهم صدق موسى وهارون دون الإيمان بهما ، ويستلزم أيضاً أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين لمعرفتهم صدق محمد ﷺ ولم يؤمنوا به ، وكذا أبو طالب ، بل إبليس على هذا القول يكون مؤمنا لأنه لم يكن يجهل ربه .

[٢] **منهم من قال:** أن الإيمان هو: " الإقرار باللسان فقط " ، وهذا باطل ومردود عليه أيضاً (١)

[٣] **منهم من قال:** أن الإيمان هو: "الإقرار باللسان والتصديق بالجنان (٢)، (٣).

[٤] **منهم من قال:** أن الإيمان هو: " التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان (٤) " (٥)

وهذا قول أهل السُّنَّة والجماعة ، وهو الصحيح لتضافر الأدلة الشرعية على أن الإيمان قول (٦) وعمل (٧) واعتقاد (٨).

وأما الأقوال السابقة فقد أخرجت العمل الصالح من مسمى الإيمان ، وهذا يخالف صريح الآيات وصحيح الأحاديث عن النبي ﷺ .

---

(١) وهذا قول الكرامية، وهو باطل؛ لانه يستلزم ان المنافق كامل الإيمان لإقراره باللسان دون تصديقه بالقلب.

(٢) الجنان: بالفتح وهو القلب لاستتاره بالصدر، مأخوذ من جنَّ الشيء.. أي استتر، لسان العرب ١٣ / ٩٢ .

(٣) وهذا قول المرجئة وظاهر كلام الإمام الطحاوى - رحمه الله - ونسب شارح العقيدة الطحاوية ابن ابي العز الحنفي إلى ابي منصور الماتريدي ان الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصل، وعزا القول إلى ابي حنيفة ان الإيمان عنده هو إقرار باللسان وتصديق بالجنان.

(٤) وهذا قول: مالك، والشافعي، واحمد، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين، وقد يأتي الإيمان في الشرع بمعنى الإعلان عنه، كقوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ البقرة ١٣٦ .

(٥) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ) ص٣٣١ وما بعدها، تحقيق جماعة من العلماء ، وتخريج الالباني رحمه الله، وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة لابي القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت٤١٨هـ)تحقيق: د. أحمد الغامدي، ٤ / ٩١١ وما بعدها، وانظر: الإيمان لابن تيمية ص١٦٢، وانظر: معارج القبول ٢ / ١٥-١٨ .

(٦) لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ الحجرات ١٤، ولقوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..) رواه البخاري ١ / ١٧ في كتاب الإيمان، برقم ٢٥ عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٧) لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ الانعام ١٥٨، ولقوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة..) رواه البخاري ١ / ١٧ في كتاب: الإيمان برقم ٢٥ عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٨) لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة ٤١ .

وقد بوَّب البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان عدة أبواب تفيد أن الإيمان: "قول وعمل واعتقاد" (١)

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الإيمان (٢) يتناول الإنسان من جميع جوانبه فيما يتعلق باعتقاد القلب وقول اللسان وفعل سائر الجوارح (٣)

وهو يزيد وينقص ـ كما قال أهل السُّنَّة والجماعة ودلَّت عليه النصوص

---

(١) مثل باب: امور الإيمان، ومن الإيمان ان يحب لاخيه ما يحب لنفسه، وحب الرسول من الإيمان، وعلامة الإيمان حب الانصار، وتفاضل اهل الإيمان في الاعمال، والحياء من الإيمان، ومن قال ان الإيمان هو العمل، والجهاد من الإيمان، وقيام ليلة القدر من الإيمان، انظر: صحيح البخاري ١ / ١٢ .

(٢) وهناك فرق بين الإيمان والإسلام على الصحيح، فاما الإيمان فكما سبق ذكره في أصل الرسالة" المتن المذكور أعلاه"، واما الإسلام ، فقال شارح العقيدة الطحاوية: " وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة اقوال:

[١] فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة ـ أي شهادة التوحيد ـ .

[٢] وطائفة اجابوا بما اجاب به النبي ﷺ حيث فسر الإسلام بالاعمال الظاهرة ـ اي اركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج ونحو ذلك ـ والإيمان بالاصول الخمسة ـ اي اركان الإيمان وهي الإيمان بالله و ..الخ.

[٣] وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان، وجعلوا معنى قول رسول الله ﷺ ان الإسلام (**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً**) رواه مسلم١ / ٤٥ برقم ١٦ ،شعائر الإسلام ،والاصل عدم التقدير مع انهم قالوا ان الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد، فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله احد من اهل اللغة. وقد قال النبيﷺ : (**اللهم لك أسلمت وبك آمنت..**) رواه مسلم ١ / ٥٣٣ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، برقم ٧٦٩، عن ابن عباس رضي الله عنهما وخلاصة ما قال شارح الطحاوية ـ رحمه الله ـ أن الإسلام: هو الانقياد والطاعة، ويشهد لهذا الحديث السابق.

وإذا افرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا افرد اسم الإسلام، فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع، اي انهما يجتمعان في المعنى ، وأن احدهما يشمل معنى الآخر إذا افترقا في اللفظ، وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، قال تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾ يونس ٦٢ ـ ٦٣، وقال تعالى: ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ [الحديد ٢١] .

واما اسم الإسلام مجرداً فيما علِّق به في القرآن دخول الجنة، لكنه فرضه، واخبر انه دينه الذي لا يُقبل من احد سواه، وبه بعث النبيون ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ [الحجرات : ١٤] .

انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٤٧ وما بعدها.

(٣) **انظر**: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوى ١ / ٢٩٧، وعمدة القارئ للبدر العيني ١ / ١٠١ وما بعدها، وغير ذلك .

الشرعية ـ فهو يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي (١)

(١) من أدلة زيادة الإيمان بالطاعات قوله تعالى في شأن صفات أهل الإيمان: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ الأنفال ٢، ومن أدلة نقص الدين قوله ﷺ فيما رواه البخاري ١ / ١١٦ في كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم برقم ٢٩٨ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) فاثبت نقص الدين.

قال شارح العقيدة الواسطية الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ وأسباب زيادة الإيمان أربعة:

[١] معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.

[٢] النظر في آيات الله الكونية والشرعية.

[٣] كثرة الطاعات وإحسانها.

[٤] ترك المعصية تقربا إلى الله.

انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ـ رحمه الله ـ ص٥٧٧ ـ ٥٧٨ .

المطلب الثاني

أركان الإيمان وشُعبُه

أركان الإيمان العقدية التي أوجب الله على النبي محمد ﷺ وأمته الإيمان بها هي ستة أركان، أجملها الحديث النبوي الصحيح الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ قال: « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام . **فقال رسول الله ﷺ الإسلام: أن . . تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . . حتى قال السائل: فأخبرني عن الإيمان . قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره: قال: صدقت، فأخبرني عن الإحسان قال. . . إلخ الحديث"** [1]

فهذه أركان الإيمان التي لا يُقبل إيمان المؤمن إلا باعتقاده إياها في قلبه، وشهادته بلسانه، وترجمته لها بعمله ـ وكل ركن من هذه الأركان الإيمانية التي أوجب الله الإيمان بها تدخل فيه الكثير من التفاصيل والجزئيات التي يجب الإيمان بها، فالركن الأول وهو: ركن الإيمان بالله الذي هو" أصل الأصول، وقاعدة الدين"[2] يشتمل على عدة معان إيمانية لابد من الإيمان بها كما جاءت عن الله ورسوله، وكما فهمها وآمن بها السلف الصالح، وهي الإيمان بوجود الله سبحانه

(١) رواه مسلم ١ / ٣٦ في كتاب: الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان، برقم ٨، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٧ / ٦٩، في باب: ما جاء في رؤية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن كان معه من الصحابة في مجلس النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام .

(٢) العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر ص٦١، دار النفائس ، ط٨، ١٩٩١م، عمان ، الأردن.

وتعالى ، وبوحدانيته في الذات والأسماء والصفات ـ سواء منها الصفات الذاتية، أو الفعلية المتعلقة بتصرفه في الخلق والكون والحياة ـ وفي كل شيء، وما يجب في حقه تعالى ، وما يجوز، وما لا يجوز، وغير ذلك مما يدخل في مسمى الإيمان بالله ولوازمه ومقتضياته ونواقضه (١)

■ والإيمان بالملائكة يدخل فيه الإيمان بوجودهم وصفاتهم الخَلْقية والخُلقية، وقدراتهم، وأفعالهم، وعباداتهم لربهم، وعلاقاتهم بالإنسان والكون والحياة، وواجب المؤمن نحوهم (٢) وغير ذلك (٣) مما ذَكَرَتْهُ كتب العقيدة والإيمان (٤) .

والإيمان بالكتب يدخل فيه الإيمان بإنزالها على الرسل بالحق، وأنواعها، وأسمائها، وتصديق القرآن الكريم لها، وما وقع فيها من تحريف وتغيير وتبديل وإخفاء.. إلخ (٥)

■ والإيمان بالرسل يدخل فيه الإيمان بإرسال الله لهم إلى البشرية بالحق، وإنزال الوحي عليهم، وصفاتهم، وما يجب في حقهم وما يحرم، وما يجوز وما لا يليق بهم، " والإيمان بعصمتهم، ودلائل نبوتهم، ومعجزاتهم، وتأييد الله لهم، وتفضيل الله لبعضهم على بعض"(٦).ويدخل في الإيمان بهم: الإيمان الإجمالي ، بهم كلهم، والتفصيلي بمن ذكرهم القرآن.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٧٧ لابن أبي العز الحنفي وما بعدها .

(٢) انظر عالم الملائكة الأبرار، د. عمر سليمان الأشقر.

(٣) كالإيمان بإرسال الله لبعض الملائكة إلى الرسل من البشر ، واستغفارهم لأهل الأرض، وعدم ألوهيتهم ، وتبرؤهم من الشرك، وحوارهم مع الله، ودرجاتهم، وسجودهم لآدم سجود تكريم، وشهادتهم بوحدانية الله، وصلاتهم على النبي ﷺ والمؤمنين، وغير ذلك.

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ٢ / ٥٧ وما بعدها للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، الدمشقي (ت٧٩٢ هـ) ، تحقيق وتعليق وتخريج: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ. شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين، وفيه ملاحظات قيمة للشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ ضمنها المحققان.

(٥) انظر المرجع السابق ص٢٩٧ لابن أبي العز الحنفي.

(٦) انظر المرجع السابق، ص٣٠١وما بعدها، وانظر: الرسل والرسالات، د. عمر الأشقر، دار النفائس ، ط٦، ١٤١٥-١٩٩٥م، عمان ، الأردن.

■ والإيمان باليوم الآخر يدخل فيه الإيمان بالساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى، وأسماء يوم القيامة ، ووقتها، وأهوالها، وأحداثها، وأحوال الناس فيها، والشفاعة، والحساب، والجزاء، والميزان، والحوض، والصراط، والجنة، والنار، وما فيهما (١)

■ والإيمان بالقضاء والقدر يدخل فيه الإيمان بمعناه الذي أراده الشارع الحكيم وسار عليه السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ من الإيمان بوقوعه في الخير والشر، من الآجال، والأرزاق، وسائر الأعمال، وكل شيء في الكون (٢)

■ وهناك بعض غيبيات يجب الإيمان بها كعذاب القبر وفتنته ونعيمه، وكل ما ورد في شأن القبر وما قبله وما بعده (٣)

■ وللإيمان شعبٌ سمَّاها النبي ﷺ شعب الإيمان، حيث قال ﷺ : **(الإيمان بضع وستون شُعبة والحياء شعبةٌ من الإيمان)** (٤)

وفي رواية لمسلم: **" الإيمان بضع وسبعون شعبة"** (٥)

إذاً كل ما سبق من أركان الإيمان وشُعبه تنزَّل القرآن الكريم لبيانها، وتثبيتها في قلب النبي ﷺ وحمله على إقامتها في حياته القولية والاعتقادية والعملية، ليتحقق من خلال ذلك كله تربية النبي ﷺ عملياً .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الواسطية، ص٢٠١ وما بعدها لمحمد خليل هراس، دار الهجرة، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، الرياض ، السعودية .، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٤ لابن أبي العز الحنفي، وانظر: اليوم الآخر، رقم ١، ٢،٣ للدكتور عمر الأشقر.

(٢) انظر : كتاب القضاء والقدر للحافظ أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق: محمد بن عبد الله عامر، مكتبة العُبيكان ، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م ، الرياض، السعودية.

(٣) انظر: اليوم الآخر (القيامة الصغرى)، د. عمر الأشقر، ص١١ ـ ٨١، مكتبة الفلاح، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ، الكويت .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في ١ / ١٣ في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان برقم ٩، وروى مسلم نحوه في ١ / ٦٣ برقم ٣٥

(٥) رواه مسلم في ١ / ٦٣ في كتاب الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان ، برقم ٥٧ / ٣٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً، وروى البخاري نحوه في ١ / ١٣ برقم ٩ .

المطلـــب الثالـــث

أهمية التربية الإيمانية للنبي ﷺ

لتربية النبي ﷺ إيمانياً عبر آيات القرآن الكريم أهمية عُظمى في حياته الذاتية والاجتماعية والدعوية، وذلك لأنه ﷺ قدوة للناس في عبادته لربه ، فكان لزاماً أن يكون ذا درجة عالية في قوّة الإيمان.

وهو ﷺ يخالط الناس، فكان لابد من أن يكون ذا خُلُقٍ عظيم يقدر على التأثير فيهم.

وهو أيضاً يواجه من الابتلاءات ـ بسبب دعوته ـ ما تنوء بحمله الجبال ، فكان حتماً أن يتحلّى بالصبر والثبات على الحق والبلاغ المبين.

ومن هنا تتضح أهمية التربية الإيمانية للنبي ﷺ لتحقيق عدة أمور لابد منها لهذا النبي الكريم، من أهمها ما يلي:

[١] تحقيق اكتمال عبوديته لربه ليكون القدوة المطلقة للعالمين.

[٢] زيادة ثباته على الحق وتحمُّله أعباء القيام بالبلاغ المبين لينجح في أداء مهمته وتبليغ رسالته.

[٣] تحصيل النبي ﷺ لبقية الثمار الأساسية للتربية الإيمانية.

وهذه النقاط تحتاج شيئاً من التفصيل حتى يتضح الأمر جلياً وذلك كما يلي:

أولاً: تحقيق اكتمال عبوديته لربه:

من المعلوم أن الله تعالى ﴿ **يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾** ﴾ [الحج: ٧٥] ، ولا يكون هذا الاصطفاء والاختيار إلا لعلم الله السابق ، أن المصطفين الأخيار هم أصلح البشر للنبوة والرسالة ، كما قال تعالى:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وهذا يعني أن أصفى الأرواح وأسماها هي أرواح الأنبياء والرسل، ونفوسهم هي أصلح النفوس لاكتمال عبوديتهم لربهم.

ومن هؤلاء محمدٌ ﷺ الذي بلغ أعلى درجات العبودية لربه ـ بعد أن اصطفاه الله وربَّاه ـ فقد استمر الوحي يتنزَّل عليه حتى أتاه اليقين ، ليترقى به في درجات التعبد لله ، حتى وصل به لمرتبة الكمال البشري في تقوى الله وخشيته، وهذا ما شهد به النبي ﷺ حيث قال: (.. **إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**) (١) .

وما هذا إلا لأنه ﷺ كان أكثر معرفة بالله وحقه من غيره، وكان أخلص وأعظم عبادة له وتقرباً إليه من كل الخلْق، حتى صار خليل الرحمن.

وفي الحديث القدسي (... **وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُهُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه..**) (٢)

ومَنْ أعظم من رسول الله ﷺ أداء للفرائض وإكثاراً من النوافل؟!،وبالتالي مَنْ أكثر منه محبَّةً عند الله ـ عز وجل ـ ؟!ومن هنا امتدحه ربه قائلاً: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④** ﴾ [القلم:٤] ، أي لعلى دين عظيم كما في بعض أقوال أهل التفسير، كابن جرير (٣) وابن كثير(٤) والشوكاني (٥) وابن عاشور(٦) ـ رحمهم الله ـ.

---

(١) رواه البخاري ١ / ١٦ في كتاب: الإيمان، باب : قول النبي ﷺ: « أنا أعلمكم بالله» ، عن عائشة رضي الله عنها برقم ٢٠، وأول الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ثم يقول: (إن أتقاكم)..الحديث، والحديث في كنز العمال للمتقي الهندي برقم ٣١٩٩١ .

(٢) رواه البخاري ٥ / ٢٣٨٥ في كتاب: الرقاق، باب: التواضع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٦١٣٧، ورواه البيهقي في السُنن الكبرى ٣ / ٣٤٦، وأول الحديث : (من عادى لي وليًا...الخ).

(٣) انظر: جامع البيان ١٢ / ١٧٩ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٠٢ .

(٥) انظر: فتح القديره / ٣٧٤ .

(٦) انظر: التحرير والتنوير ٢٩ / ٦٤ .

ثانياً: زيادة ثباته على الحق وتحمله أعباء الدعوة:

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ بُعث ـ وحده ـ في مجتمع يموج بالفتن، ليس فيه من يقول لا إله إلا الله ، ووقَفَ أمام هذا المجتمع الجاهلي بأكمله، وجاء بدعوة خالفت ما تعارف عليه قومُه، بل العربُ قاطبةً، وتعرَّض نتيجة لذلك كله لكثير من الفتن ترغيباً وترهيباً، وحاول الكفار قتله ﷺ أكثر من مرَّة، وآذوه كثيراً في بدنه وأهله، واتّهموه في عقله وصدقه، وكادوا له كيداً، وألّبوا العرب عليه، وحاربوه سنين عديدة، وقالوا فيه وفي رسالته ووحيه سُوءاً ، ومكروا به كثيراً ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾ [إبراهيم :٤٦] .

وعندما عجزوا عن صدّه عن سبيل الله والدعوة إليه بالتهديد والوعيد والإيذاء، لجئوا إلى الإغواء والإغراء، واستمالته للكف عن دعوته، والتفاوض معه، وغير ذلك .

والمقصود من كل ما سبق أنهم ما تركوا وسيلة إلا وسلكوها ليحولوا بين رسول الله ﷺ وبين نجاح دعوته ـ ما داموا قد عجزوا عن التأثير عليه ـ .

ولهذا كله كانت التربية الإيمانية للنبي ﷺ ذات أهمية عظيمة لزيادة ثباته على الحق في نفسه، وحَمْله على دوام استمراره في طريق الدعوة لغيره، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم في تعليله لاستمرار تنزل الوحي عليه مفرَّقاً لتحقيق ثبات قلبه ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان : ٣٢] (١)

ثالثاً: تحصيل النبي ﷺ لبقية الثمار الأساسية للتربية الإيمانية:

تتمثل أهمية التربية الإيمانية للنبي ﷺ في إكسابه عدة فوائد وثمار أساسية لا يمكن الاستغناء عنها ، وهي من مقتضيات التربية الإيمانية، فمنها:

(١) راجع فقرة التثبيت الإلهي في فصل التربية النفسية للنبي ﷺ ص ٢٠٧ .

- قوّة إيمانه بالله ، ويقينه به، وتقواه له.
- عظيم إخلاصه لله ، وكمال محبته له، والخوف والخشية منه وله، والرجاء لما عنده، والتوكل عليه.
- دوام ذِكره، وشكره، وحسن عبادته لربه، والإنابة إليه.
- بلوغه مقام الرضا التام بالقضاء والقدر، وصبره العظيم على البلاء الشديد الذي يلاقيه في سبيل الحق.
- عظيم تجرده لله ، وتضحيته في سبيله، وإيثاره لمرضاته وما يحبه الله على ما تهوى النفس، وزهده في الدنيا، وإقباله على الأخرى.
- حُسن خلقه العظيم ﷺ مع الله ـ عز وجل ـ ومع خلقه أجمعين.

وكل هذه الفوائد والثمار الأساسية لتربية النبي ﷺ إيمانياً عبر آيات القرآن الكريم جعلته يتبوأ أسمى مقامات العبودية لله لالتزامه ﷺ إياها، تنفيذاً لتوجيهات الله له خلال فترة الوحي (١) ، وهذا ما شهدت به عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سُئلت عن خلُق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خُلُقه القرآن) (٢) .

ولم يكن النبي ﷺ ليبلغ ذلك كله لولا عناية الله به، وتربيته له إيمانياً عبر آيات القرآن الكريم.

فما هو المقصود بالتربية الإيمانية القرآنية للنبي ﷺ ؟!.

هذا ما أعرض له في المطلب الرابع من هذا المبحث وذلك كما يلي.

---

(١) سنفصل القول في ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل منهج القرآن في تربية النبي ﷺ إيمانياً.

(٢) رواه مسلم ١ / ٥١٢ في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل،ومن نام عنه أو مرض، عن قتادة عن زرارة، برقم ٧٤٦ ، وأول الحديث عن قتادة عن زرارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله.. ، والسائل لعائشة رضي الله عنها هو سعد بن هشام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، والحديث قد أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦ / ١٠٥ برقم٢٤٥٩ ، والبيهقي في السُنن الكبرى ٢ / ٤٩٩ .

المطلب الرابع

المقصود بالتربية الإيمانية القرآنية للنبي ﷺ

سبق أن تحدثتُ عن أهمية وضرورة التربية الإيمانية للنبي ﷺ وفوائد ذلك، كما تحدثتُ أيضاً عن تعريف الإيمان وأركانه وشُعبه ، وفهمنا أن الإيمان يتعلق بعناصر ثلاثة في كيان الإنسان هي : اللسان، والقلب، وسائر الجوارح ، وهذا يعني أن عناصر الإيمان الأساسية التي لابد من توافرها ليتحقق الإيمان هي :

١- الاعتقاد بالقلب.

٢- الإقرار باللسان.

٣- العمل بالجوارح.

وسبق أيضاً - في مباحث سابقة - أن أوضحتُ أن التربية اصطلاحاً هي : "المحافظة على فطرة الناشئ، ورعايتها وتنمية مواهبه واستعداداته كلها، وتوجيه هذه الفطرة وتلك المواهب نحو الصلاح والكمال بصورة متدرجة" (١)

ومن خلال ذلك كله يمكن القول بان أن المقصود بالتربية القرآنية الإيمانية للنبي ﷺ هي عملية (العناية والرعاية الربَّانية لقلب النبي ﷺ ولسانه وسائر جوارحه التي تلقاها عبر آيات القرآن الكريم لبلوغ أعلى درجات التقوى والعبودية لله - سبحانه وتعالى) .

إذاً ما هو منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ إيمانياً في قلبه ولسانه وسائر جوارحه؟ وما هي الأساليب التي شرعها للنبي ﷺ وأرشده إليها لتحقيق ذلك؟.

هذا ما أعرض له في المبحث الثاني من هذا الفصل كما يلي .

---

(١) راجع: المبحث الثالث من الفصل التمهيدي في هذه الرسالة، وعنوان المبحث (التعاريف والمصطلحات) .

المبحث الثاني
منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ إيمانياً

تمهيد :

(أ) التربية الإيمانية وعلاقتها بالتزكية :

سبق ذكر أن المقصود بالتربية القرآنية الإيمانية للنبي ﷺ : (عملية العناية والرعاية الربَّانية لقلب النبي ﷺ ولسانه وسائر جوارحه لتحقيق صلاحها وبلوغ أعلى درجات التقوى والعبودية لله ـ سبحانه وتعالى ـ).

وهذا كله لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا عن طريق تكليف الله لرسوله ﷺ بكثير من العبادات القلبية والبدنية التي تُحقق صلاح القلب والبدن، وهذا الأمر هو ما يُسمى بالتزكية التي تعنى " الطهارة والنماء والزيادة" ، كما يُفهم من أقوال أهل التفسير في تفسيرهم للزكاة أو تزكية النفس [(١)]

فالتزكية هي : " إصلاح النفوس وتطهيرها عن طريق العلم النافع، والعمل الصالح، وفعل المأمورات، وترك المحظورات" [(٢)] .

والتزكية أمرٌ لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الوحي لما في ذلك من توجيهات

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ٣٤٣، أن الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد.. وقيل مأخوذة من التطهير، وقيل غير ذلك، وفي ٢٠ / ٧٧ أن معنى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ ﴾ الشمس ٩ ، أي : من زكّىٰ الله نفسه بالطاعة، وقيل غير ذلك.

■ وعند ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن الزكاة " هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء" انظر: إغاثة اللهفان ١ / ٧٧ باختصار .

■ وعند ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن الزكاة هي" النماء والزيادة في الصلاح، يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربّى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح" انظر: مجموع الفتاوى ١٠ / ٩٦ .

(٢) معالم في السلوك وتزكية النفوس ص٥٧ عبد العزيز بن محمد العبداللطيف، دار الوطن للنشر، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، الرياض، السعودية .

تتعلق بعقيدة القلب وعبادة البدن، ومثل هذا الأمر يحتاج لزمن وجهد حتى ترسخ كل التعاليم والتوجيهات الربّانية في قلب العبد وحياته كما يُفهم من كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عندما قال: "وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد ؛ لأن التزكية تحتاج رياضة ومجاهدة " (١)

« والأبدان الزاكية هي التي زكت بطاعة الله ، ونبتت على أكل الحلال، فمتى خلُصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا، زكَتْ أرض القلب، فقبلت بذْرَ العلوم والمعارف ، فإن سُقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية.. أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة.. » (٢) .

والمفهوم من كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنه لا بد من زمن وكيفيات معينة للتزكية حتى تُثمر طهارة وزكاة القلب والجسد، وتُحقق الأهداف المرجوة من ذلك، وهذا هو ما يُسمى بالتربية الإيمانية التي سعى القرآن الكريم لتحقيقها للنبي ﷺ عن طريق العبادة.

يقول محمد قطب: (٣) " تقوم التربية الإسلامية على أساس أن العبادة الصحيحة لله هي وسيلة التزكية للنفس الإنسانية" (٤)

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٢٨ ، منزلة الخلق، بتصرف يسير

(٢) نفس المرجع ٢ / ٤٩٣ باختصار

(٣) هو محمد قطب إبراهيم (اخو سيد قطب ـ رحمه الله) وُلد في ٢٦ / ٤ / ١٩١٩م في بلدة موشا ـ من محافظة أسيوط بمصر.. اتم المرحلتين الابتدائية والثانوية ثم التحق بجامعة القاهرة ، حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها، وتخرج منها عام ١٩٤٠م، ومن ثم تابع في معهد التربية العالي للمعلمين، فحصل على دبلومها في التربية وعلم النفس... وقد تأثر بأخيه سيد قطب الذي كان يتقدمه بأكثر من اثني عشر عاماً في الميلاد.. وقد تعرض للتعذيب في السجن الحربي في مصر بعد عام ١٩٥٤م لتمسكه بالحق الذي اقتنع به وخالف حاكم مصر في ذلك الوقت، ثم افرج عنه بعد ذلك،، وهو كاتب وأديب ومفكر إسلامي له عدة مؤلفات، من أولها وأهمها: الإنسان بين المادية والإسلام، ومنها: جاهلية القرن العشرين، ودراسات قرآنية، ومنهج التربية الإسلامية ، والمذاهب الفكرية المعاصرة، وغير ذلك.
انظر: علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب٢ / ٢٧٥ ـ ٢٩٣ باختصار.

(٤) نقلاً عن: بحوث ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، عنوان البحث: النظرية التربوية لمحمد قطب ج١ .

ويقول الشيخ محمد الغزالي (١) **عن التزكية:** " هي أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية، بل تكاد تكون التربية والتزكية مترادفتان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشدِّ الإنسان إلى أعلى.. " (٢)

وهذا الأمر قد تحقق للنبي ﷺ عبر آيات القرآن الكريم استجابة لدعائه: (**اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها** (٣) **أنت وليها ومولاها..**)(٤).

(ب) مميزات وخصائص التربية القرآنية الإيمانية للنبي ﷺ في مكة والمدينة:

من المعلوم قطعاً أن القرآن الكريم نزل في مكة والمدينة،ولكل بيئة من هاتين البيئتين أقوامٌ وأحداثٌ وظروف بل وعقائد تختلف عن البيئة الأخرى إلى حد ما، قد اتَّسم المجتمع المكي بانتشار الشرك فيه بجميع صُوره، من عبادة لغير الله، وذبح، ونذر، ودعاء، وتقرب، وتحليل، وتحريم، وغير ذلك، فتميَّز الوحي المنزل على النبي ﷺ في هذه المرحلة بالاهتمام البالغ بأركان الإيمان، وأوَّلها وأهمها

---

(١) هو الشيخ محمد الغزالي السقّا، وُلد في٢٢ / ٩ / ١٩١٧م، في قرية (تكلا العنب) من (إيتاي البارود) من أعمال البحيرة في مصر، وسبب تلقيبه بالغزالي هو أن والده كان شديد الإعجاب بالإمام أبي حامد الغزالي مؤلف(الإحياء) متأثراً بنزعته الصوفية، وقد رآه في منامه ذات ليلة فأخبره أنه سيتزوج ويُنجب غلاماً، ويُشير عليه بأن يسميه الغزالي، وكانت أسرته تعمل بالتجارة، حفظ القرآن على يد والده وعمره عشر سنوات، وقد ابتدأ تعليمه في كُتّاب القرية ثم في المعهد الديني المخصص لمحافظة البحيرة في الاسكندرية، وأكمل الثانوية بعد ذلك، ثم انتقل لجامعة الأزهر وأكمل دراسته هناك في كلية أصول الدين، كان خطيباً في الجامع الأزهر ثم في مسجد عمرو بن العاص، وقد سُجن في سبيل الحق الذي يحمله، امتازت كتاباته الإسلامية بسعة الأفق والتميز عن غيره وحُسن التعبير والصياغة، وله عدة مؤلفات إسلامية تجاوزت إحدى وثلاثين مؤلفاً، كان أولها: (عقيدة المسلم)، ومن مؤلفاته (خُلق المسلم) و(فقه السيرة) و(قذائف الحق) وغير ذلك.
انظر: علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب١ / ٢٦٥ وما بعدها.
و: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٣ / ٤٠٠ وما بعدها للدكتور. محمد رجب بيومي.

(٢) بحوث ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، عنوان البحث: نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، لمحمد الغزالي ص١١.

(٣) ورد في تفسير القرطبي ٢٠ / ٧٧ أن من معاني ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٩]، قد أفلحت نفس زكَّاها الله بالطاعة".

(٤) رواه مسلم في ٤ / ٢٠٨٨ في كتاب الذكر والدعاء..،باب: التعوذ من شر ما عمل.. برقم ٢٧٢٢ عن زيد ابن أرقم ـ رضي الله عنه ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ٥٠٢، برقم ١٣٢٥٦،والنسائي في سُننه ٤ / ٤٥٠ برقم ٧٨٩٥.

عقيدة التوحيد لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وبيان ضَلال المشركين بالله ، وبُطلان معبوداتهم من دون الله ، والتوجيه نحو توحيد الألوهية والأسماء والصفات في قلب النبي ﷺ .

ولهذا فقد اتجه الوحي في العصر المكي إلى الاهتمام بتثبيت التوحيد في قلب النبي ﷺ أكثر من العصر المدني، وتعمق جذوره، وتقوية إيمانه ﷺ بالله واليوم الآخر (١) ..

قال الشاطبي (٢) ـ رحمه الله ـ : "اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والذي (٣) نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها تلك القواعد التي وضُع أصلها بمكة ، وكان أولها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر" (٤) ، وبما أن العمل فرع عن التصوُّر، والمعتقد هو أصل السلوك، وإنما أخلاق الناس وأعمالهم بناءً على معتقداتهم وتصوراتهم، فقد «استمر القرآن في تأسيس العقيدة في قلب النبي ﷺ وترسيخها ما يقرب من ثلاثة عشر

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص٤٥ ، مناع القطاع ، بتصرف وزيادة يسيرة ، مكتبة المعارف ، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م الرياض ، السعودية، (وهو نفس كتاب التشريع والفقه في الإسلام للشيخ / مناع القطان ـ رحمه الله ـ).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، وهو محدِّث، فقيه، أصولي، لغوي، مفسر، محقق، نظار، من أئمة المالكية، وكان واسع الاطلاع، من شيوخه: أبو الفخار الالبيري، وأبو عبد الله البلنسي، والخطيب ابن مرزوق، من تلاميذه: أبو بكر بن عاصم، وأخوه أبو يحيى، وعبد الله البياني، توفي عام ٧٩٠هـ، له عدة مؤلفات نفيسة، اشتملت على تحريات للقواعد، وتحقيقات لمهمات الفوائد منها: «الموافقات في أصول الفقه» ويسمى «الموافقات في أصول الشريعة أو الأحكام» وقد سماه هو «عنوان التعريف بأسرار التكليف» و«الاعتصام» وغير ذلك من الكتب.
انظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١ / ٧٧ ، و: معجم الأصوليين ، للدكتور/ محمد مظهر بقا ١ / ٦٥، و:الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ، ضبط وتعليق/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان١ / ١٩ .

(٣) هكذا في الأصل ولعل الصواب "والتي" .

(٤) «الموافقات في أصول الشريعة» لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ) ٣ / ٧٧، شرح وتخريج الشيخ: عبد الله دراز ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١،بيروت، لبنان، والكتاب يقع في أربعة أجزاء ضمن مجلدين.

عاماً» (١) ، متخذاً في سبيل ذلك كل الأساليب القرآنية (٢) ، حتى أذن الله بعدها بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة دار الإسلام الأولى ، لوضع اللبنات الأساسية العملية لقيام دولة الإسلام، بعد أن وُضِع الأُسس الإيمانية ، والأسس العامة للتشريع الإسلامي في مجال العبادات والمعاملات في مكة المكرمة.

ولا يعني هذا أن النبي ﷺ لم يكن يمارس في مكة شيئاً من العبادات البدنية التي تحقق له التربية الإيمانية، بل لقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقوم ببعض العبادات البدنية القليلة كقيام الليل (٣)، وصيام عاشوراء (٤) ،والتحنث (٥) في غار حراء، وصلاة ركعتين في الغداة وركعتين في العشي (٦)، والتسبيح بحمد الله ، وذكره قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وغير ذلك، إلا أن كل ما سبق إنما هو من جزئيات «الأصول العامة للإسلام التي شُرعت في مكة كالصلاة وإنفاق المال، وغير ذلك . . ، وإنما كانت الجزئيات المشروعة بمكة قليلة،والأصول الكلية ـ أي ما يتعلق بالإيمان بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر ـ كانت في النزول والتشريع أكثر ـ

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي، ص٢٩ لمحمد على السايس بتصرف يسير، دار الفكر ، ط١، ١٤١٩ ـ ١٩٩٩م، بيروت، لبنان، والشاطبي قد ذكر ذلك في كتاب الأدلة الشرعية في الفصل الثاني: في الإحكام والنسخ في المسألة الأولى.

(٢) سأفصل ذلك في مبحث منهج القرآن في تربية قلب ولسان وجسد النبي ﷺ .

(٣) لما رواه مسلم ١ / ٥١٢ في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل برقم٧٤٦ عن زرارة أن سعد بن هشام.. قال لعائشة رضي الله عنها "انبئيني عن قيام رسول الله ﷺ ؟ قالت: الست تقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله واصحابه حولاً، وامسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء حتى انزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة.." .

(٤) لما رواه مسلم ٢ / ٧٩٢ في كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء برقم ١١٢٥ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية وكان رسول الله ﷺ يصومه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه» .

(٥) أي التعبد أو الانقطاع للعبادة، واعتزال الأصنام أ.هـ لسان العرب٢ / ١٣٨ مادة حنث.

(٦) لما رواه مسلم ١ / ٤٧٩ في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٦٨٨ عن سلمة الهذلي قال: «سألت ابن عباس رضي الله عنهما كيف اصلي إذا كنت بمكة إذا لم اصلِّ مع الإمام؟ فقال ركعتين سُنَّة أبي القاسم ﷺ » .

أي في مكة منها في المدينة» [١]

ومن خلال ما سبق يمكن أن نُجمل القول أن الوحي الذي تنزل على النبي ﷺ بمكة تميّز بالاهتمام بالتوحيد والإيمان القلبي من خلال غرس أركان الإيمان في قلب النبي ﷺ ، وإثبات الرسالة والتأكيد عليها، والبعث والجزاء والتدليل على ذلك بآيات الله القرآنية والكونية، والدعوة إلى استخدام العقل لمعرفة الإله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ .

وبعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة تميزت التربية القرآنية الإيمانية له بالاهتمام بالجانب العملي ـ بصورة أكبر وأوضح ـ مع معالجة ما يطرحه أهل الكتاب من شبُهات حول ركن الإيمان بالله [٢] ، وما عندهم من أباطيل وخرافات تتعلق ببعض الملائكة [٣] ، والكتب [٤] ، والرسل [٥] ، وغير ذلك .

وتميز القرآن المدني بتفصيل أصول الإسلام ـ العامة والكلية ـ التي أوحى الله بها إلى رسوله في مكة واستمر النبي ﷺ يؤسس لها ويضع أصولها العامة وقواعدها الكلية ـ سواء في باب العقائد أو العبادات أو المعاملات ـ كما يتضح هذا من سورة الأنعام المكية التي دارت حول قضية توحيد الله وتعريف العبيد بخالقهم ونِعَمِه التي لا تعد ولا تحصى على خلقه، ودعوة الناس إلى توحيد الألوهية، وعاقبة المكذبين بآيات الله ، ومعرفة أهل الكتاب للقرآن الكريم ـ رغم تكذيبهم ـ وكفار قريش به، وغير ذلك [٦]

وكما يتضح من سورة النحل المكية التي عالجت موضوع الألوهية أيضاً،

---

(١) الموافقات ٣ / ٧٧ بتصرف يسير.

(٢) كقولهم: إن الله ثالث ثلاثة، وقول اليهود: عزيزٌ ابن الله، وقول النصارى: المسيحُ ابن الله.

(٣) كجبرائيل وميكائيل.

(٤) كتحريفهم لها وتغييرهم وتبديلهم وإخفائهم لبعض ما في التوراة والإنجيل وزياداتهم ، ثم قولهم هذا من عند الله.

(٥) كاعتقادهم وقوع الفُحش وشرب الخمر من بعض أنبيائهم .

(٦) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٠٥ .

والوحي، والبعث، وإرادة الله في البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر، والهدى والضلال، ووظيفة الرسل، والتحليل والتحريم، ثم موضوعات المعاملة، مثل: العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على عقيدة الإيمان بالله.

■ وكما يتضح من سورة الإسراء المكية التي تحدثت عن الإسراء، ودارت حول قصص بني إسرائيل المتعلقة بالمسجد الأقصى، وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان، وطبيعة القرآن وما يهدى إليه، وشان رسول الله ﷺ مع قومه في مكة، إضافة إلى موضوعات العقيدة والإيمان بالله، وأوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله، واستبعاد الكفار لوقوع البعث، وغير ذلك مما يتعلق برسالة النبي ﷺ، وكيد المشركين بالنبي ﷺ، وطلبهم الخوارق منه، ثم ختم السورة بالحديث عن القرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ليقرأه على الناس زمناً طويلاً وليتأثروا به ويستجيبوا للإيمان بالله.

فقد تميز القرآن المدني بتفصيل كل ما سبق ونحوه؛ ففي باب العبادات مثلاً كانت أصولها قد شُرعت في مكة، كإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

■ ففيما يتعلق بالصلاة على سبيل المثال، زادها الوحي من صلاتين إلى خمس صلوات، وزاد في عدد ركعاتها وحدَّد لها أوقاتاً وشروطاً وغير ذلك في نهاية العهد المكي، وقد كان هذا بصلاة جبريل عليه السلام إماماً بالنبي - ﷺ - صبيحة ليلة الإسراء والمعراج (١) - للصلوات الخمس.

■ وفيما يتعلق بالصدقة المندوبة والإنفاق تطوعاً، صارت زكاةً مفروضة - إذا ما توافرت شروط أدائها - وذلك لتطهير النفس من الشح، وتزكية المال بإخراج ما

(١) سأشرح ذلك في فقرات قادمة.

فرض الله تعالى للغير كالفقير ونحوه كما ورد في آية مصارف الزكاة الثمانية(١).

■ وفيما يتعلق بالصوم، صار النبي ﷺ يصوم شهراً كاملاً بعد أن كان يصوم يوم عاشوراء (٢) في مكة، وفيما يتعلق بالحج صار واجباً مرة في العمر ـ ولكن على منهج وشريعة الإسلام الذي نزل به القرآن الكريم، وعلى سُنَّة محمد ﷺ التي سنَّها للمسلمين من أمته كما علمه ربه ـ سبحانه وتعالى. وفيما يتعلق بالجهاد ـ أعلى ذروة في الإسلام ـ صار أول مراتب تغيير المنكر والأمر بالمعروف الذي نزل بمكة.

وفي هذا كله قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: "..ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتسعت خطة الإسلام، كمُلت هنالك الأصول الكلية على تدريج"(٣).

وقال أيضاً: " .. أما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسُّنَّة، وما نشأ عنهما، وهو أول ما نزل بمكة ويقصد الإيمان بالله وتوحيده.. وهو راجع إلى التصديق بالقلب والانقياد بالجوارح، .. ليفرع عن ذلك كل ما جاء مفصلاً في المدني، فالأصل وارد في المكي.." (٤) "

فلم يتجاوز القرآن المكي ـ قضية التوحيد وعقيدة الألوهية.. إلى شيء مما يقوم عليه من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة" (٥)

كما أكثر القرآن المدني من فضح المنافقين والتحذير من مكرهم وكيدهم، وتحصين المؤمنين من صفاتهم القبيحة.

وبعد أن أوضحتُ شيئاً من مميزات وخصائص التربية القرآنية الإيمانية للنبي ﷺ في مكة والمدينة، فما هو منهج القرآن في تربية النبي ﷺ إيمانياً، وتزكيته لقلبه ولسانه وسائر بدنه؟. هذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المطالب الثلاثة التالية.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة : ٦٠].

(٢) هو العاشر من شهر محرم.

(٣) الموافقات ٣ / ٧٧ .

(٤) الموافقات للشاطبي ٣ / ٣٣ ـ ٣٥ باختصار، وقد ذكر الشاطبي هذا في المسألة الثامنة في حديثه عن المقاصد الشرعية.

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٠٥ بتصرف وزيادة يسيرة.

المطلـب الأول

منهج القـرآن في تربيــة قلب النبي ﷺ وتزكيته

مما لا شك فيه أن في جسد كلٍّ إنسان مضغةً إن صلُحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا إنها القلب، وقلب النبي ﷺ الذي تمَّ غسلُه وتزكيتُه وتطهيره قبل النبوة (١) وبعدها، قد بلغ غاية الصلاح والتقوى بذلك إلى جانب تعاهد القران له خلال فترة الوحي.

ومما لا شك في أيضاً أن: " أعمال القلوب من أهم الواجبات وأعظم القربات .. كما أنها من آكد شُعب الإيمان.. وإنما صلاح سائر الأعمال منوط بصلاح القلب ، فأعمال اللب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع.. " (٢)

ولهذا قال العزبن عبد السلام ـ رحمه الله ـ :" .. ومبدأ التكاليف كلها ومحلها ومصدرها القلوب..وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب.. فإذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال، صلح الجسد كله بالطاعة والإذعان"(٣).

ومن هنا فإن القرآن الكريم باهتمامه بقلب النبي ﷺ وتربيته له إيمانياً بتكليفه بأعمال القلب وعباداته المتعلقة به من " توكلٍ على الله ، وخوفٍ وخشيةٍ من وحده، ورجاءٍ له ولما عنده ، ورضاً بالله وقضائه وقدره، ودعوته إلى الثبات على الإخلاص لله ، والاستقامة له، والحمد والمحبة له، والتوبة والإنابة إليه، وغير ذلك من عبادات القلب" (٤) .

(١) راجع الفصل الأول من الباب الاول من هذه الرسالة فقرة إعداد النبي ﷺ للنبوة والرسالة جبلياً.

(٢) معالم في السلوك وتزكية النفوس ، ص٦٧، عبد العزيز محمد العبد اللطيف.

(٣) قواعد الاحكام في مصالح الانام ١ / ١٤٣لابي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السالمي (ت٦٦٠هـ) مؤسسة الريان ، بيروت،١٤١٠هـ-١٩٩٠، بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلد واحد ضمن جزابن.

(٤) ساشرح تفاصيل ذلك فيما يلي من فقرات قادمة.

إن القرآن الكريم بتكليفه لرسوله ﷺ بهذا كله وغيره إنما يهدف إلى تحقيق عبودية قلب النبي ﷺ لربه التي تعتبر ـ كما قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ " أصلاً من أصول الإيمان وقواعد الدين" (١) .

ومع أن أركان الإيمان والإسلام وتشريعاته كلها ـ التي فرضها الله في القرآن على المؤمنين ـ سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو العبادة أو المعاملة ـ تهدف إلى تزكية النفس الإنسانية المسلمة، بشكل عام، إلا أن القرآن قد خصَّ النبي ﷺ بخطاب مباشر كلَّفه فيه ببعض العبادات التي تهدف لرفعه لأعلى درجات العبودية لله ، والوصول به إلى الغاية القصوى والدرجة العليا في معرفة الله ، والإخبات له ، وكمال التقوى.

وقد سلك القرآن في سبيل ذلك عدة وسائل كما يلي:

أولاً: التأكيد على توحيد الله ، والإكثار من ذكر أسمائه وصفاته، مع تكرار كثير منها في مواضع متعددة:

توحيد الله هو أصل الأصول، وأول وأهم أركان الإيمان الذي يتفرع عنه بقية أنواع العبادات لله ، وهو " أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى" (٢)

ولذلك كان الموضوع الأساسي في القرآن الكريم هو الدعوة إلى توحيد الله، وكان القرآن يتنزل في المرحلة المكية لتأسيس وتثبيت هذه العقيدة بشكل كبير، وذلك "لإيقاظ الفطرة، فالإنسان إذا انطمست فطرته وأظلم قلبه انحرف عن التوحيد، وادّعى الاستغناء عن خالقه، فإذا ألمت به الشدائد وأيقن بالهلاك لجأ إلى الله وحده،وأخلص التوجُّه إليه بالدعاء،وأظهر افتقاره وتذلُّله لخالقه ـ سبحانه ـ "(٣) .

---

(١) الفتاوى ١٠ / ٥ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ـ رحمه الله ـ ٣ / ٤٦٢ .

(٣) منهج الإسلام في تزكية النفوس ١ / ١٢٣ ـ ١٢٤، د. أنس احمد كرزون، دار نور المكتبات، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، جدة، السعودية. والكتاب يقع في مجلدين.

وتوحيد الله أصل طهارة وتزكية الإنسان، فله أثر عظيم في تزكية النفس، فكلما تمكَّن توحيد الله من نفس الإنسان وقلبه، وكلما قَوي إيمان المرء بربه، كلما زكت نفسه وثبت أمام الفتن.

وفي هذا يقول ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم :٢٤-٢٥] .

ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المقصود بالكلمة الطيبة: شهادة أن لا إله إلا الله (١)

نلاحظ من الآية السابقة أنها ضربت مثلاً لأثر التوحيد في النفوس " بالشجرة الطيبة الثابتة التي لا تزعزها الأعاصير، ولا تعصف بها الرياح، والمثمرة على مرِّ الأيام دون أن ينقطع ثمرها" (٢) .

وهذا يدل على أن توحيد الله هو أساس الإيمان والأعمال الصالحة ـ أداءً وقبولاً عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وبما أن توحيد الله تعالى هو أصل طهارة وتزكية الإنسان، فقد اعتبر الله أهل الشرك نَجَسٌ لما عندهم من شرك وكُفر بالله، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة:٢٨] (٣) .

وفي الحديث عن النبي ﷺ : " **(ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان، من عبد الله عز وجل وحده فإنه لا إله إلا الله** ، ـ حتى قال ـ **وزكَّى عبدٌ نفسه)** فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟، فقال: **(أن يعلم أن الله عز وجل**

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٤٩ .

(٢) منهج الإسلام في تزكية النفوس ١ / ١٢٥ د. انس احمد كرزون.

(٣) وقال ابن كثير في تفسيره ٢ / ٣٣٢ " ودلت هذه الآية على نجاسة المشرك .. ورأى الجمهور انه ليس بنجس البدن والذات"

معه حيثما كان..) " (١)

ويؤيد هذا ما قاله الشوكاني -رحمه الله - في أحد أقواله في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت: ٦-٧].

حيث قال: .. وقيل معنى الآية: لا يشهدون أن لا إله إلا الله؛ لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها" (٢)

ومن هنا خاطب الله نبيَّه ﷺ قائلاً له: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾.

[محمد: ١٩].

قال ابن عاشور-رحمه الله-: " أمَرَ الله رسوله بالثبات على ماله من العلم بوحدانية الله.. " (٣)

وتوحيد الله هو أساس انشراح الصدر كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وبالتوحيد ينمو ثواب الأعمال الصالحة، وتُضاعف الأجور، ويتحرر المرء من العبودية أو التعلق بغير الله، فتكتمل تربية قلبه.

والقرآن الكريم قد أكثر من ذكر أسماء الله وصفاته، وكرّر ذلك في مواضع متعددة، مخاطباً النبي ﷺ بها وخاصةً في نهاية المقاطع والآيات كما في قوله

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢ / ٢٤٠ في كتاب: الزكاة، باب: في زكاة السائمة، برقم ١٥٨٢ وأخرجه البيهقي في السُنن الكبرى٤ / ٩٦في كتاب الزكاة،باب: لا يأخذ الساعي فيما يأخذ مريضاً عن عبد الله بن معاوية، وصححه الألباني في السلسلة ٣ / ٣٧، وذكره برقم ١٠٤٦ عن جُبير بن نُفير عن أبيه مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

(٢) فتح القدير ٤ / ٧٢٠، دار الفكر، ط بدون، د.ت. بيروت، والكتاب يقع في عشرة مجلدات.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ١٠٤.

تعالى في سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . وقوله أيضاً: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦]. وقوله عز وجل: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] ، وقوله: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢). وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

وكما ورد في سورة فصلت، كقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت: ٣٦] . وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: ٤٣] .

وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. وغيرها من الآيات (٣) .

ولا شك أن الإكثار من ذكر أسماء الله وصفاته في القرآن ومخاطبة النبي ﷺ بذلك، له أثر عظيم في دوام إحياء قلب النبي ﷺ بالإيمان بالله ، وتوحيده بأسمائه وصفاته، وترسيخ ذلك في فؤاده ، والاستحضار الدائم لعظمة الله ـ عز وجل ـ والذكر المستمر له، بل ومحبته والخشية منه والتوكل عليه، وزيادة التقرب إليه بالعمل الصالح.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويُثيب عليه ويعاقب عليه، ...، فتأمل ورود أسمائه في كتابه وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب" (٤) .

وقال ـ رحمه الله ـ : " ..فعلمُ العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يُثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.." (٥)

(١) الأنعام ٨٣، ١٢٨، ونحوها في سورة يوسف ٦، والحجر ٢٥، وغيرها من الآيات .
(٢) الأنعام ١٤٥، ١٦٥ بلفظ ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
(٣) وعددها يتجاوز المائة آية .
(٤) مدارج السالكين ٣ / ٤٦٨ .
(٥) مفتاح دار السعادة ٢ / ٩٠ .

وهذا كله وغيره هو ما كان يستشعره النبي ﷺ كلما قرأ القرآن وتأمل في آياته وتدبّر في أسماء الله وصفاته، فزادت تربية قلب النبي ﷺ على معاني التوحيد لله سبحانه وتعالى.

ثانياً: التذكير بأحوال اليوم الآخر وتكرار ذلك:

ما برحت آيات القرآن الكريم تُذكِّر النبي ﷺ بالركن الخامس من أركان الإيمان، وهو ركن الإيمان باليوم الآخر، وكانت أحياناً تُقرن الإيمان بالله باليوم الآخر لأهمية ذلك في توجيه وتقويم حياة المسلم.

وكما أن هناك من الآيات ما تتحدث عن أهمية الإيمان باليوم الآخر، فهناك آيات كثيرة كرَّرت ذكره وفصَّلت القول في شأنه ابتداءً من علامات الساعة الكبرى،ومروراً بأحداث النفخة الأولى للصعق،والثانية للبعث والحشر والحساب، وما يتعلق به وما يتبعه، وانتهاءً بالجنة أو النار.

وهكذا هو القرآن في تربيته لقلب النبي ﷺ بالإيمان باليوم الآخر وأهواله، فتارة يخاطبه في شأن الكفار قائلاً: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾ [الأنعام : ١٥٨].

وتارة يقول له: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ٤١].

وقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ عندما أمر ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه، فقرأ سورة النساء حتى وصل لهذه الآية فبكى النبي ﷺ (١).

وتارة يُذكِّره بدقة الحساب يوم القيامة وإحاطة علم الله سبحانه وتعالى بكل

---

(١) روى البخاري في ٤ / ١٦٧٣ في كتاب التفسير ٦٨، باب: فكيف إذا جئنا.. ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - برقم ٤٣٠٦ انه قال: «قال لي النبي ﷺ: (اقرأ عليَّ) قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (فإني أحب أن أسمعه من غيري) ، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ ، قال: (امسك)، فإذا عيناه تذرفان».

خافية وكل صغيرة وكبيرة، إضافة إلى تسجيل ذلك في كتاب مبين.

قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس : ٦١] .

وتارة يَذْكُر له أن حكمة الله ومشيئته قضت بأن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] .

وقد وردت هذه الآية في سورة هود التي قال عنها ﷺ : (**شيبتني هود وأخواتها**)[١] . وتارة يؤكد له ضرورة الحذر من عذابه سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي: إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم " [٢]

وتارة يؤكد له أن كل الناس سَيَرِدُون على جهنم ـ عياذاً بالله ـ ثم يكتب الله النجاة لأهل الإيمان.

قال تعالى :﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [٣] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٧ / ٢٨٧ برقم ٧٩٠ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ ، وأخرجه الحاكم ٢ / ٣٤٣ في كتاب التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : (**شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**) ووافقه الذهبي ، وقال الألباني في السلسلة: وسنده جيد، انظر السلسلة ٢ / ٦٣٩ برقم ٩٥٥، ورواه ابن سعد في الطبقات ٢ / ٤٣٥ بلفظ (**شيبتني هود وأخواتها**) مختصراً.

(٢) فتح القدير ٣ / ٣٤٠ .

(٣) قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره ١٦ / ١٥١ : " وهذه الآية مثار إشكال ومحط قيل وقال، واتفق جميع المفسرين على أن المتقين لا تنالهم نار جهنم، واختلفوا في محل الآية.. " ثم ذكر أقوال أهل التفسير في عود الضمير ﴿ مِّنكُمْ ﴾ ، فقال: " فمنهم من جعل ضمير ﴿ مِّنكُمْ ﴾ لجميع المخاطبين بالقرآن.. " وذكر أقوالاً أخرى ردّ عليها .. وضعّف ما روي في ذلك عند ابن جرير الطبري وابن كثير من رواية الإمام أحمد والترمذي ثم قال: " .. وأصحُّ ما في هذا الباب ما رواه أبو عيسى الترمذي ، قال: (يرد الناس النار، ثم يصدرون منها بأعمالهم..) **قلت**: والحديث قد رواه الترمذي في ٥ / ٢٩٧ في كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة مريم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، برقم ٣١٥ .

الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم : ٧١] .

وفي آيات أخرى يخاطبه قائلاً: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الطور: ٧-٨] .

وهكذا هو القرآن الكريم في عرضه لليوم الآخر وحتمية مجيئه والنعيم والعذاب الذي فيه، وكل هذا إنما هو من أساليب القرآن في تربية قلب النبي ﷺ على الخوف والخشية من الله واليوم الآخر، كما قال تعالى في شأن أهل الإيمان أنهم في إشفاق من يوم القيامة : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الطور: ٢٦] ، أي " خائفين وجلين من عذاب الله " (١)

ثالثاً: التذكير بنعم الله والدعوة إلى تأمل مظاهر عظمته وقدرته:

لله سبحانه وتعالى آياتٌ حقُّها أن يتأملها الإنسان ويتدبّرها ، منها ما هو مقروء كآيات القرآن الكريم، ومنها ما هو منظور كآيات الله في الكون الفسيح.

والقرآن الكريم قد حفل بكثير من الآيات والنصوص ، التي تدعو الإنسان ـ بشكل عام ـ والنبي ﷺ بشكل خاص ـ إلى التعرف على وجوه نعم الله على هذا العبد، ومظاهر عظمة الله وقدرته في هذا الكون، ليزيد خشوع القلب ويقين اللُّبّ بربوبية هذا الإله العظيم، وكمال قدرته، وبديع صنعه.

وبالتالي يزيد استشعار الإنسان بعظمة هذا الإله الحكيم، فيثمر ذلك قوة الإيمان بالله وتمام العبودية له.

قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ : " ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا فهم، ولا فهم امروٌ قط إلا علم، ولا علم امروٌ قط إلا عمل" (٢) .

ومن هنا فلا غرو أن نجد بعض آيات القرآن الكريم تخاطب النبي ﷺ وتُذكّره بنعم الله ومظاهر عظمته وقدرته لتربط بين تأمل الفكر واستشعار القلب لتحقق

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ١٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٤١٤ .

عبادة الجسد كله لله ، فالقرآن يربط بين التفكر في خلق السماوات والأرض وبين ذكر الله (١)

وكما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : أن " حال المؤمنين دائماً هو الاعتبار بخلق السماوات والأرض .. وأن الفكر هو الذكر القلبي .. " (٢)

إذاً فآيات القرآن تدعو النبي ﷺ إلى إحياء ذكر القلب، ومن هذه الآيات قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾ [لقمان : ٣١] .

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : ٥٠] ، وغيرها من الآيات (٣) .

وقد ذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ ﴾ أو ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أنه " يعم كل من يتأتى منه النظر والرؤية وذلك للاعتبار والاستدلال " (٤) .

ولا شك أن النبي ﷺ يدخل في ذلك دخولاً أوّليًا ؛ لأنه المخاطب ابتداءً بالوحي، كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :" الخطاب بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول " (٥) .

---

(١) كما هو المفهوم من قوله تعالى في آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير ٤ / ١٩٦ بتصرف يسير.

(٣) كما في سورة لقمان ٢٩، والملك ٣، وإبراهيم ١٩، والحج ١٨، ٦٣، والنور ٤٣، والفرقان ٤٥، وفاطر ٢٧، والزمر ٢١، .... .

(٤) التحرير والتنوير ٢١ / ١٢٣ .

(٥) فتح القدير ٤ / ٣٤٧ .

فمثال هذه التوجيهات للنبي ﷺ تدفعه لكثرة التفكر والاعتبار(١)، وتُوسّع مداركه وتدله على آيات الله،وهذا كله يُكسب قلبه مزيداً من التعظيم لله وتقديراً له حق قدره، ورسوخاً في الإيمان، وزيادة في اليقين، واستمراراً في الرغَب والرهَب، ودوام صلته مع الرب ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقد كان ﷺ دائم التذكر والذِّكر ـ امتثالاً لآيات القرآن الكريم ـ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بتُّ عند خالتي ميمونة رضي الله عنها(٢)، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رقد، فلما كان ثُلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قام فتوضأ واستنَّ(٣)، فصلّى إحدى عشرة ركعة، ثم أذَّن بلال فصلّى الصبح»(٤).

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره ١ / ٤١٥ أبياتاً شعرية للحسين بن عبد الرحمن عن التفكر وثماره منها:

نُزهة المؤمن الفكر ... لذة المؤمن العبر
في خرير من العيون ... وظل من الشجر
وسرور من النبات ... وطيب من الثمر
إن في ذلك لعبرةً ... للبيب إن اعتبر

(٢) هي ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية.. زوج النبي ﷺ كان اسمها (برّة)، فسماها رسول الله ﷺ (ميمونة) بايعت بمكة قبل الهجرة، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي رُهم بن عبد العزى، وقيل غير ذلك، تزوجها رسول الله ﷺ بعد زوجها سنة سبع في عمرة القضاء في ذي القعدة، فارسل رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إليها فخطبها، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فزوّجها من رسول الله ﷺ.. وقد تزوجها بعد صفية، روت عن النبي ﷺ ٧٦حديثاً، توفيت سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثلاث وستين عام الحرة في سرف قرب مكة، ودفنت في سرف أيضاً، وصلى عليها ابن عباس رضي الله عنهما.

انظر: كتاب أزواج النبي ﷺ ص١٩٧ ـ ٢٠٦ للإمام محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ)، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان.

و: أسد الغابة لابن الأثير ٧ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥، و: سير أعلام النبلاء للذهبي٢ / ٢٣٨٧، و: تقريب التهذيب لابن حجر ٢ / ٦٦٠.

(٣) واستنَّ: من سن الشيء يسنه سنّاً أي: أحدّه وصقله، والمعنى أنه تسوّك ﷺ لينظف أسنانه ويصقلها بالسواك، لسان العرب ١٣ / ٢٢٣.

(٤) رواه البخاري في ٤ / ١٦٦٦ في كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. برقم ٤٢٩٣، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٤٦٦ برقم ٣٥٤٠.

فالملاحظ من هذه الرواية أن النبي ﷺ جمع بين نظره للسماء وتفكره في خلقها وبين قيامه لله قانتاً، وكان التفكر والتأمل لعظيم صنع الله في خلقه يدفع القلب لتعظيم الخالق سبحانه، والجسد لمزيد من العبادة لرب العالمين.

رابعاً: أمر القرآن للنبي ﷺ بالثبات على الإخلاص لله وحده:

ومن العبادات ، بل من أهم العبادات القلبية التي وجه الله نبيّه ﷺ إلى الثبات عليها وتجسيدها في حياته مع ربه، عبادة الإخلاص لله في القول والعمل والاعتقاد، وذلك تربيةً لقلب النبي ﷺ على دوام المراقبة لله ، وإخلاص العمل له وحده.

والإخلاص هو: " أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه وتعالى " (١) .

أو هـــو: "الإمحاض وعدم الشّوب بمغاير.." (٢) . أي تصفية العبادة لتكون خالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده.

وقيل أن الإخلاص هو: " تصفية السر والقول والعمل" (٣) ، وقيل هو " ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله " (٤) .

هذا هو الإخلاص في تعريف أهل العلم له،والتعاريف المذكورة متقاربة المعنى(٥).

والشاهد من ذلك كله أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر نبيه ﷺ بالثبات على إخلاص العبادة لله ـ وهي من العبادات المتعلقة بالقلب ـ كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ أن : " الإخلاص من الأمور القلبية" (٦) .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٦٣٧ .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور٢٣ / ٣١٦ .

(٣) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغويةص٦٤، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

(٤) التعريفات، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني ص١٣ (٧٤٠ ـ ٨١٦هـ) ، تحقيق وتعليق/ د.عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب ، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان.

(٥) وهناك تعريفات أخرى في نضرة النعيم ٢ / ١٢٤ وما بعدها.

(٦) فتح القدير ٤ / ٦٣٨ .

فقال ـ سبحانه وتعالى ـ آمراً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② ﴾ [الزمر : ٢] .

وأمرَ الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإعلان ذلك أمام المشركين بالله ، فقال ـ عز من قائل ـ :﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ⑪ ﴾[الزمر:١١] . . وقال: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭ ﴾ [الزمر:١٤]، فكل هذه الآيات وأمثالها فيها دعوة وتوجيه للنبي ﷺ بالثبات على ما عنده من إخلاص لله حتى يتوفاه الله على ذلك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الأولى ـ أي قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ أي: «فاعبد الله وحده لا شريك له وادعُ الخلق إلى ذلك وأعلمْهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده..» (١) .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «أمر الله رسوله ﷺ بأن يعبد الله مخلصاً له العبادة.. فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله : ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ فالمأمور به عبادة خاصة» (٢)

وفي آيات أخرى يأمر ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ أن يرد على المشركين حين دعوه لعبادة آلهتهم ليعبدوا الله، قائلاً:﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ⑭ ﴾ [الزمر:٦٤] ، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ⑮ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ⑯ ﴾ [الزمر : ٦٥-٦٦] .

قال الفخر الرازي تعليقاً على هذه الآيات: "كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟!والجواب :أن قوله :﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ قضية شرطية، والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٣ / ٣١٦ .

جزئيها.."[1]. وهذا يعني نفي وقوع الشرك من الأنبياء والرسل، ومنهم محمد ﷺ، وإنما الأمر بالإخلاص للنبي ﷺ من باب التأكيد له والتعريض للمشركين[2].

وهناك آيات أخرى تتضمن دعوة النبي ﷺ إلى إعلام كلِّ سامع أن الله أمره بإخلاص جميع شئون العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وغيرها من الآيات[3] التي تدعو النبي ﷺ مباشرة أو ضمناً إلى التزام الإخلاص لله، وإخبار الكفار بوجوب ذلك عليه، وعلى المؤمنين معه، وعلى الكفار بتوحيد الله وحده لا شريك له.

وقد التزم النبي ﷺ بذلك في كل شئون حياته الخاصة والعامة، الأُسرية والدعوية، في السلم والحرب، في الاعتقاد والعبادة والمعاملة، حتى كان من أخلص العباد لله كما شهدت بذلك السيرة النبوية وأدعية النبي ﷺ كما في الصلاة، سواءً في استفتاحه لها كقوله: (**وجهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً[4] وما أنا من المشركين[5]، إن صلاتي ونسكي ومحياي**

---

(١) التفسير الكبير ٩ / ٤٧٢.

(٢) وهناك آيات أخرى من هذا النوع خاطبت النبي ﷺ وقصدت الكفار كما في تحذيره من الشك فيما أنزل الله عليه، أو التكذيب بآيات الله تأكيداً له على الثبات على ما عنده من يقين وتصديق بآيات الله، وتعريضاً للمشركين وتحذيراً لهم من ذلك كله كما في قوله تعالى في سورة يونس ٩٤ - ٩٥ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

(٣) كما في سورة الزمر ١٦٤، وسورة الإخلاص، وسورة الكافرون.

(٤) حنيفاً: قال الأكثرون: معناه مائلاً إلى الدين الحق وهو الإسلام، وأصل الحنف الميل، ويكون في الخير والشر وينصرف إلى ما تقتضيه القرينة.
وقيل: المراد بالحنيف هنا المستقيم، وقال أبو عبيد: الحنيف - عند العرب - من كان على دين إبراهيم عليه السلام.
انظر: صحيح مسلم بمختصر النووي ١ / ٥٣٤ لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٥) وما أنا من المشركين: بيان للحنيف وإيضاح لمعناه، والمشرك يُطلق على كل كافر من عابد وثن وصنم ويهودي ونصراني ومجوسي ومرتد وزنديق ونحوهم.
انظر: المرجع السابق ١ / ٥٣٥.

ومماتي لله رب العالمين،لا شريك له، وبذلك أُمرت ، وأنا من المسلمين..)(١) ، أو في ركوعه كقوله ﷺ : (اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعصبي) (٢) .

أو في سجوده كقوله ﷺ :(اللهم لك سجدت،وبك آمنت، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشق سمعه وبصره..) (٣). وغير ذلك.

وبهذا الإخلاص الذي التزمه النبي ﷺ تحقق جُزء آخر من عبودية قلبه لله ، وتربَّى قلبُه ولبُّه على دوام المراقبة لله بإخلاص العمل له وحده لا شريك له.

خامساً: توجيه الله لرسوله ﷺ بدوام الاستقامة على أمر ربه:

لم تقتصر آيات القرن الكريم على أمر النبي ﷺ بالإخلاص فقط لتحقيق عبودية قلبه لربه، بل هناك آيات أخرى أمرت النبي ﷺ بعبادات قلبية أخرى، منها الثبات على الصراط المستقيم، ودوام الاستقامة لرب العالمين.

وأصل الاستقامة كما قال ابن رجب الحنبلي (٤) ـ رحمه الله ـ " استقامة

---

(١) رواه مسلم ١ / ٥٣٤ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم٧٧١، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩ / ٢٣١، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١ / ١٩٩ برقم ١١٨١ .

(٢) رواه مسلم في ١ / ٥٣٥ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، عن علي ابن أبي طالب برقم ٧٧١، ورواه الترمذي في ٥ / ٤٥٣ برقم ٣٤٢١،والبيهقي في السُنن الكبرى٢ / ٣٣ .

(٣) رواه مسلم في ١ / ٥٣٥ في كتاب صلاة المسافرين...، باب الدعاء في صلاة الليل، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم٧٧١، ورواه الترمذي في٥ / ٤٥٣ برقم ٣٤٢١،والبيهقي في ٢ / ١٠٩ في سُننه الكبرى.

(٤) هو أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، الحنبلي الشهير بابن رجب ،وهو لقب جده عبدالرحمن ، وقد ولد عام ٧٣٦هـ في بغداد، وهو ينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والفضل والصلاح، فجده عبدالرحمن بن الحسن ، كانت له حلقة في بغداد يُقرأ عليه فيها الحديث، وقد حضرها ابن رجب.. وأبوه هو الشيخ المقرئ المحدث شهاب الدين أحمد بن رجب.

سمع الحديث في بغداد ودمشق ومصر وغيرها ، على كثير من الشيوخ، وأجاز له طائفة منهم «صفي الدين أبو الفضائل عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي الحنبلي» و«أبو الربيع علي بن عبد الصمد البغدادي الحنبلي» وغيرهما .

وتتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم منهم «علاء الدين علي بن محمد الطرسوسي» و«علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد الدمشقي الحنبلي الشهير بابن اللحام» وغيرهما. =

القلب على التوحيد، وقد فسّر أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - الاستقامة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [الأحقاف: ١٣] ... بأنهم: لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله ، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته ؛ فإن القلب هو مَلِك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه.." (١)

وقال صاحب بصائر ذوي التمييز - رحمه الله -: "..إن الاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات.." (٢)

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: "..الاستقامة حقيقتها عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقوُّم.. وتُطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يَجمع معنى حُسن العمل والسيرة على الحق والصدق.." (٣) .

والقرآن الكريم قد أمر النبي ﷺ في أكثر من آية بالثبات على استقامته لرب العالمين ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢].

قال القرطبي - رحمه الله -: " الخطاب للنبي ﷺ ولغيره، وقيل له والمراد أمته، وقيل ﴿ فَاسْتَقِمْ ﴾: أطلب الإقامة على الدين من الله واساله ذلك.." (٤).

= وقد أثنى عليه كثير من العلماء، منهم ابن حجر الذي قال فيه : «الشيخ المحدث الحافظ، مهر في فنون الحديث اسماءً ورجالاً وطرقاً واطلاعاً على معانيه، وكان صاحب عبادة وتهجد» توفي عام ٧٩٥هـ في دمشق، له عدة مؤلفات تربو على الثلاثين، منها: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» حيث وصل فيه إلى كتاب الجنائز، و«شرح جامع الترمذي» و«القواعد الفقهية» و«الإيضاح والبيان في حكم طلاق الغضبان» وغيرها. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي الحنبلي ٦ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(١) جامع العلوم والحكم ١ / ٥١١ بتصرف يسير .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٤ / ٣١٣ لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ).

(٣) التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٨٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ١٠٧ .

وفي آيات أُخرى يقول سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٥] .

وفي آية أُخرى يأمره تعالى قائلاً: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "والاستمساك شدة المسك ، فالسين والتاء فيه للتأكيد، والأمر به مستعمل في طلب الدوام ؛ لأن الأمر بالفعل لمن هو مُتلبِّس به لا يكون لطلب الفعل بل لمعنى آخر ، وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أوحي إليه . . " (١)

هكذا هو القرآن الكريم في توجيهه للنبي ﷺ وأمْره له بالثبات على الصراط المستقيم، وطلب الاستقامة من الله ، والتمسك بالقران الكريم النور المبين وذلك لتتم له استقامته على الإيمان بالقلب والجوارح والثبات على الحق والدين العظيم وهذا ما كان يُكثر ﷺ من الدعاء به،فقد ثبت أنه كان يدعو دائماً بـ **(يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)** (٢) .

سادساً: وصية الله لرسوله ﷺ بالدوام على تقواه لربه والزيادة من ذلك:

ما برحت آيات القرآن الكريم تزكِّي قلب النبي ﷺ، وتزيد من تحقيق عبوديته لله ـ تعالى ـ ومِنْ ذلك أمرُ الله لرسوله ﷺ بالثبات على تقوى الله في كل صغيرة وكبيرة، في السر والعلانية، فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس، وذلك لأهمية التقوى وفريضتها على النبي ﷺ بشكل خاص، وجميع المسلمين بشكل عام.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢١٩

(٢) اخرجه الترمذي في ٥ / ٥٠٣ برقم ٣٥٢٢، والطبراني في المعجم الكبير ١ / ٢٣٤ ، وذكره الخطيب التبريزي ١ / ٣٧، في كتاب: الإيمان، باب: الإيمان بالقدر، عن انس بن مالك برقم ٢٤، وقال عنه الالباني في تحقيقه للمشكاة: (هو على شرط مسلم).

وقد رواه ابن ماجة في ١ / ٧٣ برقم ١٩٩ عن النواس بن سمعان الكلابي ﷺ بلفظ (يا مثبت القلوب..) وقال الالباني في صحيح سنن ابن ماجة ١ / ٤٠ : (صحيح) وذكره برقم ١٦٥ .

والتقوى تعني اصطلاحاً أو شرعاً: "حفظ النفس عما يُؤثم وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات. (١) " (٢)

وقيل أن التقوى في الطاعة يُراد بها الإخلاص، وفي المعصية يُراد بها الترك والحذر، وقيل هي: « أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى » ، وقيل هي: « محافظة آداب الشريعة »، وقيل هي: « مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى »، وقيل هي: « ترك حظوظ النفس ومباينة الهوى،.. » (٣)

وقيل هي: "اجتناب كل ما فيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول.."(٤).

وروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن التقوى هي: " الخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل" (٥) .

وروى عن عمر بن عبد العزيز (٦) ـ رحمه الله ـ أن التقوى هي « ترك ما حرّم

---

(١) لقوله ﷺ: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس) أخرجه الترمذي برقم ٢٤٥١ وقال حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم نحوه في ٤ / ٣٢٠ بلفظ : (إن الرجل لا يكون من المتقين حتى..) ووافقه الذهبي.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٣١ بزيادة يسير.

(٣) التعريفات للجرجاني ص٩٤ .

(٤) بصائر ذوي التمييز ٢ / ٣٠٠، للفيروزآبادي

(٥) التقوى ص١٦ لصلاح الدين ماردبني، المكتب الإسلامي، ط٢،١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، بيروت، لبنان.

(٦) هو الخليفة الراشد الخامس ابو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم،الاموي،القرشي، الملك العادل، ولد بالمدينة عام ٦١هـ ونشأ بها، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبدالملك بالشام، ثم ولي الخلافة بعهد من سليمان سنة٩٩هـ وهو الذي منع سب علي بن ابي طالب رضي الله عنه (وكان من تقدمه من الامويين يسبُّونه على المنابر)، لم تطل مدة خلافته ، إنما دامت سنتين ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، وكان يُدعى (أشج بني امية) ؛ لان دابة رفسته وهو غلام فشجته، وقد ألفت في سيرته وخلافته عدة كتب..، روى عن عبد الله بن جعفر، وسعيد بن المسيب وغيرهما، وروى له جماعة، وهو الذي بنى الجحفة ، و اشترى ملطية من الروم بمائة الف أسير وبناها، ونقش خاتمه (عمر يؤمن بالله). قال عنه انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ : « ما صليت خلف إمام أشبه برسول الله ﷺ من هذا الفتى ».

توفي عام ١٠١هـ قيل سقاه بنو امية السم لما شدّد عليهم وانتزع كثيراً مما في ايديهم، وكانت وفاته في دير سمعان من أرض المعرة وهي دير بنواحي دمشق.

انظر: فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد شاكر الكتبي ٣ / ١٣٣ ـ ١٣٥، و: شذرات الذهب لابي الفلاح عبدالحي الحنبلي ١ / ١١٩ ـ ١٢١ .

الله ، وأداء ما افترض الله » [١] ، وقيل غير ذلك [٢] . والتعاريف السابقة متقاربة المعنى .

والتقوى قد وردت في القرآن كثيراً، وبعدة معان دلّت عليها آيات القرآن ضمناً لا نصًّا، فقد وردت بمعنى الخوف والخشية [٣]،وبمعنى العبادة والطاعة[٤] .

وبمعنى ترك المعصية [٥] ، وبمعنى التوحيد [٦] ، وبمعنى الإخلاص [٧]

والتقوى محلها القلب ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (.. **المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ ..**)[٨] . ولقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج : ٣٢] .

والله ـ عز وجل ـ قد أمر نبيه ﷺ بالتقوى ، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴿١﴾ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴿٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١-٢] ، وليس المراد بتقوى النبي ﷺ المذكور في الآية ترك المعصية ؛ فهو ـ عليه الصلاة السلام ـ معصوم من ذلك، إنما المراد من هذا إما: " الاستمرار على طاعة الله وأداء فرائضه وواجب

---

(١) التقوى ص١٦ لصلاح الدين مارديني .

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٤ / ١٠٨٠ مادة التقوى، وانظر: كتاب التقوى ص١٦ ـ ١٩، لصلاح الدين مارديني.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج : ١] .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل : ٢] .

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة ١٨٩] .

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات : ٣] .

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج ٣٢] .

(٨) رواه مسلم في ٤ / ١٩٨٦ كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، برقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وأول الحديث: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا... إلخ) ،وقد رواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٣٦٥ برقم ٧٧٠٩، وذكره النووي في الأذكار في ص٣١١ .

حقوقه، والثبات على البُعد عن محارمه وانتهاك حدوده" [١] . أو المراد منها" الدوام على ذلك والزيادة منه" [٢] ، أو المراد " استمرار خوفه من الله والزيادة من ذلك" [٣] .

ويؤيد كل ما سبق ما قاله الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية من أنّ" الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به .. والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان متقياً .. فهو أمرٌ بالمداومة .. فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور .. والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركاً للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة .." [٤] .

وقد يكون المراد بأمر النبي ﷺ ،بالتقوى كلّ ما سبق مما يتناسب مع مقامه ﷺ .

وقد كان ﷺ ممتثلاً لذلك بتقوى ربه في كل لحظة، وفي كل عبادة ومعاملة، حتى كانت حياته كلُّها تقوى لله واتباعاً لمرضاته، وتقرباً إليه، وشهد على نفسه بذلك ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ إن هو إلا وحي يوحى ـ فقال: (**... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ..**) [٥]

فكان من نتيجة ذلك أن دامت معيةُ الله له، وعظُم أجره، وزادت محبته عند ربه ، وزكا قلبه لله .

سابعاً: حث الله لرسوله ﷺ على الاعتماد على الله وحده وتمام التوكل عليه:

التوكل على الله من أعظم الأسباب التي يُتحصل بها المطلوب، ويندفع بها

(١) جامع البيان للطبري ١٠ / ٢٥٤ بتصرف وزيادة يسيرة.
(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٦٩ بتصرف وزيادة يسيرة.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ١١٤ بزيادة يسيرة.
(٤) التفسير الكبير ٩ / ١٥٣ باختصار
(٥) رواه البخاري ٥ / ١٩٤٩ كتاب: النكاح،باب الترغيب في النكاح،برقم ٤٧٧٦ عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ورواه مسلم ٢ / ٧٧٩ في كتاب: الصيام، باب: بيان ان القُبلة في الصوم ليست محرمة، برقم ١١٠٨ عن عمر بن ابي سلمة، ونص الرواية لمسلم (.. أما والله إني لأتقاكم وأخشاكم له ..) .

المكروه، ويتقوى به الضعيف، وينتصر بسببه العاجز، وهو دليل على قوة إيمان العبد بربه، وركونه إليه واعتصامه به.

ومن هنا فلا عجب أن يأمر الله نبيَّه ﷺ بالتوكل عليه في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم تحقيقاً لعبودية قلبه لله ، وتربية له على الاعتماد على الله وحده في كل صغيرة وكبيرة.

فالتوكل كما قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ هو: " صدق اعتماد القلب على الله ـ عز وجل ـ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أُمور الدنيا والآخرة، وكِلَةُ الأمور كلها إلى الله ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سوى الله " (١) .

وهو أيضاً الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس، فهو " عمل القلب، وقيل هو علم القلب بكفاية الرب" (٢)

ومن تمامه كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :" عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال القلب القيام بالله لا بالأسباب ، وحال البدن القيام بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقَدَره.. " (٣) .

والقرآن الكريم قد أمر النبي ﷺ بالتوكل على الله في أكثر من موضع ولأكثر من حال، فقال سبحانه:﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** ﴿٢١٧﴾ ﴾[الشعراء:٢١٧] ، وقال : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الفرقان: ٥٨] ، وقال: ﴿ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] ، هذه كلها آيات تأمر النبي ﷺ بالتوكل على الله بشكل عام، وبعضها تقرن ذلك بعبادة الله

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢ / ٤٩٧ .
(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢ / ١١٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ٢ / ١٢٥ .

والتسبيح وغيره، وفي آيات أخرى يأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ بالتوكل عليه في قتال الكفار، كما قال تعالى بعد أن أمره بمشاورة المؤمنين: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وفي آيات أخرى يأمر الله نبيه ﷺ بالتوكل عليه في التعامل مع المنافقين الماكرين والإعراض عنهم معتمداً على حفظ الله ورعايته له،قال تعالى عن المنافقين: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) ﴾ [النساء : ٨١] .

وغيرها من الآيات التي تأمر النبي ﷺ بالتوكل على الله والتلفظ بذلك (١) ، وتشرح له ﷺ أن التوكل من صفات ومنهج الأنبياء السابقين في التعامل مع أقوامهم (٢) .

وكل هذا ليتحقق للنبي ﷺ كمال الإيمان، وحسن الإسلام، وتمام عبودية قلبه لربه،وتربيته على تفويض أمره إلى الله والثقة به ـ سبحانه وتعالى ـ وليتحصَّل ثمار التوكل على الله من: الحفظ والمنعة من كل شر وذي شر، وحُسن الظن بالله ، وجلب عونه وتأييده ونصره، وراحة باله واستقرار حاله، وغير ذلك من شجاعة فؤاده، ورباطة جأشه . .الخ.

وقد عاش النبي ﷺ متوكلاً على الله طوال حياته، في حال السلم والحرب، في شئونه الخاصة والعامة، في العبادات والمعاملات، بالقول والفعل وهو على كمال الاعتماد على الله والثقة به.

وقد ورد في السيرة النبوية ما يدل على التزام النبي ﷺ بتوجيه الله له بالتوكل

(١) كما في قوله تعالى في سورة التوبة آية ١٢٩ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ .

(٢) كما في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة يونس آية ٧١ ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ .

وقول هود عليه السلام لقومه في سورة هود آية ٥٦ ﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ،وقول شعيب عليه السلام لقومه في سورة هود آية ٨٨ ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

عليه في أكثر من موقف وحدث .

فمما يتعلق بقوله ﷺ أنه كان يقول : (**اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت . .**) (١)

ومما يدل على توكله على الله قولاً وفعلاً ردّه على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شدة خوفه من كفار قريش في حادثة الهجرة في غار ثور عندما قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال له رسول الله ﷺ : « **يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما** » (٢)

والروايات في توكل رسول الله ﷺ على ربه كثيرة (٣) ، وحسبنا ما ذكرناه مما يدل على امتثال النبي ـ ﷺ ـ لما أمره ربُّه به، تربيةً لقلبه وتقويةً لإيمانه .

وكما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " إن التوكل هو شأن أهل الإيمان . . وإن الله يحب المتوكلين ؛ لأن التوكل علامة صدق الإيمان ، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدب عظيم مع الخالق، يدل على محبة العبد ربه، فلذلك أحبه الله " (٤) .

وَمَنْ أكثرُ وأعظمُ توكُّلاً على الله من رسول الله ﷺ ؟ وبالتالي من هو أحب إليه منه؟ .

---

(١) رواه مسلم ٤ / ٢٠٨٦ في كتاب الذكر والدعاء . . باب التعوذ من شر ما عمل، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، برقم ٦٧ / ٢٧١٧، ورواه البخاري في ٥ / ٢٣٢٨برقم ٥٩٥٨ .

وبقية الحديث : (وإليك أنبت وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون) .

(٢) رواه مسلم ٤ / ١٨٥٤ في كتاب : فضائل الصحابة، باب : من فضائل أبي بكر رضي الله عنه برقم ٢٣٨١ . . عن انس ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، ورواه البخاري في ٣ / ١٣٣٧ برقم ٣٤٥٣ بلفظ (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) .

(٣) انظر : موسوعة نضرة النعيم في مكارم اخلاق الرسول الكريم ٤ / ١٣٩٤ وما بعدها، إعداد مجموعة من المختصين.

(٤) التحرير والتنوير ٤ / ١٥١ ـ ١٥٢ باختصار .

المطلــب الثانــي

منهج القرآن الكريم
في تزكية لسان النبي ﷺ وقوله ﷺ

سبق أن شرحتُ أن الإيمان يتعلق باعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان، وشرحنا منهج القرآن في تربية النبي ﷺ إيمانياً وتزكية قلبه.

ولم يقتصر اهتمام القرآن الكريم في تربية إيمان النبي ﷺ على تزكية قلبه ومعتقداته فقط، بل تجاوزت العناية الإلهية بالنبي - عليه الصلاة والسلام - ذلك إلى الاهتمام بأقواله وألفاظه، وتهذيب ذلك لتكون أكثر أوقاته ﷺ ذكراً لله بلسانه - بجميع صور الذكر - إضافة إلى الذكر القلبي.

ويتضح هذا من خلال وفرة الآيات التي تدعو النبي ﷺ إلى ترطيب لسانه وشغل أنفاسه بكل أنواع الذكر في أوقات وأحوال معينة، وكلما سنحت الفرصة لذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧** ﴾. [الشرح: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ⑳٥** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال ابن كثير - رحمه الله -: " يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً.. أي: اذكر ربك في نفسك رغبةً ورهبةً وبالقول.. " (١).

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: " أمر الله رسوله - ﷺ - بأن يَذكر الله ما استطاع، وكيفما تسنَّى له، وفي أوقات النهار المختلفة .. وذلك - الذكر - يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيدٌ لله، وشكره، ونحو ذلك،

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٦٩ - ٢٧٠.

مثل: كلمة التوحيد، والحوقلة، والتسبيح، والتكبير، والدعاء، ونحو ذلك.."(١).

والله - عز وجل - قد أمر نبيه ﷺ بأكثر من عبادة من عبادات اللسان لتحقيق تزكيته، وتقوية إيمانه ﷺ .

ويتضح هذا من خلال التوجيهات القرآنية التالية:

أولاً: أمر الله لرسوله ﷺ بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

نزلت آيات القرآن الكريم تأمر النبي ﷺ بالاعتصام بالله، واللجوء إليه، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم سواء قبل تلاوته للقرآن - بشكل خاص -(٢)، أم في غير ذلك - بشكل عام - وذلك ليتحقق للنبي ﷺ دوام الحفظ والعصمة من شر الشيطان، وليكتمل له إظهار الضعف والذلة والانكسار بين يدي الله، وهذا كله من تمام العبودية لله .

ولذلك نزلت آيات القرآن تأمر النبي ﷺ أن يتلفظ بلسانه بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وشرّه وهمزاته ونزغاته ووساوسه.

ويتضح هذا من قوله تعالى - مخاطباً نبيه ﷺ وآمراً له بالاستعاذة بالله من كل ما خلق، ومن ذلك الشيطان الرجيم - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾ [الفلق: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: "أمَرَ الله رسوله ﷺ أن يستعيذ من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحِيَل ولا ينقادون بالمعروف"(٣).

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: ".. والمراد من همزات الشياطين: تصرفاتهم بتحريك القوى التي في نفس الإنسان - أي في غير أمور التبليغ - ويكون أمر الله

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩ / ٢٤١ بزيادة يسيرة.

(٢) كما في قوله تعالى في سورة النحل آية ٩٨: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٤٧ بزيادة يسيرة.

تعالى لنبيه بالتعوذ.. مقتضياً تكفل الله تعالى بالاستجابة .. أو يكون أمره بالتعوذ.. مراداً به أن يمنحه الاستمرار على السلامة منهم.." (١)

ومن الآيات التي أمر الله فيها رسوله ﷺ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم وشره قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس: ١-٦].

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله -: ".. أمرَ الله نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ به من شر شيطان يوسوس مرةً ويخنُس مرة أخرى.." (٢)

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] (٣)

قال الشوكاني - رحمه الله -: "النزغ : الوسوسة وكذا النغز والنخس.. أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك شيئاً من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله .." (٤) .

وليس معنى أمر الله لرسوله بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أنه معرض ﷺ لنفاذ الوسواس أو الأذى إلى قلبه أو بدنه من الشيطان - شيطان الجن - "فإن النبي ﷺ مؤيد بالعصمة فليس للشيطان عليه سبيل.." (٥) . إنما هذا " أمرٌ لرسول الله ﷺ بالالتجاء إلى الله فيما عَسُر عليه، فإن ذلك شكرٌ على نعمة الرسالة والعصمة، فإن العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنه يشكر الله بإظهار الحاجة - إليه لإدامتها عليه - فالشيطان لا ييأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء ؛لأنها تنبعث عنه بطبعه، وإنما

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٨ / ١٢١ بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان ١٢ / ٧٥٣ .

(٣) وفي سورة فصلت آية ٣٦ يقول تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٦ ﴾.

(٤) فتح القدير ٢ / ٤٠٧ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٩ / ٢٣٠ .

يترصد لهم، وإن كان قد علم أنه لا يستطيع إغواءهم، ولكنه لا يفارقه رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولكنه إذا ما همَّ بالوسوسة شعروا بها فدفعوها.. " (١).

وقد ردّ الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية السابقة على الطاعنين في عصمة الأنبياء من عدة وجوه، وخلاصة ما قال: أن نصّ الآية لا يدل على وقوع النزغ من الشيطان في قلب النبي ﷺ أو تحققه ، إنما هو من باب الافتراض لذلك، وهذا لم يقع ولن يكون، وإن وقع ذلك فإن هذا لا يقدح في عصمة النبي ﷺ ، إنما القادح لو قبل الرسول ﷺ وسوسته، والآية لا تدل على ذلك، ولنفترض أن الشيطان وسوس للنبي ﷺ ، وقَبِل رسول الله ﷺ أثر ذلك، فتعتبَر هذه الحالة خاصة بترك الأفضل والأولى، قال النبي ﷺ : **(إنه ليُغان (٢) على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة (٣))** (٤)

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: **(ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن،** قالوا: وإيَّاك يا رسول الله ؟! ، **قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير)** (٥)

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرحه لصحيح مسلم: " فأسلمُ : برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع (٦) قال معناه: أسلمُ أنا من شره

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٩ / ٢٣٠ بتصرف يسير.

(٢) يُغان: الغين والغيم بمعنى واحد، والمراد به ما يتغشى القلب من فترات وغفلات عن الذكر ، الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عُدّ ذلك ذنباً ، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ٢٠٧٥ .

(٣) رواه مسلم ٤ / ٢٠٧٥ في كتاب الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار، برقم ٢٧٠٢ عن الأغر المزني، ورواه الإمام أحمد في مسنده٤ / ٢٨٧ برقم ١٧٨١٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٧ / ٥٢ .

(٤) التفسير الكبير ٥ / ٤٣٦ بتصرف واختصار يسيرين.

(٥) رواه مسلم ٤ / ٢١٦٧، في كتاب صفات المنافقين ، باب تحريش الشيطان، برقم ٢٨١٤ عن ابن مسعود رضي الله عنه، واخرجه الإمام احمد في مسنده ١ / ٤٨١ برقم٣٦٤٧ (بدون لفظ "فاسلم") واخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١ / ١٠٣ برقم ١٠٩ .

(٦) قال الخطابي: الصحيح المختار الرفع ، كما في شرح النووي ١٧ / ١٥٨ .

وفتنته، ومن فتح [١] قال: إن القرين أسلم ، من الإسلام ، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير.. وقيل أسلم بمعنى استسلم وانقاد..

وقال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : " واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه.. " [٢]

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم في أكثر من حال في حياته، فمن ذلك ما يتعلق بدخوله المسجد[٣]،واستفتاحه للصلاة [٤]، واضطجاعه للنوم [٥] ، ودخوله الخلاء [٦] ، وتعويذه للحسن والحسين [٧] وغير ذلك فكان في حفظ من الله ورعايته حتى وافاه الأجل المحتوم.

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بتلاوة وترتيل القرآن الكريم:

مما أَمَرَ اللهُ به رسوله ﷺ ـ لتزكية لسانه وزيادة قوّة إيمانه ـ تلاوة [٨] القرآن

---

(١) وهذا ما رجّحه القاضي عياض ، كما في شرح النووي ١٧ / ١٥٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ١٥٨ .

(٣) كما في رواية أبي داود في ١ / ٣١٨٠ في كتاب: الصلاة، باب: فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، برقم ٤٦٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه كان إذا دخل المسجد قال: (**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**). والحديث صحيح كما قال الألباني في صحيح سنن أبي داود ١ / ٩٣، وذكره برقم ٤٤١

(٤) كما في واية الحاكم في١ / ٢٣٥ في كتاب: الصلاة عن نافع بن جبير بن مطعم رضي الله عنهما، عن ابيه ان النبي ﷺ كان إذا افتتح الصلاة قال: الله أكبر كبيراً.. إلى قوله: (**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**) ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

(٥) كما في رواية البخاري في٥/ ٢١٦٩ في كتاب:الطب، باب:النفث في الرقية برقم٥٤١٦ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اوى إلى فراشه نفث في كفيّه بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وبالمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده.. ".

(٦) كما في رواية مسلم ١ / ٢٨٣ في كتاب: الحيض، باب: ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، برقم ٣٧٥ عن أنس في حديث حمّاد: قال: « كان رسول الله إذا دخل الخلاء ـ وفي حديث هُشيم: ان رسول الله كان إذا دخل الكنيف قال: « **اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث** »..

(٧) كما في رواية البخاري ٣ / ١٢٣٣ في كتاب: الانبياء، باب: يزفُّون ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يُعوّذ الحسن والحسين ، ويقول: (إن أباكما كان يُعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: **أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة**) وذكره برقم ٣١٩١ .

(٨) وردت التلاوة في القرآن بعدة معان كما يلي:

[١] القراءة كما في قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ آل عمران ٩٣ .

=

الكريم ودوام ترتيله وقيام الليل به، ولا شك أن لذلك أثراً عظيماً في تعطير اللسان بذكر الله ، وتطييب القول بكلامه ـ سبحانه ـ ولذلك أيضاً أعظم الأثر في رسوخ الإيمان والثبات على الحق والصراط المستقيم، وخاصة عند تلاوة القرآن بتدبر وعلى طهارة وكما يحب الله ويرضى.

ومن الآيات التي تدعو النبي ﷺ لتزكية لسانه بالقرآن قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت :٤٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] ، وغيرها من الآيات (١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الأولى: " أمَرَه الله ـ سبحانه ـ أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه" (٢) وقال في تفسير الآية الثانية :" وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن والمحافظة على قراءته مع التدبر لآياته والتفكر في معانيه" (٣)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية نفسها: " .. أقبل ـ الله ـ على رسوله ﷺ بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة وملازمة الشرائع وإعلان كلمة الله بذلك، وما فيه زيادة صلاح المؤمنين. .فأمره بتلاوة القرآن" (٤).

والتلاوة المأمور بها في آيات القرآن الكريم للنبي ﷺ لها أثر عظيم على إيمان

[٢] الاتباع كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ [الشمس ٢] .

[٣] العمل كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة ١٢١] ، وقال مجاهد في تفسير ابن كثير ١ / ٨٧ أي يعملون به.

[٤] الرواية كما في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة ١٠٢].

[٥] الإنزال كما في قوله تعالى: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ [القصص ٣].

(١) كما في سورة النمل ٩١،٩٢، وسورة الإسراء٧٨ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٤٠١ وهناك أقوال أخرى في تفسير الآية.

(٣) نفس المرجع ٤ / ٢٩١ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠ / ٢٥٧ .

النبي ﷺ ، فمن ذلك أن :تغشاه الرحمة، وتتنزَّل عليه السكينة ويكون من الذاكرين الله كثيراً .

كما أن تلاوة القرآن الكريم بتدبر تُورث القلب طمأنينة وخشوعاً ـ كما قال تعالى :﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد :٢٨]، وتلاوة القرآن تورث العقل نوراً، والنفس صفاءً، وغير ذلك مما لا يستشعره ويُحس به إلا أهل القرآن .

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه له بتلاوة القرآن وترتيله في الصلاة وغيرها [١] ، وبلغت عنايته بذلك درجةً عظيمةً، حتى كان ﷺ يقرأ ورأسُه في حجر عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، ففي الحديث الصحيح أنها قالت : " **كان النبي ﷺ يتكئ [٢] في حجري وأنا حائض ، ثم يقرأ القرآن** " [٣] . والمراد أنه كان ﷺ يضع رأسه في حجرها ، ويقرأ ما تيسر من كلام الله رب العالمين.

وكان ﷺ يستفتح قراءته للقرآن بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم استجابة لقوله تعالى :﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾** ﴾[النحل:٩٨].

وبهذا حقَّق القرآن الكريم مزيداً من التزكية والتربية الإيمانية للسان النبي ﷺ وقوله، وتهذيباً له على النحو الذي يُحبه الله ويرضاه.

ثالثاً: إرشاد الله لرسوله ﷺ إلى الإكثار من ذكر الله : تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وتهليلاً:

لذكر الله ـ تعالى ـ فوائد عديدة عظيمة ، "فهو يطرد الشيطان ويقمعه، ويزيد في رضا الرحمن، ويُزيل الهم والغم عن القلب، ويجلب للقلب الفرح والسرور، ويقوِّي القلب والبدن، وينوِّر الوجه والقلب، ويكسو الذاكر مهابةً وحلاوةً

---

(١) سبق ذكر ذلك في فصل تربية النبي ﷺ عقلياً ص٠ ٢٤، وساعرض لتلاوته في صلاة الليل في فقرة أمر الله له بقيام الليل ، فيما يأتي.

(٢) يتكئ: من الاتكاء، وهو الجلوس متمكناً، أو الميل في القعود مع الاعتماد على شيء، والمراد هنا أنه كان يضع رأسه في حجرها. انظر صحيح البخاري ١ / ١١٤ .

(٣) رواه البخاري في ١ / ١١٤ في كتاب الحيض ، باب: قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض، برقم٢٩٣ .

ونضرةً، ويورث صاحبه دوام المراقبة لله حتى يُدخله باب الإحسان فيعبد الله كانه يراه،وعلى قدر ذكر الله يكون قُرب العبد لربه، وبالذكر تتنزل السكينة، وتَغشى الرحمة، وتحف الملائكة، ويُذكر العبد عند ربه، ويستظل في ظل عرش الله، والذكر يعدل عتق الرقاب وإنفاق الأموال، وهو شفاء للقلب، ودواء للغفلة، ويُوجب صلاة الله وملائكته على صاحبه، وبه تذهب المخاوف، ويُيسِّر العسير، وتُفرِّج الكُرب، وتُخفِّف المشاق، وتُبنى الدور والقصور، وتكثر الغراس في الجنة، وذكر الله يُستجلب استغفار الملائكة لصاحبه، وبه تحصل لذة العبادة ويُستجاب الدعاء" (١) ، وغير ذلك من فوائد الذكر (٢)

ولذا فلا عجب أن تتعدد آيات القرآن الكريم التي تحض النبي ﷺ على ذكر الله (٣) ، وتدعوه إلى الإكثار من ذلك، لما في هذا الأمر من فوائد عظيمة وجليلة لا تُحصى، فهو عبودية القلب واللسان..وهو جلاء القلوب وصقالها.. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً،ازداد المذكور محبةً إلى لقائه واشتياقاً..(٤)" (٥).

---

(١) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٨٢، باختصار، لابي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ) بقلم: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، ط٣،١٤١٥هـ-١٩٩٤م، الدمام، السعودية.

(٢) انظر المرجع السابق، ص٨٢ وما بعدها.

(٣) وردت كلمة الذكر في القرآن بعدة معان منها:

[١] الذكر باللسان، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة ٢٠٠].

[٢] الذكر بالقلب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ [آل عمران ١٣٥] ، ويحتمل ان يكون المراد بالآية الذكر باللسان.

[٣] الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ ﴾ [الصافات ٣].

[٤] القرآن ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الانبياء ٥٠].

[٥] الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة ١٥٢] ، والمعنى: فاطيعوني اغفر لكم وغيرها من المعاني، انظر: بصائر ذوي التمييز ٣ / ١٣ وما بعدها، ونزهة الاعين النواظر ص٣٠٢ وما بعدها لابن الجوزي رحمه الله.

(٤) مدارج السالكين ٢ / ٤٤٠ .

(٥) وفيما رواه الحاكم في مستدركه ١ / ٤٩٦، وصححه ووافقه الذهبي" عن ابي الدرداء ﵁ ـ عن النبي ﷺ انه قال : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ،وخيرلكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا : بلى، قال: (ذكر الله تعالى).

ولهذا فآيات القرآن الكريم ما برحت تُرشد النبي ﷺ (١) إلى ذكر الله بشكل عام (٢) - أو إلى أذكار مخصوصة - بشكل خاص - وفي أوقات وبكيفيات معينة، وكل هذا لتكتمل للنبي ﷺ عبودية اللسان لله تعالى،وتزكيته بذكر الله .

ومن الآيات التي حثّت النبي ﷺ على الذكر بشكل عام قوله - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل : ٨] .

قال ابن عاشور - رحمه الله - : " .. وخلاصة المعنى أن النبي ﷺ مأمور ألا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته.. والإكثار من ذكره ، وإذ قد كان

---

(١) ذكر ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين ٢ / ٤٤١ أن الذكر جاء في القرآن على عشرة أوجه هي (بتصرف يسير) .

[١] الأمر به مطلقاً ومقيداً كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب ٤١ - ٤٢] .

[٢] النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف ٢٠٥]

[٣] تعليق الفلاح باستدامته وكثرته كما في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . [الجمعة ١٠] .

[٤] الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة كما في قوله ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب ٣٥].

[٥] الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون ٩] .

[٦] أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم كقوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة ١٥٢] .

[٧] الإخبار أنه أكبر من كل شيء كقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت ٤٥] .

[٨] أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها كقوله تعالى في آيات الحج ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ البقرة ٢٠٠ وغيرها .

[٩] الإخبار عن أهله بأنهم أهل الانتفاع بآياته وهم أولو الألباب دون غيرهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ . [آل عمران ١٩٠ - ١٩١] .

[١٠] أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها كما في قرنه بالصلاة كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] .

(٢) ذكر ابن حجر في فتح الباري ١١ / ٢٠٩ أن المراد بالذكر المأمور به النبي ﷺ والمؤمنون من بعده "الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها، والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة .

النبي ﷺ ـ من قبل ـ غير غافل عن هذا الانقطاع، بإرشاد من الله كما ألهمه التحنث في غار حراء، ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة، فالأمر ـ في الآية ـ مراد به الدوام على ذلك " (١)

وفي آية أخرى يقول سبحانه للنبي ﷺ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإنسان : ٢٥] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي دُم على ذكره في جميع الأوقات.. "(٢).

وغيرها من الآيات (٣) التي أمرت النبي ﷺ بالذكر لله بشكل عام.

وفي آيات أخرى يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ بنوع معين من أنواع الذكر كالتسبيح (٤)، كما في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٥)، وقوله: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى :١]. وقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ [الإنسان:٢٦] . وقوله: ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه :١٣٠] ، وغيرها من الآيات التي أمرت النبي ﷺ بالتسبيح بحمد ربه كقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور:٤٨] ، وآيات أخرى (٦) .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي افعل التسبيح المتلبس بالحمد" (٧) .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " التسبيح: التنزيه، والمراد به ما يدل عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٦٦ بتصرف واختصار .
(٢) فتح القدير ٥ / ٤٩٧ .
(٣) كما في سورة البقرة آية ١٩٨ ـ ٢٠٣ ، وكما في سورة الإنسان آية ١٠٢ ـ ١٠٣ ، وكما في سورة المائدة آية ٤ ، وكما في سورة الانفال آية ٤٥ وغيرها من السور والآيات.
(٤) التسبيح هو تنزيه الحق عن نقائص الإمكان والحدث ، أو (هو قول سبحان الله)، ومعناه : تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم نفي الشريك والصاحبة والولد وجميع الرذائل، ويطلق التسبيح ويُراد به جميع الفاظ الذكر. انظر لسان العرب٢ / ٤٧١ مادة سبح.
(٥) الواقعة ٧٤، ٩٦، الحاقة ٥٢ .
(٦) كما في الحجر ٩٨، والفرقان ٥٨، وق٣٩ .
(٧) فتح القدير ٣ / ٢٠٦ .

من قول، وأشهر ذلك هو: قول سبحان الله وما يرادفه من الألفاظ ، ولذلك كثُر التسبيح وما يُشتق منه في الصلوات في آيات كثيرة، والباء في قوله ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ للمصاحبة جمعاً بين تعظيم الله بالتنزيه عن النقائص وبين الثناء عليه بأوصاف الكمال" (١)

والشاهد من كل الآيات السابقة أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالإكثار من التسبيح لله وبحمده، في الصلاة وغيرها، في الليل والنهار، قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، عند قيامه للصلاة أو من منامه، بمعنى أن تكون أكثر أوقاته ذكراً لله وتسبيحاً بحمده.

وقد ورد التسبيح في القرآن بالنسبة للنبي ﷺ على تسعة أحوال كما في بصائر ذوي التمييز، وذلك كما يلي:

الأول: تسبيح مقترن بالسجود..والعبادة، كما في قوله تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٨].

الثاني: تسبيح في طرفي النهار مقترن بالاستغفار ،كما في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر:٥٥].

الثالث: تسبيح في الليل والخلوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان : ٢٦] .

الرابع: تسبيح في الابتداء والانتهاء حال العبادة ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

[الطور:٤٨-٤٩] .

الخامس: تسبيح مقترن بطلوع الشمس وغروبها.. ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] .

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٨٤بتصرف يسير

السادس: تسبيح دائم لأجل الرضا والكرامة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه :١٣٠] .

السابع: تسبيح مقرون بطلب المغفرة ، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾[النصر : ٣] .

الثامن: تسبيح مقترن بذكر العظمة، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[الواقعة: ٧٤ – ٩٦ ، الحاقة : ٥٢] .

التاسع: تسبيح مقرون بذكر بعض آلاء الله سبحانه بشكر النعمة كقوله تعالى:﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾[الأعلى : ١–٢](١).

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه له بالتسبيح في كل حالة من حالاته، فقد ثبت أنه كان إذا استيقظ من نومه متعجباً سبَّح الله (٢) ، وكان يقول في ركوعه وسجوده: **(سبُّوح قُدّوس ، رب الملائكة والروح)** (٣)

وثبت أنه قال في وقت الضحى **(سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)** (٤) .

وكان يُكثر من قول:**(سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه)** (٥)، وخاصة في آخر حياته .

---

(١) البصائر لمجد الدين الفيروزآبادي ٢ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧ بتصرف واختصار يسيرين.

(٢) كما في رواية البخاري ٥ / ٢٢٩٦ في كتاب الادب، باب: التكبير والتسبيح عند التعجب برقم ٥٨٦٤، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي ﷺ فقال: (سبحان الله، ماذا أنزل من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن..).

(٣) رواه مسلم في ١ / ٣٥٣ في كتاب الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجود ، برقم ٤٨٧ عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه أبو داود في سننه ١ / ٥٤٣ برقم ٨٧٢، والنسائي في ٢ / ١٩١ برقم ١٠٤٨ .

(٤) رواه مسلم في ٤ / ٢٠٩٠ في كتاب: الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، برقم ٢٧٢٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن جويرية رضي الله عنها ، وأخرجه الترمذي في جامعه ٥ / ٥١٩ برقم ٣٥٥٥ ، والنسائي في٣ / ٧٧ برقم ١٣٥٢ .

(٥) رواه مسلم في ١ / ٣٥١ في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده٦ / ٤٣برقم٢٤٠٥٨، والطبراني في المعجم الكبير٨ / ٣٦٢ .

وهكذا كان ﷺ في تسبيحه لربه امتثالاً لآيات القرآن الكريم .

وامتثل - أيضاً - لآيات القرآن التي أمرته ﷺ بالتحميد لله فمنها قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء : ١١١] وغيرها من الآيات (١) ؛ لما في التحميد لله من جلب لمحبة الله ونصرته، والرضا بقضاء الله وقدره .

وكما أمر الله رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد ،فقد أمره أيضاً بالتكبير لله فقال تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) ﴾ [المدثر: ٣] . وقال سبحانه: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ .

قال ابن عاشور - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى: « .. والمعنى : ألا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده، في كل زمان، وفي كل حال، .. وتكبير الرب تعظيمه .. أي كبِّره في اعتقادك، وكبِّره بقولك تسبيحاً وتعليماً، .. ويشمل هذا المعنى أن يقول: الله أكبر .. » (٢) .

وقال الشوكاني - رحمه الله - في تفسير الآية نفسها: « أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أُمورك بالتكبير، وهو وصْفُه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولد » (٣) .

وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ " .. ويحتمل أنواعاً من المعاني : أولها : تكبيره في ذاته، وثانيها : تكبيره في صفاته .. ، وثالثها : تكبيره في أفعاله .. ، ورابعها : تكبير الله في أحكامه .. ، وخامسها : تكبير الله في أسمائه .. ، النوع السادس من التكبير : هو أن الإنسان بعد أن يبلغ

---

(١) ▪ كقوله تعالى في سورة النمل آية ٥٩ : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ .
▪ وكما في قوله تعالى في سورة النمل آية ٩٣ : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ .
▪ وكما في سورة العنكبوت آية ٦٣، وسورة لقمان آية ٢٥ ، وغيرها من السور والآيات.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٩٦ باختصار وزيادة يسيرة.

(٣) فتح القدير ٥ / ٤٥٤ .

في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله ، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاءه لا تفي بخدمته (١) ، فكبَّر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكُنْه مجده وعزته، وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم.." (٢) .

وللتكبير مواطن عدَّة (٣) ، وأحكام متعددة (٤) ، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بذلك في الترديد مع المؤذِّن، وأداء الصلوات، وبعدها، وفي خطبتي العيدين، وليالي العيد وأيام التشريق، وغيرها من مناسك الحج والعمرة، وعند السفر، وحال الصعود أو الاستعظام لشئ.. إلخ . والروايات في ذلك كثيرة.

ولا شك أن لتكبير النبي ﷺ لربه عدة فوائد وثمار، فمن ذلك: أنه ذكرٌ لله ـ تعالى ـ ،وينال صاحبه مغفرةً وأجراً عظيماً،وهو سبب لخفيف الملائكة بمن داوم عليه، وسبب لاستجابة الدعاء، وإدراك الإنسان من سبقه بالأجر، وغير ذلك (٥) .

وكما أمر الله نبيه ﷺ بالتكبير له أمره أيضاً بالتهليل، ويتضح هذا من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الرعد : ٣٠] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : أي" قل يا محمد : هو ربي، أي خالقي ، لا إله إلا هو: أي لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه.." (٦)

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الأصوب: لا تفي بطاعته (والله أعلم).

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٤٢٠

(٣) بلغت مواطن التكبير من خلال استقراء الآيات والأحاديث الخاصة بذلك أكثر من اثني وعشرين موطناً. انظر: نضرة النعيم ٤ / ١١٢٣ ـ ١١٢٥ مادة التكبير .

(٤) وهي كما يلي:

[١] الوجوب كتكبيرة الإحرام .

[٢] سُنَّة مؤكدة كالأذان والإقامة،وقال الحنابلة وأصحاب مالك هو فرض كفاية، انظر المغنى١ / ٢٢٧ .

[٣] الاستحباب كما في أيام التشريق.

[٤] ركن كما في صلاة الجنازة.

[٥] فرض كفاية كما في صلاة العيدين .

[٦] سُنَّة كما في الطواف وعند رمي الجمار .

(٥) انظر نضرة النعيم ٤ / ١١٣٤ ، مادة التكبير .

(٦) فتح القدير ٣ / ١١٧ .

والنبي ﷺ قد أكثر من ذكر ربه تهليلاً تأويلاً للآية السابقة، فقد صحت عدة روايات تفيد أن النبي ﷺ كان يتلفظ بالتوحيد لربه، فمن ذلك ما يكون بعد استيقاظه من نومه ، حيث كان يقول ﷺ : (**لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي..**) (١) .

وإذا أمسى قال: (**أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..**) (٢) .

وإذا أصابه الكرب قال: (**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ،لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم**)(٣) .

وإذا رجع من سفر: كحجٍ أو عمرةٍ أو غزوٍ، أو غير ذلك، كبَّر الله على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم قال: (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير،..**) (٤) . وكان ﷺ يقول ذلك دبر كل صلاة (٥)

ومن كل ما سبق اتَّضح لنا أن النبي ﷺ ما فتئ يذكر الله ـ تعالى ـ على كل أحيانه، في حلّه وترحاله، في الخلوة والجلوة، في السر والعلن ،في الحضر والسفر،

---

(١) أخرجه ابو داود في ٥ / ٣٠٦ في كتاب الأدب، باب: ما يقول الرجل إذا تعارّ من الليل ، برقم٥٠٦١ ، ورواه الحاكم في ١ / ٥٤٠ في كتاب: الدعاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره النووي في الأذكار ص٢١ .

(٢) رواه مسلم في ٤ / ٢٠٨٨، في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (أي رسول الله) ، برقم ٢٧٢٣، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، واخرجه الترمذي في ٥ / ٤٣٤ برقم٣٣٩٠، واخرج ابو داود بعضه في ٥ / ٣١٣ برقم ٥٠٧١ .

(٣) رواه مسلم في ٤ / ٢٠٩٢، في كتاب :الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل و..، برقم٢٧٣٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري في ٥ / ٢٣٣٦ برقم ٥٩٨٥، ٥٩٨٦

(٤) رواه البخاري في ٥ / ٢٣٤٦، في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا أراد سفراً برقم ٦٠٢٢ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ورواه مسلم في ٢ / ٩٨٠ برقم ١٣٤٤

(٥) كما في رواية البخاري في ١ / ٢٨٩ في كتاب: صفة الصلاة، باب: الذكر بعد الصلاة، برقم ٨٠٨، عن ورّاد "كاتب المغيرة، " قال: أملى علي المغيرة بن شعبة في كتاب إلى معاوية رضي الله عنه ان النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: (لا إله إلا الله.. وذكره).

تارة تسبيحاً، وتارة تحميداً، وتارة تكبيراً، وتارة تهليلاً (١)، وتارة يجمع ذلك كله، ويُضيف إليه الاستغفار والدعاء، كما ثبت في شأن استفتاح النبي ﷺ لقيام الليل عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان رسول الله ﷺ يُكبِّر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويُهلِّل عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: (**اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة**") (٢) .

ولهذه الأذكار من الأثر عليه فيما يتعلق بطمأنينته وراحته النفسية وسعادته القلبية وقرة عينه بمحبوبه، وتنعمه بقربه ما يجعله يستغني بها عن كثير من طعامه وشرابه، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شرحه لحديث (**إني لستُ كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني**) (٣) .

حيث قال: " وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين أحدهما: أنه طعام وشراب حِسِّي للفم، الثاني: أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته.. وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء للقلوب.. بما هو أعظم غذاءٍ وأجوده وأنفعه، حتى يغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان.. كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه، .. أفليس في هذا

---

(١) انظر كتاب: الدعوات في صحيح البخاري ٥ / ٢٣٢٣ وما بعدها.

(٢) اخرجه النسائي ٣ / ٢٠٨، كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: ذكر ما يُستفتح به القيام، برقم ١٦١٧، وذكره البيهقي في السنن الكبرى برقم ١٣٥٦، وقد ذكره صاحب مجمع الزوائد في ٢ / ٢٦٣ في باب: ما يفعل إذا قام الليل وقال ابن حجر: (ورجاله ثقات)، وفي رواية النسائي أن السائل هو عاصم بن حميد، وأول الحديث " عن ربيعة الجرشي قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها ما كان رسول الله يقول إذا قام من الليل ؟ وبما كان يستفتح ؟، فقالت: كان يكبر..الخ" .

(٣) رواه مسلم ٢ / ٧٧٦ في كتاب: الصيام، باب: النهي عن الوصال، برقم ١١٠٥، واخرجه الترمذي في سُننه ٢ / ١٤٨ برقم ٧٧٨ بلفظ (إني لست كأحدكم إن ربي يطعمني ويسقيني)، واخرجه البيهقي في السُنن الكبرى ٤ / ٢٨٢ .

أعظم غذاء لهذا المحب.. فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجلُّ منه، ولا أعظم، ولا أجمل، ولا أكمل، .. أفليس هذا المحب عند حبيبه، يُطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً، ولهذا قال: (..إني أظل عند ربي يُطعمني ويسقيني (١)) (٢) .

رابعاً: أمر الله لرسوله ﷺ بالتوجُّه إليه ببعض الأدعية القرآنية:

الدعاء (٣) في أصله يعني " إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله تعالى، والاستكانة له" (٤) والدعاء ـ كما قال شارح العقيدة الطحاوية ـ:"فيه دليل على معرفة العبد بربه، وإقراره به، وبانه سميع قريب قدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه..." (٥)

وفي هذا قال سبحانه وتعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

وقد ورد لفظ (٦) الدعاء في القرآن الكريم لعدة معانٍ (٧) ، والذي يهمنا هنا

---

(١) أخرجه مسلم في ٢ / ٧٧٦ في كتاب: الصيام، باب: النهي عن الوصال، برقم ١١٠٤ بلفظ (..إني أظل يطعمني ربي ويسقيني) بدون (عند ربي)، وأخرجه الترمذي في ٢ / ١٤٨ برقم ٧٧٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٤ / ٢٨٢ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٣٢-٣٣ .

(٣) الدعاء ماخوذٌ من دع، وتجمع على ادعية، وهناك فرق بين الدعاء والنداء ، فالدعاء مثل النداء إلا ان النداء قد يقال بـ "يا أو أيا " ونحو ذلك من أدوات النداء. انظر:المفردات للراغب، ص١٧٠ .

(٤) فتح الباري ١١ / ٩٥ لابن حجر، بتصرف يسير.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦١ .

(٦) غافر : ٦٠ .

(٧) منهـــا :

[١] ما يكون بمعنى العبادة، كما في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ [الأنعام٧١] .

[٢] ما يكون بمعنى النداء كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [النمل ٨٠، الروم٥٢] .

[٣] ما يكون بمعنى الاستعانة والاستغاثة كما في قوله تعالى: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾ [البقرة٢٣] .

[٤] ما يكون بمعنى العذاب والعقوبة كما في قوله تعالى: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [المعارج١٧].

[٥] ما يكون بمعنى العَرْض كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر٤١] .

[٦] ما يكون بمعنى التسمية كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور ٦٣] .

ما وجه الله إليه رسوله ﷺ وأمته من بعده في الآية السابقة وغيرها من الآيات.

قال الشوكاني في تفسيرها: " ... قال أكثر المفسرين المعنى وحّدوني... ومعنى الدعاء حقيقة وشرعاً هو الطلب، فإن استُعمل في غير ذلك فهو مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو عبادة.. فالله قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعْده الحق.. " (١)

وبناءً على تفسير الآية السابقة يمكن القول أن الدعاء ينقسم قسمين:

القسم الأول: هو دعاء المسألة، وهو يعني طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه، ممن يملك الضر والنفع، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده.

القسم الثاني: دعاء العبادة، وهو الثناء على الله بما هو أهله، ويكون مصحوباً بالخوف والرجاء.

وبين الدعاءين ـ دعاء المسألة ودعاء العبادة ـ ارتباط ، فمن سأل الله فقد أدّى صورة من صور العبادة كما هو المفهوم من الآية السابقة.

وقد جمع الله بين الدعاءين في قوله تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ [الأعراف :٥٥-٥٦] (٢) .

قال ابن أبي العز الحنفي: " ... وإذا علم العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي، علموا قربة منهم وتمكنهم من سؤاله، وعلموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال، ودعاء المسألة في حال، وجمعوا بينهما في حال، إذ الدعاء: اسم يجمع العبادة والاستعانة... " (٣) .

وللدعاء آداب ذكرها أهل العلم (٤)، وهو من عبادات اللسان المرتبطة بالقلب،

---

(١) فتح القدير ٤ / ٧٠٩ .

(٢) ونحوها في سورة البقرة١٨٦، وغافر٦٠، وغير ذلك.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦٢ .

(٤) ومنهم أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني(٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ) الذي جمعها في كتابه الذي سمّاه (كتاب الدعاء).

ومن هذا المنطلق نجد أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بالتوجه إليه ودعائه بما علّمه الله، فمع أنه - تعالى - قد أوحى لنبيه ﷺ وحي السُّنَّة - إلى جوار وحي القرآن الكريم - ومن ذلك ما كان ﷺ يدعو به ربه من أدعية كثيرة لصلاح دينه ودنياه وآخرته كما هو مقرر في كتب السُّنَّة (١)، إلا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ عبر آيات القرآن الكريم - بالتوجه إليه ببعض الأدعية القرآنية التي فيها ذكرٌ لله باللسان، وتضرع ولجوء إلى الرحمن، وتحصّن به من شر المخلوقات كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق] .

ومنها ما يُحصن به نفسه من شر وساوس شياطين الإنس والجن كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس] .

ذكر الواحدي (٢) في كتابه «أسباب النزول» أن سورة المعوذتين السابقتين نزلتا بسبب أن لُبيد بن الأعصم(٣) سَحر النبي ﷺ (٤) ، وليس في الصّحاح من

---

(١) انظر: كتاب الدعوات في صحيح البخاري ٥ / ٢٣٢٣ - ٢٣٥٦ وكتاب الذكر في صحيح مسلم ٤ / ٢٠٦١ - ٢٠٩٥ .

(٢) هو الإمام ابو الحسن على بن احمد بن محمد الواحدي، النيسابوري الشافعي، من ابناء التجار، مولده بنيسابور، والواحدي نسبة إلى الواحد بن الديل بن مهره، وهو مفسر، عالم بالادب، لزم الأستاذ أبا إسحاق الثعلبي المفسر، وأكثر عنه، اخذ علم العربية عن أبي الحسن القُهندزي الضرير، وسمع من مشايخ آخرين وقرأ عليهم الحديث، حدّث عنه عبد الجبار بن محمد الخواري ، وعمر بن عبد الله الارغياني، وغيرهما، كان طويل الباع في العربية واللغات، تصدّر للتدريس مدة وعظم شانه، وله شعر رائق وكان أستاذ عصره، وأدرك الإسناد العالي، وسار الناس إلى علمه وادركوا من فوائده، قال فيه ابو سعد السمعاني: " كان الواحدي حقيقاً بكل احترام وإعظام، لكن كان فيه بسط اللسان في الائمة المتقدمين" . مرض ومات في نيسابور سنة ٤٦٨ هـ ، له عدة مصنفات منها: (أسباب النزول) في علوم القرآن ، و(التحبير في شرح الاسماء الحسنى) في التوحيد ، و (البسيط) و (الوسيط) و (الوجيز) في التفسير وغيرها من المصنفات.
انظر: إنباه الرواه على أنباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن على القفطي ٢ / ٢٢٣ - ٢٢٥، و:العبر في خبر من غبر للذهبي ٢ / ٣٢٤، و:طبقات المفسرين لـ أحمد الادنه وي ص١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) وورد في بعض الروايات ان اسمه لبيد بن اعصم " بدون الف ولام" ، انظر: صحيح البخاري ٥ / ٢١٧٥ .

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص٤١٠ - ٤١١ .

كتب الحديث أنهما نزلتا لهذا السبب ، وإن كان قد صح عند البخاري (١) ومسلم (٢) أن النبي ﷺ قد سحره لُبيد بن الأعصم ـ رجل من بني زريق حليف ليهود وكان منافقاً (٣) ـ ، أما كتب التفسير فلم تذكر رواية صحيحة في سبب نزول هاتين السورتين (٤)

والذي يهمنا هنا أن الغرض من نزول هاتين السورتين هو كما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ بالنسبة لسورة الفلق ـ : "تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يُتقي شرُّه من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يُستر أفعال الشر من ورائها(٥) لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها.."(٦).

والغرض من نزول سورة الناس هو" إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ ، وإفساد إرشاده الناس ويُلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته، وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس..." (٧)

وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في معنى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ ﴾ عدة

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٥ / ٢١٧٤ ـ ٢١٧٦

(٢) انظر: صحيح مسلم ٤ / ١٧١٩ ـ ١٧٢١

(٣) في بعض الروايات " لبيد بن الأعصم اليهودي" كما في البخاري ٥ / ٢١٧٦، وعند مسلم ٤ / ١٧١٩ " يهودي من يهود بني زريق" .

(٤) وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره ١١ / ٣٦٨ عدة وجوه في سبب نزول سورة الفلق منها:

[أ] ان جبريل ﷺ اتى النبي ﷺ فقال له: « إن عفريتاً من الجن يكيدك، فقال: إذا أويت إلى فراشك قل أعوذ برب.. » "السورتين".

[ب] ان قريشاً قالوا تعالوا نتجوع فنعين محمداً، اي نصيبه بعين ـ ففعلوا ، ثم أتوه ﷺ فقالوا: ما أشد عضّك ، واقوى ظهرك، وانضر وجهك، فانزل الله تعالى المعوذتين.

(٥) يُستر أفعال الشر من ورائها: هكذا في الأصل، ولعل الأصوب: تُستر أفعال الشر من ورائها، بالتاء وليس بالياء.

(٦) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٢٥ .

(٧) نفس المرجع ٣٠ / ٦٣٢ .

أقوال، ثم قال: " وهو فلق الصبح وهذا هو الصحيح " (١)

وذكر ابن كثير أيضاً ـ رحمه الله ـ: في معنى قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ أنه " الليل إذا أقبل بظلامه (٢) " (٣) و ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ هن السواحر.. إذا رقين ونفثن في العقد" (٤) .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: " وإنما جُعلت الاستعاذة من النفاثات لا من النفث ، فلم يقل: إذا نفثن في العقد، للإشارة إلى أن نفثهن في العقد ليس بشيء يجلب ضراً بذاته وإنما يجلب الضر النافثات وهن متعاطيات السحر ؛ لأن الساحر يحرص على ألا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعمله لأجله إلا احتال على إيصاله إليه . . ." (٥) .

وقال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في معنى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ـ بعد أن ذكر قولين لأهل التفسير في ذلك ـ قال "وأولى القولين بالصواب، قول من قال: أُمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر كل حاسد إذا حسد، فعابه أو سحره، أو بغاه سوءا" (٦) .

والحسد كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " هو تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود" (٧) .

وقال : " ذَكَرَ الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه

(١) تفسر القرآن العظيم ٤ / ٦١٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٦١٤ .
(٣) وهناك أقوال أخرى لابن كثير ولغيره في تفسير الآية .
(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٦١٤ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٢٩ .
(٦) جامع البيان ١٢ / ٧٥١ .
(٧) فتح القدير ٥ / ٧٤٢ ، والقول الأول أن معنى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي (من شر اليهود إذا حسدوه).

تحت العموم لزيادة شرّه ومزيد ضُرّه وهو الفاسق والنفاثات والحاسد.." (١)

هذا بعض ما ذكره أهل التفسير في تفسيرهم لسورة الفلق.

أما معنى قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ فقد قال الرازي ـ رحمه الله ـ أن " المراد به الشيطان، سُمي بالمصدر، كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشُغله الذي هو عاكف عليه.." (٢).

"والوسوسة هي: حديث النفس.. وأصلها الصوت الخفي.. والخناس هو كثير الخنس، وهو التأخير.. وَوُصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء..." (٣)

وهكذا أمر الله نبيه ﷺ أن يتضرع إلى ربه ويلتجئ إليه مستعيذا به من شر المخلوقات ووسوسة شياطين الإنس والجن ـ مع أن الله عز وجل قد غسل قلبه ﷺ من حظ الشيطان (٤)

وفي موضع آخر خاطب الله نبيه ﷺ قائلاً: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون :٩٧] (٥).

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بالتعوذ به من شر المخلوقات ووساوس الشياطين فقد صح أنه «كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه، نفث(٦) في كفيه بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وبالمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده» (٧)

وصحّ أنه كان ﷺ ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات،

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٢) التفسير الكبير ١١ / ٣٧٧.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٧٤٥ باختصار.

(٤) راجع الباب الأول من هذه الرسالة "فقرة شق صدر النبي ﷺ لتطهير قلبه".

(٥) سبق شرح الآية في فقرة سابقة بعنوان (أمر الله لرسوله بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم) في مطلب (تزكية لسان النبي ﷺ).

(٦) نفث: أي بصق بصاقاً خفيفاً عن يساره، وقيل: هو البصاق بلا ريق، يفعل ذلك طرداً للشيطان، واحتقاراً له، واستقذاراً منه، انظر: صحيح البخاري بشرح د. مصطفى البغا ٥ / ٢١٦٩.

(٧) رواه البخاري في ٥ / ٢١٦٩ في كتاب الطب، باب: النفث في الرقية، برقم ٥٤١٦ عن عائشة ﵂، ورواه مسلم في ٤ / ١٧٢٣ برقم ٢١٩٢.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ " ...فلما ثقل (١) كنتُ أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها" (٢)

وكما أمر الله رسوله ﷺ بالتعوذ به من شر كل ذي شرح والتلفظ بذلك ـ تزكية للسانه، وحفظاً لجسده وعقله وروحه وإيمانه ـ فقد أمره أيضاً بالتلفظ بأدعية أخرى، فمن ذلك قوله تعالى في مجال توجيهه لطلب المزيد من العلم النافع: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] (٣)

ومن ذلك قوله تعالى في نهاية سورة المؤمنون: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ١١٨] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أُطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يُسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال" (٤) .

وقال الرازي ـ رحمه الله ـ : " ثم أمر الرسول ﷺ بأن يقول: رب اغفر وارحم، ويُثنى عليه بأنه خير الراحمين.." (٥)

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالتلفظ بدعاء آخر فيه صلاح دنياه وآخرته كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ "...وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: نزلت حين أُمر ﷺ بالهجرة، يُريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ..

---

(١) ثقل: أي اشتد مرض النبي ﷺ واشتكى منه كما في رواية البخاري رقم ٥٤١٦ ورواية مسلم رقم٢١٩٢ .

(٢) رواه البخاري في ٥ / ٢١٦٥ في كتاب الطب، باب: الرقى بالقرآن والمعوذات، برقم ٥٤٠٣ ورواه مسلم في ٤ / ١٧٢٣ برقم ٢١٩٢ .

(٣) قد سبق شرح معنى الآية في فصل التربية العقلية للنبي ﷺ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٧٠ .

(٥) التفسير الكبير ٨ / ٣٠٠ .

وقيل المعنى: أمِتْنِي إماتة صدق ،وابعثني يوم القيامة مبعث صدق، وقيل المعنى: أدخلني فيما أمرتني به وأخرجني مما نهيتني عنه، وقيل إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين .. وقيل المعنى: أدخلني القبر عند الموت مُدخل صدق وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق، وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق، وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله من أمور ؛ فهي دعاء، ومعناها: رب أصلح لي وردى في كل الأمور وصَدَرِي عنها..." (١)

وأيّاً كان معنى الآية فالشاهد أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالتوجه إليه ، والدعاء بصلاح شانه في كل مدخلٍ له ومخرج.

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ ببعض الأدعية القرآنية لتزكية لسانه بالابتهال والتضرع إلى الله ، حتى يثمر ذلك مزيداً من تربيته الإيمانية على مائدة القرآن الكريم، فكان النبي ﷺ يدعو ربه دائماً ـ دعاء المسألة ودعاء العبادة ـ في الصلاة وخارجها ، وفي الليل والنهار، في السّلم والحرب، في حال الأمن والطمأنينة وفي الضيق والشدة، وفي كل وقت وحال، تارة يدعو لنفسه وتارة لأهله، وتارة لبعض أصحابه، وتارة للمسلمين عامة،بل دعا لأعدائه الذين أمعنوا في إيذائه ﷺ (٢).

خامساً: أمر الله لرسوله ﷺ بدوام الاستغفار لــه:

مع أن النبي ﷺ معصوم من الخطأ والوقوع في الذنوب ـ صغيرها وكبيرها ـ بفضلٍ من الله ورحمة، إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أمره في عدد من آيات القرآن ودعاه إلى دوام طلب المغفرة من الله .

وهذا الأمر للنبي ﷺ بالاستغفار لربه لا لذنب وقع منه أو يقع، وإنما هو لحِكَمٍ ومقاصد وعلل أُخرى سنعرض لها في تفسير آيات الاستغفار الخاصة بالنبي ﷺ .

(١) فتح القدير ٣ / ٣٦١ باختصار

(٢) سبق التدليل على الكثير من ذلك في فقرة (إجابة دعاء النبي ﷺ) في المبحث الثاني من الفصل الاول في الباب الثاني ، وسيأتي التدليل على التبعية في فقرة: (أمر الله لرسوله ﷺ بالعفو والصفح الجميل عن الكفار) من المطلب الثاني في المبحث الثاني في الباب الرابع.

أما هو ﷺ فقد قال الله تعالى له: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ١-٢] .

قال محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : " .. وليست إلا مغفرة جميع الذنوب سابقها وما عسى أن يأتي منها مما يَعُدُّه النبي ﷺ ذنباً لشدة الخشية من أقل التقصير، كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.. والمراد بـ ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ تعميم المغفرة للذنب.. فلا يقتضي ذلك أنه فرط منه ذنب، أو أنه سيقع منه ذنب، وإنما المقصود أنه تعالى رفع قدْره رِفْعَةَ عدم المؤاخذة بذنب لو قُدِّر صدوره منه.. " (١)

ومن هنا فإن آيات القرآن الكريم التي دعت النبي ﷺ للاستغفار إنما كان القصد منها دعوته لأداء عبادة الاستغفار كمن يؤدي عبادة الصلاة والصيام ونحو ذلك، وهي جزء من معاني عبودية المرء لربه ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقد تكرر طلب الاستغفار من النبي ﷺ في عدة مواضع في القرآن الكريم، منها ما يتعلق بحوادث معينة عاشرها النبي ﷺ ، ومنها مالا علاقة له بشيء من ذلك ، وإنما جاء الطلب لتحقيق عبودية التوبة والإنابة والأوبة إلى الله .

والآيات التي خاطبت النبي ﷺ ودعته للاستغفار جاءت تارة مقترنة بدعوته للثبات على ما عنده من توحيد الله ، كقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] ، وتارة مقترنة بذكر بعض أسماء الله وصفاته كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٦) ﴾ [النساء :١٠٦] (٢)، وتارة مقترنة بطلبٍ آخر كالتسبيح بحمد الله بكرة وعشياً

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٦ / ١٤٧ باختصار

(٢) وذكر الحاكم في مستدركه ٤ / ٣٨٥ سبب نزولها، وصحح الرواية، ووافقه الذهبي، والرواية طويلة ذكرها الشوكاني في تفسيره في كتابه فتح القدير ١ / ٧٧٢ ـ ٧٧٣ وفيها: " عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر، يهجو به اصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحابُ رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر الا هذا الخبيث، فقال: =

كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر:٥٥] أي في: " أواخر النهار وأوائل الليل " (١)، وتارة مسبوقة بطلب التسبيح لله ـ بشكل عام ـ كما في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾ [النصر:٣]، وتارة مقترنةً بطلب الرحمة كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ⑪⑧ ﴾ [المؤمنون:١١٨].

او كلما قال الرجال قصيدة أضموا فقالوا ابن الابيرق قالها

قال: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة ـ اي الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ـ والمعنى قدمت حمولة من الشام من الدرمك ـ اي الدقيق الحواري، وهو الطحين الأبيض النقي ـ ابتاع الرجل منها فخصَّ بها نفسه ـ أي اشترى لنفسه ـ وأما العيال، فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمِّي رفاعة بن رافع حملاً من الدرمك، فجعله في مشربة ـ اي غرفة مرتفعة قليلاً في الدار لحفظ المؤنة ـ وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يُصلحهما، فعدى عليه من تحت الليل، فنُقبت المشربة، وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن اخي، تعلم ان قد عُدى علينا في ليلتنا هذه، فنُقِّبَت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني ابيرق استوقدوا ناراً في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو ابيرق قالوا ـ ونحن نسال في الدار ـ: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ـ رجلاً منا له صلاح وإسلام ـ فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني ابيرق وقال: أنا اسرق؟! فو الله ليخالطنكم هذا السيف او لتبيِّنُنَّ هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما انت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا بن اخي لو أتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، قال قتادة: فاتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: (**سأنظر في ذلك**)، فلما سمع ذلك بنو ابيرق أتوا رجلاً منهم يقال له اسير بن عروة، فكلَّموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فاتيت رسول الله ﷺ فكلَّمته، فقال: " **عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟** " قال قتادة: فرجعت ولوددت اني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن اخي ما صنعت؟، فاخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث ان نزل القرآن: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ⑩⑤ ﴾ بني ابيرق ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ اي مما قلت لقتادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑩⑥ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء١٠٥ ـ ١١٠. اي لو استغفروا الله لغُفر لهم.

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٦.

وآيات القرآن الكريم التي دعت النبي ﷺ إلى الاستغفار من الذنوب وطلب المغفرة لها عدة مقاصد ومعان:

■ فإما أن المقصود منها: «المغفرة التي اقتضتها النبوة ، أي: سأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة» [(١)]

■ أو أنها أطلقت اسمًا على ما يَفوت من الازدياد في العبادة، مثل أوقات النوم والأكل، وعلى ما عناه النبي ﷺ في قوله : (**إنه ليُغان على قلبي** [(٢)] **وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة** [(٣)]) [(٤)]

■ أو أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بذلك ؛ لأن الاستغفار نوع من أنواع الذكر الذي أمَرَ اللهُ رسولَه به ﷺ ؛ لأن فيه دعاءً ببعض أسماء الله وصفاته كالغفّار والغفور ونحو ذلك.

■ وأما تسميتها بالذنوب في الآيات فهو من باب المحاكاة لما كان يُكثر النبي ﷺ من الدعاء به قائلاً: (**اللهم اغفر لي خطيئتي**) [(٥)] . وإنما كان يقوله ﷺ من باب التواضع.

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بالاستغفار له وأكثر من ذلك طوال حياته، فقد

---

(١) تفسير ابن عاشور ٢٤ / ١٧٠ - ١٧١

(٢) يغان: المراد به ما يتغشى القلب من فترات وغفلات عن الذكر الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عدّ ذلك ذنباً ، والغيم والغين بمعنى واحد، انظرصحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ٢٠٧٥ .

(٣) رواه مسلم ٤ / ٢٠٧٥ في كتاب: الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار، برقم ٢٧٠٢، عن الأغر المزني ورواه الطبراني في المعجم الكبير ١ / ٢٨٠، والبغوي في شرح السنة ٦ / ١٨٠ .

(٤) تفسير ابن عاشور ٢٦ / ١٠٥ .

(٥) رواه مسلم في ٤ / ٢٠٨٧ في كتاب الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شرما عمل..، برقم ٢٧١٩ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ١ / ٢١٠، باب: جماع ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، وذكره برقم ١٤٣، انظر: كتاب الأسماء والصفات لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨هـ) تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، تقديم الشيخ مقبل الوادعي - رحمه الله - ، مكتبة السوادي، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ، جدة، السعودية، والكتاب يقع في مجلدين. والحديث صحيح كما قال الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١ / ٢٧١ برقم ١٢٦٤ .

صحَّ عنه ﷺ أنه كان يقول في المجلس الواحد مائة مرة: (**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**) (١) يتأول قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٨] ، وكان إذا صلى قال في ركوعه: (**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي..**) (٢) ، وإذا انصرف من صلاته: (**استغفر الله .. ثلاثاً..**) (٣)، وإذا جلس مجلساً ، ثم قام منه قال: (**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك..**) (٤) . وكان يستغفر الله في قيامه الليل (٥)

وكان يُكثر من قول:(**سبحانك وبحمدك، استغفرك وأتوب إليك**) (٦) ، وخاصة في آخر حياته بعد نزول سورة النصر. وغيرها من الروايات التي تثبت وتشرح كيفية استغفار النبي ﷺ لربه (٧)

وبهذا كله وغيره يتبين لنا أن النبي ﷺ قد التزم الاستغفار لربه في كل وقت وحين، وفي كل شئون حياته : عبادة ومعاملة، عند أدائه للصلاة وبعدها ـ سواء

---

(١) أخرجه أبو داود في ٢ / ١٧٨ في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار ، برقم ١٥١٦، والترمذي في ٥ / ٤٦١ برقم ٣٤٣٤، وأخرجه الإمام أحمد في ٢ / ٣٠ مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه وذكره برقم ٤٧٢٧، وقال عنه الألباني في السلسلة: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وذكره برقم ٥٥٦، وفي رواية أخرى عند أبي داود بلفظ (التواب الرحيم) ، وذكره في ٢ / ١٧٨ برقم ١٥١٦ .

(٢) رواه مسلم في١ / ٣٥٠ في كتاب الصلاة، باب:ما يقال في الركوع والسجود،برقم ٤٨٤ عن عائشة رضي الله عنها، ورواه أبو داود في ١ / ٥٤٦ برقم ٨٧٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢ / ١٠٧ .

(٣) رواه مسلم في ١ / ٤١٤ في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة ، برقم ٥٩١ عن ثوبان رضي الله عنه ـ ،ورواه البيهقي في السنن الكبرى٢ / ١٨٣، والبغوي في شرح السنة ٣ / ٢٢٤ .

(٤) أخرجه أبو داود في٥ / ١٨٢ في كتاب الأدب،باب في كفارة المجلس برقم ٤٨٥٩، عن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ٥٦٤ برقم ١٩٧١٤ ، وأخرجه الحاكم في ١ / ٤٩٦ في كتاب الدعاء ، عن عائشة رضي الله عنها ـ ووافقه الذهبي رحمهما الله.

(٥) لما ثبت في صحيح مسلم ١ / ٥٣٢ في كتاب : صلاة المسافرين.. ، باب: الدعاء، برقم ٧٦٩ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: (**اللهم لك الحمد.. إلى قوله : فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت..**) .

(٦) رواه مسلم في ١ / ٣٥١ ، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، برقم ٤٨٤ عن عائشة، وأخرجه الطبرانيفي المعجم الكبير ١٠ / ١٩٢ .

(٧) انظر: صحيح مسلم ١ / ٣٥٠، ٤١٤، ٤٩٦، ٥٣٢ ... إلخ.

الفريضة منها أم النافلة ـ وفي المجالس الخاصة والعامة، بعدد معين أو مطلق واستمر على ذلك حتى آخر حياته، حيث أكثر من ذلك إلى أن وافته المنية ﷺ .

وهكذا هو منهج القرآن الكريم في تزكية لسان النبي ﷺ وقوله لتحقيق التربية الربّانية القرآنية الإيمانية له على أحسن وجه وأكمله.

والقرآن كذلك قد وجّه النبي ﷺ لعدة عبادات أخرى يهدف من ورائها إلى تزكيته كله ـ إضافة إلى ما تم من تزكية قلبه ولسانه ﷺ ـ ، وهذا ما أعرض له بالتفصيل في المطلب الثالث كما يلي .

المطلب الثالث

منهج القرآن في تزكية النبي ﷺ بشكل عام

سبق أن شرحت منهج القرآن في تزكية قلب النبي ﷺ ولسانه بشكل خاص، وإذ كان القرآن الكريم قد اهتم بذلك، فإنه قد اهتم أيضاً بتزكية النبي ﷺ بشكل عام، فمع أن الله ـ عز وجل ـ قد شرع العبادات وأوجب أداءها على المسلمين، وفي مقدمتهم محمد ﷺ، ورتّب عليها آثاراً عظيمة في تزكية النفس، إلا أن الله تعالى قد خصّ النبي ﷺ بما أمره عبر آيات القرآن الكريم بالتزام عدة عبادات بدنية روحية تهدف إلى المزيد من تزكيته كله ـ قلباً ولساناً وروحاً ـ بمعنى أن أداءها قد تشترك فيه أكثر من جارحة.

فالهدف من تشريع العبادات هو تحقيق مقصدين اثنين: أصلي وثانوي، أما المقصود الأصلي فهو: تحقيق التوجه والتوحيد لله ـ عز وجل ـ وإفراده بالقصد في كل حال و" إخراج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عباداً لله " (١) وهذا "لا حظّ فيه للمكلف" (٢) أي في الدنيا.

وأما الثانوي التابع للمقصد الأصلي فهو: تحقيق صلاح النفس، واكتساب الفضيلة، وقد "رُوعي في هذا حظ المكلّف" (٣) أي في الدنيا والأخرى.

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: "ولو شاء ـ الله ـ لمنعنا في الاكتساب الأخروي

---

(١) الموافقات ٢ / ٦٣ لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ) تقديم بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط وتعليق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م الخُبر، السعودية، والكتاب يقع في ستة مجلدات، والشاطبي قد ذكر ذلك في حديثه عن النوع الأول في بيان رواة السند قصد الشارع في وضع الشريعة (المسألة الثامنة).

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٠٠، والشاطبي قد ذكر هذا في حديثه عن النوع الرابع: في بيان رواة السند قصد الشارع في دخول المكلف تحت احكام الشريعة("المسألة الثانية).

(٣) نفس المرجع ٢ / ٣٠٢ .

القصد إلى الحظوظ ؛ فإنه المالك ، وله الحجة البالغة، ولكنه رغّبنا في القيام بحقوقه الواجبة علينا، بوعد حظّي لنا، وعجل لنا من ذلك حظوظاً كثيرة نتمتع بها في طريق ما كلفنا به" (١) .

ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ باستمرار تعبده لله حتى يوافيه الأجل المحتوم، كما قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩٩] (٢) أي الموت كما ذكر ابن كثير (٣) وغيره ـ رحمهم الله ـ .

والعبادة كما عرّفها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : "اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة" (٤) .

وقد سبق أن شرحتُ بعض العبادات القلبية واللسانية التي أمر الله نبيه ﷺ بالتزامها تزكيةً لقلبه ولسانه.

وهنا أعرض لعدة عبادات بدنية سلوكية ـ سواء في باب الفرائض أو النوافل مما أمر الله نبيه ﷺ بأدائها والمحافظة عليها تزكية له كلّه ـ بشكل عام ـ ، ويتضح هذا من خلال النقاط التالية:

أولاً: أمر الله لرسوله ﷺ بإقامة صلاة الفريضة وقيام الليل ، وغير ذلك من الصلوات :

قبل أن أشرع في استعراض آيات القرآن التي أمر الله فيها رسوله بإقامة الصلاة، يحسن بنا أن أقدم لذلك بذكر:

أهمية الصلاة وأثرها في تزكية النفس:

فقد افترض الله على المسلمين إقامة الصلاة واعتبرها الركن الثاني من أركان

---

(١) الموافقات ٢ / ٣٠٣ ـ ٣٠٤ بزيادة يسيرة.

(٢) الحجر٩٩، ونحوها في سورة الزمر ٦٦ . قال تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٨٠ .

(٤) العبودية ص١٧ لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ) تعليق: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار الأصالة ، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، الزرقاء، الأردن.

الإسلام من حيث الترتيب ـ وإن كانت الركن الأول من الأركان العملية ـ فالصلاة عماد الدين، وأول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وهي العبادة الوحيدة التي فُرضت دون واسطة، وفي السماوات العُلى ، وتتكرر في اليوم الواحد خمس مرات ـ هذا بالنسبة للفريضة دون النافلة ـ كما أنها " العبادة الوحيدة التي شُرع لها الأذان، وشُيدت لها المساجد، ولا تسقط عن المكلف في حضر ولا سفر، ولا غنى ولا فقر، ولا صحة ولا مرض ولا أمن ولا خوف" (١)

وهي العبادة التي إذا عجز العبد عن أدائها قائماً صلاها قاعداً أو على جنب، وإذا عدم الماء أو عجز عن استخدامه عدل عنه إلى التيمم بالصعيد الطيب، والصلاة " معراج المؤمن إلى ربه ، يناجي بها ربه، ويدعوه، ويستغفره، ويريح بها نفسه، فيجدد بذلك إيمانه .. ويعاود الكدح والنصب في هذه الحياة" (٢)

والصلاة نور كما ثبت في الحديث الصحيح (٣) ، ولها أثر عظيم في حفظ صاحبها من الفواحش والمنكرات ونهيه عنها كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت:٤٥] ، وهكذا إذا أُقيمت على الحال التي أمر الله تعالى ويحب ويرضى.

ولذلك " فإن أهل المساجد ـ غالباً ـ هم أفاضل الناس وأحاسنهم وأخلاقاً .. وما كان بهم من عُيوب أو ذنوب فعند سواهم أضعاف ما عندهم" (٤) .

وقد حكم الله بالفلاح والنجاح للمصلين المتصفين بما وصفهم الله به من الخشوع، والإعراض عن اللغو..الخ، قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)** ﴾ [المؤمنون : ١-٢].

(١) منهج الإسلام في تزكية النفوس ١ / ٢٠٨، د. انس احمد كرزون.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام ص٢٠، د. أكرم ضياء العمري .

(٣) لقوله ﷺ فيما رواه مسلم ١ / ٢٠٣ في كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء برقم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ : (الطهور شطر الإيمان ... والصلاة نور) .

(٤) الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس، ص٣٢ بتصرف يسير، حسن العوايشة، المكتبة الإسلامية ط٢، ١٤١٣هـ عمّان ، الاردن.

والصلاة مظهر بارزٌ ومعلم واضح لامتثال العبد لله ـ عز وجل ـ ، بل هي عنوان استجابة العبد لربه، ودليل الخضوع والاستسلام له والإنابة إليه وإيثار مرضاته على هوى النفس ومشاغل الحياة ، وفيها تجتمع عبادات القلب واللسان وسائر جوارح بدن الإنسان، فمن عبادات القلب في الصلاة : الإخلاص والخشية (١) والخشوع (٢) ، وإظهار كمال الذلة، وحضور القلب والتدبر.

ومن عبادات اللسان في الصلاة : جميع أنواع الذكر من استعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وتلاوة القرآن، واستغفار الرحمن ؛ وتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله والدعاء والثناء عليه.

ومن عبادات البدن كله في الصلاة: القيام والقعود والركوع والسجود، بل إن بعضاً من أركان الإسلام غير الصلاة تؤدى في الصلاة ؛ ففي الصلاة يتكرر ذكر الركن الأول وهو النطق بالشهادتين.

ولهذا كله عظيم الأثر في تهذيب وتزكية نفس الإنسان وقرب العبد من ربه ـ وخاصة عند السجود ـ فكلما سجد كلما اقترب لربه، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ (٣) . والصلاة سبب في تحقيق طهارة العبد من الأدناس الحسية والمعنوية، فيزداد إيمان العبد، وهذا ما عبّر عنه النبي ﷺ في قوله: **(الطهور شطر الإيمان)** (٤) .

---

(١) الخشية هي: الخوف الذي يشوبه تعظيم وإجلال، أو هي: تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل. انظر: المفردات للراغب ١٤٩ .

(٢) الخشوع: هو ما سبق وزيادة الانقياد والخضوع والسكون والذل والحب، قال ابن القيم: «والحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار». انظر: مدارج السالكين ١ / ٥٥٨ ـ ٥٥٩ بتصرف يسير.

(٣) لقوله ﷺ فيما رواه مسلم ١ / ٣٥٠ في كتاب الصلاة ، باب: ما يقال في الركوع والسجود، برقم ٤٨٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) .

(٤) رواه مسلم ١ / ٢٠٣ في كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، برقم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، وورواه الطبراني في المعجم الكبير ٣ / ٣٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى ١ / ١٠ .

فقد اعتبر طهارة العبد من النجاسات والقذارات شطر الإيمان ـ أي نصفه ـ ، واعتبر النبيُّ ﷺ إسباغ الوضوء على المكاره (١) أي إتقان الوضوء ـ أحد أسباب محو الخطيئات ورفع الدرجات (٢)

وبعد أن شرحت شيئاً من أهمية الصلاة وأثرها في تزكية النفس ، فلا عجب أن تتكرر آيات القرآن الكريم تحث النبي ﷺ وتأمره بإقامة الصلاة ـ سواء صلاة الفريضة أو نافلة الليل ـ وذلك في أكثر من موضع، كما يتضح من بعض النصوص القرآنية التي أمرت النبي ﷺ بإقامة صلاة الفريضة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود : ١١٤] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عن الآية: " المراد بالصلاة هنا الصلاة المفروضة، فالطرفان ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة.. "ولما تَعيّنَ الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدة من الزمان" (٣) كان ذلك مجملاً، فَبَيَّنتهُ السُّنَّة والعمل المتواتر بخمس صلوات، هُن: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء (٤) " (٥)

---

(١) **المكاره**: جمع مكره، وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، والكُره بالضم والفتح، والمعنى أن يتوضأ مع البرد الشديد والعلل التي يتأذى معها بمس الماء، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ، ١ / ٢١٩ . ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٣ / ٣٢٢، والبيهقي في السُنن الكبرى ١ / ١٠ .

(٢) لقوله ﷺ فيما رواه مسلم ١ / ٢١٩ في كتاب: الطهارة ، باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره برقم٢٥١ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**) قالوا : بلى يا رسول الله، قال: (**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ،فذلكم الرباط**).

(٣) هكذا في الأصل ولعل الأصح: ولما تعيّن وجوب إقامة الصلوات المأمور بها في الآية في هذه المدة من الزمان...الخ" .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١٢ / ١٧٩ .

(٥) وقد ذكر ابن عاشور المرويات من الأحاديث عند البخاري والترمذي عن هذه الآية وأن رسول الله ﷺ تلاها على رجل أصاب من امرأة قبلة حرام، وأن الآية عامة لمن عمل بها من كل أمة محمد ، ثم أيّد ابن عاشور قول القائلين: أن الآية مكية وردّ على القائلين بأنها مدنية وأوّل ما استدلوا به، فليُراجع في موضعه في التحرير والتنوير ١٢ / ١٨٠ .

ومن الآيات التي أمر الله فيها رسوله ﷺ بإقامة الصلوات الخمس (١) قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء : ٧٨] .

قال الشوكاني - رحمه الله - : "وقد أجمع المفسرون على أن المراد بهذه الآية الصلوات المفروضة" (٢)

ومن المعلوم أن الصلوات الخمس لم تُفرض إلا ليلة الإسراء والمعراج، وأن النبي ﷺ لم يُصلِّ أوّل صلاة من الصلوات الخمس إلا صبيحة ليلة الإسراء والمعراج(٣).

كما قال ابن حجر - رحمه الله - حيث قال: "قال نافع بن جبير(٤) وغيره: لمّا أصبح النبي ﷺ من الليلة التي أُسري به لم يرُعْهُ (٥) إلا جبريل ﷺ نزل حين زاغت الشمس، ولذلك سُمّيت الأولى - أي صلاة الظهر - فأمر فصيح بأصحابه: الصلاة

---

(١) من هذه الآيات قوله تعالى في سورة [العنكبوت: ١٤٥] : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٣٥٨ بتصرف يسير

(٣) لما رواه البخاري بسنده في ١ / ١٩٥ في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ برقم ٤٩٩ عن ابن شهاب «أن عمر بن عبد العزيز أخّر الصلاة يوماً، فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيره بن شعبة ﷺ أخر الصلاة يوماً، وهو بالعراق، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل ﷺ نزل فصلّى، فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى، ثم قال : (بهذا أمرت) فقال عمر لعروة : اعلم ما تُحدث أو إن جبريل ﷺ هو أقام لرسول الله ﷺ وقت الصلاة..»

(٤) هو نافع بن جبير بن مطعم بن عدي.. أبو محمد ويقال أبو عبد الله المدني ، روى عن أبيه والعباس بن عبد المطلب والزبير بن العوام وغيرهم ﷺ .. روى عنه عروة بن الزبير وعتبة بن مسلم وغيرهما.. وكان ثقة.. قال الذهبي نقلاً عن العجلي: " مدني تابعي ثقة.. وقال ابن خراش: ثقة مشهور أحد الأئمة"، من خيار الناس كان يحج ماشياً وناقته تقاد.. مات سنة تسع وتسعين هجرية في خلافة سليمان بن عبد الملك.
انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ١٠ / ٤٠٤ - ٤٠٥، وتقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ٢ / ٢٣٧، ترجمة رقم ٧٠٩٨، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤ / ٥٤١ .

(٥) يرعه : أي يخيفه ويفزعه أو يفجاه ، ماخوذ من الروع، والروعة ، الفزعة ، انظر لسان العرب ٨ / ١٣٥، مادة : روع .

جامعة، فاجتمعوا ، فصلّى به جبريل عليه السلام ، وصلّى النبي ﷺ بالناس(١) " (٢)، هذه أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ من الصلوات الخمس ، وأما صلاته قبل الإسراء والمعراج إنما كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها (٣)

وتذكر بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يخرج مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى شعاب مكة يصليان سراً (٤)

وصحّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر" (٥)

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحديث: "والذي يظهر لي .. أن الصلوات فُرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ، ثم زيدت بعد الهجرة إلا الصبح" (٦) .

وكان النبي ﷺ في مكة يصلي نحو بيت المقدس، فكان يقف بين الركنين اليماني والأسود، فيجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس (٧) ، وبعد هجرته إلى المدينة بستة عشر أو سبعة عشر شهراً تحوّل إلى الكعبة المشرفة فقط عند نزول قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

وأما أوّل صلاة جُمعة صلاها رسول الله ﷺ، فقد كانت في المدينة المنورة كما قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: "واختُلف في وقت فرضيتها،فالأكثر على أنها فُرضت

---

(١) فتح الباري٢ / ٤ .

(٢) وزاد ابن حجر فقال: «وفيه رد على من زعم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة، والحق أن ذلك وقع قبلها ببيان جبريل، وبعدها ببيان النبي ﷺ» انظر الفتح٢ / ٤ .

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١ / ٢٧٧ بتعليق وتخريج عمر عبد السلام تدمري.

(٤) انظر: الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام٣ / ٨ للمحدث عبدالرحمن السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ)، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، ط(بدون) ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، القاهرة، مصر، والكتاب يقع في سبعة مجلدات.

(٥) رواه البخاري ١ / ١٣٧ في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء، برقم ٣٤٣ عن عائشة رضي الله عنها، ورواه مسلم ١ / ٤٧٨ برقم ٦٨٥ .

(٦) فتح الباري ١ / ٤٦٤ .

(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ٩ ـ ١٠ .

بالمدينة وهو مقتضى... الآية المذكورة ، وهي مدنية" (١) .

ويقصد رحمه الله بالآية قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ . [الجمعة : ٩] .

وقد التزم النبي ﷺ بإقامة صلاة الفريضة، وحافظ عليها، .. وتعلق قلبُه بها وانشرح صدره لها حتى قال لبلال ـ رضي الله عنه ـ : (**يا بلال ، أقم الصلاة ،أرِحْنا بها**)(٢). وقال : (**وجُعل** (٣) **قرة عيني في الصلاة** (٤)) " (٥)

والنبي ﷺ قد أخذ حظه من التربية الإيمانية أيضاً عبر قيام الليل امتثالاً لأمر الله له القائل في محكم آياته: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل : ١-٤] .

وقد كان نزول هذه الآيات المكية في أوائل عهد النبوة ، واستمر قيام الليل واجباً في حقه ﷺ دون أُمته ، مع أن الصحابة صلّوا معه حولاً كاملاً كما ثبت في الأحاديث الصحيحة (٦) .

---

(١) فتح الباري ٢ / ٣٥٤ .

(٢) رواه أبو داود في ٥ / ٢٦٢ في كتاب: الأدب ، باب في صلاة العتمة، برقم٤٩٨٥ عن سالم بن أبي الجعد عن مسعر ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣ / ٩٤١ ، وذكره برقم ٤١٧١، وروى الطبراني في معجمه الكبير ٦ / ٣٤٠نحوه، وكذا الهيثمي في المجمع ١ / ١٤٥ .

(٣) في بعض الروايات: وجُعلت ، انظر: سنن النسائي ٧ / ٧٢ بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي.

(٤) رواه النسائي في ٧ / ٧٢ في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء برقم ٣٩٤٩، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه الحاكم في مستدركه٢ / ١٦٠ في كتاب:النكاح، وقال:صحيح على شرط مسلم،ووافقه الذهبي.

(٥) ومن الآيات التي أمرالله فيها رسوله ﷺ بأداء الصلاة ما يتعلق بصلاة العيد ، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] .

(٦) لما رواه مسلم في١ / ٥١٢ في كتاب:صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة الليل،برقم ٧٤٦ عن قتادة رضي الله عنه، أن سعد بن هشام أراد أن يغزو في سبيل الله.. والحديث طويل وفيه أن سعد بن هشام قال: فقلت أي لعائشة انبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت: الست تقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله وأصحابه حَولاً ـ أي سنة ـ ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة..." .والشاهد من الرواية السابقة، أن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ وصحابته ثم صار تطوعاً في حقهم وبقى و اجباً في حقه كما أفاد ذلك ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره ٤ / ٤٦٣ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآيات السابقة: "وكذلك كان ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده" (١)

وقد تكرر الأمر للنبي ﷺ بقيام الليل في أكثر من آية، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

[الإسراء:٧٩] .

وقد وضّحت آيات القرآن الحكمة العظيمة من قيام الليل،والثمار التي يجنيها من قام الليل لربه ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ .

[المزمل : ٦] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "إن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرّك ـ ويقصد محمداً ﷺ ـ ، وارتقاءً بك إلى المراقي الملكية" (٢) .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: "والمقصود أن قيام الليل هو أشد مُواطاة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة.. وهو ـ أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه ـ أي النهار ـ وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش..." (٣)

ومن هنا حثّ جبريل ـ عليه السلام ـ النبي ﷺ على قيام الليل حيث سكون الحياة، وهَدأة الخلق، والتفرغ من الشواغل ، والتوجه للذكر والمناجاة لرب العالمين.

فقد صحّ أن "جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: **«يا محمد ،عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس»** (٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٦٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٤ .

(٤) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٣٤٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ١ / ٤٣١، ورواه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨٣١ .

وهكذا فإن لقيام الليل من الأسرار والفوائد التي يجنيها الإنسان، والراحة النفسية التي يجدها ما لا يتسع المقام لذكره (١)، وما لا يُدركه إلا أهل الليل، إنه "إعداد للرجال ، وتثبيت للقلوب على الحق، وزيادة في قوة الإيمان" (٢) .

وهو دليل انتصار ذوي العزائم والإيمان القوى على هوى النفس ورغبتها في النوم وراحة الجسد، ودليل تعلق القلب بالله والشوق والانتظار للقائه بالاستعداد له قبل النوم،وعلامة إيثار العبد لمرضاةالله ومحبته على رغبةالذات وهوى النفس.

والله ـ عز وجل ـ قد وصف أهل قيام الليل بأعلى مراتب الإسلام وهي الإحسان، ووعدهم على ذلك بجنات وعيون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⁽١٥⁾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ⁽١٦⁾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⁽١٧⁾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽١٨⁾﴾ [الذاريات:١٥-١٨] .

ويكفي أن النبي ﷺ نص على أن (**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**)(٣)، فلا عجب بعدها أن "يقف النبيﷺ بين يدي مولاه لحظات خاشعة، يُخفف بها عن نفسه من هموم الحياة و متاعبها، ويُغذّي الجانب الروحي من كيانه، ذلك الجانب الذي لا تغذيه إلا معرفة الله ، وحُسن الصلة به، ودوام مناجاته بخشوع ودعاء وتذلل وتقرب" (٤)

ففي صلاة الليل يكثر السجود ويطول، وهذا مما يُحبِّب العبد إلى ربه ويُقرِّبه إليه، وفي السجود حريٌّ أن يُستجاب الدعاء للعبد إذا استجمع صاحبه شروط

---

(١) من ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الحاكم ١ / ٣٠٨ وسكت عنه الذهبي أن رسول الله ﷺ قال: (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاه عن الإثم، وتكفير للسيئات،ومطردة للداء عن الجسد).

(٢) الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان ص٣٧، حسين العوايشة، بتصرف يسير.

(٣) رواه مسلم في ٢١ / ٨٢١ في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم ، برقم ١١٦٣ عن أبي هريرة ﷺ ، ورواه أبو داود في ٢ / ٨١١ ، ورواه البيهقي في السُنن الكبرى ٤ / ٢٩١، ونص الحديث :(أفضل الصيام بعد رمضان شهر المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل).

(٤) العبادة في الإسلام ص٢١٦، د. يوسف القرضاوي، بتصرف وزيادة يسيرة.

ذلك، وفي صلاة الليل يكون البكاء والتذلل من العبد لربه والاعتراف بربوبية الله وألوهيته وتفرده في أسمائه وصفاته، وفي صلاة الليل يطول القيام والقنوت فتكثر تلاوة الآيات فيزيد الإيمان، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢]، وصلاة الليل أقرب إلى الإخلاص لانتفاء دواعي الرياء بخلو العبد عن أعين الناس.

لهذا كلّه وغيره قام رسول الله ﷺ أكثر الليل وبعضه، وقد صحّ: "أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! ، فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً) " (١) .

" وكان ﷺ إذا قام من الليل ليصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين" (٢) ، وعدد الركعات التي يصليها في ليلته ثلاث عشرة ركعة مع هاتين الركعتين الخفيفتين كما ثبت في الصحيح (٣) .

وكان يستفتح صلاته بقراءة خواتيم سورة آل عمران (٤) وبعض الأدعية التي ثبتت في الصحيح (٥) .

---

(١) رواه مسلم في ٤ / ٢١٧١ في كتاب: المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم ٢٨١٩ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ٣٤٧ برقم ١٨٢٠٥ ، والبيهقي في السُّنن الكبرى ٢ / ٤٩٧ .

(٢) رواه مسلم ١ / ٥٣٢ في كتاب: صلاة المسافرين ، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم ٧٦٧ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، ورواه البيهقي ٣ / ٦، وذكره المتقي الهندي في الكنز برقم١٧٩٨٦ .

(٣) لما رواه مسلم ١ / ٥٣١، في كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم ٧٦٥ عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: "لأرمقن ـ أي لأُطيلنّ النظر ـ صلاة رسول الله ﷺ الليلة، فصلى ـ أي رسول الله ﷺ ـ ركعتين خفيفتين ، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين ، وهما دون اللتين قبلهما، ثم أوتر، فذلك ثلاث عشرة ركعة" .

(٤) لما رواه مسلم ١ / ٥٣٠ في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل، برقم ٧٦٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رقد عند رسول الله ﷺ فاستيقظ ـ أي رسول الله ﷺ ـ فتسوّك وتوضأ وهو يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .... إلخ [آل عمران : ١٩٠] ، فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة.

(٥) انظر: صحيح مسلم ١ / ٥٢٥ ـ ٥٣٨ .

وتذكر الروايات الصحيحة " عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: صلّيتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلتُ: يركع بها [١]، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلاً [٢]، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركع فجعل يقول: (**سبحان ربي العظيم**)، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: (**سمع الله لمن حمده**)، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال: (**سبحان ربي الأعلى**) فكان سجوده [٣] قريباً من قيامه" [٤] .

وقد بلغ طول قيام النبي ﷺ درجة كاد عندها ابن مسعود ـ حينما كان يصلي مع رسول الله ﷺ ـ في إحدى الليالي أن يجلس ويترك النبي ﷺ قائماً [٥]

والشاهد من كل ما سبق أن المتأمل في صلاة رسول الله ﷺ ـ الفريضة أو نافلة الليل أو غيرها من النوافل ـ يجد أن النبي ﷺ كان يسجد لربه أكثر من ثمانين سجدة في اليوم والليلة، ويؤدي في صلاته من الطاعات الشيء الكثير والعظيم من التلاوة والدعاء والثناء لرب العالمين وطول القيام والركوع والسجود وغير ذلك،

---

(١) قال النووي في شرحه لهذا الحديث في٦ / ٦١ قوله: " فقلت يصلي بها في ركعة" معناه ظننت انه يسلم بها ، فيقسمها على ركعتين، واراد بالركعة الصلاة بكمالها وهي ركعتان، ولابد من هذا التاويل فينتظم الكلام بعده، و على هذا فقوله : " ثم مضى" معناه: قرا معظمها بحيث غلب على ظني انه لا يركع الركعة الاولى بها، فجاوزها وافتتح النساء.. " .

(٢) مترسلاً: اي متمهلاً ، والترسل هو التحقيق بلا عجلة ، انظر لسان العرب ١١ / ٢٨٣ .

(٣) ورد في صحيح البخاري ١ / ٣٧٨ في كتاب التهجد، باب طول السجود في قيام الليل عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة : " ان رسول الله ﷺ كان يصلي إحدى عشرة ركعة، كانت تلك صلاته، يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ احدكم خمسين آية قبل أن يرفع راسه... " .

(٤) رواه مسلم ١ / ٥٣٦ في كتاب: صلاة المسافرين ، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم٧٧٢ .

(٥) لما رواه البخاري ١ / ٣٨١ في كتاب: التهجد، باب: طول القيام في صلاة الليل ، برقم١٠٨٤ عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: "صليتُ مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائماً حتى هممتُ بامر سوء، قلنا: وما هممت ؟ ، قال: هممت أن اقعد واذر النبي ﷺ " .

وكل هذا لا شك يزيد في إيمانه ويُقوي صلته بربه ﷺ (١)

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بالإنفاق في سبيل الله على ذوي القربى والمحتاجين:

من المعلوم أنه في إخراج الإنسان من ماله شيئاً للفقراء والمساكين أو المحتاجين بشكل عام عدة فوائد تعود على صاحب المال المعطي وعلى الآخذ من أفراد المجتمع ، فلا يمكن للإنسان أن يعالج ما عنده من بخل وطمع وتعلّق بالدنيا وزينتها، وأنانية وأثرة وغير ذلك إلا من خلال تربية النفس ببذل الصدقة التي تطفئ غضب الرب وتمحو السيئات وتوفر الحسنات وتزكي النفس،كما قال تعالى آمراً نبيه ﷺ بأخذ الصدقة من المؤمنين لتطهيرهم، وتزكيتهم بها: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ .

[التوبة : ١٠٣] .

وبالصدقة يستغني الفقير،ويعز الذليل،ويشبع الجائع،ويكتسي العاري، ويُداوى المريض، ويأمن الغني على ماله،وتنتشر الرحمة والمحبة،وتقوى الرابطة بين أفراد المجتمع، وغير ذلك من فوائد الصدقة التي تعود آثارها على الفرد والمجتمع.

ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ بممارسة هذه العبادة مع المحتاجين من قرابته وسائر المسلمين أجمعين ـ زيادة في تزكيته ورفع درجته ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وقال سبحانه: ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم : ٣٨] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: " .. والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته .. وأمر

---

(١) ذكر محمد أحمد الراشد "الداعية الإسلامي والمربي المشهور" في كتابه: الرقائق، بيتين من الشعر فيهما الحث على قيام الليل ، قال فيهما:

يا رجال الليل جُدّوا رُبَّ داعٍ لا يُـــردُّ
لا يقــوم الليــل إلا مــن لـه عـزم وجـدُّ

بإيتاء ذي القربي لقرب رحمه، وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم..." (١)

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ قول من قال بأن الآية منسوخة بآية المواريث، وقول من قال بأنها ليست منسوخة ، وأيدّه ، وقال: "وهو الصحيح" (٢) .

وقال ـ رحمه الله ـ : "وقيل المراد بالقربى أقرباء النبي ﷺ .. وقيل أن الأمر بالإيتاء لذي القربى على جهة الندب" (٣)

وذكر أقوالاً أخرى كثيرة لا حاجة لنا بذكرها هنا،والشاهد أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالإنفاق في سبيل الله على المحتاجين من أقربائه وغيرهم كالمسكين الذي " لا شيء له.. يقوم بكفايته،وابن السبيل الذي انقطعت به نفقته عن بلوغ غايته" (٤).

فكل هؤلاء أمر اللهُ رسوله ﷺ بالإنفاق عليهم قدر استطاعته، وأن يكون هذا الإنفاق لوجه الله ، وبهذا يكون فلاح العبد في الدنيا بتزكية نفسه، وفي الآخرة بأن يُظِلّه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه ـ بمشيئته ورحمته سبحانه وتعالى ـ .

ثالثاً: أمرُ الله لرسوله ﷺ بجهاد الأعداء وقتال الكفار:

توالت آيات القرآن الكريم التي أمر الله فيها المسلمين وحثّهم على جهاد الكفار باللسان والسنان (٥) ، وهناك آياتٌ أخرى تنزّلت على محمد ﷺ يأمره الله فيها بجهاد الأعداء وقتال الكفار.

وقبل أن أعرض لها أُعرِّف الجهاد كما عرّفه بعض أهل العلم، فقيل في تعريفه هو: "استفراغ الوسع في مدافعة العدو"(٦)،وقيل هو"الدعاء إلى الدين الحق"(٧).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٥ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٤٤ بتصرف يسير .
(٥) وعددها يتجاوز الخمسين آية .
(٦) مفردات الراغب للأصفهاني ، ص١٠١ .
(٧) التعريفات للجرجاني ص٨٤ .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : الجهاد هو بذل الجهد في قتال الكفار، ويُطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفساق" (١)

والذي يعنينا هنا هو ما نزل من آيات خاصة بالنبي ﷺ يأمره الله فيها بجهاد الكفار وقتالهم، فمن المعلوم أن القتال في سبيل الله لم يُشرع إلا في المدينة المنورة عندما قامت دولة الإسلام وقويت شوكة المسلمين.

ولهذا فمعظم آيات الجهاد والقتال إنما كانت في السور المدنية ، ولم ينزل في السور المكية آياتٌ تدعو رسول الله ﷺ إلى جهاد الكفار إلا قوله تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي جاهدهم بالقرآن ، واتل عليهم ما فيه من القوارع والزواجر والأوامر والنواهي. . والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة" (٢)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " . . وبعد أن حذّر الله رسوله ﷺ من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها، وعبّر عن ذلك بالجهاد ، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة، وصيغة المفاعلة فيه ليُفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعُف، ولذلك وُصف بالجهاد الكبير، أي الجامع لكل مجاهدة. . والمعنى: قاومهم بصبرك، وكِبر الجهاد تكريره والعزم فيه. . " (٣)

إذاً المفهوم من تفسير الآية السابقة أن الجهاد الذي أمر الله به رسوله ﷺ في مكة ، إنما كان المقصود به جهاد الكفار بالدعوة والاستمرار في تلاوة القرآن وإقامة الحجة عليهم والصبر والمقاومة لإيذائهم، ولم يكن المراد به القتال وسفك الدماء، وهذا ما دلّت عليه السيرة النبوية.

وهناك آيات أخرى أمر الله فيها رسوله ﷺ بجهاد الكفار وذلك في العهد

---

(١) فتح الباري ٦ / ٥ .
(٢) فتح القدير ٤ / ١١٧ ـ ١١٨ بتصرف وزيادة يسيرة .
(٣) تفسير التحرير والتنوير ١٩ / ٥٣ بتصرف وزيادة يسيرة.

المدني، وفي سورٍ مدنية، فمن ذلك قوله تعالى في سورة التوبة المدنية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)** ﴾ . [التوبة :٧٣] .

قال الشوكاني - رحمه الله - : "الأمر للنبي ... بالجهاد... وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يُسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله ... (١) " (٢)

وفي آية أخرى أمر الله رسوله ﷺ بقتال الكفار - صراحة - بلفظ ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النساء : ٨٤] .

قال ابن عاشور - رحمه الله - : " .. فالآية أوجبت على الرسول ﷺ القتال، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه.. فهو أمرٌ للقدوة بما يجب اقتداء الناس به فيه.." (٣) .

والنبي ﷺ قد امتثل لربه في تنفيذ الأوامر السابقة ، فجاهد في سبيل الله حق جهاده، وقاتل الأعداء والكفار، وقارع المنافقين وأهل الكتاب حتى قامت الخلافة الإسلامية على يديه ﷺ، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، وخرجت جيوش الجهاد في بلاد الله تدعو إلى الدين الحق ، وتزيل العقبات من أمام أهل الشرك ليصل التوحيد إليهم.

وقد بلغت غزوات رسول الله ﷺ تسع عشر غزوة، قاتل في ثمان منها (٤)

---

(١) فتح القدير ٢ / ٥٥٦ .

(٢) قال ابن عاشور في تفسيره ١٠ / ٢٦٦ : "فالجهاد المامور للفريقين مختلف - اي الكفار والمنافقين - فاما جهاد الكفار فبالقتال واما جهاد المنافقين بالفعل - اي بالقتال - فمتعذّر ؛ لانهم غير مظهرين الكفر، ولذا تاول اكثر المفسرين الجهاد بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها، وكان غالب من اقيم عليهم الحد في عهد النبوة من المنافقين.." انتهى بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) التحرير والتنوير ٥ / ١٤٢ - ١٤٣

(٤) لما رواه مسلم ٣ / ١٤٤٨ في كتاب: الجهاد والسير، باب: عدد غزوات النبي ﷺ ، برقم ١٨١٤، عن بريدة عن ابيه - رضي الله عنه - قال: « غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منهن » .

وقال ﷺ : (**والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيبُ أنفسهم أن يتخلفوا عني،ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلّفتُ عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددتُ أني أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل**) (١)

وقد أُصيب رسول الله ﷺ في بعض الغزوات وهو يجاهد في سبيل الله حتى قال لأصبعه عندما سال الدم منه: " **هل أنتِ إلا إصبع إن دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ**" (٢) ، وثبت أن وجهه جُرح في يوم أُحد ، وكُسرت رَباعيَّتُه (٣)، وسالت الدماء منه ﷺ (٤)

وقد بلغت شجاعته ﷺ في جهاده في سبيل الله أن أعلن عن نفسه في غزوة حنين، في وقتٍ ولّى فيه المسلمون مدبرين ، فكان يقول ﷺ : " **أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب** " (٥)

وأهل الكفر حينها ـ هوازن وهم قوم رماة ـ يبحثون عنه، فلا يأبه لأحد، بل لقد كان ﷺ في جهاده في سبيل الله مضرب الأمثال في الشجاعة حتى أقسم البراء ـ رضي الله عنه ـ فقال: " كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به، وإن الشجاع منا للّذي يحاذي به ـ يعني النبي ﷺ ـ (٦) " (٧) .

---

(١) رواه البخاري ٣ / ١٠٣٠ في كتاب: الجهاد، باب: تمنى الشهادة، برقم ٢٦٤٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٦٦٥ برقم ١٠٥٠٢ .

(٢) رواه البخاري ٣ / ١٠٣١ في كتاب الجهاد، باب: من يُنكب في سبيل الله، برقم ٢٦٤٨، عن أنس رضي الله عنه ، ورواه مسلم في ٣ / ١٤٢١ .

(٣) رباعيته: بفتح الراء، والرباعية هي إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا بين الثنية والناب،والجمع رباعيات . انظر: لسان العرب ٨ / ١٠٨ مادة ربع.

(٤) لما رواه مسلم ٣ / ١٤١٧ برقم ١٧٩١ عن أنس رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحُد وشُج في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ـ اي يمسحه ـ ..." .

(٥) رواه مسلم ٣/١٤٠٠ في كتاب الجهاد ، باب : في غزة حنين برقم ١٧٧٦ ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وروواه البخاري في ٣/١٠٥١ ـ ١٠٥٢ .

(٦) رواه مسلم ٣/١٤٠١ ، في كتاب الجهاد والسير ، باب : في غزوة حنين برقم ١٧٧٦ ، وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة برقم ٥٨٩٠ .

(٧) سنفصل القول عن شجاعة رسول الله ﷺ في فقرات قادمة.

ولا شك أن في امتثال رسول الله ﷺ لأمر ربه له بجهاد الأعداء وقتال الكفار في سبيل الله عدة فوائد وثمار إيمانية،فالجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال[١]، وفيه إخراج وإنفاق المال في سبيل الله ، وتعريض النفس إلى مفارقة الأهل والولد، ومفارقة المألوف والمحبوب، والتعرض للجراح والموت، وصاحبه يحتاج إلى توكلٍ على الله ، وحسن ظن به، واستعانة واستغاثة بالله عز وجل وإكثار من ذكر الله والاتصال به، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

والجهاد يحتاج فيه المجاهد إلى صبر وثبات كما نصّت عليه الآية السابقة، ولابد لصاحبه أن يحتسب ما يصيبه في سبيل الله ، وأن يخلص لله .

وفي الجهاد تتجلّى معاني الأخوة والإيثار للمؤمنين، والإثخان للكافرين والحذر والحيطة منهم، وفيه يخاف المرء فيلجأ إلى الله ، ويعتصم به ويدعوه، وفيه يتعلم المرء بذل الروح والجهد والوقت والصحة في سبيل الله ، والفرار إلى الله ، وفيه يتعلم المجاهد مراقبة الله فلا يَغُلُّ[٢] ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

وفيه أيضاً يزداد يقين الإنسان بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وأن القتال لا يُقدّم أجلاً ولا يقطع رزقاً، وأن لكل نفس أجلاً مسمّى، وإنما الأرواح بيد الله سبحانه وتعالى، وفي الجهاد يتحقق تمحيص القلوب واختبار النفوس في صدق بيعها ذاتها لله .

هذه بعض الحِكَم العظيمة من تشريع الجهاد والقتال في سبيل الله ، وكلّها تحقق مزيداً من التربية الإيمانية لصاحبها.

(١) لما ثبت في الحديث الصحيح عند مسلم ١ / ٨٩، في كتاب الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، برقم ٨٤، عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: " قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل؟، قال: (الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله) .

(٢) يغل: أي يأخذ من الغنيمة بغير وجه حق (خيانة). تفسير ابن كثير ١ / ٤٣٠ بزيادة .

كما أن الجهاد في سبيل الله " يحرر النفس من حب الحياة والتعلق بها.. والبحث عن الدّعة والسلامة، ويدرب النفس على الفداء والتضحية، واحتقار الدنيا ومتاعها... ويدفع المرء لحياة عزيزة" (١)

وهذا كله من ثمار التربية الإيمانية التي نالها النبي ﷺ بامتثاله أمر ربه بجهاد الأعداء وقتال الكفار.

رابعاً: أمر الله لرسوله ﷺ بمجالسة المؤمنين والابتعاد والحذر من الكافرين:

من المعلوم أن الإنسان يزداد إيماناً ورقة في القلب وتنشط جوارحه للطاعة كلما عاش في بيئة إيمانية (٢)، والعكس صحيح، فكلما أحاطت بالمرء عوامل الشر والإفساد من ذوات وأدوات كلما ضعف إيمانه وسلك طريق الشر (٣).

ولذلك صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**) (٤)

والنبي ﷺ، مع أنه معصوم من الخطأ والغواية، وهو سبب للإرشاد والهداية، إلا أن الله تعالى أمره في أكثر من آية بالتزام صُحبة أهل الإيمان والتقوى، ليعيش في بيئة إيمانية صالحة مع ما عنده من إيمان عظيم، وليكون محيطه مُتشبعاً بعوامل صلاح القلب والذكر لله والنشاط للعبادة، فقد أمره الله تعالى بمصابرة نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، قال ـ سبحانه ـ : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ**

---

(١) منهج الإسلام في تزكية النفوس ١ / ٢٩٢ وما بعدها باختصار وتصرف يسير.

(٢) ويدلل على هذا حديث قاتل التسعة والتسعين حيث أشار عليه العالم (أعلم أهل الأرض) في زمانه بالذهاب إلى أرض كذا وكذا؛ لأن بها أناساً يعبدون الله فليعبد الله معهم ولا يرجع إلى أرضه. انظر: الترغيب والترهيب٤ / ١٠١ حديث من قتل التسعة والتسعين نفساً برقم ٢٨عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ويدلل على هذا قوله تعالى عن حال بعض الخاسرين يوم القيامة: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ الآية الفرقان٢٧ ـ ٢٩ .

(٤) رواه مسلم في ١ / ٤٦٤ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، برقم ٦٧١، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٣ / ٦٥ والبغوي في شرح السنّة ٢ /٣٤٦ .

مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

[الكهف : ٢٨] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويُهللونه، ويحمدونه، ويُسبحونه، ويُكبِّرونه..." (١)

ففي هذه الآية أمرٌ للنبي ﷺ بمجالسة ومصابرة أهل الإيمان (٢) ، بُكْرةً وعشياً (٣) ، الذين يبتغون وجهه، وفيها نهي وتحذير للنبي ﷺ بألا يتجاوزهم إلى غيرهم من أصحاب الشرف أو الثروة (٤) أو الهيئات والزينة (٥) الذين فتنتهم الدنيا وغفلت قلوبهم عن ذكر الله أو الإيمان، وختم الله على قلوبهم، أو "شُغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا"(٦) ،وذلك لأن "شر أحوال الإنسان أن يكون قلبُه خالياً عن ذكر الحق، ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق عن الحق... والقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل النور والضوء والإشراق، وإذا توجّه القلب إلى الخلق ـ بغير حق ـ فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات" (٧).

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن الآية : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٧٩

(٢) وفي آيات أخرى ينهى النبي ﷺ عن الاستجابة لملأ قريش بطرد بعض الصحابة من مجلسه ليجلسوهم مع النبي ﷺ وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

(٣) في فتح القدير٣ / ٤٠٢ أن معنى بكرة وعشياً: جميع الأوقات ، وقيل طرفي النهار وقيل صلاة العصر والفجر، وهناك أقوال أخرى في غيره.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير٣ / ٧٩ .

(٥) انظر: فتح القدير ٣ / ٤٠٢ .

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٨٠ .

(٧) التفسير الكبير للرازي ٧ / ٤٥٧ بتصرف وزيادة يسيرة، والعبارة أوردها الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف : ٢٨] .

ذِكْرِنَا ﴾ (١) أي : أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته، فلم يعد في قلبه متسع لله ، والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله » (٢) .

وفي موضع آخر حذّر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ من الجلوس مع أهل الباطل، وأَمَرَهُ بالإعراض عنهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام :٦٨] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «عن القوم الظالمين الذين أمر الله رسوله ﷺ بالإعراض عنهم: "... هم المتصدون للطعن في القرآن، وهؤلاء أُمِرَ الرسول ﷺ بالإعراض عن مجادلتهم، وترك مجالسهم حتى يرعووا عن ذلك..." (٣)

ومن خلال كل ما سبق اتضح لنا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بصحبة الصالحين العاملين للدين الذين يُكثرون من ذكر الله ، مخلصين لله ، ونهاه عن تجاوزهم إلى غيرهم، وحذّره من طاعة الغافلين عن ذكر الله المتّبعين لأهوائهم، وأمرَهُ بالإعراض عن الكفار والمشركين، كلٌ هذا للحفاظ على قوة الإيمان في قلبه، ونشاط جوارحه لطاعة ربه، فمصاحبة الصالحين تُثمر التأثر بأخلاقهم وسَمْتِهم ، والاستفادة من علمهم وحديثهم .

لهذا كله وغيره أمر الله رسوله ﷺ بمجالسة أهل الإيمان رغم أنه بلغ غاية الكمال في الإيمان والتقوى والطاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتمام الشكر وكمال العبودية لربه ، بل هو النبي ﷺ الذي ما جالسه كافر يبحث عن الحق إلا اهتدى،

---

(١) قال ابن جرير في تفسير الآية في ٨ / ٢٥١، أي: «ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار الذين سالوك طرد الرهط الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي عنك، عن ذكرنا...وهم فيما ذُكر: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم».

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٦٩ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ٢٨٨ .

ولا مؤمن يرجو قوة إيمان وصلاح قلب إلا تحقق له ذلك، ومع هذا كله أمره الله بصحبة المتقين الأبرار.

خامساً: أمر الله لرسوله ﷺ باتباع القرآن والاستمساك به:

أنزل الله على رسوله ﷺ القرآن الكريم ؛ ليكون حجة له ومعجزة أمام أعدائه، وأنزله ليكون كتاب هداية للمتقين، وجَعَله جامعاً لأصول التشريع للبشرية جمعاء.

ومن هنا أمر الله رسوله ﷺ في أكثر من موضع في القرآن باتباع هذا الكتاب العظيم والاستمساك به . فمن زاغ عنه ضل، ومن تركه قصمه الله ، فقال عزّ من قائل: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** (١٠٩) ﴾[يونس : ١٠٩] ، وغير ذلك من الآيات (١) .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الثانية: "...أمره الله أن يتّبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله له ولأمته.." (٢) .

وقد أكد الله هذا الأمر في آية أخرى مُبيناً للنبي ﷺ ومؤكداً له أنه على الحق والصراط المستقيم فقال سبحانه: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٤٣) ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

ثم أخبره بفائدة ذلك في رفع ذكره ، وأنه شرف له ـ هو وقومه ـ فقال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** (٤٤) ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير ما سبق من آيات:" أَمَرَهُ بالثبات على دينه وكتابه، ... والاستمساك: شدة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد، والأمر

---

(١) كما في سورة الأحزاب الآية: ٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ٦٩١ .

به مستعمل في طلب الدوام ؛ لأن الأمر بفعلٍ لمن هو متلبسٌ به لا يكون لطلب الفعل ، بل لمعنى آخر، وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أُوحي إليه.. وجملة ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾... تأييد لطلب الاستمساك بالذي أُوحي إليه وتعليل له.. وهذا تثبيت للرسول ﷺ وثناء عليه بأنه ما زاغ قيد أنملة عمّا بعثه الله به.. ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾..يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش ، فالقرآن نزل بلسان قريش ، فاحتاج كل من آمن به من أهل اللغات كلها إلى لسانهم.." (١)

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه من الاتّباع والاستمساك بالقرآن سبيل الهداية إلى الله والفلاح في الدار الآخرة ، وبالاتباع والاستمساك بهذا القرآن تزيد تزكية النبي ﷺ يوماً بعد يوم، وحالاً بعد حال، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد : ١٧] .

سادساً: أمر الله لرسوله ﷺ بالقيام بالدين والبلاغ المبين:

ما من شك أن من أعظم وسائل التربية للنفس والتعليم لها هو ممارسة دعوة الناس إلى دين الله تعالى.

فكما أن العلم يزيد بالإنفاق منه ـ على عكس المال ـ فكذلك المعاني الإيمانية الجليلة تزيد في نفس الإنسان كلما قدّمها للآخرين وربّاهم عليها ودفعهم إليها، تزيد كلما عرضها على الناس ودعاهم إليها، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران :٧٩] .

ومن هنا تعددت آيات القرآن الكريم التي أمر الله فيها رسوله ﷺ بالقيام بالدعوة إلى الدين وبالبلاغ المبين على أحسن وجه وأكمله، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤] ، وقوله عز وجل :

---

(١) تفسير ابن عاشور ٢٥ / ٢٢٠ بتصرف يسير.

﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص : ٦٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وغير ذلك من الآيات التي توضح ما أمر الله به رسوله ﷺ من إنذار [١] وتذكير بالقرآن [٢]، وآيات امتن الله فيها على المؤمنين بإرسال رسول منهم ليقوم بتزكيتهم وتعليمهم، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران : ١٦٤] [٣]

ولا شك أن كل ما سبق يتطلب من النبي ﷺ تلاوة آيات القرآن الكريم وتدبرها، والاتصال بالله بالدعاء أن يفتح القلوب والآذان لسماع الموعظة والاتعاظ بالذكرى ونجاح التعليم والتزكية من رسول الله ﷺ لكل من دعاه إلى الله .

كما أن ممارسة النبي ﷺ للدعوة تتطلب منه أن يكون قدوة للناس فيما يدعو إليه ، بتطبيق كلّ خير حثّ عليه، والابتعاد والحذر من كل شر نهى عنه، وهذا كله يحقق للنبي ﷺ مزيداً من التربية الإيمانية ، ويبلغ به الذروة في كمال الإيمان .

سابعاً: أمر الله لرسوله ﷺ بالاقتداء بالأنبياء السابقين والثبات على عبادته لربه:

لقد مضت سُنَّة الله تعالى فيمن سبق من الرسل الذين أرسلهم إلى أممهم قبل محمد ﷺ ـ والذين قاموا خير قيام بما كلّفهم الله تعالى به يُبشرون ويُنذرون ويدعون لتوحيد الله ،ويحذرون أقوامهم من عاقبة كفرهم بالله ومعصيتهم له ـ أن

---

(١) كما في الحج٦٧، الانعام٥١، المدثر٢، الروم٣٠، ٤٣ وغيرها.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ الاعلى ٩، ونحوها في الذاريات ٥٥، الغاشية٢١ ، وغيرها .

(٣) وكما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة : ٢] .

يعترضوا لأصناف من الأذى والعذاب بسبب ذلك ، بل قُتل بعضهم ـ عليهم سلام الله جميعاً ـ ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

لقد صبروا لربهم وفي سبيله، واستمروا في دعوتهم إلى الله ، فخلّد الله سيرتهم العطرة في القرآن الكريم ودعا النبي ﷺ للسير على ما ساروا عليه والاقتداء بهم ، فقال سبحانه بعد أن سرد له قصص بعض من سبقه من الرسل وأثنى عليهم، قال سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٨٩ – ٩٠] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: " ـ فيها ـ إشارة إلى الأنبياء المذكورين. . ، والاقتداء : طلب موافقة الغير في فعله، وقيل المعنى : اصبر كما صبروا، وقيل اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جُزئيات الشرائع مختلفة، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يَرِدْ عليه فيه نص يخالف شرعهم" (١) .

والأنبياء الذين أمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بهم ـ وأثنى عليهم ـ قد عبدوا الله وبلّغوا دينه، واستمروا على ذلك وصبروا حتى وافاهم الأجل المحتوم، والنبي ﷺ مأمور من ربه بكل هذا كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر:٩٩] أي الموت كما قال ابن كثير(٢) وغيره من أهل التفسير.

ومن قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم :٦٥] ، وغيرها من الآيات (٣) .

---

(١) فتح القدير ٢ / ١٩٩ بتصرف وزيادة يسيرة .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨٠ .

(٣) كما في سورة هود ١٢٣، الزمر ٦٦ وغيرها.

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة: " أي: فالزم طاعته، وذُلّ لأمره ونهيه ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أي: واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيه، والعمل بطاعته، تَفُز برضاه عنك..." (١)

ومن المعلوم أن العبادة ـ كما عرفها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هي" اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .." (٢)

والنبي ﷺ بالتزامه لهذه العبادة بهذا المعنى الشامل الكامل كما أمره ربّه لا شك أنه يحقق لنفسه مزيداً من التزكية والتربية الإيمانية.

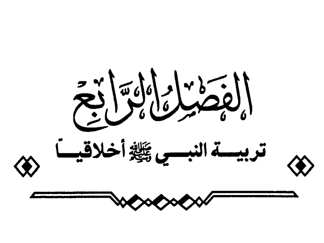
وبعد هذا كله يمكن القول أن القرآن الكريم قد اختطّ نهجاً عظيماً في تزكية قلب النبي ﷺ، وتزكية لسانه وقوله،وتزكيته كلّه ـ ظاهره وباطنه ـ كما سبق بيان ذلك، فوصل بالنبي ﷺ إلى المراتب السامية،والدرجات العالية في الإيمان وسائر وجوه التربية ، وجعلَه قدوة للناس ، وأفضل الرسل والبشرية جمعاء ، فصلّ الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

وكما حقق القرآن الكريم تربية النبي ﷺ إيمانياً ، فقد حقق أيضاً تربيته في الجانب السلوكي الأخلاقي على أحسن وجه وأكمله ، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في الفصل الرابع والأخير من هذا الباب. وذلك كما يلي.

---

(١) جامع البيان ٨ / ٣٦١ بتصرف وزيادة يسيرة جداً .

(٢) العبودية، ص٣٨ .



الفصل الرابع

تربية النبي ﷺ أخلاقياً

الفصل الرابع

تربيـــة النبـــي ﷺ أخلاقيـــاً

تمهيد :

سبق أن أخذنا منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ نفسياً وعقلياً وإيمانياً، ومن المعلوم أن جميع هذه الجوانب مرتبطة بذات النبي ﷺ وشخصه، أكثر من ارتباطها بغيره.

والقرآن الكريم قد ربَّى النبي ﷺ في جانب آخر من جوانب التربية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمن حوله من أفراد المجتمع المسلم والكافر، وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه التربية الأخلاقية للنبي ﷺ ، سواءً فيما يتعلق بحُسن عشرته لأهله، أو قيادته للطائفة المؤمنة، أو دعوته ومواجهته للطائفة الكافرة، أو تعامله مع أفراد المجتمع بشكل عام، أو حُسن سياسته وإدارته للأمة وغير ذلك (١) .

فالقران الكريم الذي ربّى رسول الله ﷺ هذا قد أولى الجانب الاجتماعي من حياته ﷺ اهتماماً بالغاً، وغَرَسَ في نفس رسول الله ﷺ أصول التعامل الاجتماعي القويم حتى صار ـ عليه الصلاة والسلام ـ مضرب المثل في التعامل الحسن، والدفع بالتي هي أحسن،وشهد له القرآن الكريم بسمو أخلاقه العظيمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم :٤] (٢) . (٣)

---

(١) قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب :٢١] .

(٢) أورد أهل التفسير عدة معان للمراد من الخلق العظيم في الآية، فقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره ٤ / ٤٢٩ أن المراد به : [١] الدين العظيم وهو الإسلام. [٢] الادب العظيم. وذكر الشوكاني في تفسيره ٥ / ٣٦٤ نحواً مما سبق وزاد ما يلي: [١] أن المراد به القرآن. [٢] الطبع الكريم.

(٣) سنشرح الآية بالتفصيل في فقرات قادمة .

وقد أشار ابن القيم ـ رحمه الله ـ إلى أن رسول الله ﷺ " جمع بين تقوى الله وحُسن الخلُق ـ وعلّق على ذلك قائلاً ـ « تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحُسن الخلُق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله ، وحُسن الخلُق يدعو الناس إلى محبته » (١)

ولم يكن هذا الخلُق العظيم ـ الذي اتّصف به رسول الله ﷺ ، واشتهر به بين الناس، وشهد الوحي له به ـ لم يكن قد تحصّله ﷺ ورسخ فيه من غير ما عناية ربّانية له، تمثّلت بحفظ الله له من التأثر بفساد بيئته أو اكتساب أخلاقها الجاهلية ـ قبل النبوة ـ ، وتمثّلت في طبعه على خلال حميدة قبل النبوة أيضاً ـ حتى تم إعداده (٢) لتحمل النبوة والرسالة على صفحة بيضاء مشرقة من تاريخ حياته وسيرته مع الناس مِنْ حوله.

وبعد هذا الإعداد الربّاني قبل النبوة أكمل الله تربية نبيه ﷺ أخلاقياً ـ كغيره من الجوانب السابق ذكرها ـ على الوجه الذي يُحبّب رسولَ الله إلى أهل الإيمان، ويفرض احترامه وتقديره عند غيرهم، بل والإعجاب به والثناء عليه عند أعدائه.

حقّق الله لرسوله ﷺ كل ذلك عبر آيات القرآن الكريم خلال فترة النبوة والرسالة كلّها.

إذً فما هو منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ أخلاقياً؟ ، هذا ما سأشرحه بالتفصيل في هذا الفصل الذي يتناول ثلاثة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: مفاهيم عامة حول الأخلاق.

المبحث الثاني: التوجيهات القرآنية للنبي ﷺ في مجال التربية الأخلاقية.

المبحث الثالث: الأوصاف القرآنية لأخلاق النبي ﷺ . . . .

---

(١) الفوائد للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١ هـ) ، ص٨٢ ، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بيروت، لبنان.

(٢) سبق ذكر هذا بالتفصيل في الباب الأول من هذه الرسالة.

المبحث الأول
مفاهيم عامة حول الأخلاق

قبل أن أعرض بالتفصيل للتربية القرآنية للنبي محمد ﷺ أخلاقياً يحسن أن أُقدِّم بين يدي ذلك بعض المفاهيم العامة المتعلقة بالتربية الأخلاقية، وحتى يتضح الأمر جلياً، فإن من المناسب تقسيم هذا المبحث إلى المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول: تعريف الأخلاق وأنواعها.

المطلب الثاني: أهمية التربية الأخلاقية في بناء الفرد والمجتمع.

المطلب الثالث: مكانة الأخلاق الحسنة في الإسلام، ومنهجه في طبع أهله عليها.

المطلـــب الأول

تعريف الأخـــلاق وأنواعهـــا

الخُلُق لغة: هو" الخليقة، ويعني الطبيعة... والسجية، ... وحقيقته أنه يُطلق على صورة الإنسان الباطنة، وهي: نفسُه وأوصافها، ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها،ولهما أوصاف حسنة وقبيحة..."(١). والأخلاق جمع خلُق.

وقد عرّف بعض أهل العلم الخُلق بقولهم:" الخلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سُميت الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خُلقاً سيئاً،وإنما قلنا إنه هيئة راسخة؛لأن من يصدر منه بَذلُ المال على النُّدرة بحالة عارضة لا يقال خُلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه .."(٢).

وقيل أن الأخلاق هي:"غرائز كامنة تظهر بالاختيار،وتُقهر بالاضطرار" (٣)

---

(١) لسان العرب ١٠ / ٨٦ باختصار، وزاد ابن منظور فقال: " والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.

(٢) التعريفات ص١٣٥ للجرجاني، بتصرف يسير جداً.

(٣) تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص٥ للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: محيى الدين السرحان، مطبعة (بدون) ت ١٩٥٣م، بيروت، لبنان.

ـ نقصد بحديثنا عن الأخلاق هنا:الأخلاق المتعلقة بالجانب السلوكي للإنسان ، وإلا فإن أهل التفسير ـ رحمهم الله ـ قد ذكروا عدة أقوال لتفسير قوله تعالى في مدحه محمد ﷺ في الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ [القلم ٤] ، منها أن المراد بالخلق العظيم الذي وصف الله به رسوله هو:

[١] الدين العظيم وهو الإسلام. [٢] القرآن الكريم.

[٣] الطبع الكريم والأدب العظيم، وهذا ما أقصده في هذا الفصل.

انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٩، وتفسير الشوكاني ٥ / ٣٦٤ .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " الخُلُق طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم يُتبع بنعت... والأخلاق كامنة في النفس، ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحُكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومن لِنظره، وما يترتب على ذلك من حُرمته عند الناس، وحُسن الثناء عليه، والسمعة..." (١)

وبهذا يتبينّ لنا أن الخلُق هو : "صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة" (٢)

وعرّف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان ، وتحديد علاقاته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه" (٣).

هكذا عرّف أهل العلم الأخلاق ـ بشكل عام ـ أما أنواعها وتقسيماتها، فقد قسّمها بعضهم(٤) إلى عدة تقسيمات يمكن أن نجملها بعد الإضافة عليها بالأنواع التالية:

أولاً: أنـــواع الأخـــلاق من حيث صفاتها:

(أ) أخلاق حسنة محمودة:

أقرّها الإسلام ،وزاد عليها وربّى ، أهله عليها، وفي هذا قال ﷺ : (إنما بُعثت

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩ / ٦٤-٦٥ .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ١٠ لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم، ط٣،١٤١٣هـ-١٩٩٢م بيروت، لبنان. والكتاب يقع في مجلدين.

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية" رسالة دكتوراه" مقداد يالجن ص٧٥ ،مكتبة الخانجي،ط١، ١٩٧٧م،القاهرة،مصر.

(٤) كعبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه «الأخلاق الإسلامية وأسسها » ، ود. أحمد بن عبد العزيز الحداد في رسالته للدكتوراه بعنوان: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنّة.

لأتمم مكارم الأخلاق) [١] . ووصّى النبيُّ ﷺ صحابته الكرام بالتخلق بها في تعاملهم مع الناس [٢]

ومن هذه الأخلاق الحسنة خُلُق" الحلم، والعدل،والصبر،والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، . . . ، والحياء، والشجاعة، . . . ، والتُّؤدة، والوقار، وحسن المعاشرة. . .الخ" [٣]

وقد رتّب الإسلام على الأخلاق الحميدة الثواب الجزيل لذوي الأخلاق الحسنة[٤] .

ومن هنا يمكن القول أن: "الخلُق المحمود صفة ثابتة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ تدفع إلى سلوك إرادي محمود عند العقلاء، كالأخذ بالحق أو الخير. . . وإن خالف الهوى، وترك الباطل والشر. . . وإن وافق الهوى أو الشهوة" [٥]

(ب) أخلاق سيئة مذمومة:

أنكرها الإسلام وحذّر منها ودعا أهله للتخلص منها،ورتّب العقوبة على فعلها، ومن هذه الأخلاق السيئة : الكذب، والغش، والغيبة، والنميمة،

---

(١) رواه البخاري في الادب المفرد برقم ٢٧٣، انظر:فضل الله الصمد للجيلاني١ / ٣٧١، واخرجه البيهقي في سُننه الكبرى ١٠ / ١٩٢ ، وذكره القضاعي في كتابه" مسند الشهاب" ٢ / ١٩٢ برقم ٧٣٦ / ١١٦٥ عن ابي هريرة– رضي الله عنه–، وصححه الالباني في السلسلة ١ / ٧٥ برقم٤٥ .
انظر: مسند الشهاب للقاضي لابي عبدالله محمد بن سلامة القضاعي (ت٤٥٤هـ) ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، بيروت، لبنان، والكتاب يقع في مجلدين.

(٢) اخرج الحاكم ١ / ٥٤ ووافقه الذهبي عن ابي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يا أبا ذر ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن).

(٣) تفسير ابن عاشور ٢٩ / ٦٤ .

(٤) لقوله ﷺ فيما رواه ابو داود ٥ / ١٤٩ في كتاب الادب، باب في حسن الخلق، برقم ٤٧٩٨، عن عائشة ـ رضي الله عنها–انها سمِعتْ رسول الله ﷺ يقول: (إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) صححه الالباني في صحيح سنن أبي داود ٣ / ٩١١ برقم ٤٠١٣ .

(٥) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني ١ / ١٦، واضاف قائلاً: " . . . ويمكن تمييز الاخلاق الحميدة عن غيرها بانها: كل سلوك اجتماعي أو فردي تلتقي النفوس البشرية على استحسانه، مهما اختلفت اديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان اثراً من آثاره او فرعاً من فروعه.

والظلم... إلخ.

ومن هنا يمكن القول أن: " الخلق المذموم صفة ثابتة في النفس - فطرية أو مكتسبة - تدفع إلى سلوك إرادي مذموم عند العقلاء، كالأخذ بالباطل أو الشر أو القبح، وترك الحق أو الخير... اتباعاً للهوى والشهوة" (١)

ثانياً: أنـــواع الأخـــلاق من حيث ارتباطاتها وعلاقاتها:

(أ) أخلاق خاصة بين العبد وربه تتعلق بالعقائد: كالرضا، والتوكّل، والخوف والخشية من الله .

أو العبادات كأداء الطاعات مقرونة بالإخلاص والاستقامة والمحبة لله - عز وجل -، وكالتوبة والإنابة إليه، ونحو ذلك (٢) مما ذكره بعض المفسرين لمعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[القلم :٤] (٣)

(ب) أخلاق عامة سلوكية بين الإنسان وغيره: (كالصدق،والصبر، والتواضع، والحياء، ونحو ذلك من الأخلاق المتعدية إلى المخلوقات - بشكل عام - كالأمانة ، والوفاء، والحلم، والعفو، والصفح، والرفق، والرحمة، والكرم، ونحو ذلك مما يدخل تحت مدلول الآية السابقة في معناها المذكور لدى أهل التفسير (٤).

ثالثاً: أنـــواع الأخـــلاق من حيث مصدرها:

(أ) أخلاق فطرية جبل الله الإنسان عليها: كالحلم والأناة، وسُرعة الغضب

---

(١) الأخلاق الإسلامية ١ / ١٦ للميداني باختصار يسير.

(٢) وقد قسّم د. احمد بن عبد العزيز الحداد في رسالته للدكتوراه التي بعنوان: " اخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ، قسّم الاخلاق إلى خمسة أنواع كما يلي:

[١] الاخلاق الاعتقادية. [٢] الاخلاق التعبدية.

[٣] الاخلاق السلوكية. [٤] الاخلاق الاجتماعية .

[٥] الاخلاق المتعلقة بالنبوة والإمامة.

(٣) ذكر الشوكاني في معنى الآية: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ عدة اقوال منها: ان المراد بالخلق العظيم " الإسلام والدين" فتح القدير، ٥ / ٣٧٤ .

(٤) حيث ذكر الشوكاني - رحمه الله - في تفسيره فتح القدير ٥ / ٣٧٤: ان المراد بالخلق العظيم :« الطبع الكريم».

وبُطئه، ونحو ذلك مما ركبه الله في طبيعة الإنسان منذ أن خلقه.

وهذه الأخلاق منها ما هو قابل للتعديل والتبديل، ومنها ما ليس كذلك " فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل - ولو في حدود نِسَبٍ جُزئية مما هو داخل تحت سلطان الإنسان وقدرته - كان خاضعاً للمسئولية ، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربَّانية " (١) لقوله تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : ٧] .

(ب) **أخلاق مكتسبة:** وهي التي يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به - سواءً من أسرته أو مجتمعه الذي يعيش فيه - أو عن طريق التعلّم ، ويتطبع عليها، كالقول الحسن والسيء، والسلوك القيم والمعوجّ، ونحو ذلك مما يدخل في باب الواجبات والمندوبات أو المحرمات والمكروهات، وهذه الأخلاق يُثاب فاعلها على الحسن منها - إن كان يقصد من أدائها والتحلي بها وجه الله - ، ويعاقب على سيئها، لقوله تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

رابعاً: أنــواع الأخــلاق من حيث أثرها في المجتمع:

(أ) **أخلاق قيادية:** أكرم الله بها بعض خلقه ممن اقتضت حكمته - سبحانه - تأهيلهم لقيادة البشرية والارتقاء بها وحل معضلاتها.

ومن هذه الأخلاق: الهمة العالية، والذكاء الحاد، والعزم القوي، وإرادة التغيير والتجديد، وروح التحدي، والحذر، والشجاعة، والثبات، وقوة القلب والجسد والإدراك ، كما قال تعالى على لسان أحد أنبيائه ردّاً على بني إسرائيل الذين أنكروا أن يكون طالوت ملكاً عليهم - قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ

(١) الأخلاق الإسلامية ١ / ١٩١ للميداني.

وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

(ب) أخلاق عادية: يشترك فيها كل بني آدم - عليه السلام - بل وغيرهم من كلِّ دواب الأرض - كالاستجابة لغرائز الجسد وحاجاته من الطعام والشراب والمنام والرغبة في الحياة، والخوف من الموت ونحو ذلك (١) .

خامساً: أنواع الأخلاق من حيث حاملها:

(أ) أخلاق نبوية خاصة: ميّز الله بها رسله عن كل خلقه أجمعين، واصطفاهم بها (٢) ، ومن هذه الأخلاق :

[١] خلُق الصدق قبل النبوة وبعدها.

[٢] كمال الذكاء والفطنة.

[٣] العصمة من السيئات - صغيرها وكبيرها - .

[٤] تمام التبليغ والجهاد في الله حق جهاده.

[٥] عظيم الحلم والصبر، والحرص على هداية الناس، وغير ذلك مما هو خاص بالأنبياء والمرسلين.

(ب) أخلاق بشرية عامة: يشترك فيها كل البشر مما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية ، وبه يصلح معاشهم، "كآداب الطعام والشراب، واللباس والمشي، والنظافة والنظام" (٣) ، وكل ما يتعلق بسنن الفطرة التي اتفقت عليها الرسالات السماوية.

---

(١) الأخلاق الإسلامية ١ / ١٢ .
(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] .
(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، عبدالرحمن حبنكة الميداني ١ / ١٢ .

المطلـب الثانـي

أهمية التربية الأخلاقية في بناء الفـرد والمجتمع

من المعلوم أن العبد بامتثاله لأوامر الشريعة يحقق مقصدين اثنين :

أما الأول فهو: تحقيق الغاية من خلقه من خلال الامتثال والعبودية لرب العالمين القائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . والقائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١]. والقائل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة :٥].

وأما الثاني فهو: تحقيق تزكية النفس ،كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس : ٩-١٠] .

وقد وضح مما سبق أن مجالات تزكية الإنسان لنفسه متعددة، فمنها ما يتعلق بالجانب الشخصي " نفسياً،وعقلياً، وإيمانياً" ، ومنها ما يتعلق بالجانب الاجتماعي "سلوكياً، ودعوياً، وسياسياً" .

وكما أن الإسلام قد أولى الجانب الشخصي المتعلق بذات الفرد اهتماماً بالغاً في التهذيب والتزكية، فهو كذلك قد اهتم بتربية الفرد فيما يتعلق بعلاقته مع الآخرين سلوكياً لأهمية هذا الأمر وضرورته للفرد والمجتمع، وآثار ذلك وعواقبه في الدنيا والأخرى.

(فعلم الأخلاق هو أول الوسائل وأولاها بعناية المربين ، إلا أنه هو المصباح الكاشف لمسالك الرشد والغي، ولأنه هو المعيار الذي توزن به نوايا العالمين

وبواعثهم) (١)

وتتضح أهمية التربية الأخلاقية للفرد من خلال تأملنا لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: " كلُّ مولود يولد على الفطرة (٢)، فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه، أو يمجسانه... "(٣).

فالحديث يقرر حقيقتين اثنتين ـ من خلالهما تتجلى أهمية التربية الأخلاقية بالنسبة للفرد ـ .

أما الأولى: فكل ما خلق الله من بشر على هذه الأرض قد فطره الله على توحيده، والاستسلام له، والاستعداد لمعرفة الحق والقبول به.

كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " ... فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملة الإسلام.. .لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر... " (٤) . (٥)

هكذا فطر الله كل إنسان منذ مبدأ ميلاده : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وصحّ عن النبي ﷺ قوله عن ربه: (...**وإني خلقت عبادي حنفاء** (٦)

---

(١) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د. محمد عبد الله دراز، ص١٢٥، دار القلم، ط(بدون) ١٩٩٣هـ-١٩٧٣م، الكويت.

(٢) الفطرة: هي الخلقة ــ في الأصل ــ ، وقد يُراد بها الملة ، وهي الإسلام والتوحيد، وهذا مذهب جمهور السلف، انظر: فتح القدير ٤ / ٣١٨ -٣١٩ بتصرف.

(٣) رواه البخاري١ /٤٦٥ في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم ١٣١٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود ٥ / ٨٦ برقم ٤٧١٤، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٢١٨ .

(٤) فتح القدير ٤ / ٣١٨ بتصرف واختصار يسيرين.

(٥) وقال الشوكاني في تفسيره ٤ / ٣١٩ عن الإيمان والإسلام الفطريين: "ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يُعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق" .

(٦) حنفاء كلهم: أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية.

كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (١) عن دينهم...) (٢)

ومعنى هذا أن التربية الأخلاقية مهمّة للفرد للحفاظ على سلامة فطرته كما خلقه الله ـ عز وجل ـ، وما طبعه الله عليه من استعداد لاكتساب الأخلاق الكريمة، ونفور من الأخلاق الذميمة.

وأما الحقيقة الثانية: التي قررها الحديث الشريف السابق ذكره ـ ومن خلالها نفهم أهمية التربية الأخلاقية للفرد ـ فهي: أن الأبوين هما من أعظم العوامل المؤثرة على عقيدة الولد وسلوكه وأخلاقه فبفعل تربيتهما البعيدة عن منهج الإسلام قد يجعلانه يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو غير ذلك، ومعنى هذا أن التربية للفرد هي التي تُزيّنه بالأخلاق الحسنة المحمودة أو تلوثه بالأخلاق السيئة المذمومة، وبفعل التربية الحسنة يمكن أن نزيد من غرس الفضائل والمحاسن، ويمكن أن نقتلع أو نخفف ونُهذّب ما أمكن من الرذائل في نفس كل مربّى.

وقد سبق ذكر أن الأخلاق منها الفطري الجبلّي، فهذه عن طريق التربية يمكن زيادة وتقوية خيرها، وتهذيب وتخفيف شرها، ومنها المكتسب من الأسرة والبيئة المحيطة بالفرد، فهذه يمكن تثبيت خيرها واقتلاع شرها، فعن طريق التربية الأخلاقية يمكن " تنشئة المرء على المبادئ الأخلاقية وتكوينه بها وإشباع روحه بالأخلاق الحسنة المحمودة ... حتى يُصبح مِفْتَاحاً للخير مغلاقاً للشر أينما كان وحيثما وُجد باندفاع ذاتي... " (٣).

فما أكثر الأخلاق السيئة التي قد يكتسبها الإنسان من بيئته المحيطة به

---

(١) فاجتالتهم الشياطين: اي: استخفوهم، فذهبوا بهم، وازالوهم عمّا كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل. انظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ٢١٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في ٤ / ٢١٩٧ في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ. وأخرجه ابن حنبل في ٤ / ٢٢١ برقم ١٧٤٥١ بلفظ (فأضلتهم عن دينهم)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢ / ٦٢، واول الحديث (إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم...).

(٣) جوانب التربية الأساسية، د. مقداد يالجن ص٣٠٥ بتصرف وزيادة يسيرة.

ويحتاج للتحصين منها والتطهير من بقاياها، وما أكثر الأخلاق الحسنة عقلاً وشرعاً التي ندب الإسلام إلى التحلي بها ، وكلٌ هذا لا يتم إلا عن طريق التربية الأخلاقية السوية.

وكما أن التربية الأخلاقية مُهمَّة للفرد ـ كما أسلفنا ذكره ـ فإنها أيضاً مُهمَّة للمجتمع بشكل كبير؛ فعن طريق التربية الأخلاقية لأفراد المجتمع المسلم ـ بشكل عام ـ يمكن أن نقي هذا المجتمع شرور أفراده الناتجة عن وقوعهم في شتى الانحرافات الأخلاقية ـ كما هو حال المجتمعات الغربية الكافرة حالياً من انتشار للفحش بكل صوره ، والظلم والسرقات والكذب والغش وغير ذلك من السلوكيات السيئة التي تحطم كيان الفرد والمجتمع.

ويمكن أن نقي المجتمع أيضاً عذاب الله وإهلاكه لكل من خالف الفطرة السوية والمنهج القويم في سلوكياته وأخلاقه.

وهل كان إهلاك الله ـ العدل ـ لمن كفر من الأمم الماضية إلا لما وقع منهم من مخالفات في العقائد والسلوكيات للصراط المستقيم؟ (١) ، فقوم لوط مارسوا الفحش الذي حرّمه الله ، فخالفوا الفطرة السليمة والطهر والعفة في العلاقات الجنسية،وقد سجّل الله ذلك في محكم آياته، فقال سبحانه : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤] .

وقال سبحانه في بيان عقوبته بإهلاكه لقوم لوط ـ عليه السلام ـ وتدمير قراهم بأكملها:

---

(١) من السلوكيات السيئة التي كان يمارسها السابقون ، وحذّرهم أنبياؤهم من عاقبة ذلك ما كان يقع من قوم شعيب عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود:٨٢] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود : ٨٣] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في أحد أقواله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي: " وما هذه الحجارة الموصوفة... من كل ظالم من الظلمة ... ببعيد؛ فهم لظلمهم مستحقون لها... " (١) ، ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبالتالي فكل مجتمع تنتشر فيه الفواحش يكون عُرضة لعذاب الله ـ عز وجل ـ (٢) ، ولا يمكن حينها توقّي هذا العذاب إلا بما فعله لوط ﷺ من تحذيره لقومه عاقبة ممارسة الفاحشة، ودوام حرصه على التربية الأخلاقية لكل أفراد المجتمع.

وكما أنه بالتربية الأخلاقية نقي المجتمعات شر أفرادها وأقدار الله الكونية بإهلاك من خالف الفطرة والصراط المستقيم فيها، فإنه بالتربية الأخلاقية أيضاً يمكن إنتاج أجيال المجتمع المثالي الصالح ـ من خلال إعداد الإنسان الصالح ـ الذي من صفات أفراده أنهم: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٤].

فعن طريق التربية الأخلاقية ـ إضافة إلى التربية الإيمانية وغيرها ـ يمكن إعداد الإنسان الصالح للدنيا والأخرى، فإذا تم هذا الأمر لكل أفراد المجتمع أمكن عندها أن تسود القيم الإسلامية والفضائل والمُثل العليا التي بسيادتها تتحقق سعادة المجتمع وذلك أنه بفعل التربية الأخلاقية " يتم إزالة جميع الشرور والرذائل من النفوس، وغرس القيم الإنسانية الخيِّرة.. وهذا يؤدي إلى انتشار الأمن و الثقة والمحبة والمودّة واحترام الحقوق والمشاعر... وسيادة صدق الأخوة والتعاون في

---

(١) فتح القدير ٢ / ٧٤٥ باختصار

(٢) وما احسن قول القائل في هذا

" إنما الامم الاخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا"

والابيات لاحمد شوقي ـ رحمه الله ـ.

سبيل الخير والمصلحة العامة" (١)

ومن هنا تتضح لنا أهمية التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، إضافة إلى ما يجنيه الفرد من فوائد ناتجة عن التربية الأخلاقية القويمة على الخُلُق الحسن (٢)

ولهذا نجد أن الإسلام في سبيل تحقيق التربية الأخلاقية السليمة قد اتخذ كل الأساليب التربوية لإعطاء الجانب الخُلُقي حقه الكامل الشامل من التربية الأخلاقية، وهذا ما أعرض له في المطلب الثالث كما يلي .

---

(١) جوانب التربية الإسلامية د. مقداد يا لجن ص٢٨٣ بتصرف واختصار يسيرين.

(٢) من فوائد التربية الأخلاقية على الأخلاق الحسنة (استقراءً من الأحاديث الشريفة):

[١] اكتساب محبة الله ومحبة خلقه واكتمال إيمان العبد.

[٢] رفع درجات العبد يوم القيامة لمرتبة الصائمين القائمين.

[٣] الاقتراب من مجلس النبي ﷺ يوم القيامة ونيل محبته.

[٤] ثقل ميزان العبد يوم القيامة بصالحات الأعمال.

[٥] دخول الجنة، وغير ذلك.

المطلــب الثالــث

مكانة الأخلاق الحسنة في الإسلام ومنهجه في طبع أهله عليها

للأخلاق الحسنة وأهلها منزلة عظيمة في شريعة الإسلام، ويتضح هذا من خلال تقرير النبي ﷺ أن (**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً**) (١)

فهذا نص صحيح صريح يُوضِّح فيه رسولُ الله ﷺ أنه كلما حَسُنَ خلُق المؤمن كلما اكتمل إيمانه.

وفي نص آخر يجمع ﷺ كل الخير وأنواع البر في حُسن خلُق الإنسان فيقول ﷺ : (**البر حُسن الخلق...**) (٢).

والبر كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " اسم جامع للخير..." (٣)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عن البر هو : " ...الخير الكامل الشامل ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان..." (٤) .

وقد جاء تفسير البر في قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ**

---

(١) أخرجه الإمام احمد في مسنده ٢ / ٦٢٤ برقم ١٠٠٨٧ ، واخرجه ابو داود في سننه ٥ / ٦٠ برقم ٤٦٨٢ ، واخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٢٢٧ في كتاب البر والإحسان ، باب حُسن الخلق، برقم ٤٧٩ عن ابي هريرة ﷺ ، وقال شعيب الارناؤوط : إسناده حسن.
انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (٦٧٥-٧٣٩)هـ تحقيق وتخريج شعيب الارناؤوط.

(٢) رواه مسلم في ٤ / ١٩٨ في كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، برقم ٢٥٥٣ عن النوّاس بن سمعان ﷺ، وبقية الحديث (... والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) .

(٣) فتح القدير ١ / ٢٦٦ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ١٢٨باختصار .

عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة : ١٧٧]

جاء في تفسير البر المذكور في الآية السابقة أنه " طاعة الله - عز وجل - وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه ، واتباع ما شرع ... " (١)

فإذا كان رسول الله ﷺ قد جمع كل الخير بشموله وكماله في تحلي المرء بالخلُق الحسن مع الله ومع خلْقه، وإذا كانت آيُ القرآن الكريم تحث على الأخلاق الحسنة كما في الآية السابقة، وكما هو مفهوم قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩] ، فإن هذا كله يعتبر دليلاً كافياً على مكانة الأخلاق الحسنة في الإسلام، وحرصه على أن يتحلّى أهل الإيمان بذلك.

ومن هنا فلا عجب أن يُمجِّد الإسلام الخلُق الحسن وأهله تارة باعتباره مكمِّلاً للإيمان، وتارة باعتباره مصدر ومجمع كل خير للإنسان - كما سبق - ، وتارة باعتبار ذوي الأخلاق الحسنة في حسن معاملتهم لنسائهم من خير الناس بشهادة الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ (٢) .

ولا عجب أيضاً أن يحث الإسلام أهله على اكتساب الأخلاق الحسنة والابتعاد عن كل خلُق سيئ، وأن يتخذ كل الأساليب التربوية لتحقيق ذلك عن طريق العقيدة الصحيحة، والعبادات النافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق.

فالقرآن يسعى من خلال ذلك كله وغيره لإكساب أهله الأخلاق المحمودة،

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢١٣ .

(٢) لقوله ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٢٧٧ برقم ٤٧٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلُقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم خلُقاً) ، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للكتاب عن الحديث : إسناده حسن .

وإبعادهم عن المذموم وتطهيرهم.. منها كما يتضح من خلال تأكيده لفلاح من تزكّى بالإيمان والعمل الصالح [(١)] - الذي منه مخالقة الناس بخلق حسن - .

ونجد أن السُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام تسعى لتحقيق ذلك تارة ببيان أن أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة هو الخلُق الحسن [(٢)] ، وتارة بتأكيد النبي ﷺ أن منْ أحبِّ الناس إلى قلبه وأقربهم منه مجلساً يوم القيامة أحاسن الناس أخلاقاً [(٣)] ، وتارة بذكره أن أكثر ما يُدخل الناس الجنة حُسن الخلق مع تقوى الله [(٤)]

والإسلام قد حث أهله على التحلّي بالأخلاق الحسنة بضمان رسول الله ﷺ ببيت في أعلى الجنة لمن اتصف بذلك [(٥)] ، بل بإدراك درجات صائمي النهار قائمي الليل [(٦)] ، وليس أدلّ على حرص الإسلام على اتصاف أهله بالأخلاق الحسنة من أمر النبي ﷺ لأبي ذر - رضي الله عنه - بقوله: "... وخالق الناس بخلُق

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ⑮ ﴾ [الاعلى : ١٤-١٥] .

(٢) كما في قوله ﷺ : (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن) رواه الترمذي في٤ / ٣١٨ في كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق برقم٢٠٠٢ عن ابي الدرداء رضي الله عنه . وصححه الالباني في السلسلة ٢ / ٥٣٥، وذكره برقم ٨٧٦ .

(٣) كما في قوله ﷺ : (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة احاسنكم أخلاقاً..) اخرجه الترمذي في٤ / ٣٢٥ في كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق،برقم ٢٠١٨ عن جابر رضي الله عنه ، وقال الألباني في السلسلة ٢ / ٤١٩ حسن الإسناد وذكره برقم ٧٩١ .

(٤) لما رواه ابو هريرة رضي الله عنه قال : سُئِل رسول الله ﷺ عن اكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحُسن الخلق)، اخرجه الترمذي في ٤ / ٣١٩ برقم٢٠٠٤ ، وذكره ابن حبان في صحيحه ٢ / ٢٢٤ ، وقال محقق صحيح ابن حبان « شعيب الارناؤوط: فالسند حسن» وذكره برقم ٤٧٦، انظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان.

(٥) لقوله ﷺ فيما رواه ابو امامة الباهلي: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة-أي ما حولها- لمن ترك المراء- الجدال- وإن كان مُحقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه). اخرجه ابو داود في ٤ / ٢٥٤ في كتاب الادب، باب: في حسن الخلق، وذكره برقم ٤٨٠٠ ، وحسّنه الالباني في صحيح سنن ابي داود ٣ / ٩١١ برقم ٤٠١٥ .

(٦) لقوله ﷺ فيما اخرجه ابو داود٤ / ٢٥٣ برقم٤٧٩٨ عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول:(إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) ، وصححه الالباني في السلسلة ٢ / ٤٢١ برقم ٧٩٥ .

حسن" (١) .

ولو تأملنا كثيراً من نصوص القرآن الكريم الداعية والآمرة ببعض السلوكيات التي يعود نفعها وخيرها على الفرد والمجتمع لوجدناها تحمل معنى حُسن الخُلق ضمناً، فمن ذلك قوله تعالى فيما يتعلق بحسن التعامل مع الوالدين ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت:٨] ، وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٢) .

وفيما يتعلق بالقول الحسن للناس ، قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] . وفيما يتعلق بمجادلة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم قوله تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وفيما يتعلق بكيفية التعامل مع السيئة وأهلها قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤] .وغيرها من الآيات التي تحمل الدعوة إلى الخلق الحسن ضمناً بالمعنى إن لم تكن صراحة بالمبنى ، بل إنَّا نجد أن أكثر الأحكام الشرعية في باب العبادات مثلاً لها ثمار في التربية الأخلاقية، فالصلاة التي يصليها المرء خمس مرات في اليوم والليلة ، ويؤدِّيها على وجهها المشروع تُبعد الإنسان الصادق المخلص فيها عن الأخلاق المذمومة ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥] ، وتطبعه على أخلاق حسنة ، فهي " تربي الإنسان خلقياً وإيمانياً، وتربط الإنسان بالله ، كما أنها تقوي إرادة الإنسان وتعوده على ضبط النفس والمصابرة والمثابرة.. وتقدير الوقت والنظام والدقة في حفظ المواعيد واستغلال الأوقات... والابتعاد عن التكاسل والتثاقل" (٣) ، والتحلي بالنشاط الدائم والاستعداد التام

(١) أخرجه الترمذي في ٤ / ٣١٢ في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، برقم١٩٨٧ عن أبي ذر الغفاري ﷺ ، وأخرجه الحاكم ١ / ٥٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ١٩٩ برقم ٢١٣٤٧ .

(٢) النساء ٣٦ ، الأنعام ٥١، الإسراء ٢٣ .

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١ / ١٣٩-١٤٠ باختصار وزيادة.

والنظافة المستمرة... فهي تطبع المرء على كل هذه الأخلاق الحسنة ونحوها.

والزكاة التي يدفعها المسلم مرة في العام - إذا توافرت شروط وجوبها - أكّد الله لنبيه ﷺ أنها تزكي الإنسان وتطهره (١)، فهي تعالج البخل والشح، وتعوّد فاعلها على السخاء والكرم، وتطبعه على الرحمة والإيثار وغير ذلك من الأخلاق الحسنة، كما أنها تثمر الأخوة بين المسلمين، وتحيي روح التعاطف والشفقة على المحتاجين، وتنزع الحقد والكراهية والحسد من نفوس المحرومين..... .

والصوم والحج يحققان في الإنسان تربيةً خُلقية - إضافة إلى التربية الإيمانية - فعن طريقهما يتعلم صاحبهما الإخلاص لله، والصبر على المشاق وطباع الناس، وضبط النفس، ومكافحة الشهوات، وبكل هذا تتقوى إرادة الإنسان.

وكذلك الأمر في باب المعاملات، فإن كثيراً من الأحكام الشرعية المتعلقة بها تحقق للمرء المسلم التربية الأخلاقية، فأحكام البيع والشراء، والدَّيْن والاقتضاء، تعلم صاحبها الصدق والأمانة، والبشاشة والسماحة، وغير ذلك، ونلاحظ أن الإسلام يُحرِّم كل صورة من صور التعامل المؤدي إلى الاختلاف المفضي إلى العداوة والبغضاء.

وأحكام الحرب تعلم صاحبها الإخلاص والعدل، والقوة والشدة، والحذر واليقظة، والصبر والمصابرة، والإنفاق والإيثار، والشجاعة والعزة، وغير ذلك من الصفح والعفو عن الضعفاء والأسرى، والرفق واللين بالنساء والكهول...الخ.

وباستقراء آيات القرآن الكريم نجد أنه أثناء غرسه للإيمان والتوحيد في نفوس أهله في المرحلة المكية وأثناء الدعوة إليه بكافّة الوسائل كانت الآيات تسعى لتهيئة نفوس الناس للسلوك الصحيح والخلق القويم من خلال: " عرضها لسُنّة الله في جزاء من اتّبع هداه أو أعرض عنه...وسُنّة الله في الظلم والظالمين...

(١) كما في قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ في سورة التوبة ١٠٣: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

وسُنَّة الله في الطغاة والطغيان ، وسُنَّة الله فيمن بطر النعمة وغيَّرها . . ." (١) ، وغير ذلك مما فيه تعريف للناس بصُوَرٍ من السلوك السيئ للأمم السابقة التي كفرت بالله أو ظلمت البشر، وعاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، حتى لا يتكرر نفس السلوك من هؤلاء المخاطبين بآيات القرآن .

"وقد يصاحب بيان ذلك في الآيات ذكر الجنة والنار ، والثواب والعقاب" (٢) لتعريف القارئ والسامع عاقبة الأخلاق الحسنة أو السيئة عند الله ـ عز وجل ـ" .

والقرآن الكريم بتصحيحه لعلاقة الإنسان بما حوله ومن حوله، وجعْلِها علاقة تعارف وتعاطف ـ لا علاقة عبودية ولا تاليه، ولا استهانة ولا استكبار . . . يكون بهذا قد ربّى الإنسان على قيم صحيحة سليمة، بناءً عليها يكون سلوكه الأخلاقي تجاه المخلوقات كلّها صحيحاً سليماً ـ ومِنْ قبل ذلك سلوكه تجاه الخالق سبحانه وتعالى ـ فيسارع إلى فعل الخيرات ويبتعد عن فعل المنكرات، وبالتالي يتصف بمكارم الأخلاق، مادام قد آمن بالله الإيمان الصحيح الذي يُعتبر أكبر قيمة خُلقية يحققها الإنسان في حياته وتنبعث منها بقية القيم الخُلُقية الأخرى(٣) .

ومن خلال استقرائنا لآيات القرآن الخاصة بالمنافقين بالذات نجد أنه سعى للتطهير من الانحرافات الخُلُقية التي قد توجد في المجتمع المسلم، فأوضح حقيقة النفاق ، وعدّها انحرافاً نفسياً وخلُقياً (٤) يجب معالجته حتى لا يعيش الإنسان بشخصيتين متناقضتين في خواء وزيف وكذب وخداع، يتخلّق بما لا قناعة له به، ويُقبل على مالا يرغب فيه، ويقول مالا يعمل، ويعمل بما لا يعتقد صوابه وصحته مما يُعتبر من ذميم الأخلاق وينتج عن أمراض القلوب (٥) .

---

(١) نضرة النعيم ١ / ١٢٩، وانظر: السُنن الإلهية في الأمم و الجماعات والأفراد للدكتور.عبدالكريم زيدان.

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة " اقتباس بالمعنى" .

(٤) نفس المرجع ١ / ١٣٠ .

(٥) وفي المنافقين قال سبحانه وتعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة. ١٠، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النساء١٤٢-١٤٣] .

وخلاصة القول أنه باستقراء أحكام الشريعة في العقائد والعبادات والمعاملات، نجد أنها توصل صاحبها إلى مكانة عالية في مجال التربية الأخلاقية على الأخلاق القويمة، فهي تُعتبر:

(أ) **ضابطاً خلُقياً للفرد:** بمعنى أنه عندما تتمكن تعاليمها من نفس الفرد ومشاعره تُصبح بمثابة ضابط خلُقي ، يحاكم المرءُ نفسَه إليه كلما وقع في محرمات أو مشتبهات ونحو ذلك ـ دون حاجة إلى رقيب من البشر ـ .

(ب) **ضابطاً اجتماعياً لأفراد المجتمع:** بمعنى أنه عندما يكثر تداول أحكام وآداب وأخلاق الشريعة على المستوى الاجتماعي في حلقات الوعظ ، وخطب المنابر، وغير ذلك ... تُصبح أعرافاً ومصطلحات اجتماعية، ويصبح الطابع العام في المجتمع المسلم هو السعي إلى ترسيخها والحفاظ عليها، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يحل بالمجتمع المسلم ما حلَّ ببني إسرائيل من عقوبة الله ولعنة أنبيائهم (١) .

(جـ) **ضابطاً سياسياً للأمة:** بمعنى أنه عندما تتولى السلطة تنفيذ أوامر الشريعة وحمل الناس عليها، والاحتكام إليها ، تُصبح تعاليم الشريعة سلوكاً سياسياً تسلكه الدولة مع جميع رعاياها، فتقيم الحدود، وتنفذ أحكام الشرع، وتحفظ الثغور..» (٢) .

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[المائدة ٧٨-٧٩].

(٢) أصول التربية الإسلامية لـ عبد الرحمن النحلاوي، ص٦٥-٦٦ بتصرف وزيادة يسيرة.

المبحث الثانـــي
التوجيهات القرآنية للنبي ﷺ
في مجال التربية الأخلاقية

القرآن الكريم ـ الذي مثّلت توجيهاته مصدراً رئيساً ومهماً لإكساب النبي ﷺ مزيداً من الأخلاق الحسنة فوق ما كان مجبولاً عليه ـ قد أمَرَ النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالثبات على ما فُطِرَ عليه من أخلاق عظيمة، وأرشده إلى أخلاق أُخرى بينه وبين ربه، وألزمه بأخلاق حسنة في تعامله مع المؤمنين، ودعوته للكافرين.

وحتى يتّضح موقف النبي ﷺ من هذه الأوامر والإرشادات الربّانية للنبي ﷺ في مجال الأخلاق مع الله ومع خلقه ، فقد رأيتُ أن أُقسم هذا المبحث إلى خمسة مطالب كما يلي:

المطلب الأول: ما يتعلق بأخلاقه ﷺ مع ربه ـ عز وجل ـ .

المطب الثاني: ما يتعلق بتعامله ﷺ وقيادته للطائفة المؤمنة.

المطلب الثالث: ما يتعلق بدعوته ﷺ ومواجهته للطائفة الكافرة.

المطلب الرابع: ما يتعلق بتعامله ﷺ مع عامة الناس.

المطلب الخامس: ما يتعلق بأخلاقه ﷺ في نفسه.

المطلـــب الأول

ما يتعلق بأخلاقه ﷺ مع ربــه عـــز وجـــل

أمر الله نبيه ﷺ بعدة أوامر لها أثر في تزكيته وتربيته الأخلاقية مع ربه، وهذه الأوامر عديدة، فمنها:

أولاً: أمرُ الله لرسوله ﷺ بدوام التذكر والتحدُّث بنعم الله عليه، والشكر عليها : (١)

لله نعم عامة لكل المخلوقين، وله نعم خاصة بمحمد ﷺ .

أما نعم الله على خلقه من البشر ، فإن الله ـ عز وجل ـ قد كرّم بني آدم بنعم لم يُكرِّم بها أحداً من خلقه (٢) وكلها من الله وحده، قال تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣] ، وهي كثيرة جداً وعظيمة لا يستطيع الإنسان إحصاءها فضلاً عن شكر الله ـ عز وجل ـ عليها ، وصدق الله القائل: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤ - النحل : ١٨] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: أي" .. وإن تعدوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تُطيقوا إحصاء عددها، والقيام بشكرها إلا بعون الله لكم عليها.. " (٣) ، فكل إنسان في هذه الحياة يتقلب في نعم الله التي أسبغها عليه

---

(١) هذا المطلب يتناول أخلاق النبي ﷺ مع ربه مما هو من قبيل الطباع والسلوك كما سبق في تعريفنا للأخلاق وانواعها في المطلب الأول من المبحث الأول لهذا الفصل حيث ذكرنا أن الأخلاق نوعان: منها ما يتعلق بسجية الإنسان وطباعه وسلوكه، ومنها ما يتعلق بعقيدته وعبادته لربه، وقد أفردنا لهذا الأخير فصلاً كاملاً بعنوان تربية النبي ﷺ إيمانياً.

(٢) لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

(٣) جامع البيان ٧ / ٤٥٩ .

ليلاً ونهاراً ، وقد سخّر الله له كل ما في السموات والأرض مما فيه صلاح معاشه.

ومن هنا دعا الله عز وجل خلْقه إلى النظر بعين البصر والبصيرة إلى ما امتنَّ به عليهم من النعم، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

ومن نعم الله ـ عز وجل ـ العامة لكل خلقه من البشر نعمة الرزق من السماء والأرض، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ ﴾ [فاطر: ٣] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " ... أمَرَ الله سبحانه عباده أن يتذكروا نِعَمَهُ الفائضة عليهم التي لا تُعد ولا تحصى... ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها.. " (١)

وهناك نعم خاصة أنعم الله عز وجل بها على المؤمنين ، وهي أيضاً كثيرة، فمنها ما يتعلق ببني إسرائيل (٢) ، ومنها ما يتعلق بكل مؤمن من هذه الأمة ، كما في قوله تعالى آمراً أهل الإيمان : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] (٣) .

وأنعم الله بنعم أخص وأعظم وأكثر من كل ما سبق، وذلك على سيد الخلق وأفضل الرسل محمد ﷺ ، وامتنَّ الله بها عليه ﷺ ، قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ

---

(١) فتح القدير ٤ / ٤٨٠ .

(٢) كما في قوله تعالى ـ مذكراً بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم ـ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ [البقرة: ٤٠] ، وذكر ابن كثير ١ / ٨٦ بعض ما أنعم الله به عليهم مثل: تفجير الحجر لهم ماء، وإنزال المن والسلوى، وإنجائهم من عبودية فرعون، وجعل النبوة فيهم.

(٣) وذكر الشوكاني ١ / ٥٥٣ أن " الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة... " .

نعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح : ١-٢] .

فنعم الله ـ عز وجل ـ على محمد ﷺ كثيرة، وفضائله التي اختصه الله بها على من سواه من الرسل عديدة وعظيمة ؛ فقد أنعم الله عليه بنعم تخصه في نفسه، وأخرى تتعلق بدعوته ورسالته ، وثالثة مرتبطة بأمته (١)

ومن هذه النعم التي أنعم الله بها على رسوله ﷺ ما ذكره الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآيات السابقة حيث قال في تفسير ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي: "بإظهار دينك على الدين كلّه، وقيل بالجنة، وقيل بالنبوة والحكمة، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر، والأَوْلى أن يكون المعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم وهو الإسلام ، ومعنى ﴿ يَهْدِيَكَ ﴾ يثبتك على الهُدى إلى أن يقبضك إليه" (٢)

وأيًا كان المراد بالنعمة في الآية، فالشاهد أن الله تعالى أنعم على نبيه ﷺ نعماً كبرى أعظمها نعمة النبوة والرسالة كما قال سبحانه ـ رداً على الكفار الذين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون مقسماً لهم على كمال عقل محمد ﷺ وتمام عافيته، ونافياً أن يكون فيه شائبة جنون ـ قال سبحانه: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم : ١-٢] .

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : "... واعلم أنه تعالى وصف نبيه ﷺ هنا... بنفي الجنون عنه، ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يدل على أن نعم الله كانت ظاهرة في حقه، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة.." (٣) .

---

(١) ومن هذه النعم ما رواه مسلم في ١ / ٣٧١ برقم ٥٢٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون) .

(٢) فتح القدير ٥ / ٦٥ .

(٣) التفسير الكبير ١٠ / ٦٠٠ بتصرف يسير .

وقد أمر الله رسوله ﷺ ـ بالنسبة لهذه النعم ـ بدوام تذكرها والتحدث بها كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى : ١١] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: "فالخطاب للنبي ﷺ والحُكم عام له ولغيره"(١) .

ونعم الله التي أنعم بها على نبيه وأمَرَه بالتحدّث بها والشكر عليها كثيرة فمن أعلاها " نعمة القرآن، وقبلها نعمة النبوة والرسالة" (٢) ـ كما سبق ذكره ـ ومنها ما ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة حيث قال: "أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدّث بنعمة الله عليك" (٣)

ووافقه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ على ذلك فقال: "فإن الإغناء نعمة ، فأمره الله أن يُظهر نعمة الله عليه بالحديث عنها وإعلان شكرها . . ." (٤)

وعموماً ليس المراد بنعمة الله على رسوله ﷺ الواردة في الآية " نعمة خاصة وإنما أُريد الجنس ، فيفيد عموماً في المقام الخطابي، أي حدّث ما أنعم الله به عليك من النِّعم " (٥)

والظاهر أن المراد بالنعمة كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ " العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها . . ." (٦) .

والتحدُّث بالنعمة الذي أمر الله به رسولَه ﷺ في الآية والشكر عليها يكون بما يتناسب مع كل نوع من أنواعها كما يلي:

(أ) التحدُّث بنعمة النبوة الخاصة والشكر عليها يكون بـ"تبليغه الناس أنه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٠٢ .
(٢) كما في بعض تفسير ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى ١١ عند الشوكاني ٥ / ٦١٥ وابن عاشور٣٠ / ٤٠٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٥٩ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠٣ .
(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٦) فتح القدير ٥ / ٦٥١ .

رسول من الله ، وأن الله أوحى إليه" (١) ، وهذا ما فعله النبي ﷺ فقد « كان يُعلِّم الناس الإسلام ، فيقول لمن يخاطبه : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ... (٢) » (٣)

ويكون تحديثه بنعمة الرسالة وشكره لله عليها بـ " تعريفه الناس ما يجب له - عليهم - من البر والطاعة ... " (٤)

وهذا ما فعله ﷺ طوال فترة النبوة والرسالة مع الناس أجمعين ،ولا يحتاج إلى دليل أو شاهد .

(ب) التحدُّث بنعمة القرآن الكريم وشكر الله عليها يكون بـ"قراءته على الناس... "(٥) . ليكون للعالمين نذيراً وللمؤمنين بشيراً ،كما قال تعالى : ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ** (٦) **وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ، وهذا ما التزم به ﷺ طوال فترة الرسالة .

(ج) التحدُّث ببقية النعم الأخرى - بشكل عام - يكون بـ"الشكر لله عز وجل .. (٧) ... والثناء والدعاء، و "دوام تذكرها والتحدث بها للناس" (٨)

وقد شكر رسولُ الله ﷺ ربَّه وأثنى عليه بكل النعم الصغيرة والكبيرة الظاهرة والباطنة في الدنيا والآخرة كما يتضح من الروايات المتعددة عنه ﷺ - سواء فيما يتعلق بافتتاحه خُطبَهُ ، أو صلاته بالليل، أو بعد فتح مكة وغير ذلك - ومن هذا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠٤ .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٣) وقال ابن كثير ٤ / ٥٦٠ : "..وقال محمد بن إسحاق-اي في تفسير الآية:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدِّث بها واذكرها وادع إليها ، قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما انعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من اهله.."

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠٤ .

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٦٥١ .

(٦) مُكث : اي مهل، تفسير ابن كثير ٣ / ٧٢ .

(٧) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٦٥١ بتصرف يسير .

(٨) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٩-٥٦٠ .

ما أخرجه البخاري ـ رحمه الله ـ عن تحدث رسول الله ﷺ بنعمة الله عليه وثنائه على ربه بعد الانتهاء من تناول الطعام ؛ حيث كان النبي ﷺ إذا رفع مائدته قال : (الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفيٍّ (١) ، ولا مودَّع (٢) ، ولا مستغنى عنه ربَّنا) (٣)

وهكذا أمر الله نبيه ﷺ بخلُق التحدث بنعم الله عليه، وامتثل رسولُ الله ﷺ لذلك تمام الامتثال، على كل نعمة أنعم الله بها عليه، وفي كل وقت وحين.

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بالصبر على طاعة الله وما يلقاه في سبيله:

تضمَّنت سورة المدثر المكية ـ وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ـ تضمنت ست وصايا لرسول الله ﷺ ، منها ما يتعلق بالتربية الإيمانية له (٤) ، ومنها ما يتعلق بالتربية الخُلقية لسلوكه مع ربه.

فمن ذلك : أن الله تعالى أمره بأن يصبر على ما افترضه الله عليه من طاعات وعبادات وأوامر ونواهٍ، وبلاغ مبين للعالمين، وما يعقب ذلك من أذى وتكذيب ومحاربة يلقاها من الكفار، وأن يجعل صبره هذا خالصاً لوجه الله ـ عز وجل ـ ، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ ...إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ ﴾ [المدثر : ١-٧] .

---

(١) غير مَكْفي: بفتح الميم وسكون الكاف وكسر الفاء وتشديد الياء، ويعني: غير مردود عليه إنعامه، ويُحتمل أن يكون من الكفاية ... بمعنى: أنه لا يكفي الناس في أرزاقهم أحد غير الله فهو سبحانه يُطعم عباده و يكفيهم، وقيل المعنى: أنا غير مكتفٍ بنفسي عن كفايته، وقيل المعنى: أنا لم أكتف من فضل الله ونعمته ، وقيل هو من الإكفاء وهو القلب للإناء للاستغناء عنه، وقيل المعنى: مُكافأ أي أن نعمة الله لا تكافأ.

(٢) غير مودّع: بفتح الدال الثقيلة ، أي غير متروك ، ويُحتمل كسرها على أنه حال من القائل أي: غير تارك. انظر: فتح الباري ٩ / ٥٨٠-٥٨١

(٣) صحيح البخاري ٥ / ٢٠٧٨ في كتاب الأطعمة، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه، برقم ٥١٤٣، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم في ٤ / ٢٠٨٥ برقم ٢٧١٥ .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ ﴾ [المدثر : ٣] ، وقد سبق شرح هذا بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : " أي ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته، . . . ـ فقد ـ حُمِّلت أمراً عظيماً فحاربتْك العرب والعجم، فاصبر عليه لله . . " (١) .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " أي : اجعل صبرك . . لوجه ربك " (٢)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي : لوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه، والمعنى : لأجل ربك وثوابه . . .واصبر على الأذى والتكذيب، واصبر على موارد القضاء لله ، واصبر على البلوى . . " (٣)

والصبر كما قال ابن عاشور : " . . .ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها، . . . وتقديم ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ على (الصبر) للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها . . . فيكون المعنى : أن يصبر توكُّلاً على أن الله يتولّى جزاءهم . . " (٤)

وقد صبر رسول الله ﷺ لربه صبراً عظيماً، وصبر على طاعته لربه، وصبر على البلاغ بكلام رب العالمين ، وصبر على ما أصابه في سبيل ذلك حتى أتاه اليقين.

ثالثاً: نهي الله لرسوله ﷺ عن العزم على فعل شيء دون تعليقه بمشيئة الله عز وجل:

ما من شيء في هذا الكون يكون إلا بمشيئة الله ـ عز وجل ـ كما قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] ، وما من شيء يريده الإنسان إلا بعد إرادة الله عز وجل له، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

ومعنى هذا أن ما لم يشأ الله إيجاده ووقوعه، لن يوجد ولن يقع حتى لو شاء

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ١٩ / ٦٩ بتصرف واختصار .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٧١ باختصار .
(٣) فتح القدير ٥ / ٤٥٦ بتصرف واختصار .
(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٩٩-٣٠٠ باختصار.

الإنسان ذلك، فكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ـ سبحانه ـ ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء الله لهم ، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن " (١) .

ومن هذا المنطلق فقد أمر الله نبيه ﷺ الا يعزم على فعل شيء، أو يعد بالقيام به إلا مُعلّقاً إياه بمشيئة الله ـ سبحانه ـ ، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] .

ففي هذه الآية نهيٌ من الله لرسوله ﷺ أن ينسى ذكر ربه عند إرادته فعل شيء ما، وفي هذا نوع من أنواع التربية لرسول الله ﷺ ؛ ليتطبع على خلُق وسجية كريمة لابد لكل مؤمن من التحلي بها حتى تصير طبعاً في كل أقواله وأفعاله ، فيربط كل ذلك بمشيئة الله مهما تجمّعت عنده أسباب النجاح وعوامل الإنجاز، أو قضاء الحاجة وإدراك الطلب، ومهما أمِن من أسباب الفشل والإحباط.

وسبب نزول هذه الآية كما ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: " قال: بَعَثَتْ قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبِروهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأوّل ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسالوا (٢) أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال: فقالوا سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقوّل ، فتروا فيه رأيكم، سلوه عن: فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ ،وسلوه عن الروح ماهو؟ ، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتّبعوه ، وإن لم يُخبركم فإنه رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، . . .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٤٥ .

(٢) فسالوا: هكذا في الأصل، ولعل الصواب فسألا .

حتى قال: فجاءوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: (**أُخبركم غداً عما سألتم عنه**)، ولم يستثنِ - أي لم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحْدِثُ الله له في ذلك وحيًّا، ولا يأتيه جبرائيل - عليه السلام -، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يُخبرنا، ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من الله - عز وجل - بسورة أصحاب الكهف..." (١)

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

" هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يردَّ ذلك إلى مشيئة الله - عز وجل - علام الغيوم الذي يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.." (٢)

وقال الشوكاني - رحمه الله -: "... فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء

---

(١) تفسير ابن كثير٣ / ٧٦، وانظر: الدر المنثور للسيوطي٥ / ٣٧٧، والحديث في دلائل النبوة للبيهقي٢ / ٢٧٠-٢٧١.

وقد أخرج البخاري في صحيحه ٦ / ٢٦٦١ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يُكره من كثرة السؤال.. برقم ٦٨٦٧ . أخرج البخاري نحو جزء منه حيث قال: " عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « كنتُ مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يُسمعكم ما تكرهون، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر، فعرفتُ أن يوحى اليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

هذا ما أخرجه البخاري، وأما بقية الحديث فلم أعثر عليه إلا عند البيهقي - كما سبق ذكره - أو في كتب التفسير - كما سبق ذكره أيضاً، والله أعلم.

والملاحظ من الروايتين ما يلي:

[أ] رواية البيهقي أشمل، وسبب نزولها ما ورد في تفسير سورة الكهف من سؤال كفار قريش لرسول الله ﷺ - بتعليم من اليهود - الأسئلة الثلاثة عن: أهل الكهف، وذي القرنين، والروح.

[ب] رواية البخاري أقصر، وسبب نزولها ما ورد في تفسير سورة الإسراء من سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح، ورواية البخاري أصح كما هو معلوم.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٨٣.

بمشيئة الله يقول: إذا قلت لشيء إني فاعل ذلك غداً، فقل: إن شاء الله ... فعبّر عنه بالغد، ولم يُرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً..." (١)

وهكذا ألزم الله نبيه ﷺ أدب الاستثناء في كل شيء ينوي فعله أو يعزم عليه ويتلفظ به.

رابعاً: أمر الله لرسوله ﷺ باستغلال أوقات الفراغ فيما ينفعه عند ربه:

من الأخلاق المذمومة أن يتعوَّد المرء صرف أوقاته في غير النافع له في دنياه وآخرته، أو يبقى في فراغ يُحاسب عليه يوم القيامة، وصدق النبي ﷺ في قوله: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**) (٢)

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: "فالصحة والفراغ رأس المال... فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء، الخالدة إلى الراحة، فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة فقد غُبن ـ أي ذهب ربحُه ونقص ـ، وكذلك إذا كان فارغاً..." (٣).

ولا شك أن كثيراً من الناس يتنعمون بالصحة والفراغ، لكن القليل منهم من يستفيد من ذلك، ويجعله في طاعة الله ـ عز وجل ـ.

ورسولُ الله ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة في عمارة أوقاته بطاعة الله، والنافع المفيد له وللإسلام والمسلمين، قد أمره ربّه ألا يدع لحظة من لحظات حياته ـ إن كان في فراغ ـ تمرُّ عليه دون الإقبال على الله، وبذل المزيد من الجهد في عبادته والتقرب إليه، فقال سبحانه مخاطباً إياه: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب** ﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "... فالمعنى إذا أتممت عملاً من مهام

(١) فتح القدير ٣ / ٣٩٧ بتقديم وتأخير.
(٢) البخاري ٥ / ٢٣٥٧ في كتاب الرقاق، باب: ما جاء في الصحة والفراغ، برقم ٦٠٤٩ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأخرجه الإمام أحمد في ١ / ٤٢٩ برقم ٣٢٠٦، والبيهقي في ٣ / ٢٧٠.
(٣) فتح الباري ١١ / ٢٣٠-٢٣١ باختصار.

الأعمال، فأقبل على عملٍ آخر، بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة ... وتقديم ﴿ فَرَغْتَ ﴾ على ﴿ فَانصَبْ ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتعاقب الأعمال.. وتقديم ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ على ﴿ فَارْغَب ْ ﴾ لإفادة الاختصاص أي: إليه لا إلى غيره تكون رغبتك..." (١)

وقال ابن كثير-رحمه الله-: " أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقُم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخْلِص لربك النيّة والرغبة.." (٢)

وقال الشوكاني-رحمه الله-: " أي إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ أو من الغزو فانصب.." (٣) . وأيًّا كان الأمر الذي يُراد الفراغ منه -سواء ما يتعلق بمشاغل الدنيا أو شئون الدين من صلاة وتبليغ وغزو وغيرها- فإن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ ألا يمر عليه وقت دونما استغلاله في تقديم خير لنفسه عند الله، مِنْ: دعاء ونوافل الطاعات، كما قال الشوكاني-رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَانصَبْ ﴾ "أي: فاجتهد في الدعاء واطلب من الله حاجتك،... أو إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك.. أو فإذا فرغت من التشهد فادعُ لدنياك وآخرتك .. أو فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات..." (٤) .

أو كما ذكر ابن كثير-رحمه الله-في تفسير ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي: "إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل.." (٥) .

وقد امتثل الرسول ﷺ أمر ربه فاستغل كل أوقات فراغه في بذل الجهد لعبادة

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤١٧-٤١٨ باختصار .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٦٢ .
(٣) فتح القدير ٥ / ٦٥٧، والنصب هو التعب، يقال نَصَبَ يَنْصَبُ نَصَباً، انظر: لسان العرب١ / ٧٥٨ .
(٤) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة بتصرف واختصار .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٦٢ .

ربه ، بل كان يجهد نفسه بالعبادة بما لا يطيقه غيره ، ولم يُؤثَر عنه أبداً أنه مرّ عليه وقت من أوقات فراغه دونما بذل الجهد في الإقبال على الله ـ عز وجل ـ تارةً (بالدعاء وتارة بالاستغفار ، وتارة بقيام الليل، وتارة بجميع أنواع الذكر من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل، وتارة بتلاوة القرآن قائماً وقاعداً وراقداً) (١) وتارةً بقضاء حوائج الناس، ولم يؤثر عنه ﷺ أنه أهمل أو فرّط أو تكاسل أو غفل عن استغلال وقته فيما ينفع به نفسه والمسلمين في أمور الدنيا والآخرة ، بل كان ﷺ عالي الهمة، مسارعاً إلى الخيرات.

وقد سبق الكثير من الأدلة على ذلك كله في فصل: " التربية الإيمانية للنبي ﷺ " (٢)

---

(١) قد سبق ذكر شواهد ذلك كله في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

(٢) راجع الفصل الثالث من الباب الثاني في هذه الرسالة.

المطلب الثاني

ما يتعلق بتعامله ﷺ وقيادته للطائفة المؤمنة

لم يكن القرآن ليربي النبي ﷺ أخلاقياً فيما يتعلق بصلته بربه فقط، بل إن القرآن الكريم قد أرشد النبي ﷺ لجملة من الأخلاق المتعلقة بسلوكه الاجتماعي مع الصحابة الكرام - ﷺ - مما زاده بها محبّة في قلوبهم ورفعةً عندهم.

وتتضح هذه الإرشادات الربّانية القرآنية للنبي ﷺ من خلال النقاط التالية:

أولاً: أمر الله لرسوله ﷺ بالتواضع وخفض الجناح لأهل الإيمان:

عُرف عن رسول الله ﷺ واشتهر عنه أنه كان عظيم التواضع في نفسه - قبل النبوة وبعدها - ؛ فقد كان يرعى الأغنام، ويشتغل بالتجارة قبل النبوة (١) ، أما بعدها فقد ثبت أنه كان - لتواضعه - يُسلّم على الصبيان إذا مرّ بهم، ويمازحهم، ويُردف بعضهم على حمار وغيره، ويتعاقب مع غيره على بعير واحد، وإذا غزا مع صحابته انتظر متأخّرهم وساعده في دابته إن أبطأت عن السير، وكان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين والجارية لقضاء حاجتهم، ولا يستكبر عن قبول الضيافة في منازل الصحابة المتواضعة، وكان يقعد على وسادة من أدم (٢) محشوة بالليف، ويجلس ليأكل كما يجلس العبد، ويأكل الأسودين (٣) ، وكان

---

(١) راجع المطلب الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول.

(٢) أدَمَ: الأدَمَ والآدام والأُدُم: جمع أديم وأدَمَة وهو باطن الجلد الذي يلي اللحم والبشرة ظاهرها، وقيل: ظاهره الذي عليه الشعر. والمقصود هنا الوسادة من الجلد. انظر لسان العرب ١٢ / ١٠

(٣) الأسودين: هما التمر والماء" على رأي بعض علماء اللغة العربية" وإنما الأسود هو التمر دون الماء، وهو الغالب على تمر المدينة ، فأضيف الماء إليه ونُعتا جميعاً بنعت واحد إتْباعاً، والعرب تفعل ذلك في الشيئين يصطحبان يُسميان معاً بالاسم الأشهر منهما كقولهم القمران للشمس والقمر.
انظر: لسان العرب ٣ / ٢٢٦ .

ينقل التراب واللَّبِن [١] ، ويكسر الحجارة، وينشد مع الصحابة [٢] - رضي الله عنهم - ، وكان ينام على الحصير. هكذا كان رسول الله ﷺ مع صحابته الكرام - رضي الله عنهم - . أما حاله مع أهله فقد عُرف عنه ﷺ أنه كان في بيته يخصف نعله، ويحلب شاته، ويخيط ثوبه، ويخدم أهله، وغير ذلك [٣]

ويضاف إلى ذلك أنه كان ﷺ يلاعب الصغار، ويحملهم على ظهره، ويضمهم لصدره، ويُقبلهم - ﷺ - كما كان يفعل مع أُمَامَة بنت العاص ابنة ابنته زينب، ومع الحسن والحسين ولدى ابنته فاطمة - رضي الله عنهم أجمعين - .

وكان ﷺ - بشكل عام - ينهى الصحابة عن مدحه والغلو في تعظيمه قائلاً لهم : **(لا تُطروني [٤] كما أطرت النصارى ابن مريم [٥] ، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله)** [٦] .

وكان ﷺ ينهى عن تفضيله على الأنبياء - رغم أنه أفضلهم كما هو معلوم - فكان يقول: **(ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متَّى)**، ونَسَبَهُ إلى أبيه [٧]،

---

(١) اللبن: جمع لبنة، وهي قطعة الطين الصلب التي يُبنى بها. انظر: لسان العرب١٣ / ٣٧٥ مادة لبن.

(٢) كإنشاده ﷺ وهو ينقل التراب يوم الخندق مع الصحابة - حتى اغبر بطنه - قائلاً:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا ... إن الألى قد أبوا علينا

اخرجه مسلم في ٣ / ١٤٣٠، في كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق، برقم١٨٠٣ عن البراء- رضي الله عنه - ووردت عدة صيغ أخرى لمسلم وغيره.

(٣) سأشرح ذلك بالتفصيل في حسن عشرته ﷺ لأهله،في فقرة" تأكيد القرآن على عظمة أخلاق النبي ﷺ " فيما يلي من هذا الفصل.

(٤) تطروني: من الإطراء وهو الإفراط في المديح، ومجاوزة الحد فيه، وقيل هو المديح بالباطل والكذب فيه.

(٥) كما أطرت النصارى عيسى بن مريم: أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك. فتح الباري ٦ / ٤٩٠ .

(٦) البخاري في ٣ / ١٢٧١ في كتاب الأنبياء، باب: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ برقم ٣٢٦١ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، واخرجه الإمام احمد في مسنده ١ / ٢٩ برقم ١٥٤ بلفظ (عيسى بن مريم) ، وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة ٣ / ١٣٧٢ برقم ٤٨٩٧ .

(٧) مسلم في ٤ / ١٨٤٦ في كتاب الفضائل، باب: في ذكر يونس- عليه السلام - برقم٢٣٧٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما، واخرجه الإمام احمد في ٢ / ٧١٣ برقم ١٠٩٣٤، وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح في ٣ / ١٥٩١ برقم ٥٧١٠ .

وصحَّ أنه كان ﷺ يدعو الله قائلاً: (**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين**) (١)

وكان الصحابة رضي الله عنهم يرسلون إليه أوانيهم فيها ماء بعد صلاة الغداة ليغمس يده فيها ليتبركوا بذلك، فلا يردها، وربما كان ذلك في البرد الشديد .

فقد صحّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: " كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يُؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها" (٢)

ورغم هذا كله إلا أن الله ـ عز وجل ـ أمر رسوله ﷺ أن يزيد من قُربه وتواضعه للمؤمنين، وخفض جناحه لهم ـ في أكثر من موضع : فمن ذلك قوله ـ سبحانه مخاطباً إياه ـ : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر :٨٨].

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢١٥) ﴾ [الشعراء :٢١٥]

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ " والمعنى: أَلِن جناحك وتواضع لمن اتَّبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة والكرامة، وتجاوز عنهم" (٣) .

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بخفض جناحه للمؤمنين ـ رجالاً ونساءً وإماءً ـ فأظهر لهم من التواضع والمحبة والكرامة ـ في السفر والحضر ـ ما جعلهم يشهدون

---

(١) ابن ماجة في٢ / ١٣٨١ في كتاب الزهد، باب: مجالسة الفقراء،برقم ٤١٢٦ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح سُنن ابن ماجة ٢ / ٣٩٦ برقم ٣٣٢٨، وأخرجه الترمذي في ٤ / ٤٩٩ برقم ٢٣٥٢ ، وأخرجه البيهقي في السُنن الكبرى ٧ / ١٢ .

(٢) مسلم في ٤ / ١٨١٢ في كتاب الفضائل، باب: قُرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به، برقم ٢٣٢٤، وأخرجه البغوي في شرح السُّنة في ١٣ / ٢٤٣-٢٤٤ برقم ٣٦٧٧ ، وذكره الخطيب في المشكاة ٣ / ١٦١٧ برقم٥٨٠٨ .

(٣) فتح القدير ٤ / ١٧١ .

بذلك، بل ويُقسمون عليه كما ثبت عن عثمان بن عفان (١) - رضي الله عنه - ، فقد صحّ عنه قوله: "إنا والله قد صحبنا رسولَ الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير..." (٢) .

ونذكر هنا شاهداً على تواضعه ﷺ وتحببه لأهل الإيمان باستجابته لدعوة من يدعوه لطعام، وإن كان الداعي امرأة عجوزاً ، في منزل متواضع، فقد صحَّ عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - « أن جدَّته مُليكة (٣) دَعَتْ رسولَ الله ﷺ لطعام صَنَعَتْهُ فأكلَ منه، ثم قال : (قوموا فأصلي لكم) قال أنس رضي الله عنه: فقمتُ إلى حصير لنا قد اسودَّ من طول ما لُبس (٤) ، فنضحتُه بماء، فقام عليه رسولُ الله ﷺ ، وصففتُ أنا واليتيم (٥) وراءه، والعجوز من ورائنا (٦) ، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف » (٧) .

---

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية.. بن عبد مناف، القرشي الأموي، يجتمع هو ورسول الله ﷺ في «عبد مناف» ، يكنى أبا عبدالله، وقيل أبو عمرو، وهو ذو النورين ، وأمير المؤمنين، أسلم في أول الإسلام، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم، وكان يقول: إني لرابع أربعة في الإسلام، ولما أسلم زوّجه رسول الله ﷺ بابنته رقية، وهاجرا كلاهما إلى أرض الحبشة الهجرتين، وتزوج بعد رقية أم كلثوم.. ولم يشهد عثمان بدراً بنفسه لأن زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ كانت مريضة على الموت فأمره رسول الله ﷺ أن يقيم عندها فأقام، وتوفيت يوم ورد الخبر بنصر المسلمين على المشركين، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره فهو كمن شهدها، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وهو أحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وثالث الخلفاء الراشدين، قتل بالمدينة يوم الجمعة لثمان عشرة أو سبع عشرة خلت من ذي الحجة ، وقيل غير ذلك، سنة خمس وثلاثين من الهجرة.

انظر: أسد الغابة٣ / ٦٠٦-٦١٨ترجمة رقم٣٥٨٣، و:تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٦٥-١٨٤، و:تقريب التهذيب١ / ٦٦٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٣٧٨، برقم ٥٠٤ ، وقال أحمد شاكر : إسناده حسن.

(٣) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ٥ / ١٦٢(الصحيح .. أنها أم أنس).

(٤) ما لُبس: أي فُرِش .

(٥) اليتيم: هو ضمير بن سعد الحميري .

(٦) العجوز من ورائنا: أي أم أنس (أم سليم) كما ذكره النووي. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم٥ / ١٦٢، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٤٥٧ لـ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٧) أخرجه مسلم في ١ / ٤٥٧ في كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : جواز الجماعة في النافلة والصلاة على حصير برقم ٦٥٨ ،وأخرجه الإمام أحمدفي مسنده ٣ / ١٨٨برقم ١٢٤٩١، والبغوي في شرح السنّة ٣ / ٣٨٧ .

يتضح لنا من هذا الحديث عدة مظاهر تدل على خفض رسول الله ﷺ جناحه لأهل الإيمان ـ ومنهم صاحبة الدعوة ـ وذلك كما يلي:

(أ) استجابته ﷺ لدعوة المرأة العجوز وتناول طعامها الذي صنعته بيدها فيه دليل على حرصه ﷺ على تطييب خاطرها، وتلبية ندائها رغم أنها لم تَدْعُهُ لوليمة عُرس، كما قال النووي ـ رحمه الله ـ : "وفي هذا الحديث إجابة الدعوة وإن لم تكن وليمة عرس..." (١)

(ب) صلاته ﷺ ركعتين في المنزل الذي دُعي إليه ـ إماماً بمن فيه ـ على حصير قد اسودَّ من طول ما فرش بلَّلهُ أنس بالماء ليَلين ؛ فإنه كان من جريد النخل، كما قال النووي ـ رحمه الله ـ فيه دليل آخر على عدم تعاليه ﷺ، بل وحرصه على مكافأة وتعليم من صنع له معروفاً ـ بنفسه ـ .

قال النووي ـ رحمه الله ـ عن دلائل صلاته ﷺ بهم: "..فيه...تبريك الرجل الصالح والعالم أهل المنزل بصلاته في منزلهم، وقال بعضهم: لعلّ النبي ﷺ أراد تعليمهم أفعال الصلاة مُشاهدة مع تبريكهم ؛ فإن المرأة قلّما تشاهد أفعاله ﷺ في المسجد، فأراد أن تشاهدها وتتعلمها وتُعلمها غيرها" (٢)

وهكذا تشهد الرواية السابقة وغيرها من الروايات الصحيحة على كمال تواضعه ﷺ، وخفض جناحه للمؤمنين امتثالاً لأمر ربه، وسيراً على سجيته التي طُبع عليها قبل النبوة ومارسها بعدها، فقد "أجمع من عاصر النبيّ ﷺ واجتمع به أنه كان يبدأ أصحابه بالسلام، وينصرف بكليته إلى محدِّثه صغيراً كان أو كبيراً، وكان آخر من يسحب يده إذا صافح، وكان يذهب إلى السوق، ويحمل بضاعته بنفسه، ... ولم يتكبر عن عمل الأجير والصانع ـ سواء كان في بناء

---

(١) كما في صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٦٢ .

(٢) حتى قال عنه المنافقون ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة التوبة آية ٦١ : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ الآية . قال ابن كثير في تفسيره ٢ / ٣٨٠ : " اي من قال له شيئاً صدقه" .

مسجده الشريف أو حفر الخندق ـ . . . وكان يقبل عذر المعتذر، . . . ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم. . ." (١)

فصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً.

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بالعفو عن الصحابة، والاستغفار لهم:

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بأمرٍ يزيده حبّا في قلوب أصحابه ـ ﷺ ـ ، ويحقق لهم أماناً في الدنيا ونجاة في الآخرة من عذاب الله .

لقد أمر الله نبيه ﷺ بالعفو عن الصحابة الكرام ـ ﷺ ـ إن قصَّروا في حقه أو بدرت منهم هفوات، وأمره بالاستغفار لهم مما قد يقعون فيه من أخطاء في حق الله ـ عز وجل ـ .

قال ـ سبحانه ـ ممتنّاً على نبيه ﷺ بما جعل في قلبه من رحمة لان بسببها للصحابة الكرام وتألّفهم حوله ـ وآمراً له بالعفو عن الصحابة والاستغفار لهم ـ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران :١٥٩] .

من أسماء الله ـ سبحانه ـ وصفاته أنه : عفوٌ، وحريٌّ بالعبد أن يتخلق بصفات سيده في التعامل مع من أخطأ في حقه ـ بتجاوز أو تقصير ـ .

ومن هنا فقد أمر الله نبيه ﷺ في الآية السابقة أن يعفو عن الصحابة ما بدر منهم في حقه بغير قصد وتعمُّد .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " أي :اعف عنهم فيما يتعلق بك من الحقوق "(٢).

فإذا كان هذا الخُلق ـ أي صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته. . . ـ سبباً في دخول كثير في الإسلام. . . ـ فمن باب أَوْلى أنه سبب في تأليف قلوب الصحابة الكرام حول رسول الله ﷺ ، وهم أَوْلى بذلك من غيرهم، ومن المعلوم أن هذه

---

(١) تربية الأولاد ، عبد الله علوان – رحمه الله – ٢ / ٦٤٠ باختصار.

(٢) فتح القدير ١ / ٥٩٣ .

الآيات وما قبلها نزلت فيما يتعلق بغزوة أُحُد التي أصاب فيها رسولَ الله ﷺ والمسلمين ما أصابهم بسبب ما وقع من الرماة من مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، ونزول أكثرهم من على جبل الرماة وتخلية ظهر المسلمين للعدو.

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : " إن السياق هنا يتجه إلى رسول الله ﷺ وفي نفسه شيء من القوم، تحمسّوا للخروج ثم اضطربت صفوفهم، فرجع ثلث الجيش قَبْلَ المعركة، وخالفوا بعد ذلك عن أمره، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ﷺ، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين، وأفردوه ﷺ في النفر القليل، وتركوه ﷺ يُثخن بالجراح، وهو ﷺ صامد يدعوهم في أُخْرَاهم، وهم لا يلوون على أحد، يتوجه إليه ﷺ أي سياق الآية ـ يطيِّب قلبه، وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم... ثم يدعوه ﷺ أن يعفو عنهم ويستغفر اللهَ لهم.. " (١) .

وواضح من أمره تعالى لنبيه ﷺ في الآية السابقة (٢) أن الله تعالى لم يكتف بطلبه سبحانه من رسوله ﷺ العفو عن الصحابة مما بدر منهم فقط ، بل أَمَرَهُ أيضاً بالاستغفار لهم بقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " أي واستغفر لهم الله فيما هو إليه سبحانه" (٣) .

فالله ـ عز وجل ـ وصف نفسه بأنه الغفور،الغفار،غافر الذنب،وإذا كان استغفار العبد ربه يرفع عنه العذاب ، ويقيه ذلك ويستنزل له رحمة الله ـ عز وجل (٤) ، ويجلب له من الأرزاق والنعيم ما الله به عليم (٥)، ويحقق له مغفرة الله ودخول

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ٥٠٠

(٢) المقصود قوله تعالي في سورة آل عمران١٥٩فيما يتعلق بتعامله مع الصحابة ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾.

(٣) فتح القدير ١ / ٥٩٣ بتصرف يسير جداً

(٤) لقوله تعالى على لسان رسوله صالح ﷺ لقومه : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ . [النمل: ٤٦]

(٥) كما في قوله تعالى على لسان نوح لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

جنته (١) ، فما بالنا باستغفار رسول الله ﷺ - أفضل الخلق على الإطلاق - للصحابة الكرام ؟!،وكم يا ترى سيجلب استغفاره من خير عظيم لهم - رضي الله عنهم - ؟!.

والقرآن الكريم قد أمر النبي ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات في أكثر من موضع (٢) ، فامتثل لذلك ليس فيما يتعلق بغزوه أحد ومن فيها فقط، بل في غيرها من الأحداث ، ولغيرهم من الأقوام أفراداً وجماعات، أحياءً وأمواتاً، فاستغفر للأنصار تارة لوحدهم ، وتارة مع المهاجرين (٣) ، واستغفر لذراريهم ومواليهم، واستغفر للمحلِّقين والمقصِّرين في غزوة الحديبية (٤) ، واستغفر لبعض من أذنب من الصحابة - رضي الله عنهم - (٥) ، ولأفرادٍ من موتى المسلمين - سواء في صلاة الميت أو غيرها - (٦) ، واستغفر لأهل البقيع - رضي الله عنهم - وغير ذلك.

ونستشهد هنا بأعظم موقف استغفر فيه رسولُ الله ﷺ للأنصار ودعا لهم، بعد عتاب لطيف منه لهم - في غزوة حنين - عَلَى وَجْدهم عليه لتقسيمه الغنائم على رؤساء القبائل وأشراف مكة وغيرهم من المؤلفة قلوبهم، وحرمان الأنصار من كلّ ذلك ، فوجد الأنصار في نفوسهم شيئاً.

وقال قائلهم :لقي واللهِ رسولُ اللهِ ﷺ قَوْمَهُ. .والقصة مبسوطة في كتب السيرة (٧)

---

(١) لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران ١٣٥-١٣٦] .

(٢) كما في قوله تعالى في سورة محمد : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد :١٩] ،وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الممتحنة : ١٢] .

(٣) كما ثبت عند مسلم في ٣ / ١٤٣ برقم ١٨٠٥ من دعائه ﷺ وارتجازه يوم الخندق قائلاً:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة . (رواه انس بن مالك رضي الله عنه) .

(٤) كما ثبت عند مسلم في ٢ / ٩٤٦ برقم ١٣٠٢ عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا يا رسول الله : وللمقصرين، قال : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين، قال : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : يا رسول الله، وللمقصرين، قال: (وللمقصرين) .

(٥) مثل أسامة بن زيد الذي قتل مشركاً بعد تلفظه بلا إله إلا الله، وقد رواه مسلم برقم ٩٧ في١ / ٩٧ .

(٦) كاستغفاره لأبي سلمة بعد موته، وقد رواه مسلم برقم ٩٢٠ في ٢ / ٦٣٤ .

(٧) مثل الرحيق المختوم ص٤٢٠ .

وبعض كتب الحديث (١) ، والشاهد أن النبي ﷺ في نهاية خطبته التي وجهها للأنصار بعد أن خلا بهم ، وذَكَر فضلهم ومِنَّتَهم عليه، وغير ذلك مما أبكاهم حتى اخضلَّت لحاهم، دعا لهم واستغفر قائلاً: **(اللهم اغفر للأنصار، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار)** (٢) .

وكان رسول الله ﷺ لشدة شفقته ورحمته يستغفر للمنافقين، ولم يكف عن ذلك إلا بعد أن نهاه الله سبحانه، وكان يستغفر لأبي طالب حتى نُهي عن ذلك.

ثالثاً: أمر الله لرسوله ﷺ بمشاورة الصحابة في الأمور العامة والمهمة :

أمَرَ الله رسوله ﷺ بمشاورة أهل الإيمان في كل قضية مُهمَّة وعامة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " أي في الأمر الذي يرِد عليك: أيِّ أمرٍ كان مما يُشاور في مثله أو في أمر الحرب خاصة... والمراد هنا المشاورة في غير الأمور التي يَرِد الشرع بها... " (٣)

والشورى تعنى" استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مُشكلات الأمور..." (٤) أو "الاستعانة برأي المستشارين... في الأمر المهم المُشكِل من شئون المرء في نفسه، أو شئون القبيلة، أو شئون الأمة" (٥) . وهي " من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام" (٦) .

---

(١) مثل صحيح البخاري٤ / ١٨٦٢ برقم ٤٦٢٣، وسنن الترمذي٥ / ٦٧٢ برقم٣٩٠٩، والحاكم ٤ / ٨٠، وغيرهم .

(٢) أخرجه مسلم في ٤ / ١٩٤٨ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار، برقم ٢٥٠٦ عن زيد ابن ارقم ـ ﷺ ـ، وأخرجه الترمذي في ٥ / ٦٧٢ برقم ٣٩٠٩، والحاكم في مستدركه ٤ / ٨٠ .

(٣) فتح القدير ١ / ٥٩٣ بتصرف يسير جداً.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٢٥٤، للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ) ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٠م، بيروت، لبنان.

(٥) تفسير ابن عاشور ٤ / ١٤٧ بتصرف يسير.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤ / ٢٤٩

وقد أمر الله نبيه ﷺ أمر ربه بممارسة الشورى مع أهل الإيمان من صحابته الكرام، وقبل أن نُفصّل القول في ذلك، نؤكد على أنه ﷺ كان يدعو أهل بيته لممارسة الشورى في الأمور المهمة المصيرية في حياتهم (١) ، وكذلك كان يدعو الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لممارستها (٢) ، فالشورى كما قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، أيْ فَطَرَهُ على محبة الصلاح وتَطَلُّب النجاح في المساعي " (٣) والشورى ـ لا شك ـ أحد أسباب النجاح والسداد فيما حقه الاستشارة.

ولذا فلا عجب أن تأمر آيات القرآن الكريم رسولَ الله ﷺ بممارسة الشورى مع الصحابة الكرام كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: " وقد دلت الآية على أن الشورى مأمور بها الرسول ﷺ (٤) فيما عبر عنه بـ ﴿ الأَمْرِ﴾ ، وهو مُهمات الأمة ومصالحها في الحرب وغيره، وذلك في غير أمر التشريع ؛ لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه،وإن لم يكن فيه وحي وقلنا بجواز الاجتهاد للنبي ﷺ ،فلا تدخل فيه الشورى؛لأن شأن الاجتهاد أن يستند إلى الأدلة لا للآراء ، والمجتهد لا يستشير

---

(١) لما صح عند مسلم في ٢ / ١١٠٤ في كتاب: الطلاق، باب: بيان ان تخيير امراته لا يكون طلاقاً... برقم ١٤٧٨ عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: " دخل ابو بكر يستاذن على رسول الله ﷺ ...إلى ان قال جابر: ثم نزلت عليه – اي على رسول الله ﷺ – ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا﴾ [الاحزاب: ٢٨-٢٩] ، ـحتى بلغ ﴿للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ ، قال: فبدا بعائشة رضي الله عنها ـاي بدا رسول الله ﷺ بتخيير عائشة رضي الله عنها بالطلاق – فقال: (يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ ، فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة...) الخ الحديث ... .

(٢) كما في قوله ﷺ : (البكر تُستامر، والثيب تُشاور..) اخرجه احمد في ١٢ / ١٠٢ برقم ٧١٣١ عن ابي هريرة رضي الله عنه ، وقال احمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٤ / ١٥٠ .

(٤) ذكر ابن عاشور في تفسيره ٤ / ١٤٨ وما بعدها اختلاف الفقهاء في حكم الشورى بناء على الامر في الآية ﴿وشاورهم﴾ هل هو للوجوب اوللندب،وهل هوخاص بالرسول اوعام له ولغيره من ولاة الامور فليُراجع في موضعه.

غيره إلا عند القضاء باجتهاده..." (١)

ومن هذا المنطلق فقد كان شأن النبي ﷺ دائماً وأبداً استشارة الصحابة في القضايا الكبرى فيما يعود عليهم بالنفع لدرء المفاسد وجلب المصالح ونحو ذلك، ولتحقيق عدة حكم للشورى كما ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أن النبي ﷺ كان "يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم ؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.."(٢).

وكما ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أن رسول الله ﷺ كان يشاور الصحابة "لاستجلاب مودتهم ، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منها ـ أي من الشورى ـ أحد بعده..." (٣)

وتذكر كتب التفسير والسِّيَر أن رسول الله ﷺ شاور الصحابة في أكثر من حادثة مهمة ، فمن ذلك الخروج لغزوة بدر، ثم شاورهم في منزل الجيش أين يكون، ثم شاورهم في شأن أسراها بعد الحرب، وكذلك شاور النبيُّ ﷺ الصحابة في غزوة أحد من حيث القعود في المدينة أو الخروج لقتال الأعداء خارجها، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة، وشاورهم يوم الحديبية في الميل على ذراري المشركين، وشاورهم في قصة الإفك كيف يفعل بمن افترى الكذب على أهله الذين لا يعلم عنهم إلا خيراً، واستشار عليّاً وأسامة (٤) في فراق عائشة ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً ـ في حادثة الإفك، واستشار ﷺ

(١) تفسير التحرير والتنوير ٤ / ١٤٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٢٩ .
(٣) فتح القدير ١ / ٥٩٣ بتصرف يسير جداً.
(٤) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن امرئ القيس، الكلبي، ولد بمكة ونشأ على الإسلام ، أمه: أم أيمن حاضنة النبي ﷺ ، يكنى أبا محمد، وقيل أبو زيد، وقيل أبو يزيد، وقيل أبو خارجة، وهو مولى رسول الله ﷺ من أبويه، وكان يسمى حِبُّ رسول الله ﷺ ،واستعمله النبي وهو ابن ثماني عشرة سنة، ولم يبايع عليًّا رضي الله عنه ولا شهد معه شيئاً من حروبه، روى عنه أبو عثمان الهندي ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة، توفي آخر أيام معاوية سنة ثمان أو تسع وخمسين هجرية، وقيل توفي سنة أربع وخمسين- ورجحه ابن الأثير- ، وقيل توفي بعد قتل عثمان بالجرف- وهو موضع بينه وبين المدينة ثلاثة أميال-وحُمل إلى المدينة، له في كتب الحديث ١٢٨ حديثاً. انظر: أسد الغابة لابن الأثير١ / ١٠١-١٠٤ترجمة رقم ٨٤ و:سيرأعلام النبلاء للذهبي٢ / ٤٩٦و:تقريب التهذيب لابن حجر١ / ٧٦ .

عموم الجيش في رد سبي هوازن، وغير ذلك كثير.

ونستشهد هنا بأهم قصة وأول معركة استشار رسول الله ﷺ فيها أصحابه وهي غزوة بدر،فقد ثبت عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ "أن رسول الله ﷺ شاور (١) حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فاعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة (٢) فقال: إيَّانا تريد؟ يا رسول الله؟ ، والذي نفسي بيده ، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها (٣) ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها (٤) إلى بَرْك الغُماد لفعلنا (٥) ، قال فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً..." (٦) .

نلاحظ من هذه الرواية أن رسول الله ﷺ استشار الصحابة في شأن قتال كفار قريش ؛ لأنه كما ذكر النووي ـ رحمه الله ـ :"لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو، إنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده ، فلما عرض الخروج

---

(١) شاور: قال العلماء إنما قصد رسول الله ﷺ بمشاورته هذه اختيار الأنصار ؛ لأنه ﷺ لم يكن بايعهم على الخروج معه للقتال ، وطلب العدو خارج المدينة.

(٢) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الانصاري سيد الخزرج، يكنى ابا ثابت وابا قيس، ويلقب بالكامل لمعرفته الكتابة والرماية والسباحة، شهد العقبة، واحد، والخندق وغيرهما.. وكان احد النقباء، كان مشهوراً بالجود ؛ فقد كان يُغشى كل ليلة ثمانين من اهل الصفة. خرج إلى الشام ، فمات بحوران سنة خمس عشرة للهجرة

انظر: الإصابة لابن حجر ٣ / ٨٠، و: سير اعلام النبلاء للذهبي١ / ٢٧٠، و:تقريب التهذيب لابن حجر١ / ٣٤٤ .

(٣) لاخضناها: يعني الخيل، اي لو أمرتنا بإدخال خيولنا في البحر وتمشيتنا إياها فيه لفعلنا.

(٤) أن نضرب اكبادها: كناية عن ركضها، فإن الفارس إذا اراد ركض مركوبه يحرك رجليه من جانبه ضارباً على موضع كبده.

(٥) برك الغماد: برك بفتح الباء وإسكان الراء،...والغُماد: بغين معجمة مكسورة ومضمومة ، لغتان مشهورتان، لكن الكسر أفصح وهو المشهور في روايات المحدثين ، والضم هو المشهور في كتب اللغة. والغماد: بالضم والكسر وهو موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل، وقيل: بلدتان ، وقيل: موضع باقاصي هجر، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤٠٣-١٤٠٤ .

(٦) أخرجه مسلم في ٣ / ١٤٠٣في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة بدر، برقم١٧٧٩، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال برقم ٣٠٠٢٣ .

لعير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك ، فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامة في هذه المرة وغيرها" (١)

وباستشارة رسول الله ﷺ للصحابة في هذه الغزوة حقق عدة أمور منها:

(أ) اليقين وانشراح صدره بأن الصحابة لن يخذلوه ، داخل المدينة أو خارجها - رضي الله عنهم أجمعين - .

(ب) موافقة كل من معه من الصحابة على القتال عن طيب نفس ورغبة تامة دون إكراه أحد على ذلك،وبالتالي تحمل مسئولية الخروج أياً كانت، والعزم والتوكل على الله القائل : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

[آل عمران :١٥٩].

(جـ) التطبيق الفعلي لما وصف الله به أهل الإيمان في قوله تعالى في سورة الشورى المكية : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى :٣٨].

(د) إكرام الصحابة . . . إعلاءً لشأنهم، "ورفعاً لأقدارهم، وتألُفاً على دينهم، وتطييباً لنفوسهم، أمَّا هو فقد أغناه الله تعالى عند رأيهم بوحيه" (٢) وتسديده.

(هـ) تعليم الصحابة ما في المشاورة من الفضل،ولتقتدي به أمته من بعده(٣).

رابعاً: نهيُ الله لرسوله ﷺ عن العبوس والتولي والتشاغل عمن يطلب الذكرى من المؤمنين:

اشتملت آي القرآن الكريم على توجيهات وإرشادات للنبي ﷺ في مجال تعامله مع الطائفة المؤمنة، فمن ذلك نهي الله لرسوله ﷺ عن العبوس في وجوه المؤمنين أو التولي والتشاغل عمَّن يريد الذكرى منهم، ويؤخذ هذا من مفهوم

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٢٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ / ٢٥٠ .
(٣) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

قوله تعالى معاتباً النبي ﷺ على انصرافه وتشاغله عن ابن أم مكتوم(١)، وقد جاءه ليسأل عن بعض أمور دينه (٢)، فقال سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ (٣) الْأَعْمَىٰ (٤) ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪﴾ [عبس :١-١١].

وردت في سبب نزول الآية عدة روايات أصحها ما ذكره الحاكم (٥) ووافقه

---

(١) قال ابن عاشور في تفسيره ٣٠ / ١٠٣ : " قيل اسمه عبد الله ، وقيل اسمه عمرو، ... وهو ابن قيس بن زائدة من بني عامر بن لؤي من قريش، وأمه عاتكة، كُنْيَتْ أم مكتوم، لأن ابنها عبد الله ولد أعمى، والأعمى يكنى عنه بمكتوم، ونُسب إلى أمه ؛ لأنها أشرف بيتاً من بيت أبيه ؛ لأن بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي"، وكان ضريراً مؤذناً لرسول الله ﷺ مع بلال وغيره.. استخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة بدر، وكان أول من قدم إلى المدينة مع مصعب بن عمير ، فجعلا يُقرئان الناس القرآن ... يقال استشهد يوم القادسية عندما كان يحمل الراية.. وقيل رجع للمدينة ومات بها ١٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي١ / ٣٦٠ ، و:تقريب التهذيب: ١ / ٧٣٤ .

(٢) ذكر ابن جرير في تفسيره ١٢ / ٤٤٣ أنه جاء يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن .
وذكر ابن عاشور في تفسيره ٣٠ / ١٠٥ أن ابن أم مكتوم كان يقول لرسول الله ﷺ: " يا رسول الله ، استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه، ويكثر النداء والإلحاح، فظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لعله لقطعه عليه كلامه، وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون" .

(٣) أن جاءه: ذكر ابن جرير في تفسيره ١٢ / ٥٤٣ أن بعض القراء كان يطول الألف ويمدها فيقول : ﴿ آن جَاءَهُ﴾ وكان معنى الكلام: أأن جاءه.

(٤) قال الرازي في تفسيره ١١ / ٥٣: "... ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شانه، بل كانه قيل: إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة" .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه، الضبِّي الطهماني النيسابوري، الأشعري، الشافعي، الحافظ العلامة المؤرخ المحقق، المعروف بابن البيِّع، المولود بنيسابور عام ٣٢١هـ طلب العلم في صغره بعناية والده وخاله، وكان أول سماعه وهو ابن اثني عشر عاماً، سمع من نحو ألفي شيخ، وحدّث عن أبيه الذي لقي الإمام مسلم، من شيوخه: أبو علي بن أبي هريرة ، ومحمد بن أبي منصور الصرام، وغيرهما، من طلابه الذين حدثوا عنه أبو بكر البيهقي،ومحمد بن أحمد بن يعقوب، وغيرهما، وقد حدّث عنه الإمام الدارقطني مع أنه من شيوخه-أي شيوخ الحاكم-، أثنى عليه العلماء فقال الذهبي عنه :هو (الإمام الحافظ، الناقد، العلامة، شيخ المحدثين)، وقال السمعاني : (كان من أهل الفضل والعلم، والمعرفة والحفظ، وله في علوم الحديث وغيرها مصنفات حسان)، وقد اتُهم الحاكم بالتشيع لعلي رضي الله عنه _ لذكره حديث الصبر عن النبي ﷺ في شان علي رضي الله عنه وفيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) ،وذكره انه على شرط البخاري ومسلم..، واتُّهم بالرفض أيضاً، لكن ردّ كثير من العلماء على ذلك ودافعوا عنه.. فقال الذهبي:(قلت كلا، ليس هو رافضياً بل يتشيع) وهناك ردود أخرى لغيره.. ، توفي عام ٤٠٥هـ في نيسابور، له عدة مصنفات تزيد على =

عليه الذهبي[١] واعتمده صاحب الصحيح المسند من أسباب النزول[٢] وفيها:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: "جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ، وهو يكلم أُبي بن خلف [٣] ، فاعرض عنه، فانزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يُكْرِمه" [٤]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: " أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ من شيء [٥] ، ويُلِحُّ عليه، وودَّ النبيُّ ﷺ أن لو كفَّ ساعته تلك ؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل، طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله :

= العشرين منها: (المستدرك على الصحيحين) و(كتاب الدعاء) و(علل الحديث) و(معرفة علوم الحديث) و(الضعفاء) و(الأسماء والكنى) وغير ذلك، انظر: ميزان الاعتدال٣ / ٦٠٨، و: سير أعلام النبلاء١٧ / ١٦٣ .

(١) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن عبد الله الذهبي، من اسرة تركمانية الاصل، تنتهي بالولاء إلى بني تميم،كان أبوه يشتغل بصنعة الذهب المدقوق..فعرف بابن الذهبي، وعرف بالذهبي، لانه اتخذ صنعة ابيه في أول أمره ، ولد عام ٦٧٣هـ في دمشق ، في أسرة علمية متدينة ، أخذ القراءات والإجازات، وسمع الحديث واعتنى به، وتعلم النحو والشعر واللغة والآداب وتاريخ المغازي والسيرة والتاريخ العام، ومعجمات الشيوخ والمشيخات، وكتب التراجم الأخرى، رحل لطلب العلم إلى الديار الشامية، ومصر، وفلسطين، ومكة، وغيرها، له عدة شيوخ منهم: علاء الدين علي بن محمد الحلبي، وإبراهيم بن داود العسقلاني، ومن طلابه صلاح الدين الصفدي، وإسماعيل بن كثير، أثنى عليه بعض العلماء ، قال السبكي (شيخنا.. الإمام الحافظ محدث العصر..) وقال ابن كثير : (هو الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين) ، توفي عام ٧٤٨هـ في دمشق، له عدة مؤلفات تربو على المائة من اهمها: (سير أعلام النبلاء) و(تذكرة الحفاظ) و(تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام)، و(المستدرك على مستدرك الحاكم).

انظر: كتاب الوافي بالوفيات للصفدي ٢ / ١١٤وما بعدها، و:سير أعلام النبلاء ١ / ١٢-٩٠باختصار.

(٢) أي الشيخ مقبل الوادعي-رحمه الله-ص١٦٩ .

(٣) وذكر الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٥ أن النبي ﷺ كان يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل، وعباس بن عبد المطلب، وأبياً وأمية ابني خلف، وقيل غيرهم، كما عند القرطبي ١٩ / ٢١٢ .

(٤) أخرجه الحاكم في ٢ / ٥١٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال: « وهو الصواب » ، وقد أخرج الحديث أبو يعلى الموصلي في مسنده ٥ / ٤٣١برقم٣١٢٣،وأخرج الترمذي نحوه في٥ / ٤٠٢ برقم ٣٣٣١ .

(٥) من شيء: هكذا في الأصل (من شيء) ولعلَّ الاصوب: شيئاً أو عن شيء-والله أعلم-.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ ﴾ أي: يحصل له زكاةٌ وطهارة في نفسه: ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ ﴾ أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ ﴾ أي: أما الغني فانت تعرض له لعله يهتدي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ ﴾ أي: ما انت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ ﴾أي: يقصدك ويؤمّك ليهتدي بما تقول له ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ ﴾ أي: تتشاغل.

ومن هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار..." (١) .

والذي يعنينا هنا أن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن العبوس والانصراف والتشاغل عمن جاءه يسترشده في الحق من أهل الإيمان (٢) ، فقال سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ⑫ ﴾

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله، من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغنى، والتشاغل به ـ مع كونه ليس ممن يتزكى ـ عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي، والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به..." (٣) .

ويبدو ـ و الله أعلم ـ أن عتاب الله لرسوله ﷺ على عبوسه في وجه ابن أم مكتوم وتولّيه عنه لا على تصديه لأُبيٍّ بن خلف والتشاغل بدعوته ؛ لأن هذا مما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٠١ .

(٢) وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك طمعاً في إسلام كبار القوم ليسلم من بعدهم من الكفار. انظر تفسير القرطبي ١٩ / ٢١٢ .

(٣) فتح القدير ٥ / ٥٤٠ .

يرضاه الله ويحبه، بل لقد أمر الله رسوله ﷺ بذلك (١)

قال ابن عاشور-رحمه الله-: "والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية، والذي رُوي عن النبي ﷺ ثبوته (٢)... إنما هو عتاب على العبوس والتولي، لا على ما حفَّ بذلك من المبادرة بدعوة (٣)، وتأخير إرشاد (٤)؛ لأن ما سلكه النبي ﷺ في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتاباً، إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم؛لأن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يُسلم، وإرشاد مؤمن إلى شعْب الإسلام عساه أن يزداد تزكية، وليس في حال المؤمن ما يُفيت إيماناً (٥)، وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما يُناكد(٦) زيادة صلاحه،فإن زيادة صلاحه مستمرة على مرِّ الأيام..." (٧).

لهذا عاتب الله نبيه ﷺ ليوجهه إلى السبيل الأقوم في التعامل الأحسن مع المؤمنين الباحثين عن الإرشاد في آي القرآن أو شئون الدين.

قال سيد قطب-رحمه الله-: " وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم ﷺ ، صاحب الخلق العظيم، ... وللمرة الوحيدة في القرآن كلّه يقال للرسول الحبيب القريب ﴿ كَلَّاۤ ﴾ ، وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب، ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين.." (٨)

---

(١) كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

(٢) يشير إلى ما رُوي عنه ﷺ في قوله لابن أم مكتوم كلما قابله : (مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله) أو (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي)، انظر تفسير القرطبي ١٩ / ٢١٣ .

(٣) أي دعوة الكفار إلى الإسلام .

(٤) أي تأخير إرشاد ابن أم مكتوم.

(٥) يفيت إيماناً: أي يفوّت- انظر: لسان العرب ٢ / ٦٩ مادة فوت-.

(٦) يُناكد زيادة صلاحه: أي ينقصه ويقلله، ونكد الرجل نكداً أي : قلل العطاء. أ.هـ. انظر: لسان العرب ٣ / ٤٢٧ مادة نكد.

(٧) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ١١٣ .

(٨) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٢٤ .

خامساً: نهي الله لرسوله ﷺ عن طرد المؤمنين من مجالسه استرضاءً للكفار:

ومما حذّر الله منه رسوله ﷺ - حرصاً على مشاعر المؤمنين وتقديراً لهم وإكراماً لما عندهم من إيمان - طرد المؤمنين - الصحابة الكرام ﷺ - من مجالسه، وخاصة الفقراء والضعفاء أو المساكين منهم، بناءً على طلب الكفار ذلك، فقال سبحانه: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٥٢) ﴾[الأنعام: ٥٢].

بل لقد أمره الله عز وجل بالجلوس معهم والصبر على ذلك، ودوام ملاحظتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الكهف: ٢٨] (١).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى: " أي: لا تُبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك - ويقصد ذكرهم لله وصلاتهم - بالغداوة والعشي، ودعاءهم له وإخلاص ذلك كله لله - بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك - " (٢).

وقد صحّ في سبب نزول الآية السابقة عن سعد بن أبي وقّاص (٣) - رضي الله عنه - أنه قال: " فيَّ نَزَلَتْ: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** ﴾، قال: نزلتْ في

---

(١) قد سبق شرح الآية بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٣٩.

(٣) هو سعد بن مالك القرشي، وهو سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص: مالك بن وهيب وقيل: أهيب بن عبد مناف بن زهرة.. بن كنانة القرشي الزهري، يكنى أبا إسحاق، . أسلم بعد ستة، وقيل بعد أربعة، وكان عمره لما أسلم سبع عشرة سنة، وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد العشرة سادات الصحابة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ. شهد بدراً وأُحد والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأبلى يوم أُحُد بلاءً عظيماً، وهو أول من أراق دماً في سبيل الله، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، توفي بالعقيق على بعد ٧ أميال من المدينة، فحمل على أعناق الرجال إلى المدينة، فادخل المسجد فصلى عليه مروان، وأزواج النبي ﷺ، قال ابن عامر: كان سعد آخر المهاجرين موتاً سنة خمس وخمسين هجرية، وقيل أربع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين.
انظر: أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٤٣٣-٤٣٧ ترجمة رقم ٢٣٠٨ و: سير أعلام النبلاء للذهبي ١ / ٩٢، و: تقريب التهذيب لابن حجر ١ / ٣٤٦.

ستة : أنا وابن مسعود منهم (١) ، وكان المشركون قالوا له: تُدني هؤلاء؟ .

وفي رواية أخرى ـ فقال المشركون للنبي ﷺ (٢) اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنتُ أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل ، وبلال، ورجُلان لَسْتُ أُسمّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ ﴾ الآية " (٣)

وقد همَّ النبي ﷺ أن يطرد هؤلاء الصحابة الكرام ـ استجابة لطلب الكفار وطمعاً في إسلامهم (٤) ـ كما يتضح من الرواية السابقة، وقد أيّده على ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ كما ذكر الواحدي في أسباب النزول (٥)

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية السابقة: "... والمعنى : أن رسول الله ﷺ لحرصه على إيمان عظماء قريش ؛ ليكونوا قدوة لقومهم، لعلمه بأن أصحابه يحرصون حرصه، ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش ؛ لأنهم آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسمعة، ولكن الله نهاه عن ذلك، وسماه طرداً تأكيداً لمعنى النهي..." (٦)

---

(١) وذكر الواحدي في أسباب النزول ص١٧٩بقية الستة،وهم: بلال، وعمار،وصهيب، وسلمان، وزاد المقداد.

(٢) وعند الواحدي في أسباب النزول ص١٧٩ أنهم خاطبوا أبا طالب عم النبي ﷺ قائلين له :" لو أن ابن اخيك محمداً يطرد عنه موالينا..."

(٣) اخرجه مسلم في ٤ / ١٨٧٨ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص، برقم ٢٤١٣، واخرجه ابن ماجة برقم ٤١٢٨ والحاكم في ٣ / ٣١٩ .

(٤) وعند الواحدي في أسباب النزول ص١٧٩ أنهم طلبوا كتاباً في ذلك ، وهمَّ رسول الله ﷺ به، فنزلت الآيات.

(٥) حيث أورد الواحدي في كتابه: اسباب النزول، ص١٧٩-١٨٠ ما نصه: " وقال عكرمة: جاءعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومُطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في اشراف بني عبد مناف من اهل الكفر إلى ابي طالب فقالوا: لو أن ابن اخيك محمداً يطرد عنا موالينا وعبيدنا وعسفاءنا كان أعظم في صدورنا، واطوع له عندنا، وادنى لاتّباعنا إياه وتصديقنا لنا، فاتى ابو طالب عمُّ النبي ﷺ فحدّثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون؟ وإلام يصيرون من قولهم؟ فانزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الانعام :٥٢] ، فلما نزلت اقبل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يعتذر من مقالته.

(٦) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ٢٤٦ .

وفي هذا الأمر من الحكم العظيمة الشيء الكثير ، فمن ذلك : تعريف النبي ﷺ قدر المؤمنين من أصحابه وإكرام الله لهم، ومن ذلك أيضاً الحرص على مشاعر صحابة رسول الله ﷺ مما قد يقع في نفوسهم من حزن وشعور بانتقاص جرّاء طردهم وإخراجهم من مجلس رسول الله ﷺ .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في قوله: " ولكن الله نهاه عن ذلك .. لحكمة : وهي كانت أرجح من الطمع في إيمان أولئك ؛ لأن الله اطّلع على سرائرهم، فعلم أنهم لا يؤمنون، وأراد الله أن يُظهر استغناء دينه ورسوله ﷺ عن الاعتزاز بأولئك الطُّغاة القُساة ، وليُظهر لهم أن أولئك الضعفاء خير منهم، وأن الحرص على قربهم من الرسول ﷺ أولى من الحرص على قرب المشركين، وأن الدين يرغب الناس فيه، وليس هو يرغب في الناس. . ." [1] .

وهكذا نهى الله رسوله ﷺ عن الاستغناء عن مجالس المؤمنين، وإيثار غيرهم عليهم [2] ؛ ليتحقق له ﷺ مزيداً من التربية الأخلاقية الحسنة، في التعامل مع أهل الإيمان .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ٢٤٦-٢٤٧ باختصار.

(٢) ويبدو أن الكفار السابقين طلبوا ذلك من أنبيائهم، كما يتضح من قوله تعالى في سورة هود آية ٢٩، ٣٠ على لسان نوح عليه السلام ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾. وكذا في سورة الشعراء آية ١١٤ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

المطلـــب الثالـــث

ما يتعلق بدعوتـــه ﷺ ومواجهته للطائفة الكـــافرة

قدَّم القرآن للنبي ﷺ جملة من القيم الأخلاقية الرفيعة، وأمره بالتزامها في دعوته للطائفة الكافرة، ومواجهته لها، وحتى يتضح الأمر جلياً رأيتُ أن أقسم هذا المطلب إلى الفقرتين التاليتين:

الفقرة الأولى: ما يتعلق بدعوته ﷺ للكفار في حال السلم:

أولاً: أمْرُ الله لرسوله ﷺ بالتزام الحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة الكفار بالتي هي أحسن في دعوته إياهم إلى الله :

قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].قبل أن أشرح المعنى الإجمالي للآية يحسن التمهيد لذلك بذكر معنى الحكمة.

فقد ورد لفظ " الحكمة" في القرآن الكريم في مواضع متعددة، وهي في كل موضع تحمل معنى خاصاً بها بحسب السياق الذي وردت فيه، والذي يعنينا هنا ما ذكره أهل التفسير في مجال تعامل النبي ﷺ مع الكفار.

فالحكمة عند ابن جرير-رحمه الله-هي"وحي الله ، والكتاب الذي أنزله على رسوله ﷺ " (١) . أي: هي الكتاب والسُّنَّة .

وقال الشوكاني-رحمه الله-: أن الحكمة هي:"المقالة المحكمة الصحيحة، أو الحجج القطعية المفيدة لليقين" (٢) .

---

(١) جامع البيان في تاويل القرآن ٧ / ٦٦٣ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٢٩١ .

وذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عدة معان للحكمة في أكثر من موضع في تفسيره فقال: الحكمة هي "العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده" (١)

ثم ذكر أقوال بعض الأئمة الفقهاء عن معنى الحكمة فقال: " وعن مالك (٢) أن الحكمة هي: معرفة الفقه والدين والاتّباع لذلك، وعن الشافعي أن الحكمة هي سُنَّة رسول الله ﷺ (٣) " (٤)

وقال ـ رحمه الله ـ: " والحكمة: إتقان العلم، وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم... وهي مشتقة من الحُكم ـ وهو المنع ـ؛ لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال... وفُسِّرت الحكمة بأنها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة، أي بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها على بعض، ولا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٧٢٣، والعبارة وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة :١٢٩] .

(٢) يقصد الإمام مالك بن أنس إمام المذهب المالكي–رحمه الله – وهو إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس ابن ماكل الأصبحي الحميري، قبيلة كبيرة باليمن ، احد الأئمة الأربعة، اخذ العلم عن ربيعة الراي فقيه اهل المدينة ، واخذ القراءة عن نافع بن ابي نعيم، وسمع الزهري، ونافعاً مولى عمر، وغيرهم، وروى عنه الأوزاعي ويحيى بن سعيد وغيرهما، قال عن نفسه: "قل رجل كنت أتعلم منه ومات حتى يجيئني ويستفتيني" ، اثنى عليه العلماء كثيراً ، ومن هؤلاء ما نسب للشافعي–رحمه الله – انه قال عن مالك: "مالك حجة الله تعالى على خلقه بعد التابعين" ومن اقوال الإمام مالك المشهورة عنه: "إنما انا بشر اخطئ واصيب فانظروا في رأيي فما وافق السنة فخذوا به" .

وجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه ليحدثه، فقال مالك: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله، توفي عام ١٧٩هـ في المدينة المنورة، له عدة مؤلفات من اهمها "الموطأ" في الحديث، ومنها: "الرد على القدرية" . و"تفسير غريب القرآن" انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي٢ / ١٧٧ وما بعدها، حيث ذكره في الطبقة السادسة لأهل المدينة، و:وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ١٣٥ وما بعدها،و:تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني١٠ / ٥ وما بعدها، و:معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس٢ / ١٦٠٩، و:كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، الشهير بالملا كاتب الجلبي، والمعروف بحاجي خليفة ٢ / ١٩٠٧ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٧٢٣ .

(٤) واضاف ابن عاشور قائلاً في ١ / ٧٢٣ : "... وكلاهما ـ أي الإمام مالك والشافعي ـ ناظر إلى أن عطف الحكمة على الكتاب يقتضي شيئاً من المغايرة بزيادة معنى...".

يغلط في العلل والأسباب..." (١)

ثم قال ـ رحمه الله ـ: "... وقد ذكر الله الحكمة في مواضع كثيرة من كتابه(٢) مرادٌ بها ما فيه صلاح النفوس، من النبوءة والهدي والإرشاد، وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس، ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لجماع الآداب... (٣)" (٤).

وبعد أن استعرضتُ أهم أقوال أهل التفسير في معنى الحكمة يمكن القول أن الحكمة التي أمر الله رسوله ﷺ بالتزامها أثناء دعوته الكفار إلى دين الله هي: الحجج القاطعة المحكمة، المعتمدة على وحي القرآن والسُّنَّة، المستفادة من الفقه في الدين والموافقة له، بقدر ما تبلغه طاقة النبي ﷺ، وبالصورة التي تجلي الحقائق المتشابهة ـ حتى لا يلتبس بعضها ببعض ـ، والتي تقتضي إيقاظ العقول وصلاح النفوس. هذه هي الحكمة التي أمر الله رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بانتهاجها في دعوته للكفار.

وأما الموعظة الحسنة فكما قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: "أي الزواجر والوقائع بالناس، ذكّرهم بها ـ يا محمد ـ ليحذروا بأس الله تعالى" (٥)

وأما أمرُ الله لرسوله ﷺ بمجادلة الكفار بالتي هي أحسن، فكما قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في معنى الآية: "أي: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عمّا نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣ / ٦١، والعبارة وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾. [البقرة: ٢٦٩].

(٢) كما في سورة البقرة ١٢٩، و١٥١، و٢٣١، و٢٥١، وسورة آل عمران ٤٨ وغير ذلك كثير.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٣ / ٦٣

(٤) وقال ابن عاشور في ٣ / ٦٣ ـ ٦٤: "... وعلوم الحكمة هي: مجموع ما أرشد إليه هدي الهداة، من أهل الوحي الإلهي، الذي هو أصل إصلاح عقول البشر، فكان مبدأ ظهور الحكمة في الأديان، ثم الحق بها ما أنتجه ذكاء أهل العقول من أنظارهم المتفرعة على أصول الهُدى الأولى...".

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١٣ بزيادة يسيرة.

عليك من تبليغهم رسالة ربك" (١)

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: " أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ، ولين ، وحُسن خطاب . . . " (٢)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عن المجادلة هي: "مفاعلة من الجدل، وهو إقامة الدليل على رأيٍ اختلف فيه صاحبه مع غيره . . . والمجادلة تعرض في أوقات السِّلم وأوقات القتال . . . و﴿ أَحْسَنُ ﴾ . . . أي بأحسن من مجادلتهم ـ أي المشركين ـ إياكم، كما تدل عليه صيغة المفاعلة، ويجوز كون اسم التفضيل . . . لقصد المبالغة في الحُسن . . . " (٣) .

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ في دعوته الكفار إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

ومن المناسب أن نذكر هنا ما ذكره القرطبي حول هذه الآية حيث قال: "هذه الآية نزلت في مكة في وقتِ الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرْعِه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، . . .فهي محكمة في جهة العصاة من الموحّدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين،وقد قيل: إنَّ من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار،ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة، والله أعلم"(٤) .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن القول الأخير الذي ذكره القرطبي هو الأنسب ؛ إذ ليس حال المسلمين القتال مع المشركين في كل حال (٥) .

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٧ / ٦٦٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢١ / ٦٥-٦٦، والعبارة وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٠٠ .

(٥) وقد وافقه ابن عاشور في ٢١ /٦٥ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، حيث قال رحمه الله: " . . . فالله قد جعل الخيار للنبي ﷺ في مجادلة المشركين بين أن يجادلهم بالحسنى كما اقتضته آية سورة النحل- ويقصد قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ =

وسيرة النبي ﷺ تشهد أنه دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل الكفار بالتي هي أحسن، ولنضرب مثلاً على حكمته ﷺ في دعوته لقومه إلى الله، فقد صحّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: " لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ورهطك منهم المخلَصين (١)، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (٢)، فهتف: (يا صباحاه) (٣)، فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: (**أرأيتم إن أخبرتُكم أن خيلاً تخرج من سفح الجبل، أكنتم مُصدّقي**) قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، قال: (**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**) قال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام، فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد: ١] " (٤).

عند تأملنا في هذه الرواية نجد أن حكمة رسول الله ﷺ وموعظته الحسنة في دعوته لقومه تجلّت فيما يلي:

(أ) باختياره المكان المرتفع، وصعوده الصفا القريب من مجمع الناس، ومناداته لهم حتى اجتمعوا، واختيار الوسيلة الإعلامية المناسبة للبلاغ بالصوت والصورة، فيعُم بلاغه أكبر قدر ممكن من الناس، وإلى أطول مسافة ممكنة، ولأكبر جمع ممكن حينها.

= وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل١٢٥- وبين أن يجادلهم بالشدة، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣] ".

(١) ورهطك منهم المخلصين: هكذا وردت في الأصل، ولعلها تفسير لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أو هي قراءة شاذة، وقيل كانت قراءة ثم نسخت، وقال ابن حجر: "...لا يمتنع عطف الخاص على العام، فقوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنويهاً بهم وتأكيداً، انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٣ / ١٤٣، وفتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٠٢، وصحيح البخاري بشرح د. مصطفى البغا ٤ / ١٩٠٢.

(٢) في رواية أخرى للبخاري برقم٤٦٨٨ أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد إلى الجبل.

(٣) يا صباحاه: أي هجموا عليكم صباحاً، انظر فتح الباري ٨ / ٧٣٨

(٤) أخرجه البخاري في ٤ / ١٩٠٢ في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة تبت، برقم ٤٦٨٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في ١ / ١٩٣-١٩٤ برقم ٢٠٨.

(ب) باستخدامه الأسلوب المعروف عندهم إذا أوشك أن تحل بهم نائبة من النوائب أو يهجم عليهم عدو حتى سارعوا إليه - وذلك بمناداته لهم - **(يا صباحاه)**.

(جـ) باستدراجه الحاضرين للإقرار بصدقه، بضرب المثال المذكور في الحديث، فلما أقروا بذلك، أخبرهم بإرسال الله له إليهم، - فإن من لم يكذب على الناس لن يكذب على الله من باب أَوْلى، وإن من اعتاد الصدق لن يُغيِّر طبعه، وهنا تتجلى حكمة رسول الله ﷺ في انتزاع المقدمات التي تُفضي إلى النتائج التي يريدها هو من قومه من ألسنتهم وبشهادتهم له.

(د) بضربه لهم مثل الخيل المغيرة، فيه دلالة على أن النبي ﷺ خاطب القوم بما يألفون ويعرفون.

وبقوله ﷺ - في رواية أخرى صحيحة - : **(أرأيتم إن حدّثتكم أن العدو مصبحكُم أو ممسِّيكم، أكنتم مصدقي؟)** [(١)] فيه تناسب بين النتيجتين - في حالة عدم استجابتهم لرسول الله ﷺ ،وهذا من حكمة رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، فالأُولى تفضي إلى هلاكهم في الدنيا، والثانية تُفضي إلى هلاكهم في الأُخرى. أما في حالة تصديقهم لرسول الله ﷺ واستجابتهم له فقد اقتضى ذلك نجاتهم في الدنيا والأخرى.

(هـ) بعدم ردِّه ﷺ على أبي لهب "عمه" الذي أفحش القول عليه، وبعدم دعائه عليه، تجلّت حكمته ﷺ في الحذر من الخروج عن الهدف الذي صعد لأجله الصفا، والحذر من استعداء الآخرين أو الغضب للنفس، وغير ذلك.

والخلاصة أن رسول الله ﷺ جمع عدة وجوه من الحكمة في هذا المقام من خلال حُسن اختيار المكان والعبارة والأسلوب وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في ٤ / ١٩٠٢ في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة تبت، برقم ٤٦٨، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في ١ / ١٩٣-١٩٤ برقم ٢٠٨.

ثانياً: حثّ الله لرسوله ﷺ على التزام الصبر الجميل على قومه وما يصدر منهم من تكذيب وإيذاء:

وردت آيات الصبر في القرآن الكريم في عدة مواضع [١] تارة تأمر به ، وتارة تدعو للاستعانة به مع الصلاة، وتارة تذكر صبر الأنبياء السابقين على أقوامهم، وتارة تذكر الآثار المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، وتارة تمدح المتحلّين به، إلى غير ذلك من المقاصد التي ورد فيها لفظ الصبر ومشتقاته في القرآن الكريم.

ومن ذلك ما أمر الله به رسوله ﷺ من الصبر على الكفار وما يصدر منهم [٢].

وقبل أن أستعرض ذلك أعرّف الصبروأذكراهميته كما قال بعض أهل العلم.

فالصبر لغةً هو: الحبس واللزوم للشيء [٣]

واصطلاحاً: يعني " حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه..." [٤]

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : " الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش [٥] " [٦]

وتتضح أهمية الصبر من خلال معرفتنا أن الإمامة في الدنيا لا تُنال إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة : ٢٤] .

---

(١) وهي تتجاوز تسعين موضعاً

(٢) معظمها ورد في السور المكية لشدة مالاقاه النبي ﷺ من الكفار في المرحلة المكية.

(٣) لسان العرب ٤ / ٤٣٨ .

(٤) مفردات الراغب ص٢٧٣ .

(٥) حبس الجوارح عن التشويش: هكذا في الاصل، ولكن ورد في لسان العرب ٦ / ٣١١ ما نصه " والوشوشة الخفة، واما التشويش فقال ابو منصور: إنه لا أصل له في العربية وإنه من كلام المولدين ، واصله التهويش وهو التخليط " .

وقد ذكر الجوهري ان معنى التشويش التخليط ولكن رُدَّ عليه قوله . انظر الصحاح٣ / ٨٤٨ الطبعة المحققة لدار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤١٩هـ-١٩٩١م، بيروت، لبنان.

(٦) مدارج السالكين ٢ / ١٦٢ .

"والدين كلّه علم بالحق وعمل به، والعمل به لابد فيه من الصبر، بل وطلبُ عِلمه يحتاج إلى الصبر" (١)

"والصبر" واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان ؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر..." (٢) ، وإنما النصر مع الصبر.

ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على قومه وما يصدر منهم من أذى ، فقال سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] .

وقال في موضع آخر ـ موضحاً كيف يكون صبر النبي ﷺ على قومه ـ : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ [المعارج : ٥] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : "أي: اصبر صبراً لا جزع فيه، اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك، ولا يُثنيك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم من الرسالة ..." (٣) .

وقال القرطبي نحواً مما سبق ، وزاد قائلاً: "...والصبر الجميل... هو الذي لا شكوى فيه لغير الله ، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرَى من هو" (٤)

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : "هو الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد ،صبر الواثق من العاقبة، الراضي بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء،الموصول بالله ، المحتسب كل شيء عنده مما يقع به.." (٥).

وقد صبر رسول الله ﷺ على قومه وغيرهم فيما بدر منهم صبراً جميلاً، فلم

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ٦ / ٢٤٤٣ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٥٩ .

(٣) جامع البيان ١٢ / ٢٢٨ .

(٤) الجامع لاحكام القرآن ١٨ / ٢٨٤ .

(٥) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦٩٦ .

يشْكُ إلا إلى الله وحده، ولم يدعُ على قومه ، بل دعا لهم، ولم يأذن لملك الجبال أن يُطبق عليهم الأخشبين(١)،وليس أدل على صبره الجميل على الكفار ـ بشكل عام ـ مما ذكره ابن هشام ـ رحمه الله ـ في سيرته مما لقيه النبي ﷺ في الطائف من بعض سادات ثقيف حيث قال: " . . فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله ، وكلّمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: «هو يمرط ثياب الكعبة (٢) إن كان الله أرسلك» ، وقال الآخر: «أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك» وقال الثالث: «والله لا أُكلمك أبداً ، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً (٣) من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أُكلمك» ، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خبر ثقيف، وقد قال لهم: (**إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى**) وكره رسُول الله ﷺ أن يبلّغ قومه عنه، فيذئرهم ذلك عليه (٤) . . . فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبُّونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط (٥) قال ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: (**اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟**(٦) **أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ**

(١) سنشرح ذلك في فقرة " وصف القرآن لرسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة في اخلاقه الاجتماعية" مما يلي في هذا الفصل.

(٢) هو يمرط ثياب الكعبة: هكذا في الأصل بضمير الغائب "هو" ولعل الاصوب بضمير المتكلم."أنا أمرط، ويمرط ثياب الكعبة ماخوذ من المرط وهو: نتف الشعر والريش والصوف من الجسد، والمراد به هذا نزع كسوة الكعبة ورمية بعيداً ، لسان العرب ٧ / ٣٩٩ مادة مرط.

(٣) لأنت أعظم خطراً، هكذا في الأصل، ولعل الصواب "أعظم قدراً" والله أعلم.

(٤) فيذئرهم ذلك عليه: ذأر أي فزع، وذاره أي كرهه، والذائر الغضبان، وإذْأرتَ الرجل أي حرشْته، وذار عليه أي اجترأ عليه، والمعنى: أن يجترئ عليه كفار قريش، انظر لسان العرب ٤ / ٣٠١ باختصار مادة ذار.

(٥) حائط: أي بستان، والمقصود هنا حديقة لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة.

(٦) يتجهمني: التجهم هو الاستقبال بوجه كريه، والمقصود هنا: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. لسان العرب ١٢ / ١١٠ مادة جهم.

فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ،وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك" (١) (٢)

تتضح لنا معالم الصبر الجميل من رسول الله ﷺ في هذه الرواية من خلال:

(أ) تحمله المشاق في الذهاب إلى الطائف بحثاً عمَّن يحميه حتى يبلغ دين الله عز وجل.

(ب) استمرار النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى في الطائف رغم ما لقيه من قومه في مكة قبل ذلك.

(جـ) عدم شكواه ﷺ لأهل الطائف ما لقيه من قومه في مكة ـ كما يتضح من ظاهر الرواية السابقة ـ ، وطلَب منهم القيام معه على من خالفه من قومه.

(د) حلمه ﷺ على الثلاثة الذين دعاهم في الطائف ـ من سادات ثقيف ـ في عدم رده عليهم بسوء أو دعوته بهلاكهم رغم ما بدر منهم من سخرية به وبرسالته.

(هـ) عدم دعائه ﷺ على كل السفهاء والعبيد الذين آذوه بالسنتهم وحجاراتهم حتى أدموا قدميه الشريفتين وألجؤوه إلى حائط بحثاً عن النجاة.

(و) ابتهاله وشكواه إلى الله وحده ـ دون أحد سواه ـ .

فهل بعد هذا الصبر الجميل من صبر؟! فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

ثالثا: أمر الله لرسوله ﷺ بالعفو والصفح الجميل عن الكفار:

من المعلوم أن رسول الله ﷺ لقي من الكفار ـ سواء كفار قريش في مكة أو

---

(١) سيرة ابن هشام٢ / ٦٧ باختصار.

(٢) والحديث في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي ٦ / ٣٥ "بلفظ قريب جداً من هذا" وقال فيه الحافظ: "... وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات".

وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني-رحمه الله – في تحقيقه لفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي في ص١٢٦، في ذكر خبر الطائف، وقد ذكر الحديث المتقى الهندي في كنز العمال برقم ٣٦١٣ .

أهل الكتاب في المدينة أو غيرهم ـ لقي منهم الإيذاء بالقول والفعل الشيء الكثير، ورغم ذلك ، فلم تذكر كتب التاريخ والسيرة النبوية أنه ﷺ رد السيئة بسيئة مثلها، أو حاول بأحدٍ ممن آذاه شراً، أو نوى ذلك.

فقد كان ﷺ لا يغضب لنفسه مطلقاً، وكان كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : "**ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأةً ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ؛ إلا أن يُنتهك (١) شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله عز وجل**" (٢)

ومع أنه كان ﷺ لا ينتقم لنفسه ، ولا يحقد على أحدٍ آذاه إلا أن الله تعالى أمره في أكثر من آية في القرآن أن يتحلى بالعفو والصفح الجميل عن الكفار ـ سواء كفار قريش في مكة أو غيرهم من أهل الكتاب في المدينة ـ ، فقال سبحانه فيما يتعلق بكفار مكة : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [الزخرف:٨٩] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " أي: فاصفح عن المشركين ولا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم قولاً وفعلاً" (٣) .

وقال سبحانه في موضع آخر ـ آمراً نبيه ﷺ أن يسلك مسلك العفو عن الكفار ـ:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾[الأعراف:١٩٩] .

---

(١) ينتهك : أي يرتكب، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ١٨١٤ .

(٢) اخرجه مسلم في ١ / ١٨١٤ في كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام، برقم ٢٣٢٨، وابو داود ٥ / ١٤٢ برقم ٤ / ٧٨٦ وابن ماجة في ١ / ٦٣٨ برقم ١٩٨٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٤٧

ورد العفو في القرآن بعدة معان منها:

[١] الترك ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

[٢] الفاضل من المال ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

[٣] الكثرة ، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾ [الاعراف : ٩٥] .

انظر: نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ص٤٣٦-٤٣٧ .

ذكر ابن جرير عدة أقوال في تفسير الآية، ثم قال: "وأوْلى هذه الأقوال بالصواب قول من قال معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أُمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين" (١)

وقال ابن عاشور-رحمه الله-: «أمر الرسول ﷺ والمؤمنين بقلة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وبأن يسعوهم من عفوهم، والدأب على محاولة هديهم، والتبليغ إليهم، بقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ ، الآيات... والمعنى: عامل به، واجعله وصفاً، ولا تتلبس بضده،...والعفو:الصفح (٢) عن ذنب المذنب، وعدم مؤاخذته بذنبه... والمراد به هنا ما يعم العفو عن المشركين، وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرسول والمؤمنين...

وقد عمّت الآية صُور العفو كلّها ؛ لأن التعريف في العفو تعريف الجنس، **فهو** مفيد للاستغراق ... **فأُمر** الرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح... فلا يعاقبهم، **ولا** يقابلهم بمثل صنيعهم..." (٣) .

وذكر ابن جرير-رحمه الله-في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] " أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام عنها **فقال** له: "**ماهذا يا جبريل؟** ، قال: لا أدري حتى أسأل العالم (٤)، فذهب ثم رجع فقال:(**إن الله أمرك أن تعفو عمّن ظلمك ، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**)(٥).

---

(١) جامع البيان٦ / ١٥٣ .

(٢) فرّق بعضهم بين العفو والصفح ، فقيل: ان الصفح ابلغ من العفو، فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، والصفح هو الإعراض عن الذنب وعن التثريب لفاعله، وصفحتُ عنه: أوليته صفحة جميلة. انظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٣ / ٤٢١، ويبدو ان المعنيين مترادفان . والله اعلم.

(٣) تفسير ابن عاشور ٩ / ٢٢٥ بتصرف يسير .

(٤) العالم: هو العليم اي حتى أسأل الله عز وجل، انظر فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤١٠ .

(٥) جامع البيان للطبري ٦ / ١٥٣، وانظر تفسير ابن ابي حاتم ٥ / ١٦٣٨، وجامع القرطبي ٧ / ٣٤٥ وقد استشهد به ابن كثير في تفسيره ٢ / ٢٨٩ .

واخرج الإمام احمد نحوه في مسنده ٤ / ٢١٦ برقم ١٧٤٢٠ وضعّفه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ١٨٨-١٨٩ .

وكما أن القرآن المكي قد أمر النبي ﷺ بالعفو والصفح عن الكفار، فكذلك أمره القرآن المدني بالعفو عن أهل الكتاب الذين أساءوا في حقه، قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [المائدة : ١٣] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني: " مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك، وقال مجاهد: تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ ، و هذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: "ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه،وبهذا يحصل لهم تاليف، وجمعٌ على الحق، ولعل الله يهديهم..."(١)

ورغم أن أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ قد آذَوْا رسول الله ﷺ كثيراً ونقضوا العهود (٢) ، وحاولوا قتله ﷺ أكثر من مرّة وتآمروا عليه مع المشركين، ومع هذا فلم ينتقم لنفسه منهم أبداً، فقد كان يعفو فيما يتعلق بحقوقه الشخصية ، وأما ما يتعلق بأمر الله فيهم فلا.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "وأمرُه بالعفو عنهم والصفح حملٌ على مكارم الأخلاق (٣) ، وذلك فيما يرجع إلى سوء مُعاملتهم للنبي ﷺ ، وليس المقام مقام

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥

(٢) كما حصل في نقضهم لعهد النبي ﷺ في الدفاع عن المدينة ؛ حيث ذهب بعض زعماء يهودي بني النضير لتحريض قريش وبقية اليهود والقبائل العربية على غزو المدينة. انظر الرحيق المختوم ص٣٠١ .

(٣) ومن اجمل ما نُسب للشافعي رحمه الله في ذلك قوله بعض ابيات من الشعر هي:

قالوا سكت وقد خُوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
فالعفو عن جاهل، أو أحمق أدبٌ ... نَعَم، وفيه لصون العرض إصلاح
إن الأسود لتخشى وهي صامته ... والكلب يخشى ويرمى، وهو نباح

انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي(١٠٥٧هـ) دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، القاهرة، مصر. والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

ذكر المناوأة القومية أو الدينية، فلا يعارض هذا قوله تعالى في براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

" [التوبة: ٢٩] (١).

والعفو والصفح الذي أمر الله رسوله ﷺ به في الآيات السابقة طلب الله من رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون صفحاً جميلاً، فقال سبحانه: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: " أي: تجاوز عنهم، واعف عفواً حسناً...، ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم " (٢).

وقد عفا رسول الله ﷺ عن الكفار، وصفح عنهم في أكثر من موقف (٣)، وليس أدل على ذلك وأعظم من عفوه عن الكفار ـ في حقه الشخصي ـ وقد أدْمَوا وجهه، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: "كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيّا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: **(رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)** (٤).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٦ / ١٤٥.

(٢) فتح القدير ٣ / ٢١٠ باختصار.

(٣) ومن ذلك:

[١] عفوه ﷺ عن الأعرابي الذي أراد قتله ـ عند عودته من نجد ـ وهو نائم تحت شجرة.

[٢] عفوه ﷺ عن عبد الله بن أُبي الذي أساء في حقه عندما أصابه غبار حمار النبي ﷺ.

[٣] عفوه ﷺ عن الأعرابي الذي جبذه بردائه ـ وكان غليظ الحاشية ـ حتى أثّر في صفحة عنقه

[٤] عفوه عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ. وغير ذلك كثير.

انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٧ / ٢٨٩٩-٢٩١٠.

(٤) أخرجه البخاري في ٣ / ١٢٨٢ في كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم ٣٢٩٠، وفي ٦ / ٢٥٣٩ في كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين، باب: إذا عرّض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ، برقم ٦٥٣، وأخرجه مسلم في ٣ / ١٤١٧ في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم ١٧٩٢.
وكل الروايات السابقة بلفظ عن عبد الله، والمراد به ابن مسعود.

وقد أكد ابن حجر ـ رحمه الله ـ أن النبي ﷺ " قال ذلك في غزوة أُحُد عندما جُرح وكُسرت رباعيته وسال الدم من وجهه فذكر أنه ﷺ ، قال أولاً: **(كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم)**(١) ، فإنه قال أيضاً: **(اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون)** (٢) . (٣) . (٤) .

رابعــاً: أمر الله لرســوله ﷺ بالإعراض عن الكفار والجاهلين، والــهجر الجميل لهم، مع استمرار دعوته إياهم:

الإعراض يعني: " الانصراف عن الشيء بالقلب" (٥) والهجر يعني "مفارقة الإنسان لغيره، بالبدن أو اللسان أو القلب، بكلّها أو ببعضها" (٦) ، وهما في أصلهما وأكثر أحوالهما مذمومان (٧)، إلا انهما قد يكونان محمودين في أحوال وأوقات معينة (٨) ، فمن ذلك ما أمر الله به رسوله ﷺ ـ في أكثر من آية ـ من الإعراض عن الكفار والجاهلين، والهجر الجميل لهم، وقد ورد ذلك في حق

---

(١) أخرجه مسلم في ٣ / ١٤١٧ برقم ١٧٩١ بلفظ (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله)، وذكره البغوي في شرح السُّنَّة ١ / ٤١٨ والخطيب في المشكاة برقم ٥٨٤٩ .

(٢) أخرجه مسلم في٣ / ١٤١٧برقم ١٧٩٢بلفظ (رب اغفر لقومي فإنهم لايعلمون)،والبخاري في٣ / ١٢٨٢برقم ٣٢٩٠ .

(٣) وذكر ابن حجر–رحمه الله– في فتح الباري في شرحه لحديث رقم ٦٩٢٩ أن نوح ﷺ دعا بذلك عندما ضربه قومه حتى أغمي عليه، فقال ذلك بعد إفاقته– ﷺ –. انظر الفتح١٢ / ٢٩٥ ، كتاب استتابة المرتدين ، باب : قتال الخوارج .

(٤) فتح الباري ١٢ / ٢٩٥ .

(٥) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ص٢٨، أبو البقاء ايوب بن موسى الحسينى الكفوي، ت(١٠٩٤هـ).

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٤٢، بزيادة يسيرة، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مطبعة القاهرة، ط بدون، ١٤١٠هـ القاهرة، مصر.

(٧) من الإعراض المذموم: الإعراض عن الطاعات، والإعراض عن الوعظ، والإعراض عن الاستعداد للحساب، والإعراض عن ذكر الله، والإعراض عن آياته، والإعراض عن الحق، والإعراض عن النبأ العظيم، وغير ذلك.
ومن الهجر المذموم: هجر القرآن، وهجر الزوجة والاقارب بغير حق، والهجر بين المسلمين (التهاجر)، وغير ذلك .

(٨) من الإعراض المحمود: الإعراض عن مجالس اللغو واهلها والإعراض عن المعاصي ومواطن الفتنة..الخ.
ومن الهجر المحمود: هجر اهل البدع والأهواء، وهجر المعاصي، وغير ذلك.

المشركين في مكة، والمنافقين في المدينة، والجاهلين السفهاء وأمثالهم في كل زمان ومكان من عصر النبوة - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - .

فأما أمر الله لرسوله ﷺ بالإعراض عن المشركين في مكة فقد انزل الله على رسوله ﷺ قوله سبحانه: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (١٠٦) ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

قال ابن جرير - رحمه الله - أي: "دع عنك جدالهم وخصومتهم..." (١) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - أي: " اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك، وينصرك، ويظفرك عليهم..." (٢)

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: " المراد بالإعراض عن المشركين الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم، فإن الله لم يأمر رسوله ﷺ بقطع دعوته لأي صنف من الناس، وكل آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم... (٣) " (٤) .

وأما أمر الله لرسوله ﷺ بالإعراض عن المنافقين في المدينة فكما ورد في قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** (٦٣) ﴾ [النساء : ٦٣] .

قال ابن جرير - رحمه الله - أي: " فدَعْهم، ولا تعاقبهم في أبدانهم...، ولكن عِظْهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم.." (٥) .

(١) جامع البيان ٥ / ٣٠٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٦٩ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير ٧ / ٤٢٥ .
(٤) ويشهد لذلك قوله تعالى آمراً نبيه ﷺ في شان المنافقين: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ النساء : ٦٣] .
(٥) جامع البيان ٤ / ١٥٩ .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "حقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه... ثم استُعمل استعمالاً شائعاً في الترك والإمساك عن المخالطة والمحادثة ؛ لأنه يتضمن الإعراض غالباً... ثم أُطلق على العفو وعدم المؤاخذة بتشبيه حالة من يعفو بحالة من لا يلتفت إلى الشيء..." (١) .

وكما أمر الله رسوله ﷺ بالإعراض عن المشركين والمنافقين، فقد أمره أيضاً بالإعراض عن الجاهلين، والكفار ـ بشكل عام ـ كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "...فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم ؛لأن التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك ، إذ اتِّخاذ الحَجَر إلهاً، سفاهةٌ لا تعدلها سفاهة، ثم يشمل كل سفيه الرأي..." (٢) .

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ في معنى الآية : " أي إذا أقمت عليهم الحُجَّة وأمرتهم بالمعروف، فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة له عليهم، ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم..." (٣) .

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ بالإعراض عن الكفار والهجر لهم، كما أمره بالعفو والصفح عنهم كما اتضح لنا ذلك من الفقرة السابقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تعليقه على هذه الآية: " قد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء، فتدخل في ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ إغضاءً عما لا يُلائم ،فتدخل في ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أو فعل خير، أو اتِّساماً بفضله فتدخل في ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ .." (٤) .

(١) تفسير التحرير والتنوير٥ / ١٠٨ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٨-٢٢٩ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٤٦ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٩ .

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يكون إعراضه عن الكفار وهجره لهم هجراً جميلاً، فقال سبحانه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾ [المزمل : ١٠] . والهجر الجميل هو ما كان في ذات الله ولأجله كما قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ .

ومعنى الآية كما قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : "أي لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافآتهم ؛ فإن في ذلك ترك الدعاء (١) إلى الله ..." (٢)

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " هو الذي لا عتاب معه..." (٣)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " هو الذي لا جزع فيه..." (٤)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "الهجر الجميل هو: «الحسن في نوعه ؛ فإن الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه... فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر،وهو ترك المخالطة فلا يُقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولمّا كان الهجر ينشأ عن بُغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرّضاً لأن يتعلق به أذى من سبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك، فأمر الله رسوله ﷺ بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبّاً أو انتقاماً، وهذا الهجر هو إمساك النبي ﷺ عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه... وليس منسحباً على الدعوة للدين فإنها مستمرة، ولكنها تبليغ عن الله تعالى» (٥) .

وقد بيّن الله لرسوله ﷺ أن إعراضه عن المشركين وهجره للكفار لن يُسبّب له أي ضرر منهم، كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ [المائدة : ٤٢] .

---

(١) الدعاء هكذا في الأصل، ولعلها بمعنى الدعوة.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٤٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٦ .
(٤) فتح القدير ٥ / ٤٤٦ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٦٨-٢٦٩ .

وقد شهدتْ أحداث السيرة النبوية على إعراض النبي ﷺ عن الكفار وهجره الجميل لهم ، دونما الإساءة في حقهم بقول أو فعل، وليس أدلّ على ذلك مما ثبت عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ "أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف (١)، تحته قطيفة (٢) فدكية(٣)،وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة، في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أُبي وفي المجلس عبد الله بن رواحة (٤) فلمَّا غَشيَتْ المجلس عَجَاجة الدابَّة (٥) خمَّر(٦) عبد الله بن أُبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا (٧)، فسلَّم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أُبي: أيها المرء، لا أحسن من هذا (٨) ، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة : اغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، قال: فاستب المسلمون والمشركون واليهود، حتى همُّوا أن يتواثبوا (٩)، فلم يزل

---

(١) إكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس .

(٢) قطيفة: دثار مخمل ـ تجمع على قطائف وقطف ـ.

(٣) فدكية: منسوبة إلى فدك، وهي بلدة معروفة على مرحلتين أو ثلاث من المدينة.

(٤) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس .. الأنصاري الخزرجي يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، وقيل أبو عمرو.. كان ممن شهد العقبة.. وشهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا الفتح وما بعده، فإنه كان قد قُتل قبله، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة ، وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل.. وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله ﷺ ، قُتل في مؤتة في جمادي سنة ثمان للهجرة.
انظر: أسد الغابة٣ / ٢٣٧-٢٤١ ، ترجمة رقم ٢٩٤١ ، و:سير اعلام النبلاء١ / ٢٣٠ ، و:تقريب التهذيب١ / ٤٩٢ .

(٥) عجاجة الدابة: هو ما ارتفع من غبار حوافرها.

(٦) خَمَّرَ انفه: اي غطَّاه.

(٧) لا تغبروا علينا : أي: لا تُثيروا علينا الغبار. انظر صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤٢٢-١٤٢٣، وفتح الباري ١١ / ٣٩، حديث رقم٦٢٥٤ .

(٨) لا احسن من هذا: اي ليس شيء احسن من هذا... وقد وقع للقاضي ابي على بلفظ لاحسن من هذا، قال القاضي: وهو عندي اظهر، وتقديره: احسن من هذا ان تقعد في بيتك.

(٩) يتواثبوا: اي يقفوا للنزاع والقتال..

النبي ﷺ يُخفِّضهم (١)، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال: (أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حُباب؟) - يريد عبد الله بن أُبي - (قال كذا وكذا) قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة(٢) أن يُتوِّجُوه، فَيُعَصِّبُوه بالعصابة (٣) ، فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرِق بذلك (٤) ، فذلك فَعَلَ به ما رأيتَ، فعفا عنه النبي ﷺ " (٥)

توضح لنا هذه الرواية أن النبي ﷺ لم يكتف بالإعراض عما قاله ابن أُبي في حقه ﷺ، وما قام به من أفعال وأقوال تغيظ رسول الله ﷺ ، بل لقد عفا عنه ﷺ كما هي شيمته دائماً فيما يتعلق بحقوقه الشخصية - كما سبق ذكره - .

الفقـــرة الثانية: ما يتعلق بمواجهته ﷺ للكفار في حال الحرب:

وجّه الله لرسوله ﷺ عدة توجيهات أخلاقية تتعلق بتعامله مع الكفار حال مواجهته وقتاله لهم، ومن ذلك ما يلي:

أو لاً: أمر الله لرسوله ﷺ بمكاشفة الكفار وعـــدم الغدر بهم، عند رغبته في نقض عهدهم وقتالهم، لخوفه من خيانتهم:

مع أن رسـول الله ﷺ على الحق المبين ، وقد بُعث بالسيف، إلا أن الله - عز وجل - علّمه خُلُقاً مُهمًّا من الأخلاق الحربية بين المسلمين والكفار، حيث أمره

(١) يُخفضهم: أي يُسَكِّنهم ويُسهِّل الأمر بينهم.
انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤٢٢-١٤٢٣، وفتح الباري ج١١، حديث رقم ٦٢٥٤

(٢) البحيرة: هكذا هي عند مسلم، وهي عند البخاري بلفظ البُحَيْرة ، وهي بضم الباء على التصغير، وبفتحه على التكبير، وكلها بمعنى واحد، وأصلها القرية، والمراد بها في الحديث: مدينة النبي ﷺ .

(٣) يعصبوه بالعصابة: أي اتفقوا على أن يُعينوه ملكاً عليهم ، وكان من عادتهم إذا ملّكوا إنساناً أن يتوجوه ويعصبوه.

(٤) شرق بذلك: أي غصَّ ، ومعناه حسد النبي ﷺ .
انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤٢٢-١٤٢٣ .

(٥) أخرجه مسلم في ٣ / ١٤٢٢-١٤٢٣ في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٨، وأخرجه البخاري في ٥ / ٢١٤٣-٢١٤٤ برقم ٥٣٣٩ .

ألا يشرع في قتال أعدائه ـ الذين يخشى خيانتهم له أو غدرهم بالمسلمين ـ وألا يقاتلهم بغتة فيفجاهم بذلك دونما إعلام سابق لهم، فقال سبحانه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) ﴾ [الأنفال :٥٨].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : "..معناه: إذا ظهرت أمار[١] الخيانة من عدوك، وخفت وقوعهم بك، فَأَلْقِ إليهم مقاليد السلم، وآذنهم بالحرب، ...[٢] " [٣].

والخوف المقصود به هنا: اليقين من خيانة العدو بظهور الخيانة وثبوت دلائلها، لا خوف الظن، وهذا ما قاله أبو جعفر ابن جرير الطبري [٤]، وكذا القرطبي [٥] ـ رحمه الله ـ .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي: "أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء..."[٦].

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "... والمعنى: أنه يُخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً [٧] بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة..." [٨]

(١) أمارُ: بمعنى أمارات جمع أمارة أي علامة. انظر: لسان العرب٤ / ٣٢ .

(٢) جامع البيان ٦ / ٢٧٢ .

(٣) كما وقع من بني قريظة وبني النضير في نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ في الدفاع عن المدينة وتحالفهم مع كفار قريش على مظاهرة النبي ﷺ ومحاربتهم له. انظر: جامع البيان ٦ / ٢٧٢، جامع القرطبي ٨ / ٣٢ .

(٤) حيث قال: "فإن قال قائل: وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين؟ قيل... إنما معناه... -وذكر العبارة المذكورة اعلاه-". انظر جامع البيان ٦ / ٢٧٢ .

(٥) حيث قال "فإن قال قائل: كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين معه، فكيف يسقط يقيني العهد مع ظن الخيانة؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: ان الخوف قد ياتي بمعنى اليقين كما قد ياتي الرجاء بمعنى العلم، قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) ﴾ [نوح : ١٣] ، الثاني: إذا ظهرت آثار الخيانة ، وثبتت دلائلها وجب نبذ العهد".

(٦) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٣٣

(٧) وقال القرطبي في تفسيره ٨ / ٣٢ : "... واما إذا عُلم اليقين- اي من خيانة الكفار للمسلمين- فيُستغنى عن نبذ العهد، إليهم وقد سار النبي ﷺ إلى اهل مكة عام الفتح لما اشتهر منهم نقض العهد من غير ان ينبذ اليهم عهدهم...".

(٨) فتح القدير ٢ / ٤٦٥ .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره لبقية الآية : .. أي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ " ... والمعنى : لأن الله لا يحبهم ؛ لأنهم متصفون بالخيانة فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهداً لمن لا يحبهم الله ، ولأن الله لا يحب أن تكون أنت من الخائنين ... " (١)

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ أن يتحلى بالوضوح والصراحة وعدم الغدر أو الخيانة لأعدائه رغم كثرة خيانتهم له ، وغدرهم به ، ونقضهم لعهوده ، كما شهدت أحداث السيرة بذلك .

وقد يترك الكفار الخيانة لرسول الله ﷺ ويميلون للهدنة والمصالحة مرة أخرى، وهنا أمر الله رسوله ﷺ قائلاً له : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله : " أي: وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب ـ أي بعد خوفك من خيانتهم وغدرهم ـ إما بالدخول في الإسلام، أو بإعطاء الجزية، وإما بموادعة ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ أي: مل إليها وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسالوكه... (٢) " (٣) .

ثانياً: أمر الله لرسوله ﷺ بإجابة الكفار لطلبهم السلم في ظروف وأحوال معينة:

من الأخلاق الحربية التي علّم الله رسوله ﷺ إياها، وربّاه عليها ما ورد في قوله تعالى ـ آمراً رسوله ﷺ ـ ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ (٤) فَاجْنَحْ (٥) لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٠ / ٥٣ .

(٢) جامع البيان ٦ / ٢٧٨ .

(٣) سنأخذ شرح الآية بالتفصيل في الفقرة التالية.

(٤) السَّلْم: بفتح السين وكسرها، قراءة الجمهور بالفتح، وقراءة حمزة وأبي بكر عن عاصم وخلف بالكسر ، انظر تفسير ابن عاشور ١٠ / ٥٩ .

(٥) ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ : بفتح النون على لغة تميم وهي قراءة الجمهور، وقرأ الأشهب العقلي ﴿ فَاجْنُحْ ﴾ بضم النون على لغة قيس. انظر تفسير القرطبي ٨ / ٣٩ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " أي وإن مالوا .. للمسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك" (١)

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " ... وإنما لم يقل ـ الله تعالى ـ وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها للتنبيه على أنه لا يُسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب ؛ لأنهم قد يُظهرون الميل إلى السلم كيداً . . ." (٢)

وقد اختلف أهل التفسير في ضمير جمع الغائبين في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا ﴾ لمن يعود؟ ، حيث وقع عقب ذكر عدة طوائف في الآيات التي قبلها، فمن هذه الطوائف مشركي العرب (٣) ، ومنهم أهل الكتاب (٤) ، حيث قال مجاهد ـ رحمه الله ـ نزلت في قريظة (٥) .

ورُوي عن قتادة ـ رحمه الله ـ أنها نزلت في المشركين (٦) ، وقيل نزلت في قريظة والنضير وبني قينقاع (٧) ؛ وفي هذا كله قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ " . . .فاحتمل أن يكون ضمير جنحوا عائداً إلى المشركين، أو عائداً إلى أهل الكتاب، أو عائداً إلى الفريقين كليهما. . . والوجه أن يعود الضمير إلى صنفي الكفار: من المشركين وأهل الكتاب. . ." (٨) .

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ بخلُق اللين والسماحة وقبول السلم عند طلب الكفار ذلك بصدق وعدم تأثير ذلك على مصلحة الإسلام والمسلمين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٥ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٠ / ٥٩ .

(٣) والآية المتعلقة بهم هي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ ﴾ . [الأنفال : ٤٨] .

(٤) والآية المتعلقة بهم هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال : ٥٥] .

(٥) ولكن ردّ ابن كثير هذا القول في تفسيره ٢ / ٣٣٥، حيث قال: " ...وهذا فيه نظر ؛ لأن السياق كله في وقعة بدر وذكرها مكتنف لهذا كله" .

(٦) جامع البيان للطبري ٦ / ٢٧٨ .

(٧) تفسير ابن عاشور ١٠ / ٦٠

(٨) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

ثالثاً: أمر الله لرسوله ﷺ بتأمين من يستجير به من المشركين:

أَمَرَ الله رسوله ﷺ في سورة براءة بقتل المشركين - بعد انسلاخ الأشهر الحرم - في أي مكان حتى يُعلنوا إسلامهم، فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

[التوبة : ٥] .

لكن الله - عز وجل - أتبع الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة : ٦] .

قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله -: "أي وإن استأمنك يا محمد - من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم - أحدٌ، ليسمع كلام الله منك وهو القرآن ... ﴿ فَأَجِرْهُ ﴾ ... أي: أمِّنهُ حتى يسمع كلام الله ، وتتلوه عليه ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ أي: رُدّه بعد سماعه كلام الله - إن هو أبى ان يُسلم - ... إلى حيث يامن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين... (١) " (٢)

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: "إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده.. " (٣).

والأمان للكفار قد يكون في مثل هذه الحالات لمصالح أخرى كالسفارة بين أقوامهم وبين المسلمين (٤) ، كما وقع يوم الحديبية بمجيء جماعة من رسل

(١) جامع البيان ٦ / ٣٢١ .

(٢) قال القرطبيُّ في تفسيره ٨ / ٧٦ : " ولا خلاف بين كافَّة العلماء ان أمان السلطان جائز ؛ لانه مقدم للنظر والمصلحة ، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار" .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥٠ .

(٤) تفسير ابن عاشور ١٠ / ١١٧ .

قريش [١] واحدٍ بعد آخر لمفاوضة النبي ﷺ ، وبذلك تتحقق حِكَمٌ عظيمة.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " ... فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم ، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك" [٢]

"والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أُعطي أماناً مادام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يُمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر..." [٣]

---

(١) منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥٠ .

(٣) نفس المرجع لنفس المؤلف ٢ / ٣٥٠ .

المطلب الرابع

ما يتعلق بتعامله ﷺ مع عامة الناس

اشتمل القرآن الكريم على عدة توجيهات وإرشادات (أوامر ونواهي) للنبي ﷺ تتعلق بأخلاقه الاجتماعية مع الناس جميعاً، ولها أثر عظيم في تربيته الأخلاقية، ومن ذلك ما يلي :

أولاً: أمر الله لرسوله ﷺ بإعطاء الناس حقوقهم من مال وغيره، وردّهم بالحسنى عند عجزه عن ذلك:

اشتملت آي القرآن الكريم على عدة أوامر للنبي ﷺ خاطبته بصورة مباشرة ، وكان المقصود بذلك هو وأُمّته، ومن ذلك توجيه الله لرسوله ﷺ بإعطاء كلّ ذي حقّ حقه من أقربائه وغيرهم، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء:٢٦] .

وقوله عز وجل: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم :٣٨] . (١) (٢)

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الأولى :

" ... **فتأويل الكلام**: وأعط يا محمد ذا قرابتك حقّه ، من صلتك إياه ، وبرّك به ، والعطف عليه ، ... وقوله :﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ هو الذلّة (٣) من أهل

---

(١) وهناك أقوال لبعض السلف أن الآية منسوخة بآية المواريث، وقال مجاهد وقتادة : بل محكمة ؛ فصلة الرحم فرض من الله ، حتى قال مجاهد لا تُقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة، وهذا ما رجّحه القرطبي.
انظر :تفسير القرطبي ١٤ / ٣٥، تفسير الشوكاني ٤ / ٣٢٢، تفسير ابن عاشور ٢١ / ١٠٣

(٢) ذكر الرازي ـ رحمه الله – عدة أحكام فقهية للآية أوردها عن بعض السلف. انظر التفسير الكبير للرازي ٧ / ٣٢٨ .

(٣) الذلّة: هكذا في الأصل ، ولعلها بمعنى الذليل، وفي لسان العرب ١١ / ٢٥٦-٢٥٧ أن: الذُّل نقيض العز... ورجل ذليل: بين الذلة والذل.

الحاجة (١)... ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ : يعني المسافر المنقطع به، يقول تعالى: وصل قرابتك فأعطه حقه... والمسكين ذا الحاجة والمجتاز بك المنقطع به فاعنه، وقوّه على قطع سفره... فذلك عام في كلّ حقّ له أن يُعطاه من ضيافة أو حُمولة أو معونة على سفره..." (٢)

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : " هم قرابة رسول الله ﷺ ... أُمر بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي من سهم ذوي القربى من الغزو والغنيمة.." (٣)

وقد أمر الله رسوله ﷺ في حال عجزه عن إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم ـ من أقربائه وغيرهم ـ وعدم وجود ما يُعطيه إياهم، أمره بأن يسلك معهم مسلكاً حسناً في الاعتذار لهم فقال سبحانه : ﴿ **وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً** ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء:٢٨] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : " أي: وإن تعرض يا محمد عن هؤلاء الذين أمرتُك أن تؤتيهم حقوقهم ـ إذا وجدت إليها السبيل ـ بوجهك عند مساءلتهم إياك، مالا تجد إليه سبيلاً، حياءً منهم ورحمة لهم ﴿ **ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ** ﴾ أي: انتظار رزق تنتظره من عند ربك، وترجو تيسير الله إياه لك فلا تُيئسهم ، ولكن ﴿ **فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً** ﴾ أي: عِدهم وعداً جميلاً بأن تقول: سيرزق الله فأُعطيكم، وما أشبه ذلك من القول الليّن غير الغليظ، كما قل جلّ ثناؤه: ﴿ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى :١٠] (٤) " (٥) .

---

(١) ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره ٢ / ٥٤١-٥٤٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة :٦٠] ، عدة أقوال في تعريف الفقير والمسكين، ثم قال: والأولى في بيان ماهية المسكين ما ثبت عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان) قالوا: فما المسكين يا رسول الله ؟ ، قال: (الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً). والحديث عند مسلم في ٢ / ٧١٩ برقم ١٠٣٩ .

(٢) جامع البيان ٨ / ٦٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٤٧ .

(٤) سيأتي شرح معنى الآية بالتفصيل في النقطة الثالثة من هذا المطلب .

(٥) جامع البيان ٨ / ٦٩ بتصرف يسير جداً .

وقال الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية نفسها: "والمعنى: أنك إذا أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياءً من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة ﴿ **فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً** ﴾ أي: سهلاً ليّناً... فلا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن، بل تعهّدهم بالوعد الجميل، وتذكُر لهم العذر، وهو حصول القلة وعدم المال، أو تقول لهم: الله يُسهِّل ... وفي تفسير القول الميسور وجوه: الأول هو الرد بالطريق الأحسن، والثاني: مثل قوله تعالى: ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ [البقرة : ٢٦٣] "(١)

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ بالإحسان إلى ذوي القربى والمسكين وابن السبيل فعلاً " بالمواساة في اليسر ،" وقولاً " بالقول الميسور في العسر" (٢) لتكتمل تربيته الأخلاقية في تعامله مع الناس أجمعين.

ثانياً: نهي الله لرسوله ﷺ عن استكثار ما يُعطيه للناس منّةً (٣) عليهم:

"المنُّ هو القطع (٤) ، وهو اصطناع الخير (٥) ، والمِنَّة هي النعمة الثقيلة، ويُقال ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال منَّ فلانٌ على فلان إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى.

والثاني: أن يكون ذلك بالقول وهو أن يعدّد نِعَمَهُ على الغير ، وهذا مُستقبحٌ

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٣٢٩ بتصرف واختصار .

(٢) تفسير ابن عاشور ٢١ / ١٠٣ ، والعبارة منسوبة للحسن البصري ـ رحمه الله ـ.

(٣) منّة: من المنّ (م ن ن) والمن هو القطع ، والمنون هي المنية ؛ لأنها تُنقص العدد وتقطع المدد.
والمن: الإعياء ، وذلك ان المُعي ينقطع عن السير.
قال الشاعر: قلائصاً لا يشتكين المنّ .
معجم مقاييس اللغة ٥ / ٢٦٧ باختصار.

(٤) ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] ، اي غير مقطوع. تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٢ .

(٥) ومنه: منّ يمنّ منّاً، إذا صنع صنعاً جميلاً. مقاييس اللغة لابن فارس، ٥ / ٢٦٧ .

فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة . . ، وقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات :١٧]، المنَّة من الأعراب بالقول، ومنَّة الله عليهم بالفعل ، وهو هدايته إياهم كما ذكَرَ سبحانه . . . " (١)

من خلال ما سبق يتبيّن لنا أن المنَّ قد يكون بالقول،وقد يكون بالفعل (٢) ، والذي يعنينا هنا المنُّ الذي يكون بالقول: بأن يذكر الإنسان ما يظن أنه أنعم به على أخيه، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كُفران النعمة دون قصد الأذى ـ كما أسلفنا ذكره ـ .

والمنُّ ـ بشكل عام ـ قد يكون محموداً (٣)، وقد يكون مذموماً (٤)،والمنَّة قد تكون من الله (٥)، وقد تكون من الناس،والله هو المنَّان ـ سبحانه ـ وقد ورد لفظ المن ومشتقّاته في القرآن بمعانٍ محمودة (٦) ، وورد كذلك بمعانٍ مذمومة (٧)

والإسلام قد نهى عن المنّ على الناس بالقول، لما في ذلك من إيذاء وتكدير على الممنون عليه وكسرٍ لقلبه ، ولما فيه من إحباطٍ لأجر فاعله وإنقاصٍ له أو إذهابه بالكلية، وغير ذلك من استجلابٍ لغضب الله، وتعرُّضٍ لإعراضه وخذلانه

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص٤٧٤ وما بعدها باختصار وتصرف يسير.

(٢) وهناك معنى ثالث يدخل ضمن اصطناع الخير ، وهو ما يكون في الحرب من ترك الأمير للأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً

(٣) وهو ما يكون من الله لخلقه ، وهو كثير ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ . [طه :٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص : ٥].

(٤) كَمَنّ الإنسان على الله او رسوله او احد من خلقه.

(٥) وقد وردت في القرآن الكريم في أكثر من تسعة مواضع.

(٦) كما في قوله تعالى على لسان يوسف ﷺ : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف :٩٠] .

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

للعبد يوم القيامة ، بل وعذابه الشديد (١)

والقرآن الكريم قد اشتمل على عدة آيات حذّرت أهل الإيمان ـ صراحة أو ضمناً (٢) من المنّ على الآخرين ، ومن ذلك تحذير النبي ﷺ ، مع أنه لم يكن أحدٌ أكرم يداً ولا أطيب نفساً في الإحسان للناس من رسول الله ﷺ ، فلقد كان من أجود الناس، كما قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ واصفاً رسول الله ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس" (٣)، بل لقد كان ﷺ "أجود من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان..." (٤)، بل لقد عُرف عنه وشُهد له بالكرم والعطاء قبل أن يكون نبياً ورسولاً كما هو المفهوم من قول خديجة ـ رضي الله عنها ـ مُطَمْئنة النبي ﷺ عندما فزع لنزول الوحي عليه أول مرة فقالت له " والله لا يُخزيك الله أبداً إنك تحمل الكلّ (٥)، وتُكسب المعدوم (٦).. " (٧)، و"ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا " (٨) .

ورغم هذا كلّه إلا أن الله تعالى نهى رسوله ﷺ عن استكثار ما يُعطيه للناس،

---

(١) لما رواه مسلم في ١ / ١٠٢ في كتاب : الإيمان، باب : بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية...، برقم ١٠٦ عن أبي ذر- رضي الله عنه - ان النبي ﷺ قال: "(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر اليهم ، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم" قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار، قال أبو ذر - رضي الله عنه - : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: (المُسبِل ، والمنّان، والمنفق سلعته بالحَلف الكاذب)".

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾ البقرة ٢٦٣ .

(٣) اخرجه البخاري في ٣ / ١٠٣٨ في كتاب: الجهاد، باب الشجاعة في الحرب...، برقم٢٦٦٥، والإمام احمد في مسنده ٣ / ١٨٥ برقم ١٢٤٧٨، والبغوي في شرح السُّنّة ١٣ / ٢٨٥ .

(٤) اخرجه البخاري في ٣ / ١٠٣٨ في كتاب: الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب برقم ٢٦٦٥، واخرجه مسلم في ٤ / ١٨٠٢

(٥) تحمل الكَلّ: بفتح الكاف وهو من لا يستقل بأمره، انظر فتح الباري ١ / ٢٤-٢٥ .

(٦) تُكسب المعدوم: بالفتح والضم، اي تعطيه مالاً او تعاونه. فتح الباري ١ / ٢٥ .

(٧) اخرجه البخاري في١ / ٤ في كتاب: بدء الوحي، باب:كيف كان بدء الوحي، برقم ٣، عن عائشة رضي الله عنها ، واخرجه مسلم في ١ / ١٣٩ برقم ١٦ .

(٨) اخرجه مسلم في ٤ / ١٨٠٥ في كتاب: الفضائل، باب: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا، برقم٢٣١١، والإمام احمد في مسنده في ٣ / ٣٨٩ برقم ١٤٢٧٧ .

أو قطع ذلك عنهم، وحثُّهُ على الاستمرار في العطاء والزيادة منه، فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْنُن [١] تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ [المدثر : ٦]

أورد أهل التفسير عدة معانٍ للآية كما يلي:

[١] **قال القرطبي ـ رحمه الله ـ أي:** لا تُعط عطيَّة تلتمس بها أفضل منها . . . أو لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس ، فتأخذ منهم أجراً تستكثر به . . . أو لا تعط مالك مصانعة . . . " [٢] . وقد رجَّح ابن كثير ـ رحمه الله ـ القول الأول[٣] ، وذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ نفس ما سبق [٤]

[٢] **وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ :** "مناسبة عطف ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ على الأمر بهجر الرُّجز أن المنّ في العطية . . . منْ خلُق أهل الشرك، فلما أمره الله بهجر الرُّجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهياً يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية، فكأنه قال: وتصدّق، وأكثر من الصدقة، ولا تمنن، أي لا تعدَّ ما أعطيته كثيراً، فتمسك عن الازدياد فيه،أو تتطرّق إليك ندامة على ما أعطيت . . . "[٥] .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هذا القول هو الأصوب لتوافقه مع مقام النبوة، ولأن المعروف عن رسول الله ﷺ أنه كان كريماً في العطاء ، مستقلاً لما يُعطيه، ولم يثبت ، ولم يُرو أنه منّ على أحد بعطيته أبداً، أو التمس أفضل منها.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ معلقاً على تفسيرات من سبقه : ـ ومنهم من ذكرنا ـ "وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعنى ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ليس شيء منها بمناسب" ، وقد أوْصَلَها القرطبي [٦] ـ رحمه الله ـ إلى أحَدَ

---

(١) وفي قراءة أخرى ﴿ وَلَا تَمُنن ﴾ انظر فتح القدير ٥ / ٤٥٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٦٧ باختصار .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٧٠ .
(٤) فتح القدير ٥ / ٤٥٦ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٩٨ .
(٦) نفس المرجع السابق ٢٩ / ٢٩٩ .

عشر قولاً (١)

إذاً ، فقد أمر الله رسوله ﷺ بالإكثار من الصدقة والأعطيات، وألا يستكثر ما أعطاه منّة على الناس، وأن يَثبُت على ما عُرف عنه من مظاهر الخلُق العظيم بكرم اليد وطيب النفس.

ثانياً: تحذير الله لرسوله ﷺ من قهر اليتيم وانتهار السائل:

بعد أن امتنّ الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ في سورة الضحى بعدّة منن كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ ﴾ [الضحى :٦-٨] ، أعقب ذلك بما يقابله مما يجب على النبي ﷺ أن يفعله لمن عانى ما عاناه رسول الله ﷺ في طفولته "فقد قُوبلت النعم الثلاث... بثلاثة أعمال تقابلها.." (٢) ، وهذه الثلاثة الأعمال هي ما ورد في قوله تعالى ـ مخاطباً النبي ﷺ ومحذراً له ـ : " ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٣) ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ [الضحى :٩-١١] .

سبق شرحُنا للآية الأخيرة (٤) ، والذي يعنينا هنا نهي الله لرسوله ﷺ عن قهر اليتيم وانتهار السائل ، فقد ذكر أهل التفسير عدة أقوال في معنى الآيتين السابقتين ، قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في معنى الآية الأولى: " أي : يا محمد ، لا تظلم اليتيم فتذهب بحقه استضعافاً له" (٥)

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "أي لا تُذلُّه وتَنهره وتُهينه ، ولكن أحْسِن إليه وتلطّف به... وكن لليتيم كالأب الرحيم" (٦)

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٦٧-٦٨ .

(٢) تفسير التحرير لابن عاشور ٣٠ / ٤٠١ باختصار .

(٣) ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ في قراءة أخرى لابن مسعود وغيره ﴿فَلَا تَكْهَرْ﴾ بالكاف.
انظر :فتح القدير للشوكاني٥ / ٦٥١ .

(٤) راجع: أخلاق النبي ﷺ مع ربه في الفقرة الأولى من هذا الفصل.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن ١٢ / ٦٢٥ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٥٩ بتصرف وزيادة يسيرة .

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان . . . " (١) .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " أي فكما آواك ربّك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليُتْم ، فكن أنت مُكرماً للأيتام رفيقاً بهم، فجمع ذلك في النهي عن قهره . . " (٢)

ويمكن إجمال الأقوال السابقة بأن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الإساءة إلى اليتيم بأي صورة من صور الإيذاء له، وعن التقصير في حقه أو التجاوز بأي صورة من صور ذلك ـ سواء في ذاته أو ماله، أو مشاعره أو بدنه.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : "ودلّت الآية على اللطف باليتيم، وبرِّه والإحسان إليه، . . . وخُصَّ اليتيم ؛ لأنه لا ناصر له غير الله تعالى . . . " (٣)

والقهر هو " الغلبة والإذلال . . . وقد يقع هذا بالفعل كالدّعِّ (٤) والتحقير . . . وقد يكون بالقول . . .بالسخرية والاستهزاء،وقد يكون بالإشارة مثل عبُوس الوجه، فهذا المنهي عنه،أما القهر لأجل الاستصلاح كضرب التأديب ، فهو من حقوق التربية . . " (٥)

وكما نهى الله رسوله ﷺ عن قهر اليتيم ، فقد نهاه أيضاً عن انتهار السائل كما في الآية السالف ذكرها ـ حيث قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ .

اختلف أهل التفسير في المراد بالسائل في الآية فقيل هو : السائل في العِلْم المسترشد (٦) ، وقيل : هو السائل على الباب (٧) ، وقيل : هو السائل عن الدين

(١) فتح القدير ٥ / ٦٥١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠١ .
(٣) الجامع لاحكام القرآن ٢٠ / ١٠٠ بتصرف وتقديم وتاخير .
(٤) الدّعّ :اي الدفع بقوة،كما في قوله تعالى في شان الكفار يوم القيامة:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور:١٣] ، وانظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٢٥٨ .
(٥) تفسير التحرير لابن عاشور ٣٠ / ٤٠٢ باختصار .
(٦) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٩ .
(٧) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٦٥١ .

بشكل عام [١] . وعمَّم ابن عاشور وأجمل الأقوال السابقة بقوله : " فلا يختص السائل بسائل العطاء ، بل يشمل كل سائل. . .والتعريف في ﴿ السَّائِلَ ﴾ تعريف الجنس فيعمَّ كل سائل، أي عما يُسأل النبي ﷺ عن مثله . . ." [٢] .

وبهذا يمكن القول أن الله تعالى نهى النبي ﷺ عن نهر السائل ـ أيّاً كان ـ فإن كان سائل العطاء ؛ فإن معنى ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي :"لا تزجره، فهو نهيٌ عن إغلاظ القول، ولكن رُدَّه ببذل يسير، أو رَدٌّ جميل. . ."[٣] . "ولا تكن جَبَّاراً مُتكبراً . . . على الضعفاء من عباد الله. . . ورُدّ المسكين برحمة ولين" [٤] ، وإن كان السائل عن العلم أو الدين ـ مما يُسأل عنه رسول الله ﷺ فإن معنى ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي :"فلا تنهره بالغلظة والجفوة، ولكن أجبه برفق ولين. . ." [٥] .

وعلى كل حال ، فإن المستفاد من نهي الله لرسوله ﷺ عن القهر لليتيم والنهر للسائل " النهي عما هو أشد منهما" [٦] ، من باب أولى ، فلا يجوز الشتم والضرب والاستيلاء على المال ونحو ذلك ـ بغير حق ـ "وليس من النهر نهيُ السائل عن مخالفة آداب السؤال في الإسلام" [٧] .

وعموماً ليس معنى نهي الله لرسوله ﷺ عن قهر اليتيم ونهر السائل أن شيئاً من ذلك قد وقع منه أبداً، بدليل ما اتصف به ﷺ قبل النبوة وبعدها وما شهد له الناس به والوحي كذلك من رأفةٍ ورحمةٍ ولين في الطباع . . . إلخ [٨]، وإنما التوجيه هنا من باب التأكيد على النبي ﷺ لِيَثْبُت على إحسانه ، ويزداد في

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٦٥١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠ / ١٠١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٩ .
(٥) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٦٥١ .
(٦) تفسير ابن عاشور ٣٠ / ٤٠٣ .
(٧) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٨) سيأتي شرح هذا بالتفصيل في المبحث الثالث من هذا الفصل.

امتنانه وليقتدي به غيره ﷺ (١)

أما رسول الله ﷺ فقد أثبتت كتب السيرة والحديث والتفسير من إحسانه للأيتام ووصيته بهم الشيء الكثير (٢)، فمن ذلك ما صحّ عن عمران بن حصين (٣) ـ قال: "كنت مع نبي الله في مسير له.. ـ والحديث طويل ـ حتى قال: فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلةٍ (٤) رجليها بين مَزَادتين (٥)، فقلنا لها: أين الماء؟ قالت أيهاه أيهاه (٦)، لا ماء لكم...، إلى أن قال: حتى انطلقنا بها، فاستقبلْنا بها رسولَ الله ﷺ، فَسَأَلَها فأخبَرَتْه مثل الذي أخبَرَتْنا، وأخبرته أنها موتِمة ـ أي ذات أيتام ـ توفي زوجها وترك أولاداً صغاراً ـ لها صبيان أيتام... حتى قال ﷺ للصحابة: (هاتوا ما كان عندكم) فجمعنا لها من كِسَرٍ (٧)،

(١) ومن هـذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾ [الأحزاب:١]. فليس معنى ذلك أنه لم يتق الله قبل ذلك، أو قد وقع في طاعة الكفار والمنافقين في قضية ما، إنما القصد أن يدوم على تقوى الله ويزداد من ذلك، وأن يستمر في حذره من الكفار. انظر فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) والقرآن قد اعتبر الإحسان إلى اليتامى من البر، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:١٧٧].
والقرآن قد أمر بالإحسان إلى اليتامى في أكثر من موضع وحذّر من أكل أموالهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩﴾ [النساء: ١٠].

(٣) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف بن عبدنهم.. الخزاعي الكعبي، يكنى أبا نجيد بابنه نجيد، أسلم عام خيبر سنة سبع، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات، بعثه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان من فضلاء الصحابة، واستقضاه عبد الله بن عامر على البصرة، فأقام قاضياً يسيراً، ثم استعفى فاعفاه، قال محمد بن سيرين: لم نر في البصرة أحداً من أصحاب النبي ﷺ يفضل على عمران بن حصين، وكان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه الحسن وابن سيرين.
انظر: أسد الغابة لابن الأثير٤ / ٢٩٩-٣٠٠ترجمة رقم٤٠٤٢، و: سير أعلام النبلاء٢ / ٥٠٨-٥١٢ ترجمة رقم١٠٥ و: تقريب التهذيب١ / ٧٥٠ ترجمة رقم ٥١٦٦.

(٤) سادلة: أي مرسلة ومُدلّية رجليها.

(٥) مزادتين: المزادة أكبر من القربة، والمزادتان حمل بعير، سُميت مزادة؛ لأنه يُزاد فيها من جلد آخر من غيرها.

(٦) أيهاه أيهاه: هكذا في الأصل، وهو بمعنى هيهات، ومعناه البعد عن المطلوب واليأس منه، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٤٧٥-٤٧٦.

(٧) كِسَر: جمع كِسْرة وهي القطعة من الشيء المكسور، والمراد به هنا ما يؤكل من خبز ونحوه.

وتمر، وصرَّ لها صُرّةً (١) ، فقال لها: (اذهبي ، فأطعمي هذا عيالك ، واعلمي أنَّا لم نرزأ من مائك (٢)) (٣)

والشاهد من هذه الرواية أن النبي ﷺ أحسن إلى أيتام هذه المرأة من خلال:

(أ) إبقاء حقّهم من الماء الذي ذهبت أمهم لإحضاره،ولم يُنقص منه شيئاً ﷺ ، فلم يظلمهم ولم يذهب بحقِّهم.

(ب) إحسانه البالغ إليهم ، وحرصه على إشباعهم فقد تعامل معهم كالأب الرحيم ، فجمع لهم من الخبز والتمر من الصحابة الكرام ما كوّن منه صُرَّة كاملة.

(جـ) إكرامه لهم بأمره لأُمِّهم أن تُطعم أولادها ما جمعه من الصحابة دون أن تصرفه في غير ما جُمع له.

رابعاً: أمر الله لرسوله ﷺ بدفع السيئة ـ إذا صدرت من الناس ـ بالتي هي أحسن:

لم تكتف آيات القرآن الكريم بنهي النبي ﷺ عن المنِّ على الناس،وقهر اليتيم، وانتهار السائل ـ وكلُّها من الأخلاق المذمومة، بل لقد أمره الله عز وجل بخُلُق عظيم من الأخلاق المحمودة، لا يقدر عليه إلا الأنبياء ومن حَذَا حَذْوَهم ممن وفَّقه الله لذلك ؛ فقد أمره الله ـ عز وجل ـ بأن يقابل سيئات الناس بإحسانه، "فالرسول ﷺ لابد أن يجد من قومه ألواناً مما يكره من سفاهتهم، وجهالاتهم، وإساءاتهم من أقوالهم وأعمالهم فهل يدفع ذلك بمثله أو بأعنف منه؟" (٤)

ومن هنا أمره الله قائلاً: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

---

(١) وصرّ لها صُرة: اي شد ما جمعه لها في لفافة.

(٢) لم نرزأ من مائك: اي لم نُنقص منه شيئاً، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٤٧٥-٤٧٦ .

(٣) اخرجه مسلم في ١ / ٤٧٤ في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة، برقم ٦٨٢، والبيهقي في السُنن الكبرى ١ / ٢١٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٨ / ١٣٨ .

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ٤٧٦ للميداني .

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت: ٣٤] .

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى: "أرْشَدَه الله تعالى - أي أرشد رسوله ﷺ - إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يُسيء إليه، ليستجلب خاطره، فتعود عداوتُه صداقة، وبغضه محبة..." (١) .

وقال الشوكاني - رحمه الله - في تفسير الآية الثانية: "أي ولا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها، ويُثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله، ويُعاقب عليها... ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي: ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات..." (٢) .

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: "...فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها، وأوْلاها تبادراً إلى الأذهان حسنة الدعوة إلى الإسلام، لما فيها من جمٍّ المنافع في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقى به المشركون دعوة الإسلام ؛ لأن الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يُثير حميتهم لدينهم، ويُقرِّب لين نفوس ذوي النفوس اللينة... وإنما أُمر الرسول الله ﷺ بذلك ؛ لأن منتهى الكمال البشرى خلُقه..." (٣)

والله عز وجل عندما أمر رسوله ﷺ بدفع السيئة بالحسنة أو بالتي هي أحسن، إنما أمره بذلك لما في هذا من منافع جليلة تعود عليه، وعلى المسيء إليه ، وعلى انتشار دعوة الإسلام كما يُفهم من بقية الآية وأقوال أهل التفسير فيها، حيث

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٦٥ بتصرف يسير .

(٢) فتح القدير ٤ / ٧٣٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٩٠-٢٩١ باختصار.
وقال ابن عاشور في بقية كلامه: "﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ هي الحسنة وإنما صيغت بفعل التفضيل ترغيباً في دفع السيئة بها ؛ لأن ذلك يشق على النفس، فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على حب الانتقام"

ذكر الله ثمرة دفع السيئة بأحسن منها قائلاً سبحانه : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : أي " . . .إذا أحسنت إلى من أساء إليك، قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبّتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك" (١)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :"هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى : أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق، والبعيد عنك كالقريب منك" (٢)

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ :"وهذا تركيب بليغ ـ يقصد قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، لأنه يجمع أحوال العداوات، فيُعلم أن الإحسان ناجعٌ في اقتلاع عداوة المحسَنِ إليه للمحسِن ، على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفاً، وتمكناً وبُعداً، ويُعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قوياً بقدر تمكن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها، ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها . . ." (٣) .

وقد بيَّن الله لرسوله ﷺ أن هذا الخلق العظيم ـ خلُق الإحسان إلى المسيء ـ لا يوفَّق إليه إلا صاحب " القوة والعزم والشدة، والمراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام. . ." (٤) ، ومن أراد اللهُ له نصيباً وافراً من الأخلاق العظيمة، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت:٣٥] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ :"أي وما يُلَقَّى هذه الفعلة الكريمة والخصلة

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٠٩ .
(٢) فتح القدير٤ / ٧٣٤ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٩٣ بتصرف يسير .
(٤) تفسير ابن عاشور ٢٤ / ٢٩٤ .

الشريفة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى [١] ، ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي نصيب وافر من الخير" [٢]

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فدفع كل سيئات الناس - مؤمنهم وكافرهم - بالإحسان، وعفا وصفح عن سيئهم ومساوئهم، ومن ذلك ما صحّ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: « كان لرجلٍ على رسول الله ﷺ حقٌّ، فأغلظ له، فهمّ به أصحاب النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : (**إن لصاحب الحق مقالاً**) ، فقال لهم: (**اشتروا له سِناً** [٣] **فأعطوه إياه**) ، فقالوا: إنَّا لا نجد إلا سِنّاً هو خير من سنّه، قال: "فاشتروه فأعطوه إياه، فإن من خيركم - أو خيركم - أحسنكم قضاءً» [٤]

يتضح لنا إحسان النبي ﷺ ودفعه سيئة الرجل في حقه من خلال:

(أ) صبره عليه وحلمه عنه رغم إغلاظه القول على رسول الله ﷺ .

(ب) إقرار النبي ﷺ لمطلبه، وعدم ردّه عليه بسوء.

(جـ) قضائه ﷺ بأحسن مما أُخذ منه ، قال النووي - رحمه الله - " ...يستحب لمن عليه دين من قرض وغيره أن يرد أجود من الذي عليه، وهذا من السُّنَّة ومكارم الأخلاق، وليس هو مِنْ قرضٍ جرّ منفعةً ؛ فإنه منهي عنه..." [٥].

وهكذا كان ﷺ في تعامله مع كل من أساء في حقه: في صبره عليهم وإحسانه إليهم" فقد صبر على سوء أخلاق من أساء إليه مرّة بعد مرة، ولم يقابل

---

(١) وعند التامل فيما يتبع الآية من قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾[فصلت: ٣٦] ، نفهم ان محاولة كظم الغيظ واحتمال الاذى ودفع السيئة بحسنة قد لا تدوم فتاتي وساوس الشيطان بالانتقام ، فامَرَ الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ونزغاته.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٣٦٣ ، وهناك اقوال اخرى في معنى الآية.

(٣) سِناً: هي نوع من الإبل فوق البكرة واكبر منها، والبكر من الإبل هو الصغير . صحيح مسلم بشرح النووي ١١ / ٣٧ .

(٤) أخرجه مسلم في ٣ / ١٢٢٥ في كتاب: المساقاة، باب: من استلف شيئاً فقضى خيراً منه، برقم ١٦٠١، واخرجه الإمام احمد في مسنده ٦ / ٣٠٥ برقم ٢٦٣٠٢، والبيهقي في السُّنن الكبرى ٦ / ٢٠ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١١ / ٣٧ .

سفاهته بالغضب، ولا إيذاءه بمثله، ونَصَحَه برفق، وأبان له على أنه قادر على أن ينتقم منه إلا أنه آثر أن يدفع بالتي هي أحسن" (١)

وهذا السلوك لاشك أنه يجعل المسيء يشعر بالحرج والاستحياء ممن أساء في حقه، ويُشعره كذلك بالنقص والدّونية عن ذوي الأخلاق الحسنة في حلمهم وصبرهم وإحسانهم، فيدفعه ذلك إلى تعويض هذا النقص والتكفير عن خطئه بسرعة الاعتذار والإكثار من التودد والتقرب لمن أخطأ في حقه.

وكما أمر الله رسوله ﷺ بدفع السيئة بالحسنة، فقد أمره أيضاً بصرف سيئ القول الذي يتقوّله عليه الكفار والمنافقون إلى معنى حسن، ويتضح هذا من مفهوم قوله تعالى عن المنافقين الذين آذوا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة :٦١].

فقد نزلت هذه الآية كما قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في نبتل بن الحارث ، وهو أحد المنافقين (٢) ، وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : نزلت في عتّاب بن قشير ، وهو من المنافقين (٣) ، وقيل نزلت في غيرهما من المنافقين (٤) .

وعموماً فقد أجمع أهل التفسير أن الآية نزلت في أهل النفاق، قال القرطبي

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني ١ / ٤٧٦ .

(٢) جامع البيان ٦ / ٤٠٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٩٢، وقد ذكر القرطبي أيضاً أنها نزلت في نبتل بن الحارث ، وقال: "وكان نبتل رجلاً جسيماً ثائر شعر الرأس واللحية، آدم، أحمر العينين، أسفع الخدين،-أي أسودهما إلى حمرة- ، مشوه الخلقة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ "من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل ابن الحارث".

(٤) كما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ٦ / ١٨٢٦ حيث قال: "...اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت-قبل توبته كما قال ابن عاشور في تفسيره١٠ / ٢٤١-ومخشي بن حمير، ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن، نحلف له فيصدقنا ...الخ.

وذكر الشوكاني في تفسيره ٢ / ٥٤٩ أن الآية نزلت في عمير بن سعد " وذلك أن عمير بن سعد، كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتي النبي فيساره، حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته".

ـ رحمه الله ـ : " بيَّن الله تعالى أن في المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة في أذية النبي ﷺ ويقول: إن عاتبني حلفتُ له بأني ما قلت هذا فيقبله، فإنه أُذُنٌ سامعة.. " [(١)] .

وقال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : " ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ سامعة ، يسمع من كل أحد ما يقول ، فيقبله ويصدِّقه " [(٢)]

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " .. قولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾؛ لأنهم نسبوه إلى أنه يُصدِّق كل ما يقال له، ولا يفرق بين الصحيح والباطل، اغتراراً منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جناياتهم، كرماً وحلماً وتغاضياً... " [(٣)] .

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد على المنافقين بأنه إنما هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ لا أُذُنُ شر، فقال سبحانه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ [(٤)] لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ ، وفي قراءة أخرى ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٌ [(٥)] لَكُمْ﴾، ومعناها على القراءة الأولى ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ لا أُذُنُ شر [(٦)] ، ومعناها على القراءة الثانية [(٧)] "أي : قل من يسمع منكم أيها المنافقون ما تقولون ويصدقكم إن كان محمد كما وصفتموه، من أنكم إذا أتيتموه، فأنكرتم ما ذُكر له عنكم من أذاكم إياه، وعيبكم له، سمع منكم وصدَّقكم خير لكم من أن يكذبكم ، ولا يقبل منكم ما تقولون، ثم كذَّبهم،فقال :بل لا يقبل إلا من المؤمنين ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٨)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٩٢ .

(٢) جامع البيان٦ / ٤٠٥ .

(٣) فتح القدير ٢ / ٥٤٦ .

(٤) على قراءة الجمهور، كما قاله الشوكاني في تفسيره ٢ / ٥٤٦ .

(٥) على قراءة الحسن وعاصم ،كما قاله الشوكاني في تفسيره ٢ / ٥٤٦ .

(٦) جامع البيان للطبري ٦ / ٤٠٥ وقد رجَّح الطبري قراءة الجمهور ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ .

(٧) وهناك قراءة ثالثة لنافع بتسكين الذال (أذْن) كما ذكره ابن عاشور في تفسيره ١٠ / ٢٤٣ .

(٨) نفس المرجع السابق .

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " والمعنى أن النبي ﷺ أُذُن خير للمنافقين ورحمة لهم ؛ حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكأنه قيل: هو أذنٌ كما قلتم، لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلّم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسره بما هو مدْحٌ له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته. . . " (١)

ويتضح لنا من أمر الله لرسوله ﷺ بالرد على المنافقين بأنه إنما هو أذن خير أن الله تعالى يُعلّم رسوله ﷺ خلُقاً حسناً بصورة غير مباشرة حيث دعاه من خلال ذلك إلى صرف الأقوال السيئة ومعناها السيئ الذي يقصده القائل إلى معانٍ حسنة محمودة.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " . . .وجملة ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾، جملة ﴿ قُلْ ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، على طريقة المقاولة والمحاورة، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكَمَداً لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يَحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده ، تنبيهاً له على أنه الأوْلى بأن يُراد . . فأمر النبيُّ ﷺ بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف معالتهم إلى معنى لائق بالرسول ﷺ حتى لا يبقى للمحكي أثر، وهذا من لطائف القرآن. . . " (٢) .

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ وعلّمه " أدب رد الأقوال المؤذية التي تقال فيه بصرفها عما يريد المؤذون إلى معان صالحة لا أذى فيها، وهذا من رفيع الأدب الذي يُعبِّر عن كمال خلُقيٍ أصيل في النفس ؛ إذ لا يدفع السيئة بمثلها ـ سواء كانت قولاً أو فعلاً ـ إنما يدفعها بالتي هي أحسن" (٣) .

---

(١) فتح القدير ٢ / ٥٤٦ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٠ / ٢٤٢ باختصار .
(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ٤٩٩ .

المطلـب الخامس

ما يتعلق بأخلاقــه الشخصية في نفســه ﷺ

حذَّر الله رسوله ﷺ من جملة من الطباع والأخلاق السيئة التي قد تؤثر سلباً على سيرته المحمودة بين الناس، ومن ذلك ما يلي:

أولاً: نهي الله لرسوله ﷺ عن التطلع لما عند الناس من زينة الحياة الدنيا، أو الإعجاب بها:

من الأخلاق الحسنة التي أمر الله رسوله ﷺ بالتحلي بها خلُق العفة والتعفف عما في أيدي الناس من زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وألا يتطلع لشيء من ذلك مهما كان صغيراً أو كبيراً، وأن يقنع بما قسم الله له، وأن يكتفي بما أعدّ له في الدار الآخرة، حيث نهاه الله عز وجل قائلاً: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر:٨٨] ، وخاطبه في موضع آخر موضحاً له أن ذلك متعلق بما عند الناس من زهرة الحياة الدنيا وفتنتها، فقال سبحانه: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾. [طه : ١٣١] (١) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لا تنظر إلى ما عند هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم،وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور... فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم،كما في الآية الأخرى﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر:

---

(١) ونحو هذا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٥٥] .

٨٧ –٨٨] ، وكذلك ما ادَّخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمرٌ عظيم لا يُحدُّ ولا يُوصف، كما قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى :٥] ، ولهذا قال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾" (١)

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصلية الباقية ، وبالصلة بالله والرِّضا به، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا، وتبقى دائماً تُحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار.. " (٢)

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه بالتعفف والترفع عمّا في أيدي الناس في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومسكنه ، وكل ما يتعلق بشئونه الشخصية ، فهو القائل: **(اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)**(٣)، وإذا احتاج أو اضطر ﷺ لأخذ شيء من الناس فإنما يكون ذلك استعارة (٤) ، أو شراءً منهم، أو مقابل رهن (٥) ، وإذا قضى أحسن القضاء وزاد، وكان ﷺ لا يقبل الصدقة لا له (٦)

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ١٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٥٧ .

(٣) أخرجه مسلم في ٤ / ٢٠٨٧ في كتاب: الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل ، برقم ٢٧٢١ عن عبد الله –اي ابن مسعود– رضي الله عنه –.

(٤) كما ثبت عند مسلم في ٣ / ١٢٢٤ عن ابي رافع «ان رسول الله ﷺ استلف من رجل بكْراً، فَقَدِمتْ عليه إبل من إبل الصدقة، فامر ابا رافع ان يقضي الرجل بكْره، فرجع إليه ابو رافع فقال: لم أجد فيها إلا خياراً رَباعياً ـ اي ما تجاوزَ الست السنين،ودخل السابعة. . . ـ فقال: "أعْطه إياه، إن خيار الناس احسنهم قضاءً" ».

(٥) كما ذكر الرازي في تفسيره ٨ / ١١٤ عن ابي رافع قال: "نزل ضَيف بالنبي ﷺ،فبعثني إلى يهودي لبيع او سلف فقال ـ اي اليهودي ـ والله لا افعل ذلك إلا برَهْن، فاخبرتُه بقوله، فامرني ان اذهب بدرعه إليه.." .
وقال القرطبي في تعليقه على هذه الرواية في ١١ / ٢٦٢ –بعد ان اوردها بصيغة اخرى فيها زيادات، وردّ على من قال: انها سبب في نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ ﴾ [طه :١٣١] ـ قال " ... ونزلتْ الآية تعزية له عن الدنيا، قال ابن عطية: وهذا مُعترض ان يكون سبباً لان السورة مكية، والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي ﷺ ؛ لانه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذُكرت.

(٦) لما ثبت عند مسلم في٢ / ٧٥١ في كتاب: الزكاة، باب: تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم برقم١٠٧٠ عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال: **(إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي، ثم أرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها).**
وفي رواية برقم ١٠٦٩ عن ابن معاذ **(إنا لا نأكل الصدقة)**.

ولا لآل بيته (١) ، وإن كان يقبل الهدية .

والرسول ﷺ لم يتطلع لشيء من زينة الحياة الدنيا، بل زهد فيها كل الزهد، ولم يسأل الله شيئاً من متاعها، بل لقد أنكر على من بكى على حاله ﷺ، ففي الصحيح أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما دخل على رسول الله ﷺ في حادثة إيلائه من نسائه واعتزاله لهن، قال: " ... فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلستُ ، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصّاع، ومثلها قَرَظاً (٢) في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ مُعَلّق (٣) . قال: فابتدرَتْ عيناي(٤)، قال: ـ أي رسول الله ـ **«ما يبكيك يا ابن الخطاب »** (قلتُ: يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ! ، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته (٥) ، وهذه خزانتك. فقال: **(يا ابن الخطاب ، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا)** " .. (٦)

وهكذا كان ﷺ لا يتطلع لشيء من الدنيا وزينتها مطلقاً، ولا يمد يده لأحد من الناس استغناءً عن خلق الله واكتفاء بما أعدّ الله له في جنات الفردوس الأعلى .

---

(١) لما صح عند مسلم في ٢ / ٧٥١ برقم ١٠٦٩ ان ابا هريرة رضي الله عنه قال: "اخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ : (كِخ كِخْ ـ بالفتح والكسر بمعنى اتركه وارم به ـ إرم بها، أما علمتَ أنا لا نأكل الصدقة).

(٢) قرظاً: القرظ : ورق السَّلم يُدبغ به.

(٣) أَفِيقٌ معلّق: هو الجلد الذي لم يتم دباغه، وجمعه أَفَقْ، كاديم وأَدَمْ

(٤) فابتدرَتْ عيناي: اي لم اتمالك ان بكيت حتى سالت دموعي.
انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٢ / ١١٠٦-١١٠٧ .

(٥) وصِفوته: هكذا بالفتح والكسر كما في الأصل.

(٦) اخرجه مسلم في ٢ / ١١٠٥-١١٠٨ في كتاب: الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن...، برقم ١٤٧٩ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والحديث طويل، واخرجه ابن ماجة برقم ٤١٥٣، والبيهقي في السُّنن الكبرى في ٧ / ٤٦ .

ثانياً: تحذير الله لرسوله ﷺ من بعض الأخــلاق الذميمة:

وصّى الله رسوله ﷺ في سورة الإسراء بعدة وصايا ومواعظ ـ له ولأمته (١) ـ لها أثر عظيم في تحقيق التربية الأخلاقية على المنهج القويم حال العمل بها، ثم قال الله لرسوله ﷺ في نهاية وصيته له: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء:٣٩] .

ومن هذه الوصايا جملة نواهٍ حذّر الله منها رسوله ﷺ ، وليس معنى تحذير الله له أو نهيه له عنها أن شيئاً منها قد وقع للنبي ﷺ أو يمكن أن يقع منه، إنما القصد أن يستمر في الابتعاد عنها لِقُبحها وتأثيرها السيئ على حاملها ، ولأنها تشريع عام له ولأمته.

ومن هذه الصفات والأخلاق الذميمة ما يلي:

أ ـ تحذير الله لرسوله ﷺ من البخل والشُح:

البخل هو : " المنع من مال النفس" (٢) .

والشح هو : " بخل الرجل من مال غيره" (٣) .

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : " البخل المذموم في الشرع هو امتناع المرء عن أداء ما أوجب الله تعالى عليه" (٤) .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : "البخل هو منع ما يُطلب مما يُقتنى، وشرّه ما كان طالبه مستحقاً ولا سيما إن كان من غير مال المسئول" (٥)

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين البخل والشح، فقيل هما مختلفان في

---

(١) هي إجمالاً تبدأ من الآية ٢٣-٣٨ من سورة الإسراء .
(٢) التعريفات للجرجاني ص٦٧ .
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) تفسير القرطبي ٤ / ٢٩٢ .
(٥) فتح الباري ١٠ / ٤٥٧ .

المعنى[١] ، وقيل متفقان[٢]، والصحيح في ذلك أن الشُّحَّ هو البخل مع حرص، لما دلّ عليه حديث النبي ﷺ الصحيح في قوله: **(إتقوا الشُّحَّ؛فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم،حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم)** [٣]

وقد يكون المؤمن بخيلاً[٤] ، ولكن ذلك لا يليق بالنبي ﷺ وهو القدوة المطلقة للعالمين أجمعين، " فالبُخل من الأخلاق المذمومة ، بل هو ذريعة إلى كل مذمَّة ، وقد يحدث عنه: الحرص، والشّره، وسوء الظن، ومنع الحقوق " [٥]، وغير ذلك من عواقب وسلوكيات سيئة، وإنما التمادح بالعطاء وهو كرم اليد بالمال.

ومن هنا فلا عجب أن يُحذّر الله رسوله ﷺ من البخل والشح قائلاً له ـ ولغيره ـ : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴿٢٩﴾ ﴾[الإسراء: ٢٩] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : " وهذا مثلٌ ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء ، وإنما معنى الكلام: ولا تمسك يا محمد يدك بُخلاً عن النفقة في حقوق الله، فلا تنفق فيها شيئاً ـ إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الذي لا يستطيع بسطها.. " [٦]

---

(١) ومن ذلك ما قاله الكفوي حيث قال: "البخل هو المنع نفسه، والشُّحُّ هو الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنع" ، انظر الكليات للكفوي ص٢٤٢ .

(٢) وقال الفيروزآبادي في البصائر ٢ / ٢٢٧ :"البخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل" .

(٣) أخرجه مسلم في ٤ / ١٩٩٦ في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم ٢٥٧٩، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه ، وأول الحديث (اتقوا الظلم فإن...الخ الحديث) ، وأخرجه البيهقي في السُنن الكبرى ٦ / ٩٣، والبغوي في شرح السُّنَّة ١٤ / ٣٥٧ .

(٤) لما أخرجه الإمام مالك في الموطأ ص٥٤١، في كتاب: الجامع ، باب: ماجاء في الصدق والكذب، برقم ١٨١٦ عن صفوان بن سُليم أنه قيل لرسول الله ﷺ: "أيكون المؤمن جباناً؟، فقال : (نعم) ، فقيل له أيكون المؤمن بخيلاً ؟ ، فقال : (نعم) فقيل له: " أيكون المؤمن كذاباً ؟ ، فقال : (لا)" .

(٥) أدب الدنيا والدين ص٢٢٨ للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب(٣٦٤-٤٥٠هـ)، تحقيق مصطفى السقا ، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠١هـ-بيروت، لبنان.

(٦) جامع البيان للطبري ٨ / ٧١ .

وقال الرازي ـ رحمه الله ـ في معنى الآية : " . . . أي :لا تُمسك عن الإنفاق، بحيث تُضيّق على نفسك وأهلك، في وجوه صلة الرحم، وسبيل الخيرات . . "(١) .

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " . . . وهذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي ﷺ ـ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم ـ أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين" (٢)

والنبيﷺ قد اتّصف بالكرم امتثالاً لأمر ربه حتى شهد له الصحابة بذلك (٣)، وكان يستعيذ بالله من البخل (٤)

وكما نهى الله رسوله ﷺ عن البخل والشُّحّ ، فقد نهاه أيضاً عن ضد ذلك وهو التبذير والإسراف، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في النقطة التالية .

(ب) نهي الله لرسوله ﷺ عن التبذير والإسراف:

قال الرازي ـ رحمه الله ـ بعد تفسيره لآية التحذير للنبي ﷺ من البخل والسرف (٥) : "وحاصل الكلام أن الحكماء ذكروا في كتب الأخلاق أن لكل خلُق طرفي إفراط وتفريط، وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، والخلُق الفاضل هو العدل والوسط. . . " (٦) .

ومن هذا المنطلق حذّر الله رسوله ﷺ ونهاه عن نقيض البخل المذموم وهو التبذير والإسراف، فقال سبحانه : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٣٢٩ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٣١٨ .

(٣) لما ثبت عند البخاري ٣ / ١٠٣٨ برقم ٢٦٦٥ عن انس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ احسن الناس ، واشجع الناس ، واجود الناس...» .

(٤) لما صحّ عنه ﷺ عند البخاري ٥ / ٢٣٤٢ برقم ٦٠٠٩ عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن...الخ) .

(٥) وهي قوله تعالى في سورة [الإسراء : ٢٩] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ .

(٦) التفسير الكبير ٧ / ٣٢٩ .

كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩] . وقال ـ عز من قائل ـ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٦].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : "أي: ولا تُفرِّق يا محمد ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقاً" (١)

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ :" في التبذير قولان: أحدهما أنه إنفاق المال في غير حق، والثاني: أنه الإسراف المتلف للمال..." (٢)

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : "التبذير: تفريق المال... من غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته للحد المستحسن شرعاً في الإنفاق..." (٣)،وكلٌّ ما سبق من المنهيّات قد حذّر الله رسوله ﷺ من الوقوع فيها، وكما هو واضح ـ من الأقوال المذكورة أعلاه ـ أن التبذير والإسراف بمعنىً واحد، وإن كان بعض أهل العلم قد فرّق بينهما (٤) ، وسواء اتفق معناهما أو اختلفا، فالشاهد أن ذلك كله صفة مذمومة حذّر الله منها رسوله ﷺ ، وهذا خلاف الكَرم والجود والإيثار، فالجود يعني وضع العطاء في موضعه،وبالقدر المناسب "والجواد حكيم في ذلك... يتوخّى بماله أداء الحقوق الواجبة عليه حسب مقتضى المروءة من قِرى الضيف، ومكافأة المُهدِي، وما يقي به عرضه على وجه الكمال، طيبة بذلك نفسه راضيةً، مُؤَمِّلة للخلف في الدنيا والآخرة من الله وحده ـ وهذا كله خلق محمود كان عليه النبي ﷺ ـ .

أما المبذّر، فإنه يُنفق بحكم هواه وشهوته، من غير مراعاة مصلحة ولا تقدير،

(١) جامع البيان ٨ / ٦٨ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٥ / ٢٧-٢٨ .

(٣) فتح القدير ٣ / ٢١٧ .

(٤) حيث قال الكفوي في الكليات ص١١٣ "الإسراف: هو صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، بخلاف التبذير فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي، والإسراف تجاوز في الكمية فهو جهل بمقادير الحقوق، والتبذير تجاوز في موضع الحق ، فهو جهل بمواقعها".

ولا يريد أداء الحقوق ـ أي ينويها ـ وإن وصل إلى ذي حق.." (١)

وهذا كله هو ما نهى الله عنه رسوله محمداً ﷺ ، وما نهاه الله عن ذلك إلا لما في هذا الخلق الذميم من طاعة للشيطان ومؤاخاة له، و معصية للرحمن، وإنفاق للمال بغير حق ووضعه في غير موضعه، وإيصال لصاحبه إلى الحاجة والفقر، وربما إيقاعه في الرياء واتّباعه للهوى، وغير ذلك (٢)

وهكذا حذّر الله رسوله ﷺ من البخل والشح والإسراف والتبذير، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة (٣) ، ثم قال له بعد ذلك كله: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء:٣٩] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : "أي: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس..." (٤).

وهكذا أرشد الله رسوله ﷺ وربّاه عبر آيات القرآن الكريم ، ليكون أكمل نموذج بشري في جميع جوانب التربية ـ سواء التربية الأخلاقية ـ كما شرحتُ بالتفصيل فيما سبق ذكره.

والحق أن كلّ ما في القرآن الكريم من توجيهات ربّانية تربوية لأهل الإيمان ـ بشكل عام ـ يدخل فيها النبي ﷺ دخولاً أوليّاً، وقد حققت آثارها وثمارها التربوية له وفيه قبل غيره من المؤمنين بصورة شاملة كاملة .

---

(١) فضل الله الصمد في توضيح الادب المفرد للبخاري، تاليف: فضل الله الجيلاني١ / ٥٣٣-٥٣٤ ، بتصرف يسير.

(٢) مثل لوم الناس وحسرة النفس كما قال ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٠ حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ الآية ٢٩ من سورة الإسراء ما نصه: " ... فتقعد إن بخلتَ ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك... ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير، وهو لفظ يُطلق على الدابّة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً" .

(٣) من ذلك ما خاطب الله به نبيه ﷺ وقصد بذلك الخطاب امته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٤ .

فالنبي ﷺ قد أخذ كلّ معاني القرآن التربوية من خلال:

(أ) ما خصّه الله بالخطاب المباشر أو غير المباشر ـ عند توجيه الأوامر والنواهي، وسائر التوجيهات القرآنية.

(ب) ما عمّ المؤمنين من أحكام وآداب ومواعظ آتت ثمارها في تربيتهم على مائدة القرآن الكريم.

وكما أن القرآن قد ربّى النبي ﷺ تربية ربّانية كاملة شاملة في جميع الجوانب التربوية، فقد وصفه ببعض الأخلاق الحسنة ، وامتدحه بها، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في المبحث الثالث والأخير من هذا الفصل كما يلي .

المبحث الثالث
الأوصاف القرآنية
لأخلاق النبي ﷺ

من المعلوم أن القرآن الكريم قد زكّى رسول الله ﷺ في قوله (١) ، وعقله (٢)، ومنهجه وقصده (٣) ، وأمانته وصدقه ـ كما سبق شرحه (٤)

وقد وردت آيات قرآنية وصف الله فيها خلُق رسول الله ﷺ وامتدحه بها ـ سواء في ذلك ما يتعلق ببعض أخلاقه الخاصة في نفسه أو العامة لغيره ـ .

وحتى يتضح هذا الأمر جليّا فيمكن تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين:

المطلب الأول: وصف القرآن لرسول الله ﷺ بخلالٍ حميدة ـ بشكل خاص ـ .

المطلب الثاني: تأكيد القرآن على عظمة أخلاق النبي ﷺ ـ بشكل عام ـ .

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ [النجم : ٢] .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

(٤) راجع المطلب الخامس من المبحث الخامس في الفصل الثاني من الباب الثاني بعنوان "تزكية النبي ﷺ والدفاع عنه" .

المطلـــب الأول

وصـــفُ القرآن لرســـول الله ﷺ بخلالٍ حميدة ـ بشكل خاص ـ

أولاً: وصف القرآن لرسول الله ﷺ بالحياء في أخلاقه الشخصية:

صرَّحت آيات القرآن الكريم بما يدل على شدة حياء النبي ﷺ من أن يصدر منه ما قد يجرح المشاعر ويؤذي الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ أو غيرهم، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ .

[الأحزاب: ٥٣] .

صحّ في سبب نزول الآية السابقة عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: "لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها (١) ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدَّثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام،

---

(١) زينب بنت جحش رضي الله عنها ، زوج النبي ﷺ ، اخت عبد الله بن جحش، وهي اسدية من اسد بني خزيمة، وامها اميمة بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ وتكنّى ام الحكمي، كانت قديمة الإسلام، ومن المهاجرات، وكانت قد تزوجها زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، ثم إن الله تعالى زوّجها النبي ﷺ .. كانت كثيرة الخير والصدقة.. لما دخلت على رسول الله ﷺ كان اسمها برّة فسماها زينب.. وبسببها أنزل الحجاب، وكانت امراة صناع اليد، تعمل بيدها وتتصدق به في سبيل الله، قالت عائشة رضي الله عنها : " ما رايت امراة قط خيراً في الدين من زينب، واتقى لله ، واصدق حديثاً، واوصل للرحم، واعظم امانة وصدقة.. " كانت اول نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به، توفيت سنة عشرين هجرية، ودفنت بالبقيع ـ رضي الله عنها ـ.
انظر: كتاب ازواج النبي ﷺ للإمام محمد بن يوسف الصالحي ص١٨١-١٩٢، و: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير٧ / ١٣٨-١٤٠، و:سير اعلام النبلاء للذهبي٢ / ٢١١-٢١٨،و:تقريب التهذيب لابن حجر٢ / ٦٤٢ .

قام من قام، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القومَ جلوس ، ثم إنهم قاموا، فانطلقتُ فجئتُ، فأخبرتُ النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبتُ أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ " (١)

يتضح لنا من الآية الكريمة وسبب نزولها: أن النبي ﷺ استحيىٰ أن يطلب من بقية الصحابة الذين لم يقوموا للخروج من منزله ليدخل على أهله، استحيىٰ طلب مغادرتهم بالأمر ـ وكأنه لجأ إلى الإشارة فتهيأ للقيام، ثم قام ، ثم غادر المجلس، لكن بعضهم رغم هذا كله لم يقم ، أما هو فكما ثبت في رواية أخرى عن أنس أيضاً " . .فإذا ثلاثةُ رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. . . " (٢) إلخ الحديث.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرحه للحديث السابق: " . . . ومحصّل القصة أن الذين حضروا الوليمة جلسوا يتحدثون،واستحيىٰ النبيﷺ أن يامرهم بالخروج فتهيأ للقيام ليفطنوا لمراده، فيقوموا بقيامه، فلما ألهاهم الحديث عن ذلك قام وخرج ، فخرجوا بخروجه، إلا الثلاثة الذين لم يفطنوا . . . وفي غضون ذلك كان النبي ﷺ يريد أن يقوم من غير مواجهتهم بالأمر لشدة حيائه، فيُطيل الغيبة عنهم بالتشاغل بالسلام على نسائه ـ يشير ابن حجر ـ إلى رواية أخرى وقعت عند البخاري وفيها: " . . . فانطلق ـ أي رسول الله ـ إلى حجرة عائشة ﵂، فقال: (**السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله**) ـ فتقرّى (٣) حُجَرَ نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة. . . " (٤). . . حتى قال ابن حجر: فدخل النبي ﷺ

---

(١) البخاري ٤ / ١٧٩٩ ، في كتاب: التفسير، باب: قوله : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ برقم ٤٥١٣ واخرجه مسلم في ٢ / ١٠٤٨-١٠٤٩ برقم ١٤٢٨ .

(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٧٩٩ في كتاب: التفسير، باب قوله : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ برقم ٤٥١٥ وأخرجه مسلم في ٢ / ١٠٤٨ -١٠٤٩ برقم ١٤٢٨ .

(٣) فتقرى: أي تَتَبَّع حجر نسائه واحدة واحدة ، صحيح البخاري بشرح د. مصطفى ديب البغا ٤ / ١٨٠٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

وأُنزلت الآية.." (١)

والشاهد من كل ما سبق أن الله تعالى كشف للصحابة الكرام ، وأكّد لهم ما كان قد اتّصف به ﷺ من شدة الحياء إلى درجة احتماله للأذى وتكفل الوحي بالدفاع عنه، وقد شهد الصحابة الكرام على شدة حياء النبي ﷺ .

فقد صحّ أنه: "كان ﷺ أشد حياء من العذراء (٢) في خِدْرها (٣)". (٤) .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره لآية حياء النبي ﷺ :

"وجملة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ استئناف ابتدائي للتحذير ودفع الاغترار بسكوت النبي ﷺ أن يحسبوه رِضًا بما فعلوا،... فإن السكوت قد يظنه الناس رِضًا وإذناً، وربما تطرّق إلى أذهان بعضهم أن جلوسهم لو كان محظوراً لما سكت عليه النبي ﷺ، فأرشدهم الله إلى أن السكوت الناشئ عن سبب هو سكوت لا دلالة له على الرّضا ، وأنه إنما سكت حياءً من مباشرتهم بالإخراج، فهو استحياء خاص من عمل خاص..." (٥)

وعند تأملنا لصيغة ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ نجد أنها وردت بلفظ المضارع الذي يفيد تجدد وتكرار حياء النبي ﷺ .

ثانياً: وصفُ القرآن لرسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة في أخلاقه الاجتماعية:

تعدّدت آيُ القرآن الكريم التي صرّحت بوصف رسول الله ﷺ ـ الرحمة المهداة ـ

---

(١) فتح الباري ٨ / ٥٣٠

(٢) العذراء: هي البكر ؛ لأن عذرتها باقية، وهي جلدة البكارة.

(٣) خدرها: أي سترها، والخدر هو ستر يُجعل للبنت البكر في جنب البيت. صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ١٨٠٩ .

(٤) أخرجه مسلم في ٤ / ١٨٠٩ ، في كتاب: الفضائل، باب: كثرة حياته ﷺ ، برقم ٢٣٢٠، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ والإمام أحمد في مسنده ٣ / ٩٠ برقم ١١٦٦٩، والبيهقي في السُّنن الكبرى ١٠ / ١٩١-١٩٢، وبقية الحديث «وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه».

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٢٢ / ٨٦ باختصار يسير .

بأنه رؤوف رحيم، فمنها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهذا نصٌّ صريح على رحمته ﷺ بالمؤمنين خاصة، وقد جاء هذا النص على صيغة المبالغة في الرأفة والرحمة للإشارة إلى عظيم وكثرة رأفته ﷺ ورحمته بأمته " ولم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)

قال الشنقيطي - رحمه الله - في تفسير ما سبق: " هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذي هو من أنفسنا الذي هو متصف بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال وغاية شفقته علينا هو أعظم مِنَنِ الله تعالى، وأجزل نعمه علينا... " (٣)

وكما وَصَفَ القرآن رسول الله ﷺ بكونه رحيماً رحمة خاصة بالمؤمنين، فقد وصفه كذلك - ووصف رسالته - بالرحمة العامة للعالمين أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: "يُخبر تعالى أنه جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلِّهم" (٤) وقريب من هذا وصف الله عز وجل للرسول برقة القلب ولين الطباع، كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

● وحين نتأمل في مظاهر الأخلاق السابقة التي وصف الله بها رسوله ﷺ من

---

(١) وردت قراءة أخرى للآية بفتح الفاء ﴿ أَنفَسِكُمْ ﴾ بمعنى أشرفكم وأفضلكم.
انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٦ / ١٧٨ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ١٧٩ .
(٣) أضواء البيان ٢ / ٤٢٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢١٠ بتصرف يسير جداً .

رأفة ورحمة ورقة قلب ولين جانب ـ يتبيّن لنا أن معظم الفضائل التي تتعدى آثارها النافعة للآخرين ترجع إلى هذه الأخلاق العظيمة ، فهي إما مُوجِّهةٌ لها ، أو فرع منها، أو نتيجة لها، فمنها يكون العفو والصفح والمعونة والعطاء، والرفق والسماحة، والكرم والإنفاق" [١] ، وغير ذلك .

فرسول الله ﷺ قد تجلّت آثار رحمته ورأفته بأمته في أحداث كثيرة سواء مع بني جنسه من البشر أو غيرهم من الحيوانات غير العاقلة، وتجلّت رحمته ﷺ بالصغار والكبار، والمسيئين والمحسنين، من أهل بيته وغيرهم.

والروايات في ذلك أكثر من أن تُحصى ، وما مراجعة رسول الله ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج يسأله التخفيف على أمته ـ بناءً على مشورة موسى عليه السلام ـ في الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات [٢] إلا دليلاً على عظيم رحمته العامة بكل أفراد هذه الأمة رجالاً ونساءً إلى قيام الساعة.

ومن مظاهر رحمته ﷺ بصحابته رضي الله عنهم :

أنه كان ﷺ ينهى الصحابة عن الوصال في الصوم ،كما كان يفعل هو[٣] ، ويامرهم بالتخفيف في الصلاة إن ائتمُّوا بغيرهم ؛ لأن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة [٤]، بل لقد كان ﷺ يترك المداومة على بعض الطاعات ـ

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني، ١ / ٤٤٠ بتصرف وزيادة.

(٢) كما في صحيح مسلم ١ / ١٤٦ في كتاب : الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ، برقم ٢٥٩ عن انس بن مالك، وفيه:(... فأوحى الله إليّ ما أوحى ، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى عليه السلام، فقال: ما فرض ربك على أمّتك؟ قلت :خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً... حتى قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة...).

(٣) لما صحّ عند مسلم ٢ / ٧٧٥ في كتاب: الصوم، باب: النهي عن الوصال، برقم ٥٨ عن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : " (إياكم والوصال) قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: (إنكم لستم في ذلك مثلي، إني أبيت يُطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون)" ..

(٤) لما صح عند مسلم ١ / ٣٤١ في كتاب: الصلاة ، باب: امر الأئمة بتخفيف الصلاة، برقم ١٨٣ ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ان النبي ﷺ قال: " (إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض...ـ وفي رواية ـ وذا الحاجة...)".

رغم رغبته بذلك خشية أن يشق على أمته ، كالجهاد في سبيل الله كما في قوله ﷺ : (**لولا أن أشق على المؤمنين ما قعدت خلاف سرية**) (١) ، أو خشية أن تُفرض على الأمة ، كما يتضح من عدم خروجه ﷺ لصلاة التراويح في رمضان في الليلة الثالثة أو الرابعة ، وقد اجتمع الناس في المسجد، فلم يخرج إليهم حتى طلع الفجر (٢)

ويكفي دليلاً على عظيم رحمته ﷺ ورأفته بأمته أنه رفض أن يدعو على من آذاه من الكفار ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قيل يا رسول الله ! ادعُ على المشركين، قال: (**إني لم أُبعث لعّاناً، وإنما بُعثت رحمة**) (٣)

والمتتبع لآيات العتاب في القرآن التي عاتب الله فيها رسوله ﷺ يجد أن سببها هو كمال شفقته ورحمته ﷺ بأمته...وحتى يتضح المقال نضرب مثالاً على عظيم رحمة رسول الله ﷺ بأعدائه وحلمه بهم في أشد موقف آذوه فيه ﷺ ، فقد صحّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت للنبي ﷺ " : يا رسول الله ، .. هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحد؟ ، قال: (**لقد لقيتُ من قومك (٤) ما لقيتُ منهم يوم العقبة (٥) ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد**

(١) رواه مسلم في ٣ / ١٤٩٧ في كتاب: الإمارة، باب :فضل الجهاد برقم ١٨٧٦، والبخاري في ١ / ٢٢ برقم٣٦ .

(٢) وقد بين رسول الله ﷺ الحكمة من عدم خروجه ، فقال كما في صحيح مسلم ١ / ٥٢٤ برقم ١٧٨ : (... أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها).

(٣) أخرجه مسلم في ٤ / ٢٠٠٧ في كتاب: البر والصلة والآداب، باب : النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم ٢٥٩٩ ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٩ / ١٨٩ برقم٤٢٤ ، وذكره الخطيب في المشكاة ٣ / ١٦١٨ برقم٥٨١٢ .

(٤) قومك: أي قريش .

(٥) يوم العقبة: هو اليوم الذي وقف فيه ﷺ عند العقبة التي بمنى داعياً الناس إلى الإسلام فما أجابوه.

كُلال (١)، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي (٢) ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (٣) ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ﷺ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال ،وسلّم عليَّ ثم قال :يا محمد ؛إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملَك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك .. فما شئت ؟ (٤)، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين (٥)،فقال النبي ﷺ : (بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) (٦) .

(١) ابن عبد ياليل بن عبد كُلال : بضم الكاف وتخفيف اللام، وآخره لام، واسمه كنانة، وورد ان الذي كلّمه هو عبد ياليل نفسه، وعند اهل النسب ان عبد كُلال اخوه لا ابوه، وانه عبد ياليل بن عمرو بن عمير بن عوف، ويقال ان اسم ابن عبد ياليل مسعود، وله اخ اعمى. . .، وكان ابن عبد ياليل من اكابر اهل الطائف من ثقيف،وقد رُوي. . . عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١] قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي. . .، وروى الطبري من طريق السدي انها نزلت في الوليد بن المغيرة وكنانة بن عبد بن عمر بن عمير عظيم اهل الطائف، وقد ذكر.. ابن إسحاق ان كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد الطائف سنة عشر فاسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني ان الوفد اسلموا إلا كنانة فخرج إلى الروم ومات بها بعد ذلك.والله اعلم. وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب انه ﷺ لما مات ابو طالب توجّه إلى الطائف ـاي رسول الله ـ رجاء ان يؤوه ، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة: عبد ياليل وحبيب ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه وشكى إليهم ما انتهك منه قومه فردّوا عليه اقبح رد. . . وذكر ابن سعد ان ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث ، وانه كان بعد موت ابي طالب وخديجة ". انظر: فتح الباري لابن حجر٦ / ٣١٥ في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال احدكم آمين والملائكة" . . . بتصرف واختصار.

(٢) على وجهي: اي على الجهة المواجهة لي

(٣) فلم استفق إلا وانا بقرن الثعالب: اي لم اقف لنفسي وانتبه لحالي وللموضع الذي انا ذاهب إليه وفيه إلا وانا عند قرن الثعالب، وقرن الثعالب : هو ميقات اهل نجد ويقال له قرن المنازل ايضاً، وهو على يوم وليلة من مكة، وقرن: كل جبل صغير منقطع من جبل كبير... وقد افاد ابن سعد ان مدة إقامة النبي ﷺ بالطائف كانت عشرة ايام، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣ / ١٤٢٠ .

(٤) فما شئت: استفهام، اي فامرني بما شئت.

(٥) الاخشبين: هما جبلا مكة:ابو قبيس والجبل الذي يقابله، صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٣/١٤٢١.

(٦) اخرجه مسلم في ٣ / ١٤٢٠ في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من اذى المشركين برقم ١٧٩٥ عن عروة بن الزبير، ورواه البغوي في شرح السنة ١٣ / ٢١٤-٢١٥، وذكره الخطيب في المشكاة ٣ / ١٦٢٦-١٦٢٧ برقم٥٨٤٨ .

فإذا كانت هذه رحمة رسول الله ﷺ بأشد أعدائه حيث حلُم عنهم ، فلم يدعُ عليهم، ولم يأمر ملك الجبال بالقضاء عليهم في وقت استضعفوه كثيراً وآذوه شديداً ، ومع هذا كانت سجيته ﷺ ـ دائماً وأبداً ـ العفو عند المقدرة، فإذا كانت هذه رحمته ﷺ بالكافرين فما بالنا برحمته بأهل الإيمان من أُمته، وأقربائه وأهل بيته؟!.

وقد بوّب الإمام مسلم في صحيحه عدة أبواب خاصة برحمة النبي ﷺ في كتاب الفضائل [١]

ثالثاً: إشارة القرآن لشجاعة وثبات رسول الله ﷺ في أخلاقه الحربية:

روى أهل الحديث أكثر من رواية صحيحة عن ثبات رسول الله ﷺ وشجاعته في أوقات الشدائد والمحن العصيبة من حروب ونحوها.

وذكر أهل السِّير في مؤلفاتهم عن سيرة النبي ﷺ أكثر من موقف له، تجلّت فيه معاني الثبات والشجاعة والإعلان عن نفسه ـ بأعلى صورة وأروع مثال ـ في وقت انهزم فيه بعض خيار الصحابة الكرام ـ ﷺ ـ ، وتفرقوا عن رسول الله ﷺ بحثاً عن النجاة في لحظة من لحظات الضعف البشري، كالذي حدث في غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر النبي ﷺ بالبقاء على جبل أُحُد وعدم مغادرته في نصرٍ أو هزيمة.

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: "... وأمّر رسول الله ﷺ على الرماة ـ وهم خمسون رجلاً ـ عبد الله بن جُبير[٢] ، أخا بني عمرو بن عوف، وهو يومئذ معلّم بثياب بيض، وقال: ـ أي رسول الله ﷺ ـ **(انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من**

(١) كما في ٥ / ١٨٠٧ : رحمته ﷺ بالصبيان والعيال.،و ٥ / ١٨١١ : رحمته ﷺ بالنساء.

(٢) هو عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس .. الأنصاري الأوسي.. شهد العقبة وبدراً ، وقتل يوم احد.. وكان رسول الله ﷺ قد جعله على الرماة يوم احد، وكانوا خمسين رجلاً.. فلما انهزم المشركون نزل من عنده من الرماة ليأخذوا الغنيمة ، فقال لهم عبد الله : كيف تصنعون بقول رسول الله ﷺ اي عندما امرهم قائلاً :(لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتم الطير تخطفنا) ، فمضوا وتركوه، فاتاه المشركون فقتلوه.. وكان هذا في السنة الثالثة للهجرة.

انظر: أسد الغابة لابن الاثير٣/ ١٩٤–١٩٥ ترجمة رقم ٢٨٥٥،و: سير اعلام النبلاء للذهبي ٢ / ٣٣١ .

خلفنا إن كانت لنا أو علينا، أثبت مكانك لا نؤتينَّ من قِبلك...) [١]، ولكن الرماة - رضي الله عنهم - كما قال ابن إسحاق: " ... مالت عن العسكر... يريدون النهب، فخلّوا ظهور الصحابة للخيل من أعدائهم، فأتاهم العدو من أدبارهم، .. وانكشف المسلمون، فأصاب منهم العدوّ..حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فقُذِف بالحجارة حتى وقع لشقّه، وأُصيبت رباعيَّته [٢]، وشُجَّ في وجهه، وكُلمت شفتاه.. " [٣]

ورغم كل ما حصل للنبي ﷺ من أعدائه المشركين، ورغم تفرق الصحابة عنه وفرارهم من أعدائهم إلى الجبل هاربين، رغم هذا كله إلا أن النبي ﷺ ثبت في ميدان القتال مع نفر قليل جداً من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - عددهم كما قال ابن كثير - رحمه الله - " ... أُفرد النبي ﷺ في تسعة، سبعةٍ من الأنصار، ورجلين من قريش وهو عاشرهم... " [٤].

ثبت رسول الله ﷺ مع هؤلاء النفر بين ثلاثة آلاف مشرك بسلاحهم وخيولهم، واستمر النبي ﷺ يقاتل ويدعو الصحابة الذين انشغلوا بأنفسهم عنه، يدعوهم للرجوع إليه والدفاع عنه . وقد سجّل القرآن الكريم هذا الموقف العظيم لرسول الله ﷺ مشيراً إلى شجاعته النادرة ، قال تعالى مُبْتدئًا بذكر تفرق الصحابة وهروبهم إلى المرتفعات بعيداً عن رسول الله ﷺ: ﴿ **إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٥٣﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

---

(١) كتاب السير و المغازي، سيرة ابن إسحاق المسّماة: بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي ص٣٢٦، لـ محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (٨٥-١٥١)هـ تحقيق د. سهيل زكّار، دار الفكر، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، بيروت، لبنان.

(٢) رباعيته: بفتح الراء، والرباعية هي إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا بين الثنية والناب، تكون للإنسان وغيره، والجمع رباعيات، لسان العرب ٨ / ١٠٨ مادة ربع.

(٣) نفس المرجع، ص٣٢٧ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٤٢١ .

قال ابن كثير [١] **ـ رحمه الله ـ :** " ﴿ **تُصْعِدُونَ** ﴾ أي : في الجبل هاربين من أعدائكم . . . وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ، ﴿ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ** ﴾ أي : وهو قد خلّفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار عن الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرّة . . فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس : (**إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله**) فذكر الله صعودهم في الجبل ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم . . " [٢]

وهكذا ألمح القرآن الكريم لثبات رسول الله ﷺ وشجاعته عند البأس الشديد ، وهذا شأن رسول الله ﷺ في بقية المعارك الحربية التي خاضها مع أعداء الله .

ومن أبرز ذلك ما وقع يوم حنين ، حيث أعلن النبي ﷺ عن نفسه في ميدان القتال في وقت بئيس أُعجب فيه المسلمون بكثرتهم ، وانهزموا أوّل الأمر قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾** ﴾ .

[التوبة : ٢٤-٢٥] .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ عن ثبات رسول الله وشجاعته مع بعض الصحابة الذين ثبتوا معه في هذه المعركة" . . . وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه طائفة يسيرة ، منهم العباس وأبو سفيان بن الحارث . . . " [٣] .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " . . . وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو . . .وهو يُنوّه باسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : (**إليّ عباد الله ، إليّ أنا رسول الله**) ،

---

(١) انظر ملحق التراجم .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٢٣ .
(٣) فتح القدير ٢ / ٥٠٥ .

ويقول في تلك الحال : (أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب) ، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال ثمانون.. " (١)

وبعد أن ذكرنا ما سبق من الروايات المتعلقة بغزوة أحد وحنين يمكن أن نستقرئ شجاعة رسول الله ﷺ من المواقف التالية:

(أ) استمرار النبي ﷺ في القتال في غزوة أُحد بعد الذي أصابه من انصراف أكثر الصحابة الكرام ـ ﭭ ـ في لحظة ضعف تعتري كل إنسان (٢) ـ وبعدما أصابه من جروح في أجزاءٍ من وجهه، وكسر سِنّه [رباعيته] ﷺ .

(ب) إصراره على الخروج من المعركتين" أُحد وحنين" منتصراً رغم أنه لم يبق حوله في الأولى إلا تسعة من الصحابة الكرام، وفي الثانية لم يبق معه إلا زُهاء مائة فقط ـ على أعلى تقدير ـ كما سبق ذكره، ومع هذا فقد ثبت ﷺ في الأولى أمام ثلاثة آلاف مشرك، وثبت في الثانية أمام هوازن وثقيف ومن معهم، وما كان هذا الثبات إلا لعظِم شجاعته ﷺ بعد عون الله ـ عز وجل ـ .

وشهد الصحابة بذلك لرسول الله ﷺ ، فعن علي بن أبي طالب ـ ﭬ ـ أنه قال: " كنا إذا احمرّ البأسُ، ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه ـ أي أقرب إلى الكفار ـ " (٣)

وصحّ أن رجلاً قال للبراء بن عازب ـ ﭬ ـ: "يا أبا عمارة ، أفَرَرتُم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ ، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر..." (٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥٧ .

(٢) ومع هذا فإن الله تعالى قد غفر للصحابة الذين ادبروا عن رسول الله ﷺ في غزوة أُحُد كما يتضح من بقية الآيات في سورة [آل عمران : ١٥٥] ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

(٣) اخرجه الإمام احمد في مسنده ٢ / ٣٤٣ برقم ١٣٤٦، وقال احمد شاكر: إسناده صحيح، واخرجه ابن كثير في جامع المسانيد ١٩ / ١٤٦ برقم ١٠٨ .

(٤) اخرجه البخاري ٣ / ١٠٥١ في كتاب: الجهاد، باب: من قاد دابة غيره في الحرب برقم ٢٧٠٩ عن ابي إسحاق، واخرجه مسلم في ٣ / ١٤٠٠ برقم ١٧٧٦ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذه الرواية : "وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامَّة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى ، وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلةٍ، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفرٍّ ولا لكرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم، ويُنوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ . ." (١)

(جـ) من خلال معرفتنا أن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة للهجرة ـ أي وعُمْر النبي ﷺ حينها ما يقارب ستة وخمسين عاماً (٢) ـ وغزوة حنين التي كانت في السنة الثامنة للهجرة ـ أي وعُمْر النبي ﷺ حينها قد تجاوز الستين عاماً ـ يتبين لنا أمران اثنان :

الأول: أن رسول الله ﷺ كان في سنٍّ قد تجاوز فيه سن الشباب ، ودخل في مرحلة الشيخوخة ومع هذا ، فقد ضرب مثالاً نادراً للثبات والشجاعة والجهاد في سبيل الله .

الثاني: أن رسول الله ﷺ استمر على ذلك حتى آخر حياته، فغزوة حنين التي كانت في أواخر سني حياته ﷺ لم يتعمَّر بعدها ﷺ إلا ثلاث سنوات تقريباً ، حيث توفي في العام الحادي عشر للهجرة ، وقد تحرك بعدها لعدة غزوات ـ كما تذكر كتب السيرة (٣) ـ وهو على ما كان عليه من شجاعة وثبات .

(د) إعلانه عن نفسه ﷺ في غزوة حُنين قائلاً :

[أنا النبي لا كذب ■■■ أنا ابن عبد المطلب]

في وقت يحتاج المرء أن يختفي فيه عن أنظار العدو، خاصة إذا خذله جنوده وتفرقوا عنه، فيه دلالة واضحة أن النبي ﷺ لم يكن يخشى بأس العدو ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٥٨ .

(٢) وقد كان ﷺ ضعيفاً، كما قال ابن إسحاق في السير والمغازي ص٣٣٢، حيث قال: "وكان رسول الله ﷺ قد بدن" أي أسَنَّ وضعُف.

(٣) كغزوة الطائف، وتبوك، انظر الرحيق المختوم، ص٤١٧-٤١٨ .

خذلان الصديق، ولم يكن يبحث عن فرصة الاختفاء عن العدو أو الاختباء عن ناظريه ، فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

وهكذا كان رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل الغزوات الحربية (١)، بل وفي السِّلم عند الفزع في الليال المظلمة ، حيث كان من أشجع الناس يسابق إلى تأمين الخائف ، واكتشاف أسباب المخافة (٢)

وبعد كل ما سبق من استعراضنا لدلائل ثبات وشجاعة النبي ﷺ في ميادين القتال وغيرها ، كما وصفه القرآن الكريم، فإنه " لا يمكن لنا ولا لأحد ـ ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها ـ إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، ... وأعمقهم فراسة وتيقظاً... كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخُض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلْطَةٍ في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواقع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال... ولم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش ـ في حنين ـ أو من جهة معصيتهم أوامره في أُحُد

---

(١) واخرج ابن كثير في جامع المسانيد ١٩ / ١٤٦ في مسند عليّ بن ابي طالب ـ رضي الله عنه ـ برقم ١٠٧ عن علي ـ رضي الله عنه ـ انه قال: " لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ ، وهو اقربنا إلى العدو، وكان من اشد الناس يومئذ باساً" ، وقد اخرج الحديث الإمام احمد في مسنده ٢ / ٣٤٣ في مسند علي ـ رضي الله عنه ـ برقم ١٣٤٧، وقال شاكر: إسناده صحيح.

انظر: جامع المسانيد والسُّنن الهادي لاقوم سُنن لابي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي (٧٠٠ ـ ٧٧٤ هـ) توثيق وتخريج د. عبد المعطي امين قلعجي، دار الفكر، ط بدون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، بيروت، لبنان ، والكتاب يقع في سبعة وثلاثين مجلداً.

(٢) اخرج البخاري في ٣ / ١٠٣٨ في كتاب: الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجُبن برقم ٢٦٦٥ عن انس ـ رضي الله عنه ـ قال: "كان النبي ﷺ احسن الناس، واشجع الناس، واجود الناس ، ولقد فزع اهل المدينة ، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس وقال: اي انس "وجدناه بحراً" اي: واسع الجري، كما في صحيح البخاري ٢ / ٩٢٦ . بشرح د. مصطفى البغا.

و تركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية.

أما هو ﷺ فقد.. ثبت مجابهاً للعدو، واستطاع بحكمته... أن يخيبهم في أهدافهم ـ كما فعل في أُحُد ـ أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً ـ كما في حنين ـ ..." (١)

ولحكمته وشجاعته وثباته ﷺ وحُسن إدارته للحروب ، تمكن من "إنشاء طائفة كبيرة من القواد الذين لا قوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال... وأرسى ﷺ للحروب عدة قواعد شريفة ، ألزم جنوده التقيد بها مع قوادهم، ولم يسمح لهم بالخروج عنها بحال" (٢) . فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري ص٤٤١ باختصار

(٢) نفس المرجع والصفحة ، باختصار وتصرف يسير .

المطلـب الثانـي

تأكيـد القـرآن على عظمـة أخلاق النبي ﷺ بشكل عام

مع أن القرآن الكريم قد وصف رسول الله ﷺ ببعض الخلال الحميدة ـ كما سبق ذكره ـ إلا أن آيات القرآن امتدحت أخلاق النبي ﷺ ـ بشكل عام ـ وأكّدت على ذلك في أكثر من موضع، كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ :

" و ﴿ لَعَلَى ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكن... فحقّق أن متلبّس بخلق عظيم... مؤكّداً ذلك بثلاثة مؤكّدات... فهو متمكن منه الخلُق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية... ومظاهر الخلق العظيم في رسول الله ﷺ في تصرفاته وكلامه وطلاقة وجهه ، وثباته، وحكمته، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتاديب أهله ومَنْ لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس ، وحُسن الثناء عليه والسمعة... وفي سياسة أمته، وفيما خُصَّ به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه" (١) . هكذا كان ﷺ في حُسن خلقه.

وأحداث السيرة النبوية تبين غاية البيان، كيف كانت صلته ﷺ بربه، وعلاقته مع أهله وقومه والناس أجمعين الدَّالة على كمال خلُقه وهي أكثر من أن تُحصى، والأحاديث الواردة في ذلك أكثر من أن تُحصر، وقد أُلّفت في شمائل

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٦٤-٦٥بتصرف يسير .

النبي ﷺ وأخلاقه عدة مؤلفات قديمة [١] وحديثة [٢] ، ولا يستطيع المرء أن يُدرك ذلك كله، إنما حسبنا من هذا ما أخبرَتْ به زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي أدرى الناس بحاله والصقهم به ﷺ ، فعندما سألها سائل [٣] عن خلق رسول الله ﷺ قائلاً: " ... يا أم المؤمنين: أنبئيني عن خلُق رسول الله ﷺ ، فقالت ـ في عبارة موجزة جامعة: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، قالت فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن... " [٤] .

وفي هذا قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " ... ومعنى هذا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صار امتثالُ القرآن أمْراً ونهياً سجيةً له، وخلُقاً تطبّعه، وتَرَك طبعه الجبلّي، فمهما أمره القرآن فعلَه، ومهما نهاه عنه تركَه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلُق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحِلم، وكل خلق

---

(١) من المؤلفات القديمة:
[أ] أخلاق النبي ﷺ وآدابه للحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني (٢٧٤-٣٦٩هـ) وقد حققه: د. صالح بن محمد الونيان في أربعة مجلدات،طبعة دار المسلم،ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، الرياض، السعودية.
[ب] الأنوار في شمائل النبي المختار ﷺ لمحيى السنة، الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٢-٥١٦هـ) وقد حققه العلامة: إبراهيم اليعقوبي في مجلدين، طبعة دار المكتبي، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دمشق، سوريا.
[ج] شمائل الرسول ﷺ للحافظ، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١-٧٧٤هـ)، بتحقيق: مصطفى عبدالواحد، طبعة دار المعرفة ، بيروت، لبنان.
[د] بداية السُّول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام.
[هـ] خصائص أفضل المخلوقين لابن الملقّن.
[و] الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي.
(٢) من المؤلفات الحديثة الخاصة بأخلاق النبي ﷺ دون سيرته كلها.
[أ] أخلاق النبي ﷺ في القرآن السنة "رسالة دكتوراه" للدكتور/ أحمد بن عبد العزيز الحداد، دار العرب الإسلامية ، جدة، السعودية، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات.
[ب] موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصين، دار الوسيلة، جدة، السعودية، تقع في اثني عشر مجلداً الأخير خاص بالفهارس.
(٣) والسائل هو سعد بن هشام- رضي الله عنه -.
(٤) أخرجه مسلم في ١ / ٥١٢ في كتاب:صلاة المسافرين،باب:جامع صلاة الليل،برقم ٧٤٦ عن زرارة رضي الله عنه ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦ / ٦٤ برقم ٢٤٢٦١، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٣ / ٣٩ برقم ٤٧١٤ .

جميل..." (١)

ومن هنا يتجلى لنا أن النبي ﷺ اكتسب نوعين من الأخلاق:

النوع الأول: أخلاق جبلّية فطرية ، جبله الله عليها قبل النبوة (٢) .

النوع الثاني: أخلاق اكتسابية، أكسبه الله إياها قبل النبوة ـ بإرادته الكونية (٣) ـ وبعد النبوة بإرادته وأحكامه الشرعية (٤) .

وقد شهد الصحابة الكرام على حُسن خلُق رسول الله ﷺ بعد أن عاشروه لسنوات عديدة ؛ فقد صحّ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: "خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفّاً قط (٥) ، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلاّ فعلت كذا؟" (٦) ، هذا وقد خدم رسول الله ﷺ في السفر والحضر كما في رواية أخرى (٧)

وفي شهادة أخرى...: " كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلُقاً"(٨)، والروايات في حُسن خلُق النبي ﷺ كثيرة، وقد بّوب الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٢٩ .

(٢) سبق ذكر هذا بالتفصيل في الفصل الأول من الباب الأول.

(٣) سبق ذكر هذا بالتفصيل في الفصل الثاني من الباب الأول .

(٤) سبق ذكر هذا بالتفصيل في المبحث الثاني من الفصل الرابع من الباب الثاني .

(٥) أفّاًقط : ورد فيها عشر لغات: أف: بفتح الفاء وضمها وكسرها بلا تنوين وبالتنوين، فهذه ست، و:أُفْ، وإف، وأُفّي، وأُفه، بضم همزتها، قالوا: وأصل الأفُ والتفُ: وسخ الأظفار، وتستعمل هذه الكلمة في كل ما يُستقذر ، وهي اسم فعل تستعمل في: الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، قال تعالى:﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء:٢٣] صحيح مسلم بمختصر شرح النووي٤ / ١٨٠٤ .

(٦) أخرجه مسلم في ٤ / ١٨٠٤ في كتاب: الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، برقم ٢٣٠٩ ،وأخرجه البخاري في٣ / ١٠١٨ في كتاب الوصايا، باب استخدام اليتيم في السفر والحضر برقم ٢٦١٦ .

(٧) ونصها "فخدمته في السفر والحضر"، انظر صحيح مسلم ٤ / ١٨٠٤ ، رقم ٢٣٠٩، وصحيح البخاري ٣ / ١٠١٨ برقم ٢٦١٦ .

(٨) أخرجه مسلم في ٤ / ١٨٠٥ في كتاب: الفضائل،باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ، برقم ٢٣٠٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في٤ / ٣٢٣-٣٢٤ برقم ٢٠١٩ والبغوي في شرح السنّة ٧ / ١٣٠ .

باباً خاصاً بذلك بعنوان: "باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً" (١).

قال النووي - رحمه الله - عن الروايات السابقة: "وفي هذه الأحاديث بيان كمال خلُقه ﷺ وحُسن عشرته، وحِلمه وصفحه" (٢)، وقد كان ﷺ ذا خلُق عظيم في كل شئون حياته الشخصية والأسرية والاجتماعية، وفي السلم والحرب، ومع المؤمنين والكفار، والصبية والكبار، والرجال والنساء، ومع المحسنين والمسيئين، كان ﷺ ذا خلق حسن، يتضح من تواضعه واستجابته للضعيف والأمَة والطفل الصغير، والمرأة العجوز - إذا دعوه لطعام أو قضاء حاجة - كما يتضح من رحمته ﷺ بالصبيان وسلامه عليهم - إذا مرّ بهم، وممازحته إياهم - بحق - وبُحسن الإصغاء لمن يُحدّثه وعدم الإعراض عنه أو الانصراف قبل قضاء حاجته.

وكان ﷺ ذا خلُق حسن يظهر من خلال: رفقه بالناس وتيسيره عليهم، ومراعاته لمشاعرهم، وأخذه بأيسر الأمور عندما يكون معهم، وكان ﷺ بعيداً كل البعد عن: فُحش القول وأذى اليد والانتقام لنفسه، وكان عليه الصلاة والسلام لا يذمُّ أحداً، ولا يعيب شيئاً يكرهه، وقد عُرف بعفوه عمّن أساء في حقه، وفي كل هذا وغيره دليل على أنّ الله تعالى استجاب دعاءه الذي كان يدعو به قائلاً: **(اللهم اهدني لأحسن الأخلاق والأعمال؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت)** (٣).

---

(١) انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤ / ١٨٠٤-١٨٠٥.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥ / ٧١ بتصرف يسير جداً.

(٣) اخرجه مسلم في ١ / ٥٣٤ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم ٧٧١ عن علي بن ابي طالب - رضي الله عنه -، واول الحديث (وجّهت وجهي ... إلى قوله: واهدني لأحسن الأخلاق ...) وكان ﷺ يستفتح به الصلاة للفرض والنافلة كما قال الالباني في صفة صلاة النبي ﷺ ص٦٥، طبعة المكتب الإسلامي، ط١٤، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان.
واخرج الحديث ايضاً ابن خزيمة في صحيحه ١ / ٢٣٥ برقم ٤٦٢، والبيهقي في السُنن الكبرى ٢ / ٣٢-٣٣.

وفي كتب الحديث والسِّير شواهد على كل ما سبق ويكفينا أن نذكر هنا مثالين اثنين:

الأول: يدل على رِفقه بمن أساء وتعدّى، وحكمته في تربية وتعليم، ومعالجة آثار من أخطأ، وحرصه على عدم الإضرار به، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: "بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَهْ مَهْ (١) ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تزرموه** (٢) ،**دعوه**) ، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: (**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذَر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن**) ،أو كما قال رسول الله ﷺ" (٣)، قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو (٤)من ماء فشنّه عليه" (٥) ،تتجلى في هذا الحديث عدة حقائق تدل على حكمة النبي ﷺ في معالجة الخطأ، وكمال حُسن خلقه في توجيه المخطئين، وغير ذلك من الدلالات الأخرى، وذلك كما يلي:

(أ) في منعه ﷺ الصحابة الكرام أن يقطعوا على الأعرابي بوله، يتجلى الرفق به والحرص على عدم الإضرار به وعلى طهارة المسجد من انتشار بول الأعرابي حال إفزاعه والتسيُّب في قطع بوله فجأة.

(ب) في استدعائه ﷺ للرجل برفق ولين، والاكتفاء بشرح خطئه والتوضيح

(١) مَهْ مَهْ : هي كلمة زجر ، قال العلماء: هو اسم مبنى على السكون معناه: اسكت، وقيل اصلها: ما هذا ، ثم حذف تخفيفاً،وتقال مكررة: مَهْ مَهْ ، وتقال مُفردة : مه .

(٢) لا تزرموه: أي لا تقطعوه، والإزرام القطع، والمعنى لا تقطعوا عليه بوله .

(٣) او كما قال رسول الله ﷺ : هكذا في الأصل .

(٤) دلو من ماء: هو وعاء للماء، والدلو فيها لغتان: التذكير والتأنيث.
وفي رواية "بذنوب فصُب عليه" دون ذكر ماء، والذَّنوب هو الدلو المملوء ماء. صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١ / ٢٣٦ .

(٥) اخرجه مسلم في ١ / ٢٣٦ في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، برقم ٢٨٥ واخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١ / ١٤٨ برقم ٢٩٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٢ / ٤١٣ .

له دون عقوبةٍ وتأديب، ودون إنكار بشدة، تتجلى رحمة رسول الله ﷺ بحال الأعرابي الجاهل، وحكمته في تعليمه الصواب من الخطأ.

(جـ) في زيادة التوضيح والشرح للأعرابي لما بُنيت له المساجد من إقامة صلاة وتلاوة قرآن وغير ذلك يتجلى حرص النبي ﷺ على استغلال هذه الحادثة لتعليم الأعرابي أكبر قدر ممكن من أحكام المساجد والطهارة.

د ـ في تكليف صحابي آخر بتطهير مكان بول الأعرابي دون إلزام الأعرابي أو حتى الإشارة إليه بمعالجة آثار خطئه يتجلى لنا عفو النبي ﷺ عن المخطئ الجاهل، وإسقاطه لعقوبته، وغير ذلك من الدلالات الأخرى.

ففي هذه الآداب والأخلاق تتجلى معالم واضحة من تربيته ﷺ، لصحابته ولغيرهم من المسلمين، كيف يتعاملون مع مثل هذه الأحداث.

أما المثال الثاني: الذي نستدل به على حُسن خلُق النبي ﷺ فهو متعلّق بحسن معاشرته لأهل بيته.

فقد صحّ أن عائشة ـ ﵂ ـ سُئلت: " ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة" (١) .

وفي رواية أخرى قالت: "يخيط ثوبه، ويخصف نعله (٢) ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم" (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري ٥ / ٢٢٤٥ في كتاب: الأدب، باب: كيف يكون الرجل في أهله، برقم ٥٦٩٢، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١ / ٢٦٠ ، برقم ٢٠٤٩٢ ،وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٢ / ٤٩٠ برقم ٥٦٧٦ .

(٢) يخصف نعله: من خَصَف يَخْصِف خصفا، أي ظاهر بعضها على بعض وخرزها، بمعنى كان ﷺ يخرز نعله من الضم والجمع، لسان العرب ٩ / ٧١ ماد خصف.

(٣) أخرجه ابن حبان في ١٢ / ٤٩٠، في كتاب: الحظر والإباحة، باب: التواضع والكبر والعجب، برقم ٥٦٧٧، والسائل عروة ﵀.
وقال محقق صحيح ابن حبان «أحمد شاكر» : إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند البخاري في الأدب المفرد برقم ٥٣٩ ، وذكره أبو يعلى في مسنده برقم ٤٦٥٣ .

وفي رواية ثالثة: "**ويرقع دلوه**" (١)، وفي رواية رابعة " **كان يفلى ثوبه** (٢) ، **ويحلُب شاته، ويخدم نفسه**" (٣)

هكذا كان ﷺ في حُسن عشرته لأهل بيته وحُسن خلقه للناس أجمعين.

وبعد كل هذا فلا عجب أن يحث الله المؤمنين على الاقتداء برسول الله ﷺ ، قائلاً سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١)﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ولا عجب أن تنزل آيات القرآن تأمر النبي ﷺ بدعوة أهل الإيمان إلى اتّباعه في كل شأن من الشئون ، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وفي ختام هذا المبحث نؤكد أن القرآن الكريم قد سلك في سبيل تربية النبي ﷺ عدة وسائل وأساليب مباشرة، وغير مباشرة، وهذا ما يتم شرحه بالتفصيل في الباب الثالث والأخير من هذه الرسالة وذلك كما يلي .

---

(١) أخرجه ابن حبان في ١٢ / ٤٩٠، في كتاب: الحظر والإباحة، باب: التواضع...، برقم٥٦٧٦، والسائل هو عروة رضي الله عنه .

وقال شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم٢٠٤٩٢ ، وذكره أبو يعلى في مسنده برقم٤٨٤٧ .

(٢) يفلي ثوبه: من فلا رأسه يفلوه ويفليه فلاية وفلياً وفلاًّ، وهو البحث عن القُمّل، والمقصود هنا: ان النبي ﷺ كان يتفحص ثوبه ليزيل ما علق به مما تستقذره النفس، لسان العرب ١٥ / ١٦٢ مادة : فلا .

(٣) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر...، باب: التواضع..، برقم٥٦٧٥، ولم تصرح الرواية عن عمرة من السائل.

وقال شاكر: إسناده قوي على شرط مسلم، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ٥٤١، والبغوي في شرح السنة ٤٦٧٦، وانظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ١٢ / ٤٨٨-٤٩١ .

البَابُ الثَّالِثُ

أساليب القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول: الأساليب المباشرة

الفصل الثاني: الأساليب غير المباشرة

الباب الثالث

أساليب القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ

تمهيد :

ما من غاية يُراد تحقيقها إلا ولها وسيلة توصِّل إليها ـ سواء كانت حسيّة أو معنوية ـ والقرآن الكريم الذي حقق تربية النبي ﷺ ـ خلال ثلاثة وعشرين عاماً من تنزله عليه ـ قد استخدم عدة أساليب توجيهيه وإرشادية لهذا النبي العظيم، وتفنَّنت آياته في ذلك، تارة بإرشاده وتوجيهه بنصوص صريحة، وتارة بمعانيها الضّمنيّة، وتارة بخطاب خاص به، وتارة أُخرى بخطاب عام له ولغيره، وغير ذلك من أساليب القرآن التربوية للنبي محمد ﷺ .

فما هي الصور التي توضح هذه الأساليب القرآنية الربّانية ؟ .

وكيف استخدمها القرآن الكريم؟ ومتى كانت بعضها أكثر من بعض ؟ .

وما أثر كل أسلوب من هذه الأساليب في تحقيق تربية النبي ﷺ ؟ .

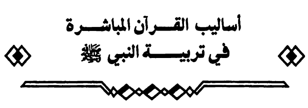
كل ما سبق وغيره هو ما أُفصِّل القول فيه في هذا الباب الثالث والأخير، الذي قسّمته إلى فصلين:

الفصل الأول: أساليب القرآن المباشرة في تربية النبي ﷺ .

الفصل الثاني: أساليب القرآن غير المباشرة في تربية النبي ﷺ .



الفصل الأول



أساليب القرآن المباشرة في تربية النبي ﷺ

الفصل الأول

أساليب [١] القرآن المباشرة في تربية النبي ﷺ

سلك القرآن الكريم في سبيل تربية النبي ﷺ ـ نفسياً وعقليّاً وإيمانياً وخُلُقياً ـ عدة مسالك، واتَّخذ عدة أساليب مباشرة آتت ثمارها في تربية النبي ﷺ في كل جانب من الجوانب التربوية العظيمة، حتى اكتملت هداية النبي ﷺ وتربيته النموذجية ، كما قال تعالى ـ آمراً نبيه أن يعلن ذلك للناس ـ : ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

ومن خلال الاستقراء لآيات القرآن المتعلقة بالجانب التربوي للنبي ﷺ ، والتأمل فيها يجد المرء أن أساليب القرآن التربوية المباشرة ـ الخاصة بالنبي ﷺ ـ اشتملت على خمسة أساليب، يمكن توضيحها من خلال المباحث الخمسة التالية .

---

(١) أساليب: جمع أسلوب، والأسلوب هو الفن والطريقة، انظر: الكليات للكفوي ص٨٢ .

المبحث الأول
أسلوب الوعظ(١) والإرشاد للنبي بالأمــــر والنهــــي

أكثر القرآن الكريم من توجيه النبي ﷺ وتربيته عن طريق الأمر والنهي ـ سواء في المرحلة المكية أو المدنية ـ وقد تجسَّد هذا الأسلوب بشكل كبير وواضح فيما يتعلق بالتربية الإيمانية والأخلاقية للنبي ﷺ أكثر منه فيما يتعلق بالتربية النفسية والعقلية.

ولذا فسأفصّل القول في الأوامر والنواهي المتعلقة بالتربية الإيمانية والأخلاقية للنبي ﷺ .

وحتى يتضح هذا الأمر فقد رأيتُ تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التالين :

المطلب الأول :وعظ الله وإرشاده للنبيﷺ بالأمر والنهي في مجال التربية الإيمانية.

المطلب الثاني : وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ في مجال التربية الأخلاقية .

---

(١) الوعظ لغة : هو مأخوذ من وعظه يعظه وعْظاً، وموعظةً، بمعنى ذكَّره ما يُلين قلبه من الثواب والعقاب فاتَّعظ. انظر: القاموس المحيط ص٩٠٣ . مادة و ع ظ .

واصطلاحاً هو : النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل. انظر: أصول التربية الإسلامية للنحلاوي ص٢٨١ .

وقد يكون الوعظ بالتذكير بالموت وما بعده، أو المرض، وما يعقبه، أو يوم الحساب وما فيه لكنا هنا اقتصرنا ما ورد بصيغة الخطاب المباشر للنبي ﷺ بالأمر و النهي.

المطلـــب الأول

وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ بالأمر والنهي في مجال التربية الإيمانية

سبق أن ذكرتُ - بالتفصيل - منهج القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ - بتزكية قلبه ولسانه، وسائر جوارحه، وعند التأمل في ذلك يجد المرء أن القرآن قد أكثر من استخدام أسلوب الأمر والنهي - وإن كان الأمر أكثر من النهي - في تحقيق كمال التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

فمعظم ما أنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك كان بصيغة الأمر - سواء في مجال العبادات القلبية، أو اللسانية، أو الجسدية بشكل عام [(١)] ، وقليل منها ورد بصيغة النهي - على اعتبار قول بعض المفسرين أن المخاطب والمراد بها هو النبي ﷺ وأمّته في ذلك تبع له - .

ويتضح استعمال القرآن لأسلوب الأمر للنبي ﷺ من خلال صيغة الأمر الواردة في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر:٢]، ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٢] ، ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب:٢]، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧] ، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الشرح:٧-٨] ، ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف:٢٠٥] ، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف:٢٧]، ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:٤] ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١

---

(١) سبق شرح كل ذلك بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② ﴾ [المزمل: ١-٢] ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ [المدثر: ١-٢] ...إلخ ذلك من الأوامر القرآنية للنبي ﷺ في مجال التربية الإيمانية.

أما بالنسبة لما نهى القرآنُ عنه رسولَ الله ﷺ فهو قليل لعصمة النبي ﷺ من الوقوع في الخطأ المتعلق بمهمته باعتباره مُبَلِّغًا عن الله تعالى ورسولاً للعالمين ومُشَرِّعًا لهم بإذن ربه، ولتدارك العناية الإلهية له قبل وقوعه في الخطأ ـ غالباً ـ ، ومن هذه النواهي التي نهى الله رسوله ﷺ عنها وحذّره منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠]، ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ٦]، ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [الإسراء: ٢٢]، ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وهذه النواحي التي خاطبت النبي ﷺ، ووردت في القرآن الكريم ليس معناها أن رسول الله ﷺ قد وقع في شيء منها حتى حذّره ربُّه ونهاه، بل المقصود بها إما:

(أ) الزيادة في حثّه على البعد عنها، واستمراره على نقيضها كما قال بعض أهل التفسير (١).

(ب) أو أنه ﷺ خوطب بها، والمراد بذلك غيره من أفراد أمته كما قال أكثر أهل التفسير.

(جـ) أو أنّ إيرادها إنما هو من باب الترهيب والتخويف له ﷺ (٢).

---

(١) كما قال الشوكاني في تفسيره ١ / ٥٢٣ في تفسيره للآية ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ⑥⓪ ﴾ آل عمران.٦٠، "ويكون النهي له لزيادة التثبيت ؛ لأنه لا يكون منه شك في ذلك".

(٢) سأفصّل القول في ذلك كله في الفقرة التالية لهذه الفقرة.

المطلب الثاني

وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ بالأمر والنهي في مجال التربية الأخلاقية

كما أن القرآن الكريم قد أكثر من استخدام أسلوب الأمر والنهي للنبي ﷺ في مجال التربية الإيمانية، فقد استخدم هذا الأسلوب ـ أيضاً ـ في مجال التربية الأخلاقية، فمعظم ما ورد في هذا المجال هو من قبيل الأوامر والتكاليف الربّانية لرسول الله ﷺ ، وقليل منها جاء بصيغة النهي.

أما ما ورد بصيغة الأمر ، فيتضح من خلال الآيات القرآنية التالية: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨] ، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝ ﴾ [المعارج:٥] ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت:٣٤] ، وغير ذلك من الآيات التي تم شرحها بالتفصيل فيما سبق.

وأما بالنسبة لنواهي القرآن لرسول الله ﷺ فيما يتعلق بالتربية الأخلاقية له ، فمن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ ﴾ [المدثر :٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف :٢٣-٢٤]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ۝ ﴾ [الضحى :٩-١٠] ، ونحو ذلك مما ورد في آيات القرآن الكريم.

وهذه النواهي التي خاطبت النبي ﷺ ـ بشكل مباشر ـ هي له ولأمته كما قال أكثر أهل التفسير.

وباستقراء آيات القرآن الناهية للنبي ﷺ عن سيئ الأقوال والأفعال يمكن القول

أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما يلي:

(أ) آيات نهت النبي ﷺ عن أمر قد وقع فيه، ومن ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى ـ في سورة الكهف ـ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] (١) .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾[النساء: ١٠٥-١٠٧] (٢) .

فكل هذه النواهي في الآيات السابقة وما شاكلها نهت النبي ﷺ عن أمرٍ قد وقع فيه ؛ لكن هذا الأمر ليس بمعصية ولا مخالفة شرعية ، إنما هو من قبيل "ترك الأفضل والأَوْلى مما لا يتناسب مع مقام الأنبياء، فيجتهد النبي ﷺ فيفعل خلاف الأفضل والأحسن، فيعاتبه ربُّه ـ أو ينهاه ـ ، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل.." (٣) .

أو أن النبي ﷺ قد وقع فيه بناءً على ظاهر الأمر ، وما توافرت لديه من أدلّة وحجج كما في سبب نزول الآية الأخيرة، وهذا كلّه لا يطعن في مقام النبوة والرسالة، ولا يقدح في عصمة النبي ﷺ من الخطأ، ولا يُعتبر ذنباً.

فمن المعلوم أن هناك فرق بين الخطأ في إصابة الحق الذي يريده الله تعالى والناتج عن الاجتهاد، وبين الخطيئة التي تعني اقتراف الذنب المخالف للشرع ، فالأول صاحبه محمود ومأجور، والثاني صاحبه مذموم ومأزور، والعتاب إنما هو

---

(١) وقد سبق شرح ذلك في فصل التربية الأخلاقية للنبي ﷺ في المطلب الأول من المبحث الثاني ، في الفقرة الثالثة بعنوان (نهي الله لرسوله عن العزم عن فعل شيء دون تعليقه بمشيئة الله).

(٢) وقد سبق ذكر سبب نزولها في فقرة " أمر الله لرسوله بدوام الاستغفار له" في المطلب الثاني من المبحث الثاني في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

(٣) النبوة والأنبياء ، للشيخ محمد علي الصابوني ص١١٣ بتصرف وزيادة يسيرة، طبعة دار السلام، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، القاهرة-مصر.

لمقام النبوة.

(ب) آيات نهت النبي ﷺ عن أمرٍ كاد أن يقع فيه ، أو قد يقع فيه ، فمن النوع الأول ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنعام : ٥٢] (١) ، ومن النوع الثاني ما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾[الحجر :٨٨] (٢) ، وغيرها من الآيات.

فكل ما ورد من نواهٍ في الآيتين السابقتين ونحوهما للنبي ﷺ إنما هو نهي له عن أمرٍ لم يقع فيه ـ كما في الآية الأولى حيث تداركته العناية الإلهية ، فعصمته مما كاد أن يقع فيه، وأما النهي الوارد في الآية الثانية ، فإنما نهى الله رسوله ﷺ عن أمرٍ قد يحصل منه، وإن حصل فلا يُعتبر ذنباً في عُرف الشرع وأحكام الشريعة، إنما هو أمر لا يليق بمقام الدعاة إلى الله، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ ، وبالتالي فلا داعي أن يقع فيما يقع فيه غيره من الناس وليحذر من ذلك.

(جـ) آيات نهت النبي ﷺ عن قضايا ـ بل عن ذنوب ـ يستحيل أن يقع فيها لعصمة الله له، ولأن ذلك يتنافى مع كونه ﷺ قدوة للعالمين (٣) .

فمن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٠] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب:١] ، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾[المدثر :٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] . وقوله ـ عز من قائل ـ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ

---

(١) وقد ذكرت سبب نزولها في فصل (تربية النبي ﷺ أخلاقياً) في المطلب الثاني من المبحث الثالث، الفقرة الخامسة.

(٢) قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره ١٦ / ٣٣٩ : " فيها نهي للرسول ﷺ عن الإعجاب بما ينعم به من تنعّم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم بالله بأن ذلك لحكَم يعلمها الله..." انتهى بتصرف يسير.

(٣) لقوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١]

مَرَحًا ﴾ [الإسراء:٣٧]،ونحوها من الآيات.

فكل ما سبق من نواهٍ وردت في الآيات السابقة إنما المقصود بها والمراد بذكرها هم أمة النبي ﷺ ـ وإن كان الخطاب له ـ وإنْ أخَذْنَا بقول بعض أهل التفسير الذين ذكروا أن رسول الله ﷺ هو مقصود بذلك أيضاً ، ويدخل فيه دخولاً أوليّا (١) ، فليس معنى هذا أن شيئاً من ذلك قد وقع منه أو يمكن الوقوع منه ، بدليل أن السيرة النبوية شاهدة على عكس كل ما سبق كما أكّد عليه الصحابة في أكثر من رواية صحيحة (٢)

وهكذا رأينا استعمال القرآن لأسلوب الوعظ والإرشاد عن طريق الأمر والنهي لتربية النبي ﷺ وهذا " من أهم وسائل التربية المؤثرة في تكوين الشخصية الإيمانية والخُلُقية .. بالموعظة، والتذكير بالنصيحة، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير في تبصير المرء بحقائق الأشياء، ودفعه إلى معالي الأمور، وتحلّيه بمكارم الأخلاق، وتوعيته بمبادئ الإسلام" ..

ولذا فلا عجب أن نجد القرآن الكريم قد انتهجها، وخاطب نفس النبي ﷺ بها، وكرّرها في كثير من آياته، وفي مواطن عدة من توجيهاته وعظاته" (٣) .

" ففي النفس دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهذيب.. بموعظة لطيفة خفيفة مؤثرة" (٤) كتلك التي استقاها النبي ﷺ وتربى عليها من خلال آيات الرحمن.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٠ / ٢٥٠ .
(٢) سبق ذكر شواهد ذلك بالتفصيل في الباب الثاني.
(٣) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان – رحمه الله – ٢ / ٦٨٥ بتصرف واختصار .
(٤) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ١٨٧ باختصار.

المبحث الثاني
أسلوب الترغيب والترهيب
للنبي ﷺ

تنوّعت المقاصد والغايات التي اتَّخذ القرآن أسلوب الترغيب والترهيب في آياته للوصول إلى تحقيقها،فمن ذلك مقاصد دعوية،ومنها مقاصد تربوية ـ محور حديثنا ـ ، ولا غرابة أن يستخدم القرآن أسلوب الترغيب والترهيب لما له من "تأثير ووقع في النفس الإنسانية، فالإنسان جُبل على حب الخير والسلامة، والرغبة في الظفر بكل محبوب، كما طُبع على كراهية الشر والأذى..." (١) .

لذا اتخذ القرآن هذا الأسلوب في التربية الربّانية القرآنية للنبي محمد ﷺ ، وحتى يتضح الأمر جليّاً قسّمت هذا المبحث إلى المطلبين التاليين .

---

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ، أ.د/عبدالوهاب الديلمي ١ / ٤٩٤ بتصرف يسير.

المطلب الأول

استخدام القرآن لأسلوب الترغيب في تربية النبي ﷺ

الترغيب هو " وعدٌ يصحبُهُ تحبيب وإغراء، بمصلحة أو لذّة أو متعة عاجلة أو آجلة، مؤكدّة، خيِّرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله" (١)

ومن هذا القبيل رغّب الله رسوله ﷺ في أداء بعض العبادات التي تحقق له التربية الإيمانية، ووعده مقابل ذلك بعظيم الأجر والمثوبة عنده، ومن ذلك كل ما ورد في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٩] (٢) .

قال الشوكاني - رحمه الله - : " الخطاب في هذه الآية - وإن كان خاصاً بالنبي ﷺ - فالأمر له أمرٌ لأمته، فهو شرع عام ،ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل(٣) .

وقد قام رسول الله ﷺ الليل حق قيامه (٤) رغبةً فيما عند الله وتصديقاً بموعوده - سبحانه وتعالى - القائل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى :٤-٥] .

(١) أصول التربية الإسلامية لعبد الرحمن النحلاوي ص٢٨٧ بزيادة يسيرة جداً

(٢) ذكر الشوكاني في تفسيره ٣ / ٣٦٠ عدة أقوال في معنى المقام المحمود ومنها:

[١] مقام الشفاعة العظمى بتعجيل الحساب ، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة.

[٢] إعطاء النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة. وهذا لا ينافي القول الأول ؛ فلا منافاة بين مقام الشفاعة وأخذه لواء الحمد.

[٣] المقام المحمود هو أن الله سبحانه يُجلس محمداً ﷺ معه على كرسيه، قال الشوكاني بإمكانية ذلك دون نكاره.

[٤] المقام المحمود هو كل مقام يجلب الحمد لله من أنواع الكرامات.

(٣) فتح القدير ٣ / ٣٦٠ بتصرف يسير جداً

(٤) سبق شرح ذلك بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية .

وكما أن القرآن الكريم قد رغّب النبي ﷺ بأداء بعض الطاعات،ووعده مقابل ذلك بالأجر العظيم الذي ادّخره له عنده،والذي يُرضيه في الأُخرى،فقد نهاه عن التعلق أو الإعجاب بما عند الكفار من زينة الحياة الدنيا، ووعده بما هو خير له من ذلك ورغّبه بما عند الله من نعيم عظيم مقيم، فقال سبحانه:﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾. [طه : ١٣١] (١).

وهكذا رغّب الله نبيه ﷺ ـ بشكل خاص ـ بالقيام ببعض الأعمال الصالحة ، وترك الأعمال السيئة مقابل ما أعدّ الله له عنده، ورغّبه بشكل عام فيما ورد من آيات تتحدث عن نعيم اليوم الآخر خاطب القرآن بها المؤمنين عامّة ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾ [الزمر : ٢٠] .

فكل الآيات التي خاطب الله بها أهل الإيمان، ووعدهم فيها بنعيم اليوم الآخر، ورغّبهم به يدخل فيها النبي ﷺ بطريق الأَوْلى؛ لأنه أصل كل هداية وطاعة يؤديها الخلْق المكلّفون بعد أن بعثه الله رسولاً للعالمين.

---

(١) وقد سبق شرح الآية وذكر تفسيرها في فصل التربية الاخلاقية للنبي ﷺ .

المطلـــب الثانـــي

استخدام القرآن لأسلوب الترهيب
في تربية النبي ﷺ

الترهيب هو : " وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية، ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي" (١) .

والترهيب أثر عظيم في زيادة الإيمان، ودفعِ العبد إلى اللجوء لربه، وتحقيق فراره إليه ، ومن هذا المنطلق أكثر القرآن الكريم من أساليب الترهيب للمؤمنين من عذاب الله وسخطه وأسباب ذلك.

وكما أن القرآن قد استخدم أسلوب الترهيب لتربية المؤمنين على الاتصال بالله والاعتصام به ، والحذر من أسباب عقوبته وسخطه، فقد استخدم نفس الأسلوب في تربية النبي ﷺ على زيادة إخلاصه في توحيد الله، وشدة الإقبال على طاعته.

ويتضح هذا من قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ومحذّراً لكل من عناه الخطاب: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "التاء في ﴿ أَشْرَكْتَ ﴾ تاء الخطاب لكل من أوحي إليه بمضمون هذه الجملة من الأنبياء... ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ " (٢) .

---

(١) أصول التربية الإسلامية للنحلاوي ص٢٨٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٤ / ٥٨ باختصار.

ولا شك أن النبي ﷺ لا يشرك بربه ، ولا يُتوقع ذلك منه، إذاً فيكون المقصود من خطاب الآية هو التحذير لغير النبي ﷺ ، وأما بالنسبة له فتكون ترهيباً له، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ كان يخشى على نفسه أشد الخشية من الشرك والكفر، وكان يتعوذ بالله من ذلك دبر كل صلاة قائلاً: (**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**) (١)

قال الألباني(٢) **ـ رحمه الله ـ** في تعليقه على هذا الحديث في كتابه (تمام المنة في التعليق على فقه السُّنَّة): " فتبيّن...أن هذه الثلاث ـ أي المستعاذ منها في الدعاء ـ هي التي كان ﷺ يقولها دبر كل صلاة" (٣)

وكما أن القرآن الكريم قد استخدم أسلوب الترهيب في تحذير النبي ﷺ من الكفر والشرك (٤)، فقد استخدمه أيضاً في تحذيره ﷺ من التقوّل على الله ما لم يقل، وذلك في مثل: قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)** ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٦] .

---

(١) اخرجه الحاكم في١ / ٣٥ في كتاب: الإيمان، باب: التعوذ من الكفر والفقر، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٢) هو محمد ناصر الدين أبو عبدالرحمن بن نوح الألباني، الملقب بـ"الألباني" ولد في كنف آله باشقودرة عاصمة البانيا آنذاك ، كان و الده من كبار مشايخ البانيا، تلقى علومه في إسطنبول، ..هاجر به والده نوح إلى سوريا... وفي دمشق تعلم العربية.. كما تلقى القرآن تلاوة وتجويداً على يد والده...مع علوم أخرى، وتتلمذ على يد الشيخ سعيد البرهاني.. وأُجيز في الحديث على يد الشيخ راغب الطباخ علّامة حلب في سوريا... وكان أول ما الفه كتاب " تحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد" . وتاثر كثيراً بـ رشيد رضا... وقد تعرّض لمضايقات كثيرة بسبب رفضه لكثير من المسائل المذهبية لدى شيوخ عصره، له عدة مصنفات تبلغ العشرات ما بين تاليف وتحقيق، وما يتصل بذلك من فقه للحديث وتخريج له وتعيين لرتبتيه من الصحة والسقم... ، ومن مؤلفاته « سلسلة الاحاديث الصحيحة »، و« سلسلة الأحاديث الضعيفة »، و« مختصر صحيح البخاري »، و« صفة صلاة النبي ﷺ » ، وغيرها كثير، توفي عام١٤٢١هـ انظر: علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ١ / ٢٨٧-٣١٣ .باختصار.

(٣) تمام المنّة في التعليق على فقه السنة، لمحمد ناصر الدين الألباني ص٢٣٣، دار الراية، ط٣،١٤٠٩هـ الرياض، السعودية.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) ﴾ [يونس:١٠٦] ، وغير ذلك من الآيات.

قال ابن عاشور في تفسير الآية: " . . . لو لم يكن القرآن منزلاً من عندنا، ومحمد ادَّعى أنه منزل منا لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه . . " (١)

ومن المعلوم المؤكَّد أن النبي ﷺ لم يتقوَّل على الله أبداً، بل هو رسول الله الصادق الأمين، كما قال تعالى ـ آمراً النبي ﷺ أن يردّ على الكفار الذين طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير الذي أُنزل عليه أو يبدله ـ : ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ [يونس : ١٥-١٦] .

فرسول الله ﷺ لم يتقوّل على الله ولم يُغير، ولم يُبدِّل ، ولم يقصِّر في تبليغ شيء من كلامه، قال سبحانه: ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾** ﴾ [التكوير: ٢٤] ، أي "بمتهم أو بخيل" (٢) .

ومع هذا أنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية وأمثالها من آيات استخدمت أسلوب الترهيب في التربية القرآنية للنبي محمد ﷺ (٣)، ولا شك أن رسول الله ﷺ عندما يقرأ ذلك يزداد رهبة من الله وخوفاً من جبروته ـ سبحانه وتعالى ـ .

ويمكن أن يُلحق بأسلوب الترهيب الذي استخدمه القرآن لتربية النبي ﷺ كلُّ آيات الوحي المتعلقة بأهوال يوم القيامة ونارها، التي كان ﷺ يستعيذ بالله منها (٤) دائماً، وغير ذلك مما فيه ترهيب من كل مكروه تخافه النفس.

والخلاصة:

أن استخدام القرآن لهذا الأسلوب في تربية النبي ﷺ أثمر عنده عبادة القلب

(١) تفسير ابن عاشور ٢٩ / ١٤٤-١٤٥ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير٤ / ٥١٢ .

(٣) كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج : ١٢] .

(٤) لما ورد في صحيح مسلم في ٤ / ٢٠٧٠ برقم ٢٦٩٠ عن أنس ﷺ أنه قال: كان أكثر دعوة يدعو بها ـ أي رسول الله ﷺ ـ (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار).

بتضرع وتذلل لله ، وعبادة اللسان باستغفار ـ واستعاذة بالمولى سبحانه ـ وسائر أنواع الذكر والدعاء وعبادة الجوارح بجميع أنواع الطاعات.

وهكذا "فإن استشعار النبي ﷺ لأي نوع من أنواع الترهيب في القرآن ولَّد عنده الخوف والرهبة من الله فدفعه ذلك للالتجاء إليه.. وزاده يقظةً في الضمير وحياة في القلب..." (١)

إننا نجد أنَّ للترغيب والترهيب أثراً بارزاً في تحقيق التربية الصحيحة، "فمهما ترقّى العبد في مدارج التقوى والعمل الصالح ، فإن نفسه لا تستغنى عن ذلك أبداً ، ولا تستقيم بدون الخوف والرجاء" (٢) ، حتى لو كان من الأنبياء، الذين قال الله عن عدد منهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، وكذا الشأن في سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنهم محمد ﷺ أشرف الأنبياء والرسل أجمعين.

---

(١) الترهيب في الدعوة في القرآن والسُّنَّة ، رسالة ماجستير " رقية بنت نصر الله نياز " ، ص٣٧٤بتصرف وزيادة ، دار إشبيليا، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، الرياض ، السعودية.

(٢) منهج الإسلام في تزكية النفوس، د. انس أحمد كرزون ١ / ٤٧٥ بتصرف يسير .

المبحث الثالث
أسلوب الدعوة لطلب الاعتبار (١) والاتعاظ مما فيه عظة وعبرة

من أهم الأساليب التربوية التي استخدمها القرآن الكريم في تربية النبي ﷺ أسلوب الدعوة لطلب الاعتبار والاتعاظ من كل ما فيه عظة وعبرة.

وقد أوضحتُ فيما سبق أن القرآن الكريم دعا الإنسان لتوظيف عقله للنظر في آيات الله النفسية والكونية (٢) ، والقرآنية (٣) ، وتدبر ذلك، لما لهذا من أثر بارز في تفتح مدارك العقل وزيادة الإيمان.

وقبل أن أذكر مظاهر التربية بالعظة والعبرة أمهّد لذلك بتعريف الاعتبار والاتعاظ...

فالاعتبار والاتعاظ كلاهما بمعنى واحد (٤) ويعنيان " النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليُعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها، وقيل أن الاعتبار هو التدبر وقياس ما غاب على ما ظهر" (٥) .

وقال بعضهم : " الاعتبار هو المجاوزة من عُدوة دنيا إلى عُدوة قصوى، ومن عِلْمٍ أدنى إلى عِلْمٍ أعلى" (٦) .

---

(١) الاعتبار : ماخوذ من عبر (ع ب ر) التي تفيد العبور والانتقال ، الكليات للكفوي ص٦٥٥ .

(٢) راجع فصل التربية العقلية للنبي ﷺ "المطلب الثالث، بعنوان: دعوة الإنسان لتوظيف عقله في النظر لآيات الله في الكون" .

(٣) راجع فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ المطلب الثاني، بعنوان: منهج القرآن في تزكية لسان النبي ﷺ . وأيضاً : فصل التربية العقلية للنبي ﷺ المطلب الثاني، بعنوان: « تكليفه ﷺ بمعاهدة القرآن الكريم تلاوة وترتيلاً وتدبراً » .

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص٢٣٥، حيث قال: "العبرة والاعتبار: الاتعاظ..الخ" .

(٥) الكليات للكفوي ص١٤٧ .

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٣٥ .

وقال الراغب ـ رحمه الله ـ: "وأصل العَبْرِ: تجاوز من حال إلى حال" (١)

وقال محمد رشيد رضا: "والاعتبار والعبرة: هي الحالة التي يُتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكر" (٢) .

فالعبرة والاعتبار " حالة نفسية توصل الإنسان إلى معرفة المغزى والمآل لأمر ما، يشاهده الإنسان، ويتبصر فيه، ويقوم باستقرائه وموازنته ومقايسته ومحاكمته محاكمة عقلية، فيصل إلى نتيجة مؤثرة يخشع لها قلبه ، فيدفعه ذلك إلى سلوك مناسب" (٣)

وهذا هو ما سلكه القرآن في تربية النبي ﷺ عن طريق دعوته إيَّاه لأخذ العظة والعبرة من أمرين اثنين (٤) يمكن شرحهما من خلال المطلبين التاليين .

---

(١) المفردات ص ٣٢٠ .

(٢) تم اقتباس هذا من تفسير رضا ص١٥٤، للآية ١١١ من سورة يوسف "الآية الاخيرة" ، وهي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ﴾ ، وطُبع هذا التفسير في جزء خاص مستقل، واضيف إلى نهاية الجزء الثاني عشر من المنار.

(٣) اصول التربية الإسلامية للنحلاوي ص٢٧٢-٢٧٣ باختصار.

(٤) مع ملاحظة أن القرآن قد دعا لأخذ العظة والعبرة من أكثر من ذلك كما شرحنا في فصل التربية العقلية، وإنما قصدنا هنا بالأمرين الاثنين هو ما كان خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ وإن كان القصد كلّ من يصلح للخطاب.

المطلب الأول

دعوة القرآن للنبي ﷺ إلى الاعتبار والاتعاظ بآيات الله وسُننه الكونية ومظاهر قدرته وعظمته وألوهيته

هناك آيات عامة دعت الناس جميعاً إلى الاعتبار والاتعاظ من آيات الله في كونه ومخلوقاته (١)

وهناك آيات خاطبت النبي ﷺ، دعته وحثّته على التأمل والتفكير في مظاهر قدرة الله وعظمته، فمن ذلك دعوته إلى التأمل في خلق السماوات والأرض بالحق، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم:١٩].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: "والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته، والخطاب لكل من يصلح له" (٢) .

وغير ذلك من الآيات الشاهدة على استخدام القرآن ـ في تربية النبي ﷺ ـ لأسلوب الدعوة إلى أخذ العظة والعبرة من تسخير ما في الأرض والفُلك (٣) ، وإنزال الماء من السماء (٤) ، وجريان الفلك في البحار (٥)، وولوج الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر (٦) ، واستسلام الكون

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل:٦٦] وغيرها كثير.

(٢) فتح القدير: ٣ / ١٤٦ .

(٣) كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج :٦٥] .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر :٢١] .

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ [لقمان : ٣١] .

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾. [لقمان : ٢٩] .

وسجوده وتسبيحه لله (١) ، وقُدرة الله على إحياء الموتى (٢) ، وغير ذلك.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج :١٨]، وفي سورة [النور :٤١] ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة :٢٤٣].

المطلب الثاني

دعوة القرآن للنبي ﷺ إلى الاعتبار والاتعاظ بعقوبات الله القدرية والشرعية على الكفار في الدنيا والآخرة

مع أن آيات القرآن الكريم قد دعت الإنسان بشكل عام إلى التأمل والنظر بعين العبرة في تاريخ الأمم - الكافرة منها والمؤمنة - وسُنن الله فيها إلا أنها أفردت خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ ، دعته فيه إلى النظر والتبصر بعين العظة والعبرة لأحوال الكفار عند موتهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام : ٩٣]. وغير ذلك كثير في آيات القرآن.

فتارةً يدعوه لأخذ العظة والعبرة من: عاقبة الكفر وأهله في الدنيا (١) ، وتارةً أخرى يدعوه للاعتبار بمآل الكفار ومصيرهم في الأخرى (٢) ، وتارةً ثالثة يدعوه للاعتبار والاتعاظ بذكر حالهم في جهنم (٣) ، وهكذا ..الخ.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾[الفجر : ٦-١٤] ، وكما في سورة الفيل وسورة الأعراف آية ٨٤ .

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام :٣٠] .
وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام :٢٧] .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم :٤٩] .

المبحث الرابع
أسلوب التذكير بنعم الله على رسوله ﷺ في نفسه وأصحابه ﷺ

سبق أن أوضحتُ أن الله تعالى امتنَّ على رسوله ﷺ بعدة نعم عظيمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

وذكرتُ أيضاً أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُحدِّث بنعمة ربه (١) .

وكما أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه، فقد استخدم القرآن التذكير بالنعم وسيلة وأسلوباً من أساليب تربية النبي ﷺ ، فلا شك أن مخاطبة الفطرة وتذكير الإنسان بما أنعم الله عليه يرد الضال ويزيد المهتدي هدىً.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾ [الانفطار : ٦-٨] .

ومن هذا المنطلق خاطب القرآن النبي ﷺ ؛ ليحقق له مزيداً من التربية الإيمانية، وحتى يتضح الأمر جلياً رأيتُ أن أُقسم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين .

---

(١) راجع الفقرة الأولى من المطلب الأول في المبحث الثاني من فصل (تربية النبي ﷺ أخلاقياً) وعنوان الفقرة : (أمر الله لرسوله ﷺ بدوام التذكر والتحدث بنعم الله عليه والشكر عليها) .

المطلـــب الأول

تذكير القرآن للنبي ﷺ بنعم الله عليه في نفســـه

أنعم الله على رسوله ﷺ ـ في نفسه ـ بنعمٍ كثيرة وعظيمة، واختصه بميزات ميَّزه بها عن غيره (١)

وبناءً على هذا ، فلا عجب أن يمتنّ الله على رسوله ﷺ بما أنعم عليه،وأن يُذكِّره بذلك كأسلوب من أساليب تربيته ﷺ ودفعه إلى فعل الخير لغيره ، ما كما اكتسبه هو من ربه ، ويتضح هذا من قوله تعالى ـ مذكراً رسوله ﷺ ببعض ما أنعم به عليه في الدنيا ـ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى :٦-٨] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر تفسير الآيات السابقة:

" .. وتقدير نظم الكلام إذْ كنت تعلم ذلك ، وأقْرَرْتَ به فعليك بشكر ربك،

---

(١) الخصائص التي اختص الله بها رسوله ﷺ منها ما هو في الدنيا ومنها ما هو في الآخرة:

أما ما هو في الدنيا فمثل:

[١] أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام بالإيمان به ونصرته لو بُعث في زمانهم.

[٢] جعل رسالته ﷺ عامة للثقلين إلى قيام الساعة.

[٣] جعل نبوته ﷺ خاتمة لكل النبوات.

[٤] إيتائه ﷺ جوامع الكلم.

[٥] نصره ﷺ بالرعب.

[٦] جعل معجزته (القرآن) خالدة محفوظة.

[٧] الإسراء والمعراج به ﷺ .

وأما ما هو في الآخرة فمثل:

[١] إعطائه ﷺ الوسيلة والفضيلة.

[٢] بعثه ﷺ مقاماً محموداً ومنحه الشفاعة العظمى وذلك يوم القيامة .

[٣] استفتاحه ﷺ باب الجنة .

وبيّن له الشكر بقوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ [الضحى :٩-١١] وقد جُعل الشكر هنا مناسباً للنعمة المشكور عليها . . " [(١)]

وكذلك ذكّر اللهُ رسوله ﷺ ببعض نعَمه عليه في موضع آخر، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح: ١-٤] [(٢)]

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " استفهام تقريري على النفي ، والمقصود التقرير على إثبات النفي. . . وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يُراعي هذه المِنَّة. . . ليدوم على دعوته العظيمة نشيطاً غير ذي أسف ولا كمد " [(٣)] .

والوزر الذي وضعه الله عن النبي ﷺ هو كما قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : " الذنب وما كان فيه من أمر الجاهلية . . " [(٤)]، أو كما قال ابن عاشور: " . . . كل ما كان يتحرج منه من عادات الجاهلية التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه من الذكاء والسمو. . . وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي " [(٥)] .

---

(١) تفسير ابن عاشور ٣٠ / ٤٠١

(٢) وامتن الله على رسوله ﷺ في سورة النساء ١١٣ قائلاً : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ وفي سورة الشورى آية ٥٢ ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٠٨ .

(٤) فتح القدير ٥ / ٦٥٥ بتصرف يسير .

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤١٠ .

المطلـــب الثانـــي

تذكير القرآن للنبي ﷺ بنعم الله عليه في صحابته الكرام - ﭫ -

قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، لم يكن بالإمكان أبداً أن يكون الصحابة هكذا - مع رسول الله ﷺ ، وأشداء على الكفار، ورحماء بينهم - إلى آخر ما ذكر الله من صفاتهم الحميدة - لولا أن الله تعالى هو الذي تولّى وحده هدايتهم لكل ذلك وغيره.

ومن هنا امتنَّ الله على رسوله ﷺ وكرَّه ببعض ما تفضَّل به عليه في أصحابه ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

قال ابن عاشور - رحمه الله -: " .. والتأليف بين قلوب المؤمنين منّةٌ أُخرى على الرسول ﷺ (١) ، إذ جعل أتباعه متحابين، وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم ، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضلون الجيش المؤلّف من قبيلة واحدة ؛ لأن ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم..." (٢) .

وهكذا القرآن لا زال يذكر النبي ﷺ بنعم ربه عليه في نفسه وفي أصحابه، ويخاطبه فيما يُسمّى عند بعض علماء التربية بالحوار الخطابي الموجَّه من الحق جلَّ

(١) أما المنّة الأولى فهي المذكورة في الآية التي قبلها،ونصُّها: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

(٢) تفسير ابن عاشور ١٠ / ٦٣ .

جلاله إلى نبيه ﷺ (١)

وهذه الوسيلة تعتبر من الوسائل التربوية للنبي ﷺ "تسليةً له، وتقوية لعزائمه ليمضي في دعوته إلى الله " (٢) ، متذكراً كلّ ما أنعم الله به عليه، وشاكراً لله تعالى على ذلك قلباً ولساناً وعملاً.

(١) كما ذكر ذلك عبد الرحمن النحلاوي في كتابه: التربية بالحوار، ص١٣٥-١٤٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص١٣٩ .

انظر: التربية بالحوار لعبد الرحمن النحلاوي ، دار الفكر ، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، بيروت، لبنان.

المبحث الخامس
أسلوب العتـــاب اللطيف

سبق أن شرحتُ أن النبي ﷺ قد يعمل المفضول ويترك الأفضل هو ـ الأفضل ـ والأَوْلى والأرفع والأنسب لمقامه كنبي ورسول ﷺ (١)

وفي هذه اللحظة سرعان ما يتداركه الوحي من عند الله فيرده ويرشده إلى ما كان ينبغي فعله، وقد يعاتبه على ما كان عتاباً لطيفاً من رؤوف رحيم، وهذا العتاب هو أسلوب تربوي اتّخذه القرآن الكريم في تقويم النبي ﷺ ومعالجة خطئه حتى لا يتكرر مرّة أخرى.

ومن خلال استقراء آيات القرآن نجد أنها عاتبت النبي ﷺ على تركه الأفضل في أمور تتعلق بشئون السِّلم والدعوة، وأخرى تتعلق بشئون الحرب والمواجهة.

وهذا ما أُفصِّل القول فيه في المطلبين التاليين .

---

(١) راجع المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل بعنوان " وعظ الله وإرشاده للنبي ﷺ بالأمر والنهي.. " . ص٦٢٥ .

المطلـــب الأول

عتاب القرآن للنبي ﷺ فيما يتعلق بشئونه الشخصية والدعوية

أولاً: عتاب القرآن للنبي ﷺ فيما يتعلق بشئونه الشخصية الزوجية:

قد يجتهد النبي ﷺ في شئونه الشخصية اجتهاداً لا يقره عليه الوحي، بل ينكره عليه، ويخاطبه بصيغة المخاطب،ويعاتبه على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . [التحريم : ١] .

ذكر أهل التفسير والحديث في سبب نزول السورة عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطيتُ [(١)] أنا وحفصة [(٢)] على: أيَّتُنا دخل عليها فلتقل له: أكلْتَ مغافير[(٣)]؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: (لا ، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ [(٤)] ، لا تُخبـري بذلك أحداً » [(٥)] .

---

(١) فواطيتُ: أي اتفقت ، وأصله: (فواطات) وهو كذلك في بعض النسخ، وفي بعضها (فتواطاتُ)

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب المولودة عام ١٨ ق. هـ ، صحابية جليلة صالحة، من أزواج النبي ﷺ ، ولدت بمكة، وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما، وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها، فزوّجه إياها سنة اثنين أو ثلاث للهجرة، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها عام ٤٥هـ ، وقد روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ستين حديثاً.

انظر: الإصابة لابن حجر١٢ / ١٩٧،و:أسد الغابة لابن الأثير٧ / ٧٤ ، و: كتاب أزواج النبي ﷺ لمحمد ابن يوسف الصالحي ص١٣٧-١٤٦ .

(٣) مغافير: جمع مغفور، وهو صمغ حُلو، له رائحه كريهة، يُنضجه شجر يسمى العرفط .

(٤) وقد حلفتُ: أي حلفتُ على ألا أعود لشرب العسل عندها.

انظر: صحيح البخاري بشرح د. مصطفى البُغا ٤ / ١٨٦٦ .

(٥) أخرجه البخاري في ٤ / ١٨٦٥-١٨٦٦ في كتاب: التفسير، سورة التحريم، باب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ برقم ٤٦٢٨ .

فنزلت الآيات المذكورة .

وورد في سبب نزولها ـ أيضاً ـ " أن رسول الله ﷺ كانت له أَمَةٌ (١) يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة ﵄ حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ " (٢) .

وأيّاً كان السبب (٣) فالشاهد أن الله تعالى عاتب نبيه ﷺ على تحريمه ما أحل الله له ـ سواء أكان عسلاً أو زوجاً ـ .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : "... كان الذي حرّمه النبي ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحلّه له، ..فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان قد أحلّه له، وبيّن له تحلة يمينه (٤) في يمين كان قد حلف بها مع تحريمه ما حرّمها على نفسه... " (٥)

وهكذا عاتب الله رسوله ﷺ ـ تربية له ـ في شئونه الشخصية الأسرية (٦) ، وعاتبه كذلك في شأن آخر كما يلي :

---

(١) هي : مارية القبطية- ﵂ -.

(٢) أخرجه الحاكم في ٢ / ٤٩٣ في كتاب: التفسير، تفسير سورة التحريم، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره صاحب الصحيح المسند من اسباب النزول الشيخ الوادعي،وسكت عنه في ص١٥٩-١٦٠ . انظر: فتح الباري ٨ / ٦٥٧ ،وفتح القدير للشوكاني٥ /٣٥٣ .

(٣) قال ابن حجر في الفتح ٨ / ٦٥٧ بعد شرحه للروايتين :" فيُحتمل ان تكون الآيات نزلت في السببين معاً" ، اي: بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته.
وقال الشوكاني في تفسيره ٥ / ٣٥٣ : "فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع بينهما ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل وقصة مارية، وان القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه اسرّ الحديث إلى بعض ازواجه".

(٤) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [التحريم:٢] .

(٥) جامع البيان ١٢ / ١٥٠ باختصار وتصرف.

(٦) وقد عاتب الله رسوله ﷺ في شأن تحرجه من زواجه بزينب بنت جحش ـ بأمر الله ـ التي طلقها متبنّاه زيد ابن حارثة ﵁ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الاحزاب ٣٧-٣٩] .

ثانياً: عتاب الله لرسوله ﷺ فيما يتعلق بشئونه الدعوية:

الأخلاق الاجتماعية الدعوية اللازمة لكل داعية صادق كثيرة، ومن ذلك السماع لطالب الذكرى والموعظة من الناس وعدم التشاغل أو التولّي عنه (١)

وعندما وقع رسول الله ﷺ في ذلك فـ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]، عاتبه الله قائلاً: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:٣-١١]

وقال ابن عاشور-رحمه الله-: "...والعُبوس: تقطيب الوجه وإظهار الغضب، والتولي: أصله تحوُّل الذات عن مكانها، ويُستعار لعدم اشتغال المرء بكلامٍ يُلقى إليه، أو جليس يحل عنده، و هو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل، ولعدم الإقبال على الزائر...فعبَّر عن ابن أم مكتوم بـ"الأعمى" ترقيقاً للنبي ﷺ؛ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضرارة (٢)، فهو أجدر بالعناية به؛ لأن مثله يكون سريعاً لانكسار خاطره... فوجّه إليه - العتاب - على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنى من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطّف من الله برسوله ﷺ؛ ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً..." (٣) .

وهكذا عاتب الله رسوله ﷺ - تربية له - عتاباً لطيفاً في بعض شئونه في نفسه ومع أصحابه في ميدان الحياة العملية الزوجية أو الدعوية.

وعاتبه كذلك عتاباً في غاية اللطافة فيما يتعلق بشئونه الحربية ومواجهة الكفار، وهذا ما أشرحه في المطلب الثاني كما يلي:

(١) راجع الفقرة الرابعة من المطلب الثاني من المبحث الثالث في الفصل الرابع من هذه الرسالة، وعنوان الفقرة "نهي الله لرسوله ﷺ عن العبوس والتولي والتشاغل عمن يطلب الذكرى من المؤمنين".

(٢) ضرارة: أي عمى من ضرير بمعنى أعمى. انظر لسان العرب ٤ / ٤٨٣ .

(٣) تفسير ابن عاشور: ٣٠ / ١٠٤-١٠٥ .

المطلـب الثانـي

عتاب القـرآن للنبي ﷺ فيما يتعلق بشئونه الحربية

استعد النبي ﷺ لغزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة لمواجهة الرومان وغسّان الذين كانوا قد أعدُّو عُدّتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين، واستعد معه الصادقون من صحابته الكرام، واستأذنه فريق من المنافقين (١) أن يتخلفوا عن الغزوة بأعذارٍ واهية مُختلقةٍ كاذبة، فاذن النبي ﷺ لهم مصدّقاً لهم في أعذارهم ـ حملاً للناس على الظاهر كعادته دائماً في التعامل معهم ـ وخاصة أنّ ظاهر أهل النفاق هو الإيمان، مع أنهم لو خرجوا ما أغنوا عن المسلمين شيئاً، بل قد يكون خروجُهم سبباً في فشل المسلمين وإلحاق الضرر بهم، كما قال تعالى: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وعندما استأذن المنافقون رسول الله ﷺ في القعود في المدينة وعدم الخروج للقتال أذن لهم ، قبل أن يتحرى صدقهم من كذبهم، فعاتب الله نبيه ﷺ على ذلك، "لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلاً للنبي ﷺ على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان" (٢)، فقال سبحانه: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة : ٤٣] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : "... وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب،... والقى إليه

---

(١) منهم: " عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت"، وكانوا تسعة وثلاثين.
انظر: تفسير ابن عاشور ١٠ / ٢١٠ .

(٢) تفسير ابن عاشور ١٠ / ٢١٠ .

العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماءً إلى أنه ما أذن لهم إلا لسببٍ تأوَّلهُ ... وهذا من صيغ التلطّف في الإنكار أو اللوم، بأن يُظهر المنكِر نفسَهُ كالسائل عن العلة التي خَفِيتْ عليه...." (١).

وهكذا استخدم القرآن الكريم أسلوب العتاب في تقويم أخطاء النبي ﷺ ـ التي هي من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ـ في تركه للأَوْلى والأحوط، ليس في هذه الحادثة فقط، بل في حوادث أخرى تتعلق بإدارته لشئون الحرب وما قبلها وما بعدها، كما وقع في: عفوه عن أسرى بدر (٢)، وغير ذلك.

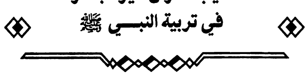
---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٠ / ٢١٠

(٢) كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الانفال: ٦٧]، وما بعدها.

الفصل الثاني

أساليب القرآن غير المباشرة
في تربية النبي ﷺ



الفصل الثاني

أساليب القــرآن غير المباشرة في تربية النبــي ﷺ

كما أن القرآن الكريم قد استعمل عدة أساليـب مباشرة ، في تربية النبي ﷺ ـ كما سبق شرحه ـ فإنه كذلك قد استخدم أساليب أخرى في تربيته ﷺ لكنها غير مباشرة، وباتخاذه إياها يكون القرآن قد حقق مزيداً من ترسيخ المعاني والقيم التربوية في شخص النبي ﷺ للوصول به إلى الدرجة العليا تهذيباً وتربية، وتعليماً وترقية.

وقد تبيّن من خلال استقراء آيات القرآن المتعلقة بالجانب التربوي للنبـي ﷺ ـ بشكل غير مباشر ـ تبيّن أن هذه الأساليب التربوية منها ما يتعلق بتربيته العقلية، ومنها ما يتعلق بتربيته النفسية، ومنها ما يتعلق بتربيته الإيمانية وغيرها، ويمكن توضيح هذا من خلال تقسيم هذا الفصل إلى المباحث الثلاثة التالية .

المبحث الأول
استخدام القرآن لأسلوب ضرب الأمثال في تربية النبي ﷺ(عقلياً)

من المعلوم قطعاً أن القرآن الكريم قد أكثر من ضرب الأمثال في آياته لأهداف ومقاصد عظيمة" فلم تكن الأمثال القرآنية... مجرد عمل فنّي يُقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية حقّقتها نتيجة لنُبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء" (١)

فبالمثال يتضح المقال، وبه يمكن تقريب المعاني وتجسيدها في الأذهان، وبالتالي يمكن عندها التأثير في سامعها وقارئها، ومن هنا قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر:٢٧]،وقال سبحانه:﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

فالهدف إذاً من ضرب الأمثال هو الدعوة لإعمال الفكر فيها وتحقيق الذكرى بها، ولا يتحقق فهمها وإدراك المراد منها إلا مِنْ أهل العلم، ومَنْ أعلمُ من النبي محمد ﷺ؟، فهو أوّل متّعظٍ ومتذكر ومتعلم بضرب الأمثال.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: "..قد ضرب الله الأمثال وصرّفها قدراً وشرعاً.. ودلّ عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشيء إلى نظيره، واستدلالهم بالنظير على النظير... واعتبار المعقول بالمحسوس" (٢). هذه أهمية ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

(١) أصول التربية الإسلامية للنحلاوي ص٣٤٩ باختصار.
(٢) إعلام الموقعين: ١ / ١٧٢.

أما تعريفها، فقد عرّف ابن القيم -رحمه الله- الأمثال فقال عنها:

"إنها تشبيه شيء بشيء في حُكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر..." (١)

وقال صاحب المنار-رحمه الله-:

"... ومَثَلُ الشيء: صفته التي توضحه وتكشف عن حقيقته، أو ما يُراد بيانه من نعوته وأحواله، ويكون حقيقة ومجازاً، وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسية، وعكسه، ومنه الأمثال المضروبة" (٢)

وقد يأتي المثل في القرآن الكريم -أحياناً- خارجاً عن التعريف المذكور، بل يُقصد به معنى آخر كما في قوله تعالى في وصف الجنة: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]. فالمقصود هنا بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أي صفتها العجيبة.

قال الشوكاني-رحمه الله-: "... ومعنى مثل الجنة: وَصْفُها العجيب الشأن.." (٣).

وقد تبيّن من خلال استقراء آيات القرآن الكريم أن الله تعالى ضرب الأمثال لأمرين اثنين:

الأول هو: البيان للمراد تحقيره، وإظهار عدم نفعه وخيره، وبالتالي التنفير عنه.

والثاني هو: البيان للمراد تعظيمه وإظهار نفعه وخيره، وبالتالي الدفع إليه، وهذا هو ما استخدمه القرآن الكريم كأسلوب من أساليب تربية النبي ﷺ، ويتضح هذا من خلال تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين كما يلي.

(١) إعلام الموقعين ١ / ١٣٨.
(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا١ / ١٦٧.
(٣) فتح القدير ٥ / ٤٩.

المطلب الأول

تربية القرآن للنبي ﷺ بضرب الأمثال لما يُراد تحقيره والتنفير عنه

أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال للنبي ﷺ ولكل سامع لآيات الله فيما تهدف إليه من توضيح وتحقير لكل حقير من المعاني والمحسوسات والتنفير عنها ـ وخاصة ما يتعلق بالشرك وأهله (١) ـ والنفاق والمنافقين (٢) ، والذين يُحبِطون أجورهم فيما أنفقوه في سبيل الله بما يكون منهم مِنْ مَنٍّ وأذى (٣) .

وأهل الكتاب وانسلاخهم عن الإيمان (٤) ، وعدم حمل بعضهم لما حمّلهم الله (٥) ، وحقارة الحياة الدنيا وسرعة زوال زينتها ولذّتها (٦) .

ولنأخذ لذلك مثلاً ضربه القرآن للنبي ﷺ ولكل سامع لآياته المتلوّة في شأن

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ . [الحج : ٧٣].

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة:١٧] .

(٣) كما في قوله تعالى في شأن الذين يُتبعون نفقاتهم بالمن والأذى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] .

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٦] .

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة :٥] .

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، ونحوها في سورة الحديد ٢٠ .

الكفار وآلهتهم الحقيرة التي اتخذوها معبوداً لهم من دون الله ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: "مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقُبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم كمثل العنكبوت في ضعفها وقلة احتيالها لنفسها، اتخذت بيتاً كيما يُكنُّها، فلم يُغن عنها شيئاً عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يُغن عنهم حين نزل بهم أمر الله ، وحلّ بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحلّ الله بهم من سُخطه بعبادتهم إياهم" (١)

وعند التأمل في مثل العنكبوت وبيتها الذي ضربه الله للكفار ومعبوداتهم نجد أن هذا المثل قد شمل عدة معانٍ جسّدت ضلالهم كما يلي:

(أ) أن بيت العنكبوت بلغ من الوهن والضعف درجةً عظيمة بحيث لا يقيها من حرٍّ ولا بردٍ ولا شمس ولا مطر، وكذلك معبودات الكفار لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً فهي كالعدم.

(ب) أن حال الكفار كحال العنكبوت في ضعفها وضعف حياتها بسبب وهن بيتها الذي هو عُرضةٌ لإزالته بأي سبب، وبالتالي تشردها في كل مكان وشتاتها في كل زاوية، وهكذا حال الكفار بتشتتهم بين المعبودات وعدم استقرار حالهم معها فتارة يعبدونها وتارة يأكلونها،وتارة ثالثة يتركونها ويتجهون لغيرها، فتفرّقت بهم السُّبل.

(جـ) كما أن "بيت العنكبوت إذا هبّت عليه ريح لا يُرى منه عينٌ ولا أثر،

---

(١) جامع البيان للطبري ١٠ / ١٤٢ .

بل يصير هباءً منثوراً ، وكذلك فأعمال الكفار تجاه آلهتهم يوم القيامة تكون هباءً منثوراً" (١) . بل تكون حسرات عليهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٦ – ١٦٧] .

وهكذا ضرب الله لنبيه ﷺ مثل حال الكفار مع معبوداتهم الباطلة تحقيراً لها وتنفيراً عنها، وإعلاماً للنبي ﷺ وللكفار بشدة ضلالهم وبُطلان عبادتهم لها .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٩ / ٥٨ بزيادة يسيرة جداً .

المطلـــب الثانـــي

تربية القـــرآن للنبي ﷺ بضرب الأمثال لما يُراد توضيحه وتعظيمه وتحبيبه والدفـــع إليـــه

ضرب القرآن الكريم الأمثال للنبي ﷺ ليفهم المراد منها، ويُسمعها كلّ ذي سمعٍ وعقلٍ من المكلفين،وذلك لتصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة ... حتى تبدو وكأنها ماثلة للعيان.

ومن ذلك ما يتعلق بكل خير يُراد دفع الناس إلى القيام به، فضرب مثلاً لكلمة التوحيد التي دعا إليها رسول الله ﷺ مقارنة بكلمة الشرك والكفر (١) ، وضرب مثلاً لحال المؤمنين مع الكفار في الهدي والضلال(٢)،وضرب مثلاً لإنفاق أهل الإيمان ابتغاء وجه الله مقارنة بإنفاق المنافقين رياءً وسمعة(٣)،وضرب مثلاً لنور الله في قلب المؤمن (٤) .

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ... إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم ٢٤-٢٦] ، وقال الشوكاني في تفسيره ٣ / ١٥١ عن الكلمة الطيبة: " وهي كلمة الإسلام، اي: لا إله إلا الله، وقال عن الكلمة الخبيثة: هي كلمة الشرك، وذكر اقوالاً اخرى لمعنى الآية.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود:٢٤] .

(٣) كما في قوله تعالي عن المؤمنين: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ إلى قوله تعالي عن الكفار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ [البقرة :٢٦١-٢٦٤]

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور:٣٥].

ولنأخذ مثلَ الإنفاق في سبيل الله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

فقد ضرب الله هذا المثال لتوضيح أثر الإنفاق في سبيل الله وأجره عنده وعظمة ذلك، وضربه ـ أيضاً ـ ليحبب إلى المؤمنين الإنفاق في سبيل الله ، ويدفعهم إليه ، وغير ذلك من فوائد ضرب الأمثال.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: " هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . . وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة يُنمِّيها الله ـ عز وجل ـ لأصحابها، كما يُنمِّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة. . . " (١) .

وهكذا ، فآيات القرآن تضرب الأمثال ليعيها النبي ﷺ وتسمعها أذنٌ واعية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾[ق : ٣٧] ، فتارة يضربها لإبطال حجج وآلهة الكافرين وبيان عجزهم وضعفهم (٢) ، وتارة يضربها لبيان حال المنافقين في ضلالهم (٣) ، وبطلان أعمال الكفار التي ظاهرها الصلاح ـ وهي بدون أساس الإيمان وعقيدة التوحيد (٤)، وتارة يضربها لبيان عدم انتفاع المرء العاصي أو الكافر بقريبه المؤمن الصالح (٥) ، وتارة يضربها لبيان

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٢٤

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج :٧٣] .

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ [البقرة : ١٧-١٨]

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم: ١٠] .

استحالة التماثل بين شيئين يزعم المشركون أن بينهما جانباً من التماثل[١]"[٢] .

لهذا كله وغيره ضرب الله الأمثال في القرآن ، وحقّق بها عدة معانٍ تربوية للنبي ﷺ بصورة أولية، ولغيره بصورة ثانوية، ومن ذلك:

"تقريب المعنى إلى الأفهام... وإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى، وتربية العواطف الربّانية... وتربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم.. والدفع إلى عمل الخيرات واجتناب المنكرات... فالأمثال القرآنية.. سلاح: بَلاغي عاطفي عقلي، بليغ الأثر، عظيم النتائج، جمٌّ الفائدة" [٣]

---

(١) كما في مثال الذباب الذي عجزت آلهة الكفار أن تخلقه ، فكيف يساوي الكفار هذه الآلهة المزعومة بالله تعالى في استحقاق العبادة ؟! ، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

(٢) أصول التربية الإسلامية للنحلاوي ص٢٤٨-٢٤٩ باختصار.

(٣) نفس المرجع ص٢٥٣-٢٥٤ باختصار.

المبحث الثاني
استخدام القرآن لأسلوب ذكر القصص لتربية النبي ﷺ (نفسياً)

سبق أن شرحتُ خصائص ومميزات القصة القرآنية ﷺ (١) ، والقرآن الكريم قد جعل منها أسلوباً تربوياً نفسيّاً ـ وإن كان فيها جانب من التربية العقلية والإيمانية ـ .

"فهي محبَّبةٌ إلى النفس، . . . وتدفع إلى المحاكاة والتقليد في الأخلاق والأفعال، وقد يصل الأمر بسامعها إلى الانفعال التام لمجريات أحداثها فيترجم ذلك بحزن وبكاء، أو فرح وسرور" (٢)

وفيها عظة وعبرة ـ وخاصةً قصص الأنبياء والمرسلين التي أكثر القرآن الكريم منها ـ فقد قال سبحانه في شأنها وشأن أشخاصها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١].

وأَوْلى الناس بالاتعاظ بها، و أكثرهم انتفاعاً بها هم أهل الإيمان، وفي مقدمتهم محمد ﷺ أرجحهم لُبّاً، وأكملهم عقلاً، فقد قال سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود : ١٢٠] .

والقصة القرآنية لها أغراض ومقاصد عامة، فمن أهم ذلك: " . . . إثبات الوحي والرسالة بالنسبة للنبي محمد ﷺ ، وذلك من خلال ذكر النبي الأمي لقصص السابقين المطابقة لما عند أهل الكتاب كما علّمه الله، وبيان أن الدين كله

---

(١) راجع المطلب الاول من المبحث الثالث في فصل التربية النفسية للنبي ﷺ ، وعنوان المطلب: "سرد قصص بعض الانبياء مع اقوامهم"

(٢) منهج الإسلام في تزكية النفوس ، د. انس كرزون، ١ / ٤٨٣ بتصرف واختصار يسيرين .

من عند الله.. وكذلك تنبيه ابن آدم إلى خطر غواية الشيطان (١) ....." (٢)

تلك بعض أغراضها العامة، أما أغراضها التربوية الخاصة بالنبي ﷺ فهي عديدة ومن أهم ذلك:

(أ) تثبيت النبي ﷺ على طريق الدعوة مهما لاقى في سبيل الله، ومهما طال زمن مؤاذاة الكفار له ببيان ما لاقاه الرسل قبله من الأذى والحرب والمناهضة للحق، حتى جاء وعد الله بنصر المؤمنين وخذلان أعدائهم، قال تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] (٣).

(ب) تبشير النبي ﷺ بقرب انتصار دعوته على الكفار وباطلهم، كما تدل عليه نهاية القصة القرآنية كما في سورة يوسف التي سردت قصته وما لاقاه من بلاء عظيم، ثم قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾ [يوسف: ١١٠].

وكما في سورة الأنعام حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [الأنعام : ٣٤].

(جـ) تعليم النبي ﷺ كثيراً من علوم الغيب، التي يعلمها أهل الكتاب ـ الخاصة بأنبيائهم وصالحيهم ـ فتقوى حُجَّتُهُ عليهم، وتتأكد نبوته لديهم، ويتمكن من دحض باطلهم ومزاعمهم الكاذبة عن أنبيائهم ورسلهم، وغير ذلك من فوائد القصة القرآنية المتلوَّة على محمد ﷺ (٤).

(١) كما ورد في سورة الأعراف آية ٢٧، حيث قال سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ .

(٢) اصول التربية الإسلامية للنحلاوي، ص٢٣٩-٢٤١ باختصار، وهناك فوائد اخرى متعلقة بالمؤمنين لم نذكرها.

(٣) ونلاحظ ان الله تعالى ذكر هذه الآية في نهاية سورة هود بعد ذكره لقصص كثير من الأنبياء والرسل مع اقوامهم تعزية للنبي ﷺ .

(٤) مثل " سرعة استيعابها، وقوة تاثيرها، واستمرار اثرها، وتذكرها مقارنة بالكلام العادي".
انظر: منهج الإسلام في تزكية النفوس، د. انس كرزون، ١ / ٤٨٣ .

(د) تسلية النبي ﷺ بسماع قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين، واستثارة عواطفه، وإيقاظ انتباهه لإعمال عقله فيها ،والتأمل في أحداثها، والغوص في معانيها،بعيداً عن مشاغل الحياة وهمومها،وما يلاقيه النبي ﷺ من متاعب فيها، فلدى كل إنسان ميلٌ لسماع القصص بشكل عام ، فكيف بأحسن القصص التي قصّها الله على رسوله ﷺ، ونَقَلَهُ بها من عالَم الدنيا الحاضر إلى عالم الغيب العجيب؟ ليتفكر فيها، ـ هو وقومه ـ عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

(هـ) تزكية له ﷺ بأخذ العظة والعبرة من أحداثها ومظاهر رحمة الله وعظمته وقدرته في مجرياتها ، وخاصة تلك القصص التي قال الله تعالى عنها: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) ﴾ [الأعراف:١٠١].

فلقد قصّ الله على نبيه ﷺ قصص من كذّب من الأمم الماضية برسلهم، فأهلكهم الله، وقال لنبيه ﷺ : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] (١)، وغيرها من الآيات كثير ، دعا الله رسوله ﷺ فيها إلى أخذ العظة والعبرة منها (٢).

وهكذا استخدم القرآن الأسلوب القصصي في تربية النبي ﷺبالقصة الطويلة، والقصيرة،والمجملة والمفصّلة،والمجموعة والمفرّقة،والمذكورة مرّة واحدةً والمكرّرة (٣).

---

(١) ونحوها في الآية ١٠٣ من نفس السورة، ونحوها في سورة يونس آية ٣٩، ٧٣ .

(٢) كما ورد في سورة النمل آية ١٤،٥١، والقصص آية ٤٠، والصافات آية٧٣، والزخرف آية٢٥، وغير ذلك.

(٣) من فوائد تكرار القصة في القرآن : " ترسيخ المعاني الجليلة.. لتكون ماثلة دائماً أمام أعين المؤمنين بالوان مختلفة وأساليب متفاوتة، وليكون ذلك أدعى لنشاط السامع والقارئ، وأبعد عن السآمة والملل" انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن للديلمي، ١ / ٤١٥ .
وتكرر أيضاً " ليتم تذوق الإعجاز القرآني.. ولإظهار عدة عبر أخرى تكمن وراء الآيات " ، ويتضح هذا من تكرار قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف ١٠٤-١٣٩، وفي سورة النازعات ١٥-٢٦ .
انظر :تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان، ١ / ٦٩٣ .

واستخدم كلّ أنواع القصة: " القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها [١]، والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية ـ قد تتكرر في أي زمان ومكان [٢] ـ ... والقرآن يستخدم ذلك كلّهُ لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، ... والتربية بالقدوة، والتربية بالموعظة" [٣] ولحكم عظيمة ومعان تربوية جليلة.

وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية.. [٤]

وصدق الله القائل ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف : ١١١].

(١) كقصص الأنبياء والمرسلين .
(٢) كقصة ابني آدم .
(٣) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب، ١ / ١٩٤ باختصار .
(٤) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١ / ٦٩٣ .

المبحث الثالث
تربية القرآن للنبي ﷺ بالتشريـــع المتــدرج

من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في تربية الأمة المسلمة ونبيها ﷺ أسلوب التشريع المتدرج من القليل إلى الكثير ، ومن الأسهل إلى الأصعب، ومن العقائد إلى العبادات والمعاملات.

وهكذا في جميع أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالسّلم والحرب والتحليل والتحريم وغير ذلك .

والنبي ﷺ هو أوّل من تربّى على التدرج في أحكام الشريعة الإسلامية ،وكان قدوة لأمته في ترجمة الأحكام إلى واقع عملي ـ سواء فيما خصّه من خطاب الوحي أو عمّه مع أمته، وسأذكر هنا أبرز صورة للتشريع المتدرج المتعلق بالتربية الإيمانية للنبي ﷺ .

وحتى يتضح هذا الأمر رأيت أن أقسم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين .

المطلب الأول

التدرج في التربية الإيمانية للنبي ﷺ في الصلوات الخمس

لا ينكر لبيب أن من أعظم الوسائل لتزكية النفس وسمو الروح ـ بعد التوحيد ـ هي الصلوات الخمس بنوافلها ؛ فهي تزكي النفس وتطهرها وتحصنها من الفحشاء والمنكر، وهي كذلك تمحو السيئات، ويرفع الله بها الدرجات، ولها آثارها الحميدة على صاحبها في الدنيا والأخرى [(١)] إذا ما أدّاها العبد بإخلاص ومتابعة للشرع.

والصلوات الخمس لم تُشرَع دُفعةً واحدة على النبي ﷺ وأمته كما هو حالها الآن ، بل تدرج الشارع الحكيم في تشريعها، ويمكن أن نقسم ذلك إلى المرحلتين التاليتين كما يلي :

المرحلة الأولى: منذ بداية العهد المكي حتى حادثة الإسراء والمعراج:

تدل نصوص القرآن المكي ـ في أول البعثة ـ أن النبي ﷺ كان يصلي لربه صلاةً فيها سجود كما يتضح من قوله تعالى في سورة اقرأ المكية : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٩] [(٢)].

والآيات السابقة التي تمثل المقطع الثاني والأخير من سورة العلق ـ التي كان صدرُها هو أول ما نزل من القرآن ـ مختلفٌ في نزولها عقب الآيات الخمس الماضية مباشرة في صدر السورة نفسها، فقيل: إنها نزلت عقب ما نزل من صدر

---

(١) سبق شرح كل ذلك بالتفصيل ـ وزيادة ـ في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

(٢) وذكر ابن كثير في تفسيره ٤ / ٥٦٥ أن أبا جهل هو الذي حاول منع النبي ﷺ من الصلاة والسجود لربه .

سورة العلق، وقيل: بل نزلت آيات أخرى بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، ثم نزلت هذه الآيات إلى نهاية السورة (١)

وقد ناقش ابن عاشور الأقوال كلها ثم قال: " ... فالوجه أن تكون هذه الآيات إلى بقية السورة قد نزلت بعد فترة قصيرة من نزول أول السورة ما حَدَثَتْ فيها صلاة رسول الله ﷺ ، وفشا فيها خبر بدء الوحي ونزول القرآن..." (٢)
وسواءً نزلت الآيات الأخيرة مع الأولى، أو تأخرت عنها فالكل مكي.

وبناءً على قول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ يمكن القول أن النبي ﷺ كان يمارس صلاةً في أول العهد المكي وفي بداية البعثة.

ويؤكد هذا أكثر من آية مكية (٣) ، وكما يتضح من أمره تعالى لنبيه ﷺ بقيام الليل في أوائل سورة المزمل المكية (٤) ، حيث تُعتبر هذه السورة الثالثة أو الرابعة في ترتيب نزولها ـ على خلاف عند أهل التفسير (٥) ـ هل هي الثالثة أم الرابعة؟.

وكان ﷺ يصلي ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، كما صحَّ في الأحاديث الصحيحة وكتب التفسير (٦) ، وقد سبق شرح ذلك بالتفصيل (٧) .

وليس هذا فحسب، بل لقد أمر الله رسوله ﷺ في العهد المكي أن يأمر

(١) انظر: تفسير ابن عاشور ٣٠ / ٤٤٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٤٤ .

(٣) كما في سورة الأعلى في الآية ١٤-١٥ قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ ﴾ .

(٤) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ [المزمل :١-٤] ، وقد سبق شرح الآيات بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية ، والمفسرون متفقون على أن أوائل هذه السورة مكيٌّ بلا خلاف.

(٥) انظر: تفسير ابن عاشور ٢٩ / ٢٥٤ .

(٦) كما في تفسير الشوكاني لقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر:٥٥] ، وهناك أقوال أخرى.

(٧) راجع ما سبق شرحه في فصل «التربية الإيمانية للنبي ﷺ» المطلب الثالث من المبحث الثاني بعنوان: (المنهج القرآني في تزكية النبي ﷺ بشكل عام).

أهله بالصلاة ،كما يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]. واستمر رسول الله ﷺ على هذا حتى حادثة الإسراء والمعراج حيث أوحى الله إليه بتشريع جديد كما يلي:

المرحلة الثانية: عند حادثة الإسراء والمعراج وما بعدها:

شُرعت الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسَنة، وكانت أوّل ما شُرعت خمسين صلاة، ثم خُفِّفَتْ في نفس الليلة من خمسين إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.

وبهذا تلقّى النبي ﷺ تشريعاً جديداً في صلاته متدرجاً من الأقل إلى الأكثر، ومن الأسهل إلى الأصعب ـ بالنسبة لما كان قبل معجزة الإسراء والمعراج ـ ، وأُقيمت الصلاة أول ما أُقيمت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر وأُقرت صلاة السفر كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ [(١)] ، وقد تعلم النبي ﷺ أوقات وكيفية أداء الصلوات الخمس صُبح ليلة الإسراء والمعراج، حيث أمَّهُ جبريل ـ عليه السلام ـ ابتداءً بصلاة الظهر حتى انتهى من أداء الصلوات الخمس، مُبيِّناً أول وقتها وآخره خلال يومين اثنين [(٢)] ، ثم فرضت صلاة الجمعة بالمدينة في السنة الأولى من الهجرة.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : "...واختُلف في وقت فرضيتها، فالأكثر على أنها فرضت بالمدينة، وهو مقتضى ما تقدم ـ يقصد سورة الجمعة ـ أن فرضيتها بالآية المذكورة [(٣)] ، وهي مدنية" [(٤)] .

---

(١) سبق شرح هذا بالتفصيل في المطلب الثالث من المبحث الثاني من فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ .

(٢) سبق شرح هذا بالتفصيل في فصل التربية الإيمانية للنبي ﷺ في المطلب الثالث من المبحث الثاني وعنوان المطلب : " منهج القرآن في تزكية النبي ﷺ بشكل عام " ، فقرة " أمر الله لرسوله ﷺ بإقامة صلاة الفريضة وقيام الليل " .

(٣) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة : ٩] .

(٤) فتح الباري ٢ / ٣٥٤ .

وهكذا فمن خلال ما سبق اتضح لنا أن الشارع الحكيم تدرّج في تشريع الصلوات الخمس للنبي ﷺ وأمته من بعده كوسيلة من الوسائل التربوية المفيدة المؤثرة ، فبعد أن كانت ركعتين ركعتين، صارت سبع عشرة ركعة بالنسبة للصلاة المفروضة، وإذا أُضيفت لذلك بقية النوافل ، فتكون نحواً من أربعين ركعة في اليوم والليلة. وهذا تدرج من القليل إلى الكثير.

وبعد أن كانت تؤدَّى في ثلاثة أوقات فقط [١] ، صارت تؤدّى في خمسة أوقات بل أكثر من ذلك ـ عند حصول الكسوف والخسوف والاستسقاء وغيرها.

وفي هذا تدرج بالنبي ﷺ وأمته من بعده لتوثيق الصلة بالمسجد وكثرة التردد إليه في اليوم والليلة بما في ذلك من تكرار لقاء العبد بربه، وانتزاعه من مشاغل الحياة الدنيا ومفاتنها.

والتدرج في الصلوات بكثرة أوقاتها إضافة إلى عدد ركعاتها ـ يعني التدرج في الاستعداد لها بوضوء ونحوه، وهذا كله لم يكن ليسهُل على رسول الله ﷺ وأمته لولا حكمة الله بهذا التدرج الحكيم.

---

(١) اي في أوائل العهد المكي حيث كانت تؤدّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفي الليل.
انظر :تفسير الشوكاني لسورة غافر آية ٥٥ .

المطلـــب الثانـــي

التدرج في التربية الإيمانية الجهادية للنبـــي ﷺ

استمر النبي ﷺ في مكة نحو ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله ، ويؤسس لتوحيده، وقد لقي من المشركين ـ هو وأصحابه ـ من البلاء والإيذاء في سبيل الله الكثير، حتى هاجر كثير منهم إلى الحبشة، ثم المدينة.

وكان المسلمون في مكة يعانون من قلة العدد وضعف شوكتهم ولا يقدرون على مناهضة المشركين وقتالهم، فأمر الله رسوله ﷺ بالصبر على أعدائه وعدم مجابهتهم وضرورة الإعراض والصفح عنهم، ولم يأذن له بقتالهم (١) . (٢) .

فلما هاجر إلى المدينة، واشتد ساعد المسلمين وقامت دولتهم، أنزل الله تعالى عليه في سورة الحج المدنية: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج : ٣٩-٤١] . وفي هذه الآيات إشارة من الله لرسوله ﷺ بأنه سيقاتل هو وأصحابُهُ الكفار (٣)

---

(١) اورد ابن عاشور في تفسيره ٥ / ١٢٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ الآية ٧٧ من سورة النساء، ما نصه: " .... وهؤلاء فريق يودون ان يؤذن لهم بالقتال، فلما كُتب عليهم القتال... جَبُنُوا... وسبب القول لهم هو سؤال فريق منهم... قال جمهور المفسرين : إن هذه الآية نزلت في طائفة من المسلمين ، كانوا لقوا بمكة من المشركين أذىً شديداً ، فقالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا اذلة" ، واستاذنوه في قتال المشركين ، فقال لهم : (إني أمرت بالعفو ، فكفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وفُرض الجهاد، جَبُن فريق من جملة الذين استاذنوه في القتال، ففيهم نزلت الآية.

(٢) قد سبق ذكر آيات الصبر والعفو عن المشركين مع شرحها في فصل التربية الاخلاقية للنبي ﷺ .

(٣) اخرج الحاكم في مستدركه ٣ / ٧ ، ووافقه الذهبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال" لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال ابو بكر إنا لله وإنا إليه راجعون، أخرج رسول الله ﷺ ، ليهلكنّ-اي الكفار الذين اخرجوه- قال: فنزلت هذه الآية : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ ٣٩-٤١ من سورة الحج ، ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: عرف ابو بكر انه سيكون قتال " ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

دفاعاً عن أنفسهم، وعن دعوتهم.

وبعدها - في السنة الثانية للهجرة - وقعت عدة حوادث قتل بين المسلمين والكفار، ونزلت فيها عدة آيات من سورة البقرة تتعلق بالقتال في الشهر الحرام(١).

وفي السنة نفسها وقعت غزوة بدر بين النبي ﷺ ومن معه من المسلمين وبين الكفار، ونزلت فيها آيات تتحدث عن هذه الغزوة إلى جانب الحديث عن أحكام الغنائم والأسرى وغير ذلك، حيث نزلت سورة الأنفال (٢) . (٣)

وفي السنة الرابعة للهجرة - عندما نقض بنو النضير عهدهم مع رسول الله ﷺ (٤) ، فحاصرهم وأجلاهم - نزلت عليه سورة الحشر، وفيها: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر :٢] .

وفي السنة الخامسة للهجرة - عندما خرج النبي ﷺ إلى غزوة الخندق، ونقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ فتظاهروا مع قريش وغطفان على قتال

---

(١) من ذلك: ما كان من سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه الذي ابتعثه رسول الله ﷺ لترصد قريش في نخلة بين مكة والطائف. . - والقصة طويلة - والشاهد أنه قام مع سبعة من الصحابة الكرام الذين كانوا معه بقتل أحد رجال قريش وأسر اثنين واستولى على البعير، وذلك في أول يوم من رجب المحرم، ولم يكن عندهم علم بذلك حيث ظنوا أن الشهر لا يزال جمادي آخر، فاستغلّ ذلك المشركون وقالوا: إن محمداً أجاز لأصحابه القتال في الشهر الحرام، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة : ٢١٧] .
انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٢٦٠، وانظر: أسباب النزول للواحدي ص٦١

(٢) ومما نزل في السنة الثانية للهجرة - كما ذهب إليه ابن عاشور في تفسيره ٢٦ / ٧٨ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد : ٤] ، وهناك أقوال أخرى لغير ابن عاشور.

(٣) ومما نزل في السنة الثانية للهجرة في شأن المنافقين قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء : ٨٩] ، وما بعدها، ونزل أيضاً في السنة نفسها سورة الصف وفيها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤] .

(٤) وذلك عندما طلب منهم النبي ﷺ إعانته في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري من بني عامر، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقده لهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فعندما وصل رسول الله ﷺ إلى بني النضير لطلب مساعدتهم في الدية، صعد بعضهم - خفية - إلى الحصن محاولاً إلقاء صخرة فوق رسول الله ﷺ لقتله. انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري ص٢٩٤ .

المسلمين خرج إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم، ثم حكّم فيهم سعد بن معاذ [١] ـ رضي الله عنه ـ الذي حكم فيهم بحكم الله وهو قتل الرجال وتقسيم الأموال وسبى النساء والذراري، فانزل الله قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧] .

وفي السنة السادسة للهجرة في وقعة الحديبية نزل ـ بعد سورة الفتح ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) ﴾ [البقرة:١٩٠-١٩٢] [٢] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "نزلت في شان الخروج إلى المدينة ، ونزولها يُنبئ بأن المشركين كانوا قد أضمروا صدَّ النبي ﷺ والمسلمين ـ أي عن المسجد الحرام ـ ، ثم أعرضوا عن ذلك لمَّا رأوا تهيؤ المسلمين لقتالهم" [٣] .

والملاحظ من هذه الآيات أن الله تعالى إنما أمر المؤمنين بقتال الكفار إذا بدأ الكفار بقتال المسلمين واعتدوا عليهم.

ثم بعد أن أمر الله المسلمين بذلك أتبع الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الاشهل، السيد الكبير الشهيد، أبو عمرو الانصاري الاوسي، الاشهلي، البدري، الذي اهتز العرش لموته، سيد الاوس، أستشهد من سهم اصابه بالخندق ، ومناقبه كثيرة، وكان إسلامه على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، شهد أحُداً فكان ممن ثبت فيها ، توفي في السنة الخامسة للهجرة، وعمره سبع وثلاثون سنة، ودُفن بالبقيع ، انظر طبقات ابن سعد٣ / ٢ القسم الثاني، وسير أعلام النبلاء١ / ٢٧٩ وما بعدها، وتقريب التهذيب ١ / ٣٤٦ ترجمة رقم ٢٢٦٢ .

(٢) حيث قال ابن عاشور عن الآية في تفسيره ٢ / ٢٠٠ : "وهذه الآية اول آية نزلت في القتال"، ولعله يقصد اول آية نزلت تامر بقتال الكفار صراحة بعد وقعة الحديبية.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ٢٠٠ بزيادة يسيرة جداً .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : " هذا أمر بقتل من يُعثَر عليه منهم، وإن لم يكن في ساحة القتال؛ فإنه بعد أن أمرهم بقتال من يقاتلهم عمّم المواقع والبقاع، زيادة في أحوال القتل، وتصريحاً بتعميم الأماكن.. ليكون المسلمون مأذونين بذلك، فكل مكان يحلُّ فيه العدو فهو موضع قتال" (١) .

" ثم أتبعها الله بآية أخرى قال سبحانه فيها: ﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)** ﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٢].

بمعنى أن الله تعالى لم يأذن للمسلمين بقتال الكفار عند المسجد الحرام حتى يبتدئ الكفار ذلك ، فإن لم يفعلوا ذلك فلا يحق للمسلمين قتالهم في هذا المكان المحرَّم ؛ حيث خصَّ المكان عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة التي شملها قوله تعالى: ﴿ **حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ أي إن ثقفتموهم عند المسجد الحرام غير مشتبكين في قتال معكم فلا تقتلوهم.. فاقتضت الآية منع المسلمين من قتال المشركين عند المسجد الحرام... (٢) " (٣)

وفي السنة السابعة للهجرة، أنزل الله على رسوله ﷺ سورة النساء وفيها: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ** ﴾ [النساء : ٧٤](٤) . وفيها: ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[النساء: ٨٤](٥).

---

(١) تفسير ابن عاشور ٢ / ٢٠١ .

(٢) تفسير ابن عاشور ٢ / ٢٠٣ .

(٣) وبقية الآيات: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة ١٩٣-١٩٤] .

(٤) وذكر ابن عاشور في تفسيره ٤ / ٢١١-٢١٢ اختلاف أهل التفسير في وقت نزول الآية، ثم قال- بعد مناقشة آرائهم - : " ...فالذي يظهر لي أن نزول سورة النساء، كان في حدود سنة سبع ، وطالت مدة نزولها ..." واستشهد على ذلك بعدة استشهادات تؤيد قوله.

(٥) قال ابن عاشور في تفسيره ٥ / ١٤٣ : " ...فالآية أوجبت على الرسول ﷺ القتال ، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه... " .

وفي السنة التاسعة للهجرة أنزل الله على رسوله ﷺ براءة وفيها ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥] .

■ وفيها: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ⑫ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ [التوبة:١٢-١٣] .

■ وفيها: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة:١٤] .

■ وفيها: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة:٢٩].

■ وفيها: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾[التوبة:٣٦]

وغير ذلك من الآيات التي دعت الرسول ﷺ والمؤمنين لقتال الكفار وجهاد المنافقين وأكّدت على ذلك (١)

من خلال ما سبق من آيات تشريع القتال في سبيل الله تتضح لنا حكمة العليم الحكيم في تربية النبي ﷺ التربية الجهادية القتالية في مواجهة الكفار بأسلوب متدرج من الأسهل إلى الأصعب، ومن الموادعة إلى المواجهة ، ومن الدفاع عن النفس إلى قتال من يقاتله، ومن المقاتلة لمن يقاتله إلى قتال الكافة ، ومن الجهاد باللسان إلى القتال بالسّنان، ومن محاربة العرب إلى مواجهة العجم، ومن القتال في أرض الجزيرة العربية للانتقال إلى خارجها، وغير ذلك من صور وأنواع التدرج في تربية النبي ﷺ جهادياً كمّاً وكيفاً، بعد أن انتقلت دعوته من مبدأ تحمله جماعة إلى رسالة يحملها مجتمع بأكمله، ومن مجتمع إلى دولة ذات نظام ورجال وأموال وقادة .

فما عاد ﷺ يقدم شيئاً من التنازلات بعدها، وما عاد بحاجة للصبر والصفح، بل أمره الله بالدفاع عن المستضعفين والاعتداء على المعتدين، وإن كان سيعفو

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] .

فإنما هو العفو عند المقدرة ، كما حصل في فتح مكة وغيرها .

إننا نجد " أن تشريع الجهاد في المدينة المنورة كان سبباً في قيام معالم حياة الأمة الإسلامية في جوانبها المختلفة، وتحديد الروابط الاجتماعية بين المسلمين والكفار، وقيام السلطان السياسي لدولة الإسلام . . " (١)

وبعد أن استعرضنا مراحل تشريع الإسلام لأهم ركن عملي من أركانه ـ ركن الصلاة ـ ، ولأعلى ذروة سنامه ـ الجهاد في سبيل الله ـ بالتدرج على النبي ﷺ بصورة أوّلية، والصحابة الكرام ومن بعدهم بصورة ثانوية، يمكن القول أن : أسلوب التشريع المتدرج في أحكام الشريعة الإسلامية (٢) يُعتبر من أهم أساليب التربية على التزام العبادات البدنية أو المالية أو البدنية المالية .

"فقد اقتضت الحكمة الإلهية ألا يفجأ النبي ﷺ بالأحكام الشرعية جملة واحدة تُثقّل كاهله، وقد تَنْفُر منها نفسُه، ولهذا نزل القرآن نجوماً، ووردت الأحكام التكليفية شيئاً فشيئاً ؛ ليكون السابق من الأحكام مُعداً لنفس النبي ﷺ ومُهيأً لها لقبول اللاحق منها" (٣) .

ويكون اللاحق منها مؤكداً ومرسّخاً ومفصلاً لما سبق كما يتضح من خلال استقراء الأحكام الشرعية في المرحلة المدنية التي تلت المرحلة المكية .

وبعد . . فنكون من خلال هذا الباب ـ الثالث والأخير ـ الذي شرحتُ فيه الأساليب التربوية القرآنية للنبي محمد ﷺ ـ نكون قد وصلنا لنهاية هذه الرسالة التي تناولت فيها (التربية الربّانية القرآنية للنبي محمد ﷺ) . في جوانب أربعة من شخصيته وذاته حيث شَمَلتْ : ـ

الجانب العاطفي : في فصل (التربية النفسية للنبي ﷺ) .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي لمناع القطان ـ رحمه الله ـ ص٥١ بتصرف يسير.

(٢) ومن ذلك : الصيام والزكاة، وتحريم الخمر وغيره .

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد علي السايس ص٥٣ بتصرف وزيادة.

والجانب الفكري : في فصل (التربية العقلية للنبي ﷺ) .

والجانب الروحي : في فصل (التربية الإيمانية للنبي ﷺ) .

والجانب السلوكي : في فصل (التربية الأخلاقية للنبي ﷺ) .

وخرجتُ بعد ذلك كله بنتائج مهمة من هذا البحث، وبناءً عليها كانت التوصيات والمقترحات ، وهذا ما أختم به هذه الرسالة في الخاتمة كما يلي .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث الذي عشت معه ما يقرب من سنتين ونصف السَنة تقريباً، حيث أكرمني الله من خلال ذلك بالعيش مع كلامه ـ خير الكلام ـ وسيرة نبيه ﷺ خير الأنام ـ وفَهم كثير من معاني آيات القرآن الكريم وتفسيرها ـ رواية ودراية ـ خاصة تلك المتعلقة بتربية النبي ﷺ نفسياً وعقلياً وخلُقياً وإيمانياً، أحب أن أؤكد ـ قبل عرض النتائج أن تربية الله لنبيه ﷺ خلال فترة النبوة والرسالة أصبحت حقيقة تاريخية واقعية ثابتة لا تحتاج إلى دليل، فهي أوضح من الشمس في رابعة النهار، إلا أن فائدة العلم بذلك تكمن في كيفية الاستفادة والإفادة من هذا المنهج في تربية الذات والغير من الصفوة والعامة، وخاصةً في بيئة المسلمين الحالية زماناً ومكاناً التي شهدت صحوة إسلامية مباركة تشير إلى بوادر خلافة إسلامية راشدة ـ مرتقبة بإذن الله ـ وعلى منهاج النبوة، نسأل الله أن يبلغنا ذلك، وأن يجعلنا من جنودها.. أمين.

أما أهم النتائج التي توصلّت إليها في هذا البحث فهي:

[١] أن البشرية في حاجة ماسة إلى هَدْي الإسلام وإلى التربية والتزكية القائمة على منهاجه ـ مهما بلغت في التقدم العلمي والمادي ـ وذلك لإخراجها من الضلال والشقاء إلى الهدى والسعادة والنور، وهذا لا يكون إلا بآيات القرآن وسيرة النبي العدنان ﷺ ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر : ٢٣] .

[٢] أن الصراع بين الحق وأهله وبين الباطل وحزبه صراع قديم متجدد ؛ فهو سُنَّة جارية من سُنن الله الكونية منذ خلقَ آدم وإبليس حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وبالتالي لابد لكل من يحمل رسالة الحق ـ التي حملها الأنبياء

والرسل - من دعاة وعلماء ومن يحذو حذوهم من تربية قرآنية شاملة، فهم معرَّضون لما أصاب سيد الخلق ﷺ من ابتلاءات وفتن ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [البقرة:٢١٤] .

[٣] أن التربية الربّانية القرآنية المطلوبة لأفراد الأمة الإسلامية تحتاج إلى ربانيين من القيادات الإسلامية يقومون بها على أحسن وجه وأكمله تربّوا على مائدة القرآن ، وتخلّقوا بأخلاق النبي ﷺ ، ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

[٤] أن التربية القرآنية للذات والغير تحتاج إلى زمن وتدرج وثبات واستمرار وصبر ومصابرة لمن يربي نفسه وغيره حتى تؤتي ثمارها في تطهير النفس وتزكيتها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ ﴾ [الشمس: ٩] ، وفي الظفر بالنجاة من الخسارة في الدارين ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] .

[٥] أن التربية القرآنية لأفراد الجماعات الإسلامية وسائر الأمة المسلمة تحتاج لاستخدام الأساليب والوسائل - الحكيمة المباشرة وغير المباشرة - التي استخدمها القرآن في تربية النبي ﷺ .

[٦] أن هناك من الصفات الخَلْقية والخُلُقية والمنَح الربّانية ما يكرم الله بها بعض خلقه، إعداداً لهم قبل اصطفائهم وإكرامهم بحمل هذا الدين العظيم ، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: (**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيهم راحلة**) [1].

[٧] ما دام القرآن موجوداً بيننا ومحفوظاً بحفظ الله القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر:٩] ، وما دامت سُنَّة رسول الله ﷺ

(١) رواه ابن ماجة في سننه برقم ٣٩٩٠، والبيهقي في السُنن الكبرى برقم ٣٩٩٠ .

مدوّنة مخدومة على أحسن وجه وأكمله، سهلة المنال، فلم يعد هناك عذر لدعاة الإسلام وعلمائه وأبناء المسلمين إذا قصّروا في تربية ذواتهم، ولم يقوموا بدعوة غيرهم من العصاة والكفار إلى التزام هذا الدين والتأدب بآدابه والاحتكام إلى أحكامه.

[٨] لا ينبغي للعاملين للإسلام أن يقعوا في يأس أو شك من أن العاقبة للمتقين، ما دامت آيات الوعد بالنصر والغلبة على الكافرين تُتلى عليهم بكرة وعشياً، مهما أحدقت الفتن والظلمات بالإسلام والمسلمين ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾. [الصافات: ١٧١-١٧٣].

[٩] لا يليق بالدعاة المخلصين أن يدفعهم رفض بعض الناس لدعوتهم، أو تأخرهم عن قبولها، أو إيذائهم والنيل منهم، أو قتلهم، إلى فقد الثقة بالحق الذي يحملونه ويدعون إليه، أو التقصير في البلاغ المبين، أو المهادنة على حساب الدين، أو التخلي عن العمل مع رب العالمين؛ فلهم في رُسُل الله وأولهم محمد ﷺ أسوة حسنة ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وليتذكروا دائماً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج: ٣٨]، فمعية الله تظلهم، وولايته في كل وقت وحين معهم ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ٦٢].

[١٠] اتضح وتأكد من خلال آيات القرآن أن أعداء الحق وأهله عندما تُدحض حجتهم ويُزهق باطلهم يلجئون إلى إثارة الشبهات الباطلة حول الحق ودعاته وما يدعون إليه، ويدأبون على التشكيك في نواياهم وسلامة عقولهم، وكذب أقوالهم، والانتقاص والسخرية منهم، ليفقد الناس الثقة

بهم وبما يدعون إليه ، وقد يلجئون إلى استخدام الإغراء حيناً، أو التهديد طوراً آخر، فيجب على العاملين للدين الثبات ودوام الاعتزاز بما أكرمهم الله به، وليكن لسان حالهم ومقالهم :اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

[١١] إن في استجابة الله تعالى لدعوات النبيﷺ بهداية أفراد وعشائر، ونصر الإسلام والمسلمين في بدر وغيرها، ما يحملُ الدعاة إلى الله على بذل الوسائل واتخاذ الأسباب المعنوية الروحية الموصّلة إلى هداية الخلق دون الاقتصار على الأسباب المادية مع عدم إهمالها ، فيتضرعون إلى الله ويدعونه أن يهدي المدعوّين ، ويتوسّلوا إليه بصالح أعمالهم بأن يسددهم في دعوتهم إياهم ويثبتهم ويشرح صدورهم وييسر أمورهم، وليكن قدوتهم في ذلك موسى ﷺ عند ذهابه إلى فرعون لدعوته إلى الله ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه : ٢٥-٢٨] .

[١٢] تبيّن من خلال آيات القرآن أن استعراض قصص الأنبياء وتدبرها، وتذكر بعض الحقائق المتعلقة بمشيئة الله في هداية الكفار وضلالهم لها أثر عظيم في ثبات الدعاة على طريق الدعوة، وعدم الإفراط في الحزن على كفر الكفار، وضرورة الصبر الجميل على الدعوة والمدعوين.

[١٣] اتضح أنه لا بد من رفد الصبر الجميل على الدعوة والمدعوين بالعبادات التي تعين على ذلك من صلاة ودعاء وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر ، وذكر لله واستعانة به واستغفار له...الخ.

[١٤] لابد للدعاة والمربين من الاستمرار في القراءة والتعلم والتفقه في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية،والحذر من اقتفاء مالا علم لهم به حتى تكون دعوتهم لدين الله على حكمة وبصيرة كما قال تعالى آمراً نبيه ﷺ أن

يعلن ذلك للناس أجمعين : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف :١٠٨] .

[١٥] تأكد من خلال آيات القرآن رفض الإسلام للتقليد للغير وإنكار تجميد العقول، وضرورة توظيفها في النظر إلى آيات الله النفسية والكونية والقرآنية، واستغلالها في النافع المفيد للذات والغير في الدنيا والأخرى، وذلك لتتم تربية العقل واستثمار هذه النعمة فيما يفتح البصيرة على كل ما فيه عظة وعبرة.

[١٦] إن للقرآن الكريم منهجاً خاصاً متميزاً في توظيف مَلَكات العقل من فهم وحفظ وتذكر وتفحص واستدلال واستقراء وغير ذلك، يتضح من خلال تأصيله للمنهج العلمي الصحيح في التفكير السليم ودراسة الحقائق، حتى لا تضلَّ العقول وتزيغ عن الجادة، أو تصل إلى نتائج خاطئة ، بسبب سلوكها أساليب غير صائبة ومناهج ضالة في معرفة الحقيقة والاستدلال عليها أو بها.

[١٧] تبيّن من خلال التربية الإيمانية للنبي ﷺ في المرحلتين المكية والمدنية أنها أول وأهم ما يجب على الدعاة والتربويين السعي إليه لذواتهم وغيرهم، وبقدر استقامة الإيمان في القلب يستقيم الإنسان في الحياة وتصلح بقية جوارحه في كل مجالاتها (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**) [١] ، وليكن أول ما يسعى الدعاة إلى تحقيقه وتقويته من جوانب الإيمان هو العقيدة الصحيحة التي بناءً عليها تكون العبادات السليمة، والأساس الذي تتفرع عنه الجزئيات، والأصل الذي ترتبط به الفرعيات، والركن الذي يثمر شعب الإيمان.

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد برقم ٢٣، وابن ماجة برقم ٣٩٨٤ .

[١٨] لا يمكن تحقيق اكتمال عبودية المرء لربه، ولا ثباته على الحق ، إلا باستمرار وتكثيف التربية الإيمانية إصلاحاً للذات ودعوة للغير، وذلك من خلال الاهتمام بعبادات القلب واللسان والجوارح بشكل عام.

[١٩] لا تكتمل تربية المرء لنفسه أو لغيره بصورة صحيحة شاملة إلا بالاهتمام بالجانب الأخلاقي الاجتماعي ، وخاصة لمن تبوأ مكان الصدارة في الدعوة والقيادة أو المواجهة، وبناءً عليه فيلزم على الدعاة والمربين ألا يهملوا الجانب السلوكي الأخلاقي من إعطائه حقه التربوي لينجحوا في مخالطة الناس والتعامل معهم، والدعوة لضالهم، والقيادة لجموعهم، والمواجهة لأعدائهم.

[٢٠] وَصَفَ الله رسوله ﷺ بخلال حميدة، من أهمها وأعظمها الخلق العظيم، وخاطب أهل الإيمان من أتباعه ﷺ قائلاً لهم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وبناءً على ذلك فأوْلى المؤمنين باتباع هدي النبي ﷺ في حُسن خلقه، هم المربون والدعاة والعلماء ومن حذا حذوهم استجابةً لحث الله لهم، وترجمةً لما يحملونه ويدعون إليه من قيم وأخلاق إسلامية عالية ، فهم القدوة الحيّة للناس أجمعين بعد رسول الله ﷺ والأنظار متجهة إليهم بعين فاحصة.

[٢١] صاغ القرآن الكريم بآياته العظيمة النبيّ ﷺ صياغة ربّانية شاملة كاملة شملت ما يتعلق بذاته من نفس وروح وعقل، وما يتعلق بتعامله مع غيره من أخلاق وسلوكيات، دون تقصير أو تجاوز، وبالتالي فالواجب على الدعاة والمربين انتهاج هذا الشمول والكمال دون المبالغة في جانب على حساب آخر، وذلك لتكتمل التربية على الوجه الشامل والصحيح على منهاج القرآن وسُنَّة النبيﷺ .

التوصيات والمقترحات:

نظراً لما أثمرته التربية الربانية القرآنية للنبي محمد ﷺ من تربية له على أحسن وجه وأكمله، حتى أهدت للعالم وأتحفته بأفضل الخلق على الإطلاق ـ من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ـ فإنني أوصي العاملين الصادقين في مجال التربية والتعليم، والدعاة المخلصين في ميدان الدعوة والتوجيه والإرشاد، والمربين في كل الجماعات والحركات الإسلامية، أوصيهم جميعاً بانتهاج نهج القرآن الكريم في التربية الربّانية الحكيمة الشاملة الكاملة المتدرجة، وتتبع الخطى التي سار عليها رسول الله ﷺ في تطبيق منهج الله تعالى، دون التزحزح عن ذلك قيد أنملة فلا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا يقدمون الأهواء على الصراط المستقيم ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٥-١٦] .

كما أوصي الباحثين وأهل العلم من التربويين بمزيد من التعمق في دراسة مقاصد وأهداف آيات القرآن الكريم التربوية، وأساليبها الحكيمة في ذلك، وإشباع هذا الموضوع بما يُجلي عظمة القرآن في تحقيق هداية الإنسان لأحسن الأخلاق والأعمال، ويحقق الاستفادة منه في ميدان التربية قدر الإمكان.

وإني ـ وإن كنت قد تناولت في هذا البحث منهج القرآن في تربية النبي ﷺ نفسياً وعقلياً وإيمانياً وأخلاقياً في أكثر من ثمانمائة آية ـ فهناك آيات كثيرة تتعلق بتربية النبي ﷺ في ميدان الدعوة والبلاغ المبين، لم أتعرض لدراستها ، تحتاج لجمع ودراسة وتحليل واستنتاج لمعرفة منهج القرآن في تربية الني ﷺ دعوياً في مكة والمدينة في مرحلتي الدعوة والدولة، فاقترح على الباحثين وأدعوهم لإنجاز ذلك لتكتمل هذه الدراسة في معرفة منهج القرآن ـ أعظم كتاب ـ لتربية أعظم شخصية عرفتها البشرية ـ محمد ﷺ .

وحتى يتمكن الباحثون في جامعة صنعاء ـ كلية الآداب، قسم الدراسات الإسلامية ـ من إنجاز بحوثهم على أحسن وجه وأكمله دون معوقات وصعوبات، فإني أوصي القائمين على إدارة الدراسات العليا والمعنيين بوضع المنهج الدراسي للسنة الأولى للتمهيدي للماجستير باعتماد مقرر دراسي يُعرّف الطالب بأمهات كتب الحديث ـ ومصادره ومراجعه وفهارسه ـ ومناهج مؤلفيها في تاليفها، وكيفية استخراج الحديث وتحقيقه والحكم عليه، وضرورة تدريب الباحث على ذلك عملياً كما هو معمول به في بعض الجامعات الأخرى.

كما أوصيهم أيضاً باعتماد مادة دراسية تعرّف الطالب أيضاً بكتب التراجم والأعلام، ومناهج مؤلفيها في صياغتها ـ وخاصة ما يتعلق بالوفيات والطبقات ـ وكيفية استخراج التراجم منها.

وأوصي الجامعة أيضاً بتوفير مكتبة مستقلة خاصة بقسم الدراسات الإسلامية، مزوّدة بأحدث الوسائل العصرية التي تخدم الباحث من كمبيوتر وإنترنت وميكروفلم وغير ذلك من المراجع العلمية المبرمجة عبر أشرطة الحاسوب..الخ.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله علي محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين.. آمين..

الباحث

رشيد منصور محمد الصباحي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : الكتـــب :

■ القرآن الكريم .

[١] الإتقان في علوم القرآن،للعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩- ٩١١هـ) ، مكتبة المعارف ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ ، الرياض ـ السعودية .

[٢] الأحرف السبعة للدكتور حسن ضياء الدين ، دار البشائر الإسلامية ، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ ، بيروت ـ لبنان .

[٣] الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان تأليف الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي السجستاني (ت ٣٥٤ هـ) ترتيب على بلبان الفارسي(ت ٧٣٩هـ) تحقق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م ، بيروت لبنان .

[٤] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم ، ط١ ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، بيروت ـ لبنان .

[٥] أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنّة «رسالة دكتوراه » ، لأحمد بن عبد العزيز الحداد ، دار العرب الإسلامي ، جدة، السعودية .

[٦] أخلاق النبي ﷺ وآدابه للحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني (٢٧٤ - ٣٦٩ هـ) تحقيق د / صالح بن محمد الونيان ، دار المسلم ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م ، الرياض ، السعودية .

[٧] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن على محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ) - ، تحقيق مصطفى السقا، دار الريان للتراث ، ط١ ، ١٤٠١هـ ، بيروت ـ لبنان .

[٨] إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١ هـ) ، إشراف محمد زهير الشاوش ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٢ م ، بيروت لبنان .

[٩] أزواج النبي ﷺ للإمام محمد يوسف الصالحي الدمشقي (ت ٩٤٢ هـ) ، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، دار بن كثير ، ط١ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م دمشق ، سوريا .

[١٠] أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري(ت٤٦٨هـ) ، تحقيق أيمن صالح شعبان ، دار زمزم، ط (بدون)، د ت،الرياض ، السعودية .

[١١] أُسد الغابة في معرفة الصحابة لأبي الحسن عز الدين على بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، تصحيح الشيخ عادل الرفاعي ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م ، بيروت لبنان .

[١٢] الإسلام ونبي الإسلام للشيخ محمد بن رزق طرهوني السلمي .

[١٣] الإصابة في تمييز الصحابة ، لأحمد بن على بن حجر العسقلاني (٧٧٣–٨٥٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ، دت ، بيروت ــ لبنان .

[١٤] الإصابة في تمييز الصحابة لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) وبذيله كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق د / طه محمد الزيني ، مكتبة ابن تيمية ، ط (بدون) ١٤١٤هـ١٩٩٣م القاهرة ، مصر .

[١٥] أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ ــ١٩٨٣ م ، دمشق ، سوريا .

[١٦] اضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ) مكتبة ابن تيمية ، ط (بدون) ، ١٤١٣هـــ١٩٩٢ م القاهرة ــ مصر .

[١٧] إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لمحمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١- ٧٥١ هـ) ، تحقيق عصام الدين الصبابطي ، دار الحديث ، ط١ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ، القاهرة ـ مصر .

[١٨] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٥٧١ هـ) ، تصحيح وتحقيق محمد عفيفى ، المكتب الإسلامي ط٢ ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٩٨م ـ بيروت ـ لبنان .

[١٩] الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ) ، شرح عبد علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية ، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، بيروت ـ لبنان .

[٢٠] إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الانباء والأموال والحفده والمتاع ، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، وتصحيح وشرح محمود محمد شاكر ، دار الأندلس ، ط (بدون) ، د.ت ، جدة ـ السعودية .

[٢١] إنباه الرواة على أنباه النحاة ، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٢٤ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، ١٤٠٦ ـ هـ١٩٨٦ م ، بيروت ـ لبنان.

[٢٢] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر محمد الشيرازي (ت ٦٨٥هـ) دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ بيروت لبنان .

[٢٣] الأنوار في شمائل النبي المختار ﷺ ، لمحي السُّنَّة الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٢ـ٥١٦ هـ) تحقيق العلامة إبراهيم اليعقوبي،دار المكتبي،ط٢،١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م ، دمشق ـ سوريا .

[٢٤] الإيمان ، لاحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١ـ٧٢٨ هـ) ، خرَّج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، بيروت ـ لبنان .

[٢٥] الأذكار ،لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) ، تحقيق وتخريج وتعليق عبد القادر الارناؤوط، دار الهدى، ط٣ ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠ ، الرياض ـ السعودية

[٢٦] الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ٦، ١٩٨٤م ، بيروت ـ لبنان .

[٢٧] البحر المحيط لأبي محمد بن يوسف الأندلسي (٦٥٤ ـ ٧٤٥ هـ) ، دراسة وتحقيق الشيخ عادل بن أحمد عبد الموجود، وآخرون ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ، بيروت ـ لبنان .

[٢٨] بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (٦٩١ - ٧٥١هـ) ، جمع وتوثيق وتخريج: يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ، الدمام ـ السعودية .

[٢٩] بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) ، تحقيق عبد الله صديق الغماري ، ط (بدون) د . ت ، بيروت لبنان .

[٣٠] البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١ـ ٧٧٤ هـ) ، تدقيق وتحقيق د/ أحمد أبو ملحم وأخرون ، دار الريان ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، الرياض ـ السعودية ـ .

[٣١] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،للعلامة محمد بن على الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، مكتبة ابن تيمية ، ط (بدون) ،د.ت ، القاهرة ـ مصر.

[٣٢] البرهان في تجويد القرآن ،للشيخ محمد الصادق قمحاوي ، المكتبة الثقافية، ط (بدون) ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ، بيروت ـ لبنان .

[٣٣] البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ ـ ٧٩٤ هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، ط٢ ، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢ م ، بيروت ، لبنان .

[٣٤] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ) تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية ، ط (بدون) ، د . ت ، بيروت ـ لبنان .

[٣٥] البيان القصصي في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم عوضي ، دار الأصالة ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م الرياض ـ السعودية .

[٣٦] البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ(١٥٠ـ ٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، ط٤ ، د . ت ، بيروت ـ لبنان

[٣٧] التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية لمحمد عز الدين توفيق ، دار السلام ، ط١ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ، القاهرة ـ مصر .

[٣٨] تاج العروس للسيد محمد مرتضى الحسين الزبيدي (ت ٦١٨ هـ) تحقيق إبراهيم الترزي وعبد الستار أحمد فرج،دار إحياء التراث العربي، ط (بدون) ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م ، بيروت ـ لبنان

[٣٩] تاج اللغة وصحاح العربية المُسَمَّى الصحاح لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٨ هـ) بحواشي عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي (ت ٥٨٢هـ) ، وكتاب الوشاح للتادلي أبي زيد عبد الرحمن المغربي (ت١٢٠٠هـ) مكتبة الرشد في الرياض، دار إحياء التراث العربي، ط١ ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٩٩م.

[٤٠] تاج اللغة وصحاح اللغة العربية المسمى الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ، بيروت ـ لبنان .

[٤١] تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (٧٣٢ـ ٨٠٨ هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ، بيروت ـ لبنان .

[٤٢] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (عهد الخلفاء الراشدين) (حوادث ووفيات ١١–٤٠هـ) ، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق د/عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م ، بيروت ـ لبنان

[٤٣] تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ) ، تحقيق الشيخين : قاسم الشماعي ومحمد العثماني ، دار القلم ، ط١ ،١٤٠٦– ١٩٨٦م ، بيروت .

[٤٤] تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد على السايس ، دار الفكر ، ط١ ، ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م ، بيروت ـ لبنان .

[٤٥] تاريخ بغداد او مدينة السلام ، للحافظ أبي بكر أحمد علي الخطيب البغدادي (٣٩٢– ٤٦٣هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) د .ت ، بيروت ـ لبنان .

[٤٦] التبيان في أقسام القرآن ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد شريف ، دار إحياء العلوم ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م ، بيروت ـ لبنان.

[٤٧] تذكرة الحفاظ لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ دار الكتب العلمية ط (بدون) ، د ت ، بيروت ـ لبنان .

[٤٨] التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا،للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ، طبعة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط٢ ،١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م.

[٤٩] تربية الأولاد في الإسلام، للشيخ عبد الله علوان ، دار السلام ، ط٨ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، القاهرة ـ مصر .

[٥٠] التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، للدكتور أكرم ضياء العمري.

[٥١] تربية الناشئ المسلم ، للدكتور/ علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء ، ط٣ ، د .ت، المنصورة ـ مصر .

[٥٢] التربية بالحوار لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر ،ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م ، بيروت ـ لبنان .
[٥٣] ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، جمع عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس ، دار الهجرة ،ط١ ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١ م ، الرياض ـ السعودية .
[٥٤] الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ) ،ضبط مصطفى محمد عمارة ، دار الحديث ، ط(بدون)،١٤٠٧هـ -١٩٨٧م ، القاهرة ـ مصر .
[٥٥] الترهيب في الدعوة في القرآن والسُّنَّة (رسالة ماجستير) لرقية بنت نصر الله نياز ، دار إشبيليا ، ط١، ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م الرياض ـ السعودية .
[٥٦]تسهيل النظر وتعجيل الظفر لأبي الحسن على بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت٤٥٠هـ) ، تحقيق: محي الدين السرحان ، ط (بدون) ، ١٩٥٣م ، بيروت ـ لبنان .
[٥٧] التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد جزي الكلبي (ت٧٤١هـ) ، ضبط وتصحيح وتخريج محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م ، بيروت ـ لبنان .
[٥٨] التعريفات لعلى بن محمد الشريف الجرجاني (٧٤٠-٨١٦ هـ) ، تحقيق وتعليق د/ عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب ، ط١، ١٧٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان .
[٥٩] تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، (٨٩٨ ـ ٩٥٢ـهـ) ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، ط بدون، د. ت ، مصر.
[٦٠] تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٣ ـ ٥١٠ هـ) ، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة ، ط٢ ، ١٩٩٣م الرياض ـ السعودية .

[٦١] تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١٢٩٦ - ١٣٩٣هـ ، الدار التونسية للنشر ، ط١ ، ١٩٨٤م ـ تونس .

[٦٢] تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) ، تصحيح وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م ، بيروت ـ لبنان .

[٦٣] تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢- ١٣٥٤ هـ)، دار المعرفة،ط (بدون)، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان .

[٦٤] تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٠١- ٧٧٤ هـ) ، دار المعرفة ، ط ٦ ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م ، بيروت ـ لبنان .

[٦٥] تفسير القرآن العظيم للحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (٢٤٠-٣٢٧ هـ) تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية ، ط٢ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م ، صيدا ـ بيروت .

[٦٦] تفسير القشيري المسمى لطائف الإرشادات للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي (٣٧٦ ـ ٤٦٥ هـ) ، تعليق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن،دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ، بيروت ، لبنان .

[٦٧] التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (٥٤٥- ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، بيروت ـ لبنان .

[٦٨] تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي ، دار إحياء التراث العربي ، ط (بدون) د . ت ، بيروت ـ لبنان .

[٦٩] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، ط ١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م ، بيروت ـ لبنان .

[٧٠] التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، ط٢ ، ١٣٩٦ هـ ، مصر .

[٧١] تفسير وبيان مفردات القرآن لمحمد حسن الحمصي، دار الرشيد، ط (بدون) ، د . ت ، دمشق ـ سوريا .

[٧٢] تقريب التهذيب ، للحفاظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ـ ٨٥٢ هـ) ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد الحفيظ عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) ، بيروت ـ لبنان .

[٧٣] التقوى، لصلاح الدين مارديني ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م بيروت ـ لبنان .

[٧٤] تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ) اعتنى بتصحيحه: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني ، دار المعرفة ، ط (بدون) ، د . ت ، بيروت ـ لبنان .

[٧٥] تمام المنة في التعليق على فقه السُّنَّة لمحمد ناصر الدين الألباني(ت ١٤٢١هـ) دار الراية ، ط٣ ، ١٤٠٩ هـ ، الرياض ـ السعودية .

[٧٦] تهذيب الأسماء واللغات ، لأبي زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ، د .ت بيروت ـ لبنان .

[٧٧] تهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني،(ت٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، ط (بدون) ، ١٣٢٥هـ ، دار صادر ـ بيروت ـ لبنان .

[٧٨] تهذيب تاريخ دمشق الكبير لأبى القاسم على بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) تهذيب وترتيب الشيخ عبد القادر بدران المتوفى عام ١٣٤٦هـ ، دار المسيرة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ، بيروت ، لبنان .

[٧٩] تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن، لمحمد بن عمر بن سالم بازمول ، دار الهجرة ، ط١ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م الرياض ـ السعودية .

[٨٠] التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المنّاوي ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان مطبعة القاهرة، ط(بدون)،١٤١٠هـ ،القاهرة ـ مصر .

[٨١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ـ ١٣٧٦هـ) تقديم محمد زهري النجار ، دار المدني ، ط (بدون) ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٢م ، جدة ـ السعودية .

[٨٢] ثقافة الطفل المسلم (رسالة ماجستير) ، لأحمد بن عبد العزيز الحليبي ، إشراف د/ محمد رافت سعيد ، دار الفضيلة ، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، الرياض ـ السعودية .

[٨٣] الجامع لأحكام القرآن،لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ)،دار التراث الإسلامي،ط٢، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م ، بيروت ـ لبنان .

[٨٤] جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ، للإمام المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ)تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م ، بيروت ـ لبنان .

[٨٥] جامع البيان في تأويل القرآن ،لأبي جعفر محي ابن جرير الطبري (٢٢٥ ـ ٣٢١ هـ) ـ ، دار الكتب العلمية ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، بيروت ، لبنان.

[٨٦] الجامع الصحيح ، وهو سُنن الترمذي لأبي عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩- ٢٩٧هـ)، بتحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان .

[٨٧] جامع العلوم والحكم للحافظ أبي عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي (٧٣٦-٧٩٥هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ، بيروت ـ لبنان .

[٨٨] جامع المسانيد والسُنن الهادي لأقوم سُنن ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي (٧٠٠-٧٧٤هـ) ، توثيق وتخريج د/ عبد المعطي أمين قلعجي ، دار الفكر ط (بدون) ،١٤١٥هـ-١٩٩٤م ، بيروت ـ لبنان .

[٨٩] الجامع المفهرس لأطراف الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي خرجها الألباني في كتبه المطبوعة ، وضعه : ابو أسامة سليم بن عيد الهلالي ، دار ابن الجوزي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م ، الدمام ــ السعودية .

[٩٠] جامع بيان العلم وفضله، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٢-٤٦٢هـ) ، دار الكتب العلمية ،ط(بدون) ، د. ت ، بيروت ـ لبنان .

[٩١] جمع الجوامع (الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير وزوائده)، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، تخريج وتعليق خالد عبد الفتاح شبل،دار الكتب العلمية، ط١،١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، بيروت لبنان .

[٩٢] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحكيم بن تيميه الحراني (٦٦١ـ ٧٢٨ هـ) ، تحقيق وتعليق الدكتور علي بن حسن بن ناصر ، وآخرون دار العاصمة ، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م الرياض ـ السعودية .

[٩٣] جوانب التربية الإسلامية الأساسية ،للدكتور مقداد يالجن، مطبعة (بدون) ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م الرياض ــ السعودية .

[٩٤] الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي المالكي (٧٨٦-٨٧٥هـ) ، تحقيق على معوض وعادل أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م ، بيروت ــ لبنان .

[٩٥] الجوهر المضية في طبقات الحنفية ، لمحي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد الحنفي (٦٩٦-٦٩٥ هـ) تحقيق د / عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة هجر ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤١٣هـ١٩٩٣م بيروت ـ لبنان .

[٩٦] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، لشمس الدين محمد عبد الرحمن السخاوي (٨٣١-٩٠٢ هـ) تحقيق إبراهيم باجس عبد الحميد، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م ، بيروت لبنان .

[٩٧] حاشية الجمل على الجلالين المسماه بالفتوحات الإلهية، للشيخ سليمان الجمل، دار إحياء التراث العربي ، ط (بدون) ، بيروت ـ لبنان .

[٩٨] حاشية العلامة الصاوي على الجلالين ، للشيخ أحمد الصاوي المالكي ، دار إحياء التراث العربي ، ط(بدون) ، د . ت، بيروت ـ لبنان .

[٩٩] حجة الله البالغة للشيخ شاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ) ، دار المعرفة ، ط(بدون) ، د .ت ، بيروت ـ لبنان .

[١٠٠] الحديث النبوي وعلم النفس للدكتور محمد عثمان بخاتي ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٨٩م ، القاهرة ـ مصر .

[١٠١] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية،ط١ ، ١٤٠٩هـ-١٩٩٨م ، بيروت ـ لبنان .

[١٠٢] دائرة معارف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدي ، دار المعرفة ، ط٣، د ت ، بيروت لبنان .

[١٠٣] دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية،للدكتور محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، ط (بدون) ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ، الكويت .

[١٠٤] دراسات في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ،ط٣، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ، بيروت ، لبنان .

[١٠٥] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر

العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، دار الجيل،ط(بدون)،د.ت، بيروت ـ لبنان .
[١٠٦] دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ) توثيق د/ عبد المعطي قلعجي،دار الريان التراث، ط١ ، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م ، القاهرة ـ مصر .
[١٠٧] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لمحمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي (ت ١٠٥٧هـ) درا الريان للتراث ، ط١ ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ، القاهرة ــ مصر .
[١٠٨] ديوان الإسلام، لشمس الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن الغزي (١٠٩٦-١١٦٧هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن،دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م ، بيروت ــ لبنان .
[١٠٩] الذريعة الى مكارم الشريعة، لأبي القاسم حسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٠، بيروت ـ لبنان .
[١١٠] الذيل على طبقات الحنابلة لأبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي (٧٣٦-٧٩٥هـ)،دار المعرفة، ط(بدون)، د .ت، بيروت ـ لبنان .
[١١١] الرحيق المختوم لصفي الرحمن عبد الله بن محمد المباركفوري (١٩٤٣م) دار السلام ، ط١،١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، الرياض ــ السعودية .
[١١٢] الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤ هـ) ، شرح أحمد محمد شاكر ، دار الفكر ، ط(بدون) د . ت ، بيروت ــ لبنان .
[١١٣] الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر،دار النفائس، ط٥، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، عمان ، الأردن .
[١١٤] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (١٢١٧ ــ ١٢٧٠ هـ)، دار الفكر، ط(بدون) ، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م ، بيروت ، لبنان .

[١١٥] الروض الأُنف في شرح سيرة ابن هشام ، للمحدث عبد الرحمن السهيلي ، (٥٠٨ـ ٥٨١هـ) ،تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل ، مكتبة ابن تيمية ، ط(بدون) ، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م ، القاهرة ، مصر .

[١١٦] زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن عليّ ابن محمد الجوزي القرشي البغدادي(٥٠٨ ـ ٥٩٧هـ) ، المكتب الإسلامي، ط٤ ، ١٤٠٧هـ ــ١٩٨٧م ، بيروت لبنان .

[١١٧] زاد المعاد في هدى خير العباد لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) ، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٢٧، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م ، بيروت ــ لبنان .

[١١٨] السؤال والجواب في آيات الكتاب ، للشيخ عطية محمد سالم ، مكتبة دار التراث ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧ م ، المدينة المنورة ، السعودية.

[١١٩] سلسلة الأحاديث الصحيحة ، لمحمد ناصر الدين الألباني ت(١٤٢١هـ) ، مكتبة المعارف ، ط (بدون)،١٤١٥هـ–١٩٩٥م ، الرياض ــ السعودية.

[١٢٠] سُنن أبي داود للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٠٢– ٢٧٥هـ) ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الحديث ، ط١ ، ١٣٨٨ – ١٩٦٩م ، بيروت ، لبنان .

[١٢١] سُنن ابن ماجة ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني(٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم:محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الريان للتراث ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، ط (بدون) ، د .ت ، بيروت ــ لبنان .

[١٢٢] السُنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، للأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ–١٩٩٣م ، بيروت ــ لبنان .

[١٢٣] سُنن الدار قطني ، للإمام على بن عمر الدارقطني (٣٠٦-٣٨٥هـ) ، تصحيح السيد عبد الله هاشم يماني المدني ، دار المحاسن للطباعة ، ط(بدون) ، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م ، القاهرة - مصر .

[١٢٤] سُنن الدارمي للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي (١٨١-٢٥٥هـ) ، تحقيق وتخريج فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ، دار الريان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ، القاهرة - لبنان .

[١٢٥] سنن النسائي للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخراساني (٢١٤-٢١٥-٣٠٣هـ) بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي،اعتنى به ورقمه عبد الفتاح أبو غدة،مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢ ، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت - لبنان .

[١٢٦] سير أعلام النبلاء ،لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٩، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م ، بيروت - لبنان .

[١٢٧] السيرة النبوية الصحية ،للدكتور أكرم ضياء العمري،مكتبة العلوم والحكم، ط٥ ، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م ، المدينة المنورة - السعودية .

[١٢٨] السيرة النبوية في ضوء القرآن والسُّنَّة ، للدكتور محمد أبو شهبه ، دار القلم ، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م ، بيروت - لبنان .

[١٢٩] السيرة النبوية، لابي الحسن الندوي (١٩١٤ هـ)، دار ابن كثير ، ط ١٢ ، ١٤١٠هـ-٢٠٠١ م ، دمشق ، سوريا.

[١٣٠] السيرة النبوية ، لابي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، ت (٢١٨هـ)، تعليق محمد عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط٤ ،١٤١٣ هـ-١٩٩٣م ، بيروت، لبنان.

[١٣١] شذارت الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه الأديب أبي عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ، د .ت ، بيروت لبنان .

[١٣٢] شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن ابن منصور الطبري اللالكائي (ت٤١٨هـ) ، تحقيق د/ أحمد الغامدي ، دار طيبة ، ط٣، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م ، الرياض ـ السعودية.

[١٣٣] شرح السُّنَّة للإمام المحدث حسين بن مسعود البغوي (٤٣٦ - ٥١٦ هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، بيروت ـ لبنان .

[١٣٤] شرح العقيدة الطحاوية للقاضي على بن على بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢ هـ)،تحقيق وتعليق وتخريج د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، والشيخ شعيب الأرناؤوط ،مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، بيروت ـ لبنان .

[١٣٥] شرح العقيدة الطحاوية للقاضي على بن على بن محمد بن أبي العز الحنفي (٧٣١- ٧٩٢هـ) ، حققها وراجعها جماعة من العلماء ، خرجها الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٩، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، بيروت ـ لبنان.

[١٣٦] شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد صالح بن عثيمين ، ت ١٤٢٢ هـ ، دار البصيرة ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، الإسكندرية ، مصر .

[١٣٧] شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ، دار الهجرة ، ط٢ ، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، الرياض ـ السعودية .

[١٣٨] شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، وضع وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، ط (بدون) ١٤١٠هـ-١٩٨١م ، بيروت - لبنان.

[١٣٩] شرح معاني الآثار ، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامه الطحاوي

الحنيفي (٢٢٩– ٣٢١ هـ) ، تحقيق محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق ، مراجعة د/ يوسف المرعشلي ، عالم الكتب ، ط١، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م ، بيروت ــ لبنان .

[١٤٠] الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، لأبي الفضل القاضي الفضيل بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦–٥٤٤هـ)،تحقيق على محمد البجادي ، دار الكتاب العربي ، ط(بدون) ، ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م ، بيروت ــ لبنان .

[١٤١] شمائل الرسول ﷺ ،لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٠١– ٧٧٤ هـ) تحقيق مصطفي عبد الواحد، دار المعرفة، د ت ، بيروت ـ لبنان .

[١٤٢] صحيح ابن خزيمة ، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن السلمي النيسابوري (٢٢٣–٣١١هـ)، تحقيق وتعليق د/محمد الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ،١٤٢٢هـ ـ ١٩٩٢م بيروت ـ لبنان .

[١٤٣] صحيح الأدب المفرد ، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١هـ) ، دار الصديق ، ط١ ،١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤ م ، الجبيل ـ السعودية .

[١٤٤] صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ١٩٤ – ٢٥٦ هـ ، ضبط وشرح :د/ مصطفى ديب البغا، دار القلم ، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، دمشق ــ سوريا .

[١٤٥] صحيح الجامع الصغير وزيادته " الفتح الكبير " ، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١هـ) إشراف زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨ م ، بيروت ــ لبنان .

[١٤٦] الصحيح المسند من أسباب النزول ، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي (ت١٤٢٢هـ) ، دار الأرقم ، ط٣ ، د. ت ، الكويت .

[١٤٧] صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب ، لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية (٦٩١– ٧٥١ هـ) بقلم سليم بن عيد الهلالي،دار ابن الجوزي،ط ، ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م ، الدمام ــ السعودية .

[١٤٨] صحيح سُنن أبي داود ، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١هـ) مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، بيروت ـ لبنان .

[١٤٩] صحيح سنن ابن ماجة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١هـ) مكتبة المعارف ، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، الرياض ـ السعودية .

[١٥٠] صحيح مسلم بمختصر النووى لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١هـ) ، اختصار وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م بيروت ـ لبنان.

[١٥١] صفة الصفوة لأبي الفرج عبد الرحمن بن على ابن الجوزي (٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ)، تحقيق محمود فاخوري تخريج د / محمد رواس قلعجي ، دار المعرفة ، ط٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، بيروت ـ لبنان .

[١٥٢] صفة صلاة النبي ﷺ ، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١هـ) ـ المكتب الإسلامي ، ط ١٤ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان .

[١٥٣] صفحات مشرقة من حياة الإمام محمد صالح العثيمين ، لحمود بن عبد الله المطر، مطبعة (بدون) ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م الرياض ـ السعودية .

[١٥٤] الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس ، لحسن العوايشة ، المكتبة الإسلامية ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، عمان ـ الأردن .

[١٥٥] الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١ – ٩٠٢ هـ) ، دار الجيل ، ط١ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، بيروت ـ لبنان .

[١٥٦] الضوء المنير على التفسير ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) ، جمع على المحمد الصالحي ، مؤسسة النور ، ط (بدون) د. ت ، الرياض ، السعودية .

[١٥٧] طبقات الحُفّاظ ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) ،

تحقيق د/ على محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط (بدون) ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، مصر .

[١٥٨] طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على السبكى (٧٢٧- ٧٧١هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى الحلبي، مكتبة ابن تيميه، ط١، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ، القاهرة ، مصر .

[١٥٩] طبقات الفقهاء الشافعيين ، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤ هـ) ، تحقيق وتعليق د/ أحمد عمر هاشم ، ود/ محمد زينهم محمد غرب، مكتبة الثقافة الدينية ، ط(بدون) ، ١٤١٣م ، بورسعيد - مصر .

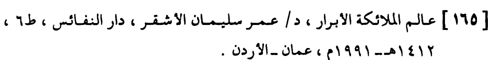
[١٦٠] الطبقات الكبرى ،لابن سعد أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (١٦٨- ٢٣٠هـ) دار بيروت ط (بدون) ، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م بيروت - لبنان.

[١٦١] طبقات المفسرين ، لأحمد بن محمد الأدنه وفي (من علماء القرن الحادي عشر) ، تحقيق سليمان بن الخزي ، مكتبة العلوم والحكم ، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م ، المدينة المنورة - السعودية .

[١٦٢] طبقات فقهاء اليمن ، لعمر بن على بن سمرة الجعدي (ألفه سنة ٥٨٦ هـ تحقيق فؤاد سيد، دار الكتب العلمية ، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، بيروت - لبنان .

[١٦٣] طبقات المفسرين ، للحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الدوادي ، (ت ٩٤٥هـ) ، تحقيق على محمد عمر ، دار الكتب ، ط١، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م ، مكتبة وهبة - عابدين - القاهرة .

[١٦٤] طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جمع وإعداد أحمد فائز ، مؤسسة الريان ، ط(بدون) ، ١٤١٠هـ- ١٩٨١م ، بيروت - لبنان .



[١٦٥] عالم الملائكة الأبرار ، د/ عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، ط٦ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ، عمان ـ الأردن .

[١٦٦] العبر في خبر من غبر ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ)، تحقيق وضبط أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، بيروت ـ لبنان .

[١٦٧] عبقرية محمد ﷺ ، لعباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤ م) ، دار الكتب، ط (بدون) ١٣٨٥ ، هـ ١٩٦٦م ، القاهرة ـ مصر .

[١٦٨] العبودية ، لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميه (ت ٧٢٨ هـ) ، تعليق على بن حسن الحلبى الأثري،دار الأصالة، ط١،١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، الزرقاء ـ الأردن .

[١٦٩] العقيدة في الله ، د/ عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، ط٨ ، ١٩٩١م عمّان ـ الأردن .

[١٧٠] علماء ومفكرون عرفتهم ، لمحمد المجذوب ، دار الشوّاف ، ط٤، ١٩٩٢م ـ الرياض ـ السعودية .

[١٧١] عمدة القاري شرح صحيح البخاري،لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العيني ، (ت٨٥٥هـ) دار الفكر ، ط (بدون)، د. ت ، بيروت ـ لبنان.

[١٧٢] عون المعبود شرح سُنن أبي داود ، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، مع شرح ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م بيروت ـ لبنان .

[١٧٣] غربال الزمان في وفيات الأعيان ، ليحيى بن حسين العامري الحرضي اليماني (٨١٦ ـ ٨٩٣ هـ) ، صححه وعلق علية محمد ناجي زغبى العمر ، إشراف القاضي عبد الرحمن بن يحي الإرياني، مطبعة زيد بن ثابت ، ط(بدون) ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، دمشق ـ سوريا .

[١٧٤] الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١- ٦٢٨ هـ) جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي وابنه محمد ، مكتبة المتنبى ،دار الرحمة للنشر والتوزيع ط ، (بدون) د. ت الدمام ـ السعودية .

[١٧٥] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (٧٧٣-٨٥٢هـ) ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ، ط(بدون) ، د .ت بيروت ـ لبنان .

[١٧٦] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للعلامة محمد ابن علي الشوكاني (١١٧٣- ١٢٥٠هـ) توثيق وتعليق : سعيد محمد اللحام ، المكتبة التجارية ط٢ ،١٤١٣هـ- ١٩٩٢م ، مكة ـ السعودية .

[١٧٧] فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ، لفضل الله الجيلاني الهندي ، دار المطبعة السلفية ، ط (بدون) ، ١٤٠٧هـ ـ مصر .

[١٧٨] فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم ، ط٤ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، دمشق.

[١٧٩] فقه السيرة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، ط٨ ، ١٩٧٠م ، بيروت ـ لبنان .

[١٨٠] الفوائد لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية(٦٩١ ـ ٧٥١ هـ)، تحقيق محمد عثمان الخشت،دار الكتاب العربي،ط٤،١٤١٠هـ-١٩٩٠ م، بيروت، لبنان.

[١٨١] فوات الوفيات والذيل عليها ، لمحمود بن شاكر الكتبي (٦٨٦ - ٧٦٤ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ط (بدون)، د.ت، بيروت لبنان.

[١٨٢] في ظلال القرآن ، لسيد قطب إبراهيم ، (١٩٠٦-١٩٦٦م)، دار الشروق، ط٢٤، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، بيروت، لبنان.

[١٨٣] القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) ، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان.

[١٨٤] القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، لعبد الكريم الخطيب، مطبعة السُّنَّة المحمدية، ط١ ، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، القاهرة، مصر.
[١٨٥] القضاء والقدر، للدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، مكتبة الفلاح، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بيروت، لبنان.
[١٨٦] قطف الأزهار في كشف الأسرار، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد الأسيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) ، تحقيق ودراسة د/ أحمد بن محمد الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
[١٨٧] قواعد الأحكام في مطالب الأنام ، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت٦٦٠هـ) ،مؤسسة الرسالة، ط (بدون) ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م ، بيروت، لبنان.
[١٨٨] القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، لعبد المجيد بن سعود ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد ٦٧، رمضان ١٤١٩هـ، وزارة الشئون الإسلامية، قطر.
[١٨٩] كتاب الأسماء والصفات، لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) ، تحقيق عبد الله محمد الحاشدي، تقديم الشيخ مقبل الوادعي، مكتبة السوادي، ط١،١٤١٣هـ-١٩٩٣م، جدة، السعودية.
[١٩٠] كتاب الدعاء ، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ) ، دارسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.
[١٩١] كتاب السُّنَّة ، للحافظ أبي بكر عمرو بن عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت٢٨٧هـ) ، ومعه ظلال الجنة في تخريج السُّنَّة ، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت، لبنان.
[١٩٢]كتاب السُنن الكبرى،للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، وفي ذيله الجوهر النقي،لعلاء الدين المارديني (ت٧٤٥هـ) ،

إعداد د/ يوسف المرعشلي، دار المعرفة ط (بدون)، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م. بيروت ، لبنان .

[١٩٣] كتاب السير والمغازي، سيرة ابن إسحاق المسماة "كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي" لمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (٥٨-١٥١هـ) ، تحقيق د/ سهيل زكار، دار الفكر، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، بيروت، لبنان.

[١٩٤] كتاب القضاء والقدر ، للحافظ أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق محمد بن عبد الله عامر، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، الرياض، السعودية.

[١٩٥] كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ) ، مؤسسة الحلبي وشركاه، ط(بدون)، د.ت، القاهرة، مصر.

[١٩٦] كتاب النبوات ، للعلامة تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) ، تحقيق د/ عبد العزيز صالح الطويان، أضواء السلف، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، الرياض، السعودية.

[١٩٧] كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس ، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت١١٦٢هـ) ، إشراف وتصحيح أحمد القلاشى، دار التراث الإسلامي، ط (بدون)، د.ت، القاهرة، مصر.

[١٩٨] الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (١٠٩٤هـ) ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

[١٩٩] كنز العمال في سُنن الأقوال والأفعال ، لعلاء الدين على المتقي الهندي (٩٧٥هـ) ، ضبطه وفسّر غريبه الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، ط (بدون)، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

[٢٠٠] لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار صادر، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان .
[٢٠١] لمحات في علوم القرآن ، للدكتور محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي ، ط٣، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بيروت، لبنان .
[٢٠٢] لوامع الأنوار، للشيخ محمد بن أحمد السفاريني (١١١٤-١١٨٨هـ) ، تعليق الشيخ عبد الرحمن ابابطين، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان .
[٢٠٣] مباحث في علوم القرآن ، للشيخ مناع القطان، مؤسسة الرسالة، ط١٩، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٣م، بيروت، لبنان .
[٢٠٤] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٥٣-٨٠٧هـ) ، بتحرير العراقي وابن حجر، دار الريان للتراث، ط (بدون)، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، القاهرة، مصر .
[٢٠٥] مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان،دار الوطن للنشر، ط١، ١٤١٢هـ، الرياض، السعودية .
[٢٠٦] مجموعة الرسائل المنيرية ، لمحمد منير عبده أغا الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية، مكتبة طيبة، ط (بدون) ، ١٣٤٣هـ، الرياض ، السعودية .
[٢٠٧] مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، دار القلم، ط (بدون)، د.ت، بيروت، لبنان .
[٢٠٨] محمد ﷺ ، من نبعته إلى بعثته ، لمحمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (بدون)، ١٩٨٣م، السعودية .
[٢٠٩] مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (توفي بعد عام ٦٦٦هـ) ، المكتبة العصرية، ط٣، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، بيروت، لبنان .
[٢١٠] المختار من المنار، اختصار عبد العزيز محمد آل الشيخ، مطبعة (بدون)، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

[٢١١] مختصر تفسير القرطبي ، للشيخ محمد كريم راجح ، دار الكتاب العربي ، ط (بدون)، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، بيروت، لبنان.

[٢١٢] مدارج السالكين ، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١ هـ) ، مراجعة لجنة من العلماء ، دار الحديث ، ط (بدون) د.ت ، القاهرة، مصر، القاهرة.

[٢١٣] مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، لعبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، ط (بدون) ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت، لبنان.

[٢١٤] المدخل لدراسة القرآن الكريم ، للدكتور/ محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السُّنَّة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، القاهرة، مصر.

[٢١٥] مرآة الإسلام،لطه حسين، دار المعارف، ط (بدون) ١٩٦٦م ،القاهرة ، مصر.

[٢١٦] المستدرك على الصحيحين بتلخيص الذهبي، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١-٤٠٥هـ)، دار المعرفة ، ط (بدون)، د .ت، بيروت، لبنان.

[٢١٧] مسند أبي يعلى الموصلي ، للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠-٣٠٧هـ) ، تحقيق وتخريج حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان.

[٢١٨] مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) ، إشراف د.سمير طه المجذوب، إعداد محمد سليم إبراهيم وآخرون،المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ، بيروت، لبنان.

[٢١٩] مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) ، شرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط (بدون) ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، مصر.

[٢٢٠] مسند الشهاب ، لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، بيروت، لبنان.

[٢٢١] مشكاة المصابيح ، للشيخ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (توفى بعد عام ٧٣٧هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، بيروت، لبنان.

[٢٢٢] مشكل الآثار ، للحافظ أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأزدي المصري الحنفي (ت٣٢١هـ) ، دار صادر، ط (بدون)، د. ت، بيروت، لبنان.

[٢٢٣] مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة ، للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الكناني البوصيري (ت٨٤٠هـ)، دراسة وتقديم كمال يوسف الحوت، دار الجنان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت، لبنان.

[٢٢٤] المصنف في الأحاديث والآثار، للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، (ت٢٣٥هـ) ، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط (بدون) د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٢٥] المصنف، للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ - ٢١١هـ) تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، من منشورات المجلس العلمي، ط (بدون) د.ت، الهند.

[٢٢٦] المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية،لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) ، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس، وأبي تميم ياسر بن إبراهيم ، دار الوطن، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الرياض، السعودية.

[٢٢٧] مع قصص السابقين في القرآن ، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، دمشق، سوريا.

[٢٢٨] معارج القبول ، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (١٣٤٢-١٣٧٧هـ) ، ضبط عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، الدمام، السعودية.

[٢٢٩] معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ، (رسالة دكتوراه) للشيخ الدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي، دارالمجتمع، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، جدة، السعودية.

[٢٣٠] معالم في السلوك وتزكية النفوس، عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف، دار الوطن للنشر، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، الرياض، السعودية.

[٢٣١] معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ) ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، بيروت، لبنان.

[٢٣٢] معجم الأصوليين ، للدكتور محمد مظهر بقا، مركز بحوث الدراسات الإسلامية في مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية ، ط (بدون) ، ١٤١٤هـ السعودية.

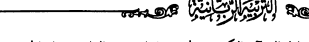
[٢٣٣] معجم البلدان ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ) ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الباز، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، مكة، السعودية.

[٢٣٤] المعجم الكبير ، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠هـ) ، تخريج وتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء، ط٢، د.ت، الموصل، العراق.

[٢٣٥] معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة، اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

[٢٣٦] معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ليوسف أليان سركيس، مكتبة الثقافة الدينية، ط (بدون)، د.ت ، القاهرة، مصر.

[٢٣٧] المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، لمجموعة من المستشرقين، مكتبة بريل في مدينة ليدن، ط (بدون) د.ت.



[٢٣٨] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م، القاهرة، مصر.

[٢٣٩] المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم ، لمحمد بسام رشدي الزيني، إشراف: محمد عدنان سالم، دار الفكر المعاصر، طبعة ١٤١٦هـ ، بيروت، لبنان.

[٢٤٠] المعجم الوسيط، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، إشراف حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، دار إحياء التراث العربي، ط٢، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٤١] معجم مقاييس اللغة ،لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الجيل،ط (بدون)، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بيروت ، لبنان.

[٢٤٢] معركة النبوة مع المشركين ، لإبراهيم زيد الكيلاني، مكتبة الأقصى، ط١، ١٤١٠هـ، عمان ، الأردن.

[٢٤٣] المُغني ، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي (٥٤١-٦٢٠هـ) ، تحقيق د/عبد الله عبد المحسن التركي، ودكتور/ عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة هجر، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، القاهرة، مصر.

[٢٤٤] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تقديم وتعليق: على بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، مراجعة الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، الخبر، السعودية.

[٢٤٥] المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، تحقيق وضبط محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، ط (بدون) د. ت، بيروت، لبنان.

[٢٤٦] المقتطف من عيون التفاسير ، للعلامة مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، دار السلام، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، القاهرة، مصر.

[٢٤٧] مقدمة ابن خلدون،لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون(٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ)، تحقيق عليّ عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة، مصر.

[٢٤٨] مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح ، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، سلسلة كتب الأمة ، رقم٢٩، ط١، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بقطر.

[٢٤٩] مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت١٣٦٧هـ) ، دار الفكر ، ط (بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٥٠] منهج الإسلام في تزكية النفوس ، للدكتور أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، جدة، السعودية.

[٢٥١] منهج التربية الإسلامية ، لمحمد قطب،دار الشروق، ط٩، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، بيروت، لبنان.

[٢٥٢] منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه (رسالة ماجستير) ، لعبد الرحمن بن عبد الجبار هوساوى، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بيروت، لبنان.

[٢٥٣] منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، مؤسسة الرسالة، ط (بدون) ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، بيروت، لبنان.

[٢٥٤] منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، للطيب برغوث،إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، فرجينا ، أمريكا، (سلسلة الرسائل الجامعية)رقم ١٧.

[٢٥٥] موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان ، للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥-٨٠٧هـ) ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٥٦] الموافقات في أصول الشريعة ، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ) ، شرح وتخريج الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، بيروت، لبنان.

[٢٥٧] موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف لأي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٥٨] موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ، للعلامة محمد علي التهانوي (المولود في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وثبت أنه كان حياً حتى عام ١١٥٨هـ) ، تقديم د/ رفيق العجم، تحقيق د/ علي دحرج، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، بيروت، لبنان.

[٢٥٩] موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصين، إشراف صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن محمد ملوح، دار الوسيلة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، جدة، السعودية.

[٢٦٠] ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) ، تحقيق على محمد البجادي،دار المعرفة، ط (بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٦١] النبوة والأنبياء ، للشيخ محمد على الصابوني، دار السلام، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، القاهرة، مصر.

[٢٦٢] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٧٨٤هـ) ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ط (بدون)، د. ت، وزارة الثقافة، مصر.

[٢٦٣] نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ) ، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، بيروت، لبنان.

[٢٦٤] نصب الراية لأحاديث الهداية ، لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (ت٧٦٢هـ) مع حاشية بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، مكتبة الرياض الحديثة، ط٢، د.ت، السعودية.

[٢٦٥] النظرية التربوية ، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، دار التراث، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، المدينة المنورة، السعودية.

[٢٦٦] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، القاهرة، مصر.

[٢٦٧] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق يوسف البقاعي،دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، بيروت، لبنان.

[٢٦٨] النكت والعيون تفسير الماوردي ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (٣٦٤-٤٥٠هـ) ، مراجعة وتعليق السيد عبد المقصود ابن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٦٩] النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير (٥٤٤-٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي، دار الفكر، ط (بدون) ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، بيروت، لبنان.

[٢٧٠] النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، للدكتور محمد رجب البيومي، دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بيروت، لبنان.

[٢٧١] هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادي ، دار الكتب العلمية، ط (بدون)،١٤١٣هـ-١٩٩٢م، بيروت، لبنان.

[٢٧٢]هذا الدين، لسيد قطب إبراهيم (١٩٠٦-١٩٦٦م)،دارالشروق،ط (بدون)، د.ت، بيروت، لبنان.

[٢٧٣] الوافي بالوفيات ،لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م بيروت، لبنان.

[٢٧٤] وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ط (بدون) د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٢٧٥] اليوم الآخر (الجنة والنار)، د/ عمر سليمان الاشقر، دار النفائس، ط٥، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، عمان ، الأردن.

[٢٧٦] اليوم الآخر (القيامة الصغرى) ، د/ عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عمان ، الأردن.

[٢٧٧] اليوم الآخر (القيامة الكبرى)، د/ عمر سليمان الاشقر، دار النفائس، ط٥، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، عمان ، الأردن.

ثانياً: المجلات:

[٢٧٨] مجلة البيان ، عدد ١٦٠، ذو الحجة ١٤٢١هـ-مارس٢٠٠١م، لندن، بريطانيا.

■ وهناك مراجع أخرى ذُكرت في البحث.

فهرس

رقم الصفحة

